NIETZSCHE

فريديك نيتشه

انسان مفرط في انسانيته

كتاب العقول الحرة

I



ترجمة: محمد الناجي

أفريقيا الشرق

انسان مفرط
في انسانيته
كتاب العقول الحرة

HUMAIN TROP HUMAIN
Collection Folio Essais
Editions Gallimard 1988

المؤلف ـ نيتشه

ترجمة ـ **محمد الناجي**

عنوان الكتاب

انسان مفرط في انسانيته

ج I

رقم الإيداع القانوني: 97/1210
ردمك: ISBN. 9981-25-076-7

أفريقيا الشرق ـ المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف: 259504 022 ـ 259813 022 ـ فاكس: 440080 022

أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان

ص.ب. 3176 ـ 11

نيتشه

انسان مفرط في انسانيته

كتاب العقول الحرة

الجزء الأول

أفريقيا الشرق

إهـــــداء

إلى زوجتي ... وسائر الأحبة

بمناسبة الذكرى المائوية لوفاة فولتير، 30 ماي 1778م.

لم يكن هذا الـكتاب، هذا الحوار الداخلي الـذي رأى النور أثناء إقامتي الـشتوية في Sorrente(1877-1876)، لينشـر الان لولا أن اقتراب ·30 ماي1778 أثار لدي رغبة قوية في أن أقدم تحية شخصية، في الوقت المناسب، لواحد من أكبر محرري العقل.

بمثـــابـــة تقديـــم

«لقد قمت، لبعض الـوقت، بتفحص مختلف الأعمال التي يتـعاطاها الناس في هذا العـالم، وحاولـت أن أختـار أفضلـها. لكـن يسـتحيـل علي هـنا أن آسـرد الأفكار الـتي خامرتني آنذاك : يكفيني أن أقول أنه لم يبد لي شيء أفضل من الإتمام الدقيق لما عزمت عليـه، أي استغلال حياتـي كلها لتـطوير عقلـي وتقصي جذور الحقـيقة مثلـما حددت ذلك لنفسي، لأن الثمار التي ذقـتها وأنا في سبيل ذلك من الحـلاوة بمكان بحيث أرى أنه لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يفوقها لذة ونقاوة؛ منذ أن دخلت في هذا النوع من التأمل وجدت كل يوم يجعلني أكتشف شيئا جديدا كانت له بعض الأهمية ولكنه لم يكن مـعروفا في الـغالب.آنداك صارت روحـي مفعمـة بفرح لا يقـدر أي شيء آخر أن يدخله عليها. »

مترجما عن اللاتينية لديكارت.

مقـدمــة

-1-

دائما أندهش بشكل كبير حين يبلغني أن أعمالي كلها فيها شيء مشترك ومميز، منذ ميلاد التـراجيديا حتى آخر مـانشرت، مقدمة لفلسفةالمستقبـل : لقد قيل لي أنهـا كلها تحوي بحيـرات وأحابيل لاصطياد الطـيور المتغافلة، وشبـه تحريض، خفي لكنه مـستمر، على قلب التـقديرات المعتادة والعادات المقدرة. ثم ماذا؟ ألـن يكون كل شيء سوى... إنسـان، مفرط في إنـسانيـته ؟ بهذه الـتنهـدة سيخرج المـرء من أعمـالي، بل وبنـوع من الرعب والريبة بخـصوص الأخلاق، بل قد يتم إغراؤه وتشجيعه بشـكل مقبول على أن يدافع، ولو لمرة واحدة، عن أسوأ الأشياء: ومايدرينا أن هذه الأشياء ليست ضحية افتراء كبيـر؟ لقد وصفـوا أعمالي بمدرسـة الشك، بل أكثـر من ذلك، بمدرسـة الإزدراء، كما وصفوها، لحسن الحظ، بمدرسة الشجاعة، بل بمدرسة الجسارة. في الحقيقة، إنني أعتقد أنا أيـضا أنه لاأحد قـد نظر إلـى العالـم بشك في عـمق شكـي، وليس فـقط كمحـامي الشيطان، عنـد الإقتضاء، بل كذلك، وحتى أتكـلم مثل الفقهاء، كعدو الإلـه ومتهمه. ومن حزر ولو جزء من عواقب كل شك عميق، ولو شيئا من صقيع العزلة وقلقها اللذين يحـكم بهـما كل اخـتلاف في الـرؤية علـى صاحبـه، فإنه سيـفهـم كذلك أنـني غالـبا مابحـثت عن ملجأ فـي أي مكان كي أستريـح من نفسي، كـي أنسى نفسي لحـظة من الزمن ...ملجأ في الإجلال، في الكراهية، في لعبة علمية، في نزق، في حماقة، في أي شيء، وسيـفهم لماذا كان لـزاما علي، حين لاأعثـر على ما أحتـاج إليه، أن أحصل عـليه بالقوة والحيـلة، أن أصيره كما أرغب من خـلال التزييف، من خلال الشـعر (وهل فعل الشعراء يوما غير ذلك؟ وما تكون الفائدة إذن من فن العالم كله ؟). الشيء الذي كنت في حاجة مـلحة إليه كي أباشـر علاج نفسي وإشفاءهـا هو الإيمان بأن كياني والـطريقة التي أنظر بـها إلى العالم ليسـا دون نظير، هو تجانس في الـنظرة والرغبة ومساواة فـيهما

استشعرها بشكل سحري. هو استراحة في ثقة الصداقة، هو عمى اثنين دون ارتياب ولامساءلة، هو استمتاع بكل ماهو مهم،على السطح وقريب من كل ماله لون الظاهر وجلده وميزته. قد يعاتبني الناس على عدد من «الحيل»، على قدر من التزييف الدقيق : مثلا على ضربي الذكر صفحا، عمدا وعن علم، عن الإرادة العمياء للأخلاق لدى شوبنهاور في مرحلة كنت أفهم فيها الأخلاق جيدا، وكذلك على كوني أخطأت بخصوص الرومانسية الزمنة لدى فاغنر زاعما أنها كانت بداية لانهاية، وكذلك بخصوص الإغريق،وبخصوص الألمان ومستقبلهم... وربما تكون هناك لائحة طويلة من وكذلك ؟... ولو افترضنا أن كل ذلك صحيح وأن من يقدمه ضدي على حق، فماذا تعرفون أنتم، ماعساكم أن تعرفوا عن قدر الحيلة الذي تضعه غريزة البقاء في مثل توهمات المرء تلك بشأن ذاته،عن قدر الحكمة والتيقظ الكبير الذي تحويه، - وأي قدر من التزييف لازال يلزمني كي استمر في السماح لنفسي بأن أكون صادقا مع نفسي؟... كفى، إني لازلت حيا، والحياة، على الأقل، لم تبتكرها الأخلاق: إنها تريد الوهم، وبالوهم تحيا... لكن ها أنذا، أليس كذلك؟ أعود لأفعل ما فعلته دائما، بصفتي لاأخلاقيا وصيادا سادرا - لأتكلم ضد الأخلاق، خارج الأخلاق «ماوراء خير وشر».

- 2 -

هكذا إذن ابتكرت، يوم احتجت إليها،تلك «العقول الحرة» التي أهدي إليها هذا الكتاب الذي هو كتاب تشجيع وتثبيط همة، والذي عنوانه إنساني، مفرط في إنسانيته : هذه «العقول الحرة»غير موجودة، وما وجدت قط، - لكنني، كما أسلفت،كنت في حاجة إلى رفقتها كي احتفظ بمزاجي الرائق وسط الأمزجة العكرة (المرض، العزلة، المنفى،الشظف،البطالة) : إنهم عرابوا الأشباح الطيبون الذين أضحك وأثرثر معهم حين أرغب في الضحك و الثرثرة،وإذا ما صاروا مزعجين أطردهم، - تعويضا عن الأصدقاء الذين أفتقدهم. إنني آخر من يشك في كون هذه العقول الحرة ستوجد يوما؛ في كون أوربا ستضم بين أبنائها في المستقبل بعضا من هؤلاء الخليين المرحين والجسورين في هيأة بشر تدب فيهم الحياة وليس فقط، كما في حالتي أنا،على شكل أشباح واستيهامات تخضع لرغبة إنسان متوحد. إنني ارهماتين، رويدا رويدا، بشكل استباقي، رويدا، وربما أكون قد فعلت شيئا لأعجل مجيئهم حين أصف البرج الذي ارى أنه برج ولادتهم و الطرق التي أرى أن منها سيأتون؟

- 3 -

يمكننا أن نفترض أن أعظم حدث عرفه العقل الذي سيُدعى يوما لأن يَبْلُغ بنموذج «العقل الحر» إلى نقطة الكمال من حيث النضج والغضاضة كان ذلك التحرر الكبير الذي لم يكن قبله سوى عقل مستعبد، عقل مقيد في ركنه وإلى عموده إلى الأبد على مايبدو. أية السلاسل هي أقوى؟ أية الروابط يكاد فصمها يكون مستحيلا؟ إنها، لدى أفراد النخبة والطبقة الرفيعة، هي الواجبات : ذلك الإحترام الذي يختص به الشباب، ذلك المخزون من الرقة الوجلة تجاه كل القيم القديمة والمبجلة، ذلك الإمتنان للتربة التي غذتهم، لليد التي أرشدتهم، للمعبد الذي تعلموا فيه العبادة ، – إن ما سيربط هؤلاء الشباب براوبط متينة، ماسيجندهم على الدوام، هي أهم لحظات حياتهم.إن ارتباطهم بهذا الشكل يجعل التحرر الكبير، بالنسبة لهم، يحدث فجأة، مثل زلزال : الروح الشابة تتم زعزعتها، يُفك ارتباطها، يتم انتزاعها فجأة، – هي نفسها لاتعرف ماذا يجري. إن ما يحكمها ويخضعها، مثلما تخضع لنظام ما، هي الحيوية والإندفاع، هي الإرادة، هي الرغبة في الذهاب إلى أي مكان، بأي ثمن، هو فضول يلهب كل حواسها، فضول محتد وخطير، رغبة في عالم بكر. «أفضل الموت على الحياة هنا» يقول الصوت الملح والمغوي : وهذا ال «هنا»، هذا «مَسْكَني» هو ما أحبته حتى ذلك الحين!الرعب والشك اللذان تحملتهما من أجل ما كانت تحبه، شعاع من ازدراء لما كان يعال أنه «واجب» ها، حاجة متمردة، استبدادية، وبركانية لاقتفاء سبل الغريب والمجهول، للتعرض للبرد، لإزالة السكر، للتعرض للصقيع،بُغْض الحب، وربما نظرة ويد مدَنِّستان و موجَّهَتان إلى الوراء، هناك حيث كان يكمن حتى ذلك الحين ماتحبه وتبجله، شعور بخجل ممض ربما مما قد قامت به حديثا، وفي الوقت نفسه ابتهاج لكونها قد قامت به، على من ؟ انتصار عرضةللشبهة، للأسئلة، للغموض، لكنه يكون الإنتصار الأول في نهاية المطاف : – تلك هي الأمراض والآلام التي لازمت تاريخ التحرر الكبير. إن ذلك الإنفجار الأول لقوة الاستقلال ولقوة الرغبة فيه، الكامن في تحديد المرء لمن يكون ولقيمه الخاصة، هو في ذات الوقت مرض قادر على تدمير الإنسان مثلما هي قادرة على ذلك إرادة الإرادة الحرة :وكم من المرض نتبينه في ركام التجارب والخصوصيات التي بواسطتها يحاول الإنسان المحرَّر والمتحرر أن يبرهن على سيطرته على الأشياء! قسوته تتجول راصدة بشره لايمكن إشباعه، وكبرياؤه لابد أن يجعل فريسته تكفر عن تهييجه الخطر، إنه يمزق الشيء الذي يجْذبه. إنه، بضحكة ساخرة،يقلب ما يجده محجوبا وقد تمت مراعاته ببعض الحياء : إنه يَجرِبُ الهيأة التي

تكون عليهـا الأشياء حين يتم قلبها. وإن كـان الآن يوافق على ما كانت له سمـعة سيئة من قبـل؛... وإن كان يدور كمـجرب فضولي حـول الفاكهةالمحـرمة أشد التـحريم،فإن ذلك مجرد استبداد ومتعة استبداد. في أفق جولات صيده وتيهـه - لأنه قلق وتائه في الطريق كما في البيداء - تنتصب علامـة استفهام فضول يزداد خطورة. «ألايمكن قلب كل القـيم؟ والخير ألايكـون هو الشر؟ والإله مـجرد ابتكـار، مجرد خدعة شـيطان؟ ألا يحـتمل أن يـكون كـل شيءخطـأ؟ وإن كان قد تم تـضلـيلنـا، ألا يكون نـحن كـذلك مُضلِّلين؟ ألسنا مرغمين على أن نكون كذلك؟ » - تلك هي الأفكار التي تقوده وتغويه دائما أبـعد، دائما على انـفراد. الوحدة تحاصـره وتحتويه، مهـددة، خانقة، مضايـقة إياه أكثر فأكثر، إلهة مرعبة وإلهة قاسية الرغبة - لكن من يعرف اليوم مامعنى الوحدة ؟...

- 4 -

لا يزال الطريق طويلا مـن هذه العزلة المرضية،من بيداء سنـوات تحسس الطريق، إلى اليقين الكـبير، إلى الصحة الريـانة التي يحلو لهـا اللجوء إلى المرض ذاته، وسيـلة المعرفة وصنارتـها، إلى حرية العـقل الناضجة، الـتي هي في ذات الوقـت سيطرة على الـنفس وتأديـب للقلـب، والتي تفـسح المجال أمـام طرق للتـفكيـر متعددة ومـتعارضة إلـى هذه الشسـاعة الباطنيـة التي، وقد أتخـمت بالوفرة وضجـرت منها، تستبعد خطر أن يـهيم العقـل بطرقهـا ليتيـه فيها ويـنام في ركـن مـا بعد إنتـشائه، إلى ذلـك الفيض مـن القوى الحيوية التـي هي عربون الشفاء التام، عربـون إعادة التربية والبرء، هذا الـفيض الذي هو دليل عـلى الصحـة الريانة والذي يمـنح العقـل الحر الامتيـاز الخطر بأن يحـيا على سـبيل التجربة وأن يعـانق المغامرة :امتياز العقل الحـر البارع في فنه! قد تكون المسـافة الفاصلة بينهما سنوات طـويلة من النقاهة، سنوات كلها تحولات متـعددة الألوان، افتتان معذب روضته وتمسـك بزمامه إرادة صحة صـلبة غالبا مـا تجازف بارتداء ثوب الصـحة ولباس تَنَكرها. إنها حـالة وسيطة يتذكرها الإنسـان الذي يكون هذا مصيره بتـأثر بعد ذلك : ثروته الخـاصة سعادة شمـسية صفاؤهـا لطيف وبـاهت، إحساس بأنـه يمتلك من الـطير حريته، نَظْرَته الـواسعة المدى، ارتفاعه، شيئا يـشبه مزيجا اجتمع فـيه الفضول والازدراء الرقيق. «عقل حر»... هذا المصطلح البارد يكون له مفعول جيد في مثل هذه الحالة، إنه يكاد يـدفيء. إنـا نـحيا، وقد تحـررنا من قيـود الحب والبغـض، دون أن نؤكد، دون أن نجحد، قريبين طوعا، بـعيدين طوعا، أو قلْ منسحبين، متجنبـين، محاولين أن نطير، وها قد ابتعدنا، قد عاودنـا الطيران. قد سئمنا مثلما يسأم كل مـن رأى أسفل منه ركاما من التنوع، - ونـحن منذ الآن عكس أولئـك القلقين من أجل أشـياء لاتعنيهم. إن مـا يعني العقل الحر في الواقع الآن إنما هي أشياء - وكم من أشياء! - لـم تعد تقلقه...

-5-

خطوة أخرى على طريق البرء ويقتربُ العقل الحر من الحياة ببطء، بما يشبه الجموح، بما يشبه الحذر. يعود الجو حوله حارا، شبه شاحب، يصير التأثر والإئتناس عميقين، تهب عليه كل رياح الإنفراج. يشعر وكَأن عينيه بدأتا لتوهما تتفتحان على الأشياء القريبة منه. يصمت من فرط الذهول : أين كان إذن؟ كم تبدو له هذه الأشياء القريبة والقريبة جداً متغيرة! أي مُخْمَل سحر خالطاهما في غضون ذلك! يلقي نظرة امتنان إلى الوراء، – امتنان لجولاته، لصلابته ولنفوره من نفسه، لتحليقاته كالطائر ولنظراته كالنسر في برد الأعالي. كم هو جميل ألا يكون قد لازم «مسكنه»، قد لازم «نفسه» كداري (Casanier) خدرته رفاهيته! لقد كان خارج نفسه، لا ريب في ذلك! إنها أول مرة يرى فيهانفسه بنفسه الأن، وكم يفاجئه ذلك ! كم قشعريرة سرت فيه كان حتى ذلك الحين يجهلها! يالها من سعادة حتى في التعب، في مرض تم الشفاء منه، في رداع المتماثل للشفاء. كم يلذ له أن يعاني دون أن يبرح مكانه، أن يغزل الصبر، أن يتمدد في الشمس! من مثله يعرف كيف يتذوق سعادة الشتاء وبقع الشمس على الجدار! إن هؤلاء الناقهين، هاته السحليات التي عادت نصف عودة إلى الحياة، هم الحيوانات الأكثر اعترافا بالجميل، الأكثر تواضعا كذلك : هناك من بينهم من لا يدع يوما يمر دون أن يعلق نشيدا في هدب ثوبه السابغ. ولكي نتكلم بجدية : إنه لعلاج جذري لكل تشاؤم (والتشاؤم سرطان أولئك المثاليين الشيوخ المستكبرين، كما نعلم) طريقة عقولنا الحرة في الإصابة بالمرض؛ثم بقائهم مرضى وقتا طويلا؛ ثم استغراقهم وقتا أطول ، في استعادة صحتهم، أعني صحة «أفضل». هناك حكمة حيوية[ضرورية للحياة] في ألايتجرع المرء الصحة إلا بمقادير صغيرة لمدة طويلة.

-6-

في تلك اللحظة، وبفضل الأنوار المفاجئة لصحة ماتزال متفجرة وغير ثابتة، قد يحدث أن يشرع العقل الحر، الذي يزداد تحررا، في رؤية لغز ذلك التحرر الكبير ينكشف، ذلك اللغز الذي ظل ينتظر في ذاكرته غامضا، إشكاليا وشبه متعذر المس. إذا كان، ولمدة طويلة، قلما تجرأ على التساؤل : «لماذا أنا منفرد؟ وحيد؟ متخل عن كل ما كنت أقدسه؟ متخل عن التقديس ذاته؟ لماذا هذه القسوة، هذا الشك وهذا البغض لكل فضائلي؟» فإنه الآن يتجرأ ويطرح السؤال بوضوح، بل يخطر على باله جواب ما. «كان عليك أن تمسك بزمام نفسك، وبزمام فضائلك كذلك. في السابق كانت هي التي تتحكم فيك؛ لكنه لم يعد مَسْمُوحاً لَها سوى بأن تكون أدوات في يدك بجانب أدوات

أخرى . كان عليك أن تتحكم في دليلك ونفيك.وأن تتعلم فن تعليقهما وإنزالهما حسب مراميك العليا. كان عليك أن تدرك منظور كل حكم قيمة – كيف تدرك ميلان وتحرف الآفاق وغائيتها الظاهرة وكل ما يمكن أن يتعلق بالمنظور. كما كان عليك أن تتتعلم كيف تدرك حظك من فقد الحس بخصوص القيم المتعارضة وبخصوص كل الخسارة الفكرية التي يكتفي بها الدليل والنفي كلاهما في كل مرة. كان عليك أن تتعلم كيف تتصور قدر الظلم اللازم الموجود دائما في الدليل والنفي، ذلك الظلم الملازم للحياة هو الآخر مشروط بالمنظور وبظلمه. كان عليك بالخصوص أن ترى بأم عينيك مكمن الظلم الأكبر : هناك حيث لم تبلغ الحياة سوى مرحلتها الأدنى، الأكثر وضاعة، الأشد فقرا، الأكثربدائية، دون أن تستطيع مع ذلك تفادي اعتبار نفسها غاية ومعيارا لكل الأشياء، ولاتفادي المرور آنداك، باسم بقائها، مداجية، وضيعة،وبلا كلل، إلى تفتيت كل ما يتجاوزها علوا وكبرا وغنى ووضعه موضع سؤال، كان عليك أن ترى بأم عينيك قضية التراتبية، أن ترى قوة المنظور وقانونه ومداه تتنامى جميعا في ذات الوقت الذي يتنامى فيه علوه، كان عليك...»، يكفي، فالعقل الحر قد صار يعرف أي أمر أطاع، كما يعرف ماهي قوته الآن وماهي – ابتداء من الآن فقط – حقوقه...

- 7 -

ذلك هو ما يجيب به العقل الحر نفسه بخصوص لغز تحرره، وبذلك ينتهي، بتعميمه لحالته، بالحسم في أمر تجربته للمعيش. «ينبغي أن يحدث ما حدث لي، يقول لنفسه، لكل إنسان تريد رسالة ما أن تتحقق فيه و «تولد» . في جميع أحداث حياته، وفي كل واحد منها، ستكون قوة هذه الرسالة ولزومها هما اللذان يقرران،كحمل لاشعوري، وذلك زمنا طويلا قبل أن يكون هو قد تنبه لهذه الرسالة وعرف اسمها. إن نداءنا الباطني(vocation) هو الذي يتحكم فينا حتى ونحن لانزال نجهله، إن المستقبل هو الذي يفرض نظامه على حاضرنا. إذا سلمنا بأنه يمكننا، نحن العقول الحرة، أن نقول بأن قضية التراتبية هي قضيتنا : فها نحن في منتصف عمرنا، في نهاية الأمر، ندرك ما احتاجته هذه القضية من تهييئات ودورات وتجريبات ومحاولات وتنكرات قبل أن تجرؤ على الإنتصاب أمامنا، ندرك أنه كان لزاما علينا، في البدء، أن نشعر في قرارة روحنا وجسدنا بعدد كبير ومتنوع من أحاسيس متناقضة من السعادة والتعاسة، بصفتنا مغامرين في ذلك العالم الباطن الذي يسمى "الإنسان" وطوافون حوله بصفتنا مساحي كل المستويات والدرجات، «واحدة فوق الأخرى» و «أعلى منها»، التي تسمى

الإنسان هي كذلك - داخلين كل مكان، دون خوف تقريبا، ودون أن نزدري شيئا أو نفقد شيئا، متذوقين كل شيء، متفحصين تقريبا كل الأشياء بدقة كي ننفي عنها أي شيء عرضي – قبل أن يسمح لنا في النهاية بأن نقول لأنفسنا، نحن العقول الحرة : «هذه قضية جديدة! هذا سلم طويل كنا نحن من شغل درجاته وارتقاها، – وقد كنا نحن ذلك السلم لحظة ما! هذا أعلانا، هذا أدنانا، هذا أسفلنا، هذا تدرج هائل الطول، هذه هي التراتبية التي نراها : هذه قضيتنا!...»

-8-

لن تبقى مرحلة التطور التي ينتمي إليها(أو التي وُضِعَ فيها) هذا الكتاب، والتي وصفتها الآن، سرا ولو لحظة واحدة بالنسبة لعالم النفس وللمتنبىء. لكن أين نجد اليوم علماء النفس؟ في فرنسا بكل تأكيد : وربما في روسيا، لكن قطعا ليس في ألمانيا. هناك مايكفي من الأسباب التي قد يتذرع بها الألمان الحاليون كي ينسبوا لأنفسهم شرف خلو ألمانيا من علماء النفس : بئس المرء ذلك الذي يجعل منه طبعه وتكوينه نقيض الألماني بخصوص هذا! هذا الكتاب الألماني الذي استطاع أن يجد قراء في دائرة واسعة من الدول والشعوب (وقد بدأ رحلته منذ عشر سنوات خلت)، والذي لا شك أنه خبير في كل موسيقى وفي كل فنون الترمير القادرة على جذب حتى آذان الأجانب غير المرهفة للإستماع إليه : فما السر في ذلك؟ – «إنه يتطلب رقة ورهافة في العقل، إن مايلزمه هو ما يزيد عن الحاجة، هو فيض من الفراغ، من السماء المنورة ومن القلب المشرق، فيض من التبطل بالمعنى المقحام : تلزمه كل الأشياء الجميلة التي نقول عنها، نحن ألمان الوقت الراهن، فاقد الشيء لايعطيه. » – عند هذا الجواب الرائع تنصحني فلسفتي بأن ألزم الصمت وأعدل عن الأسئلة، لا سيما وأننا، في بعض الحالات، لانظل فلاسفة، مثلما يوحي بذلك المثل، إلا مادمنا صامتين.

نيس، ربيع 1886

الكتاب الأول
عن المبادىء والغايات

1 . كيمياء الأفكار والأحاسيس.

تكاد القضايا الفلسفية اليوم تتخذ نفس الصيغة التساؤلية التي اتخذتها منذ ألفي سنة. كيف يمكن أن يتولد شيء ما عن نقيضه، مثلا كأن يتولد العقل من اللامعقول، المحسوس من الجامد، المنطق من اللامنطق، التأمل النزيه من الإرادة الجشعة، الغيرية من الأنانية، الحقيقة من الأخطاء؟ لقد تلافت الفلسفة الميتافزيقية حتى الآن هذه الصعوبات بإنكارها قدرة الواحد على إنتاج الاخر وبإقرارها بأن للأشياء التي تعد سامية أصلا خارقا ينبع مباشرة من صميم وجوهر «الواقع المطلق». على العكس من ذلك، فإن الفلسفة التاريخية، التي تعتبر أحدث المناهج الفلسفية كلها، والتي لا يمكن تصورها بمعزل عن علوم الطبيعة، قد نجحت، في بعض الحالات الخاصة (وربما تصل إلى نفس النتيجة في كل الحالات) في اكتشاف أنه ليست تلك بمتناقضات، ماعدا في المبالغة التي اعتادها التصور الشعبي أو الميتافزيقي، وأن هناك في أساس هذا التعارض خطأ ارتكبه العقل : ليس هناك، حسب تفسيرها، أي سلوك لا أناني ولا أي تأمل نزيه تماما ، إنهما محض تصعيدات يكاد العنصر الأساسي يبدو فيها وكأنه قد تبخر ولا نكتشفه إلا عند الملاحظة الدقيقة جدا. إن كل ما نحتاج إليه، والذي لن نستطيع أن نأخذه إلا من المستوى الحالي لكل علم؛ هو كيمياء التمثلات والأحاسيس الأخلاقية الدينية، الجمالية، وكذلك كيمياء كل هذه الإنفعالات التي نشعر بها في ارتباط مع التيارات الكبرى والصغرى لحضارتنا ومجتمعنا، بل هي الوحدة (solitude) : وماذا لو أن هذه الكيمياء خلصت إلى كون الألوان البهية يتم الحصول عليها، حتى في هذا الميدان، إنطلاقا من مواد بخسة، بل محتقرة؟ هل سيرغب الكثير من الناس في تتبع مثل تلك الأبحاث؟ إن الإنسانية تحب أن تطرح من بالها أسئلة الأصل والبدايات هاته : ألا ينبغي أن يكون المرء شبه لامؤنسن كي يشعر بالميل المعاكس؟...

2 . خطيئة الفلاسفة

عيب كل الفلاسفة المشترك هو كونهم ينطلقون من الإنسان الحالي ويتخيلون أنهم قد بلغوا الهدف من خلال تحليلهم له. بشكل غامض يتخيلون «الإنسان» دون أن يقصدوا ذلك، وكأنه حقيقة خالدة (aeterna veritas) ، يتخيلونه واقعا ثابتا وسط دوامة الكل، ومقياسا ثابتا للأشياء. لكن كل مايذكره الفيلسوف عن الإنسان ليس في الحقيقة سوى شهادة حول إنسان فترة زمنية جد محدودة. إن خطيئة الفلاسفة هي غياب الحس التاريخي، ذلك أن كثيرين منهم، ودون أن يتنبهوا لذلك، يعتبرون صورة الإنسان الأخيرة، مثلما شكلتها تأثيرات بعض الديانات، بل بعض الأحداث السياسية،هي الشكل الثابت الذي منه ينبغي أن يكون المنطلق. إنهم لا يريدون أن يفهموا أن الإنسان هو نتيجة صيرورةأن ملَكة المعرفة هي كذلك نتيجة صيرورة؛ بل إن البعض منهم يجرد الناس كلهم من هذه الملَكة. - والحال أن أساس التطور الإنساني كله قد تم خلال ليل الأزمنة، قبل هذه الأربعة الاف سنة التي نعرفها على وجه التقريب؛ والتي لاشك أن الإنسان لم يتغير فيها كثيرا.وها هو الفيلسوف يبصر «غرائز» لدى الإنسان الحالي و يقر بأنها تشكل جزء من معطيات الإنسانية الثابتة، بأنها يمكن أن تقدم مفتاحا لذكاء الناس بشكل عام. تقوم الغائية (Téléologie) كلها على الحديث عن إنسان الأربعة الاف سنة الأخيرة كما لو عن إنسان خالد رصفت له كل أشياء العالم منذ البداية.ألا إن كل شيء ينتج عن الصيرورة.ليس هناك من المعطيات الخالدة أكثر مما هناك من الحقائق المطلقة. -إن ما يلزمنا بالتالي، من الآن فصاعدا، هي الفلسفة التاريخية، وبمعيتها التواضع.

3 . تقديرا الحقائق المُحتَشِمَة

إن مما يدل على درجة عالية من التحضر اعتبار الحقائق البسيطة المحْتَشمَة، المكتشفة بواسطة منهاج صارم، أسمى من الأخطاء البراقة، الموزعة للسعادة، التي مصدرها قرون وناس لهم عقل ميتافزيقي وفنان. يبدأ الناس بإظهار الإهانة في حق الأولى كما لو أن الأمر لا يمكن أن يتعلق هنا بمساواة في الحقوق : فبقدر ما هي متواضعة، بسيطة، باردة، بل مثبطة على ما يبدو؛ بقدر ما للأخرى جمال تعرضه، لها بريق، نشوة، بل ربما غبطة. وهذا لا يمنع أن تكون هذه المكتسبات المضنية، الأكيدة، الدائمة، والتي لها، من ثمة، أهمية كبيرة بالنسبة لكل معرفة لاحقة ذات مستوى عال يكون المكوث فيه علامة رجولة ودليلا على الجرأة، على الاستقامة، على التحفظ. وشيئا فشيئا سوف لن يكون الفرد وحده هو من يرتفع إلى هذه الرجولية بل الإنسانية كلها، وذلك حين تكون قد تعودت على إضفاء قيمة أسمى على المعارف الصلبة،

الدائمة، وتكون قد فقدت كل إيمان بالإلهام، بالإبلاغ المعجزي للحقائق.- صحيح أنه سيكون في البداية لدى محبي الأشكال، بمقياسهم الخاص بالجميل والسامي، أسباب معقولة كي يسخروا، بمجرد ما يبدأ انتصار تقدير الحقائق المحتشمة وانتصار العقل العلمي : لكن ذلك سيعني بكل بساطة أن عيونهم لم تتفتح بعد على سحر الشكل الأكثر بساطة، أو أن الذين تمت تربيتهم لهذا الغرض لم يخترقهم بعد هذا السحر بشكل شامل وحميمي، ولن يتم ذلك قبل وقت طويل، بحيث سيستمرون في إعادة إنتاج آلية للأشكال القديمة (وذلك بشكل رديء،مثلما يفعل أي شخص لم يعد له ارتباط بقضية ما). في الماضي كان العقل، الذي لم يكن مُطَالبًا بدقة الفكر، يسعى بجدية كبيرة لإقامة السداة بين الأشكال، والرموز،أما الآن فقد تغيرت الأشياء، أصبحت هذه الجدية التي تستعمل مع الرمزيات تعتبر دليلا على مستوى منحط من الثقافة؛ كما أن فنوننا لاتفتأ تتعقلن، وحواسنا تتروحن، وأننا اليوم، مثلا، نحكم على كل ما يتناغم مع الحواس بخلاف ما كان يحكم به عليه منذ مائة سنة : كما أن أساليب حياتنا تصير روحانية أكثر فأكثر، وربما تبدو أشد قبحا في نظر العصور السابقة، وذلك بسبب عجز هذا النظر عن رؤية إلى أي مدى تتعمق وتتوسع باستمرار مملكة الجمال الداخلي والروحي. وعن رؤية أن نظرة بسيطة يشع فيها العقل لاشك أنه ستكون لها الآن، بالنسبة لنا جميعا، قيمة أكثر مما يكون لأحمل بعد ولأرقى معمار

4 . على غرار التنجيم.

من المحتمل أن تكون موضوعات الإحساس الديني والأخلاقي والجمالي كلها لاتتعلق إلا بظاهر الأشياء، بينما يروق للإنسان أن يعتقد أنه فيها، على الأقل، يلمس قلب العالم نفسه؛ إنه ينخدع لأن هذه الأشياء تعني بالنسبة له سعادة أو حظا عاثرا، إذن فهويُظهر في هذا نفس الكبرياء الذي يظهره في علم التنجيم.فهذا العلم يتصور فعلا أن نجوم السماء تدور حول قدر الإنسان؛ أما الإنسان الأخلاقي فيفترض أن ما يهمه كثيرا هو بالضرورة جوهر الأشياء وقلبها.

5 . الحلم وقد أسيء فهمه .

إن أصل كل ميتافزيقا هو كون الإنسان، في الأزمنة الأولى لحضارة لما تزل بدائية، قد اعتقد أنه اكتشف في الحلم عالما حقيقيا ثانيا. لولا الحلم لما وجد الناس أدنى سبب لتقسيم العالم إلى قسمين. إن انفصال الروح والجسد يرتبط هو كذلك بأقدم تصور للحلم تماما مثل فرضية صُورة جسديةللروح؛؛ كما يرتبط به إجمالا أصل كل اعتقاد في الأرواح، وربما حتى أصل الإيمان بالآلهة. «إن الميت يظل حيا، لأنه يظهر للأحياء في الحلم» : هذا هو الإستدلال الذي ساد فيما مضى طيلة ألفيات.

6. روح العلم قوية في الجزء لا في الكل.

يتم التعامل مع مجالات العلم المختلفة، ومع الموضوعات الأدنى،بشكل موضوعي صرف : على العكس من ذلك نجد العلوم الكبرى والشمولية، إذا نظرنا إليها ككل واحد، تثير السؤال التالي : للقيام بماذا؟ لأية فائدة؟ بسبب هذا الإعتبار الذي يقام للفائدة يعامل المجموع بطريقة لاشخصية أقل مما تعامل به الأجزاء. وبما أن الفلسفة تشكل قمة هرم المعرفة فإن مسألة فائدة المعرفة بصفة عامة تجد نفسها مطروحة فيها بشكل عفوي، وكل فلسفة تعمل بشكل لا شعوري على أن تعزى إليها الفائدة الأسمى. لذلك يوجد الكثير من الميتافزيقا على نطاق واسع في كل الفلسفات، وذلك الرعب من الحلول التي تقدمها الفيزياء، والتي تبدو غير ذات معنى؛ لأن أهمية المعرفة بالنسبة للحياة يجب أن تبدو عظيمة قدر الإمكان.هنا تكمن المنافسة بين المجالات العلمية الخاصة والفلسفة .هذه الأخيرة ترغب في نفس ما يرغب فيه الفن، إضفاء أكثر ما يمكن من العمق والمعنى على الحياة وعلى الحركة؛ بينما في الأولى يتم البحث عن المعرفة لاغير، – مهما يكن ما ينجم عن ذلك. حتى الأن ماوجد فيلسوف قط لم تتحول الفلسفة بين يديه إلى دفاع عن المعرفة؛إنهم،على أية حال، طموحون بخصوص ضرورة إسناد الفائدة الأسمى إليها. إن المنطق يستبد بهم جميعا: والمنطق طُمُوحٌ في جوهره.

7. مضَايِقُ العلم

لقد انفصلت الفلسفة عن العلم حين طرحت هذا السؤال : ماهي معرفة العالم والحياة التي تجعل من وجود الإنسان أسعد وجود؟ ولننظر إلى ما حدث داخل المدارس السقراطية : لقد أدى تبني مفهوم السعادة إلى خنق البحث العلمي – ولايزال الأمر كذلك إلى يومنا هذا.

8 . تفسير روحي للطبيعة

تفسر الميتافزيقيا كتاب الطبيعة بطريقة روحية ونوعا ما. مثلما كانت الكنيسة وكهنتها يفسرون الإنجيل فيما مضى يتطلب الأمر كثيرا من الذكاء كي يطبق على الطبيعة نفس تفسير فقهاء اللغة الدقيق لكل الكتب : وذلك بغية فهم ما يريد النص قوله فقط دون أن يُشتَّم فيه، بل أن لا يفترض فيه، معنى مزدوج. رغم ذلك، فمثلما أن وسيلة التفسير الرديئة أبعد من أن تنغى كلية حتى فيما يتصل بالكتب، ومثلما نصطدم باستمرار، داخل أفضل مجتمع مثقف، ببقايا تفسير استعاري وصوفي : كذلك الشأن بالنسبة للطبيعة – بل هو أسوأ بكثير.

9 . عالم ميتافزيقي.

صحيح أنه قد يكون هناك عالم ميتافزيقي، الإحتمال المطلق لوجوده قلما يقبل الجدال. كل الأشياء التي نراها تمر برأسنا، ولن نستطيع قطع هذا الرأس؛ ومع ذلك يبقى السؤال المطروح هو معرفة ما قد يتبقى من العالم حين نقطعها. هذه قضية علمية محضة، وقد وجدت لتشغل الناس؛ والشيء الذي جعل الفر ضيات الميتافزيقية، حتى الأن، أثيرة لديهم ومرهوبة الجانب وممتعة، الشيء الذي أوجدها هو الهوى، هو الخطأ، هو فن إيقاع المرء لنفسه في الخطأ؛والشيء الذي علم الناس الإعتقاد في تلك الفرضيات ليست هي أفضل وسائل المعرفة بل أسوأها. إن استكشاف أساس كل الديانات والميتافزيقا الموجودة في هذه المناهج هو، في نفس الوقت، دحض لها؛ تبقى إذن تلك الإمكانية التي كنا بصدد الحديث عنها؛ لكننا لن نتمكن من تحقيق أي شيء منها على الإطلاق، فلنعلق السعادة والخلاص والحياة بالأحرى على الخيوط العنكبوتية لهذه الإمكانية. - لأنه لا يمكننا أن نقر شيئا من هذا العالم الميتافزيقي خلا اختلاف في الكينونة، كينونة واختلاف منيعان، لايدركان؛ وسيكون ذلك شيئا ذا مزايا سلبية . - وحتى حين تتم البرهنة أفضل ما يمكن على وجودهذا العالم فإنه من الأكيد أن هذه المعرفة ستكون ، رغم ذلك، أكثر المعارف لاأهمية : أكثر لاأهمية من معرفة البحار الضرورية، والعاصفة تهدده، للتحليل الكيميائي للماء.

10. الميتافزيقا غير الخطرة على المستقبل.

بمجرد ما نصف تكون الدين والفن والأخلاق وصفا يسمح بتفسير هذا التكون تفسيرا كاملا دون اللجوء إلى فرضيةالتدخلات الميتافزيقية التي حدثت عند بداية حياتها وخلال مجراها يكون قد حَسَمَ أمر الإهتمام الكبير الذي أولي للمسألة النظرية المحضة، مسألة «الواقع المطلق» و «الظاهرة». لأننا في نهاية الأمر، وكيفما كان الحال، لانلمس «جوهر العالم في ذاته» من خلال الدين والفن والأخلاق؛ إننا في ميدان التمثل، ولن يستطيع أي «حدس» أن يحملنا بعيدا! أما معرفة كيف يمكن للصورة التي لدينا عن العالم أن تنزاح بقدر كبير عن جوهر العالم الذي استنتجناه، فسندعها بكل هدوء للفسلجة ولتاري تطور الأجسام والأفكار.

11. اللغة، علم مزعوم.

تكمن أهمية اللغة في تطور الحضارة في كون الإنسان قد موضع فيها، إلى جانب العالم الاخر، عالما خاصا به، مكانا كان يعتبره متينا كفاية ليستند عليه كي يغيظ العالم

ويسيطر عليه. إن الإنسان باعتقاده، وخلال حقب طويلة، في تصورات الأشياء وأسمائها كما في الكثير من الحقائق الخالدة، قد خص نفسه فعلا بهذا الكبرياء الذي به كان يسمو فوق الحيوان : كان يتخيل أنه باللغة يمتلك معرفة العالم بالفعل. لم يكن فنان الكلمة متواضعا كفاية كي يؤمن بأن ما يفعله ليس سوى تسمية الأشياء، كان، على العكس من ذلك، يتصور أنه بتلك الكلمات يعبر عن المعرفة السامية بالأشياء، اللغة، في الواقع، هي المرحلة الأولى في البحث العلمي. هنا أيضا كان الإيمان بالحقيقة المكتشفة مصدر منابع القوة الفياضة. وها قد شرع الناس الآن فقط،وبعد فوات الأوان، في التنبه إلى الخطأ الكبير الذي أشاعوه بإيمانهم باللغة، لحسن الحظ أنه قد فات أوان تسبب ذلك في عودة تطور العقل الذي يرتكز على هذا الإيمان إلى الوراء. -المنطق كذلك يرتكز على مسلمات لايقابلها شيء في العالم الواقعي، مثل مسلمة تساوي الأشياء، مثل تماثل نفس الشيء عند نقط زمنية مختلفة : لكن هذا العلم قد نشأ من الإيمان المعاكس (بأنه كانت هناك بالتأكيد أشياء من هذا القبيل في العالم الواقعي). نفس الشيء ينطبق على الرياضيات التي لم تكن لتنشأ بكل تأكيد لو تمت في الحال معرفة أنه ليس في الطبيعة لا خط مستقيم تماما، لا دائرة حقيقية، ولاقياس مطلق للكميات.

12.الحلم والحضارة.

الوظيفة الدماغية التي تعاني أكثر من غيرها من النوم هي الذاكرة : ليس لأنها تتوقف كلية، - بل لأنها تجد نفسها وقد تمت العودة بها إلى حالة من النقص تذكرها بما كانت عليه، أثناء النهار وأثناء حالة اليقظة، لدى كل أفراد الأزمنة الأولى للإنسانية. بما أنها تعسفية وغامضة فهي أبدا تخلط الأشياء بارتكازها على التماثلات العابرة؛ وبنفس التعسفية ونفس الغموض خلقت الشعوب ميثولوجياتها، ولا يندر اليوم أيضا أن يلاحظ بعض المسافرين إلى أي حد ينزع الإنسان المتوحش إلى النسيان، يهلوس ذهنه بعد تركيز قصير تقوم به الذاكرة، الشيء الذي يؤدي به إلى الكذب وقول السخافات من جراء تواني الذاكرة. إننا كلنا نشبه هذا المتوحش في أحلامنا، فالمماثلة الناقصة والتشبيه الخاطىء هما سبب الأخطاء في البرهنة التي نرتكبها في الحلم : بحيث أننا حين نتذكر بوضوح أحد أحلامنا فإنه يخيفنا انطواؤنا على هذا القدر الكبير من الحماقة. إن الوضوح التام لكل التمثلات الحلمية، الذي ينتج عن الإيمان المطلق بحقيقتها، يذكرنا بدوره ببعض حالات الإنسانية البدائية التي كانت الهلوسة متفشية بها بشدة، وكانت في بعض الأحيان تتفشى، في نفس الوقت، بجماعات وشعوب

بأكملها. هكذا إذن نعيد أثناء النوم وفي الحلم عمل حالة قديمة من حالات الإنسانية، من أقصاه إلى أقصاه.

13. منطق الحلم.

هناك عوامل داخلية كثيرة تحتفظ أثناء النوم بجهازنا العصبي في حالة تهيج، فكل أعضائنا ت قريبا تكون نشيطة تشكل متفرق، الدم يكمل دورته العنيفة، وضع النائم يكبس بعض الأطراف، الأغطية يكون لها تأثير متنوع على إحساساته، الأمعاء تتلوى ، وضع الرأس يستتبع حالاتعضلية غير معتادة، القدمان دون جوا رب، أخماصهما غير المرتكزين على الأرض يثيران إحساسا بشيء غريب، وكذلك اللباس المختلف الذي يرتديه الجسم كله - هاته كلها أشياء تعمل، بقدر التغيير اليومي في كثافتها، وبجانبها الشذوذي، على تهييج الجهاز الدماغي بما في ذلك وظيفته : وهكذا يكون هناك ألف سبب ليندهش العقل ويبحث عن بواعث هذا التهيج : والحلم هو البحث عن بواعث هذه الأحاسيس المهيجة بهذه الطريقة وهو تمثل لها، أعني البواعث الخيالية. قد يحدث مثلا أن يحلم الذي يوثق رجليه بزنارين أن حيتان تمسكانهما في حلقتيهما؛إن ذلك يكون فرضية أولا، ثم يصيرا اعتقادا يرافقه تمثل مجازي هو عبارة عن وهم : «هاتان الحيَّتان هما حَتْماً باعث هذا الإحساس الذي أشعر به أنا النائم»، - هكذا يحكم عقل النائم. الماضي القريب الذي يستنتجه بهذا الشكل يصير حاضرا بالنسبة إليه بفضل تخيله المهيِّج. هكذا فإن الكل يعلم،من خلال التجربة، أن الحالم سرعان ما يدْخِلَ في حبكة حلمه صوتا يبلغ مسمعه بقوة، كدقات الأجراس أوطلقات المدفع مثلا، أيَ أنه يفسر ذلك، بعد فوات الأوان، بهذا الحلم نفسه، بحيث أنه يتخيل أنه يعيش الظروف المسببة أولا ثم يدرك الصوت بعد ذلك. - لكن كيف يحدث أن عقل الحالم يرتكب دائما مثل هذه الأخطاء الكبيرة، والحالة أن هذا العقل نفسه عادة ما يبدو، في حالة اليقظة، واقعيا جدا، حذرا جدا، وشكوكياجدابخصوص فرضياته؟ إلى درجة أنه تكفيه الفرضية الأولى ، أيا كانت، كي يفسر إحساسا ما ويعتقد على الفور في كونه حقيقة؟ (لأننا في الحلم نؤمن بالحلم كما لو كان حقيقة، أ ي أننا نعتبر فرضيتنا مبرهنا على صحتها)، أما أنا فأعتقد مايلي : إن الطريقة التي لا يزال الإنسان يفكر بها في الحلم اليوم هي الطريقة نفسها التي فكرت بها الإنسانية في حالة اليقظة خلال الآف والآف السنين؛ لقد كان العقل يكتفي، حين يحتاج إلى تفسير شيء ما، بأول باعث يعن له، ويعتبره حقيقة. (وحسب ما يرويه المسافرون فإن المتوحشين لايزالون إلى اليوم يتبعون هذا النهج). إن هذا الجزء القديم من الإنسانية هو

الذي لايزال يفعل فينا في الحلم، لأنه هو الأساس الذي منه تطور العقل السامي ولايزال يتطور لدى كل إنسان : الحلم يعود بنا إلى مراحل قديمة من الحضارة الإنسانية ويقدم لنا وسيلة تمكننا من فهمها بشكل أفضل. لئن كان الفكر الحلمي اليوم واضحا لدينا فلأنه قد تم تدريبنا جيدا، بأية فكرة كانت، على هذا الشكل من التفسير الشاذ والمجاني. بهذا يكون الحلم راحة للدماغ، الذي يضطر أثناء النهار لتلبية المطالب الملحة التي ي فرضها على الفكر مستوى عال من الحضارة. - يمكننا أن نلاحظ في الذكاء، في حالة اليقظة، ظاهرة مماثلة. فهو بوابة الحلم الرئيسية ورواقه. حين نغمض عيوننا ينتج المخ كمية من الإنضباعات المضيئة ومن الألوان، كنوع من الرجع ومن الصدى لكل آثار الضوء الذي يمتصه خلال النهار. والذكاء (المقترن بالخيال) يحول على الفورهذه الألوان هاته إلى حرير عديم الشكل، إلى أشكال وصور محددة، إلى مناظر طبيعية، إلى مجموعات حية. الظاهرة الخاصة التي تتدخل هنا هي أيضا نوع من خاتمة العلة والمعلول؛ إن تساءلنا من أين تأتي هذه الإنضباعات المضيئة وهذه الألوان افترض العقل أن بواعثها هي هذه الأشكال والصور : يرى فيها المناسبات التي حددت هذه الألوان لأنه قد اعتاد خلال النهار، وعيناه مفتوحتان ، أن يجد سببا موجبا لكل لون، لكل انطباع مضيء. هنا إذن يقدم له الخيال باستمرار الصور التي ينتجها اعتمادا على الانطباعات المرئية أثناء النهار، وكذلك بالضبط يعمل الخيال الحلمي : - إذا أدركنا أن السبب المزعوم يتم استنتاجه من الأثر ويتم تخيله بناء على الأثر؛ وكل ذلك يتم بسرعة فائقة بحيث يمكن أن ينتج عنه، كما لو في حضرة مشعوذ، اضطراب في الحكم وتتابع يأخذ شكل تَزَامُنَ، بل شكل تتابع مقلوب. يمكن أن نستخلص من هذه الظواهر أن الفكر المنطقي الدقيق نوعا ما، والتمييز الدقيق بين العلة والمعلول، قد تطورا بشكل متأخر جدا،ما دمت وظائفنا العقلية والفكرية تعود، الآن أيضا،وبشكل عفوي، إلى هذه الأشكال البدائية في التفكير، ومادمنا نقضي ما يناهز نصف عمرنا في هذه الحالة. الشاعر الفنان كذلك يفترض لهذه الحالات الروحية والعقلية بواعث ليست حقيقية على الإطلاق، ذلك ما يجعله يتذكر إنسانية قديمة ويستطيع مساعدتنا على فهمها.

14 . رَجْع.

كل الاهتزازات القوية التي تصيب الروح تثير رجع الانطباعات والحالات المشابهة؛ إنها تنبش الذاكرة تقريبا. إنها تثير فينا بعض الذكريات، توقظ الشعور بالحالات المشابهة وبأصلها، هكذا تتشكل تداعيات فورية ومألوفة في الأحاسيس وفي الأفكار نتنتهي، حين تتوالى بسرعة البرق، إلى أن نتصورها لا كمجموعات بل كوحدات. بهذا المعنى يتحدث الناس عن الحس الأخلاقي، عن الحس الديني، كما لو كان الأمر يتعلق

بوحدات أصيلة : إنها في الواقع أنهار له مآت المنابع والروافد. هنا أيضا لاتضمن وحدة الكلمة وحدة الشيء إطلاقا، مثلما هو الأمر في أغلب الأحيان.

15.لاباطن ولاظاهر في العالم.

إذا كان ديمقريط قد نقل مفهومي الأعلى والأسفل ليضفيهما على الفضاء اللامتناهي حيث لامعنى لهما، فإن الفلاسفة يفعلون على العموم نفس الشيء بالنسبة لمفهوم «الباطن والظاهر» المطبق على جوهر العالم وظاهرته؛ إنهم يعتقدون أن نفاذنا إلى العمق، إلى الباطن، إنما يتم بواسطة الأحاسيس العميقة وأن بها نقترب من قلب الطبيعة. إلا أن هذه الأحاسيس لاتكون عميقة إلا بقدر ما تستثار برفقتها، وبشكل منتظم وخفي،مجموعات معقدة من الأفكار التي نسميها عميقة؛ يكتسب إحساس ما صفة العمق بمجرد ما تعتبر الفكرة التي ترافقه عميقة. لكن الفكرة العميقة قد تكون، مع ذلك، شديدة البعد عن الحقيقة، ككل فكرة ميتافزيقية مثلا. إذا جردنا الإحساس العميق من كل ما يخالطه من العناصر الفكرية سيبقى الإحساس القوي،وهذا الإحساس لايقدم للمعرفة أية ضمانة عداه، تماما مثلما يبرهن اعتقاد قوي على قوته فقط وليس أبدا على حقيقة موضوعه.

16.الظاهرة والواقع المطلق.

عادة ما يتخذ الفلاسفة إزاء الحياة وإزاء التجربة – إزاء ما يسمونه بالعالم الظاهراتي – نفس الموقف الذي يتخذونه إزاء لوحة معروضة بشكل نهائي وهي تظهر دائما، بشكل ثابت لايتغير، نفس تسلسل الأحداث؛ إنهم يرتأون أن هذا التسلسل هو ما ينبغي تفسيره بشكل صحيح كي يخلصوا من ذلك إلى الكائن الذي عنه صدرت اللوحة : إذن إلى الواقع المطلق الذي عادة ما يعتبر علة كافية لوجود عالم الظواهر. على العكس من ذلك، فإن بعض المناطقة الصارمين، بعد أن لاحظوا بدقة هوية مفاهيم الميتافزيقا واللامشروط، وكذلك اللامشترط، من خلال علاقة الاستتباع، قد انكروا وجود أي رابط ممكن بين اللامشروط (العالم الميتافزيقي) وبين العالم الذي نعرفه :بحيث أن الواقع المطلق ليس هوما يظهر في الظاهرة، وأنه من الأنسب رفض أية علامة استتباع بين هذه وذاك. لكن الطرفين كليهما يغفلان احتمال أن تكون هذه اللوحة – وهو ما يسمى الآن، بالنسبة لنا نحن البشر، حياة وتجربة – ناتجة عن صيرورة بطيئة، بل أن تكون في حالة صيرورة، ولهذا لن يمكن اعتبارها بعدا ثابتا يمكن انطلاقا منه أن يكون لنا الحق في إيجاد، أوحتى رفض، أية علاقة استتباع بينها وبين مسببها (العلة الكافية). منذ الاف السنين ونحن ننظر إلى العالم بتباه أخلاقي وجمالي

وديني، بعمى الميل، الشغف أو الخشية، تعاطينا فيه، بواسطة فجور حقيقي، لسلوكات الفكر اللامنطقي السيئة، ولذلك صار هذا العالم شيئا فشيئا مبرقشا،مرعبا، حافلا بالحيوية والدلالات العميقة، هذا ما أضفى عليه صبغته. - لكننا نحن هم من صبغه : إن الفكر الإنساني هو الذي أظهر الظاهرة وأدخل في الأشياء مفاهيمها الخاطئة. إنه حين يعن له أن يفكر يجد الأوان قد فات كثيرا : وهاهو عالم التجربة والواقع المطلق يبدوان له مختلفين جدا ومنفصلين حتى أنه يرفض استتباع هذا لذاك - أو أنه يتطلب، بسمت غامضة ومريع،استسلام فكرنا وإرادتنا الشخصية : وذلك بُغْيَةَ بلوغ الجوهر عبر تَجَوْه*ره هو. البعض الاخر، بالمقابل، ورثوا كل السمات المميزة لعالمنا الظاهراتي- أي سمات تمثلنا للعالم المنسوج بأخطاء فكرية ومكتسبة بشكل وراثي - و عوض أن يتهموا الفكر المجرم فقد جرموا جوهر الأشياء وبشروا بأن الخلاص يكمن في التخلي عن الكينونة. - سيقضي تطور العلم الد ائم والشاق على هذه المفاهيم بشكل نهائي يوم يحتفل بظفره الأخير ا لمتمثل في تاريخ نشأة الفكر، وقد تؤدي النتيجة إلى الفرضية التالية : إن ما نسميه العالم حاليا هو نتيجة مجموعة من الأخطاء والأوهام التي تولدت بشكل تدريجي خلال التطور الكلي للكائنات المعضاة *وتكاثرت بتشابكها ثم ورثناها الآن باعتبارها كنزا تجمع من الماضي كله، - أجل، كنزا : لأن قيمة إنسانيتنا تقوم عليه. إن العلم الدقيق لا يستطيع أن يخلصنَا من عالم التمثل هذا إلا في نطاق محدود - وليس ذلك بالشيء المرغوب - نظرا لكونه عاجزا عن تحقيق المطلوب، أي عن تحطيم قوة العادات القديمة عادات الحساسية : لكنه يستطيع، تدريجيا وبشكل متزايد، أن ينير تاريخ نشأة هذا العالم كتمثل - وأن يرفعنا، ولو لبضع لحظات، فوق تسلسل أحداثه كلها. وربما سيكتشف إذاك أن الواقع المطلق يستحق ضحكة ساخرة، وهو الذي كان يبدو أنه يشكل الكثير، بل كل شيء، هو في الحقيقة فارغ، خلو من كل معنى.

17. تفسيرات ميتافزيقية.

يجل الشاب التفسيرات الميتافزيقية لأنها تكشف له فيضا من المعنى في الأشياء التي كان يجدها منفرة أو مزدراة؛ وإن كان لديه إحساس بعدم الرضى عن النفس فإنه سيخف حين يتحقق من لغز العالم أو بؤسه العميق من خلال ما يشعر به كثيرا في قرارة

* oraganisé = معضى = ذوبنية عضوية. هناك نظرية فلسفية تقول بأن العمليات الحيوية تنشأ من نشاط أعضاء الكائن الحي بوصفها نظاما متكاملا، وهي العضوانية = organicisme.(المترجم)

نفسه. إن النعمة المزدوجة التي يرى أنه مدين بها للميتافزيقا هي الإحساس بعدم المسؤولية ورؤية أن للأشياء أهمية في ذات الوقت. ولا شك أنه سيشعر لاحقا بشيء من الريبة تجاه كل أصناف التفسير الميتافزيقي، بل ربما سيرى إذاك أنه بالإمكان، مع ذلك، الحصول على نفس النتائج، وبطريقة أكثر علمية، من طريق آخر، وأن التفسيرات المادية والتاريخية تثير إحساسا بعدم المسؤولية لايقل حدة عن إحساسه هو، وأنها قد تؤجج تحمسه للحياة ومشاكلها.

18. قضايا الميتافزيقا الأساسية

حين تتم كتابة تاريخ نشوء الفكر ستجد الفرضية التالية التي يطرحها عالم منطق ممتاز نفسها وقد سلط عليها ضوء جديد : «إن قوام القانون العام والأصيل للذات العارفة يكمن في الضرورة الداخلية لمعرفة أن كل موضوع في ذاته، في جوهره، هو موضوع مماثل لذاته، أي أنه موجود بشكل مستقل وأنه يظل في الواقع دائما مماثلا وثابتا، باختصار،أنه ماهية» . لقد كان لهذا القانون،الذي قيل عنه هنا أنه «أصيل»، تاريخ هو الاخر : وستتم البرهنة يوما على أن هذا النزوع ينشأ شيئا فشيئا في الأجسام الدنيا حتى أن العيون الضعيفة لهذه الأجسام، الشبيهة بعيون الجلد، لا ترى في البداية شيئاسوى المماثل، ثم بعد ذلك، حين تصير مختلف أحاسيس اللذة والإشمئزاز قابلة للتمييز أكثر، تميز مختلف الجواهر بالتدريج، لكنها تميز كل جوهر بصفة فقط، أي بعلاقة فريدة مع مثل ذلك الجسم.إن أولى درجات النظام المنطقي هي الحكم، وقوام جوهره،حسب ملاحظة أفضل المناطقة، هو الاعتقاد. وفي أصل كل اعتقاد هناك إحساس بما هو ممتع وماهو مؤلم بالنسبة إلى الذات المحسة. والحكم في أكثر أشكاله بدائية هو إحساس ثالث وجديد يأتي نتيجة إحساسين مختلفين سابقين. – إن كوننا مُعَضَّوْن يجعلنا لا نهتم بالشيء إطلاقا ما عدا في علاقته معنا فيما يخص اللذة والألم. وفي تلك الفواصل بين اللحظات التي نعي فيها العلاقة تنعم الحالات التي تنشط فيها أحاسيسنا بلحظات من الراحة، من الحرمان من الإحساس : انذاك لايكون للعالم ولا لأي شيء، بالنسبة لنا، أية فائدة، لانبصر فيهما أي تغير (مثلما لا يتنبه رجل منشغل جدا إلى كون شخص ما قد مر بجانبه). بالنسبة للنبتة تعتبر كل الأشياء في راحة، تعتبر خالدة،يعتبر كل شيء مماثلا لنفسه. لقد ورث الإنسان عن مرحلة الأجسام الدنيا الإعتقاد بوجود أشياء متماثلة (وحدها التجربة التي طورها العلم المتقدم تناقض هذه الفرضية). إن الاعتقاد الأول خلال العهد العضوي، بل وربما منذ البداية، هو أن باقي العالم بأكمله يشكل وحدة ثابتة. – وأغرب ما في هذه الدرجة الأولى من المنطق هي

فكرة النسبية : لا زلنا، حتى الان، نؤمن في العمق أن أحاسيسنا وأفعالنا هي كلها نتائج حرية اختيارنا. ولو أن الفرد المحس لاحظ نفسه فإنه سيعتبر كل إحساس، كل تغير شيئا منفردا، أي شيئا لامشروطا، مستقلا : شيئا ينبع منا دون أن يرتبط بشيء سابق عليه أو لاحق له. نحن جائعون، لكننا لانتصور، في البدء، أن جسمنا يطلب الطعام، يبدو على العكس أن هذا الإحساس يفرض نفسه بلا هدف وبلا سبب، أنه ينعزل ويعتبر نفسه قدريا. إذن فالاعتقاد في حرية الإرادة هو خطأ أصلي لدى كل أفراد العهد العضوي، قديم قدم الميول المنطقية التي كانت لديهم؛ الاعتقاد في وجود جواهر مطلقة وأشياء متماثلة هو أيضا خطأ أصلي من أخطاء العهد العضوي بأكمله، وقديم قِدَمَهُ. والحالة هذه، وبما أن الميتافيزيقا كلها قد انشغلت أساسا بالجوهر وبحرية الإرادة فإنه يمكننا أن نصفها بأنها العلم الذي يبحث أخطاء الإنسانية الأساسية، لكن باعتبارها حقائق أساسية.

19. ا لعدد.

لقد تم ابتكار قواعد الحساب انطلاقا من الخطأ الذي ساد منذ البدايات، من معرفة أنه قد تكون هناك عدة أشياء متماثلة (لكن ليس هناك في الواقع أن شيء متماثل)، أنه قد توجد على الأقل أشياء(لكن ليس هناك من «شيىء». الإقرار بالتعدد هو دائما تسليم بأن هناك شيئا ما يظهر عدة مرات : هنا بالضبط يسود الخطأ، هنا تختلف الذوات والوحدات التي هي غير موجودة. - إن تصوراتنا للمكان والزمان خاطئة من خلال اختبار منطقي، إلى تناقضات منطقية. حيث نضع صيغنا العلمية كلها فإننا دائما ندخل في الحساب بعض القياسات الخاطئة، لكن بما أن هذه القياسات ثابتة على الأقل، كتصورنا للمكان والزمان مثلا، فإن نتائج العلم تكتسب منها مع ذلك دقة ويقينا تامين في تسلسلهما؛ويمكننا أن نستمر في البناء عليها - إلى ذلك الحد الأقصى الذي يحصل فيه تناقض بين المسلمة الأساسية، بين هذه الأخطاء المستمرة وبين النتائج، كما في نظرية الذرة مثلا. هنا بالضبط نشعر دائما بأننا مضطرون لافتراض «موضوع» مادي تقع عليه الحركة ، بينما المنهجية العلمية كلها قد جعلت مهمتها بالضبط هي تحويل كل ما هو ذو طبيعة مادية إلى حركات : هنا أيضا يجعلنا إحساسنا نفصل بين ما يتحرك وما يتم تحريكه، ولا نخرج من هاته الدائرة لأن الإعتقاد في الأشياء مرتبط بكياننا الضارب في القدم. - إن قول كانط : « الذهن لايمتح قوانينه من الطبيعة بل يصفها لها» صحيح للغاية نسبة إلى مفهوم الطبيعة الذي نحن مجبرون على إعادة ربطه بها (الطبيعة = العالم كتمثل، أي كخطأ)، لكنه لا يمثل سوى فذلكة من ضمن كمية

من أخطاء الذهن. - إن قواعد الحساب غير قابلة للتطبيق البتة على عالم ليس من تمثلنا : إنها لا تستعمل إلا في عالم الإنسان فقط .

20.العودة إلى الوراء بضع درجات.

يبلغ الإنسان درجة جد عالية من الحضارة حين يتغلب على مخاوفه، على أفكاره الخرافية والدينية*، ويكف مثلا عن الإيمان بالملائكة الحراس وبالخطيئة الأصلية، حين لايعود يحْسن حتى الكلام عن خلاص الأرواح : عندما يصل إلى هذه المرحلة من التحرر يبقى عليه أن يبذل أقصى مجهود له في التفكير كي ينتصر على الميتافزيقا. غير أن ذلك لن يعفيه من ضرورة القيام بحركة إلى الوراء بعد ذلك :ينبغي عليه أن يفهم التبرير التاريخي لهذه التمثلات بقدر ما يفهم تفسيرها النفسي، عليه أن يعترف بأن أعظم ما حققته الإنسانية من رقي قد كان ذلك مصدره وأننا إذا لم نَقُمْ بهذه الحركة إلى الوراء فسنحرم من أفضل ما حققته الإنسانية حتى الآن. - بخصوص هذه النقطة من الفلسفة الميتافزيقية أرى جيدا أن عدد الذين بلغوا منها الحد السلبي يتزايد (مع العلم أن كل ميتافزيقا إيجابية تعتبر خطأ)، لكن نادرون هم أولئك الذين يرجعون بضع درجات إلى الوراء؛ ذلك أنه من المناسب فعلا أن نخترق بالنظرة آخر درجة من السلم، لكن ليس مناسبا أن نرغب في المكوث عنده. إن المتنورين ينجحون في التحرر تماما من الميتافزيقا وينظرون إليها، وقد خلفوها وراءهم، نظرة تفوق : في حين أنه لابد هنا، كما في حلبة سباق الخيل، من العودة إلى منطلق الحلبة.

21 . نصر الشكوكية المفترض.

لنأخذ نقطة انطلاق الشكوكية مأخذ الجد قليلا؛ لو افترضنا أنه لا وجود لعالم آخر، ميتافزيقي، وأن كل التفسيرات المستعارة من الميتافزيقا لا يمكننا استخدامها لتفسير العالم الذي نعرفه، فبأية عين سنرى الناس والأشياء؟ يمكننا أن نتخيل أن هذا سيكون مفيدا حتى ولو لم نطرح السؤال إطلاقا عما إذا كان كانط وشوبنهاور قد برهنا علميا على أية نقطة من نقط الميتافزيقا. لأنه من المحتمل جدا،حسب الاستلاحة التاريخية، أن يصير الناس يوما، في كل العالم، شكوكيين تماما بهذا الخصوص؛ سيكون السؤال انذاك : كيف سيصير المجتمع الإنساني تحت تأثير هذه العقلية؟ ربما سيكون تقديم دليل علمي على وجود عالم ميتافزيقي ما صعبا جدا بحيث لن تتخلص الإنسانية من بعض الشك بخصوص وجوده .ومهما يكن الشك الذي ننميه بخصوص الميتافيزقيا قليلا فإن

* من الواضح أن نيتشه يقصد الديانة المسيحية وليس كل الأديان.(مترجم).

نتائجه إجمالا هي نفس نتائج الدحض المباشر لها وفقدان الإيمان بها. ويظل السؤال التاريخي المتعلق بعقلية إنسانية لاميتافزيقية هو نفسه في كلتا الحالتين.

22 . شكوكية بخصوص

monumentum aere perennius *

إن إحدى المساوىء الأساسية التي يتضمنها إلغاء المنظورات الميتافزيقية هو كون الفرد يقصر أفقه على حياته القصيرة ولاتكون لديه بواعث قوية كفاية كي يعمل على إنشاء مؤسسات تعمر طويلا، مؤسسات يتم تشييدها لتبقى عدة قرون؛إنه يريد أن يجني هو نفسه ثمرة الشجرة التي يغرسها، وليست لديه الرغبة في غرس تلك الأشجار التي تتطلب عناية منتظمة خلال عدة قرون وتكون مهيأة لأن تظلل أجيالا متتالية. لأن ما تقدمه المنظورات الميتافزيقية للشخص هو الاعتقاد بأن فيها يوجد الأساس النهائي والأخير الذي عليه يجد مستقبل الإنسانية كله نفسه مضطرا لأن يتأسس ويبني ذاته؛ يساهم الفرد في خلاص نفسه ببنائه كنيسة أوديرا مثلا، إنه يعتقد أن ذلك شيء سيحسب له وسيجازى به في الحياة الأبدية للأرواح، إنه يعمل من أجل الخلاص الأبدي لروحه. هل يمكن للعلم كذلك أن يثير نفس الإيمان بنتائجه؟إنه يحتاج في الواقع إلى حليفيه المخلصين، الشك والريبة؛ رغم ذلك يمكن لمجموع الحقائق المقدسة، أي القادرة على مواجهة كل غارات الشكوكية، كل التفككات،يمكنها مع مرور الزمن أن تنمو، (كما في علم الصحة مثلا)، إلى درجة يقرر عندها الناس أن يبنوا مآثر «خالدة» . في انتظار ذلك لايزال التعارض الحاصل بين وجودنا المضطرب بفعل الأشياء الزائلة وبين هدوء العصور الميتافزيقية الشامل ينتج عنه أثر قوي جداً نظرا لكون المرحلتين تتواجهان عن قرب؛ الفر د نفسه يمر اليوم بكثير من التطورات الداخلية والخارجية تجعله لايجرؤ حتى على تنظيم نفسه بشكل نهائي ودائم حسب وجوده الخاص. إن الإنسان العصري الحق يشعر، حين يريد مثلا أن يبني منزلا لنفسه، وكأنه سيحبس نفسه حيا داخل ضريح.

23. قرن المقارنة.

كلما قل ربط التقليد (tradition) للناس بعضهم ببعض، كلما ازداد الإهتزاز الداخلي لبواعثهم، مثلما يزداد، بالموازاة معه، الإهتزاز الخارجي، تشابك العلاقات

---

* أثر أبقى من الفلز.

الإنسانية، وتفرع الطموحات. من من الناس يرى نفسه اليوم ملزما بالإرتباط بمكان ما هو وذريته؟ من لايزال لديه أدنى ارتباط مُلْزِم؟ مثلما يقلد الناس في اختلاطهم كل أساليب الفن فإنهم كذلك يفعلون بكل درجات وأشكال اللاأخلاقية والتقاليد والحضارة. - يكتسب قرن مثل هذا القرن أهميته من كون تصورات الناس للعالم، من كون التقاليد والحضارات، يمكن أن تتم فيه، مقارنتها وتجربتها جنبا إلى جنب؛ وهو شيء لم يكن ممكنا فيما مضى لَمَّا كان لكل حضارة طبعها المحلي بسبب ذلك الرابط الذي كان يربط أنواع الفن وأساليبه بمكان واحد وبعصر واحد. في وقتنا الراهن سيكون تكثيف الحس الجمالي هو من يحسم نهائيا بين القدر الكبير من الأشكال المعروضة للمقارنة : سيدع معظمها يموت، - تحديدا تلك التي سيرفضها هذا الحس. إننا نشهد اليوم كذلك اختيارا لأشكال وتقاليد الأخلاقية السامية التي هدفها هو إختفاء الأخلاقيات الدنيا. إنه قرن المقارنة. ثمة فخره، - لكن ثمة كذلك، وبكل إنصاف،معاناته. لانخشين هذه المعاناة! لنحاول بالأحرى، وبكامل المروءة التي بمقدورنا، أن نفهم المهمة التي يفرض علينا هذا القرن الاضطلاع بها : وستشكر لنا الأجيال القادمة ذلك، - أجيال ستدرك أنها فوق الحضارات القومية،الأصلية والمغلقة، وفوق حضارة المقارنة، لكنها ستلقي إلى الوراء نظرة اعتراف بالجميل على نوعي الحضارة هذين، على هذه العصور القديمة الجليلة.

24 . إمكانية التقدم

حين يقسم عالم بالحضارة القديمة على ألايخالط الذين يؤمنون بالتقدم أبدا فإنه يكون على حق. لأنه ليس لهذه الحضارة القديمة عظمة ولافضيلة إلا في الماضي، والتكوين التاريخي يفرض علينا أن نعترف أنها لن تستعيد ألقها أبدا؛ لن ينكر هذا إلا عقل بليد بشكل لايطاق أو متحمس بشكل لا يحتمل. يمكن للناس أن يقرروا بكامل وعيهم أن يواجهوا تطورهم نحو حضارة جديدة، في حين أنهم كانوا حتى الآن يتطورون بشكل لاشعوري وبالصدفة يمكنهم اليوم أن يخلقوا شروطا أفضل لتناسل الناس، لتغذيتهم، لتكوينهم، يمكنهم أن يتحكموا في اقتصاد الأرض كله، يمكنهم، بشكل عام، أن يستخدموا الطاقات البشرية ويحققوا التوازن فيما بينها. هذه الحضارة الجديدة الواعية ستقتل الحضارة القديمة التي إذا ما نظرنا إليها في شموليتها نرى أنها قد عاشت حياة لاشعورية كحياة الحيوان والنبات؛ - من المحتمل أن تقتل كذلك الريبة بخصوص التقدم. أعني : هناك طيش وشبه عبثية في الإعتقاد بأن التقدم يجب أن

يحصل حتما؛ لكن كيف يمكن إنكار كونه ممكنا؟ على العكس من ذلك، إنه لا يمكن حتى تصور التقدم بالمعنى الذي عرفته الحضارة القديمة وبالوسائل التي بها عرفته. كما أن اللاواقعية الرومانسية حين تستعمل هي الأخرى كلمة «تقدم» التي تنطبق على رؤاها هي (بخصوص الحضارات القومية، الأصيلة والمنغلقة مثلا) إنما تستعير صورته من الماضي؛ ليس لفكرها وخيالها أية أصالة في هذا الميدان.

25 . الأخلاق الخاصة والأخلاق العالمية

لقد صار على الناس، منذ أن لم يعد هناك إيمان بالإله الذي كان يتحكم في مصائر الناس، والذي كان سيقود الإنسانية بجلال إلى الخلاص، رغم كل المنعرجات البادية في الطريق الذي تسلكه، صار عليهم أن يحددوا لأنفسهم أهدافا عالمية تشمل الأرض كلها. الأخلاق القديمة، خاصة أخلاق كانط، تتطلب من الفرد تلك التصرفات المنتظرة من كل الناس : لقد كان ذلك شيئا جميلا بقدر ما كان ساذجا ؛ كما لو أن كل فرد كان يعرف بالضبط السلوك الأفيد للإنسانية كلها، وبالتالي يعرف التصرفات المرغوب فيها بشكل عام؛ إنها نظرية يمكن مقارنتها بنظرية التبادل الحر بفرضيتها التي تقول إن الوفاق العالمي يجب أن يقوم من تلقاء نفسه حتما بفضل قوانين الإتقان الفطرية. لكن تشابه كل الناس في تصرفاتهم قد لا يبدو شيئا مرغوبا فيه من المنظور المستقبلي لحاجيات الإنسانية، بل يحتمل، خدمة للأهداف العالمية، أن يتم تحديد مهام خاصة، بل ربما ،غير مناسبة،لمجموعات كاملة من البشر. على أية حال، إذا ماشئنا ألا يكون هلاك الإنسانية على يد هذه الحكومة العالمية المتبصرة فإنه علينا، قبل كل شيء، أن نكتسب معرفة بشروط الحضارة تتجاوز كل المراحل الحالية لكي تكون قاعدة علمية للأهداف العالمية. هذه هي المهمة الجسيمة المنوطة بمفكري القرن القادم.

26. الإرتكاس كتقدم.

يحدث أن تظهر عقول فظة. عنيفة وأخاذة، ولكنها متخلفة مع ذلك، فتبعث، بشكل سحري، مرحلة من عمر الإنسانية طواها الزمن ؛ إنها تتخذ كدليل على أن النزعات الجديدة المناوئة لها لما تصر قوية بعد، أن شيئا ما ينقصها : وإلا لكانت صمدت أكثر في وجه هؤلاء الفاتنين. فإصلاح لوثر، مثلا،يشهد على أن مد حرية الفكر كان لما يزل في ذلك العصر مشكوكا فيه، لين العود، في ريق العمر، كان العلم لما يزل عاجزا عن الشموخ برأسه. وفضلا عن ذلك، إن النهضة كلها تشبه ربيعا أتى

قبل الأوان فلم يلبث أن أحرقته الثلوج. ،غير أنه حتى في عصرنا قد أظهرت ميتافزيقا شوبنهاور أن العقل العلمي لم يصر قويا بعد: بحيث أن تصور العالم، أن صورة الإنسان في القرون الوسطى المسيحية هي التي تمكنت من الإحتفال بانبعاثها في مذهب شوبنهاور، رغم أن تقويض كل أركان العقيدة المسيحية قد تم منذ أمد طويل. إن للعلم حصة كبيرة في هذا المذهب، لكنه ليس هو المهيمن عليه بل «الحاجة الميتافزيقية القديمة. إن إحدى الإيجابيات اللاتقدربثمن التي نجنيها من وراء شوبنهاور، بالتأكيد، هي كونه أحيانا يعود بإحساسنا، بشكل لايقاوم، إلى طرق قديمة وناجعة في تأمل العالم والناس لن يقودنا إليها بمثل تلك السهولة أي طريق آخر، إنه مكسب كبير لتاريخ العدل؛أعتقد أنه لا أحد سيتوفق بسهولة، في وقتنا الراهن، في إنصاف المسيحية والديانات الأسيوية المشابهة دون مساعدة شوبنهاور: وهو شيء مستحيل إن ولجنا ميدان المسيحية الحالية.الآن يمكننا، بعد نصر العدالة الكبير هذا، بعد تصحيح نقطة مهمة جدا في التصور التاريخي الذي أدخله عصر الأنوار، يمكننا أن نستعيد راية الأنوار لنذهب بها إلى مدى أبعد، - تلك الراية الحاملة أسماء بترارك، إراسموس، وفولتير.بذلك سنكون قد جعلنا من الارتكاس تقدما.

27. مناوبة الدين.

نعتقد أننا نمجد فلسفة ما حين نجعلها تحل محل الدين عند الشعب. إن الحاجة إلى الأفكار الانتقالية تظهر فعلا، عند الإقتضاء، في الإقتصاد الروحي؛ الانتقال من الدين إلى الرؤية العلمية للأشياء قفزة قوية وخطيرة، وهو شيء غير منصوح به. ورغم ذلك يبقى هذا التقريظ ذا أساس متين. لكن ينبغي أن ننتهي، بعد كل حساب،إلى إدراك أن الحاجيات التي لباها الدين، والتي يُطْلَب من الفلسفة الآن أن تلبيها،ليست ثابتة؛ إذْ يمكننا أن نضعفها وأن نقوضها.لنتفكر مثلا في الكُرَب المسيحية، في التحسرات على فساد الروح، في القلق بشأن الخلاص، - كلها تمثلات مصدرها أخطاء العقل، وإنها لاتستحق التلبية بل أن تصير أثرا بعد عين.قد تكون فلسفة ما نافعة إما بتلبيتها هي بدورها لهذه الحاجيات،وإما بحذفها لها؛ لأنها حاجيات مكتسبة ،محصورة في الزمن، وتقوم على فرضيات تناقض فرضيات العلم. يمكننا هنا، كي نقوم بالانتقال، أن نلجأ إلى الفن بهدف التخفيف عن الروح المشحونة بالأحاسيس؛ لأنه يتعهد هذه التمثلات بشكل أقل كثيرا مما تفعله فلسفة ميتافزيقية. سيكون من السهل بعد ذلك المرور من الفن إلى علم فلسفي محرر بالفعل.

28. كلمات فقدت الاعتبار.

لتسقط كلمتي التفاؤل والتشاؤم اللتين استعملتا حد التقرز! لأن داعي استعمالهما يتلاشى كل يوم : لم تعودا ضروريتين اليوم إلا بالنسبة للثرثارين. لأنه، في نهاية المطاف، أي سبب سيجعل من إنسان ما شخصا متفائلا إن لم يكن عليه الدفاع عن إله قد خلق أفضل عالم مادام هو نفسه يجسد الخير والكمال؟ وأي مفكر لايزال بعد في حاجة إلى فرضية إله ما؟ لكن ليس هناك أدنى سبب يجعل شخصا ما يعتنق إيمانا تشاؤميا إن لم يكن لديه مصلحةفي معارضة المنافحين عن الإله، وهم اللاهوتيون والفلاسفة المشتغلون باللاهوت، ومواجهتهم بقوة بالطرح المضاد القائل بأن الشر يسود، بأن الاشمئزاز ينتصر على اللذة، بأن العالم حيلة فاشلة، بأنه إظهار لإرادة للحياة قبيحة. ومن يهتم باللاهوتيين اليوم - غير اللاهوتيين أنفسهم ؟ بصرف النظر عن كل لاهوت وعن كل حرب ضد اللاهوت،فإن العالم، بداهة، لايبدو خيرا ولاشريرا، لايبدو أنه هو الأفضل أو الأسوأ، وأن مفاهيم «خير» و«شرير» لا معنى لهما إلا بالنسبة للإنسان، بل أكثر من ذلك، أنهما ربما لايكونان مبررين هنا إذا أخذنا بعين الإعتبار الطريقة التي بها يتم استعمالهما عادة : وسواء كان ذلك قدحا أوتمجيدا فإنه يجب علينا التخلص من هذا التصور للعالم على أية حال.

29. ثمل بعطر الأزهار.

نتصور أن مسحوب سفينة الإنسانية من الماء كبير لاسيما وأن حمولتها كبيرة. كلما فكر الإنسان بعمق كلما رق إحساسه، وكلما رفع من قدر نفسه كلما اتسعت الهوة التي تفصله عن الحيوان؛ - كلما ظهر بمظهر العبقري وسط الحيوانات، - وكلما اعتقدنا كذلك أنه سيقترب . بما يتناسب مع ذلك، من جوهر العالم ومن معرفته : ذلك ما يفعله في الواقع عن طريق العلم، ولكنه يتصور أ ن الوصول إ ليه من خلال دياناته وفنونه سيكون أفضل - إنها تمثل ازهرار ا العالم ولاشك،ولكنها ليست أقرب إلى جذر العالم من القدم : ليس من خلالها نستطيع النفاذ إلى جوهر الأشياء بشكل جيد، مثلما لايزال كل الناس تقريبا يعتقدون. هذا الخطأ هو الذي صيرا الإنسان عميقا ودقيقا وماهرا كفاية كي يستخرج من نسغه ازهرار ا الفنون والديانات هذا. أما المعرفة المحضة فقد عجزت عن ذلك. إن الذي سيكشف لنا جوهر العالم سيُصيبنا بخيبة شديدة. العالم كتمثل (كخطأ)، وليس العالم كشيء في ذاته، هو الثر بالمعنى، هو العميق، الخارق، المليء سعدا وتعاسة. هذه التنيجة تؤدي إلى الإنكار المنطقي

للعالم : وهي تتوافق بالأحرى مع الإثبات العملي للعالم مثلما تتوافق مع عكس ذلك.

30. عادات تفكير سيئة

هذه هي القياسات الفاسدة التي اعتادها الإنسان أكثر : هذا الشيء موجود، إذن له حقوق. يتم المرور هنا من صفة الوجود إلى الغائية، ومن الغائية إلى الشرعية. كذلك : هذا الرأي يسعد، إذن فهو الرأي الصحيح، أثره جيد، إذن فهو جيد وصحيح. إن الأثر هو الذي تطلق عليه هنا صفة : نافع، جيد، بمعنى مفيد، وتطلق على السبب نفس الصفة، أي جيد، لكن هذه المرة بمعنى أن له أساسا منطقيا. يقابل هذه القضايا : هذا الشيء لايستطيع أن يفرض نفسه، أن يصون نفسه، إذن فهو قبيح؛ هذا الرأي يعذب، يغضب، إذن فهو خاطىء. العقل المتحرر، الذي غالبا ما يلم بعيب التفكير هذا ويعاني من عواقبه، كثيرا ما يستسلم لإغراء الخروج باستنتاجات معاكسة تكون هي الأخرى، بالطبع، قياسات فاسدة على العموم : هذا الشيء لايستطيع أن يفرض نفسه، إذن فهو جيد؛ هذا الرأي يشقي، يحزن،إذن فهو صحيح.

31 . ضرورة اللامنطقي.

من ضمن الأشياء التي قد تؤدي بمفكر ما إلى اليأس معرفته أن اللامنطقي ضروري للإنسان، وأنه ينجم عنه خير عميم. يرتبط اللامنطقي ارتباطا وثيقا بعمق الإنفعالات، بعمق اللغة والفن والدين، وبشكل عام بكل ما يضفي قيمة على الحياة، بحيث لن نستطيع أن نفصله عن هذه الأشياء الجميلة دون أن نفسدها بشكل لايمكن إصلاحه. وحدهم الناس المفرطو السذاجة هم من يمكن أن يعتقدوا في إمكانية تحويل الطبع الإنساني إلى طبع منطقي صرف؛ ولو أن الاقتراب من هذا الهدف كان على درجات فكم من أشياء سنتخلى عنها ونحن في الطريق إليه! حتى الشخص الأكثر تعقلا يحتاج من حين لآخر للعودة إلى الطبيعة، أي إلى العمق اللامنطقي لعلاقته مع كل الأشياء.

32. ضرورة عدم الإنصاف.

كل الأحكام الصادرة بشأن قيمة الحياة يتم تكوينها بشكل لامنطقي وتكون بالتالي غير منصفة. يتعلق الخطأ في الحكم أولا بالطريقة التي بها تعطى مادة الحكم، أي بشكل غير كامل، ثانيا بالطريقة التي تتشكل منها في مجموعها، وثالثا بكون عنصر من عناصر هذه المادة هو بدوره نتيجة معرفة خاطئة بالضرورة. لا يمكن لتجربة كائن حي أيا كانت، مهما يكن هذا الكائن الحي قريبا منا، أن تكون كاملة كفاية كي تخولنا

الحق، منطقيا، في القيام بتقييم شامل لهذا الكائن؛ كل التقييمات متسرعة، ومتسرعة بالضرورة. أخيرا، إن المعيار الذي نستعمله للقياس، وهو كياننا، ليس قياسا ثابتا، إن لدينا أمزجة، وتعترينا تقلبات، وعلينا، مع ذلك، أن نعرف أنفسنا كمعيار ثابت كي نكون منصفين حين نقيم أي شيء في علاقته بنا. ربما سينتج عن هذا أنه لا ينبغي لنا إصدار حكم أبدا؛ لكن كم سيستحيل علينا انذاك أن نحيا دون أن نضع قيما، دون أن نشعر بالنفور أو الميل! - لأن كل نفور يرتبط بتقييم، وكذلك كل ميل. ليس لدى الإنسان دافع يدفعه لأن يقبل على أويمتنع عن شيء لا يصاحبه الإحساس بالرغبة في النافع واجتناب القبيح، ولا دافع خال من نوع المعرفة الذي يقدر قيمة الهدف. إننا نعرف ككائنات لامنطقية، وبالتالي غير منصفة، ونحن قادرون على الاعتراف بهذه المسألة : إنه النشاز الأقوى، الصعب شفاؤه ،في الوجود.

33. الخطأ بشأن الحياة ضروري للحياة

يقوم كل اعتقاد في قيمة الحياة ونبالتها على فكرة خاطئة؛ إن ما يجعله ممكنا هو كون أحاسيس مشاركة الإنسانية في حياتها وفي معاناتها العالميتين ليست متطورة لدى الفرد بشكل كبير. حتى أفراد النخبة الذين يسمو فكرهم عن شخصهم لايتأملون هذه الحياة العالمية،بل أجزاء منفصلة ومحدودة. إذا استطاع المرء أن يركز انتباهه بالخصوص على بعض الاستثناءات: أعني على ذوي الطباع النبيلة والنفوس الطاهرة، إذا رأى في تكوينهم الهدف من تطور العالم، وإذا وجد متعة في نشاطاتهم، فإنه سيستطيع أن يؤمن بقيمة الحياة، نظرا لكونه يهمل الناس الآخرين آنذاك : إذن فهو يزيف فكره. وإذا تأملنا كذلك كل الناس، لكن فقط لكي نقر لديهم نوعا واحدا من الدوافع، الدوافع الأقل أنانية، ونبرئها بالقياس إلى الدوافع الأخرى فسنستطيع من جديد أن نزرع بعض الأمل في الإنسانية بأكملها، وأن نعتقد، بهذا، في قيمة الحياة : حتى في هذه الحالة يكون سبب فعلنا لذلك خطأ في الفكر، وسواء تبنينا هذا الموقف أوذاك فإننا سنكون دائما استثناء بين الناس. مؤكد أن الغالبية العظمى من الناس تتحمل الحياة دون أن تنفر كثيرا، وبذلك تعتقد في قيمة الوجود، غير أن ذلك يتم لأن كل واحد لا يريد إلانفسه ولايقر إلا بها ولايغادر ذاته مثلما تفعل هذه الإستثناءات : إن هؤلاء لا يدركون شيئا مما يتجاوز شخصهم أو أنهم يبصرون ظلا دقيقا على أكثر تقدير. هكذا فإن قيمة الحياة ترتكز، بالنسبة للإنسان العادي، على كونه يولي نفسه أهمية أكبر من التي يوليها للناس. إن النقص الكبير في التخيل الذي يعاني منه يجعله عاجزا عن مناغمة إحساسه مع إحساس الاخرين، بحيث أن اهتمامه بمصيرهم وبمعاناتهم يكون بأقل قدر ممكن. في

المقابل، إن ذاك الذي سيهتم بها فعلا سوف لـن يسعه إلا أن ييأس من قيمـة الحياة؛ فلو توفق في تمـثل شعور(conscience) الإنسـانية كلـه والإحساس به فسينـهار وهو يلـعن الوجود، - لأن الإنسانية ليس لها أي هدف، بالإجمال . ولن يمكن للإنسان، بالتالي، أن يجد فيها، إذا تأمل سيرها العام، لا العزاء ولا السند، بل اليأس. وإذا ما انتهى إلى أن يرى في كـل ما يقوم به غيـابا مطلقا لأهـداف إنسانية فإن نشاطه الخاص سيأخذ في نظره صبغة التبذير. وإن إحسـاس المرء بأن إنسانيته (وليس فقط شخصه كـفرد) تبذر بالطريقة نفسـها التي نرى الطبيعة تبذر بها أزهارها واحـدة واحدة، لهو إحساس يفوق كل الأحاسيس. - لكن من يقدر عليه؟ وحـده الشاعر، بكل تأكيد : والشعراء يعرفون دوما كيف يواسون أنفسهم.

34. بمثابة عزاء

ألا تتحول فلسفتنا هكذا إلى مأساة ؟ ألا تصير الحقيقة عدوة للحياة، للأفضل؟ يبدو أن سؤالا ما يلح على لساننا لكنه مع ذلـك لايريد أن يطرح نفسه : هل يمكن أن نستمر في الكذب ونحن نعلم؟ ولو تطلب الأمـر ذلك قطعا، ألا يكون الموت أفضل؟لأنه ليس هناك أمر قطعي؛ ذلك لأن الأخلاق، بقدر ما كانت أمرا قطعيـا، هي خير مثلما خير هو الدين وقد صيرته طريـقتنا في الرؤيا لاشيء. لايمكن للمعرفـة أن تبقي من الدوافع سوى على اللذة والإشمئزاز والمنفعة والضرر : لكن كيف ستتكيـف هذه الدوافع مع معنى الحقيقة؟ لأنهـا تتاخم الأخطاء هي كذلك (في حـدود كون الميل والنفور، بتقيـيماتهما غير المنصفة، كما أسلفنا ، هما اللذان يحدان بالأساس اللذة والاشمئزاز). لقد وقعت الحياة الإنسانير كلها في قعر الكذب؛ ولن يستطيع الفرد إخراجها من هذا الجب، إن لم تتوفر لديه أشد الأسـباب وجاهة كي يمقت ماضيه ، إن لم ير أن دوافـعه الحالية، كدافع الشـرف، عبثيـة، وإن لم يواجـه بالسخـرية والازدراء تلـك الأهواء التـي تنمو فـي اتجاه المستقبـل وفي اتجاه سعادة أخروية. هل صحـيح أنه لن تبقى هناك سـوى طريقة واحدة في التفكـير ستكون عاقبتهـا هي اليأس وستكون خاتمـتها النظرية هي فلـسفة الهدم؟ - أعتقـد أن القرار بخـصوص نتائـج المعرفة يتـوقف على المـزاج الشخصـي ؛ هذه النتـيجة المذكورة انفـا، الممكنة لدى بعـض الطباع، يمكنني أن أتـخيل واحدة أخرى مثلـها تماما ستتـكون بفضلـها حيـــاة بسيطـة تكون خالصـة من العواطـف أكثر من حيـاتنا الحالية :بحيث أن الدوافـع القديمة، دوافع العنف والجشع، ستحتفظ بـقوتها في البداية، ولاشك، نتيجة لـعادة موروثة عن الماضي، لكنهـا ستضعف بالتدريج تحت تـأثير المعرفة المطهر. سننتهي إلى أن نحيا بين الـناس ومع ذاتنا كما في الطبيعة، دون مدح، دون ذم،

دون اندفاع، نتملى كما لو بمشهد كثير من الأشياء التي كنا نخافها حتى الآن. سنكون قد تخلصنا من التشدق وسوف لن نحس بمنخس فكرة كوننا لسنا تلقائيين فقط، بل أكثر من ذلك. لقد قلنا أن ذلك سيتطلب، بالتأكيد، طبعا سويا، نفسا واثقة، متسامحة ومرحة في العمق، مزاجا لن يكون في حاجة للإحتراس من الخداع ومن الانفجارات المفاجئة التي سوف لن يكون في تمظهراتها أي أثر لهذه النبرة الزاجرة وهذه الفظاظة اللتين نعرفهما، وهي سِمات بشعة تختص بها الكلاب والناس الذين هرموا في القيود، إن إنسانا تخلص نهائيا من قيود الحياة بحيث أصبح يحيا فقط من أجل تحسين معرفته باستمرار عليه، على العكس، أن يستطيع التخلي دون حسد أوغم عن كثير من هاته الأشياء، بل عنها كلها تقريبا، هاته الأشياء التي لها بعض القيمة في عيون الاخرين؛ ينبغي أن تكفيه تلك الحالة التي تجعله يحلق بحرية وشجاعة فوق الناس، فوق التقاليد، فوق القوانين والتقييمات التقليدية للأشياء، نظرا لكونها هي الحالة المرغوب فيها أكثر. إنه يريد أن يعلن عن الفرحة التي تنتابه من هذه الحالة، يحب أن يعلن عنها، وربما ليس لديه أي شيء اخر يعلن عنه، – وهو ما يعني حرمانا، تخليا اخر. وإن طلبنا منه أكثر من ذلك فسيحيلنا بإيماءة إرعائية من رأسه إلى أخيه إنسان الفعل الحر، وربما لن يخفي شيئا من سخريته : لأن «حرية» هذا الإنسان حكاية أخرى.

الكتاب الثاني

خدمة لتاريخ الأحاسيس الأخلاقية

35. منافع الملاحظة النفسية.

كان الناس في القرون الماضية يعتقدون، يعرفون أن تأمل الإنساني، المفرط في الإنسانية – أو، كما يقول المصطلح التقني : الملاحظة النفسية – هو إحدى الوسائل التي تمكنا من تخفيف عبء الحياة، وأن ممارسة هذا الفن يجعلنا حاضري البديهة في بعض الحالات الحرجة ويسلينا وسط محيط مضجر، بل أكثر من ذلك، أنه يمكننا من جني محصول من الحِكَم في الميادين الشائكة والعويصة من حياتنا، بحيث أن ذلك يجعلنا نشعر بتحسن. لماذا نسيها هذا القرن، هذا القرن الذي تشير فيه علامات كثيرة إلى عجز الملاحظة النفسية، في ألمانيا على الأقل، إن لم يكن في أوروبا كلها ؟ إن فن التحليل والتنظيم النفسيان هذا لايغيب كثيرا عن الرواية، عن القصة القصيرة وعن الدراسة الفلسفية،– التي يمارسها أفراد يشكلون الاستثناء ؛إنه يغيب أكثر عن الأحكام الصادرة بخصوص الشخصيات والأحداث العامة؛ ويغيب بالخصوص عن كل مستويات المجتمع التي يتم فيها الحديث كثيرا عن الناس وليس أبدا عن الإنسان . لماذا يحرم أناس هذه المستويات أنفسهم من موضوع الحديث الأكثر غنى وبراءة؟بل لماذا لم يعودوا يقرأون أرباب الحكمة النفسية ؟ لأنه، وأقول هذا دون أدنى مبالغة : يندر أن يكون هناك في أوربا إنسان مثقف قرأ لاروشفوكو والكتاب الآخرين الذين لهم نفس العقلية ونفس الفن؛ وأندر من ذلك وجود شخص عرفهم ولم يحتقرهم. وحتى هذا القارىء الاستثنائي ربما يجد في ذلك لذة أقل من تلك التي يفترض أن يمنحها إياه شكل هؤلاء الفنانين؛ لأنه حتى العقل الشديد الدقة لا يستطيع أن يقدر فن شحذ الحِكَم حق قدره إن لم يكن قد درب على ذلك، إن لم يجهد نفسه في ذلك. في غياب هذا التعليم التطبيقي يعتقد الناس أن عمل الشكل هذا أسهل مما هو عليه، لا ينفذ إحساسهم إلى مافيه من التفوق ومن السحر. لذلك لا يجد فيه قراء الحِكَم الحاليين سوى لذة عديمة الطعم نسبيا، لا يقرأونها بشهية، حتى أنهم يوجدون تماما في نفس

وضع عشاق الجزع المنقوش* التافهين : الذين يَمْدَحُون لأنهم يَعْجِزُون عن الحب، وسرعان ما يُعْجَبُون لكنهم بأسرع من ذلك ينسحبون.

36 . نقطة نظام.

إلاأن تكون هناك حجة لمعارضة هذا الافتراض الذي يقول بأن الملاحظة النفسية هي إحدى مفاتن الوجود، إحدى علاجاته، مُلَطِّفَاته؟ ألن يكون الناس قد اقتنعوا بما فيه الكفاية بعواقب هذا الفن الوخيمة كي يتعمدوا تحويل الأشخاص الذين يتثقفون، منذ الآن، بعيدا عنه؟ في الواقع،قد يكون إيمان أعمى بطيبة الطبع الإنساني، أو نفور راسخ من تحليل التصرفات الإنسانية، أو نوع من الحياء بخصوص عري الروح، قد تكون كلها أشياء مرغوبة فعلا، فيما يتعلق بمجموع سعادة إنسان ما، أكثر من هذا النفاذ النفسي الذي هو ميزة مفيدة في بعض الحالات الخاصة جدا؛ وربما يكون الاعتقاد في الخير، في الناس الأفاضل والأعمال الفاضلة، في إرعاء منتشر بين الناس بوفرة في العالم، قد صَيَّر الناس أفضل بجعلهم أقل ارتيابا. لو قلدنا بحماس أبطال بلوتارخ ونحن نحس بالنفور الذي علينا إظهاره كي نجعل بواعث تصرفاتهم موضع شك فسيكون ذلك ربحا. ليس بالنسبة للحقيقة بكل تأكيد، بل بالنسبة للسير الحسن للمجتمع الإنساني : إن الخطأ النفسي، وبشكل عام، فقد الحس في هذا الميدان، هما اللذان يساعدان الإنسانية على التقدم، في حين أن معرفة الحقيقة ربما تستفيد أكثر من القوة المحرضة لفرضية قدمها لاروشفوكو في صدر طبعته الأولى من حكم وأمثال أخلاقية كمايلي : إن ما يسميه الناس فضيلة ليس في الغالب سوى شبح كونته أهواؤنا، ونطلق عليه اسما شريفا كي نقوم بمانريد ونحن آمنون من العقاب.» إن لاروشفوكو وسواه من أرباب الدراسة النفسية الفرنسيين (الذين انضم إليهم مؤخرا هذا الألماني مؤلف ملاحظات نفسية)* يشبهون الرماة الذين يسددون بدقة ويصيبون الهدف في الظلمة بانتظام، – في ظلمة الطبع الإنساني. إن براعتهم لتستدعي الإندهاش، إلى أن يلعن هذا الذي يبدو أنه يُرَسِّخ في النفوس الميل إلى الإنتقاص من شأن الإنسان والشك فيه.

37 . ومع ذلك

أيا تكن حساباتنا لصالح أوضد علم معين في وضعه الراهن فإن نهضة الملاحظة النفسية قد أصبحت ضرورية، ولم يعد بوسعنا أن نُجَنِّبَ الإنسانية رؤية

*Camée = ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان ينقش ويتخذ حلية (المنهل)

* يقصد Paul Rée (المترجم)

المنظر البشع لطاولة التشريح ، لمباضعها وملاقطها. الإمرة هنا تعود إلى هذا العلم الذي يتحرى أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية، كما يسمونها، والذي مهمته، كما تقدم، هي طرح المشاكل الإجتماعية المعقدة وحلها. الفلسفة القديمة تجهل هذه المشاكل جهلا تاما، وقد تلافت دائما، بأعذار تافهة، دراسة أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية. ويمكننا أن نرى نتائج ذلك بوضوح الآن وقد برهنت الكثير من الأمثلة على أن أخطاء الفلاسفة الكبار تنطلق كلها من تأويل خاطىء لبعض التصرفاتوالأحاسيس الإنسانية، على أن تحليلا خاطئا، مثلا لتصرفات قيل عنها أنها نزيهة، يتخذ كقاعدة لإقامة أخلاق خاطئة يتم اللجوء حبا فيها إلى طلب عون الدين والأوهام الميثولوجية، وبذلك تنتهي ظلال هذا الشبح الغامض بأن تخالط الفيزياء ومجمل أفكارنا عن العالم. إذا كان أكيدا أن هذا الجانب السطحي من الملاحظة النفسية قد نصب، ولازال ينصب، أخطر فخاخه للحكم والتفكير الإنسانيين فإننا سنحتاج، للقيام بمهمتنا، منذ الآن، إلى تلك الاستماتة التي لا تكل من وضع حجر على حجر، وحصاة على حصاة ، سنحتاج جسارة في اعتدالنا حتى لانحمر خجلا من هذه المهمة المتواضعة جدا وحتى نستخف بكل الازدراء الذي ستثيره. لنقل الحقيقة : لاحصر للملاحظات المترفعة التي تمت بخصوص نصيبنا الإنساني، المفرط في إنسانيته، والتي يعود الفضل في اكتشافها وأول تعبير عنها إلى دوائر المجتمع التي اعتادت تكريس كل الطرق، ليس للمعرفة العلمية، بل للتأنق الروحي؛وقد بقيت رائحة أول مهد للحكم الأخلاقي - وهي رائحة تغوي كثيرا - عالقة بهذا الصنف كله،وكأنها لاتفارقه : وهي سبب كون رجل العلم يظهر لاإراديا بعض الإرتياب بخصوص هذا الصنف وبخصوص جديته. لكن يكفي أن تحيل على الاستتباعات : لأننا بدأنا منذ الان نرى كم هي جدية تلك النتائج التي تتكاثر في ميدان الملاحظة النفسية. ماهو هذا المبدأ الكبير الذي يصل إليه مؤلف كتاب عن أصل الأحاسيس الأخلاقية*، أحد المفكرين الجريئين والهادئين، بفضل تحليلاته القاطعة والحاسمة للسلوك الإنساني؟ «الإنسان الأخلاقي، يقول، ليس بأقرب إلى العالم المعقول (الميتافزيقي) من الإنسان الجسداني.*» هذا الافتراض الذي قوته وشحذته ضربات مطرقة المعرفة التاريخية قد يكون يوما ما في المستقبل غير المنظور، المعول الذي سيقطع به جذع «الحاجة الميتافزيقية» لدى الناس - وقد يكون ذلك رحمة أكثر منه لعنة بالنسبة للأجيال القادمة، من يدري؟ - لكنه يظل على كل

* يقصد Paul Rée

* متعلق أساسا بالجسد وبحاجته

حال، وإن كانت تبعاته لاحصر لها، اقتراحا خصبا ومرعبا في ذات الوقت، ويسحر الناس بثنائية وجهه التي تتميز بها كل المعارف الكبرى.

38.نافع، لكن إلى أي حد؟

لنلخص : إن معرفة ما إن كان ما تقدمه الملاحظة النفسية مفيدا للناس أم مضرا بهم قد تظل معلقة على أية حال؛ لكنها ضرورية بالتأكيد نظرا لكون العلم لن يستطيع الاستغناء عنها، والحال أن العلم، كما الطبيعة، لايعرف أي اعتبار للغايات الأخيرة؛ ومع ذلك،مثلما تحقق هي عند الإقتضاء، ودون أن تريد ذلك، أشياء مناسبة جدا، كذلك العلم الأصيل، مقلد الطبيعة في المفاهيم، سينمي بالصدفة، بل وبوفرة، ماهو نافع لرفاهية الناس، وسيبلغ الدقة في الممارسة، - لكن دون أن يريد ذلك هو الاخر.لو أن شخصا، وقد لامسه نَفْس ُمثل هذه الطريقة في الرؤية، أحس أن روحه قد جمدها الشتاء فعلا، فربما يعني ذلك أن النار فقط هي التي تنقصه؛ فليلق نظرة حوله وسيرى بعض الأمراض التي يكون تزميل صاحبها في الثلج ضروريا للعلاج، وسيرى أناسا وقد «امتلأوا» جمرا وعقلا إلى حد أنهم لايجدون في أي مكان هواء باردا وجارحا لهم. علاوة على ذلك، مثلما يحتاج بعض الآخرين السريعي الاهتياج والمتقلبين، من وقت لآخر، إلى أعباء ثقيلة ومضنية من أجل صحتهم : ألن يكون ضروريا بالنسبة لنا، نحن الذين من مستوى عقلي عال في قرن يلتهب أكثر فأكثر،أن نلجأ إلى كل الوسائل المتاحة، المطفئة والمبردة، حتى نحافظ على الأقل على القدر المتبقي لدينا من الجَلَد، من سلامة النية ومن الإتزان، ونبرهن بذلك على منفعتنا ونحن نعمل كمراة لهذا القرن وكوعي لتأمله لنفسه؟...

39. حكاية الحرية المعقولة.

يمر تاريخ الأحاسيس التي بسببها نجعل شخصا ما مسؤولا، أي تاريخ الأحاسيس المسماة أخلاقية، يمر بالمراحل الكبرى الآتية . بالنظر إلى التصرفات معزولة عن بواعثها ثم نقول عنها بأنها حسنة أو قبيحة فقط بسبب نتائجها النافعة أو الضارة. لكننا سرعان ما ننسى أصل هذه التسميات ونتصور أن ميزة «حسنة» أو «قبيحة» ملازمة للتصرفات ذاتها، في استقلال عن نتائجها : مُتَبنين نفس الخطأ الذي يجعل اللغة تصف الحجر بأنه صلب والشجرة بأنها خضراء - أي أننا نعتبر المعلول علة. بعد ذلك نضفي ميزَة حسنة أو قبيحة على الدوافع نفسها ونعتبر التصرفات في ذاتها غامضة أخلاقيا . نمضي أبعد فنطلق المحمول (predicat) حسن أوقبيح ليس على الدافع

معزولا بل على كيان الفرد كله الذي عنه يصدر الدافع مثلما من التربة تخرج النبتة. هكذا نجعل الإنسان بالتوالي مسؤولا عن النتائج التي يثيرها، وعن تصرفاته، ثم عن دوافعه، وأخيرا عن كيانه نفسه. ننتهي إذن بأن نكتشف بأن هذا الكائن لا يمكنه أن يكون مسؤولا نظرا لكونه ليس سوى استتباع حتمي ونتيجة لتشابك أشياء ماضية وحاضرة ولتأثيرها في بعضها؛ بحيث أنه ل لا يمكننا أن نجعل الإنسان مسؤولا عن شيء، لا عن كيانه، لا عن دوافعه، لا عن أفعاله، ولا عن نتائجها. هكذا نصل إلى نقطة الإعتراف بأن تاريخ الأحاسيس الأخلاقية هو تاريخ خطأ، خطأ المسؤولية ؛ الذي يقوم على الخطأ المتعلق بحرية الإرادة. - ماذا كان شوبنهاور يعارض بالتفكير التالي : مادامت بعض الأفعال تستتبع ندماً («إحساسا بالخطأ») فلا بد أن هناك أي داع لمثل هذا الندم لو أن كل أفعال الإنسان كانت تتم ليس لزوما فقط - مثلما تتم فعلا حسب رأي هذا الفيلسوف نفسه - ، بل لو أن الإنسان نفسه كان يتبوأ كيانه كاملا بنفس اللزوم - الشيء الذي ينكره شوبنهاور. يعتقد شوبنهاور، بفعل هذا الندم، أنه يقدر أن يبرهن على حرية يكون الإنسان قد حصل عليها بطريقة ما، ليس من جهة أفعاله بكل تأكيد، ، بل من جهة جوهره : إنها إذن حريته في أن يكون فلانا أوفلانا، وليس أن يتصرف بهذه الطريقة أوتلك. إن *L'esse التي هي حقل الحرية والمسؤولية، بستتبع، في نظره، L'operari ، التي هي حقل السببية واللزوم واللامسؤولية المطلقة. والندم المذكور قد يرتبط في الظاهر ب *L'operari - وهو بذلك سيوصل إلى الخطأ - ، لكنه في الواقع يرتبط في ب L'esse، الذي هو فعل إرادة حرة، وعلة أساسية لوجود الفرد؛ إن الإنسان يصير ما يريد أ ن يصيره، وإرادته سابقة لوجوده.- القياس الفاسد هنا هو أن نخلص من حقيقة الندم إلى تبريره، إلى أساسه المنطقي؛ وبالانطلاق من هذا القياس الفاسد يصل شوبنهاور إلى خلاصة وهمية عن حرية يسميها معقولة. لكن الندم الذي يأتي بعد الفعل لا يحتاج إطلاقا إلى أن يقوم على منطق : بل إنه ليس كذلك بالتأكيد، لأنه يقوم بالضبط على الفرضية الخاطئة بأن الفعل لم يكن لازم الحدوث. هكذا إذن يشعر الإنسان بالحسرة وبتبكيت الضمير لأنه حر. - علاوة على ذلك، فهذا الندم إنما هو عادة يمكن أن نقلع عنها ، على أية حال، إن كثيرا من الناس لا يشعرون به حين قيامهم بأفعال تثيره لدى كثيرين غيرهم. إنه شيء متغير جدا، مرتبط بتطور العادات والحضارة، وربما لايظهر إلاخلال مرحلة قصيرة نسبيا من التاريخ العالمي. - لا أحد مسؤول عن أفعاله، لا أحد مسؤول عن كيانه؛

* الخلق = l'esse . العمل = L'operari

وإصدار حكم معناه عدم الإنصاف. ويصح ذاك أيضا حين يصدر الفرد حكما على نفسه. الإفتراض واضح وضوح شمس مشرقة، ومع ذلك فإنه هو الحالة التي يفضل فيها الكل العودة إلى الظل وإلى الكذب – خوفا من العواقب.

40. ألفَوْحَيَوَان.

الحيوان الذي فينا يريد أن يخدع؛ الأخلاق هي تلك النجدة الكاذبة التي تحفظنا من التمزق. ولو لا الأخطاء التي تتضمنها الفرضيات الأخلاقية لظل الإنسان حيوانا. لكنه بهذا قد اعتبر نفسه شيئا متفوقا وفرض على نفسه قوانين أشد صرامة، كما أنه يشعر بحقد تجاه المراحل التي ظلت أقرب إلى الحيواينة : من هنا يمكن تفسير الاحتقار القديم للعبد، هذا الإنسان الذي ليس إنسانا، هذا الشيء.

41. الطبع الثابت.

إن الحكمة المفضلة القائلة بأن الطبع لايتغير ليست صحيحة بحصر المعنى، إنها تعني على أكثر تقدير، أن الدوافع الفاعلة لايمكنها عادة، أثناء الوجود القصير لإنسان ما، أن تنحت نفسها بعمق كاف كي تمحو آثار الألفيات. لكن لو تخيلنا إنسانا عمره ثمانون ألف سنة فسنجد لديه طبعا شديد التغير : بحيث ستتولد عنه تترى جماعة من الأفراد المختلفين. إن قِصَرَ حياةِ الإنسان هو الذي يضللنا فندافع عن الأخطاء المتعلقة بمزايا الإنسان.

42. الأخلاق وترتيب المنافع.

إن تراتبية المنافع التي تم قبولها نهائيا حسب الدرجات العليا أو الدنيا لدى أنانية تريد هذا أوذاك هي التي تقرر الآن الصفات الأخلاقية أو اللاأخلاقية. إن تفضيل منفعة من الدرجة الدنيا (كمتعة حسية مثلا) على أخرى تعتبر أعلى (كالصحة مثلا) يعتبر شيئا لاأخلاقيا تماما مثل تفضيل العيش الرغيد على الحرية. لكن تراتبية المنافع لايمكن أن تظل جامدة وثابتة عبر كل العصور، فالإنسان الذي يفضل الإنتقام على العدالة هو إنسان أخلاقي حسب معايير حضارة ماضية، ولاأخلاقي حسب معايير حضارتنا الحالية. إن كلمة «لاأخلاقي» تعني أن الفرد لازال لم يشعر، أو أنه يشعر قليلا فقط، بالدوافع السامية في سلم الرقة والعقل اللذين يعتبران في كل مرة محصلة حضارة جديدة : إنها تعني متخلفاً، لكن دائما حسب فارق الدرجة وحده . – إن تراتبية المنافع نفسها لاتتم إقامتها أوتقويضها حسب وجهات النظر الأخلاقية؛ على العكس، إن الحكم على فعل ما بأنه أخلاقي أولاأخلاقي يتم بعدأن يكون هذا الفعل قد تم القيام به فعلا.

43. الأفظاظ متخلفون.

يُعتبر الناس الأفظاظ في وقتنا الراهن، في نظرنا، بقايا بعض المراحل من الحضارات القديمة : مرة واحدة يكشف فيهم جَبَلُ الإنسانية عن التشكيلات العميقة التي عادة ما تظل مغمورة. إنهم كائنات متخلفة لم يتطور عقلها، نتيجة لكل المصادفات المحتملة أثناء الوراثة، في اتجاه الرقة والشمولية. إنهم يكشفون لنا كيف كنا نحن كلنا ثم يجعلوننا نولي هاربين من شدة الرعب : لكنهم غير مسؤولين عن ذلك مثلما قطعة صوَان ليست مسؤولة عن كونها صوَاناً. لاشك كذلك أن في مخنا أخاديدُ تلافيفَ تطَابقٍ هذه العقلية، كما قد توجد في شكل بعض أعضاء الإنسان بقايا تذكر بالسمك. لكن هذه الأخاديد والتلافيف لم تعد هي المجرى الذي يسلكه تيار أحاسيسنا.

44. العرفان بالجميل والإنتقام.

إن ما يجعل القوي يعترف بالجميل هو مايلي : إن الذي أحسن إليه قد اخترق، نوعا ما، بذلك الإحسان حقله كي يَلجَهُ، وانتقاما منه يخترق هو بدوره حقل المحسن بفعل عرفانه. إنه شكل مهذب من أشكال الإنتقام. ولولا ذلك الرضا الذي يجنيه القوي من عرفانه لبدا عاجزا ولَاعتُبِرَ كذلك منذ ذلك الحين. ذلك هو ما يجعل مجتمع الطيبين، الذي هو أصلا مجتمع أقوياء، يضع العرفان بالجميل في مصاف الواجبات الأولى. - لقد أطلق سويفت (swift) المزحة القائلة بأن الناس يعترفون بالجميل بنفس القدر الذي يفكرون به في الإنتقام.

45. ازدواجية ما قبل تاريخ الخيروالشر

لمفهوم الخير والشر ماقبل تاريخ مزدوج : أولا في روح الأعراق والطبقات المهيمنة. الذي يقوى على رد الضربة مقابل الضربة، الخير مقابل الخير، الشر مقابل الشر، ويقدم كذلك على الإنتقام بالفعل، هذا يبدو إذن معترفا بالجميل وميالا للثأر، فيدعونه خَيراً. أما العاجز الذي لايقدر على المعاملة بالمثل فَيُعْتَبَر شريرا. الخَيِّر ينتمي إلى «الخيرين»، إلى جماعة لديها إحساس بالتضامن، لأن كل أفرادها يرتبطون فيما بينهم بروح الثأر. الشرير ينتمي إلى «الأشرار»، إلى لمامة من لَيِّني العريكة والعاجزين الذين لايعرفون للتضامن معنى. الخيرون طبقة، الأشرار ركام، غباره يعتبر الخير والشرير مرادفين للنبيل والحقير، للعبد والسيد، إلى حين. بينما العدو، بالمقابل، لا ينظر إليه على أنه شرير : إذ بمقدوره، هو، أن يعامل بالمثل. لدى هوميروس نجد أن الطروادي والإغريقي خيران

كلاهما. لايعتبر شريرا ذلك الذي يصيبنا ببعض الأذى بل ذلك الذي هو موضع احتقار. في مجتمع الخيرين يكون الخير متوارثا؛ إذ يستحيل أن تـنْتجَ مثل تلك الأرض الطيبة كائنا شريرا. ولو أن فردا من الخيرين قام، رغم كل شيء، بشيء لايليق بهم، فإنهم ينتحلون له الأعذار، كأن يَعْزُوا ذلك إلى إله مثلا قائلين بأنه أصاب ذلك الخَيِّر بالعمى والحمق. ثانيا، في روح المضطهدين والعاجزين. هنا يعتبر كل فرد من الناس الآخرين عدوا، عنيفا، مستغلا، فظا، خادعا، سواء كان هذا الفرد نبيلا أو وضيعا. شرير هي الصفة التي ينعت بها الكائن البشري، ينعت بها كل كائن حي مفترض الوجود، كإله مثلا. بشري، إلهي، يعنيان شيطاني، شرير. إن علامات الطيبة، الرأفة، الوفاء، يتم تأويلها أثناء الشعور بالخوف على أنها خداع، مقدمات لنهاية فظيعة، وسائل لتخدير اليقظة وخداعها، باختصار على أنهاتفنن في الخبث. نادرا ما قد يمكن، بمثل هذه العقلية، بناء مجتمع، وإن تم فبأبشع الأشكال : بدليل أنه حيثما يسود مثل هذا المفهوم للخير والشر فإن زوال الأفراد وذرياتهم وأعراقهم يكون وشيكا. – إن أخلاقيتنا الحالية قدد نبتت على أرض الأعراق والطبقات المهيمنة.

46. الشفقة أقوى من المعاناة.

هناك حالات تتفوق فيها الشفقة على المعاناة الشخصية. إننا، مثلا، نتألم حين يرتكب أحد أصدقائنا فعلة مخزية أكثر مما نتألم حين نرتكبها نحن. ذلك لأننا أولا نعتقد، أكثر منه هو ، في طهارة طبعه؛ ثم إن حبنا له، بسبب هذا الإعتقاد ولاشك، أكبر من حبه هو لنفسه. حتى وإن كانت أنانيته، والحالة هذه، تعاني في الواقع أكثر من أنانيتنا، مادام عليها أن تتحمل عواقب تقصيرها الوخيمة، ومع ذلك فإن غيريتنا – لايجب أن تفهم هذه الكلمة بمعناها الدقيق، لأنها ليست سوى تسهيل للتعبير – يكون تأثرها بليغا أكثر من تأثر غيريته هو.

47. وسواس المرض.

هناك أناس يصابون بوسواس المرض بسبب تعاطفهم مع شخصآخر وانشغالهم به، ولاتكون نوعية الشفقة التي تظهرآنداك سوى مرض. هناك أيضا من هذا الطراز وسواس المرض المسيحي الذي يصيب أولئك الأفراد الوحيدين الذين تعذبهم الأحاسيس الدينية والذين يستحضرون دائما آلام وموت المسيح.

48. اقتصاد الطيبة.

الطيبة والحب، هاتان المفردتان ذاتا المزايا الصحية في معاشرة الناس، هما بهذا الإعتبار لُقَيْتَان ثمينتان جدا بحيث أننا قد نرغب بسرور أن يتم استعمال هذين البلسمين

بأقصى مايمكن من الإقتصاد : إلا أن ذلك شيء مستحيل.إقتصاد الطيبة هو حلم أكثر الحالمين (utopistes) جسارة.

49. إرعاء

ضمن الأشياء البسيطة، لكن التي تتضاعف بلا نهاية وتكون بالتالي فعالة جدا، التي على العلم أن يوليها إهتماما أكثر من الذي يوليه للأشياء الخارقة، يجب أن نعد الإرعاء كذلك؛ أعني به تمظهرات الود في العلاقات الإنسانية، تلك الإبتسامة في العينين، تلك المصافحات، طيبة القلب تلك التي عادة ما تغلف برهافة كل تصرفات الناس تقريبا. ليس هناك أستاذ أو موظف لايضيف لواجبه هذه التكملة؛ إنها استعمال دائم للإنسانية وكأنها موجات ضوئها التي تزدهر فيها كل الأشياء؛ إن الحياة في المجال الضيق جدا، خصوصا في إطار العائلة، لاتخضر ولاتزهر إلابفضل هذا الإرعاء. المودة واللطافة ولياقة القلب هي منابع الدوافع الغيرية التي لاتنضب، وقدساهمت بقوة في تشييد صرح الحضارة أكثر من التمظهرات المعروفة لنفس الدوافع التي نسميها شفقة، رحمة، وتضحية. لكننا عادة ما لانقدرها حق قدرها ، والحقيقة أنه ليس فيها من الغيرة الشيء الكثير .رغم ذلك فإن مجموع هذه المقادير الصغيرة جدا كبير، وقوتها تعتبر إجمالا أكبر القوى على الإطلاق كما أننا نكتشف في العالم من السعادة أكثر مما تكتشفه نظرة حزينة : شريطة أن نحسب حسابنا جيدا، بالطبع وأن نحذر خصوصا نسيان ساعات الانشراح التي يزخر بها كل يوم من أيام كل حياة إنسانية، حتى أكثرها معاناة.

50. الرغبة في إثارة الشفقة.

في أروع مقطع من وصفه لنفسه (الذي صدر لأول مرة في طبعة1658 ، يصيب لاروشفوكو بالتأكيد حين يحذر كل العقلاء من الشفقة، وحين ينصح بتركها لعامة الناس الذين يحتاجون (مادام لايحكمهم العقل) إلى العواطف كي تقودهم إلى مساعدة الذي يعاني والتدخل بقوة في حالة وقوع مصيبة؛ بينما الشفقة، في رأيه (كما في رأي أفلاطون)، إنما تهيج الروح ليس أكثر يقول إنه ينبغي ولاشك إظهار الشفقة لكن ينبغي الإحتراس من التوفر عليها : لأن التعساء هم فين نهاية المطاف بلداء جدا بحيث لايرون في الدنيا شيئا أعظم من هذا الإظهار للشفقة. - إذا لم نتصور حاجة التعساء على أنها حماقة وقصور فكري ،على أنها نوع من الخلل العقلي الذي يصاحب المصيبة (ويبدو أن لاروشفوكو يتصورها هكذا)، وفهمناها على أنها شيء مختلف

ومقلق كثيرا، فربما سنشدد التحذير من هذا الإحساس بالشفقة. فلنراقب الأطفال الذين يبكون ويصرخون كي يتم الإشفاق عليهم،ومن أجل ذلك يرتقبون اللحظة التي تكون فيها حالتهم بادية للعيان؛ لنتردد على المرضى وخائري النفوس، لنتساءل آنداك إن لم يكن نواحهم وتأوهاتهم الفصيحة، إن لم يكن استعراضهم لتعاستهم يهدف في الواقع إلى الإساءة للأشخاص المحيطين بهم؛ الشفقة التي يبديها هؤلاء هي عزاء لهذه الكائنات الضعيفة المتوجعة لأنها تنبهها إلى أنه، رغم ضعفها، فإنه ماتزال لديها قدرة واحدة على الأقل : القدرة على الإساءة.يتوصل التعيس إلى أن يجد نوعا من اللذة في الإحساس بالتفوق الذي يثيره لديه الإشفاق عليه؛ يتحمس خياله، إنه لايزال يتمتع بصحة تمكنه من إيلام الناس. ظمأ المرء إلى الشفقة يعني ظمأه للاستمتاع بنفسه، وذلك على حساب أمثاله؛ هنا نرى الإنسان بكل فظاظة أناه العميقة : لكننا لانرى «حماقت» مثلما يريد ذلك لاروشفوكو. - أثناء المحاورة يطرح الناس ثلاثه أرباع الأسئلة ويقدمون ثلاثة أرباع الأجوبة، وذلك بغية الإساءة ولو بقسط ضئيل جدا إلى من يحاورونه؟ لذلك يتلهف الكثير من الناس إلى الرفقة : منها يستمدون إحساسهم بالقوة. إنها تشكل حافزا قويا على الحياة لهذه المقادير الصغيرة اللاتحصى التي فيها تُظهر الأذية مزاياها : مثلما يشكل الإرعاء المنتشر في المجتمع الإنساني بنفس الشكل علاجا جاهزا لها. - لكن هل سيكون هناك كثير من العقول الصادقة التي ستوافق على أن الإساءة لذة؟ على أن التسلي (وبشكل جيد) بالإساءة للآخرين، في البال على الأقل، وبإفراغ سُقاطة الأذية اليسيرة عليهم ليس شيئا نادرا؟ إن عدم صدق أغلبهم، وطيبة بعضهم، يحولان بينهم وبين معرفة هذا الشيء المخجل (pudendum) ؛ وسيروق لهؤلاء على كل حال أن ينكروا أن بروسبر ميريمي كان على صواب حين قال : «إعلموا أيضا أنه ليس هناك شيء شائع أكثر من الإساءة حباً في الإساءة.»

51. ليصبح المظهر كينونة.

لايستطيع الممثل الهزلي، حتى والألم يعتصره، حين يتعلق الأمر بدفن ابنه هو مثلا، لايستطيع أن يتوقف عن التفكير في الإنطباع الذي خلقته شخصيته وفي أثر التمثيلية بأكملها. سيبكي على ألمه وعلى تمظهراته، متفرجا على نفسه، إن المنافق، الذي يمثل دائما نفس الدور، لايعود في النهاية منافقا؛ فالرهبان،الذين عادة ما يكونون منافقين عن وعي أوعن غير وعي أثناء شبابهم، ينتهون بأن يصبروا رهبانا تلقائيين ، ومنذ ذلك الحين يصيرون، في الواقع، رهبانا أفضل ما يمكن ودون أدنى تصنع؛ وإن فَشِلَ الأب في ذلك فإن الإبن سَيَفْلِحُ فيه، لأنه سيستفيد مِنْ سَبْقِ أبيه ويرث عنه التمرن. حين يعاند المرء

طويلا في إرادته الظهور بمظهر ما فإنه يصعب عليه في النهاية أن يكون شيئ آخر. كل المواهب تقريبا، بما فيها موهبة الفنان، تبدأ بالنفاق، بالتقليد الظاهري، بتقليد التأثير. الإنسان الذي يظهر دائما بأقنعة محببة إلى النفس ينتهي حتما إلى أن يتحكم في حالات العطف التي بدونها لايمكن انتزاع أدنى عبارة لطف، - وهي التي تنتهي بأن تتحكم فيه بدورها، إنه عطوف.

52. ذرة الصدق في المكر.

تبرز لدى كل الماكرين الكبار ظاهرة فريدة يدينون لها بقُوتهم. في فعل الخداع نفسه، في كل الاستعدادات، في الرعشات التي تخالج الصوت، في السحنة،في الحركات، وسط هذا الإخراج الهائل يحدث فجأة أن يثقوا بأنفسهم : وهذه الثقة هي التي تخاطب المحيطين بهم وتخضعهم كما لو بمعجزة. يتميز منشئوا الديانات عن هؤلاء الماكرين الكبار بكونهم لايتحررون من حالة الوهم التلقائي هذه، أوبكون لحظات التبصر التي يلح فيها الشك عليهم تكون نادرة؛ لكنهم يواسون أنفسهم عادة بأن يعزوا تلك اللحظات إلى العَدُو، إلى إبليس. لابد من تضليل النفس هذا كي يتمكن هؤلاء وأولئك من القيام بعملية واسعة النطاق. فالناس يؤمنون بحقيقة الشيء الذي يكون موضع إيمان راسخ.

53. درجات مزعومة في الحقيقة.

من الأخطاء الشائعة في التفكير هذه الفكرة : بمجرد ما يبدو شخص ما صادقا مَعَنَا فإننا نعتبر أنه يقول الحقيقة. هكذا فإن الطفل يُصَدق حُكم أبويه، والمسيحي يصدق تأكيدات أب المسيحية. إننا لانريد أن نوافق على أن مادافع عنه الناس في الماضي مضحين بسعادتهم وبحياتهم من أجله لم يكن سوى متوالية من الأخطاء: ربما سنقول أنه ذلك كان درجات من الحقيقة. إننا في الواقع نعتقد أنه إن كان شخص ماقد آمن بشيء ما بصدق، إن كان قد قاتل ومات من أجل إيمانه، فسيكون ظلما كبيرا لو أن خطأ واحدا يكون هو ما قد دفع به إلى ذلك. إن مثل هذه الظاهرة تبدو مُنَاقِضَةً للعدالة الثابتة (justice éternelle) ؛ كما أن قلب الناس المرهفي الإحساس يقرر، ضدا على عقلهم، هذا المبدأ المتكرر باستمرار : من اللازم أن يوجد رابط ضروري بين الأفعال الأخلاقية والمعارف الفكرية. الأمر على خلاف ذلك، مع الأسف، لأنه ليست هناك عدالة ثابتة.

54. الكذب.

لماذا يقول الناس الحقيقة في أغلب أوقات الحياة اليومية؟ – ليس لأن إلهاً مَا قد حرم الكذب،بكل تأكيد. بل ، أولا، لأن ذلك شيء مريح، لأنالكذب يتطلب ابتكارا وإخفاء وذاكرة، (وهو ما جعل سويفت يقول : نادرا مايتنبه الذي يكذب إلى العبء الثقيل الذي يلقيه على كاهله، سيلزمه، كي يدعم كذبته، أن يبتكر عشرين كذبة أخرى). ثم، لأنه من المفيد التكلم بصراحة حين يبدو كل كيء بسيطا : أريد هذا، فعلت ذلك، وهلم جرا؛ أي لأن طرق الإكراه والسلطة آمن من طرق الحيلة. – لكن لو حدث أن طفلا نشأ في جو من التعقيدات العائلية فإنه سيمارس الكذب بشكل طبيعي وسيقول دائما بشكل تلقائي ما يتوافق ومصلحته؛ إنه يجهل تماما معنى الحقيقة، يجهل النفور من الكذب بما هو كذب، وهكذا فهو يكذب بكل براءة.

55. حين يشك الإعتقاد في الأخلاق.

لاتستطيع أية قوة أن تفرض نفسها إن لم يكن ممثلوها سوى منافقين. مهما يكن عدد العناصر «العلمانية» التي تضمها الكنيسة الكاثوليكية فإن قوتها ترتكز على الرهبان، الكثيرين في أيامنا هذه، الذين يجعلون الحياة شاقة بالنسبة لهم حتى يعمقوا معناها، والذين تنبيء نظرتهم وجسدهم النحيل عن قيام الليل، عن الصوم، عن الصلوات الحارة، وربما عن التسوط. إنهم هم الذين يزعزعون الناس، يخيفونهم : ماذا لو كان لازما أن نحيا بهذا الشكل؟ – هذا هو السؤال المرعب الذي يتبادر إلى الذهن في رأيهم. إنهم في كل مرة يشيعون فيها هذا الشك يؤمنون دعامة من دعامات قوتهم؛ حتى المفكرون المتحررون لايجرؤون على مُواجهة أحد هذه الكائنات المنكرة لذاتها بطعم الحقيقة المر ويقول له: «أيها المغفل،لا تحاول خداعنا!» – إن ما يميزهم عنه هو اختلافُ وجهات النظر وليس تفاوتا في الطيبة أو الخبث على الإطلاق؛ لكننا قد اعتدنا أن لانَنصف مَا لا نحبه. هكذا نتحدث عن مواهبهم المقززة، لكننا نُعَمِّمُ ذلك على المجهودات التي يفرضها مكر اليسوعيين وعن مواهبهم المقززة، لكننا نعمم ذلك على المجهودات التي يفرضها اليسوعي على نفسه كي يكبحها ، وعلى كون الحياة البسيطة التي تدعو إليها موجزات الأخوية لاتهدف إلى أن تريحهم هم بل العلمانيين. ويمكننا أن نتساءل إن كنا نحن المتنورين، بنفس الخطة وبنفس التنظيم، سنصير أدوات ناجعة مثلهم، رائعين في ضبط النفس، في الحماس الذي لايفتر، في التفاني .

56. انتصار المعرفة على الشر الجذري.

من المفيد جدا، بالنسبة لمن يريد بلوغ الحكمة، أن يكون عقله قد انشغل لبعض الوقت بصورة الإنسان الشرير والفاسد بشكل جذري؛ إنها مزيفة، مثل تلك التي تقابلها؛ لكنها قد هيمنت خلال أحقاب كثيرة وجذورها قد انغرست وتشعبت في قلب عالمنا وفينا نحن. لكي نفهم أنفسنا علينا أن نفهمها هي؛ ولكي نسمو بعد ذلك علينا أن نتجاوزها وآندلك سنعرف أنه ليست ثمة خطايا بالمعنى الميتافزيقي، بل أنه ليست هناك فضائل بنفس المعنى؛ سنعرف أن ميدان التمثلات الأخلاقية هذا كله يتسع باستمرار، أن هناك درجات دنيا أو عليا في مفاهيم الخير والشر، الأخلاقي واللاأخلاقي. إن الذي لايتطلب من الأشياء سوى فَهْمَتَها يصل بسهولة إلى العيش في وفاق مع روحه، وإن ارتكب خطأ، (أو خطيئة، كما يقول الناس)، فسيكون ذلك عن جهل، وربما لن يكون أبدا بسبب الشهوة. إنه لن يبحث أبدا عن الهرطقة في شهواته ولا عن وسيلة لاستئصالها؛ وهدفه الوحيد، الذي هو شغله الشاغل، والمتمثل في بذله قصارى جهده في كل وقت من أجل أن يعرف، سيبرده وسيخفف من وحشية طبعه. ها هو ذا، علاوة على ذلك، قد تخلص من مجموعة من الخيالات المعذIبة وصارت كلمات الآلام الجهنمية ، المذنب، العجز عن إتيان الخير، لا تثير اكتراثه: لايرى فيها إلا الظلال المتلاشيه، ظلال المفاهيم الخاطئة عن العالم وعن الحياة.

57. الأخلاق، تجزيء تلقائي للإنسان.

الكاتب الذي يَنْكَب بحماس على موضوعه يتمنى مجيء من يقوض كل ما فعله بمعالجته لنفس الموضوع بوضوح أكثر وبإعطاء إجابة نهائية على الأسئلة التي يتضمنها. العاشقة الشابة تتمنى أن يخونها عشيعها كي تضع على المحك إخلاصها وتفانيها في حبها له. الجندي يتمنى أن يسقط في ميدان القتال من أجل وطنه الظافر؛ لأن في انتصار وطنه انتصارا الطموحه الأسمى. الأم تمنح طفلها ماتحرم هي نفسها منه، النوم، الغذاء الأفضل، صحتها إن اقتضى الحال ذلك، ثروتها. - لكن هل كل هذه السمات هي سمات حالات غيرية؟ هل هذه التصرفات الأخلاقية معجزات حتى تكون، حسب قول شوبنهاور، «مستحيلة ولكن واقعية» ؟ أليس جليا في كل هذه الحالات أن الإنسان يحب جزءا من ذاته، فكرة، رغبة، إبداعا، أكثر من جزء آخر من ذاته، أنه يجزىء كيانه ويضحي بجزء من أجل جزء آخر؟ هل يعتبر شيئا مختلفا اختلافا جوهريا إعلان شخص سيء الطبع : «أفَضِّل أن أدْحَرَ على أن أتنحى لأفسح الطريق

لهذا الشخص»؟ النزوع إلى شيء ما (أمنية، نزوة، رغبة) حاضر في كل الحالات السابقة الذكر؛ والاستسلام لها، مع تحمل كل التبعات، ليس «غيرية» على أية حال. – في الأخلاق لايعام ل الإنسا ن على أنه كائن لايتجزأ (individuum) . بل على أنه كائن يتجزأ (dividuum) .

58. مايمكننا الوعد به.

يمكننا أن نعد بأفعال وليس بعواطف؛ لأن هذه لاشعورية. الذي يَعد شخصا آخر بأن يحبه أو بأن يكرهه أوبأن يخلص له على الدوام إنما يعده بشيء لاسلطان له عليه؛ ما يمكنه أن يعد به هي أفعال عادة ما تكون، ولاشك، تبعات الحب أو الحقد أوالإخلاص، لكنها قد تنجم عن أسباب أخرى كذلك : لأن الأسباب والطرق التي تؤدي إلى نفس الفعل متعددة. الوعد بحب شخص ما دائما يعني : مادام حبي لك قائما فسأعبر لك عنه بأفعال تدل على الحب؛ وإذا كففت عن حبك فستظل موضوع نفس الأفعال من طرفي، وإن كان ذلك يتم لأسباب أخرى: بحيث سيستمر الناس في توهم كون الحب يظل ثابتا ولايتغير. – إننا حين نُقْسِمُ لشخص ما، دون أن نخدع أنفسنا، بأننا سنحبه إلى الأبد، فإن ما نعده به هو استمرار مظاهر الحب.

59. الذكاء والأخلاق.

لابد لمن يريد الوفاء بوعوده من ذاكرة جيدة. لابد لمن يريد الإحساس بالشفقة من خيال قوي. ما أشد ارتباط الأخلاق بخاصية الذكاء.

60. الرغبة في الإنتقام والإنتقام

يعتبر التفكير في الإنتقام والقيام به فعلا نوبة حمى شديدة، لكنها عابرة، أما التفكير في الإنتقام دون امتلاك القوة ولا الشجاعة للقيام به فهو اصطحاب مرض مزمن، هو تسميم للجسد والروح. الأخلاق، التي لا تأخذ بعين الاعتبار سوى النوايا، تقدر هاتين الحالتين نفس التقدير؛ وفي الحياة اليومية تعتبر الحالة الأولى هي الأسوأ(بسبب العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن الإنتقام). هذان التقييمان قصيرا النظر كلاهما.

61. معرفة الإنتظار.

إن معرفة الإنتظار من الصعوبة بمكان بحيث أن كبار الشعراء لم يأنفوا من اتخاذ الجهل بهذا الفن موضوعا لأعمالهم. هذا ما فعله شكسبير في عطيل، وسوفوكليس في

أجاكس : الذي لم يكن ليرى انتحاره ضروريا لو أنه ترك انفعاله يهدأ يوما واحدا مثلما اقترح وسيط الوحي؛ ربما كان سيسخر من إيحاءات الغرور المجروح المرعبة ويقول لنفسه : من إذن ، في مثل وضعي، لن يعتبر الكبش بطلا؟ هل يكون هذا شيئا فظيعا؟ على العكس، إنه ليس سوى سمة عامة من سمات الإنسانية؛ بهذا كان أجاكس سيواسي نفسه.خلقَ الإنفعال» من عجل؛ مأساة حياة العظماء لا تكمن في الغالب في صراعهم مع عصرهم ودناءة محيطهم، بل في عجزهم عن تأخير مشروعهم سنة واحدة أوسنتين، إنهم لايعرفون كيف ينتظرون. - في كل المبارزات يجب على الأصدقاء الذين تتم استشارتهم أن يتأكدوا من نقطة واحدة هي إذا ما كان المعنيان بالمبارزة لا يزالان قادرين على الإنتظار؛ إن كان الأمربخلاف ذلك فالمبارزة شيء معقول مادام كل واحد منهما يقول : «إما أن أظل حيا، وفي هذه الحال يجب أن يموت الآخر في الحين، وإما يكون العكس.» الإنتظار، في مثل هذه الحالة، يعني تمديد معاناة هذا الاستشهاد الفظيع استشهاد الشرف المهان في حضرة المهين، وربما تكون تلك المعاناة أكثر من المعاناة التي تستحقها الحياة.

62 . فيض من الإنتقام.

حين يشعر الأفظاظ أنه قد أسيء إليهم فإنهم عادة ما ينظرون إلى هذه الأشياء في أعلى مراتبها على الإطلاق ثم يَرْوُون أسبابها بكلمات مبالغ فيها كثيرا، وذلك بهدف الشعور بفيض حقيقي من أحاسيس الحقد والثأر التي تم بعثها فيهم من جديد.

63. قيمة التحقير.

ليسوا نادرين، بل قد يكونون هم الأوفر عددا، أولئك الذين، لكي يحافظوا على مكانتهم وعلى ميزة مَا في أفعالهم، يحتاجون أشد الحاجة إلى الغض والإنتقاص، في خيالهم، من قيمة الأشخاص الذين يعرفونهم. وبما أن الحقيرين يشكلون الأغلبية، وبما أن أشياء كثيرة تتوقف على توفرهم أوعدمه على المزية المذكورة...

64 . الغضوب.

علينا أن نحتاط من الشخص الذي يهتاج ضدنا كما نحتاط من شخص حاول اغتيالنا : لأن الواقع هو أننا لازلنا على قيد الحياة، لكن ذلك يرجع إلى غياب القدرة على القتل. لو كانت النظرة تكفي لكنا قد هلكنا منذ أمد طويل. إن إسكات شخص ما بإظهار ضراوة بدنية، بالخوف الذي نوحي به، لَيُعْتَبَرَ من سمات الهمجية. - تلك النظرة الباردة التي ينظر بها كرَمَاء النسب إلى خَدَمِهِمْ هي كذلك بَقِيَّةٌ من فصل يشبه

ذاك الذي كـانت الطبقات المغلـقة تقيـمه بين إنـسان وإنسان، سـمة من سمـات القدَم البدائي؛ حتى النساء، تلك المحافظات على الماضي، قد حافظن كذلك وبإخلاص كبير على هذه الأثارة.

65. مآل الصدق.

كانـت لأحدهم عادة مزعجة فـي أن يشرح بكـل صدق، عنـد الاقتضاء، أسـباب تصرفه القبيحة والحسنة مثل أسباب تصـرفات سائر الناس. في البدء أثار فـضيحة، بعد ذلك أثار الريبـة، ثم منعَ كلية من الكـلام وتلا ذلك حرمانه من الحقـوق المدنية، إلى أن جاء يوم تذكرت فيه العـدالة شخصا تم نبذه في ظرف لم تكن على بـصيرة منه، أو أنها كانت قد غـضت عنه الطرف. إن عـدم كتمانه لسـر الناس كلهم ومـيله اللايغتـفر إلى رؤية مَا لاَ يريد أحد (بذاته) أن يراه قد أديا به إلى السجن وإلى موت مبكر.

66. مستحق العقاب لايعاقَب أبدا.

جريمتنا في حق المجرمين هي كوننا نعاملهم كأنذال.

67. بساطة مزية الفضيلة.

لكل فضيلة مزاياها : الإسهام بوبيلها في مَحْرَقَةِ المحكوم بالإعدام.

68. الأخلاقية والنجاح.

ليس الـذين يشاهـدون فعلاً مَا هُم وحدهـم من يـقيـس في الغـالب أخـلاقيـته أو لاأخلاقيته عند نجـاحه : لا، حتى الذي يقوم به يفعل ذلك. لأن الأسـباب والنوايا نادرا ما تكـون بسيطة وواضحـة، وأحيانا تبدو حـتى الذاكرة مضطـربة بسبب نجاح فـعل ما حتى أن صاحـبها يسند فـعله لأسباب زائفة أويـعتبر الأسباب الـتافهة جوهريـة. النجاح يضفي على الفعل بَرِيقَ رَاحَة الضمير الصادق والكامل، أما الفشل فَيُلْقِي بظلال تبكيت الضمير عـلى الفعل المُعتَبَر غَايـة الإعتبار . ومن ثمة يتـم استنتاج الممارسة المـعروفة لدى السياسي الذي يفكـر هكذا : «امنحوني النجاح فقط : أنا في حـاجة إليه وحده لكي أكسب كل النفوس الشريفة إلى جانبي... ولكي أرى نفسي شريفا.» – بنفس الطريقة سيحل الـنجاح محل نوعـية الحافز. لايزال الكثـير من المثقفين فـي وقتنا الراهن يـعتبرون تفوق المسيحـية على الفلسفة اليونانـية دلـيلا على كونها حقيـقة كبرى. وإن كان قدر قليل من الفظاظة والعنف هو الذي تفوق على قدر قليل من العقل والرقة. يمكننا أن نرى

مآلت إليه هذه الدرجة الكبيرة من الحقيقة إذا ما لاحظنا أن العلوم إبان إزدهارها قدانضمت على نحو منهجي إلى فلسفة أبيقور، وعلى نحو منهجي أبانت خطأ المسيحية.

69. الحب والعدالة.

لماذا نبالغ في تقدير الحب على حساب العدالة ونتحدث عنه بكلمات براقة كما لو كان، في جوهره ، أسمى من العدالة؟ - أليس جليا أنه أبلد منها؟ - بكل تأكيد، لكنه بذلك يكون مستساغا لدى الكل. إنه بليد ويمتلك قَرْنَ خِصْبٍ غَنيٍ؛ منه يستخرج العطايا التي يوزعها على كل واحد حتى وإن كان لا يستحقها، بل حتى وإن لم يعترف له بالجميل. إنه حيادي كالمطر الذي يَبُل حتى العظام، حسب الإنجيل وحسب التجربة، ليس الظالم فقط بل العادل كذلك.

70. الإعدام.

ما الذي يجعل الإعدام يؤلمنا أكثر من جريمة القتل؟ إنه هدوء القضاة، إنها الاستعدادات لتنفيذ العقوبة، إنها فكرة كون الذي سيعدم إنسانا يتم استخدامه كما تستخدم وسيلة لإخافة الآخرين. لأن مرتكب الخطأ لم ينل جزاءه، حتى وإن كان هناك : خطأ : وهذا الخطأ نجده في المربين، في الآباء، في الوسط، إنه فينا، وليس في القاتل، - أعني أن الخطأ يوجد في الظروف الموجبة.

71. الأمل.

جاءت باندور (Pandore) بالعلبة التي تحوي الشرور وفتحتها. كانت تلك هدية الآلهة لناس، هدية جميلة المظهر، جذابة، واسمها «علبة السعادة» آنداك طارت كل الشرور، تلك الكائنات المجَنَّحَة؛ منذ ذلك الحين وهي تطوف في كل مكان وتسيء إلى الناس ليل نهار. كان هناك شَرٌّ لما يزل في داخل العلبة؛ وبأمر من زيوس أغلقت باندور العلبة فبقي داخلها. لدى الإنسان في منزله الآن، وإلى الأبد، علبة السعادة، وهو يتخيل مايشاء من الخيالات بخصوص الكنز الذي يمتلكه هناك؛ إنها تحت تصرفه، ماعليه إلا أن يمد يده حين يرغب في ذلك؛ لأنه لايعلم أن العلبة التي جلبتها باندور هي علبة الشرور ويعتبر الشر المتبقي داخلها واحدا من أكبر خيرات هذا العالم، - إنه الأمل. لقد أراد زيوس للإنسان، وقد عذبته الشرور الأخرى كثيرا، ألايرفض الحياة بسبب ذلك، وأن يستمر في تلقي العذاب دون توقف. كما أنه بذلك يمنح للإنسانية أملا : إن الأمل، في الواقع، هو أسوأ هذه الشرور مادام يطيل نكال الناس.

72. درجة اللهوبية الأخلاقية غير معروفة.

يتوقف تأجج عواطفنا وتوجيهها لحياتنا كلها أو عَدَمُه على بعض المشاهد والانطباعات المثيرة التي تؤثر أو لاتؤثر فينا، كمشهد أحد أقربائنا وقد حُكِمَ عليه ظُلْمًا بالإعدام، أو تم قتله أو تعذيبه ظلما، كمشهد امرأة خائنة لزوجها، كمشهد هجوم ضار من طرف العدو، لا أحد يعلم ما ستجره إليه الظروف، الشفقة، السخط، إنه يجهل درجة لهوبيته. العيش في ظروف الضيق والبخل تجعل المرء بخيلا؛ إنَّ سُمُوَّ الإنسان، في الخير كما في الشر، يتوقف عموما على كمية تجاربه وليس على نوعيتها.

73. الشهيد بالرغم عنه.

كان من بين أعضاء حزب ما رجل خواف وجبان لايعارض رفاقه أبدا؛ كانوا يشغلونه في كل المصالح، كانوا يحصلون منه على ما يريدون لأنه كان يخشى سوء ظن رفاقه به أكثر مما يخشى الموت؛ كان خائرا حد إثارة الشفقة. لقد انتبهوا لذلك، وجعلوا منه، بفضل مزاياه التي ذكرناها ، بطلا، بل شهيدا،في نهاية الأمر. وإن كان هذا الجبان دائما يقول لا في قرارة نفسه فإنه كان دائما يتلفظ بنعم، حتى على خشبة الإعدام التي مات عليها من أجل آراء حزبه؛ وقد تواجد بالقرب منه آنذاك أحد رفاقه القدامى الذي أرعبه بكلامه وبنظرته إلى حد جعله يواجه الموت بثبات كبير،وهو منذ ذلك الوقت مكرم كشهيد حقيقي وذي طبع نبيل.

74. معيار اليومي.

إننا لن نخطىء إلا نادرا إذا عَزَوْنَا الأفعال المبالَغ فيها إلى الغرور، والأفعال المتواضعة إلى العادة، والدنيئة إلى الخوف.

75. سوء تفاهم بشأن الفضيلة.

الذي عرف الرذيلة مرتبطة باللذة، والذي كان شبابه شباب متعة، يتصور الفضيلة مرتبطة لُزُوماً بالاشمئزاز. على العكس من ذلك فإن الذي عذبته أهواؤه وعيوبه يطمح إلى أن يجد في الفضيلة راحة النفس وسعادتها. قد يحدث بالتالي ألا يتفاهم فاضلان إطلاقا.

76. الزاهد.

يجعل الزا هد من الفضيلة شيئا لازما.

77. انتقال الشرف من الشخص إلى الشيء.

إننا، بشكل عام، نُشَرِّفَ التصرفات النابعة من الحب ومن التضحيات التي نقدمها لأجل قريبنا، مهما يكن الشيء الذي تتجلى فيه. وبذلك نضخم تقدير الأشياء التي نحبها أو التي نضحي من أجلها بنفس الطريقة حتى وإن لم تكن لها هي في حد ذاتها قيمة كبيرة. فالجيش الباسل يقنع الناس بالقضية التي يحارب من أجلها.

78. الطموح، بديل الحس الأخلاقي.

لاشك أن الحس الأخلاقي لا ينقص أولئك الذين لاطموح لهم. الطموحون يتخلصون هم كذلك من المآزق بدون الحس الأخلاقي، وبنفس النجاح تقريبا. – لذلك فإن أبناء العائلات المتوسطة، التي لاتعرف مامعنى الطموح، غالبا ما يصيرون، بتدرج سريع، إذا ما فقدوا حسهم الأخلاقي، أوغادا خالصين.

79. الغرور يغني.

كم سيكون عقل الإنسان فقيرا دون الغرور! لكن مادام فيه الغرور فهو يشبه مخزنا ممتلئا تتم إعادة تزويده بالمؤونة باستمرار ويجذب المشترين بمختلف أصنافهم : يمكنهم أن يجدوا فيه كل شيء تقريبا، أن يقتنوا منه كل شيء، شريطة أن تكون معهم العملة المتداولة (الإعجاب).

80. الشيخ والموت.

بغَضِنَا النظر عن المتطلبات التي يفرضها الدين سيكون بإمكاننا التساؤل : لماذا يعتبر انتظار الضعف البطيء حتى التحلل، بالنسبة لشيخ يشعر بتضاءل قواه، مدعاة للإعتزاز أكثر من وضعه حدا لحياته بنفسه وهو في كامل وعيه؟ الانتحار، في مثل هذه الحالة، فعل يخطر على الذهن بشكل طبيعي، وباعتباره انتصارا للعقل فلابد أن يستحق الاحترام عن جدارة : وقد كان يثير الاحترام فعلا أيام كان كبار الفلاسفة الإغريق والوطنيون الرومانيون البواسل يموتون عادة منتحرين، بالمقابل فإن عادة الاستمرار على قيد الحياة يوما عن يوم بمساعدة الأطباء الذين تتم استشارتهم بقلق، وبفضل الحميات الشاقة جدا، دون قوة تسمح بالإقتراب فعلا من النهاية الطبيعية للحياة، تستوجب احتراما أقل. – إن للديانات فيضا من الوسائل الخاصة بتجنب الإنتحار : لذلك تتسلل إلى المولعين بالحياة بتملقها لهم.

81. حيث نُخطىء فاعلين ومتلقين.

حين يأخذ الغني من الفقير أحد ممتلكاته (كأن يختطف أحد الأمراء من أحد العاميين عشيقته)، فإن خطأ يولد لدى الفقير؛ يعتقد أن الآخر ليس سوى حقيرمادام قد أخذ منه القليل الذي يمتلكه. لكن الآخر بعيد عن الإحساس القوي بقيمة متاع يتم النظر إليه على حدة، لأنه قد اعتاد أن يملك منه الكثير : إنه لا يستطيع إذن أن يدرك ما بنفس الفقير، وهو لا يرتكب ظلما كبيرا مثلما يعتقد هذا الفقير، فالأمر يتطلب منه الكثير كي يدرك ذلك. كل واحد منهما يُكَوِّن ُكرة خاطئة عن الآخر. إن ظلم القوي الذي يثير سخطا عبر التاريخ، ليس خطيرا جدا مثلما يبدو لنا. فالإحساس الوراثي لدى الأعلى مقاما بأن له حقوقا أسمى يجعله لامباليا ومرتاح الضمير؛ بل إننا جميعا، حين يكون الفرق شاسعا بيننا وبين كائن آخر، نفقد أدنى إحساس بالظلم ونقتل ذبابة مثلا دون أي تبكيت للضمير. هكذا فإنها ليست علامة شر لدى زيركسيس(Xerxés)* (الذي يصوره لنا الإغريق في غاية النبل) أن ينتزع ولدا من أبيه و يمزقه إربا إربا بسبب تعبيره عن قلق وشك مشؤومين بخصوص البعثة كلها : في هذه الحالة يتم طرد الفرد كحشرة مزعجة، إن مكانته أدنى من أن تسمح له بأن يثير لدى سيد القوم تلك الأحاسيس التي تعذب المرء طويلا. لا، إن الفظ ليس فظا بالقدر الذي يتصوره ذلك الذي يسيء معاملته؛ فالفكرة التي يكونها عن الألم ليست مطابقة لمعاناة الآخر. نفس الشي ء ينطبق على القاضي الجائر، وعلى الصحفي الذي يُضل الرأي العام بلؤمه التافه. في كل الحالات تنتمي العلة والمعلول إلى مجموعات شديدة الاختلاف من الأحاسيس والأفكار؛ ومع ذلك فإننا نفترض تلقائيا أن صاحب صنيع ما وضَحيَّتَهُ يفكران ويحسان بنفس الطريقة، ونقيس خطأ الواحد منهما بألم الآخر طبقا لهذا الافتراض.

82. جِلْدُ الروح.

مثلما العظام، العضلات، الأمعاء والعروق يغطيها جلد يجعل منظر الإنسان مقبولا، فإن عواطف الروح وأهواءها هي كذلك يلفها الغرور : الغرور جِلْدُ الروح.

83. غفوة الفضيلة.

لْتَغْفُ الفضيلة، سوف تستيقظ بعد ذلك أكثر نداوة.

---

* ملك الفرس من 486 إلى 465 ق . م هزمه الإغريق في مدينة سالامين الإغريقية (المترجم)

84. رقة الخجل.

لايخجل الناس في التفكير من أي شيء دَنِس، لكنهم يخجلون من أن نظنهم قادرين على هذه الأفكار الدنسة.

85. الشر نادر.

انشغال أغلب الناس الشديد بأنفسهم يلهيهم عن أن يكونوا أشرارا.

86. لسان الميزان.

إننا نَمْدَحُ أو نَذُم بحسب الفرصة التي يمنحها لنا المدح أو الذم لِن*ظهر بريق حكمنا.

87. لوقا 18،14،مُصَحَّحًا.

الذي يتواضع يريد أن يُرفع

88. منع الانتحار.

هناك قانون يمكننا بموجبه أن نقتل إنسانا، ولكن ليس هناك قانون يسمح لنا بأن نمنعه من الموت : إنها قسوة محضة.

89. غُرور.

إننا نحرص على حسن ظن الناس بنا، أولاً لأنه مفيد لنا، ثم لأننا نريد أن نرضيهم (الأبناء يُرضون آباءهم، التلاميذ أساتذتهم، وبشكل عام المحسنون يرضون كل الآخرين). إننا لانتحدث عن الغرور إلا حين يولي أحد ما اهتماما لحسن ظن الآخرين به دون أن يأخذ بعين الإعتبار ما يفيده من ذلك ولارغبته في إرضاء الآخرين. في هذه الحالة يريد الإنسان أن يرضي نفسه هو، ولكن على حساب أمثاله، سواء بحملهم على ظن خاطىء بخصوصه،أوبتوفره على درجة من «حُسْنِ الظن»تجعل حُسْنَ الظن به عصيا على كل الآخرين(بإثارة غيرتهم). إن ما يريده الفرد عادة، من خلال رأي الغير فيه، هو أن يؤكد لنفسه رأيه في ذاته ويؤيده؛ إلا أن الإدمان الشديد على السلطة – وهو إدمان قديم قدم الإنسانية – يُؤَدِّي بالكثير من الناس إلى الإستناد على سلطة ما لدعم ثقتهم بأنفسهم، أي ألا يقبلوها إلا إذا صدرت عن الغير : إنهم يثقون بحكم الآخرين أكثر مما يثقون بحكمهم هم. – أما لدى المغرور فإن الإهتمام بالنفس والرغبة في الرضا يبلغان درجة عالية لحد أنه يخدع الآخرين ويجعلهم يُضْفُونَ عليه قيمة مزيفة

ومرتفعة جدا، ولكنه لايعتمد على سلطتهم مع ذلك : أي أنه يشيع الخطأ ويضفي عليه المصداقية.- علينا أن نعترف إذن أن الناس المغرورين لايريدون إرضاء الآخرين كثيرا بقدر ما يريدون إرضاء أنفسهم، وإنهم يذهبون في ذلك إلى حد إهمال منفعتهم، لأنهم غالباً مايتمسكون بأن يثيروا لدى قريبهم أحاسيس مضادة، معادية، حاسدة، إذن ضارة بشخصهم، وذلك بُغْية أن يجدوا في ذلك لذتهم الأنانية، متعة أناهم.

90. حدود حب الناس.

الذي يدعي أن فلانا غبي ودنيء يَغْضَبُ حين يُظْهِرُ ذلك الشخص أنه ليس كذلك.

91. أخلاقية مبكية.

كم هي ممتعة هذه الأخلاقية! لنتذكر فقط ذلك البحر من الدموع العذبة الذي سال أثناء رواية مآثرات النبل والشجاعة! - إن الحياة ستفقد جاذبيتها هذه لو ساد الإيمان باللامسؤولية المطلقة.

92. أصل العدالة.

تولد العدالة (الإنصاف) بين أناس يتمتعون بقوة متساوية تقريبا، كما لاحظ ذلك ثوسيديد (THuçydide) * (في ذلك الحوار المريع بين النواب الأثينيين والميليين)؛ حين لايكون هناك تفوق ملحوظ،وحين لايؤدي الصراع إلا خسائر في الطرفين تكون غير ذات جدوى، آنذاك تتولد فكرة الوفاق والتفاوض بخصوص مطالب كل فريق : المقايضة هي السمة الأصلية للعدالة. كل طرف يرضي الآخر وفي ذات الوقت يحصل على مايقيم له هو وزنا أكثر من الآخر. نمنح لكل واحد ما يريد الحصول عليه ليصير ملْكًا له منذ ذلك الحين،ونحصل في المقابل على مانريد. إذن فالعدالة مقايضة وتوازن متى ما تم اشتراط وجود علاقة بين قوى شبه متوازنة : هكذا فإن الإنتقام يعود في الأصل إلى مجال العدالة، لأنه مقايضة. وكذلك الإعتراف بالجميل. - العدالة تؤول بالطبع إلى وجهة نظر غريزة البقاء، أي إلى أنانية هذا التفكير : «لماذا سَأضُرُ بنفسي بلاجدوى وربما لن أبلغ هدفي مع ذلك؟» - هذافيما يخص أصل العدالة. لكن بما أن الناس، طبقا لعاداتهم الفكرية، قد نَسُوا الهدف الأول من الفعال التي يسمونها فعال العدالة والإنصاف، خاصة وأنهم قد رَبَوْاْ الأطفال خلال عدة قرون على الإعجاب

* مؤرخ إغريقي مشهور عاش في ق. 5. ق. م (مترجم).

بهذه الفعال وتقليدها، فقد تَكَوَّنَ بالتدريج وَهْمٌ يرى أن الفعل العادل فعل نزيه؛ وعلى هذا الوهم ترتكز القيمة الكبيرة المعطاة لهذه الفعال، القيمة التي لاتكف، مثلها مثل سائر الأخريات، عن التنامي : لأن ما يقدره الناس كثيرا يتم البحث عنه، يتم تقليده، يتضاعف بفعل التضحيات، ويزداد بكون قيمة هذا الشيء الذي يقدره الناس كثيرا تنضاف إليها قيمة العناء والحماس اللذين يخصصهما له كل فرد. - كم ستبدو أخلاقية العالم ضئيلة دون مَلَكَة النسيان! قد يقول شاعر بأن الإله وضع النسيان حارسا على باب معبد الكرامة الإنسانية.

93. بخصوص حق الأضعف.

حين يخضع أحد ما، مع بعض الشروط، لآخر أقوى منه، كالمدينة المحاصرة مثلا، فإن الشرط الذي يتم وضعه بالمقابل هو أن تبقى له إمكانية تدميره لنفسه، حرق المدينة، إصابة القوي بخسارة كبيرة. من هنا يتشكل نوع من العدالة يمكن بفضله وضع القوانين. والعدو يرى مصلحته في الإبقاء على تلك القوانين.- بهذا الإعتبار توجد هناك أيضا قوانين بين السادة والعبيد، أي حين يكون امتلاك العبد شيئا مفيدا ومهما بالنسبة لسيده. في الأصل كان القانون يذهب بالضبط إلى الحد الذي يبدو فيه الواحدللآخر ثمينا، أساسيا، لا يُفْتَقَد، لا يقهر، وهلم جرا، بهذا المعنى فإنه لاتزال للضعيف حقوق، لكنها أقل من التي كانت له في السابق. ومن ثمة هذه العبارة الشهيرة، بقدر قوة الشخص تكون عدالته، أوبعبارة أدق، بقدر مالك من القوة تكون سلطتك.

94. المراحل التاريخية الثلاث من حياة الأخلاقية.

العلامة الأولى على كون الحيوان قد صار إنسانا هي حين لا تعود فعاله ترتبط برغد عيش مؤقت بل دائم، حين يتوجه الإنسان إذن نحو المنفعة، نحو الفرصة : ثمة يبدأ ظهور سيطرة العقل المطلقة. ويبلغ درجة أسمى حين يتصرف حسب مبدإ الشرف؛ بفضله يربي نفسه، يستسلم لمشاعر مشتركة، وهذا يسمو به على المرحلة التي كانت فيها المنفعة، بمعناها الفردي، هي التي تُوَجِهُهُ؛ إنه يراعي جانب الآخرين ويريد أن تتم مراعاة جانبه، أي : يتصور النافع مرتبطا برأيه في الآخرين وَبرأيهم فيه. أخيرا،إنه يتصرف،عند الدرجة العالية من الأخلاقية التي نعرفها حتى الآن ، حسب سُلَّمه الشخصي الخاص بالأشياء والكائنات، هو نفسه من يقرر ما هو المُشَرِّفُ أوالنافعَ بالنسبة له و للآخرين ؛ إنه منذ الآن مُشَرِّعُ الآراء طبقا لمفهومه المتطور والسامي المتعلق

بالنافع والمشرف. الوعي يجعله قادرا على تفضيل المنفعة الكبيرة، أي المنفعة العامة والدائمة، على منفعته الخاصة، تفضيل التقدير والاحترام ذوا القيمة العامة والدائمة على التقدير والاحترام اللذين لايدومان سوى لحظة؛ إنه يحيا ويتصرف باعتباره فردا جمعياً (individu collectif).

95.أخلاق النضج الفردية.

لقد رأينا في اللاشخصية، حتى الآن، علامة على العمل الأخلاقي؛ ومن الثابت أنه في البدء كان يتم الثناء على كل الأعمال اللاشخصية (impersonnelles) ويتم تمييزها بأخذ المنفعة العامة بعين الاعتبار. لكن ألاينبغي انتظار تحول واضح في هذه المنظورات الآن وقد بدأنا نتبين بشكل أفضل أن هذه الاعتبارات اللاشخصية للغاية هي التي تكون فيها المنفعة العامة أكبر، بحيث أن سلوكا يكون شخصيا جدا هو الذي يستجيب للمفهوم الحالي للأخلاقية (متصورا كمنفعة عامة) ؟ أن تجعل من نفسك شخصا كاملا وترمي في كل ماتفعل إلى منفعتك الكبرى، فإن ذلك سيقودك إلى أبعد مما ستقودك إليه المبادرات والتصرفات الموسومة بالشفقة على الغير. الحق يقال، إننا لازلنا كلنا نعاني من ضآلة الإهتمام الذي نوليه لحظنا الشخصي، لقد تطور هذا الحظ بشكل رديء، علينا الإعتراف بذلك : لقد تم قسرنا على تحويل عقلنا بعيدا عنه والتضحية به في سبيل الدولة، في سبيل العلم، في سبيل المعوز كما لو كان هو تلك القطعة الخبيثة التي تجب التضحية بها. اليوم أيضا نريد أن نعمل من أجل أمثالنا، لكن فقط في حدود عثورنا في هذا العمل على منفعتنا الشخصية الكبيرة لاأقل ولاأكثر. كل مافي الأمر هو معرفة ما نعنيه بمنفعتنا؛ إن الفرد الفظ، البدائي، غير الناضج، بالضبط هو الذي سيفهمها بأكثر الأشكال فظاظة.

96. الأخلاق والأخلاقي.

التوفر على أخلاق، على شيم، على آداب، يعني الخضوع لقانون، لتقليدٍ وضع منذ القدَم. لايهم إن خضعنا لهما على مضض أو عن طيب خاطر، يكفي أن نَخضع لهما. إننا ندعو «خيِّرا» كل من يتصرف، كما لو تلقائيا، إثر وراثة ممتدة، إذن بسهولة وطواعية،طبقا للأخلاق كما هي الآن (ينتقم مثلا حين يكون الانتقام، كما لدى الاغريق القدامى، داخلا ضمن العادات الحميدة). يدعى خيرا لأنه يصلح « صالحة لشيء ما»؛ وبما أن الناس، رغم تغير العادات، قد وجدوا الإرعاء والشفقة وأحاسيس أخرى مشابهة «لشيء ما»،نافعة، فإن العطوف والمغيث بالخصوص هما اللذان يدعوانهما «خيرين». أن تكون شريرا معناه أن تكون «دون أخلاق» (لاأخلاقيا)، أن

تمارس اللاأخلاقية، أن تعارض التقليد (tradition) ، مهما يكن معقولا أو عبثيا؛ لكن الذي أحس به الناس على أنه ضار، في كل القوانين الأخلاقية وعبر مختلف العصور، هو بالخصوص الإساءة إلى القريب، حتى أن كلمة «شرير» حاليا تجعلنا نفكر قبل كل شيء في ضرر أصبنا به قريبا لنا عن عمد. إن التعارض الجوهري الذي قاد الناس إلى تمييز الأخلاقي من اللاأخلاقي، الخير من الشر، ليس هو التعارض بين «أناني» «وغيري»، بل بين الارتباط بتقليد ما، بقانون ما وبين الانفصال عنهما. الطريقة التي ظهر بها التقليد ليست مهمة هنا؛ لقد ظهر، على أية حال، دون أن يُحيل إلى الخير والشر أو إلى أمر مطلق ملازم له، لقد ظهر وهو يرمي قبل كل شيء إلى الحفاظ على الجماعة، على الشعب. إن كل عادة خرافية تولدت عن حادثة أسيء تأويلها تنتهي بأن تفرض تقليدا يكون من حُسْنَ الخلق اتباعه؛ والتملص منه يكون خطيرا، مضرا بالجماعة أكثر منه بالفرد (لأن المعبود يجعل الجماعة كلها تكفر عن تدنيس حرماته وانتهاك مزاياه، ومن ثمة يكفر عنها الفرد كذلك). والحالة هذه فإن التقليد يكتسب احتراما يتراكم جيلا بعد جيل، بأن يصبح مُقَدَّساً، بأن يثير الخشية والإجلال. وهكذا فإن أخلاق الورع هي على أية حال أخلاق أقدم كثيرا من الأخلاق التي تتطلب فعالا نزيهة.

97 . المتعة في الأخلاق.

يتولد من العادة إذن نوع مهم من المتعة منبعه الأخلاقية. إننا نقوم بسهولة أكثر، بشكل أفضل، إذن عن طواعية، بكل الأشياء التي تعودنا عليها، نجد فيها متعة، ونعرف عن تجربة أن هذه الأشياء قد اثبتت قيمتها، إذن فهي نافعة. فالعادة التي توفر رغد العيش تبرهن بذلك على أنها صحية، مفيدة، عكس كل المحاولات الجديدة التي لم يتم التحقق منها بعد. العادة إذن هي اتحاد الظريف والنافع، وهي، علاوة على ذلك، تُعْفِي من التفكير. بمجرد ما يستطيع الإنسان أن يمارس إكراها فإنه يمارسه كي يُشْيعَ عاداته ويفرضها، لأنها، بالنسبة له، هي الحكمة عينها. كذلك تفرض جماعة من الأفراد عادات متطابقة على كل فرد منها على حدة. لننظر إلى السفسطائية : تجعل العادة المرء يحس بأنه قوي؛ أو على الأقل تمكنه من تدعيم وجوده، إذن فهذه العادة ضرورية، لأنها تعتبر هي الإمكانية الوحيدة التي ستجعله يشعربأنه قوي؛ يبدو رغد العيش وكأنه ينتج عنها وحدها. إن هذا التصور للعادات التي يتم اعتبارها شرط الوجود يتم تمديده ليشمل حتى أدق تفاصيل العادة؛ بما أن معرفة السببية الحقيقية تافهة لدى الشعوب والحضارات التي من مستوى أدنى فإن الناس يحرصون، بخوف وهمي،على أن يتخذ

كل شيء مجراه الثابت؛ حتى حين تكون العادة مُضْنِيَة وشاقة ومتعبة فإنهم يحافظون عليها بسبب منفعتها الكبرى الظاهرة. إنهم يجهلون أن رغد العيش قد يتحقق كذلك مع وجود عادات أخرى وبنفس الدرجة، بل قد يبلغ درجات أعلى. غير أننا نلاحظ أن كل العادات، حتى الشاقة منها، تلين مع مرور الوقت حتى تصير مستساغة، وأنه ليس هناك شيء، حتى الشيم المتزمتة، لايمكن أن يتحول إلى عادة، ومن ثمة إلى متعة.

98. المتعة والغريزة الاجتماعية.

يجني الإنسان من علاقته بأنا س آخرين نوعا جديدا من المتعة ينضاف إلى الأحاسيس الممتعة التي تنبع منه هو؛ وبهذا يوسع كثيرا المجال العاطفي للمتعة بشكل عام. ربما تأتيه كثير من الأشياء التي تندرج ضمن هذا الصنف من الحيوانات التي تجد متعة في ملاعبة بعضها البعض، خاصة الأم مع صغارها. لنفكر كذلك في العلاقة الجنسية حيث تكاد كل أنثى تبدو مهمة في عين أي ذكر يبتغي المتعة، والعكس صحيح. الإحساس بالمتعة المبني على العلاقات الإنسانية يُصَيِّرَ الإنسان أفضل على العموم؛ وبفعل ذلك تتنامى الفرحة والمتعة المشتركتان مع الأخرين، تمنحان ضمانة للفرد، تُصَيِّرَانه عطوفا، تزيلان الريبة والحسد : لأن الفرد يحس أنه بخير ويرى الأخرين على نفس الحَال. إن تمظهرات المتعة المماثلة تُذْكي خيال التعاطف والإحساس بما يشبه المساواة؛ ذلك ما تفعله المعاناة والعواصف المخاطر المشتركة، والأعداء المشتركين. لاشك أن أقدم اتحاد قد تمت إقامته على هذا : والمبتغى منه هو التخلص الجماعي من الكدر المُهَددِ واتقاؤه، وذلك لحساب كل فرد. هكذا تتولد الغريزة الاجتماعية النامية من المتعة.

99. البريء في القبائح المزعومة.

كل ال «قبائح» تبعث عليها غريزة البقاء، أوبتعبير أدق، نزوع الفرد إلى البحث عن المتعة وتفادي الكدر؛ وبما أن باعثها هو هذا فإنها لاتُعْتَبَرُ قبائح. «التسبب في المعاناة في ذاتها » لاوجود له سوى في مخ الفلاسفة ، كما لاوجود ل «منح المتعة في ذاتها» (الشفقة لدى شوبنهاور). في نوع حياتنا السابق لظهور الدولة كنا نقتل الكائن، الإنسان أو القرد، الذي يريد أن يقطف قبلنا ثمرة شجرة في اللحظة التي أحسسنا فيها بالجوع وأسرعنا إليها : مثلما قد نقتل حيوانا ونحن نجتاز مناطق قاحلة. – القبائح التي تغيظنا أكثر حاليا تقوم على الخطأ القائل بأن الأخر، الذي يرتكبها في حقنا، له إرادة حرة، أي أن رغبته وحدها هي ما قد يمنعه من الإساءة إلينا. إن الإعتقاد في الرغبة هو ما

يثير الحقد، الحاجة إلى الإنتقام، الحيلة، وكل ضلالات الخيال، بينما لانحقد على الحيوان إلا قليلا لأننا نعتبره لامسؤولا. أما الإساءة التي لاتكون بدافع من غريزة البقاء، ولكن بدافع الثأر، فهي نتيجة حكم خاطىء، إنها إذن بريئة هي الأخرى. في ظروف العيش السابقة لظهور الدولة كان يمكن للفرد أن يعامل الكائنات الأخرى بقساوة وفظاظة على سبيل الإهانة كي يضمن وجوده بهذه الأدلة المهينة الدالة على قوته. هكذا يتصرف العنيف، القوي، أول من أنشأ الدولة، الذي يُخْضِعُ الضعفاء، له الحق في ذلك، مثلما للدولة في أيامنا هذه، أو بالأحرى، ليس هناك قانون يمكنه منع ذلك. لايمكن تهييء أرض للأخلاقية إلا انطلاقا من اللحظة التي تقوم فيها شخصية كبيرة أو شخصية جماعية، كالمجتمع أو الدولة مثلا، بإخضاع الأفراد أي بإخراجهم من عزلتهم وتنظيمهم في جمعية. لاتأتي الأخلاقية إلا بَعْدَ الإكراه ، وتظل هي بدورها إكراها لبعض الوقت، ويخضع لها الناس كي يتجنبوا الكدر (déplaisir) . لاحقا تصير عادة، ثم بعد ذلك تصير خضوعااختياريا، وفي النهاية تصير شبه غريزة : إنها إذن، مثل كل التصرفات الطبيعية التي صارت اعتيادية منذ أمد طويل، مرتبطة بالمتعة - وتحمل منذ الآن اسم فضيلة.

100. الحيـــاء.

يوجد الحياء حيثما يكون «لغز»، هذا مفهوم ديني كان له انتشار واسع في العصور القديمة من الحضارة الإنسانية. كانت هناك في كل مكان ميادين مغلقة يحظر القانون الإلهي ولوجها إلا بشروط، كانت شروطا محلية في البداية، وذلك حتى لا تطأ بعضَ الأماكن أقدام المُدَنَّسِينَ الذين كانوا يشعرون بالقرب منها بالرعب والغم. وقد تم نقل هذا الإحساس إلى عَدَد من الحالات الأخرى، إلى العلاقات الجنسية مثلا، وهي التي كان الأمر يتعلق بإخفائها عن أنظار الصغار، من أجل مصلحتهم، لأنها امتياز وَمَقْدِس* (adyton) سنِّ النضج : لقد تخيل الناس عددا كبيرا من الآلهة المنشغلين بصيانة هذه العلاقة وتطهيرها وهم واقفون كحراس في بيت الزوجية، (هكذا يسمى هذا البيت عند الأتراك بالحريم، «حَرَمٌ»، ويطلق عليها الإسم ذاته الذي يطلق على أروقة المساجد.) الملكية كذلك، المركز الذي تشع منه القوة و العظمة، تعتبر لغزا كله سرية وحياء بخصوص هذا الموضوع: لاتزال آثار ذلك ملموسة في أيامنا هذه بين شعوب لم تعد في عداد المحتشمين. كذلك عالم الحالات الباطنية كله. «الروح» كما نسميها، تظل حتى في الوقت الراهن لغزا بالنسبة لكل غير الفلاسفة،بعد كل هذا الوقت الطويل

*adyton = حَرَم أو مقدس في المعابد لايدخله إلا الكهنة (المترجم)

الذي اعتقدناها فيه ذات أصل إلهي، ذات علاقة مع الآلهة : إنها تعتبر مَقْدِسًا في كل مكان وتوحي بالحياء.

101. لا تُصْدِرْ حكما.

علينا، ونحن نتأمل العصور الماضية، أن نحترس من إطلاق العنان لمَسَبَّات ظالمة. إننا لن نستطيع أن نقيس بذراعنا ظلم العبوديةولافظاظة استعباد الأفراد والشعوب. لأن غريزة العدالة لم تكن متطورة كثيرا في ذلك الوقت. من سيلوم الجنيفي(Genevois) كالفين(calvin) على حرقه الطبيب Servet ؟ إنه تصرف ناتج، بشكل منطقي جدا، عن قناعاته، كما أن التحقيق كانت له أسبابه الوجيهة؛ إلا أن الأفكار السائدة آنداك كانت خاطئة وكانت لها عواقب تبدو لنا وخيمة نظرا لأننا صرنا نجهل تلك الأفكار. وفضلا عن ذلك، ماذا يشكل عذاب فرد واحد تم حرقه مقارنة مع العذاب الأزلي في الجحيم الموعود به كل الناس تقريبا! ومع ذلك فإن هذه الصورة كانت سائدة في العالم بأسره آنداك دون أن تلحق أذى بالأساس، بفظاعاتها الكبيرة، بصورة أي إله. في الوقت الحاضر كذلك تتم معاملة المتحزبين بقسوة و فظاعة،لكن بما أ ننا قد تعودنا الإيمان بلزومية الدولةفإن شعورنا بالفظاعة هنا ليس هو نفس شعورنا بها هناك حيث نستهجن المفاهيم. إن قسوة الإيطاليين والأطفا ل مع الحيوانات مرجعه ا إلى اللافهم؛ لقد تم الدفع بالحيوان بعيدا وراء الإنسان بسبب المصالح العَقَديَة للكنيسة على وجه الخصوص. إن كثيرا من فظاعات التاريخ وبشاعاته التي لانَوَدُّ تصديقها كاملة تصير أهون إذا اعتبرنا أن القائد الذي يأمر والإنسان الذي ينفذ شخصان مختلفان : الأول لاتترك الفظاعة في خياله انطباعا قويا لأنه لايراها، والثاني لايشعر بالمسؤولية لأنه إنما ينفذ أوامر من هو أعلى منه. يبدو أغلب الأمراء والقواد العسكريين أفظاظا وقساة لنقص الخيال لديهم، لكنهم ليسوا كذلك. - الأنانية ليست شريرة لأن فكرة ال «قريب» (الكلمة ذات أصل مسيحي ولا توافق الحقيقة) ضعيفة لدينا؛وإننا نشعر تُجَاهَ لقريب بما نشعر به تجاه النباتات و الأحجار، بأننا شبه أحرار وشبه لامسؤولين. لابد من تعلم كون الآخر يعاني : وهو شيء لايمكن أَبَداً تعلمه بإتقان.

102. «الإنسان دائما يحسن التصرف».

إننا لانتهم الطبيعة باللاأخلاقية حين تأتي عاصفة فتبللنا : لماذا إذا نقول عن الإنسان الذي يفعل شَرًّا ما أنه لاأخلاقي؟ لأننا نفترض هنا إرادة غير خاضعة لأوامر تعسفية،

وهناك جبر (nécessité). لكن هذا التمييز خطأ. إننا، فضلا عن ذلك، لانصف فعلا يسبب الضرر عن عمد بأنه لاأخلاقي؛ نقتل ذبابة مثلا عن عمد، لكن دون أدنى تردد، لمجرد أن طنينها يزعجنا،نعاقب مجرما ونعذبه عن عمد، كي نحمي نفسنا والمجتمع .في الحالة الأولى، الفرد هو الذي يسبب ضررا وذلك من أجل بقائه أو لكي يتجنب إزعاجا؛ أما في الحالة الثانية فالدولة هو التي تفعل. كل الأخلاق تَقْبَلُ التصرفات التي تُسبب الضرر عن عمد في حالة الدفاع عن النفس، أي حين يتعلق الأمر بالبقاء! لكن وجهتي النظر هاتين تكفيان لتفسير كل القبائح التي يرتكبها الناس في حق الناس :المرء دائما يريد متعته، يريد تجنب الإنزعاج، أيا كان ذلك فإن الأمر يتعلق دائما ببقائه. لقد كان سقراط وأفلاطون على حق : مهما يفعل الإنسان فإنه خَيْرًا يفعل دائما، أي أنه يفعل مايبدو له خيرا (نافعا) حسب درجة ذكائه وحسب مستواه العقلي في ذلك الحين.

103. براءة الخبث.

ليس هدف الخبث هو الإساءة إلى الغير من أجل الإساءة، إن هدفه هو متعتنا الخاصة، كمتعة إحساس يثيره الإنتقام أو كمتعة تَهَيُّجٍ عصبي حاد. تكفي أدنى مضايقة لإظهار المتعة التي نجدها في ممارسة قوتنا على الآخر واستخلاصنا منها للإحساس المثير لتفوقنا.فهل هناك، والحالة هذه، شيء لاأخلاقي في التمتع بإزعاج الغير؟ هل لذة الإساءة شيطانية، كما يقول شوبنهاور؟ ومع ذلك فإننا، في الطبيعة، نجد متعة في كسر الأغصان، في قلع الأحجار، في مصارعة الحيوانات المفترسة، وذلك كي نَعيَ قوتنا. هل معرفة أن شخصا آخر يعاني من جراء ما فعلناه ستجعل من الشيء ذاته الذي لم نكن نحس تُجَاهه بالمسؤولية في مكان آخر شيئا لا أخلاقيا في أحد جوانبه؟ لكن لو لم نعرف ذلك لما وجدنا فيه متعة التفوق التي لايمكن أن تظهر إلا من خلال معاناة الغير حين نضايقه مثلا، ليست هناك متعة أنانية لاتكون لاخيرة ولاشريرة؛ من أين قد يصدر الأمر بعدم إزعاج الغير من أجل التمتع بمتعتنا الأنانية؟ من وجهة نظر المنفعة، أي بمراعاة العواقب، بمرعاة إزعاج محتمل، إذا افترضنا أن الضحية أو الدولة، ناطقة باسم الضحية، يهددان بالعقاب أو بالإنتقام : هذا هو الشيء الوحيد الذي بإمكانه، في الأصل، أن يوجد سببا للإمتناع عن مثل هذه التصرفات. - ليس هدف الشفقة هو متعة الغير لذَاتِهَا مثلما أن هدف الخبث ليس هو معاناته، كما أسلفنا ذلك. لأن الشفقة تحوي على الأقل عنصرين من عناصر المتعة الشخصية (إن لم يكن أكثر)،وبذلك تمثل نوعا من المتعة الأنانية : فمن ناحية ، تحوي لذة الإنفعال، نوع الشفقة الذي نجده في المأساة (tragédie) ، ومن ناحية أخرى،حين تدفع إلى الفعل،

تحوي لذة الرضى التي هي ممارسة القوة. حين يكون المعاني قريبا جدا لنا، علاوة على ذلك، فإننا، بإشفاقنا عليه، إنما نخلص أنفسنا من العناء. - إذا استثنينا بعض الفلاسفة فإننا نجد أن كل الناس كانوا دائما يضعون الشفقة في أسفل سُلّمَ الأحاسيس الأخلاقية، وذلك عن حق.

104. الدفاع عن النفس.

إن كنا نقبل، بشكل عام، أخلاقية الدفاع عن النفس، فمن الواجب علينا أن نقبل كذلك تقريبا كل تمظهرات الأنانية التي نقول عنها أنها لاأخلاقية : نفعل الشر، نسرق ونقتل كي نضمن بقاءنا أوحمايتنا، كي نتدارك نكبةً تُصيبنا شخصيا؛ نكذب كلما كانت الحيلة والتكتم وسيلة ناجعة لضمان بقائنا. نسلم بأن الإساءة عن قصد أخلاقيةحين يتعلق الأمر بوجودنا أو بأمننا (بالحفاظ على رفاهيتنا)؛ الدولة ذاتها تتبنى وجهة النظر هاته حين تصدر الأحكام وذلك حتى تُعَاقَب بقسوة. لايمكن أن توجد اللاأخلاقية في الشر غير المقصود، فهو وليد الصدفة. لكن هل هناك نوع واحد من الأفعال الضارة عن عمد لا يتعلق الأمر فيه بوجودنا، بالحفاظ على رفاهيتنا؟ هل هناك ضررٌ تم إلحاقه بشخص ما بدافع الخبث المحض، في القسوة مثلا؟ إذا جهلنا الضرر الذي يسببه فعل ما فإنه لايكون فعلا دافعه الخبث؛ هكذا فإن الطفل ليس خبيثا مع الحيوان، ليس شريرا : إنه يدرسه ثم يُدَمِّرُهُ كما يفعل بلُعَبه. لكن هل نعرف حق المعرفة الضرر الذي يلحقه فعْلٌ ما بالغير؟ إننا نحترس من الأَلَمَ داخل حدود جهازنا العصبي : ولو امتد الألم بعيدا حتى يصيب أمثالنا فإننا لن نسيء إلى أحد (إلا في تلك الحالات التي نؤلم فيها أنفسنا، كما حين نتحمل شرَطة كي نشفى، نتعب ونعاني من أجل صحتنا). نستنتج بالقياس أن شيئا ما يؤلم شخصا ما، ويحدث أن نعاني من ذلك نحن أنفسنا بفعل التذكر وقوة الخيال. وكم هو شاسع ذلك الفرق الموجود بين ألم الأسنان والمعاناة (التعاطف) التي تثيرها رؤية أحَدٍ يتألم من الأسنان! لنُلَخِّصَ : إننا نجهل، في كل الحالات، درجة الألم الذي ينتج عن الضرر المزعوم أننا نسببه بدافع الخبث؛ لكن حين تصاحب الفعل متعة (إحساس بالقوة، بحدة الانفعال)، فإن الفعل يتم من أجل الحفاظ على رفاهية الفرد ومن ثمة تعود إلى نفس وجهة نظر الدفاع عن النفس والكذب الإضطراري. لاحياة دون متعة؛ الصراع من أجل المتعة هو الصراع من أجل الحياة. هل سيخوض الفرد هذا الصراع بحيث يَقولَ عنه الناس أنه خيِّر أم بحيث يقولون عنه أنه شرير، إن مستوى وطبيعة ذكائه هما اللذان سيقرران ذلك.

105. العدالة التعويضية.

الذي يدرك تمام الإدراك مبدأ اللامسؤولية الكاملة يعود بإمكانه إدخال العدالة المسماة تعويضية ضمن مفهوم العدالة، مادامت هذه الأخيرة تقضي إعطاء كل ذي حق حقه. لأن الذي عوقب لايستحق العقاب : إنما يتم استخدام فقط كما يتم استخدام وسيلة إهانة لمنع وقوع بعض الفعال في المستقبل؛ والذي يُجَازَى لايستحق الجزاء هو الآخر : إذ لَم يكن بوسعه أن يتصرف بخلاف ما تصرف به. هكذا فإن الجزاء ليس له من معنى سوى تشجيعه هو وتشجيع الآخرين، وغايته إذن هي إيجاد حافز للتصرفات المستقبلية؛ إننا نهتف للذي لازال يجري في الحلبة وليس للذي قد بلغ هدفه. ليس العقاب ولا الجزاء ملكا خاصا للفرد؛ إن معاقبته أومجازاته تتم بدافع المصلحة دون أن يكون له حق ادعاء ملكيتهما بعدل. ينبغي القول «لا يُجَازِي الحكيم على حسن التصرف» مثلما قد قيل «الحكيم لايعاقب على سوء التصرف، لكن من أجل منع التصرف السيء». لو اختفى الجزاء والعقاب فإن البواعث القوية التي تجعلنا نتحول عن بعض الأفعال وتدفعنا إلى القيام بأفعال أخرى ستختفي هي كذلك؛ مصلحة الإنسانية تقضي تأبيدها؛ ومادام للعقاب والجزاء، للذم والمدح، أثر دقيق على الغرور فإن هذه المصلحة نفسها تتطلب تأبيد الغرور كذلك.

106. الشلال.

لدى رؤيتنا شلالاً نظن أننا نرى هوى عابرا وعسفا في التقوسات والتموجات والتحطمات اللاتحصى في أمواجه؛ إلا أن كل شيء فيه لازم (nécessaire)، ويمكن عد أدنى دُرْدُور فيه رياضيا. قس على ذلك أفعال الإنسان؛ علينا، لو كنا عالمين بكل شيء، أن نحسب فعلا بعد فعل، وأن نحسب كذلك كل تقدم معرفي، كل خطأ، كل خبث. أما الذات الفاعلة فإن وهم حريتها في الإختيار قد شغلها ولاشك؛ لكن لو أن عجلة العالم توقفت لحظة عن الدوران وكان هناك ذكاء عالم بكل شيء وماهر في الحساب كي يستفيد من مثل هذه التوقفات فإنه سيستطيع من خلال ذلك أن يتنبأ بمستقبل كل واحد من الكائنات أزمنة سحيقة وسيحدد كل النقط التي ستمر بها هذه العجلة. يشكل وهم الممثل بخصوص نفسه وفرضية حريته في الإختيارجزءا لايتجزأ من هذه الإوالية الواجب حسابها.

107. اللامسؤولية والبراءة.

لامسؤولية الإنسان الشاملة، بخصوص أفعاله وكيانه، هي أمَرُّ قطرة يجب على رجل المعرفة أن يتجرعهاهو الذي تعود أن يرى في المسؤولية والواجب حروف نبل الإنسانية.

كل اعتباراته، كل تميزاته، كل اشمئزازه قد صارت بذلك مزورة ونقصت قيمتها؛ وإحساسه الأقوى، الذي كان يشعر به تجاه الشهيد، تجاه البطل، كان قائما على خطأ؛ لم يعد بإمكانه أن يَمْدَحَ أويَذُمَّ، مادام ليس هناك معنى في مدح الطبيعة والجبر أو ذمهما. مثلما يحب العمل الفني الناجح، لكن دون أن يمدحه، لأنه لادخل للعمل نفسه في ذلك النجاح، ومثلما يتأمل النبتة، سيكون عليه أن يتأمل فعال الناس وفعاله هو. سيُسْمِحُ له بالإعجاب بقوتها، بجمالها وبكمالها، لكن لن يُسْمَحَ له بأن يرى فيها بعض الاستحقاق؛ التفاعلات الكيماوية وصراع العناصر، عذابات المريض الذي يصيبه الضنى بعد الشفاء، ليست استحقاقات مثلما ليست استحقاقات صراعات الروح وشدائدها التي تؤرجحنا فيها مختلف البواعث حتى لحظة نقرر الانحياز إلى أقواها – على ما يقال (والواقع هو حتى اللحظة التي يقرر فيها الباعث الأقوبشأننا). والحال أن هذه البواعث كلها، مهما كانت الأسماء التي نطلقها عليها كبارا، قد نبتت في نفس المنشأ الذي نعتقد أنه يؤوي سموم البشر؛ ليس هناك بين المكارم والقبائح فرق في النوع بل في الدرجة على أكثر تقدير. ما المكارم إلاقبائح مُصَعَّدَةٌ؛ والقبائح مكرمات تم تحويلها إلى عملٍ فظ، إلى حماقة. فريدةٌ هي رغبة الفرد، رغبته في المتعة الأنانية (ترافقها خشية الحرمان منها) التي تتم تلبيتها في جميع الأحوال كيفما استطاع الإنسان، أي كيفما وجب عليه أن يتصرف : سواء كانت تصرفاته تتم بدافع الغرور، الإنتقام، الشبق، المنفعة، الخبث، المكر، أو بدافع التضحية أو الشفقة أو المعرفة. إن درجة الحكم هي التي تقرر الإتجاه الذي سيدع كل واحد هذه الرغبة تقوده إليه؛ في عقل كل جماعة وكل فرد هناك حضور دائم لتراتبية المنافع التي تصلح لتحديد تصرفاتها و للحكم على تصرفات الآخرين. غير أن هذا السُّلَّم يتغير باستمرار، فكثير من التصرفات، التي ليست سوى حماقات، يقال عنها أنها قبائح، لأن مستوى الذكاء الذي قرر بشأنها كان مُتدنيا. بل أكثر من ذلك، حتى في أيامنا هذه فإن كل التصرفات هي حماقات بمعنى ما، لأن أعلى درجات الذكاء الإنساني الذي تم بلوغه سيتم تجاوزه ولاشك : وآنداك ستُظهر لنا نظرة استعادية أن كل فعالنا وأحكامنا قصيرة النظر وطائشة مثلما تبدو لنا الآن فعال وأحكام القبائل المتوحشة المتخلفة. – التنبه إلى كل هذا قد يتسبب ولاشك في آلام حادة، لكن هناك استنتاجا : هذه الآلام هي آلام الولادة. الفراشة تريد أن تخرج من شرنقتها، لذلك تستبسل في تمزيقها : وهاهي ذي قد أعماها وأضلها النورالمجهول، مملكة الحرية. بعض الناس القادرين على مثل هذه الكآبة (وقليل ماهم!) هم موضع محاولة أولى ستقرر إن كان بمقدور الإنسانية، التي هي الآن أخلاقية، أن تتحول لتصير إنسانية عاقلة. شمس إنجيل جديد تغمر بأول شعاع لها ذرى

روح هؤولاء الأفراد : الضباب يتكثف فيها بشكل لم يسبق له مثيل، والبريق النقي يجاور فيها الظلال العكرة. كل شيء لزُوُم، تقول المعرفة الجديدة : وهذه المعرفة هي في حد ذاتها لُزُوم. كل شيء براءة : والمعرفة هي السبيل التي تُوصِلُ العقلَ إلى هذه البراءة. هَبْ أن المتعة والأنانية والغرور لازمة لإنتاج الظواهر الأخلاقية وإزهارها التام، وهذا هو معنى حقيقة المعرفة وعدالتها، وَهْبْ أن الخطأ ومتاهات الخيال كانا هما الوسيلتين الوحيدتين لسُمُو الإنسانية بالتدريج إلى هذه الدرجة التلقائية من الوضوح والتحرر – فمن سيكون له الحق في ازدراء هاتين الوسيلتين؟ في أن يكتئب حين يرى الهدف الذي تقود إليه هذه السبل؟ كل شيء، في ميدان الأخلاق، ينتج عن تطور، وهذا الكل متغير، سائر، كل شيء فيها جار، هذا صحيح : لكن كل شيء فيها يجري مع التيار كذلك، في اتجاه هدف وحيد. قد تستمر، مع ذلك، العادة الوراثية في الحكم الخاطىء، في الكراهية الخاطئة، في التحكم فينا، لكنها ستضعف تحت تأثير المعرفة المتنامية؛ ستنشأ لدينا، في نفس التربة عادة جديدة،عادة التفهم، عادة الحب وعدم الكراهية، عادة النظر إلى أعلى، وربما ستكون لها، في غضون الآف السنين، القوة الكافية لمنح الإنسانية قوة إنتاج الإنسان الحكيم، البريء (الواعي ببراءته)، بنفس الإنتظام الذي تنتج به الآن الإنسان الذي ليس لاحكيما ولا عادلا في شعوره بالإثم – والذي ليس نقيض الآخر بل مسودته الضرورية.

الكتاب الثالث

الحـــــيـــــاة الدينيـــة

108. الصراع المضاعَف ضد الشر.

حين يصـيبنا شر ما فـإنه يمكننا الـقضاء عليـه إما بإزالة سببـه أوبتغير الإنطبـاع الذي يخلفه في إحساسنا، وذلك، إجمالا، بإعادة تفسير ذلك الشر على أنه خير قد نكتشف نفعه فـيما بعد. الدين و الفـلسفة (وكذلك الفـلسفة الميتافـزيقية) يسعيان جـاهدين إلى تغيير الإحسـاس وذلك بتغيير حكمنا بـخصوص ما يحصل لنا (بالـتذرع مثلا بمبدأ أن« الله يـعاقب الذي يـحبه»)، وبجعـلنا نشعـر بمتعة أثـناء إحساسنـا بالألم، بالإنـفعال بشكـل عام (إنها نـقطة بدايـة الفن المأسـاتي). كلمـا ملْنَا أكثر إلى إعـادة التفسـير وإلى الترتـيب كلما قـل تفكيرنـا في أسباب الشر وفـي إزالتها، إن تخـفيف الألم و التـخدير المؤقتين، الشائعين بخصوص آلام الأسنان مثلا، سيكفيان كذلك بخصوص آلام أشد . كلمـا ضَئُلَتْ سلطة الديانـات و الفنون المخدرة يفـكر الناس بجديـة في القمع الفـعلي لآلامهم، الشيء الـذي يعود بالمضرة على الشعـراء المأساتيين (tragiques) - تَقلُ مـادة المأساة بالـفعل بمجرد ما تبدأ فـي التقلص سيطرة الـقَدَرِ الثابت ،العديم الشفـقة – لكن مَضَرَّةَ الرهبان تكون أكبر : لأنهم قد عاشوا حتى الآن على تخدير الآلام الإنسانية.

109. المعرفة عذاب.

كم نود مبادلة كلام الرهبان الزائف الذي يؤكد وجود إلَه يتطلب منا فعل الخير، إله يراقب كل أعمالنا ولحظاتنا وأفكارنا ويشهد عليها، إله يحبنا ويريـد لنا الخير العميم في كل المصائب، – كم نود مبادلته بحقـائق تكون صحيَّة، مُطَمْئِنَة وإرعائية تماما مثل هذه الأخطـاء ! لكن مـثل هـذه الحقائـق لاوجود لهـا؛ حتـى الفلسفة ذاتـها لاتـستطـيع أن تعارضها، على أكثر تقدير، إلا بجواهر ميـتافزيقية (حتى هي كاذبة في الواقع). والمأساة هي أننا لن نستطيع الإيمان بأركان الدين والميتافزيـقاحين يكون لنا عقل تسكنه المنهجية

الصارمة للحقيقة، حين يكون تطورالإنسانية قد صيَّرنا، من جهة أخرى، رِقَاقاً،حَسَّاسِين، مُعانين، بحيث لن يحتاج إلى أرفع أنواع العلاج والتسلية؛ ثمة، في الواقع، يكمن، بالنسبة للإنسان، خطر دفع حياته ثمنا للحقيقة التي عرفها. يقول بايرون (Byron) ذلك في أبيات خالدة :

حزن هي المعرفة : وبعمق فليحزن
السامقون فيها على الحقيقة الحِمَام،
شجرة المعرفة ليست شجرة الحياة.

إن فضل علاج لمثل هذه المعاناة هو أن نتذكر خفة هوراس الاحتفالية، على الأقل في أسوأ الساعات، في أحلك الظلمات، وأن نقول معه :

أي شيء دقيق
يجمع بين الشجاعة و العذاب ؟
حتى يظل العَيْثَامُ وهذا
الصنوبر منتصبين...

أكيد أن الخفة و الضَّنَى أفضل، على كل المستويات، من رومانسية التقهقر إلى الوراء والفرار، من أي تقارب مع المسيحية؛ لأنه لن يمكننا، في الوضع الحالي للمعرفة، أن نتعامل معها دون أن نلوث نهائيا وعينا الفكري و نشوهه في نظرنا وفي نظر الآخرين. قد تكون هذه المعاناة قاسية جدا؛ لكن المرء لن يستطيع دونها أن يجعل من نفسه دليل الإنسانية ومربيها؛ والويل لمن يريد المجازفة بأن يكون كذلك وليس له هذا الوعي الخالص.

110. الحقيقة في الدين.

من المؤكد أن الدين لم يتم إنصافه خلال عصر الأنوار؛ ومن المؤكد كذلك أن الناس، في المرحلة التالية من رد الفعل، قد ابتعدوا كثيرا عن الإنصاف مرة أخرى وذلك بمعاملتهم للأديان بحب، بل بعشق، وبإقرارهم بأن لها معرفة؛ فما كان على العلم إلا أن يجردها من ثوبها الوثوقي كي يحفظ ال «حقيقة» في صورة غير خرافية.- كانت طريحة كل خصوم الأنوار - أن الأديان تُعَبِّرُ بشكل مجازي، وبمراعاة لفهم

الجمهور، عن هذا التعقل القديم الذي هو الحكـمةُ نفسُها، بما أن كل العلوم الأصيلة في العـصور الحديثـة قد تعود بـنا إليهـا عوض أن تبـعدنا عنـها : بحيـث سيسود بـين أقدم حكماء الإنـسانية وبين المتأخـرين منهم انسجـام، بل تطابق في الآراء وبحـيث أن تقدم المعارف - إن كانت هناك رغبة في التحدث عنه - لن يخص جوهر الأديان بل نشرها بين الناس. إن هذا التصور للدين وا لعلم خـاطىء تماما ولن يجرؤ أحد في وقتنا الحاضر على مناصرته لو أن فـصاحة شوبنهاور لم تُظلُّهُ بجناحها، هذه الـفصاحة ذات النبرات الرنانة التي لـم تؤثر، مع ذلك في المستمعين إلـيها إلابعد مرور جيل كامل. يمكننا بكل تأكـيد أن نستـخلص مـن التفسـير الدينـي، والأخلاقي فـي ذات الوقت، الذي أعـطاه شوبنـهاور للعالـم وللإنسان كـثيرا من الأشيـاء كي نفهـم المسيحيـة والأديان الأخرى، مؤكد أنـه قد أخطأ بخصـوص قيمة الديـن بالنسبـة للمعرفة. هـو نفسه لم يـكن سوى تلمـيذ وديع لدى أساتـذة العلوم في ذلـك العصر الـذين اتبعوا الـرومانسية، رغـم عظم شأنهم، وارتـدوا عن روح عصر الأنوار؛ ولو أنه ولد فـي عصرنا الحاضر لاستحـال عليه أن يتـحدث عن الشـكل المجازي لـلدين؛ كان بـالأحرى سيُحَيِّي الحقـيقة، كمـا جرت بذلك الـعادة، بهذه الكـلمات : إن الدين لـم يحتوِ عـلى حقيقـة أبدا، لابشكل مـباشر ولاغير مباشر، لاعلى شكل رُكْنٍ من أركانه ولا على شكل حكمة. لأن الدين إنما يولد من الخوف ومن الحاجة، وقد انسل إلى داخل الوجود من خلال سُبُلِ العقل التائه؛ وربما يكون قد حدث للدين، حين شعر بتهديد العلم له، أن دس نظرية فلسفية ما، بمكر، في منهجه، بغية أن تُكْتَشَفَ فيه لاحقا؛ إنها حيلة لاهوتي مادام الدين قد داخله الشك في نفسه من قبل، إن حِيَلَ اللاهوت التي مُورِسَتْ في وقت مبكر في المسيحية، هذا الدين الذي جاء في عصر علمي مشبع بالفلـسفة، هي التي قادت إلى خرافة الشكل المجازي، لكن الفلاسفة، (هؤلاء الخلاسيين، خاصة الفلاسفة المُشَعْرنين والفنانين المتفلسفين)، قد اعتادوا أكثر أن يعتبروا كـل الأحاسيس التي يكتشفونها في أنفسـهم جوهرا أساسيا في الإنسـان، وأن يَدَعُوا بذلك حـتى مشـاعرهم الـدينيـة تؤُثرُ بشـكل كبـير علـى النسـيج الفكـري لمناهجـهم. بما أن الفـلاسفة كانوا خـاضعين، في تـأملاتهم، لـلعادات الديـنية التقليديـة، في كثير من الجوانب، أو على الأقل للـهيمنة الوراثية ل «الحاجة الميتافزيقية» الشهيرة، فإنهم قـد توصلوا إلى طريحات تشبه إلى حد بعيـد، في الواقع، أركان الديانة اليهودية أو المسيحية أو الهندية، - من نوع ذلك التشابه الذي يكون عادة بين الأطفال وأمهاتـهم، خلا أنه فـي هذه الحالة لـم يتوصل الآباء إلـى توضيح هـذه الأمومة، مثـلما يحدث، - وعوض ذلك تخيلوا، في بَراءة إعجابهم، تلك الأسطورة الجميلة بخصوص تشابه عائلي بين كل العلوم والديانات. فـي الحقيقة ليست هناك قرابة ولاصداقة، لابل

لاعداوة حتى، بين الدين والعلم الحق : إنهما يعيشان على كوكبين مختلفين. وكل فلسفة تدع ذَيْلُ مُذَنَّب ديني يشتعل في أقصى منظورات ظلامها تثير الشك حول جانبها الذي تقدمه على أنه علم : إننا نشك في أن يكون كل هذا دينا، مهما يكن مُبَهرجاً بأُبَّهَة العلم. الحاصل، لو أن كل الشعوب اتفقت على بعض نقاط الدين، على وجود إله مثلاً (ولنقل دون إلحاح أن الأمر لايتعلق هنا بهذه الحالة)، فإن ذلك سيكون برهانا نقيضا تواجه به هذاه النقاط التي يدعمونها، كوجود إله مثلا : الاجماع القومي، والإنساني، بشكل عام، لايمكن، من باب الإنصاف، أن يعتبر سوى حُمْق.ليس هناك، على النقيض من ذلك، أدنى إجماع عام من طرف الحكماء على أية مادة كانت، مع هذا الإستثناء الذي تتحدث عنه أبيات غوته :

كل حكماء العصور أجمعها

يتسمون، يهزون رأسهم يتوافقون :

حُمْقٌ هو انتظار تقدم الَحمْقَى!

أبناءَ الحكمة اعتبروا البُلَدَاَء

فقط بلداءَ كما يليق!

لنعبر عن ذلك بلا بيت ولاقافية وبما ينطبق على حالتنا : إجماع الحكماء يقتضي اعتبار الإجماع القومي حمقا.

111. اصل الشعائر الدينية.

لو عدنا إلى تلك العصور التي كانت فيها الحياة الدينية في ازدهارها لوجدنا فيها قناعة أساسية لم نعد نتقاسمها معها، ولذلك نرى أبواب الحياة الدينية تُغْلَقُ في وجهنا إلى الأبد؛ إنها تعني الطبيعة وعلاقتنا بها. في تلك العصور كان الناس يجهلون كل شيءعن قوانين الطبيعة؛ لم يكن هناك لُزُومٌ لا بالنسبة للأرض ولا بالنسبة للسماء؛ قد يأتي الفصل والشمس والمطر وقد لا يأتون. كانت السببية الطبيعية مجهولة آنذاك. حين يَجْدفُ المرء فإن ضربة المجداف ليست هي التي تحرك الزورق، فالتجديف، على العكس، ليس سوى طقس سحري بواسطته نرغم عفريتا على دفع الزورق إلى الأمام. كل الأمراض، حتى الموت، هي نتيجة تدخلات سحرية، لم تكن الإصابة بالمرض ولا الموت ظاهرتين طبيعيتين أبدا؛ كانت فكرة «التسلسل الطبيعي للأحداث» غائبة تماما، — ولن يتم إطلاقها إلا لدى الإغريق القدامى، إذن في مرحلة جد متأخرة من عمر

الإنسانية، في تصورهم ل Moire تتصدر الآلهة. أن يرمي إنسان ما بقوس فإن يدا تقف وراء ذلك، قوة لامعقولة؛ أما أن تنضب المنابع فجأة فإن التفكير يتم أولا في العفاريت الديماسية وخُبثها؛ إن الحركة الخفية التي تُهْلَكُ إنسانا ما فجأة لايمكن إلا أن تكون حركة سهم إله. في الهند، من عادة النجار حسب(Lubbock) أن يقدم قرابين لمطرقته، لبلطته ولأدواته الأخرى، نفس الشيء يفعله البراهماني مع المسمار الذي يكتب به، الجندي مع الأسلحة التي تلازمه، البَنَّاءُ مع مسجته، الفلاح مع محراثه. ما الطبيعة في خيال الناس المتدينين سوى مجموعة فعال تقوم بها كائنات واعية ومريدة، شبكة ضخمة ومعقدة من الفعال التعسفية. لايَمكننا استنتاج أي شيء بخصوص كل ماهو خارج عنا، لايمكننا أن نؤكد أن شيئا ما سيكون كذا أو كذا، أن عليه أن يحدث بهذا الشكل أوذاك؛ الشيء الأكيد تقريبا، الشيء المتوقع، هو نحن : الإنسان هو القاعدة، الطبيعة هي غياب القاعدة، – في هذا الافتراض تكمن القناعة الأساسية التي تسود الحضارات القديمة، البدائية، المبدعة في الميدان الديني. نحن المعاصرون نشعر بالعكس : فكلما شعر الإنسان اليوم بغنى روحه كلما صارت أناه متعددة الأصوات وكلما كان تأثير تناغم الطبيعة أكبر مُهَدِىء للروح المعاصرة، نسمع دقات رقاص هذه الساعة الكبيرة بحنين إلى الهدوء، إلى العودة إلى مكان ولادة الصمت، حنين قد يجعلنا نعتقد أننا قادرون على امتصاص هذا التناغم والعثور فيه على متعتنا. فيما مضى كان العكس؛ لو عدنا بالفكر إلى المستويات القديمة والبدائية للشعوب، أو لو أبصرنا المتوحشين الحاليين عن قرب، فسنجد أن القوة الأكبر التي يعتمدون عليها هي قوة القانون، قوة التقليد : الفرد فيها شبه مستعبد تلقائيا، ولكل حركاته انتظام الرقاص. والطبيعة – غير المعقولة، المريعة، الغامضة – تبدو له وكأنها مملكة الحرية، مملكة التعسف، ذات قوة كبيرة، بل أكثر من ذلك، كدرجة من الوجود أكثر من إنسانية، كإله. حينما يشعر كل فرد في هذه الظروف، بأن كل شيء يتوقف على نزوات الطبيعة، وجوده،سعادتُه، وجودُ وسعادة عائلته وجودُ وسعادةُ الدولة، نجاحُ كل المشاريع : من الضرورة بمكان أن تحدث بعض الظواهر في الوقت المرغوب، وأن لاتحدث أخرى في الوقت المناسب. كيف يمكن التأثير في هذا المجهول المرعب، كيف السبيل إلى ترويض مملكة الحرية ؟ هذا هو التساؤل الذي يشغله، الشيئ الذي يبحث عنه بلهفة : أليست هناك إذن أية وسيلة لإخضاع هذه القُوى لشرعية التقليد والقانون التي هي شرعيته ؟ – يميل تفكير المؤمنين بالسحر وبالمعجزة إلى إخضاع الطبيعة للقانون – : باختصار، إن الشعائر الدينية وليدة هذا التفكير. القضية التي يطرحها هؤلاء الناس تقترب كثيرا من هذه القضية : كيف سيتمكن العرق الأضعف،

رغم ضعفه، من فرض القوانين على العرق الأقوى، من أن يُجْبِرَهُ، أن يتحكم في أفعاله (في علاقته مع الأضعف) ؟ سيتذكرون في الأول النوع المُسَكِّن من الإكراه، ذلك الإكراه الذي نمارسه حين نكون قد كسبنا ود شخص ما. بواسطة التوسلات والصلوات إذن، بواسطة الخضوع، بواسطة الإلتزام بالوفاء بما عليهم من القرابين ومن الإتاوات المألوفة، بواسطة الاحتفالات المتملقة سيتمكن الناس من ممارسة الإكراه على قوى الطبيعة بحيث تصير مُحَابِيَةً لهم : الحب يستعبد الناس ويستعبدونه. بعد ذلك يمكن للطرفين أن يعقدا اتفاقيات يلتزمان فيها كلاهما باتباع بعض القواعد، يقدمان الضمانات ويؤدي كل منهما اليمين. غير أن هناك نوعا من الإكراه أكثر أهمية وأشد عُنْفاً يتم بواسطة السحر والتعزيم. مثلما يعرف الإنسان كيف يسيء، بمساعدة الساحر، إلى عدو أقوى منه ويجعله يهابه، مثلما يؤثر شراب المحبة عن بعد، كذلك فإن الأنسان الضعيف يعتقد أنه يستطيع إكراه أرواح الطبيعة التي هي أقوى منه. إن الوسيلة الناجعة في كل سحر هي احتفاظ المرء بشيء يعود لشخص آخر، كالشعر أوالأظافر أو بعض الطعام الذي تناول منه، بل بصورته أو اسمه. حين يتم جمع هذا كله فإن عمل السحر يصير ممكنا؛ لأن الإفتراض الأساسي هنا هو أنه لكل عنصر روحي ينتمي عنصر بدني؛ وبمساعدة هذا الإخير يمكن الإمساك بالروحي. مثلما يؤثر الإنسان على الإنسان فإنه قد يؤثر على روح من أرواح الطبيعة؛ لأن لهذه أيضا جانبها الجسدي الذي يمكن إمساكها منه. فالشجرة، بالنسبة له، هي النبتة التي ولد منها، ويبدو هذا التحاذي الغامض برهانا على أن روحا واحدة، تارة صغيرة وتارة كبيرة، قد تشكلت في هذه الصورة أو تلك. الحجر الذي يتدرج فجأة هو جسد تسكنه روح؛ ولو أن صخرة وُجِدَتْ في أرض خلاء يستحيل التفكير في أن قوة إنسانية هي التي نقلتها إليها فإنه يصير أكيدا أن الصخرة قد انتقلت إلى هناك بنفسها، أي : لاشك أن روحا تسكنها. كل ماله جسد يمكن أن يطاله السحر، إذن حتى أرواح الطبيعة. وإذا ارتبطَ إله ما بصووة مباشرة فإنه سيمكن ممارسة إكراه مباشرٍ عليه(بحرمانه من غذائه القرباني، بجلده، بتكبيله، وبأعمال أخرى من هذا النوع). في الصين، لكي ينتزع أفراد الطبقة الدنيا الحظوة التي يحرمهم منها إِلهُهُمْ فإنهم يلفون تمثال الإله الذي تخلى عنهم بالحبال، يطرحونه أرضا، يجرونه عبر الأزقة وسط الوحل والزبل : «أيها الكلب،يقولون له، لقد أسكناك في معبد فخم، وزيناك بشكل بهي، وسمناك، وقدمنا لك القرابين، ثم تنكر الجميل.» وقد لاحظنا، حتى في زمننا هذا، في بعض البلدان الكاثوليكية، مثل هذه التدابير الصارمة ضد صور القديسين والعذراء حين رفضت القيام بواجبها أثناء وَبَاء الطاعون مثلا، أو أثناء الجفاف. - كل هذه العلاقات السحرية مع الطبيعة تتولد

عنها الكثير من الحفلات؛ وحين تؤول إلى فوضى كبيرة فإن الناس ينتهون إلى تنظيمها، إلى مَنْهَجَتِهَا، حتى ليعتقدون أنهم قد ضمنوا السير المناسب لسياق الطبيعة بأكمله، خاصة الدورة السنوية الكبرى، بفضل السير الموازي لنظام الطقوس. إن هدف الشعائر الدينية هو ترويض الطبيعة، تسييرها لصالح الإنسان، أي أن تفرض عليها حتمية ليست منها أصلا؛ بينما في العصر الحاضر يحاول الناس معرفة الحتمية الطبيعية كي يقتدوا بها. بإيجاز، إن الشعائر الدينية تقوم على أفكار مفادها أن السحر يفعل فعله من إنسان لإنسان؛ والمجوسي أقدم من الراهب. كماتقوم على أفكار أخرى أكثر نُبْلاً؛ إنها تفترض علاقات إنسانية أساسها التعاطف، تفترض وجود الإرعاء، الاعتراف بالجميل، التوسل المستجاب، المعاهدات بين الأعداء، الرهان المقبوضة، والقوانين التي تحمي الملْكية. حتى في المستويات الدنيا من الحضارة لايواجه الإنسان الطبيعة وكأنه قنٌّ عاجز، إنه ليس بالضرورة عَبْدَهَا المُسْتَسْلِم؛ ومن خلال المستوى الديني الذي بلغه الإغريق خاصة في علاقتهم مع آلهة الأولمب، يمكننا التفكير في تعايش طائفتين، واحدة نبيلة وقوية، الأخرى أقل نبلا؛ إلا أنهما تبدوان في الأصل وكأنهما كل، إنهما من سلالة واحدة، ليس عليهما أن تخجلا من بعضهما. وذلك أروع ماكان في التدين الإغريقي.

112. لدى رؤية بعض أشياء القدم المقدسة.

المدى الذي نبلغه في فقدان بعض طرق الإحساس يوضحه الإتحاد مثلا بين الهرجة، بل الفحش، وبين الشعور الديني : ولكن معنى إمكانية هذا الإتحاد يفلت منا، ولم نعد نفهم وجوده إلا تاريخيا، من خلال أعياد ديميتير وديونيزوس، من خلال ألعاب عيد الفصح والطقوس الدينية المسيحية؛ لكننا نعرف نحن أيضا اتحاد السامي بالمضحك وبالأشياء المشابهة، امتزاج الشجي بالمثير للسخرية : الشيء الذي قد لن تفهمه الأجيال القادمة.

113. المسيحية، هذا القدَم.

حين نسمع دقات الأجراس القديمة، صباح الأحد ، نتساءل : أيُعْقَلُ كل هذا ! من أجل يهودي تم صلبه منذ ألفي سنة وكان يدعي أنه ابن الله. إن الإثبات الذي يحظى به هذا الإدعاء ينقصه البرهان، - مُؤَكَّدٌ أن الديانة المسيحية قدَم ينحدر من ليل العصور حتى قلب عصرنا، والإيمان الذي يحظى به هذا الإثبات المزَعوم - و الحال أننا عادة ما نكون صارمين في اختبار الإدعاءات - هو لاشك أقدم جزء من هذا الإرث. إله تلد منه امرأة فانية؛ حكيم ينصح بعدم العمل، بعدم العدل وبمراقبة علامات الساعة الوشيكة؛ عدالة تقبل اعتبار البريء ضحية بالنيابة؛ واحد يأمر أتباعه بشرب دمه؛ صلوات من

أجل حدوث المعجزة؛ خطايا ترتكب في حق إله ويكفر عنها إله؛ الخوف من مَاوَرَاءَ بَابه الموتُ؛ اتخاذ الصليب كرمز، في عصر لايعرف غاية الصليب ولاخزْيَهُ؛ - أية قشعريرة رُعْبٍ يبعثها فينا كل هذا، كنفثة تنبعث من قَبْرٍ ماضٍ سحيق ! من يصدق أننا لازلنا نؤمن بمثل هذه الأشياء ؟

114. ماهو غير إغريقي في المسيحية.

لم يكن الإغريق يرون الآلهة الهوميروسية أربابا فوقهم، ولا كانوا يرون أنفسهم عبيدا دونها، كما اليهود. لم يكونوا يرون على وجه التقريب سوى صور للنماذج الناجحة في طبقتهم، أي المثل الأعلى لكيانهم، وليس نقيضه. كانوا يشعرون اتجاهها بالقرابة، كانت هناك مصلحة متبادلة، نوع من Symmachie*. يُكَوِّنُ الإنسان فكرة سامية عن نفسه باتخاذه هذه الآلهة،والعلاقة التي تقوم بينهما هي علاقة صغار النبلاء بكبارهم؛ بينما للشعوب الرومانية ديانة المزارعين، يعيشون في خوف مستمر من القوى الماكرة والنزقة، من الأرواح المُعَذِّبَة. هناك حيث تتراجع آلهة الأولمب تكون حياة الإغريق بدورها مُعْتَمَةً وَمُقْلَقَة. - كانت المسيحية، على العكس، تسحق الإنسان وتنهكه تماما ثم تغرقه في حمأة خثرة؛ وفي خضم إحساسه بالحقارة الكاملة هذا يلمع فجأة شعاع من الرحمة الإلهية فيطلق الإنسان، وقد فاجأته الرحمة وأسكرته، صيحة النشوة، ويعتقد لحظة أنه يملك السماء بين جنبيه. إن الإبتكارات النفسية في المسيحية تسعى إلى هذا الإفراط المرضي في الإحساس، إلى الفساد الكبير الذي يتطلبه من القلب ومن العقل : تريد المسيحية أن تُفْنِي، أن تُنْهِك، أن تُذْهِل، أن تُسْكِر، الشيء الوحيد الذي لاتريده هو الإيقاع، ولذلك نجدها، في لب محاباتها، همجية، أسيوية، نقيضة النبيل والإغريقي.

115. مزية التدين.

هناك أناس مُتَّزِنُون وبارعون في التجارة يحملون دينهم مطرزا كشريطة حاشية الإنسانية المتفوقة : حسنا يفعل هؤلاء بحفاظهم على دينهم وذلك لأنهيُجَمِّلُهُم. - كل الناس الذين لا يتقنون عملا من أعمال الحرب (بما في ذلك حرب الكلمة والقلم) ينتهون بأن يصيروا عبيدا : وهؤلاء تكون الديانة المسيحية مفيدة لهم كثيرا، لأن العبودية تأخذ فيها مظهر فضيلة مسيحية، الشيء الذي يُكْسِبُهَا جمالا رائعا. الناس

* ارتأينا ترجمتها ب : تساوق في التصور .

الذين تبدو لهم حياتهم اليومية فارغة ورتيبة يتحولون إلى الدين بسهولة : إنه شيء يمكن تفهمه والصفح عنه، إلا أنهم لايملكون الحق في أن يتطلبوا التدين من أولئك الذين ليس في حياتهم اليومية لافراغ ولارتابة.

116. المسيحي العادي.

لو أن المسيحية كانت على حق فيما تقوله عن الإله المنتقم، عن الخطيئة العامة، عن الاصطفاء بالمنّة وعن خطر العذاب الخالد، لكان من علامات الغباوة وسوء الطبع أن لا يجعل المسيحي من نفسه راهبا، حَوَاريًا أو ناسكا، وأن لا يعمل على خلاصة فقط في خشية وارتعاش؛ سيكون من الحمق أنَ يُهْمِلَ المنافع الأبدية من أجل الرفاهية المؤقتة. إذا افترضنا أن الإيمان موجود، فإن المسيحي العادي يقوم بدور تافه، إنه إنسان لايعرف العد حتى ثلاثة وهو، فضلا عن ذلك، بسبب غباوته، لايستحق أن يعاقب عقابا صارما مثل الذي تتوعده به المسيحية.

117. عن دقة المسيحية.

إن إحدى مهارات المسيحية هي أن تُعَلِّمَ المرء بصراحة أن الإنسان، بشكل عام، دنيء، غير معصوم، وسافل، بحيث أن ازدراءه لامرىء آخر يصير مستحيلا. «مهما يرتكب من خطيئة فإنه لايختلف في جوهره عني : أنا الدنيء والمُزْدَرَى على كل المستويات»، هذا ما يقوله المسيحي لنفسه. لكن هذا الإحساس نفسه حدّته، لأن المسيحي لايؤمن بسفالته الفردية، إنه خبيث بما هو إنسان، بشكل عام، ويطمئن نفسه قليلا وهو يفترض مايلي : كلنا من طينة واحدة.

118. تغيير الملاك.(Personnel)

بمجرد ما تهيمن ديانة مايصير أعداءً لها أولئك الذين كانوا سيصيرون أتباعا لها. .

119. مصير المسيحية.

لقد تولدت المسيحية من الحاجة إلى مواساة القلب؛ والآن عليها أن تبدأ بإذلال القلب كي تستطيع مواساته فيما بعد. إنها تسير نحوانهيارها .

120. الحُجَّة بدافع المتعة.

يعتبر الرأي الممتع رأيا صحيحا : إنها الحجة بدافع المتعة (أو، كما تعبر عن ذلك الكنيسة، الحجل بدافع القوة) التي تفخر بها كل الديانات كثيرا، والحال أنه عليها أن تخجل منها. لولا أن الإيمان يمنح الغبطة لما آمن أحد : فما أشد ضآلة قيمته إذن !

121. لعبة خطرة.

من يَشْرَعْ باب كيانه ثانية للشعورالديني يجد نفسه مُرْغَمًا على تركه ينمو فيه، لن يملك فعل خلاف ذلك. هكذا سيجد كيانه يتغير تدريجيا، يفسح مكانا متميزا لما يرتبط بالعنصر الديني ويَمُتُّ إليه بصلة، سيجد أفق أحكامه وأحاسيسه وقد تَلَبَّدَ كله بذلك، قد غطاه عبور ظلال دينية. وسوف لن يتوقف ذلك الشعور عند ذلك الحد : فلنحترس إذن.

122. الأتباع العمي.

مادام المعلم يعرف جيدا قوة وضعف عقيدته أو فنه أو دينه فإن ذلك يعني أن سلطانها لايزال ضئيلا. والتابع أوالحَوَاري الذي لا يرى ضعف العقيدة، الدين، إلخ، لأن هيبة المعلم والحب الذي يُكِنُّهُ له قد أعمياه، غالبا ما تكون له بذلك قوة أكبر من قوة المعلم. ولولا هؤلاء الأتباعَ العمي لما كان لأي إنسان أو لأعماله أي تأثير يذكر. ،العمل على انتصار فكرة ما غالبا ما يعني مايلي : مؤاخاتها مع البلادة بحيث ينتهي الوزن الكبير لهذه الأخيرة بالإنتصار ويسحب رداء نصره على تلك الفكرة.

123. هدم الكنائس.

ليس في العالم من الدين ما يكفي حتى نقضي على الأديان.

124. الإنسان دون خطيئة.

حين نفهم «كيف تولدت الخطيئة»، أي عبر قناة أخطاء العقل التي بسببها يعتبر الناس بعضهم، بل يعتبر الفرد نفسه، أشرارا أكثر مما هم في الواقع، فإننا نشعر بقلبناوقد سُرِّيَ عنه، ويحدث أن يبدو لنا الناس والعالم محاطين بهالة مجد البراءة التي تريحناكثيرا. الإنسان، في حضن الطبيعة، طفل بامتياز. أحيانا يرى هذا الطفل في الحلم كابوسا يزعجه، ولكنه حين يستيقظ يجد نفسه دائما في الجنة.

125. لاتَدَيُّنُ الفنانين.

كان هوميروس يشعر وهو وسط الآلهة، أنه في بيته، وكان، باعتباره شاعرا، يجد متعة في رفقتهم لحد أنه صار في غاية اللاتدين؛ كان يتصرف بما يقدمه له الإعتقاد الشعبي - خرافة حقيرة، فظة ومرعبة في بعض جوانبها - بنفس الحرية التي يتصرف بها نحات الصلصال، إجْمَالاً بنفس الصدق الذي لأسخيلوس وأرسطوفان، والذي تَمَيَّزَ به في العصر الحاضر فنانو النهضة الكبار كما تميز به شكسبير وغوته.

126. الفن وميزة التأويل الخاطىء.

كل كشوفات القديس، مخاوفه، عجزه، انخطافاته، هي حالات مرضية معروفة يفسرها هو، ارتكازا على الأخطاء الدينية والنفسية المتأصلة، بخلاف ذلك، أي باعتبارها أشياء أخرى لاأمراضا. - كذلك فإن عفريت سقراط قد يكون مرضا في الأذن يفسره، طبقا لأفكاره الأخلاقية السائدة، بخلاف ما قد نفسره به اليوم. ولايختلف الأمر بخصوص هذيان وجنون رسل الوحي ووسطائه؛ إن ما يجعل منها أشياء كبيرة هي دائمادرجة المعرفة، الخيال، الحماس، الأخلاقية،التي تحرك عقول وقلوب المؤولين. إن إحدى أقوى الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الذين يسمون عباقرة وقديسين هي أن يوجدوا بنفوذهم مُؤَوِّلِينَ لايسمعونهم جيدا، وعدم سماعهم هذا يخدم الإنسانية كثيرا.

127. إجلال الجُنُون.

حين لاحظ الناس أن الإنفعال غالبا ما ينير العقل ويوحي بأفكار جيدة تصوروا أن الإنفعالات القوية تخلق الإلهام والأفكار الجيدة : وهكذا تم إجلال الحكيم ووسيط الوحي في المجنون. هذا استدلال خاطىء من الأساس.

128. وَعْدُ العِلْمِ.

هدف العلم المعاصر هو تخفيف الآلم أشد ما يمكن وإطالة العمر أكثر ما يمكن، - وهو مايعني نوعا من الهناء الخالد، المتواضع جدا مقارنة مع وعود الدين.

129. سَخَاءٌ مُحَرَّم.

ليس هناك في العالم ما يكفي من الحب والطيبة كي يُسْمَحُ لنا ببذل القليل منهما لكائنات خيالية.

130. استمرار الشعائر الدينية في النفس.

كانت الكنيسة الكاثوليكية، وقبلها كل الديانات القديمة، ماهرة في استعمال كل الوسائل الكفيلة بالزج بالأنسان في حالات نفسية غريبة وحرمانه من تقديره الهادىء لمصلحته أو من تفكيره المحض، من عقله. كنيسةٌ تهتز من جراء نوطات خفيضة، تضرعاتُ بهيمةٌ، منتظمةٌ ومتحفظةٌ، تصدر عن زمرة من القساوسة الذين ينقلون لاشعوريا تمجيدهم إلى الجماعة ويجعلونها تنتظر وهي شبه قلقة، كما لو أن معجزةً توشك أن تحدث، قشعريرةٌ تثيرها البنايةُ التي تمتد بشكل غامض وتثيرُ الخوفَ من رؤية

المعبود يتجلى في كل تلك الفضاءات المظلمة، – من سيريد العودة بالناس إلى مثل هذه الإوضاع في الوقت الذي لم يعودوا يؤمنون فيه بكل ما تستلزمه ؟ لكن نتائجها لم تذهب هَدْرًا مع ذلك : فالعبادة هي التي تجعل من هذا العالم الداخلي للنفس الموهوبة للسمو، للإنفعال، للاستشعار، للندم الكبير وللآمال الشطحية، تجعل منه آلهيَةَ الفطرية لدى الناس؛ وما تبقى في النفس من هذه الهبة، في الوقت الحاضر، قد رَعَتْهُ العبادة مذ كان بذرة حتى نما وأزهر.

131. عقابيل دينية

مهما يبلغ اعتقادنا أننا أقلعنا عن الدين فإنه لن يصل إلى حد عدم الشعور بالمتعة في العثور مجددا على أحاسيس وحالات نفسية دينية لامضمون ثقافي لها، في الموسيقى مثلا؛ حين تقدم لنا فلسفةٌ ما تبريرًا للآمال الميتافزيقية ولطمأنينة النفس التامة التي تستطيع أن تشيعها، حين تحدثنا مثلا عن «الإنجيل اليقيني في نظر صور العذراء التي رسمها رافائيل»، فإننا نستقبل مثل هذا الإثبات وهذه البرهنة بحماس شديد : البرهنة سهلة هنا بالنسبة للفيلسوف، إنه ينسجم، بما يريد أن يعطيه، مع قلب مستعد لأن يأخذ. سنسجل بهذا الخصوص أن المفكرين الأحرار، الذين لايميزون كثيرا، لاتثيرهم إلا أركان العقيدة، أما جاذبية الشعور الديني فإنهم يعرفونها جيدا؛ وهم يجدون صعوبة في التخلي عن هذا بسبب تلك.– على الفلسفة العلمية أن تحترس كثيرا من الأخطاء التي قد تُهرِّبُهَا لصالح تلك الحاجة الشهيرة – التي هي مكتسبة و وبالتالي فهي عابرة؛ حتى بعض المناطقة يتحدثون عن «استشعارات» للحقيقة في الأخلاق وفي الفن (مثلا عن استشعار«كون جوهر الأشياء واحد») : وهو شيء كان ينبغي أن يُحَرَّمَ عليهم. بين الحقائق التي تم وضعها بعناية وبين مثل هذه الأشياء «المستشعرة» تظل هناك هاوية لايمكن عبورها، ذلك لأن هذه تعود إلى الفكر، وتلك إلى الحاجة. الجوع لايبرهن وجود على غذاء يشبع الجائع بل على رغبته في ذلك الغذاء. «استشعار»هُ لايعني الاعتراف بوجود شيء ما، أيا تكن درجة هذا الاعتراف، بل وضعه في حكم المحتمل في حدود الرغبة فيه أوخشيته؛ ال«إستشعار» لا يجعلنا نتقدم خطوة واحدة في ميدان اليقين. – وتلقائيا نعتقد أن فصولَ فلسفة يَشُوبُهَا ظلٌّ من الدين مُبَرْهَنٌ عليها أكثر من غيرها؛ لكن العكس هو الصحيح، فقط لَدينا رغبة شديدة في أن يكون الأمر كذلك، – أن يكون مصدر الغبطة حقيقة كذلك. هذه الرغبة هي التي تجرنا إلى اعتبار الحجج الرديئة حججا جيدة.

132. عن الحاجة المسيحية إلى الخلاص.

إن التأمل المتأني لظاهرة الروح المسيحية التي تُسَمَّى الحاجة إلى الخلاص قد يتوصل إلى تفسير خالٍ من الإسطورة، أي تفسير نفسي محض. صحيح أن التفسيرات النفسية للحالات والظواهر الدينية كانت حتى الآن تحظى بسمعة سيئة نظرا لأن فقْهاً يزعم أنه حر كان يقوم باستغلال هذا الميدان؛ لأنه كان منذ البداية يرمي، مثلما يدل على ذلك عقل مؤسسه شلير ماخر، إلى الحفاظ على الديانة المسيحية وإلى خلود فقهاء المسيحية : الذين سيجدون في التحليل النفسي لل «وقائع» الدينية مرسى جديداً، وبالخصوص شغلا جديدا. إن ن لم ندع هؤلاء الأسلاف يُضلونا فقد نجازف بتفسير الظاهرة المشار إليها كما يلي. الإنسان واع بالأعمال التي تقع في المستوى الأدنى من سياق تراتبية الأعمال، بل إنه يكتشف لديه ميلا إلى مثل هذه الأعمال يَبْدو له ثباته أقرب إلى ثبات كيانه هو. كم يَوَد تجريب ذلك الصنف الآخر من الأعمال التي يعتبرها الرأي العام هي الأولى والأسمى، كم يود أن يشعر أنه مفعم براحة الضمير التي تصاحب، على مايقال، فكرا نزيها ! واها، إنه لا يتجاوز عتبة الرغبة؛ يأتي عدم الرضى الناجم عن عجزه عن تلبية تلك الرغبة لينضاف إلى باقي عدم الرضى الذي أثاره لديه حظه في الحياة بشكل عام أو عواقب تلك الأعمال التي يقولون عنها أنها قبائح؛ بحيث ينشأ عنها توعك خطير، ويشرع النظر في البحث عن طبيب يكون قادرا على استئصال هذا المرض وكل أسبابه. – لم يكن الإنسان ليشعر من هذه الحالة بمثل هذه المرارة لو لم يكن ميالا لمقارنة نفسه مع الآخرين : ذلك أنه لن يكون لديه آنذاك سبب واحد يجعله لايرضى عن نفسه، وما سيحمله سيكون فقط نصيبه من عدم الرضى ومن النقص الإنسانيين، هذا العبء العالمي. لكنه يقارن نفسه مع كائن هو وحده القادر على القيام بتلك الأعمال المزعوم خلوها من الأنانية، والذي يحْيى في الوعي الخالد للفكر النزيه، إنه الإله؛ إن النظر في هذه المرآة الصافية هو الذي يجعله يكتشف أنه كائن مضطرب المظهر، ومشوه بشكل غريب. بعد ذلك تقلقه فكرة هذا الكائن نفسه، هذا الكائن الذي يلازم خياله في شكل عدالة انتقامية : إنه في كل حالات حياته، صَغُرَ شأنها أم عَظُمَ، يعتقد أنه يرى غضبه، تهديده، بل يشعر استباقا بضربات المقرعة التي يواجهها بوصفه قاضيا وجلادا. من سينقذه من هذا الخطر الذي، بمنظور مدة طويلة جدا من العذاب، يفوق بفظاعاته كل رعب آخر يصوره الخيال.

133

قبل أن نتمثل العواقب الأخرى لهذه الحالة علينا أن نعترف بأن الإنسان لم يقع فيها نتيجة «خطأ»ه أو «خطيئت»ه، لكن نتيجة سلسلة من أخطاء العقل، وأن نعترف أنه إن

بدا له كيانه غامضا وبغيضا إلى هذا الحد فالخطأ خطأ المرآة، وهذه المرآة كانت من عمله هو، عملا ناقصا من أعمال الخيال والحُكْم الإنسانيين. أولا، إن الكائن القادر فقط على إتيان الأعمال الخالصة من كل أنانية هو كائـن أروع من طائر الفنيق؛ لانستطيع حتى أن نتمثله بوضوح، ولو لمجرد كون مفهوم «العمل النزيه» يتبخر عند الاختيار الدقيق. ماعمل إنسان شيئـا أبدا من أجل الآخرين فقط ودون أي دافـع شخصـي؛ كيف يمكنـه أن يفعل شيئا لاعلاقة لـه به، أي دون لُزُوم داخلـي (وهو الذي يقـوم على حـاجة شخصـية) ؟ كيف يمـكن للأنا أن تتـصرف دون أنا ؟ - إن إلها كـله حب، مثلـما يقر النـاس به، لن يستطيع، بالمقابل، أن يأتي عـملا واحدا نزيها؛ يُسْتَحْسَنُ أن نَذْكُرَ بهذا الخصوص فكرة لليشـتنبرغ مأخوذة عـن وسط متواضع : «يسـتحيل علَينـا أن نشعر بدل الأخريـن، كما يقال؛ إننـا لانشعر إلا بأنفـسنا. إنه شيء صـعب حين نسمعـه ، لكنه ليس صـعبا إذا ما فهمـناه جيدا. إننـا لانحب أبا ولا أما ولازوجـة ولا ولداً، إنما نحـب الأحاسيس الطـيبة التـي يمثلونـها بالنـسبة لنـا»، أو كما يقـول لاروشفوكو : «يُخْطِيءُ مـن يظن أنه يـحب عشيقته حُبًّا فيها فقط.» أما فيما يتعلق بسبب اعتبار أفعال الحب أسمى من سواها، ليس بسبب جوهرها بالطبع، لكن بسبب منفـعتها، فإني أُحيلُكُمْ على البحوث السالفة «عن أصل الأحاسيـس الأخلاقية». ومع ذلك، إن أراد إنسـانٌ ما أن يكون كله حبـا مثل هذا الإله، ألا يفعل شيئا ولايريد شيئا لنفسه هو بل لكل الآخرين، فإن ذلك يُعَدُّ مستحيلا لسبب بسيط هو كونه مُجْبَرٌ على أن يعمل الكثير من أجله هو إن أراد أن يستطيع عمل الـقليل مـن أجل الـغيـر. ثـم أن هذا يـفتـرض أن الأخر أنـانـي كفـاية كـي يقـبل هـذه التضحـيات، هذه الحياة التي تـوهب له: بحيث أن الـكائنات المُحبَّة والُمَضحية يـفيدها بقاء الأنانيين العاجزين عن الحب والتضحية، وأنه على الأخلاقية الأسمى بالضرورة كي تبقى، أن تجبر اللاأخلاقـية على الوجود (وهو ما ستقضـي به علـى نفسها). - وأكثر من ذلك : الفكـرة التي لدينا عن إله مـاتقلقنا وتهـيننا مادمنا نـؤمن بها، أما تكونهـا فشيء لايمكـن أن يحـوم حولـه الشـك في الوضـع الحالـي للسِّلاَلة المقارنة (L'ethnologie comparée) وبمجرد مـانفهم هذا التكوين ينـتهي أمر ذاك الإيمان. يـحدث للمسـيحي الذي يُقَارنُ كيـانه بكيان الإلـه مايقع لدونكـيشوت الذي يقـلل من شأن شجـاعته لأن مايملأ رأسه هـو أبطال روايات الفروسيـة ومآثرهم العظيمـة : القاعدة التي علـى أساسها يُبْنَى القياس في كلتا الحالتين هي الأسطورة. وباختفاء فكرة الإله يختفي الإحساس بال «الخطيئة»، الإحساس بمخالـفة الوصايا الإلـهية، الإحساس بـتدنيس كائن كَرَّسَ نـفسه للإله. يبـقى آنذاك و لاشك هذا القلـق الذي تمتزج به وتتحـد معه خشية عقـاب العدالة الدنـيوية أو ازدراء الـناس؛ لكـن عذاب النـدم، هذا المنـخس الأكثـر حدة من سـواه في

الإحساس بالخطأ، يَكَلُّ دائما حين نتنبه إلى أننا بأفعالنا قد خرقنا التقليد الإنساني، خرقنا قوانين النظام الإنساني، لكننا أبعد مانكون من أن نجازف ب «خلاص الروح الأبدي» وبعلاقتنا مع المعبود. لو أن الإنسان أفلح في نهاية المطاف في اكتساب القناعة الفلسفية القائلة باللُّزُومية* المطلقة واللامسؤولية التامة عن كل أفعاله، وأن يتمثلها بلحمه ودمه، فإن آخر بقية من الندم ستختفي هي الأخرى.

134

إذن إن كانت تعض الأخطاء، كما قلنا، هي التي أَضَنَّت المسيحي وقادته إلى احتقار نفسه، أي إلى تفسير خاطىء وغير علمي لأفعاله وأحاسيسه، فيجب عليه أن يلاحظ بكامل الإندهاش أن حالة الاحتقار، حالة الندم، حالة الاشمئزاز بشكل عام، ليست دائمة، وأنه يحدث أن تخلو روحه من كل هذا طيلة ساعات يشعر خلالها بالحرية والإقدام من جديد. إن الذي انتصر، في الواقع، هو سُرُورُ كيانه، ذلك الحُبُورُ الذي يأتيه من قوته، وهما مرتبطان بالتخفيف الضروري لكل انفعال عميق؛ هاهو الإنسان قد عاد إلى حب نفسه،إنه يشعر بذلك، - لكن هذا الحب بالضبط، هذا التقدير الجديد لذاته هما اللذان يبدوان له غير معقولين، إنه يرى فيهما شعاع رحمة لا يستحقه نازلا من أعلى.لئن كان مِنْ قَبْلُ يعتقد أنه يرى في كل ما يحدث له إنذارات، تهديدات، عقابات وعلامات مختلفة تدل على الغضب الإلهي، فإنه الأن يُؤَوِّلُ تجاربه بطريقة تجعله يُضَمِّنُهَا الحلم الإلهي : هذا الحدث يبدو له زاخراً بالحب، وذاك الآخر يبدوا له علامة مسعفة، أما الثالث، خاصة وأن حالته النفسية كلها سرور، فيبدو له دليلا على أن الله غفور. مثلما كان في الأول، أثناء عدم رضاه، يخطىء في تفسير أفعاله بالخصوص، فإنه الآن يفعل نفس الشي ء بما يشعر به بالخصوص؛ إنه يعتبر الثقة التي يشعر بها أثرا لقوة تسود خارجا عنه هو، يرى الحب الذي يكنه لنفسه يكتسي مظهر الحب الإلهي؛ وما يسميه عفوا ومقدمة خلاص هما في الحقيقة عفو وخلاص ينبعان من نفسه.

135

هكذا إذن يكون علمُ نفسٍ خاطىء وطريقةٌ خرافيةٌ في تفسير البواعث وردود الفعل العميقة هما الشرط اللازم لكي يصير المرء مسيحيا ويشعر بالحاجة إلى الخلاص. إذا أدرك المرء جيدا ضلال العقل والخيال هذا فإنه لن يعود مسيحيا.

* يقصد أن الإنسان مسير ، غير مخير ، وغير مسؤول عن أعماله . (المترجم) .

136. عن الزهد والقداسة المسيحيين.

كلما حاول بعض المفكرين المنعزلين جاهدين تقديم ظَاهِرَتِيْ الأخلاقية الاستثنائية التي اعتاد الناس تسميتها بالزهد والقداسة وكأنهما نوع من المعجزة التي يعتبر تسليط نور التفسير العقلي على وجهها تدنيسا وانتهاكا للحرمة، كلما تقوى إغراء هذا الانتهاك. لقد أدى دافع طبيعي قوي، بشكل عام، على مر العصور، إلى الاحتجاج ضد هاتين الظاهرتين.إن العلم، بكونه تقليدا للطبيعة، كما أسلفنا القول، يجيز لنفسه أن يعارض طبعهما الذي يقال أنه غير قابل للتفسير، بل للمقاربة. صحيح أن العلم قلما توفق في ذلك حتى الآن : وتبقى هاتين الظاهرتين غير مُفَسَّرَتَيْنِ، وهو مايرضي كثيرا أولئك الذين يزعمون أنهم معجبون بالخارق في ميدان الأخلاق. إنهم يريدون، حتى نقول ذلك بشكل عام، للذي لم يُفَسَّرْ أن يكون غير قابل للتفسير إطلاقا،و ألا يكون غير القابل للتفسير طبيعيا على الإطلاق، بل فوطبيعيا، مُعْجزاً، – إنه التطلب الذي يملأ نفس كل المتدينين والميتافزيقيين (والفنانين أيضا، حين يكونون مفكرين كذلك)؛ بينما يرى رجل العلم في هذا التطلب «افتراضا غير مناسب». – فالعمومية المعقولة الأولى التي نجدها حين نتأمل الزهد والقداسة هي كون طبيعتهما معقدة : لأنه قد تَمَّ بنجاح في كل الأحوال تقريبا، في عالم المادة كما في عالم الأخلاق، إرجاع الخارق المزعوم إلى تعقد معطىً خاضع لشروط متعددة. لنتجرأ، في البداية على عزل بعض نزوات روح القديسين والزهاد المتفرقة ثم نظهرها، في النهاية، جد متشابكة.

137

هناك تحامل على الذات تتضمن أسمى تجلياته بعض أشكال الزهد. يشعر بعض الناس فعلا بحاجة ملحة إلى تحقيق قوتهم وولعهم بالسيطرة بحيث أنهم ينتهون، إما لعدم وجود ماقد يسيطرون عليه، وإما لكونهم قد فشلوا في ذلك في مكان آخر، بالإستبداد ببعض أطرافهم، بقطاع أو بمستوى من كيانهم إذا صح القول. هكذا يجاهر أكثر من مفكر بآراء لاتساعد فيما يبدو على رفع سمعته أو تحسينها؛ كثير من يعرض نفسه لازدراء الناس، بشكل واضح، والحال أن صمته سيجعله يظل إنسانا محترما؛ وآخرون يتراجعون عن آرائهم السابقة دون خشية التناقض الذي قد يُوصفوا به منذ تلك اللحظة : إنهم، على العكس، يجهدون أنفسهم لِيُوصِفُوا به ويتصرفون مثل أولئك الفرسان المتهورين الذين لايحبون فرسا بالفعل إلا حين يجمح، حين يتصبب عرقا ويثور فجأة. هكذا يتسلق الإنسان الجبال الشاهقة عبر طرق وعرة كي يتحدى خَوْفَهُ وَرُكْبَتَاهُ ترتعشان؛ هكذا يجاهر الفيلسوف بأفكار حول الزهد والتواضع والقداسة التي يشوه

بهَاَؤُهَا وجهه بشكل بشع. إن هدا التمزيق للذات، هذا الاستهزاء بالطبع، هذا الازدراء للذات، الذين أقامت لـهم الأديان وزنا كبيرا، ليسوا، بحصر المعنى، سوى درجة عالية من الغرور.هنا تجد الموعظة فوق الجبل مكانتـها : يجد المرء لذة حقيقة في ممارسة العنف على نفسه بواسطـة متطلبات مفرطة، وفي أن يجعل جزءا غـير محدد من روحه يقدس المطالب الاستبدادية. في كل أخلاق زُهْدِيَة يُشْغَلُ الإنسان بجزء منه وكأنه إله، ولأجل ذلك يحتاج إلى تحويل الجزء الباقي إلى شيطان...

138

من المعـروف أن الإنسان لايكـون أخلاقيا طوال الـوقت؛ إذا حكمنـا على أخلاقـيته حسب قدرته عـلى التفاني في سبيـل رفعة التضحية(الـشيء الذي، إن دام وصار عادة، يكون قداسة)، فإننا نجد أنه يكون أخلاقيا أكثـر في الإنفعال؛ تمنحه هذه الدرجة العالية من الانفعال دوافع جديدة ربما لم يكن ليعتـقد، وعقله هارىء كعادته، أنه قادر عليها. كيـف يحدث ذلك ؟ لاشـك أنه يحـدث بسبب تـقارب كل أشكال الرفـعة والتهـيج الحاد؛ يمكن للإنسان حين يبلغ درجة فريدة مـن الانخطاف أن يصمم على انتقام مروع كمـا قد يصمـم على سـحق مروع لحـاجته للإنـتقام. عـلى كل حـال، إنه، تحت تأثـير انفعاله الـعنيف، يريد رفعة وعـنفا وفظاعة، وإن ارتأى صدفـة أن التضحية بنفـسه تمنحه نفـس القدر مـن الرضى الذي تمـنحه إيـاه التضـحية بـالغيـر، أو قدرا أكثر، فـإنه يخـتار التضحيـة بنفسه. إن الأمر، بالنسـبة له، يتعلق فقـط بإفراغ شحنة انفعالـه؛ ومن المحتمل جدا إذاك أن يمسك رماح أعدائه كلها ويغرزها فـي صدره كي يخفف من تهيجه. وقد تطلـب الأمر أن يُرَسِّخَ في ذهن الإنسانـية، عبر تعـود طويل، أن في نكران الـذات رفعة وليس في الانتقام وحده؛ وأن المعبود الذي يضـحي بنفسه هو أقوى رموز هذا النوع من الرفعة وأكثرهـا فعالية. يبدوا هذا التخـلي تفوقا على أَشَدِّ الأعداء استعـصاء على الهزم، وسيطرة تمـت فجأة على انفـعال ما، – وبهذا يعـتبر قمة الأخلاق. فـي الواقع، إن الأمر يتعلق هنا بصـورة تحل محل أخرى في الوقت الذي تظل فيه النـفس في مستواها، دون تغـير. لم يـعد النـاس يفهـمون أخلاقيـة هاته الـلحظات بعد أن خـاب أملهـم وصاروا يستـريحون من انـفعالهم، لـكن إعجابهـم بالذين عـاشوا معهم تـلك اللحـظات في آن واحد يَسْنُدُهُمْ؛ تـصير الكـبريـاء عزاءهـم حين لايعـود لديـهم لا الإنـفعـال النـاتج عن تصرفهم ولا فَهْمُ هذا التـصرف. إذن فأفعال نكران الذات هاته ليسـت أفعالا أخلاقية، في الواقع، مادامت لاتأخذ الغير بعين الإعتبار؛ بتـعبير أدق، إن الغير يمنح للنفس المتوترة إلى أقصى حد فرصة لتخفيف توترها، بفضل نكران الذات السالف الذكر.

139

يسعى الزاهد، تحت اعتبارات عدة، إلى جعل حياته سهلة، وذلك بخضوعه الكامل لإرادة أجنبية أو لقانون، لطقس تشمله دائرته كلية؛ نوعا ما على طريقة البراهماني الذي لايقرر شيئا هو بنفسه،و في كل مرة يتخذ قرارا بمقتضى وصية مقدسة. يعتبر هذا الخضوع وسيلة ناجعة للإمساك بزمام التحكم في النفس؛ يُشْغَلُ المرء فلا يعرفُ الضجَر ولا تَطَالُه ُإثارة الإرادة الأنانية والانفعال، فلا يشعر، وقد قام بفعل ما، بأي إحساس بالمسؤولية، ومن ثَمَّ لايُعَذِّبُهُ الندم. لقد تخلى بالمرة عن إرادته الشخصية، وذلك أسهل من التخلي عنها من حين لآخر فقط؛ تماما كما يكون التخلي بالكامل عن رغبة ما أسهل من التزام الحذر. لوتفكرنا في العلاقات الحالية بين المواطن والدولة فسنجد هنا أيضا أن الطاعة المطلقة مريحة أكثر مما هي متلائمة مع الظروف. فالقديس يجعل حياته سهلة إذن بهذا التخلي الكامل عن شخصيته، ويخدع نفسه من يُعْجَبُ في هذه الظاهرة بأثرة أخلاقية منقطعة النظير. على كل حال، إن إثبات الشخصية بلا اضطراب ولاتردد أصعب من التخلص منها بالطريقة السالفة الذكر، زد على ذلك أن هذا يتطلب الكثير من النباهة ومن التفكير.

140

بعد أن اكتشفت في عدد كبير من الفعال التي يصعب تفسيرها أشكالا من لذة الإنفعال من أجل الإنفعال سأرى كذلك في احتقار الذات، الذي يعتبر واحدة من خاصيات القداسة، وكذلك في الآلام التي يعذبون بها أنفسهم (من خلال التجويع والجَلْد، فك أعضاء الجسد، والتظاهر بالجنون)، وسيلة يحارب بها أصحاب هذه الطباع النضوب التام لإرادة الحياة لديهم (نضوبَ أعصابهم)؛ إنهم يلجأون إلى أشد وسائل التهييج والتعذيب إيلاما كي ينبعثوا، على الأقل لمن حين لآخر، من هذا الخمول وهذا الضجر اللذين غالبا ما تغرقهم فيهما بلادة الذهن وذلك الخضوع لقوة أجنبية.

141

الوسيلة التي يلجأ إليها الزاهد والقديس كي يجعلا الحياة مطاقَةً وجذابة رغم كل شيء هي حرب يخوضانها عند الإقتضاء وتتناوب فيها الهزائم والانتصارات. يلزمهم لذلك خصْم، وهم يجدونه في ما يسمونه «العدو الداخلي». أي أنهم يستغلون ميلهم إلى الغرور وتعطشهم إلى المجد والسيطرة، وأيضا شهواتهم الحسية، حتى يتمكنوا من اعتبار حياتهم حربا مستمرة ويعتبروا أنعسهم ميدان حرب تتواجه فيه الأرواح الطيبة

والشياطين بحظوظ مختلفة. الخيال الحسَّوى، مثلما نعلم، يُلَطِّفُهُ، بل يكاد يمحوه، انتظام العلاقات الجنسية وبالعكس فإن العفة أواضطراب العلاقات الجنسية تجعله جامحا وداعرا. لقد كان خيال كثير من القديسين المسيحيين فاحشا بشكل فظيع؛ إنهم حين يخضعون لهذه الشهوات لايشعرون بالمسؤولية كثيرا بمقضى النظرية القائلة أن هذه الشهوات هي عفاريت حقيقية تتسلط عليهم بحدة؛ إننا ندين لهذا الإحساس بالصدق في اعترافاتهم، وهو صدق يفيد الكثير. كان من صالحهم أن يعتمدوا ذلك الصراع بحدة تزيد أوتنقص بما أنه كان يحافظ على حياتهم كما رأينا. وكي يبدو الصداع مهما ويثير العطف والإعجاب الدائمين لدى الآخرين، الذين لا قداسة فيهم، فقد تطلب الأمر التنديد المستمر بالحسوية التي وُصِمَتْ بالهرطقة، بل وذهبوا إلى حد الجمع بين خطر الخلود في الجحيم وبين تلك الأشياء بحيث يبدو شبه حقيقة أن المسيحيين، طيلة قرون بكاملها، قد أنجبوا أبناءهم وهم يشعرون بالذنب، الشيء الذي أساء كثيرا للإنسانية بكل تأكيد. إن مانراه هنا هي الحقيقة مقلوبة : وهو موقف غير لائق خصوصا بشأن الحقيقة. صحيح أن المسيحية قد قالت : كل إنسان يكون الحمل به وولادته خطيئة، و في ذروة مسيحية Calderon التي لا تطاق ضاقت هذه الفكرة والتفت إلى حد أنها جعلته يتجاسر على قول هذه المفارقة العبثية أشد ما تكون، في هذه الأبيات المعروفة :

أكبر أخطاء الإنسان
هي ولادته.

في كل الديانات المتشائمة يتم الشعور بالإنجاب على أنه شيء قبيح في ذاته، لكن هذا الشعور ليس أبدا سمةً من سمات الإنسانية الكبرى؛ حتى حكم المتشائمين بعيد عن تحقيق الإجماع بهذا الشأن. أوُمبْدُ وكْلْ، مثلا، لايرى إطلاقا أنه قد يكون في المسائل الإيروسية شي ء مخجل أو شيطاني أوآثم، على العكس، إنه لايرى في مرج الهلاك الأبدي سوى مُنْقذ واحد وأملٍ واحد هي أفروديت*، هي التي تضمن له أن الشقاق لن يسود إلى الأبدَ، بل سيسلم الصولجان يوما ما لشيطان غفور. لقد رأينا أن مصلحة المسيحيين المتشائمين الذين يحافظون على الشعائر الدينيةً كانت في أن يظل رأي آخر سائدا؛ كانوا في حاجة، وسط الوحدة واليباب الروحي لحياتهم، إلى عدو يكون دائما نشيطا: إلى عدو معترف به عالميا تُمَكِّنُهُمْ مُحَارَبَتُهُ وسحقه من الظهور دائما بمظهر كائنات فوطبيعية، كائنات يكاد لايفهمها من ليس قديسا. وحين يفر منهم

* إلهة الحب والجمال عند الإغريق

هذا العدو إلى الأبد في نهاية المطاف بسبب صحتهم المدمرة ونوعية الحياة التي يَحْيَوْنَهَا، فإنهم يعرفون كيف يرون في الحين نفسهم تعج بالشياطين. كان تأرجح كفتي الميزان، الكبرياء والتواضع، صعودا وهبوطا يَشْغَلُ عقولهم صاحبةَ الأوهام مثلما كان يشغلها تناوب الرغبة وطمأنينة النفس. لم يكن علم النفس، أثناء هذا العصر، يصلح فقط للشك بخصوص الواقع الإنساني كله، بل كذلك لتحقيره، لجَلْده وَصَلْبه؛ كان الناس يريدون أن يكونوا خبثاء وأشرارا، كانوا يسعون وراء أزْل (angoisse) خلاص الروح،وراء اليأس من قوتها. كل شيء طبيعي يربط به الإنسان فكرة الشر والخطيئة (كما هو معتاد بأن يفعله الآن في الميدان الإيروسي) يُضْني، يُكَدِّرُ الخيال، يمنح نظرة هاربة، يُدْخِلُ المرء في صراع مع يفسه، يجعله مترددا وحذرا؛ حتى أحلامه يعطيها خُلْفَةَ (arrière - gout) وَعْيٍ مُعَذَّب. غير أن هذه المعانات بسبب الطبيعة لا أساس لها في واقع الأشياء : إنْ هي إلا رأيٌ في الأشياء. من السهل اكتشاف لماذا يصير الناس خبثاء أكثر حين يقررون أن حظهم الطبيعي خبيث ،يشعرون به دائما على أنه كذلك. إنه مكر الدين ومكر هؤلاء الميتافزيقيين الذين يريدون للإنسان أن يكون خبيثا وآثما بالطبيعة، مكرهم هو الذي يجعله يشك في هذه الطبيعة ويجعله بذلك شريرا هو نفسه : لأن مَنْ عَدِمَ القدرةَ على خلع ثياب الطبيعة يتعلم أن يرى قُوى فوطبيعية كي تُحرره من هذا الحَمْلَ؛ وفي نفس الوهلة تظهر على الخشبة تلك الحاجة إلى الخلاص التي تحدثنا عنها، والتي لا تطابق أبدا حالة حقيقية من الخطيئة بل حالة وهمية. لنتصفح واحدةً واحدةً تلك القضايا الأخلاقية التي طرحتها قواعد المسيحية وسنجد دائما أن متطلباتها مبالغ فيها، وذلك حتى لا يتمكن الإنسان من القيام بها؛ إن القصد من ورائها ليس أن يصير الإنسان أخلاقيا أكثر، بل أن يشعر بأنه آثم قدر الإمكان. لو لم يكن هذا الشعور مستساغا من طرف الإنسان فلماذا شَكَّلَ مثْلَ هذا الخيال وارتبط به طويلا ؟ مثلما تم في العالم القديم إنفاق ثروات هائلة من العقل ومن الابتكار من أجل إنماء متعة الحياة من خلال عبادات كانت عبارة عن أعياد، فإنه قد تم، في عصر المسيحية، التضحية بقدر كبير من الذكاء، لكن من أجل مطمع آخر : كانوا يريدون للإنسان أن يشعر أنه آثم في كل الأحوال وأن يجعله ذلك حيويا، منتعشا، نشيطا. الإحياء والإنتعاش والتنشيط مهما كان الثمن – أليس هذا شأن مرحلة متوترة، مفرطة في النضج وفي التحضر ؟ كانت نفوس الناس قد كلت من فرط ما جابت حلقة كل الأحاسيس الطبيعية : لذلك ابتكر القديس والزاهد نوعا جديدا من المثيرات الحيوية. لقد عَرَضَا نفسيهما أمام كل الأنظار، ليس لكي يكونا فعلا نموذجا يحتذى بالنسبة للعدد الكبير من الناس، بل ليكونا مشهدا مريعا وممتعا في ذات الوقت يتم تمثيله داخل حدود

هذا العالم وماورائه الذي كان كل واحد يعتقد، في ذلك الوقت، أنه يرى فيه تارةً بارقةً خالدة من الهناء، وتارة أخرى ألسنةً من اللهب ترمي بها الهاوية. إن عين القديس المركزة على الدلالة المريعة لهذا الوجود القصير على الأرض، على حتمية يوم الحساب الذي سَيُقَرِّرُ الفضاءات اللانهائية لحياة أخرى، هذه العين المحتضرُ تَوَقُّدُهَا في جسد يكاد يكون أثَراً بعد عين قد ارتعش منها أناس العالم القديم أشد ما يكون؛ المجازفة بإلقاء نظرة، تحويل النظر مع الإرتعاش من الرعب، الشعور من جديد بجاذبية المشهد، التملي به في الوقت الذي ترتعش فيه النفس من النشاط والانفعال الباردين – تلك كانت آخر متعة ابتكرها القِدَمُ حين فَقَدَ هو الآخر إحساسه بمشهد مصارعات الحيوان والإنسان.

142

مجمل القول أن هذه الحالة النفسية التي يتمتع بها القديس، سواء كان متمرسا أومبتدءً، تتكون من عناصر نعرفها جيدا، إلا أنها، تحت تأثير أفكار أخرى غير الأفكار الدينية، تظهر بأشكال مخالفة وتستوجب بالتأكيد ذم الناس الذين كانت تستطيع، بهذه الزركشة الدينية، بهذا الفهم النهائي للوجود، أن تعتمد على إعجابهم واحترامهم، – على الأقل كانت تعتمد عليهم في ذلك في الماضي. كان القديس تارة يمارس هذا التحامل هلى الذات الذي يقترب كثيرا من التلهف على السيطرة، والذي يمنح إحساسا بالقوة حتى لمن هو وحيد، وتارة أخرى كان شعوره الفياض يقفز من الرغبة في إطلاق العنان لأهوائه إلى الرغبة في ثني ركبتها، وكأنها أفراس وحشية، تحت الضغط القوي لنفس فخورة، تارة يتطلب توقفا كاملا لكل الأحاسيس المزعجة، المعذِّبة، المهيِّجة، يتطلب نوما يقظا، استراحة طويلة في حضن لامبالاة كئيبة، لامبالاة الحيوان والنبات، وتارة أخرى يسعى إلى القتال ويضرم ناره في داخله لأن الضجر ينقل إليه تَثَاؤُبَهُ : هذا الأنا الذي تحداه يسلمه لمقارع احتقار الذات وفظاعاته، يستمتع بجُموح شهواته، بألم الخطيئة الحاد، بل حتى بتصور هلاكه، يملك في نصب الفخاخ لشغفه، كشغف الحاجة الملحة إلى السيطرة التي ستؤدي به إلى الحاجة الملحة للتواضع بحيث تجد روحه المنهكة نفسها متصدعة بفعل هذا التناقض؛ في نهاية المطاف، إن كان يطمح في رؤى، في لقاءات مع الأحياء أو مع كائنات سماوية، فإنه في الواقع يرغب في نوع نادر من اللذة، وقد تكون هي ذتها هناك حيث تتشابك اللذات الأخرى كلها مجتمعة. يكشف نوفاليس (Novalis) ، الذي يعتبر مرجعا في ميدان القداسة، وذلك بسبب تجربته وفطرته، يكشف السر بفرحة ساذجة : « من المدهش أن اتحاد اللذة والدين والفظاظة لم يجذب منذ زمن طويل انتباه الناس إلى تقاربها الكبير وإلى نزوعها المشترك.»

143

إن ما يضفي على القديس قيمة في تاريخ العالم ليس ماهو بل ما يعنيه بالنسبة للآخرين، لغير القديسين. لقد أخطأ الناس بشأنه، فسَّروا حالاته النفسية بشكل خاطىء وأبعدوه عن أنفسهم قدر الإمكان معتبرين إياه ظاهرة لامثيل لها إطلاقا وذات طبيعة غريبة، فوإنسانية : لكن هذا بالضبط هو ما منحه تلك القوة الخارقة التي مكنته من الاستحواذ على خيال عصور وشعوب بأكملها. لم يكن هو يعرف نفسه، كان يفهم أسلوب أمزجته وميوله وفعاله من خلال فن غريب ومصطنع في التفسير، مثل التفسير الروحي(pneumatique) للإنجيل. كان الجانب المزيف والمَرَضي من طبيعته، رفقة مزيج من البؤس الثقافي، من المعرفة التافهة، من الصحة المريضة، ومن الأعصاب المهيَّجة، كان محجوبا عنه وكذا عن الناظرين إليه. لم يكن إنسان طيبا بشكل خاص، وكان أقل حكمة بالخصوص : لكنه كان يدل على شيء من المفترض أنه يتجاوز حدود ما يعرف الناس في الطيبة والحكمة. كان الإيمان به يَسْنُدُ الإيمان بالشيء السماوي والمعجز، بالمعنى الديني لكل وجود، بحتمية يوم الحساب. لقد اتخذت صورة ظل القديس، تحت البريق الغروبي لشمس نهاية العالم التي كانت تسطع على الشعوب المسيحية، أبعادا هائلة : لقد كبرت قيمتها إلى حد أنه لايزال هناك الآن، في عصرنا الذي لم يعد يؤمن بالإله، مفكرون يؤمنون بالقديس.

.144

من المُسَلَّمِ به أننا نستطيع أن نعارض صورة القديس هذه المرسومة وفق متوسط النوع البشري كله بصورة أخرى ستترك انطباعا أفضل ولاشك. لكن بعض الاستثناءات من الجنس البشري تظهر هنا وهناك، سواء بدافع رقة شديدة وحب كبير للناس، أو بسحر طاقة نادرة : بعض الاستثناءات الأخرى فاتنة للغاية لأن بعض الخيالات الهاذية تفيض عليها سيولا من النور، كما هو الحال مثلا مع من جاء بالمسيحية، وهو الذي كان يعتبر نفسه ابن الإله ويشعر من جراء ذلك أنه لا إثم عليه؛ بحيث أن الخرافة – سوف لن نصدر في حقها حكما قاسيا، فالقدَمُ يعج بأبناء الآلهة – مكنته من بلوغ نفس الهدف، ذلك الإحساس بالبراءة التامة، باللامسؤولية الكاملة، التي يَضْمَنُهَا العلم اليوم لكل واحد. – لقد أهملت قديسي الهند الذين يحتلون مرتبة وسطا بين القديس المسيحي والفيلسوف الإغريقي، وبالتالي لايشكلون نموذجا خالصا : المعرفة، العلم – إن كان هناك علم – ، التسامي على الناس الآخرين بفضل الانضباط والتكوين المنطقيين للفكر، تلك أمارة القداسة التي كانت تُشْتَرطُ لدى البوذيين، بينما نرى هذه الميزات مُبْعَدَةً وملعونة في العالم المسيحي باعتبارها علامات الزندقة.

الكتاب الرابع

عن روح الفنانين والكتاب

145. كون الاتقان يفلت من الصيرورة.

لقد تعودنا على عدم التساؤل، أمام كل شيء متقن، عن تكوينه، وعلى الاستمتاع بوجوده كما لو أنه انبثق من الأرض بضربة عصا سحرية. من المحتمل أننا لانزال نكابد آثار انفعال ميثولوجي قديم. لانزال تقريبا نحس بنفس الشعور (مثلا داخل معبد إغريقي مثل معبد باستوم) كما لو أن إلها شيد بكل يسر سكناه بتلك الأحجار الضخمة ذات صباح جميل؛ أو، أحيانا أخرى، كما لو أن روحا وجدت نفسها، بفعل سحر مفاجىء، حبيسة حجر وهي الآن تحاول أن تجعله ينطق باسمها. الفنان يعرف أنه لن يكون لعمله التأثير الكامل إلا إذا جعل المتلقي يعتقد أن فيه شيئا من الإرتجال، أن ظهوره للوجود لا يخلو من معجزة بسبب فجاءته، لن يفوته كذلك أن يسهم في هذا الوهم وأن يُدْخِلَ في الفن، في بداية الإبداع، عناصر الإثارة المُلْهَمَة، عناصر الفوضى التي تخبط خبط عشواء، عناصر الحُلم المتيقظ، كل الحِيَل الخداعة الهادفة إلى تهييء روح المشاهد أو السامع بحيث تعتقد في انبثاق مفاجىء للإتقان. - إن علم الفن، وهذا شيء مسلم به، يجب أن يعارض هذا الوهم بكل الوضوح الممكن ويوضح عُجْبَ الفكر ومغالطاته المنطقية التي بموجبها يقع في فخ الفنان.

146. معنى الحقيقة لدى الفنان.

حين يتعلق الأمر بمعرفة الحقائق فإن سلوك الفنان يكون أضعف من سلوك المفكر؛ إنه يرفض رفضاً باتا أن تُنْتَزَعَ منه رموز الحياة الناصعة والعميقة ويقاوم كل المناهج، كل النتائج المجردة والساطعة. إنه يقاوم، على مايبدو، من أجل رفع كرامة الإنسان وقيمته؛ في الواقع، إنه لايريد التخلي عن المُسَلَّمَات التي تضمن أفضل آثار فنه، مثل الغرائبي، الأساطير، الضبابية، الأطراف(extrêmes)؛ إنه يولي إذن أهمية لدوام نوع نشاطه

الإبداعي أكثر مما يوليها لـلتفاني العلمي في خدمة الحقيقة في كل أشـكالها، مهما يكن المظهر الذي تظهر به بسيطا.

147. الفن المستحضِر للموتى.

يضطلع الفن، عرضيا، بمهمة الحفاظ هنـا وهناك على بعض الأفكار الآيلة للإنطفاء، البـاهتة، وكذلـك بمهمة إحـيائهـا. وحين يتخـلص من هـذه المهمة يـجدل رباطا يـضم مختلـف العصور، ويبعـث روحها من جديد. مـن المؤكد أن ذلك الإنبعـاث لايعدو أن يكون ظاهـرا من الحياة، كـظاهر القبر، أو كعـودة الأموات في الحلم، لكـن الإحساس القديم تدب فـيه الحياة من جديد لبـعض الوقت على الأقل ويـعود القلب لينبـض بإيقاع منسي بقية الوقت. لاينبغي لنا إذن أن نَضْغَنَ علـى الفنان نفسه، بسبب هذا النفع العام للأدب، إن لم يكن في مقدمة من ينيرون العقل وسط إنسانية تترجل تدريجيا : لقد ظل طفلا أو مراهقا طيلـة حياته وتأخر عند الوضع الذي فاجأته عليـه غريزته كفنان؛ والحال أن أحاسيس المـرحلة الأولى من الحيـاة، مثلما نعلـم ذلك، أقرب إلى أحاسيـس العصور الماضية منه إلى أحاسـيس العصر الحاضر. إنه سيلفي نفســه، دون أن يشاء ذلك، مكلفا برد الإنسانية إلى طفولتها؛ ثمة مجده، وثمة أقصى مداه كذلك.

148. حين يُلَطِّفُ الشعراء الحياة.

حين يـريد الشعـراء أن يُلَطِّفُوا حياة النـاس فإنهـم إما يحولـون الأنظار عن الحـاضر المعذَّب وأمـا يَضْفُونَ على هذا الحـاضر ألوانا جديـدة بمساعدة ضـوء يجعلـونه يُشِعُّ من عمق الماضي. ولكي يقدروا على ذلك يلزمهم أن يـكونوا هم أنفسهم بعيدين عن الناس الذين ينظرون إلى الماضي بحيث سيمكنهم أن يُكَوِّنُوا جُسُورَ رَبْطٍ مع العصور والأفكار الغابـرة، مع الأديان والحضـارات المحتضرة أو الميتة. بحـصر المعنـى، إنهم دائمـا ولزوما وارثون. هناك بـالطبع أشياء غـير مؤاتية يمكن قـولها بشأن وسائـلهم في تلطـيف الحياة : إنهم لا يُهَدِّءُونَ الآلام ولايشفونها إلا في تلك اللحـظة فقط؛ بل إنهم يمنعون الناس من العمل على تحسين فـعلي لوضعهم، وذلك بقتلهم، بواسطة الـتفريغات المُخَفِّفَة، لإنفعال غير الراضين الذين يدفعون إلى الفعل.

149. سهم الجمال البطيء.

إن أسمى أنواع الجمال ليس هو ذاك الذي يفتننا على الفور، الـذي تكون مداهماته لنا قـوية ومسكـرة (فهذا النوع يـثير الإشمئـزاز بسهولـة)، بل الذي يتسـلل إلينـا ببطء، نحمـله معنـا ونحن لانكاد نـشعر به، ويتـفق لنا يـوما أن نجده ثانيـة في حلمـنا؛ والذي

ينتهي، بعد أن يشغل مكانة متواضعة في قلبنا مدة طويلة، بأن يَتَمَلَّكَنَا بأكملنا، بأن يملأ بالدمع مآقينا، بأن يملأ هذا القلب حنينا. - وماذاك الحنين الذي تبعثه رؤية الجمال؟ إنه حنين أحدنا إلى أن يكون جميلا : نتصور أن قدرا كبيرا من السعادة يرتبط بذلك. - ألا إن ذلك خطأ.

150. منبع روح الفن.

يَشْمُخُ الفن حيثما يتقهقر الدين. إنه يستعيد طائفة من الأحاسيس ومن الحالات النفسية التي خلقها الدين، يفتح لها قلبه ويبلغ بها أعماقا جديدة وفيضا روحيا يجعلانه قادرا على إشاعة السُّمُوِّ والإلهام،وهو ما لم يكن يدري كيف يقوم به فيما قبل. الآن وقد أصبح ثراء الأحاسيس الدينية نهرا من فرط تناميه فإنه لايفتأ يطفح ويسعى لغزو ممالك جديدة؛ إلا أنَّ تقدم المعارف قد زعزع أركان الدين وبعث في الناس ارتيابا جذريا : وإذْ تَطْرُدُ المعارفُ الإحساسَ من المجال الديني يرتمي في أحضان الفن، وكذلك في أحضان الحياة السياسية في بعض الحالات، لابل في أحضان العلم مباشرة. حيثما أدركنا في طموحات الإنسانية ظلا خفيفا من القلق السامي أمكننا أن نفترض أنها ظلت مُشْرَبَةً برعب شبحي، برائحة البخور، وبظلال الكنيسة.

151. البحر الشعري والتجميل.

يسدل البحر [من بحور الشعر] حجابا على الواقع، يفسح المجال لمكر اللغة ولتشويش الفكر. بسبب الظل الذي يلقيه على الفكرة فإنه تارة يخفي المعنى وتارة أخرى يُبْرِزُهُ. مثلما يلزم شيء من الظل للتجميل كذلك يلزم شيء من «الغموض» للتدقيق. يجعل الفن مشهد الحياة مطاقا بتغطيته بحجاب الفكر المشوش هذا.

152. في النفس الذميمة.

يضع الناس للفن حدودا ضيقة جدا حين يتطلبون منه أن يعبر فقط عن النفس السوية، المتزنة أخلاقيا. تماماكما في الفنون الجميلة هناك في الموسيقى والشعر فن النفس الذميمة جنبا إلى جنب مع فن النفس الجميلة، وربما يكون هذا الفن هو الذي تَفَوَّقَ في خلق أقوى آثار الفن التي هي تحطيم النفوس، تحريك الأحجار، جعل الحيوانات بشرا.

153. الفن يُحْزِنُ قلب المفكر.

ماهي قوة الحاجة الميتافزيقية، وماهي الصعوبات التي تجدها الطبيعة في آخر لحظة من لحظات افتراقها معها، يمكننا أن نتنبه إلى ذلك من خلال كون أسمى آثار الفن لاتزال

بسهولة تثير في العقل الحر نفسه، والحال أنه قد تخلص من كل ميتافيزيقا، صدى هذا الوتر الميتافيزيقي الصامت منذ أمد طويل، لابل المُمَزَّق، كما في بعض مقاطع السمفونية التاسعة لبتهوفن حيث يشعر بأنه يحلق فوق الأرض وسط كاتدرائية من النجوم، وفي قلبه حُلْمٌ بالخلود : تبدو له كل هذه النجوم مشعة من حوله، وتبدو له الأرض هاوية إلى الأسفل بلا توقف. - لو أنه تنبه إلى تلك الحالة لشعر بحزن عميق في قلبه ولتأوه من أجل الإنسان الذي سيرد إليه معشوقته الضائعة، سواء أسميناها دينا أو ميتافزيقا. إن مثل هاته اللحظات هي التي تمتحن طبعه العقلي.

154. اللعب مع الحياة.

كانت خفة وطيش التخيل الهوميروسي لازمة لضبط نفس الإغريق المفرطة الشغف وذكائهم الحاد وحفظ توازنهما لحظة. إذا تركوا ذكاءهم يتحدث فكم يكون مظهر الحياة فظا وقاسيا! إنهم لاينخدعون، وإذا ما نسجوا حول الحياة حجابا من الكذب فإنهم يفعلون ذلك عن قصد. كان سيمونيد ينصح مواطنيه بالتعامل مع الحياة وكأنها لعبة؛ لقد كانوا يعرفون حقيقة المعاناة غاية المعرفة (بؤس الناس هو بالضبط الموضوع الذي كانت الآلهة تحب سماعه في التراتيل)، وكانوا يعرفون أن الفن هو الوسيلة الوحيدة القادرة على تحويل البؤس نفسه إلى متعة. لكنهم،عقابا لهم على هذه المعرفة الكبيرة، كانوا يتعذبون بسبب حاجتهم إلى نسج الروايات لدرجة أنه صَعُبَ عليهم، في حياتهم اليومية، أن يحافظوا على أنفسهم طاهرين من الكذب ومن التصنع. كل الشعوب الشاعرة تجد مثل هذه اللذة في الكذب ولا تفقد بذلك أدنى ذرة من براءتها. أما الشعوب المجاورة، بالطبع، فكانت تجد ذلك شيئا محزنا في بعض الأحيان.

155. الإيمان بالإلهام.

للفنانين بعض المصلحة في أن يؤمن الناس بحدسهم المفاجيء وبإلهامهم المزعوم، كما لو كانت فكرة العمل الفني، فكرة القصيدة، الفكرة الأساسية في فلسفة ما شُعَاعَ فَضْلٍ يهبط من السماء. في الواقع، إن خيال الفنان الجيد، أو المفكر، لايكف عن الإنتاج الجيد ،البين بين والرديء،لكن حُكْمَهُ المشحوذ والدرب، يرفض وينتقي وينسق. إننا نرى اليوم،من خلال دفاتر بتهوفن، أنه قد نَظَمَ أروع ألحانه بالتدريج، مستخرجا إياها تقريبا من عدة مسودات. أما الأقل صرامة في اختياره، والذي يعتمد طواعية على ذاكرته المكررة، فقد يصير، عند الاقتضاء، مُرْتَجِلًا كبيرا؛ لكن ما أدنى مستوى الإرتجال الفني بالنسبة إلى فكرة العمل الفني التي تُخْتَارُ بعد عناء وجد. كل العظماء كانوا

يعملون كثيرا، لايكل لهم عزم حين يتعلق الأمر بالإبتكار، بل كذلك بالرفض، بالتنقيح، بالترتيب.

156. الإلهام مرة أخرى.

حين تكون الطاقة الإبداعية قد تراكمت لبعض الوقت، لأن عَائقاً مامنع تصريفها، فإنها في نهاية الأمر تنصرف في سيل مفاجىء كما لو أن إلهاما مباشرا حصل دون أن يكون هناك عمل داخلي قبلي، أي أنه قد حصلت معجزة . هذا هو الوهم الشهير الذي يهتم كل الفنانين، كما رأينا، بالحفاظ عليه. إن رأس المال قد تراكم فقط، ولم يسقط من السماء فجأة.هناك، فضلا عن ذلك، إلهام واضح، من نفس النوع ، في مواضيع أخرى، كما في ميدان الطيبة والفضيلة والرذيلة.

157. معاناة العبقري وقيمتها.

يريد العبقري الفنان أن يخلق الفرحة، لكنه حين يبلغ مستوى راقيا لا يجد الناس قادرين على الإستمتاع بتلك الفرحة؛ إنه يقدم غذاء لكن لا أحد يقبل عليه. هذا ما يضفي عليه في بعض الأحيان شَجواً مؤثرا ومثيرا للسخرية في آن واحد، لأنه لايملك الحق في إرغام الناس على السرور. شَبَّابَتُهُ تعزف ولكن لا أحد يرغب في الرقص : أيكون هذا مأساويا؟ ربما. إنه في نهاية المطاف، وكتعويض عن هذا الحرمان، يجد في الإبداع متعة أكثر من التي يجدها بقية الناس في الأنشطة الأخرى. إنه يبالغ في إحساسه بالمعاناة،وذلك لكون نبرة شكواه مرتفعة، ولسانه فصيح؛ ويحدث أحيانا أن تكون معاناته كبيرة فعلا، وذلك لكون طموحه ورغبته كبيرين جدا. إن عبقريا في ميدان المعرفة، مثل كبلر أو سبينوزا، عادة مالايكون متطلبا جدا، ولايثير صخبا حول معاناته وحرمانه الكبيرين في الواقع. يمكنه فعلا أن يعتمد على الأجيال الآتية بيقين كبير ويولي ظهره للحاضر، بينما الفنان الذي يفعل ذلك إنما يراهن على شيء ميؤوس منه وسينتهي بكل تأكيد بإصابة قلبه بحزن كبير. هناك حالات نادرة - حين تجتمع في نفس الفرد العبقرية الفنية والمعرفية والعبقرية الأخلاقية - ينضاف فيها إلى هذه المعاناة نوع من المعاناة يليق أن نعتبره الاستثناء الأكثر فرادة في العالم : يتعلق الأمر بالمشاعر التي تتجاوز الشخص، التي تتوجه إلى شعب ما، إلى الإنسانية، إلى مجموع الحضارة، إلى كل كائن يعاني؛ تستمد هذه المشاعر قيمتها من اتحادها بمعارف عزيزة المنال (قلما تكون للشفقة قيمة في ذاتها). لكن أي معيار وأي قسطاس يوجد لقياس صدقها؟ ألا ينبغي، إجمالا، أن نشك في كل من يَدَّعُونَ أن لهم هم أيضا مشاعر من هذا الطراز؟

158. لعنة العظمة.

ماظهرت العظمة إلا وتلاها الانحطاط، خاصة في المجال الفني. الشخصية تدفع المغرورين إلى التقليد السطحي أو إلى المزايدة؛ كل ذوي المواهب العظيمة لهم، بالإضافة إلى ذلك، ذلك الجانب القاتل الذي يَخْنُقُ كثيرا من القوى ومن الرشيمات الضعيفة ويخلق حولهم،على هذا النحو، فراغا في الطبيعة. الحالة الملائمة في تطور فَنٍّ ماهي تعايش عدد من العبقريات في احترام متبادل؛ إنه صراع يُسْمَحُ فيه عادة لذوي الطباع الضعيفة والرقيقة بحظ قليل من الهواء ومن النور.

159. الفن، خطر على الفنان.

حين يستحوذ الفن بقوة على شخص ما فإنه يعود به إلى تصورات العصر الذي كان فيه الفن يزدهر بحيوية كبيرة، إنه إذن يمارس عملية نُكُوصيَّة. كل يوم يزداد تبجيل الفنان للإنفعالات العنيفة، يؤمن بالآلهة والشياطين، يرى في كل مكان من الطبيعة روحا، يبغض العلم، لايستقر طبعه على حال، كما كان الناس في القدَمَ، ويطالب بتغيير كل الأوضاع التي لاتلائم الفن، يطلب ذلك بعنف الأطفال وَعسْفِهِمْ. والحال أن الفنان يكون، بالنسبة للفن، قد صار كائنا متخلفا،بما أنه يتشبث باللَّعب الذي هو شأن الطفولة والشباب : وإلى ذلك ينضاف هذا التطور النكوصي البطيء الذي يعود به إلى أزمنة أخرى. هكذا ينتهي الأمر بأن تنشأ خصومة شديدة بينه وبين معاصريه من نفس السن، ومُحْزِنَةً تكون نهايتُهُ. بهذا الشكل، حسب روايات الأقدمين، أنهى هوميروس وأسخيلوس حياتهما وماتا كئيبين.

160. طباع مبتكرة.

حين نقول أن المسرحي (والفنان عموما) يخلق طباعا بالفعل، فإن ذلك يكون وهما جميلا ومبالغة، ومن خلال إيجاده وإشاعته [أي الوهم] يحتفل الفن زيادة، إذا صح القول، بواحد من انتصاراته غير المرغوبة. بتعميم سطحي حين ننسب إليه الطبع كذا : وهذا الموقف الناقص جدا الذي نقفه إزاء الإنسان هو الذي يتخذه المؤلف حين يخطط (وهو بهذا المعنى «خلق») لكائنات سطحية تماما مثل سطحية معرفتنا بالناس. هناك تمويه كبير في هذه الطباع التي يخلقها الفنانون، إنها ليست من الإنسان في شيء، وينقصها العمق كثيرا، مثلها مثل الصور المرسومة، لاتتحمل أن تُرى عن قرب. إننا نخطيء خطأً فادحا إذا قلنا أن طبع الإنسان يتناقض كثيرا في خضم الحياة اليومية وأن ذاك الذي ابتكره المسرحي هو النموذج الذي كانت الطبيعة تنوي خلقه. الإنسان

الحقيقي لأزمٌ من أقصاه إلى أقصاه (حتى في هذه التناقضات المزعومة)، لكننا لاندرك دائما هذا اللزوم. الشخصية المبتكَرَة، هذا الشبح، تزعم أنها تدل على شيء لازم، ويكون ذلك فقط بالنسبة للناس الذين لا يفهمون الإنسان الحقيقي إلا من خلال تبسيط فظ ومضاد للطبيعة : بحيث أن بعض الخطوط المضغوطة والمكرَّرة في الغالب، مع كثير من الضوء من أعلى وكثير من الظل والظُّلَيْل من الجوانب، تستجيب لمتطلباتهم. إنهم إذن على أتم استعداد للتعامل مع الشبح وكأنه كائن حقيقي ولازم، وذلك لأنهم اعتادوا أن يخلطوا بين خيال الظل، بين اختزال تعسفي،و بين الإنسان الحقيقي بأكمله، – أما بخصوص الرسام والنحات فإن دعم كونهم يعبرون عن «فكرة» الإنسان هو خيال وهلوسة لاطائل فيهما : إن العين تستبد بنا حين نقول مثل هذه الأشياء، فهي لاترى من جسد الإنسان إلا الظاهر، أي الجلد، والفكرة تشمل باطن الجسد كذلك. تريد الفنون الجميلة أن تصور طباعا على مستوى الجلد؛ وفن اللغة يستخدم الكلمات لنفس الغرض، إنه يعطي صورة الطبع من خلال الأصوات. إن نقطة انطلاق الفن هي الجهل الطبيعي بباطن الإنسان (جسدا وطبعا) : وليس الأمر كذلك بالنسبة للأطباء والفلاسفة.

161. الثقة بالفنانين والفلاسفة مبالغة في تقدير الذات.

إننا نتصور أن تأثير العمل الفني وتأثير الفنان فينا وَهَزِّهِمَا لكياننا إثبات لقيمتهما. لكن ينبغي أولا أن نثبت قيمة حكمنا وإحساسنا : والأمر خلاف ذلك. هل هناك، في ميدان الفنون الجميلة، من بهر الناس وفتنهم أكثر من برنان (Bernin) الذي ترك آثارا أقوى من ذلك الخطيب، حسب ما يرويه ديموستين، الذي أشاع الأسلوب الأسيوي وجعل منه حُجَّةً لمدة قرنين من الزمان؟ لكن هذه الحجة الممتدة قرونا بأكملها لاتثبت أي شيء فيما يخص ميزة أسلوب ما وقيمته الدائمة؛ ولا ينبغي كذلك أن نكون جد واثقين من الثقة التي تضعها في أي فنان كان : لأنها لاتقتضي فقط الإيمان بصدق إحساسنا بل كذلك بعصمة حُكْمِنَا، والحال أن هذا الحكم أو هذا الإحساس أو كلاهما معاً قد يكون طبعهما شديد الغلظة أو الرقة، قد يكونان بالغي الرهافة أو بدائيان. إن النعم والغبطة التي تُسْبِغُهَا فلسفة أو دينٌ ما لا تثبتان شيئا هما الأخريان فيما يخص حقيقتهما : تماما مثل كون السعادة التي يتمتع بها المُسْتَلَب بفعل فكرته المتسلطة لا تبرهن إطلاقا على أن هذه الفكرة توافق العقل.

162. الغرور في إجلال العبقري.

بما أننا نحسن الظن بأنفسنا، ولكن دون أن نذهب إلى حد انتظار رسمنا للخطوط الأولى لإحدى لوحات رفائيل أو لكتابة مشهد يشبه مشهدا في إحدى مسرحيات شكسبير المأساتية، فإننا نقنع أنفسنا بأن مثل هذه الملكات مصدرها أعجوبة تتجاوز المتوسط بكثير، بأنها صُدْفَةٌ نادرة جدا، أو بأنها، إن كانت لاتزال فينا بقية من تَدَيُّن، نعمة إلهية. هكذا فإن غرورنا وحبنا لذواتنا هما اللذان يدفعاننا إلى إجلال العبقري : لأنه علينا أن نتخيله بعيدا عنا بُعْداً كبيرا، نتصوره معجزة حقيقية، حتى لايلحقنا منه أذى، (حتى غوته، الرجل الذي لايَحْسَدُ أحدا، كان يُسَمِّي شكسبير نجمة الأقاصي، وإننا نذكر هذا البيت : «هي النجوم لانشتهيها»). إن نشاط العبقري، بصرف النظر عن إيحاءات غرورنا، لا يبدو في جوهره شيئا مختلفا عن نشاط المُبْتَكِر الميكانيكي، أو عالم الفلك، أو عالم التاريخ، أو البارع في الإحتراب. كل هذه النشاطات قابلة للتفسير إذا نحن تمثلنا رجالا يعمل فكرهم في اتجاه واحد، رجالا يجعلون من كل شيء مادة لهم، يراقبون دائما بنفس الذكاء حياتهم الداخلية وحياة الآخرين، في كل مكان يَرَوْنَ نماذج وما يحرض على العمل، ولا يكلون من تنسيق أدواتهم. ما يفعله العبقري هو تَعَلُّمَ كيف يضع الأحجار ثم كيف يبني، هو البحث الدائم عن مواد البناء ثم الاشتغال عليها. كل نشاط يقوم به الإنسان هو آية في التعقيد، وليس نشاط العبقري فقط : لكن لايشكل أي منهما «معجزة». – فما مصدر هذا الإعتقاد إذن بأن الفنان والخطيب والفيلسوف هم وحدهم العباقرة؟ بأنهم وحدهم يملكون ملكة ال «حدس» ؟ (وهو ما يعني تخصيصهم بمنظار صغير عجيب يسمح لهم بالرؤية المباشرة داخل ال«كينونة» !) جلي أن الناس لايتحدثون عن العبقرية إلا حيثما يشعرون بمتعة أكبر في حضرة آثار ذَكَاءٍ كبير، ومن جهة أخرى، حيثما لايريدون الشعور بالحسد. القول عن شخص ما أنه «سماوي» يعني : «هنا، لامجال للمنافسة». شيء آخر : إننا نبدي إعجابنا بكل شيء تام ومكتمل، ونقلل من قيمة كل شيء هو في طريق الإنجاز. والحال أنه لاأحد يستطيع أن يرى في عمل الفنان كيف تم إنجازه؛ ثمة امتيازه، لأنه حيثما أمكننا مشاهدة تَكَوُّنِ شيءٍ ما فإن نوعا من الفتور يصيبنا. إن فَنَّ التعبيرِ الكَامِلِ الإنجاز يستبعد كل فكرةٍ بخصوص الصيرورة، إنه استبداد الكمال الذي نحن في حضرته. لهذا يعتبر فنانو التعبير بالخصوص، وليس رجال العلم، عباقرة. في الواقع، إن هذا التقدير وهذا الحط من القيمة ليسا سوى صبيانية يمارسها العقل.

163. وعْيٌ حِرَفي.

لاتحدثوني عن المواهب الطبيعية، عن المواهب الفطرية ! إذ يمكننا أن نَذْكُر، في كل المجالات، عظماء كانت موهبتهم ضعيفة. لكن العظمة أتت إليهم، جعلوا من أنفسهم «عباقرة» (كما يقال)، بفضل بعض الخاصيات التي لايود أحد كشف نقصها حين يكون واعيا بذلك. كان لديهم كلهم ذلك الوعي الحرَفي الذي يبدأ بتعلم إتقان الأجزاء قبل المجازفة بالقيام بعمل شمولي كبير؛ كانوا يَتَأَنَّوْنَ لأنهم كانوا يجدون متعة في إتقان صنع الجزء المُتَمِّم، أكثر مما يجدونها في الأثر الذي يحدثه كُلٌّ بَرَّاقٌ. من السهل، مثلا، أن نصف لشخص ما كيف يصير كَاتِبَ قصة، لكن تنفيذ ذلك يتطلب مهارات نتغاضى عنها حين نقول : «ليست لي موهبة كافية.» لنكتب مائة مشروع قصة أو أكثر، دون أن يتعدى أي منها صفحتين اثنتين، لكنه يكون من الدقة بمكان بحيث لايمكن الاستغناء عن أية كلمة من كلماته؛ لنسجل كل يوم بعض النوادر إلى أن نجد لها الشكل الأخاذ والفعال، لا نَكَلَّنَّ من جمع ورسم طباع ونماذج إنسانية، لانُضَيِّعَنَّ بالخصوص أية فرصة لنحكي ونسمع الآخرين يحكون، والعين والآذان متنبهتان لأثر ذلك على الآخرين، لنسافر كما رسام الطبيعة، كما مصمم الأزياء، لنستخلص من عِلْمٍ إِثْرَ عِلْم، حين يُعْرَضُ بشكل جيد، أثراً كأثر الفن، لنفكر، في نهاية المطاف، في بواعِث فعالَ الإنسانية، ولا نحقرن منها أية إشارة قد تفيدنا، ولنجمع الأشياء من هذا النوع ليل نهار. سندع عقْداً من الزمن ينصرم ونحن نكرر هذه العمليات، وسيُمكن لما سَنُبْدِعُهُ آنذاك في المحْتَرَف أن يظهر في الشارع في واضحة النهار. - لكن، كيف تفعل الأَغلَبية ذلك؟ عوض أن يبدأوا بالجزء يباشرون الكل. قد يتفق أن يحالفهم الحظ مرة، أن يثيروا الإهتام، وبعد ذلك سيصير عملهم من سيء إلى أسوأ لأسباب معقولة و طبيعية. - أحيانا، حين لا يكون هناك ذكاء ولاطبع لرسم خطة حياة فنية من هذا الطراز، فإن القدر واللزوم يتكلفان عوضا عنهما بقيادة البارع المستقبلي، خطوة خطوة، عبر كل المراحل التي تتطلبها مهنته.

164. إجلال العبقري، المخاطر والمزايا.

يرتبط الإيمان بمفكرين متفوقين وخصبين بشكل متكرر، وإن لم يكن بالضرورة، بالخرافة الدينية كليا أو جزئيا، الخرافة التي تقول بأن أصل هؤلاء المفكرين فوإنساني وأنهم يتوفرون على بعض المَلَكَات الخارقة التي بفضلها يكتسبون معارفهم عبر طرق تختلف تماما عن طرق بقية الناس. يرى الناس أن لهم نظرا ينفُذ مباشرة إلى جوهر العالم كما لو من ثقبٍ في معطف الظاهر، ويعتقدونهم قادرين، دون أن يتحملوا عناء

العلم ويجربوا دقته، على أن يُبْلغونا، بوسطة هـذا المنظر التنبؤي الخارق، بحقائق أساسية ونهائيـة بشأن الإنسان والعالم. مـا دامت المعجزة في مجـال المعرفة تلقى من يـؤمن بها فإننا ربما سنسلم بأن الـذين يؤمنون بها يجنون منها بعض النفع، مـادام هؤلاء، بتبعيتهم اللامشروطة للـمفكرين، يضعون عقلـهم، أثناء تطوره، في أفضل مدرسـة وأفضل نظام وُجدًا على الإطـلاق. بالمقابل، من المـشكوك فيه أن تـكون خرافة امتـيازاتها وملكـاتها الخاصة، ذات نـفع بالنـسبة للعـبقري نفـسه حين تنـشأ لديه. إن قشـعريرة الرعـب التي تستولـي على الكائن البشـري حين يواجه نفسه تُعـتبر أمارة سيئة علـى كل حال، سواء تعلق الأمر بالرعب المقدس الشهير لدى القياصرة أو برعب العبقري الذي هو موضوعنا هنا، وأمارة سيئة هي تلك اللحظة التي تتسرب فيها رائحة القرابين التي لا تقدم إلا لإله إلى مخ العبقري بحيث يبدأ يترنح ويعتبـر نفسه كائنا فوإنسانيا. ومع مرور الزمن تكون عواقبه : الشعور بعدم المسؤولية وبامتلاك حقوق استثنائية، اليـقين بأن مُعاشرَته وحدها نعمة يَمُنُّ بـها، ويصيبه غضب جـنوني عند أدنى محـاولة لمقارنته بالآخريـن أو اعتباره أدنى منهم، وكذلك عـند كشف مواضع الفشل في عمله. بمجـرد مايكف عن ممارسة النقـد الذاتي تتساقـط القوادم من ريشه الـواحدة تلو الأخرى؛ وتـتأكل الخرافة السـالفة الذكـر قُوَّتَهُ حتـى جذورهـا، وربما تجـعل منـه منـافقـا حين تخـونه تـلك الـقوة . حـتى المفكـرون من صالحهم ولاشـك أن يُكَوِّنُوا فكرة واضحة عـن قوتهم وعن أصـلها، وأن يدركوا إجـمالا تلك المزايا الإنـسانية المحضة الـتي اجتمعـت لهم، والمصادفات المـوافقة التي انضافت إليها : إذن هناك لديهم، من جهة، طاقة مستمرة، إقدام متعدد الأغراض، شجاعـة شخصية كبـيرة، وزيادة على ذلك هـناك حظ التعـليم الذي وُفِّرَ لهم، بـشكل مبـكر، أفضـل الأساتذة، أفـضل النـماذج، وأفضل المـناهج. إن كـانوا بالـطبع يـرومون إحداث أكبر أثر ممكن فإن جهلهم بأنفسهـم وَهِبَةَ شبه الجنون المجانية كانا دائما يتركان أثرا خـارقا، وذلك لأن النـاس، على مـر العصور، قـد أبدوا إعجـابهم ب، وحسـدوهم على، تلك القـوة التي بفضلها يلغـون إرادة الناس ويجرونهم إلى الوهم الـكبير بأن أدلة فوطبيعيين هم الذين يقودونهم. بل إن اعتقاد الناس أن شخصا مايملك قوى خارقة يُعتبر مصدر انتشاء وتحمس : بهذا المعنى يكـون الجنون، كما قال أفلاطون، قد جلب للناس أكبر النعم.- ومن المحتمل كذلك أن تـكون ذرة الجنون هذه، في بعض الحالات النادرة والمعزولة، هي الوسيلة التي مكنت من الحـفاظ على وحدة بعض هذه الطباع المنتشرة في كل الأقاصي : حتى في حياة الأفراد غالبا ماتـكون للأفكار الجنونية قيمة العلاجات الـتي إن تـفرقـت صارت سـمومـا؛ ورغـم ذلـك فإن الـسم، فـي كل «عـبقـري» يؤمـن بسماويتـه، ينتهي بالظهـور كلما تقدم ال «عبقـري» في السن : نتذكر نابـوليون، مثلا،

الذي مزج طبعُه إيمانه بنفسه وبنجمه بازدراء الناس الذي كان ينجم عن ذلك، وذلك حتى يسمو إلى هذه الوحدة القوية التي تميزه عن سائر الشخصيات المعاصرة، إلى أن جاء اليوم الذي تحول فيه ذلك الإيمان نفسه إلى قدرية شبه مجنونة وجرّد نظرته من كل توقدها ونفاذها ثم كان في النهاية سبب هلاكه.

165. العبقرية والعجز.

من بين الفنانين، يكون ذوو العقول الأصيلة الذين يبدعون بتلقائية هم من قد لاينتجون، عند الإقتضاء، سوى هذر ولغو كلام، بينما ذوو الطباع الأقل حرية، الموهوبون، كما يسمونهم، تكو ذاكرتهم دائما مليئة بأكبر قدر من الأشياء الجميلة وتنتج شيئا لابأس به حتى في لحظات ضعفها. لكن إذا كانت العقول الأصيلة تخذل نفسها فإن الذاكرة لن تسعفها بأي شكل من الأشكال : إنها عقول تزهر ولاتثمر.

166. الجمهور.

كل ما يطلبه الجمهور من المأساة هو أن تؤثر فيه إلى حد جعله يذرف نهائيا كل ما لديه من دموع. على العكس من ذلك، فالفنان الذي يذهب لمشاهدة المأساة الجديدة يجد متعة في الإبتكارات التقنية والأساليب الماهرة، في تناول المادة وتوزيعها، في الطريقة الجديدة التي وظفت بها بواعث وأفكار قديمة. إنه ينظر إلى العمل الفني من زاوية جمالية،زاوية المبدع. النظرة التي أشرنا إليها في البداية، الباحثة عن منفعتها الشخصية في المأساة، هي نظرة عامة الناس. أما الإنسان الذي في مووقع بين الإثنين، فلا شيء يقال عنه، إنه ليس عامة الناس وليس فنانا، ولا يعرف ما يريد : كما أن متعته غامضة وبين بين.

167. التربية الفنية للجمهور.

حين لاتتم معالجة نفس الموضوع مرات عديدة من طرف مختلف المتضلعين فيه فإن الجمهور لايتعلم أن يتجاوز اهتمامه بمادة الموضوع، لكنه سينتهي هو الآخر بأن يدرك الفروق والابتكارات الدقيقة والجديدة في معالجة الموضوع وبأن يتذوقها حين يعرف هذا الموضوع مدة طويلة من خلال التعديلات العديدة التي تدخل عليه، ولن تعود جاذبية الجدة أو جاذبية الفضول هي ما يثير إحساسه.

168. على الفنان وجمهوره السير بنفس الخطى .

يحب أن يكون المرور من مستوى أسلوبي معين إلى مستوى آخر بطيئا حتى يتمكن المستمعون والمشاهدون، وليس الفنانون فقط، من مسايرة هذا التقدم ومعرفة ما يجري.

وإلا فإن هاوية فجائية تُفتح بين الفنان، الذي يبدع أعماله في برج عاجي، وبين الجمهور الذي أصبح عاجزا عن الارتفاع إلى هذا البرج وينتهي، بالرغم عنه، بالتردي أسفل لأنه حين لايرفع الفنان جمهوره فإن هذا الجمهور يتردى بسرعة، ويكون ترديه عميقا وخطيرا بقدر ما يكون العلو الذي رفعه إليه عبقري ما، مثل النسر الذي تطلق مخالبه سلحفاة مرفوعة إلى عنان السماء.

169. أصل الهزلي.

إذا اعتبرنا أن الإنسان كان طيلة مآت الألفيات حيوانا يتملكه الخوف، وأن كل مباغته وكل حدث غير متوقع يدفعه إلى التهيؤ للقتال، وربما للموت، وأنه حتى فيما بعد، في إطار النظام الإجتماعي، كان أمنه كله يقوم على المتوقَّع، تحدار (tradition) الأفكار والنشاطات، فإننا لن نندهش لكون كل مباغتة، كل كلمة أو حركة غير متوعقة، مهما تكن خالية من الخطر ومن الأذى، تثير لدى الإنسان انبساطا فيشعر آنذاك بعكس الخشية : ينبسط الكائن المتوقِع والمرتعِش خوفا، وينشرح تماما، – يضحك الإنسان. هذا المرور من خشية عابرة إلى مرح قصير الأمد هو ما نسميه الهزلي. في ظاهرة المأساوي، على العكس، يمر الإنسان بسرعة من مرح كبير ودائم إلى خشية كبيرة، لكن بما أن هذا المرح الكبير والدائم أشد ندرة لدى الناس من بواعث الخشية، فإن هناك في العالم من الهزلي أكثر مما فيه من المأساوي، يضحك الناس أكثر مما ينفعلون بكثير.

170. طموح الفنان.

كان الفنانون الإغريق، فنانو التراجيديا مثلا، يبدعون كي ينتصروا، لم يكن ممكنا تصور فنهم دون مساعدة : فإيريس (**Eris**) هزيود*، أي الطموح، هي التي كانت تمنح عبقريتهم أجنحة تحلق بها. والحال أن هذا الطموح يتطلب، فوق كل شيء، أن يرتفع عملهم إلى أقصى درجات الكمال في نظرهم، الكمال مثلما كانوا يتصورونه هم دون أن يأخذوا بعين الاعتبار لا الذوق السائد ولا الرأي العام بخصوص ما يجعل العمل الفني ممتازا؛ وهكذا ظل أسخيلوس ويوربيدس زمنا طويلا دون تحقيق أي نجاح قبل أن يكونوا في نهاية الأمر حكاما قدروا أعمالهم حسب القواعد التي كانوا يطبقونها هم أنفسهم. وهكذا إذن يطمحون إلى الإنتصار على منافسيهم طبقا لتقديرهم هم، أمام محكمتهم هم،إنهم يريدون أن يكونوا كاملين فعلا، وإذاك يطلبون من الخارج

* هزيود : (ق 8 ق . م) شاعر يوناني يعرف ب « أبي الشعر اليوناني التعليمي . (المورد)

(dehors) أن يوافق على تقديرهم، أن يؤكد حكمهم. الطموح إلى المجد يعني هنا «التفوق وتمني أن يظهر ذلك للملأ». إن عدم تفوق المرء ورغبته رغم ذلك في مايلي التفوق يُعد غرورا. أما إن كانت الرغبة هي ما ينقصه، دون أن يندم عليها، فذاك كبرياء.

171. اللزوم في العمل الفني.

يبالغ الناس الذين يتحدثون كثيرا عن اللزوم في العمل الفني، فالفنانون يبالغون بدافع الرغبة في المجد الفني، والجاهلون بأصول الفن يبالغون بسبب الجهل، إن أشكال العمل الفني، التي توفر لأفكاره وسيلةللتعبير عن نفسها، والتي هي إذن طريقته في التعبير، يكون فيها دائما بعض الإختيار، مثل سائر أشكال التعبير. يستطيع النحات أن يضيف أو يحذف قدرا من اللمسات الخفيفة : كذلك المؤدي، سواء تعلق الأمر بممثل أو، فيما يخص الموسيقى،بعاز ف ماهر أو برئيس الجوقة. كل هذه اللمسات و التنقيحات تعجبه اليوم،وفي الغد لاتعجبه، إنها هناك من أجل الفنان لا من أجل الفن،لأن الإلتزام بالدقة وبالمجهود اللذين يتطلبهما منه التعبير عن فكرته العظيمة يجعله في حاجة إلى كبنة (biscuit) ولُعب هنا وهناك حتى لا ينفرمن العمل.

172. تجاوز الأستاذ.

يكون عازف البيان، الذي يعزف عملا موسيقيا ألفه أستاذ ما،قد عزف أفضل ما يمكن إن إستطاع أن يجعلنا ننسى أستاذه ويوهمنا بأنه يروي حدثا من أحداث حياته أو أنه يعيش آنداك لحظة عظيمة. أما إن كان عازفا لا شأن له فإن الكل ولاشك سيلعن ثرثرته عن حياته. عليه إذن أن يعرف كيف يغري خيال المستمع. هذا ما يفسر كل نقائص وشذوذ «المهارة في العزف».

173. إصلاح الحظ.

تعرف الحياة فنانين كبارا تقابلهم صُدف محزنة ترغم الرسام مثلا على أن لايخطط من أهم لوحاته سوى فكرة هاربة، أو، لكي يضرب مثلا آخر ترغم بتهوفن على أن لايترك لنا من عدة سوناتات عظيمة (كسوناتةSi majeur) سوى اختصارات غير كافية تُعزف سمفونية على البيان. وعلى الفنان الذي يأتي من بعد أن يحاول إصلاح حياة العظماء بعد فوات الأوان : هذا ما سيفعله مثلا ذاك الذي، بكونه بارعا في مستلزمات التجويق الموسيقي، سيبعث الحياة من جديد في تلك السمفونية التي ترقد رقدة الموت خطأ في رمس البيان.

174. تصغير.

كثير من الأشياء والأحداث والأشخاص لايطيقون أن نعاملهم بأدنى مما يستحقون. لانستطيع تصغير بناية كاهن أبولون لتصير في حجم آنية مزخرفة، فَكِبَرُ الحجم شيء لازم لها. ومن النادر جدا أن يطيق شيء صغير أصلا أن يتحول إلى شيء كبير ، لذلك سيكون نجاح كُتاب السيَر في تصغير عظيم أيسر من نجاحهم في تعظيم صغير.

175. الحِسِّوية في فن العصر الحاضر.

غالبا ما يخطىء الفنانون اليوم حين يرومون التأثير بأعمالهم في الحواس : لأنه لم يعد لدى مستمعيهم ومشاهديهم فيض الإحساس الذي كان ولا يمرون من العمل الفني، خلافا لنوايا الفنان إلا ليصلوا إلى «قدسية» انفعالهم القريبة جدا من الضجر. – تبدأ حسويتهم،ربما، بالضبط حيث تنتهي حسوية الفنان، إنهما تلتقيان، على أكثر تقدير، في نقطة واحدة.

176. شكسبير أخلاقي.

لقد تأمل شكسبير الإنفعالات كثيرا، كما أن طبعه قد قَرَّبَهُ منها كثيرا (غالبا ما يكون المسرحيون سيئي الطبع). وبما أنه لم يعرف كيف يثرثر بشأنها، كما فعل مونتيني (Montaigne)، فقد وضع ملاحظاته بخصوصها على لسان شخصياته المنفعلة : وهو شيء مناقض للطبيعة ولاريب، لكنه يجعل مسرحياته مفعمة بثروة فكرية إلى حد تبدو معه المسرحيات الأخرى وكأنه لا فكر فيها، وما أسهل ما تثير نفورا شاملا. – إن جُمل شيلر (التي تكاد دائما ترتكز على أفكار خاطئة أو تافهة) هي بالضبط جمُل مسرحية، وبما هي كذلك فإن تأثيرها يكون بليغا : بينما جمل شكسبير تُشَرِّفُ نموذجه، الذي هو مونتيني، وتخفي في طيات شكلها الذرب أفكارا بسيطة جدا. لكن الجمهور يراها، نتيجة لذلك، بعيدة جدا ونحيلة، إنها إذن لاتؤثر فيه.

177. التموضع على مدى الأذن.

لايكفي أن نجيد العزف، بل يجب أن نتموضع على مدى الآذان. لن نسمع من الكمان، وهو بين يدي أمهر العازفين، سوى كُرِنْ كرن، إذا كانت القاعة فسيحة جدا؛ وقد لانميز حينها الأستاذ من أي عازف رديء.

178. الآثار الأكيدة للعمل غير التام.

مثلما يكون لـلصور الناتئة تأثير كبير على الخيال بسبب ظهورها وكأن شيئا ما أمسك بها فجأة أثناء خروجها من الحائط فتسمرت في مكانها :كذلك فإن العرض غير

الكامل، كما لو كان ناتئا، لفكرة ما أولفلسفة بأكملها، يكون أحيانا أكثر فعالية من عرضها من الألف إلى الياء : إننا بذلك ندع لنظر القارىء مجالا أكبر للفعل، نحثه على متابعة تطوير ما يبرز أمامه في خضم الظل والنور، على إتمام الفكرة والتغلب على ذلك العائق الذي كان يعرقل بُروزها بشكل كامل حتى ذلك الحين.

179. ضد الأُصلاء.

حين يرتدي الفن قماشا رثا ندرك أفضل ما يكون الإدراك أنه فن.

180. فكر جمعي.

لايملك الكاتب الجيد فكره هو فقط بل فكر أصدقائه كذلك.

181. نوعان من الإنكار.

إن سوء حظ الكتاب الثاقبين والواضحين هو كون القارىء يجدهم مُسَطَّحِينَ، ومن ثمة لايتكلف أي عناء لفهمهم؛ وحظ الكتاب الغامضين هو كون القارىء يجهد نفسه قدر الإمكان ليفهمهم ويعزو إليهم المتعة التي مصدرها مجهوده هو.

182. العلاقة مع العلم.

كل أولئك الذين لايتحمسون للعلم إلا حين يقومون فيه باكتشاف مٍا لايهتمون به اهتماما فعليا.

183. المفتاح.

إن كانت الفكرة التي تثير ضحكَ وسخرية قليلي الذكاء تصير ذات قيمة كبيرة في نظر إنسان نابغة فذلك لأنها، بالنسبة له، مفتاح كنوز مَخْفِيَة، وبالنسبة لهم هي جزء خردة قديم لاغير.

184. غير قابل للترجمة.

ليس أفضل ما في الكتاب ولا أسوأ ما فيه هو ما لايقبل الترجمة.

185. مفارقات المؤلف.

مفارقات المؤلف المزعومة التي تثير حنق القارىء غالبا مالا تكون في كتاب المؤلف وإنما في رأس القارىء.

186. نباهة.

المؤلفون الشديد و النباهة يثيرون أشد الابتسامات خُفية.

187. النقيضة.

النقيضة هي الباب الضيقة التي يجد الخطأ متعة في التسلل منها إلى الحقيقة.

188. أسلوب المفكرين.

أغلب المفكرين لايحسنون الكتابة لأنهم لايكتفون بإطلاعنا على أفكارهم وحدها بل كذلك على تفكيرهم فيها.

189. الأفكار في القصيدة.

يجعل الشاعر أفكاره تتقدم على ظهر عربة الإيقاع في شكل احتفالي : ذلك لأنها لاتمشي على أرجلها عادة.

190. ذنب في حق نباهة القارىء.

حين يناقض أحد المؤلفين موهبته فقط لأجل أن يكون في مستوى القارىء فإنه يرتكب الخطيئة الوحيدة التي لن يغفرها له هذا القارىء أبدا : إذا افترضنا، بالطبع، أنه قد تنبه لذلك قليلا. يمكننا إجمالا أن نغتاب الإنسان ما استطعنا ذلك : لكن يجب أن نعرف، من طريقة الاغتياب، كيف نجعل غرورنا ينتصب من جديد.

191. حدود الصدق.

حتى أكثر الكتاب صدقا تفلت منه كلمة زائدة حين يريد أن يعظم مرحلة ما.

192. أفضل المؤلفين.

أفضل المؤلفين هو ذلك الذي يخجل من أن يتحول إلى أديب.

193. قانون جائر ضد الكُتاب.

ينبغي لنا أن نعامل الكاتب وكأنه مجرم لايستحق إخلاء سبيله أو العفو عنه إلا في حالات نادرة جدا : سيكون ذلك علاجا ناجعا لتكاثر الكتب.

194. مهرجو الثقافة المعاصرة.

يعتبر مهرجو البلاط في العصر الوسيط نظراء لكتاب الروايات المسلسلة في عصرنا، إنهم رجال من نفس الصنف، نصف عاقلين، فكهون، مفرطون، مرحون، لايحضرون

أحيـانا إلا لكي يُلَطـفوا شجـو النفـوس ببعض الالـتماعـات وشيء من الـثرثرة ويغـطوا بصراخهم على صخب الأجراس واحتفاليتها أثناء الأحداث العظيمة؛ فيما مضى كانوا في خدمة الأمراء والنـبلاء، هم اليوم في خدمة الأحزاب (صحيـح أنه لايزال هناك قدر كبيـر من خضوع الـشعب للأميـر اليوم في التـحزب وفي نظـام الأحزاب). والحال أن الأدباء المعاصـرين يقتربون كـثيرا من كتاب الـروايات المسلسلـة، إنهـم «مهرجو الـثقافة المعاصرة» الذين سنحاكمهم بتسامح كبـير، وذلك بعدم اعتبارهم مسؤولية كاملة. إن النظر إلى نشاط الكاتب على أنه مهنة يجب أن نعتبره، بكل إنصاف، نوعا من الجنون.

195. على غرار الإغريق.

هنـاك حاليا عـائق كبيـر أمام تقدم المـعرفة، ذلـك أن المبالغـة في الإحساس، والـتي تستمر منـذ مائة سنة، لم تترك سوى كلمـات منتفخة ومتكلِّفة. إن الدرجـة العالية من الثقافة التي تسيطر عليها (إن لم تكن تستـبد بها) المعرفة تحتاج للعودة إلى بساطة كبيرة في الإحساس، بساطـة تكون متجانسة بفضـل تركيز قوي لكل الكلمـات؛ وقد سبَقنا الإغريق فـي هذا زمن ديموستـين. تعتبر المـغالاةُ سمة كل الكـتب الحديثة، وحـتى حين تكون قـد كتبت ببسـاطة فإن الإحساس بالـكلمات فيهـا يكون غريبا. العـلاج هو دقة التـفكير، الإيـجاز، الفتـور، العري، حتـى وإن تم الدفع به عـن قصد إلى الحـد الأدنى، باختصار، التحـفظ في الإحساس، والاقتضابية، - ليس هـناك علاج غيره. الحاصل أن هذه الطريقة الفاترة في الكتابة والإحسـاس جذابة جدا في أيامنا هذه، بشكل مفارق : وفي ذلـك خطـر بكل تـأكيـد. لأن هذا الـفتور الـقاطـع مُهَيِّج تماما مـثلـه مثـل الحرارة المرتفعة.

196. الرواة الجيدون مُربون فاشلون.

غالبا ما تكون لدى الرواة الجيدين ضمانـة، دقة نفسية تثير الإعجاب مادامت قادرة على التمظهـر في ما تقوم به شخصيات رواياتهـم، لكنها تُناقض بشكل مثيـر للسخرية بلاهةَ تأملهم النفسي : إلى حد أن مستوى ثقافتهم يبدو في لحظة ما رفيعا ورائعا، وفي اللحظـة التالية يبدو متـدنيا ومثيرا للـشفقة. وكثيرا مـانراهم يفسرون أبطالـهم والأفعال التي يأتونها تفسيراً خاطئا بشكـل جلي، - لاريب أنهم مربون فاشلون، مهما بدا ذلك مُسْتَبْعداً. من المحـتمل أن يكـون عازف بيان كـبير قلـما فكـر في الشروط الـتقنيـة، في الفضائل، في الرذائل، في احتمالات الاستعـمال والتربية الخاصتين بكل أصبع (أخلاق تفعيلية)، وحين أراد التحدث عن تلك الأشياء ارتكب أخطاء فادحة.

197. المشتغلون بالمعرفة، كتبهم، قراؤهم.

إننا نقرأ قراءة مزدوجة كتب الأشخاص الذين نعرفهم (أصدقاء كانوا أم أعداء) مادامت هذه المعرفة لاتفتأ تهمس بالقرب منا : «هذا عمل يمت إليه بصلة، هذه سمة مميزة لطبيعته الخالدة، لأعظم اللحظات في حياته، لموهبته»، ونوع آخر من المعرفة يسعى بالموازاة إلى تحديد المردود الباطن لهذا العمل، تحديد الاعتبار الذي يستحقه هو لذاته مستقلا عن مؤلفه، تحديد مدى إثرائه لمعرفتنا. غني عن القول أن هذين النوعين من القراءة ومن التقويم يضايقان بعضهما. إن محاورة صديق لصديقه لن تنضج ثمار المعرفة إلا إذا نسيا أنهما صديقين وَقَصرا تفكيرهما على موضوع الحوار وحده.

198. التضحية بالإيقاع.

يُقْدِمُ بعض الكتاب الجيدين على تغيير إيقاع مرحلةمن مراحل تطورهم لسبب وحيد وفريد هو كونهم لايظنون القراء العاديين قادرين على فهم بحر الشعر الذي كان سائدا أثناء تلك المرحلة في صيغتها الأولى : فهم إذن يسهلون عليهم الأمر بتفضيلهم بعض الإيقاعات المعروفة أكثر. إن هذا التراجع أمام العجز الإيقاعي لدى القراء قد أثار الحسرة في نفس أكثر من كاتب لأنه قد تخلى عن أشياء كثيرة من قبل. – ألن يصدق ذلك على بعض الموسيقيين الجيدين؟

199. إغراء العمل الفني غير التام.

غالبا ما يكون أثر العمل غير التام أكثر من أثر العمل التام، خصوصا في المديح : إنه يحتاج، كي يبلغ غرضه، إلى سحر العمل غير التام، ذلك العنصر الامعقول الذي كأنه يُغْري بالبحر خيالَ المستمع ويحجب، كما الضباب، الشاطىء المقابل، أي حدود الشخص الذي يتعلق الأمر بمدحه. حين نَعُد المزايا المعروفة لدى شخص ما دون أن نخشى الاسترسال في الجزئيات فإننا دائما نثير الشك حول كونها مزاياه الوحيدة والفريدة. إن مدح شخص ما مدحا كاملا يعني الإرتفاع فوق الإنسان الذي نمدحه حتى ليكاد العلو يُغَيِّبُهُ عن الأنظار. لذلك يكون إتمام العمل إضعافا له.

200. الكتابة والتعليم يتطلبان الحذر.

الذي يتعاطى الكتابة ويحس بشغفها لايتعلم من كل ما يقوم به أو يشعر به تقريبا سوى ما يمكن إيصاله للآخرين بطريقة أدبية. إنه لايعود يفكر في نفسه بل في الكاتب وجمهوره، يريد أن تكون له آراء عميقة، لكن ليس ليستعملها هو شخصيا. الذي

يُدَرس يكون أغلب الوقت عاجزا عن التصرف الشخصي من أجل مصلحته، إنه دائما يفكر في مصلحة مريديه، ولايجد المتعة في أية معرفة إلا إذا كان سيُلَقنُهَا لهم. إنه ينتهي بأن ينظر إلى نفسه كَمَعْبَرٍ للمعرفة، وإجمالا كمحض وسيلة، حتى أن جديته بخصوص نفسه لايعود لها وجود.

201 . ضرورة الكتاب الرديئين.

من الضروري أن يكون دائما هناك كتاب رديئون، لأنهم يرضون ذوق الأجيال الناشئة التي لم تنضج بعد، هؤلاء أيضا لهم حاجياتهم تماما مثل الآخرين الناضجين. لو أن حياة الإنسان كانت أطول لكان عدد الأفراد الناضجين يفوق، أو على الأقل يساوي، عدد الأفراد غير الناضجين، وبما هي عليه الآن فإن الناس يموتون شبابا في أغلب الأحيان، أي أن أغلبية الناس هم دائما ناقصوا الذكاء ذوو الذوق الرديء. وهم يطالبون زيادة على ذلك، بكل ما أوتو من قوة الشباب، بإرضاء حاجياتهم ويُوجِدُون بالقوة كتابا رديئين يخدمونهم.

202. قريب جدا وبعيد جدا.

يحدث أن لايتفاهم القارىء والمؤلف لأن المؤلف يعرف موضوعا ما معرفة جيدة ويجده شبه ممل حتى إنه يوفر على نفسه الأمثلة التي يعرف منها المئات، أما القارىء فغريب عن الموضوع ويكاد يرى أن كل أسبابه غير معقولة حين يحرمه من الأمثلة.

203 . تهيؤ الفن الذي كان.

من بين كل كنا نقوم به في الثانوية كان التدرب على الأسلوب اللاتيني أغلى شيء : كان تمرينا فنيا بالضبط، بينما كان الغرض من كل المواد الأخرى هو المعرفة. إن إعطاء الإنشاء باللغة الألمانية المقام الأول يعتبر همجية، لأنه ليس لدينا أسلوب ألماني نموذجي على مستوى الفصاحة الشائعة. أما إن شئنا استخدام الإنشاء باللغة الألمانية لتشجيع التدريب على التفكير فسيكون من الأفضل، بكل تأكيد، أن نترك منه الأسلوب جانبا، في الوقت الراهن، إذن أن نميز بين التدريب على التفكير والتدريب على التعبير . هذا الأخير يُعْنَى بالطرق المتعددة في التطرق لمادةما، وليس الابتكار الشخصي لمادة ما. كان عرض موضوع مُعْطى يشكل لوحده كل العمل الذي يقوم به ذلك الخطاب اللاتيني الذي كان الأساتذة القدماء يقابلونه برهافة سمع افتقدناها منذأمد بعيد. فيما مضى كان من يتعلم أن يجيد الكتابة بلغة حديثة يدين بذلك لهذا التدريب (أما اليوم فنحن مجبرون على ارتياد مدارس الفرنسيين)؛ بل في الأمر أكثر من

ذلك : لقد كان من يرتادها يُكَوِّنُ فكرة عن سُمو الشكل وصعوبته ويُلفي نفسه مهيأ للفن أيا كان نوعه بسيره في الطريق الحقيقي الوحيد، طريق الممارسة .

204. المعتم والواضح جداجنب إلى جنب.

الكتاب الذين لايعرفون كيف يعبرون بوضوح شامل عن أفكارهم يختارون، إيثاراً للجزء، أقوى العبارات وأفعال التفضيل وأكثرها مبالغة : ينتج عن ذلك إشعاع كضوء المشاعل الذي ينير دروبا متشابكة وسط الأشجار.

205. رسم أدبي.

إن أفضل وسيلة لتصوير شيء غني بالدلالات هي أن نستخرج من الشيء نفسه، كما يفعل عالم كيماوي، الألوان التي سنصبغه بها و نستخدمها، كما يفعل الفنان، كي نجعل اللوحة تولد من انفصال الألوان وتحولها، و ستحتفظ اللوحة بشيء من العنصر الطبيعي الفتان الذي يعطي للشيء ذاته دلالته.

206. الكتب التي تعلمنا كيف نرقص.

هناك بعض الكتاب الذين يثيرون، بمعرفتهم كيف يعبرون عن المستحيل بظواهر الممكن وكيف يتحدثون عن الأخلاق وعن العبقرية كما لو أن هذه وتلك ليستا سوى نزوة وهوى عابر، يثيرون إحساسا بفيض من الحرية كإحساس الإنسان الذي حقق أهدافه واستسلم، في خضم اندفاع فرحته الداخلية، للرقص.

207. أفكار غير تامة.

مثلما أن لعمر الإنسان، وكذلك للطفولة والشباب، قيمة في ذاتهم ويريدون أن يتم تقديرهم تحت اعتبارات أخرى غير الانتقالات والجسور، كذلك فإن الأفكار التي ظلت غير تامة لها هي أيضا قيمتها. ما ينبغي فعله بالتالي ليس إزعاج شاعر ما بتفسير دقيق لأفكاره بل هو الاكتفاء بلا يقين أفقه كما لو أن المجال لايزال مفتوحا أمام العديد من الأفكار. إننا على العتبة ننظر وكأننا ننتظر إخراج كنز : يبدو أننا سَنوفَّق في اكتشاف أفكار عميقة. يستبق الشاعر سعادة المفكر شيئا ما باكتشافه فكرة أساسية ويثير فينا رغبة عارمة تدفعنا إليها، أما هي فتمر، مبتهجة، ملامسة رأسنا، متباهية بأجمل أجنحة فراشة – وهاهي ذي مع ذلك تفلت منا.

208. الكِتاب الذي كاد يصير إنسانا.

يفاجأ الكاتب مفاجأة لاتنتهي حين يرى كتابه الذي انفصل عنه يحيا حياته الخاصة، يتشكل لديه الإنطباع الذي قد يتشكل لدى حشرة انفصل عنها جزء منها وصار يحيا مستقلا. قد ينساه تماما، قد يسمو فوق الأفكار التي ضمَّنها إياه، قد لن يفهمه بعد، وقد يكون فَقَدَ تلك الأجنحة التي كان يحلق بها حين كان يتأمل الكتاب : وهاهو ذا الكتاب يبحث عن قرائه، يبعث الحياة، يلهم الفرح، يلهم الرعب، تتولد عنه أعمال أخرى، يَصيرُ روح بعض التصميمات وبعض الأعمال - باختصار، يحيا ككائن له روح وعقل ولكنه مع ذلك ليس إنسانا. لعل الكاتب قد جلب أسعد الحظوظ لأواخر أيامه بكون كل ما كان لديه من أفكار وأحاسيس حاملة للحياة، من قوى، من سمو، من إشعاع، مازالت تحيا في كتاباته، إنه لم يعد يمثل سوى الرماد بينما ناره قد توزعت في كل الآفاق ولم تنطفىء.

209. حبور الشيخوخة.

المفكر، وكذلك الفنان، الذي أنقذ أفضل ما لديه وَضَمَّنهُ أعماله يشعر بفرحة تكاد تكون ماكرة حين يرى جسده وعقله وقد عَدَى عليهما الزمن وجعلهما حُطَاماً، وكأنه يرقب، من مُنْزَوَاهُ، لصا يبذل جهده ليفتح خزنته، وهو يعلم أن الخزنة فارغة وأن كل كنوزه في مأمن.

210. خصوبة هادئة.

ليس أرسقراطيو العقل بالفطرة في عجلة من أمرهم، فإبداعاتهم تَنْتَدُ وتسقط من الشجرة ذات مساء خريفي هادىء، دون أن تتم رغبة الآخرين فيها ولاقسرهم أوانتزاعهم لها بنفس السرعة التي بها تسقط. تعتبر إرادة الإبداع المستمر شيئا سوقيا ينم عن الحسد، عن الغيرة وعن الطمع. حين نكون ذوي شأن فإننا لانحتاج إلى فعل أي شيء - ومع ذلك فإننا نفعل الكثير. هناك صنف آخر أسمى من صنف الإنسان «المنتج».

211. أخيل وهوميروس.

تجري الأمور دائما كما جرت مع أخيل وهوميروس : لدى الواحد منهما تجربة المعيوش وله إحساس به، والآخر يصف هذه التجربة وهذا الإحساس. الكاتب الحقيقي إنما يعبر فقط بالكلمات عن عشق الآخرين وتجربتهم، فهو فنان لكي يتخيل الكثير إنطلاقا من القليل الذي يحس به. لايكون الفنانون أبدا من كبار العاشقين، لكنهم

يعتبرون أنفسهم كذلك، مع إحساسهم اللاشعوري أن الناس سيصدقون عشقهم المتصنع لو أن حياتهم تشهد على تجربتهم في العشق. يكفي أن يستسلم المرء لرغباته، أن لايسيطر على نفسه، أن يطلق العنان لغضبه وشبقه، وفي الحين سيصرخ كل الناس : كم هو عاشق ! لكن العشق الفاتك، العشق الذي يحرق الفرد ويضنيه في الغالب، له شأن آخر : الذي يشعر به لن يصفه، بكل تأكيد، في روايات، في معزوفات موسيقية، أو في مسرحيات. غالبا ما يكون الفنانون فساقا، وذلك بالضبط حين لايكونون فنانين : وتلك قصة أخرى.

212. شكوك قديمة بخصوص تأثير الفن.

هل صحيح، مثلما يريد ذلك أرسطو، أن المأساة المسرحية تُطهر المستمع من الخوف والشفقة بحيث أنه يعود إلى منزله هادءا وساكناً؟ هل صحيح أن قصص الأشباح تجعل المرء أقل خوفا وأقل تصديقا للخرافة؟ صحيح، في مايخص بعض الظواهر البدنية، كالمتعة الغرامية ميلا، أن إشباع الرغبة ينتج عنه هدوء الغريزة وخمودها المؤقت لكن الخوف والشفقة ليسا بهذا المعنى رغبتين عضويتين محددتين تتطلبان التنفيس. وإشباع الرغبات يؤدي، على التمادي، إلى تقوية الغريزة، بالرغم من هذا الهدوء الدوري. من المحتمل أن تكون المأساة المسرحية قد لطفت الخوف والشفقة وطهرتهما في كل حالة على حدة لكنهما، على العموم، قد يكونان تضخما بفعل التأثير المأساوي، وقد كان أفلاطون على حق، رغم كل شيء، حين ظن أن المأساة المسرحية تجعلنا على العموم أكثر خوفا وسهولة في التأثر. وبذلك سيجد الشاعر المأساتي نفسه متأثرا حتما برؤية كئيبة وقلقة للعالم، بروح حنون قابلة للتأثير وميالة للبكاء، وقد يكون كذلك مطابقا لرأي أفلاطون أن يتراجع الشعراء المأساتيون، وتتقهقر بتراجعهم كل المدن التي تبتهج بهم، ليقعوا في مغالاة جامحة، مغالاة لاتفتأ تتنامى. - لكن أي حق لعصرنا في الإجابة على السؤال الكبير الذي طرحه أفلاطون بخصوص التأثير الأخلاقي للفن؟ حتى يوم يكون لدينا فن، - أين هو تأثير هذا الفن، أيا كان هذا التأثير؟

213. متعة العبث.

كيف للإنسان أن يجد متعة في العبث؟ لأن تلك تكون الحالة في كل مرة يضحك فيها الناس، بل يمكننا القول أن متعة العبث تكاد تكون حيثما تكون السعادة. إن تحول التجربة إلى نقيضها، تحول المعياري إلى المجاني، واللازم إلى هوى عابر، لكن بحيث لايسبب هذا المثل أدنى أذى ولايتكرر أكثر من مرة واحدة، إن ذلك التحول هو ما

يجعلنا في حالة فرح،ويُخَلِّصُنَا مؤقتا بالفعل من إكراه اللزوم، من النفعية والذرائعية، الذين نرى فيهم عادة أسيادنا القساة القلوب. إننا نضحك ونلعب كلما انفجر المُتَوَقَّع (الذي عادة ما يسبب ضيقا وكآبة) دون أن يجرحنا. إنها فرحة العبيد خلال أعياد زحل.

214. تعظيم الواقع.

لما كان الناس يرون في الغريزة الإيروسية معبودا ويُحسون بها، بامتنان وتَدَلُّه، تعمل فيهم، فإن تعلقهم هذا قد تأثر، على مر العصور، باتحاده مع أفكار سامية، وبالتالي صار معُظَمًا بشكل كبير. هكذا فإن بعض الشعوب قد عرفت، بفضل فن الأمثَلة هذ (idéalisation)، كيف تجعل من أمراضها مساعدين أقوياء للحضارة : مثل الإغريق الذين كانوا يعانون، في القرون الأولى، من أوبئة خطيرة (كداء الصرع ومرض الرقص الزنجي) وخلقوا منهما نموذج كاهنة باخوس الرائع. -لقد كانت للإغريق صحة جيدة بالفعل، كان سرهم هو تبجيل المرض وكأنه معبود، شريطة أن يكون قويا.

215. الموسيقى.

الموسيقى، في ذاتها وَلِذَاتِهَا، ليست غنية بالدلالة بالنسبة لكياننا الداخلي، مهما يكن التأثر الذي يجعلنا نعتبرها لغة الإحساس المباشرة قويا، غير أن ارتباطها بالشعر قد وضع الكثير من الرمزية في حركة الإيقاع وفي قوة وضعف الأصوات حتى أننا الآن نتوهم أنها توجه الخطاب مباشرة إلى الروح وتنبع منها. لن تكون الموسيقى المسرحية ممكنة إلا إذا غزا فن الأصوات مجالا واسعا من الوسائل الرمزية بفضل الليدة(lied)*، بفضل الأوبرا والعديد من المحاولات في علم الإيقاع المحاكاتي. «الموسيقى المطلقة» هي إما شكل في ذاته، في المرحلة البدائية من مراحل الموسيقى التي تتولد فيها المتعة ببساطة من الأصوات المختلفة القوة التي يحدثها الإيقاع، وإما رمزية الأشكال التي تتضمن اللغة حتى بدون شعر، وذلك إثر تطور اتحد من خلاله هذان الفنان إلى أن تم في نهاية المطاف نسج الشكل الموسيقي من خيوط الأفكار والأحاسيس. بإمكان الناس الذين ظلوا في مرحلة متخلفة من مراحل تطور الموسيقى أن يحسوا بطريقة شكلية محضة بنفس المقطع الذي سيفهمه المتقدمون أكثر على أنه رمزي في كل جزئياته. ليست هناك أية موسيقى في ذاتها عميقة أو ذات دلالة أو تتحدث عن ال «إرادة»، عن «الشيء في ذاته». لم يكن الفكر ليتصور هذا إلا في مرحلة أخضعت الحياة السابقة كلها للرمزية الموسيقية.

* أغنية شعبية ألمانية (المترجم) .

الفكر نفسه، وهو وحده، هو الذي أدخل هذه الدلالة في الأصوات، تماما كما في فن المعمار حيث وضع، في علاقة الخطوط والأحجام، دلالةتعتبر في ذاتها أجنبية تماما عن قواعد الميكانيكا.

216. الحركة واللغة.

يعد تقليد الحركات أقدم من اللغة، هذا التقليد الذي نقوم به لاشعوريا والذي لايزال في أيامنا هذه، رغم التراجع المفروض بشكل عام على الإيمائية وعلى تعلم التحكم في العضلات، قويا جدا بحيث أننا لانستطيع أن نرى حركات وَجْه ما دون أن يحدث إعصاب* في وجهنا (يمكننا ملاحظة أن تثاؤبا متصنعا يثير لدى من يراه تثاؤبا طبيعيا). إن تقليد الحركات يجعل المقلد يحس نفس الإحساس الذي تعبر عنه هذه الحركات على وجه أوجسد الشخص الذي يتم تقليده. هكذا تعلم الناس أن يتفاهموا، وهكذا يتدرب الطفل على فهم أمه. بصفة عامة، لقد تم التعبير عن إحساسات مؤلمة كذلك من خلال حركات تسبب بدورها ألما (كنتف الشعر مثلا، أو لطم الصدر،أو ليّ وتغضين عضلات الوجه بعنف).وبالعكس كانت حركات السرور تحمل في طياتها سرورا، ومن ثمة تكون سبيلا سهلة للتفاهم (الضحك الناتج عن الدغدغة، التي هي شيء سار، كان بدور يصلح للتعبير عن إحساسات أخرى سارة). - بمجرد ماتم التفاهم بين الناس من خلال الحركات نشأت رمزية الحركات : أعني أنهم تمكنوا من التفاهم بواسطة لغة تجمع بين الرموز والأصوات. وقد بدأوا بانتاج الصوت والحركة (التي كان ينضاف إليها كرمز) كي يكتفوا لاحقا بالصوت. -غالبا مايبدو أن نفس الشيء الذي نراه الآن ونسمعه في تطور الموسيقى قد حدث في العصور القديمة نفسها : والحال أن الموسيقى تكون في البداية، دون تفسير الرقص والإيمائية لها، ضوضاء فارغة، ويحدث أن تتدرب الأذن، من خلال تعود طويل على توازي الموسيقى والحركة، على تفسير الرموز الموسيقية مباشرة، وتنتهي ببلوغ درجة عالية من الفهم السريع بحيث لاتعود في حاجة إلى الحركة المرئية إطلاقا وتفهم الملحن دونها. إذاك نتحدث عن موسيقى مطلقة، أي عن موسيقى يتم فهم كل شيء فيها على الفور رمزيا ودون مساعدة أي شيء آخر.

217. الإفقار الحسي للفن العظيم.

لقد تمت عقلنة آذاننا أكثر فأكثر من جراء تدريب الذكاء ذلك التدريب غير المألوف الذي يقوم به التطور الفني للموسيقى العصرية. كما أننا اليوم نتحمل قوة أشد في

---

* إعصاب (innervation) : طريقة انتشار الأعصاب في عضو ما.

الأصوات، نتحمل كثيرا من ال «ضجيج»، لأننا قد تدربنا أكثر من أسلافنا على تمييز الحكمة الموجودة فيهما. إن أحاسيسنا الآن، بتنقيبها الفوري عن الحكمة، أي عن «هذا يعني» وليس عن ما «هو»، قد تم إنهاكها شيئا ما : إضعافٌ يتجلى مثلا في السيادة المطلقة لمزاج النوطات، لأن الآذان التي لا تزال الآن تميز بين دُو رافعة وسي خافضة هي في حكم النادر. بهذا الإعتبار فإن أذننا قد صارت عامية. ثم إن الجانب القبيح من العالم، الذي هو عدو الحواس في الأصل، قد خضع للموسيقى، ومن ثمة فقد توسعت بشكل كبير جدا إمبراطورية الموسيقى خاصة فيما يخص التعبير عن الرائع، عن المرعب، عن الغامض؛ صارت موسيقانا تُنْطِقُ أشياء كانت خرساء فيما مضى. بنفس الطريقة زرع بعض الرسامين في العين فطنةَ أكثر وتقدموا ليتجاوزوا ماكان يسمى فيما مضى متعة الألوان والأشكال. هنا أيضا خضع جانب العالم الذي يعتبر قبيحا في الأصل للمهارة الفنية. - ماهي عاقبة كل هذا؟ كلما تأقلمت العين والأذن مع الفكر كلما اقتربتا من الحد الذي تكف عنده حسيتهما : الفرحة تنزوي في المخ، أعضاء الحواس نفسها تُنْهَكُ وَتَضْمُرُ، والرمز يحل مكان الشيء بالتدريج، - وإلى الهمجية تقودنا هذه السبيل كأي سبيل أخرى. قبل أن نَبْلُغَ، ذلك يمكننا أن نقول لأنفسنا : العالم الآن أقبح مايكون، ومع ذلك فهو يدل على أجمل عالم بالإطلاق. والحال أن مع انتشار رائحة عنبر هذه الدلالة وتبخرها يصير عدد الذين يدركونها شديد الندرة؛ أما الآخرون فيتمسكون بالقبح، في نهاية الأمر، ويسعون للاستمتاع به مباشرة، وهو الشيء الذي لن ينجحوا فيه أبدا مع ذلك. هناك إذن في ألمانيا تيار مزدوج في التطور الموسيقي : هنا زمرة قوامها عشرة آلاف شخص لاتفتأ متطلباتها تسمو، تصير دقيقة، وهي ترهف سمعها أكثر فأكثر ل «هذا يعني»، وهناك الأغلبية الساحقة التي تجد نفسها عاجزة كل عام عن فهم الدلالات حتى وهي متخذة أشكال القبح المحسوس، والتي تتعلم بمتعة متنامية أن تبحث في الموسيقى عما هو قبيح ومقيت في ذاته، أي عما هو حسي بشكل دنيء.

218. الحجر حجر أكثر من ذي قبل.

إننا على العموم، لم نعد نفهم المعمار، أو على الأقل، لم نعد نفهمه بالطريقة التي نفهم بها الموسيقى، وشتان ما بين هذا الفهم وذاك. لم نعد نفهم رمزية الخطوط والأشكال، كما فقدنا عادة فهم التأثيرات الصوتية للبلاغة، وقد انتهى بنا الأمر أن رضعنا هذا النوع من حليب الأم الذي هو حليب الثقافة منذ أولى لحظات عمرنا. في الأثر التاريخي الإغريقي أو المسيحي كان لكل شيء دلالته في الأصل، وهذا من منظور

نظام الأشياء السامي : كان جو الدلالة اللاَّتَنْضُب يُغَلف الأثر كخمار سحري. لم يكن الجمال يدخل في النمط إلا بشكل عرضي، دون أن يضر أساسا بالإحساس الجوهري الذي يخلقه الواقع الرائع والمقلق، الذي يكرسه الحضور الإلهي والسحر؛ كان أكثر ما يفعله الجمال هو تلطيف الرعب، - لكن هذا الرعب كان هو الشرط الأول في كل مكان. ماذا يشكل جمال اللحظة بالنسبة لنا الآن؟ ما يشكله وجه جميل لامرأة لاعقل لها : نوعا من القناع.

219. الأصل الديني للموسيقى العصرية.

نشأت الموسيقى كتعبير عن الروح في الكاثوليكية التي كانت موضع إصلاح بعد مجمع الثلاثين، ويرجع الفضل في ذلك إلى Palestrina الذي أدخل في الأصوات ورعاً وإحساسا عميقا تطربه الحياة الجديدة؛ كما تم ذلك لاحقا، في البروتستانية، على يد باخ الذي أعطاه التقويون* عمقا وخلصوه من طبعه الذي كان دوغمائيا في الأصل. كان الشرط المسبق والتهيؤ اللازم لهذين الإبداعين هما ممارسة الموسيقى كما كانت في عصر النهضة وفي ماقبل النهضة، خاصة تلك الدراسة العلمية للموسيقى، تلك المتعة العلمية في الواقع التي يتم الإحساس بها في براعة تآلف الأنغام واصطحاب الأصوات. من جهة أخرى، كان لابد من سابقة الأوبرا : إذ من خلالها رفع الدنيوي احتجاجه ضد تلك الموسيقى الفاترة التي أصبحت موسيقى علمية، وصمم على بعث الروح في بوليمني**. - لولا هذا التجديد الديني في العمق، لولا أصداء روح هيجها لورع، لظلت الموسيقى علمية أو متبعة أسلوب الأوبرا. روح الموسيقى العصرية هي روح الإصلاح المضاد (لأن تلك التقوية التي دخلت موسيقى باخ أيضا نوع من الإصلاح المضاد). تلك ضخامة ماندين به للحياة الدينية. - لقد كانت الموسيقى نهضة مضادة في ميدان الفن، وإليها تُعْزَى مرحلة الرسم المتأخرة لدى موريو (Murillo)، وربما تعزى إليها حتى الباروكية : أكثر مما يعزى إليها فن المعمار في عصر النهضة أو في العصور القديمة. وحتى حاليا يمكننا أن نتساءل : لو أن موسيقانا العصرية كانت قادرة على نقل الأحجار، فهل كانت ستشكل منها معمارا قديما؟ أشك في ذلك كثيراً. لأن الذي يسود في هذه الموسيقى، أعني العشق، لذة التسامي، لذة إعلاء شأن الحالات النفسية، إرادة تكثيف الحياة بأي ثمن، التغيرات المفاجئة في الإحساس، الأثر القوي للنتوء الذي يخلقه الظل والضوء، تجاور الإنخطاف والبسيط، - كل هذا قد ساد ذات مرة وخلق

* التقوية (piétisme) : حركة دينية نشأت في ألمانيا في ق . 17 وأكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية .

** Polymnie : ربة الإيقاعات المتعددة ، وهي واحدة من ربات الفنون التسع عند الإغريق (المورد)

قوانين جديدة تخص الأسلوب في الفنون الجميلة. - ولم يكن ذلك لافي العصر القديم ولا في عصر النهضة.

220. المَاوَرَاء في الفن.

لا، إننا لانُسَلِّمُ دون أن نتألم كثيرا بأن فناني كل العصور قد رفعوا، من خلال التحليق الذي كان يحملهم إلى السمو، إلى سماء التشويه، هذه التمثلات بالضبط التي نعلم اليوم أنها خاطئة : هم الذين مجدوا الأخطاء الدينية والفلسفية التي ارتكبتها الإنسانية، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا إيمانهم بحقيقتها المطلقة. والحال أنه إذا نقص الإيمان بتلك الحقيقة بشكل عام فإن ألوان قوس قزح ستصير باهتة داخل حدود المعرفة والوهم الإنسانيين : سيستحيل إذاك أن يزدهر هذا النوع من الفن الذي يفترض في الأشياء ليس دلالة كونية فقط بل ميتافزيقية أيضا، مثله في ذلك مثل الكوميديا الإلهية، مثل لوحات رفائيل، مثل جداريات مايكل انجلو، ومثل الكاتدرائيات القوطية. لئن كان مثل هذا الفن وهذا الإيمان قد وجدا يوما، فإنه لن يتبقى منهما ذات يوم سوى أسطورةمؤثرة.

221. الثورة في الشعر.

لقد شكل التقيد الصارم الذي فرضه الشعراء الفرنسيون على أنفسهم فيما يخص وحدة سير الأحداث، وحدة الزمان والمكان، فيما يخص الأسلوب،النظم والنحو، اختيار الكلمات والأفكار، شَكَّلَ مدرسة توازي في أهميتها مدرسة الطباق والتسلسل في تطور الموسيقى العصرية، أو تعابير Gorgias في الفصاحة الإغريقية. إن التقيد بهذا الشكل قد يبدو عبيثا، إلا أنه ليست هناك أية وسيلة أخرى للتحرر من المذهب الطبيعي إلا البدء في الإنحصار بأكبر عزم (أوربما بأكبر تعسف) ممكن. شيئا فشيئا نتعلم المشي بسهولة حتى على السلالم الضيقة التي تَعْبُرُ مهاوي عميقة جدا ونعود بغنيمة رشاقة قصوى في الحركة، كما يشهد على ذلك تاريخ الموسيقى في نظر كل المعاصرين. نرى هنا كيف تنحل القيود واحدا فواحدا إلى أن تظهر في النهاية وقد تم التخلص منها تماما : إن هذا الظهور هو النتيجة النهائية لتطور لازم في الفن. أما الشعراء المعاصرون فلم تتح لهم فرصة تطور يُخَلِّصُهُم تدريجيا من القيود التي فرضها الشعراء على أنفسهم فيما قبل. في ألمانيا سَخِرَ Lessing من الشكل الفرنسي، أي من الشكل الوحيد للفن الحديث، وأحال على شكسبير، بحيث أننا فقدنا استمرارية هذا التخلص من القيود لنقفز إلى عمق المذهب الطبيعي -أي أننا عدنا إلى الوراء، إلى بدايات الفن. لقد حاول

غوته أن يتحرر من هذا المذهب الطبيعي من خلال البحث باستمرار عن أشكال جديدة ومختلفة من التقيد؛ ولكن حتى صاحب الموهبة الكبيرة هذا لم ينته إلا إلى التجريب المستمر حين انقطع خيط التطور. يَدين شيلر بسلامة الشكل النسبية لديه للمأساة المسرحية الفرنسية، نموذجه الذي يبجله بتلقائية، وإن كان قد تنكر له، وقد احتفظ باستقلاليته تجاه Lessing (الذي نعلم أنه كان يرفض المقالات المسرحية). كما أنه لم يعد في فرنسا ذاتها فجأة، بعد رحيل فولتير (Voltaire) ، ذوو المواهب الكبيرة الذين بإمكانهم أن يتابعوا تطور المأساة المسرحية انطلاقا من هذا التقيد إلى تلك الحرية الظاهرية، وقد قاموا لاحقا، اقتداءا بألمانيا، بمعانقة نوع من الروسوية [نسبة لروسو]، نوع من طبيعة الفن، وشرعوا في التجارب. يكفي، من حين لآخر، أن نقرأ كتاب محمد لفولتير كي نُكَوِّنَ فكرة واضحة عما فقدته الثقافة الأوربية من جراء هذه القطيعة مع التقليد (tradition). لقد كان فولتي آخر الشعراء المسرحيين الكبار، وهو الذي أخضع لنير الإيقاع الإغريقي روحَهُ المتغيرة الشكل التي كانت كذلك في مستوى أكبر العواصف المأساتية، لقد قدر على مالم يقدر عليه أي ألماني،وذلك لأن قرابة الطبعين الفرنسي والإغريقي أقوى من قرابة الطبعين الألماني والإغريقي، كما أنه كان آخر الكُتاب الكبار الذين كانت لديهم، فيما يتعلق بالنثر الخطابي، أُذن إغريقية، وعي فني إغريقي، وبساطة الإغريق وأناقتهم،كما كان، زيادة على ذلك، واحدا من أواخر الرجال الذين عرفوا كيف يجمعون بين حرية الفكر الكبيرة وبين عقلية مضادة للثورة بشكل جريء دون أن يكونوا لاجبناء ولا متناقضين.منذ ذلك الوقت صار العقل الحديث، بقلقه وببغضه للإيقاع وللحد ، متفوقا في كل الميادين، في البداية، أطلقته حُمى الثورة من عقاله، لكنه بعد ذلك وضع العنان في عنقه من جديد حين خاف على نفسه، – إلا أنه عنان المنطق وليس عنان الإيقاع الفني كما كان من قبل. لقد تذوقنا في فترة ما، بكل تأكيد، وبفضل هذا الإنطلاق، أشعار كل الشعوب، كُلَّ ما أزدهر في الأقاليم النائية، النسغ الأصلي، الازهرار البري، الجمال الغريب والتباين الكبير، انطلاقا من الأغنية الشعبية حتى شكسبير، هذا «المتوحش الكبير»؛ إننا نستمتع بالأفراح ذات الطابع المحلي وبأفراح زينة المرحلة، التي كانت مجهولة لدى كل الشعوب الفنانة حتى الآن؛ نستفيد كثيرا من «الميزات المتوحشة» لعصرنا، تلك التي روجها غوته ضد شيلر كي يضع الجانب المشوه من فاوست في جو ملائم. لكن إلى متى؟ هذا السيل العارم من أشعار كل الشعوب المختلفة الأساليب حتما سيجرف شيئا فشيئا ذلك الركن من الأرض التي يمكن أن ينمو فيه نُسغ خبيء بكل هدوء؛ وحتما سيصير كل الشعراء مقلدين ومُجَرِّبين، ونَقَلَةً مغامرين، مهما تكن قوتهم كبيرة في البداية؛ وفي الأخير إن

الجمهور الذي نسي أن يرى الفعل الفني المحض في التمكن من وسائل التعبير، في الإمتلاك الشامل للخطط وتنظيمها بإتقان، هذا الجمهور سينتهي حتما أكثر فأكثر إلى تقدير القوة من أجل القوة، اللون من أجل اللون، الفكرة من أجل الفكرة، بل تقدير الإلهام من أجل الإلهام ؛ وبالتالي لن يتذوق عناصر وشروط العمل الفني وإلا فسيتذوقها متفرقة، بل سينتهي بأن يتطلب ذلك بشكل طبيعي بحيث أن الفنان سيجد نفسه مرغما على أن يقدمها له متفرقة. أجل، لقدتحررنا من قيود الفن الإغريقي والفرنسي «العبثية»، لكننا تعودنا رويدا رويدا أن نرى كل القيود، وكذلك كل تقييد، شيئا عبثيا، – وهكذا يسير الفن قُدماً إلى خرابه مع مروره (وهو شيء مفيد بكل تأكيد) بكل مراحل بداياته، بمراحل طفولته ونقصه، بمراحل جرأته وإفراطه السالفة : إنه، وهو ماض إلى هلاكه، يفسر تكونه وصيرورته. اللورد بايرون (Byron) واحد من العظماء، يمكننا بكل تأكيد أن نثق في غريزته كما في نظريته التي لم ينقصها شيء سوى ثلاثين سنة من الممارسة زيادة ، – قال اللورد بايرون في مكان ما : « فيما يتعلق بالشعر بشكل عام ، كلما فكرت فيه كلما اشتد اقتناعي بأننا قد ضللنا الطريق نحن كلنا. كلنا نتبع نظامًا ثورياً خاطىءُ داخلياً، – وسيصل جيلنا، أو الذي يليه،إلى نفس القناعة. » بايرون هذا هو نفسه الذي يقول : أرى في شكسبير أسوأ مثل، وإن كان شاعرا فذا.» أليس عن نفس الشيء تماما تعبر مهارة غوته التي صارت أكثر نضجا في النصف الثاني من حياته؟تلك المهارة التي مكنته من التقدم كثيرا على سلسلة من الأجيال بحيث يمكننا إجمالا أن نؤكد أن غوته لم يؤثر في أحد بعد، وأن زمنه سيأتي لاحقا؟ ذلك لأن طبعه قد أبقاه طويلا في طريق الثورة الشعرية، لأنه استمتع، إلى حد إنضابه تماما، بكل ما مكنت تلك القطيعة مع التراث من اكتشافه بطريقة غير مباشرة ومن مايشبه بعثه من تحت أنقاض الفن، ويتعلق الأمر بأشياء جديدة، بلقيات، بمنظورات، بأنماط، لهذا كان لتغييره الإتجاه فيما بعد ولتحوله وزن كبير : إنهما يعنيان أنه كان في أمس الحاجة لأن يعيد الإرتباط مع التراث الفني ولأن يعيد شعريا ابتكار كمال القديم والتام كي يعيده إلى أجزاء المعبد وأورقته التي لم تتهدم، لأن يعيد ابتكاره من خلال تخيل العين، على الأقل، إن بدت قوة الساعد في نهاية المطاف عاجزة عن التشييد هناك حيث يتطلب الهدم طاقات هائلة. كانت الحياة مع الفن بالنسبة إليه تعني الحياة مع ذكرى الفن الحقيقي : كان نشاطه الإبداعي قد صار وسيلة لدعم الذكرى، لدعم فهم مراحل قديمة من عمر الفن اختفت منذ أمد طويل. لاشك أن طموحاته كانت مستحيلة التحقيق بالنسبة لقوى العصور الحديثة؛ لكن الحزن الذي سببته له قد تم تعويضه عنه بفرحة معرفة كونها قد تحققت فيما مضى وأنه بإمكاننا نحن أيضا أن نساهم في تحقيقها. ليس

أشخاصا، بل أقنعة مثالية إلى حد ما؛ ليس الواقع، وإنما كُلٌّ مجازي؛ ميزاتُ عصرٍ، طابعٌ محلي تم تخفيفه حتى أمسى لا مرئيا وأسطوريا؛ الطرق الحالية في الإحساس وقضايا المجتمع المعاصر وقد تم تبسيطها، وقد جُردت من خاصيتها المَرَضِيَة في الإغراء والعشق، وقد حُرمت من كل إمكانية الفعل وإلا فالفعل بالمعنى الفني؛ ليست المواضيع ولا الخاصيات الجديدة وإنما بعثها باستمرار بمجهود التجديد والتحويل : هذا هو الفن مثلما فهمه غوته أواخر حياته، مثلما كان الإغريق والفرنسيون يمارسونه.

222. ماتبقى من الفن.

في الواقع إن الفن يكتسي قيمة كبيرة حين تواكبه بعض المُسَلَّمَات الميتافزيقية، كالإعتقاد الذي يُسَلِم به الناس عموما بأن الطبع ثابت وأن جوهر العالم يظهر باستمرار في كل الطباع والفعال : وهكذا يصير عمل الفنان صورة للثبات الأبدي بينما الفنان لن يستطيع أبدا، فيما نرى، أن يضفي الشرعية على صورته إلا لحظة، لأن الإنسان، الذي هو نتاج تطور، هو بشكل عام عرضة للتغير، وأن الفرد نفسه ليس فيه شيء دائم أو ثابت. -نفس الشيء ينطبق على فرضية ميتافزيقية أخرى : لو افترضنا أن عالمنا المرئي ليس سوى ظاهر، كما يسلم بذلك فلاسفة ماوراء الطبيعة، فإن الفن سيكون أقرب إلى عالم الحقيقة، لأنه ستكون هناك تماثلات كثيرة بين عالم الظاهر وعالم الرؤية الحُلُمية لدى الفنان، وماتبقى من الإختلاف سيرفع دلالة الفن ذاتها إلى مستوى يتجاوز دلالة الطبيعة، مادام الفن سيصور ثبات الأشكال ونماذج الطبيعة. - والحال أن هذه المسلمات خاطئة. وبمجرد ما نعترف بخطأها فأي مكانة ستبقى لفن العصر الحاضر؟ لقد عَلَّمنا الفن على مدى آلاف السنين أن ننظر إلى الحياة وإلى كل شكل من أشكالها باهتمام ومتعة، وأن نستدرج أحاسيسنا هذه إلى الحد الذي نصرخ فيه : «أيا تكن هذه الحياة فهي جميلة.» هذا الدرس الذي يلقننا إياه فن الإستمتاع بالوجود والنظر إلى الحياة الإنسانية وكأنها قطعة من الطبيعة، دون أن نحس إحساسا قويا بالتعاطف معها، والنظر إليها فقط كشيء خاضع لقوانين التطور، - هذا الدرس قد تجذر في أعماقنا، وهاهو الآن يظهر للوجود مرة أخرى متخذا شكل حاجة ملحةللمعرفة. يمكننا أن نتخلى عن الفن دون أن نفقد مع ذلك تلك الملكة التي اكتسبناها بفضله : مثلما تخلينا عن الدين ولم نتخل عن لحظات السمو والارتفاع اللذين أفادتهما الروح منه. بما أن الفنون الجميلة والموسيقى هما معيار هذا الغنى في الإحساس الذي تم اكتسابه وتنميته بسبب الدين، فإنه لو حدث واختفى الفن فإن كثافة وتنوع الإقبال على الحياة اللذين زرعهما سيظلان مع ذلك في حاجة إلى الإشباع لاتنقضي. العلم هو الذي يحل محل الفن في تطور الإنسان.

223 . أفول الفن .

مثلما نتذكر شبابنا ونحن شيوخ ونحتفل بأعياد الذكرى، كذلك سيصير الفن عما قريب، بالنسبة للإنسانية، ذكرى تثير أفراح شبابها. ربما لم يتم أبدا من قبل فهم هذا العمق وبكل الجوارح مثلما يتم في الوقت الحاضر حيث يبدو أن سحر الموت يحيطه بهالته. لنتذكر تلك الحاضرة الإغريقية في جنوب إيطاليا التي ظلت تحتفل بالأعياد الإغريقية يوما واحدا في السنة، وهي تذرف دموع الحزن لرؤيتها الهمجية الأجنبية تقضي شيئا فشيئا على تقاليدها الأصيلة. لاشك أن الاستمتاع بالإرث الهليني بشكل كبير وتذوق ذلك الرحيق الرائع بلذة كبيرة لم يكن ممكنا إلا وسط أولئك الهليـنيين المحتضرين. قريبا سوف لن نرى في الفنان سوى أثر رائع، وسنضفي عليه عزة قلما نود أن نضفيها على أمثالنا، كما لو كان أجنبيا بارعا كانت قوته وجماله يشكلان سعادة القرون الماضية. ربما نكون قد ورثنا أفضل مافينا عن الأحاسيس التي تنتمي إلى هذه القرون الماضية والتي قلما نستطيع ولوجها الآن عبر طريق تؤدي إليها مباشرة. لقد غربت الشمس، لكنها لاتزال تضيء سماءَ حياتنا وُتَنورها حتى ونحن لانراها.

الكتاب الخامس

خصائص الحضارة الراقية والحضارة الدنيا

224 . التعظيم بواسطة التدني.

يعلمنا التاريخ أن العرق الذي يحافظ على نفسه جيدا داخل شعب ماهو ذلك العرق الذي تكون لأغلبية الأفراد فيه عقلية جماعية حية بسبب تماثل كبرى مبادئهم المعتادة وغير القابلة للنقاش، إذن بسبب اعتقادهم الجماعي. ثمة تتقوى العادات الصالحة والمتينة، ثمة يتعلم الفرد الخضوع، ثمة يتلقى الطبع، مجانا، حَزْماً تنميه التربية فيما بعد. الخطر الذي يتهدد هذه الجماعات القوية، المرتكزة على أفراد لهم نفس الطبع ولهم خاصية حيوية، هو التبليد الذي تقويه الوراثة بشكل تدريجي، والذي يلازم الثبات دائما كظله. إن التقدم الفكري لهذه الجماعات يتوقف على الأفراد المستقلين الطلقاء والضعفاء أخلاقيا : إنهم الرجال القادرون على القيام بمحاولات جديدة، بتجارب جديدة. عدد لايحصى من أفراد هذا الصنف يهلكون بسبب ضعفهم، دون نتيجة واضحة، لكنهم في الغالب،خاصة حين تكون لهم ذرية، يحُدثون شروخا في انسجام الجماعة، ومن فينة لأخرى يوجهون ضربة لعنصر الثبات فيها. في هذا الموضع المجروح والموهَن يتم بث عنصر جديد في مجموع الجسد الذي يجب أن تكون قوته من الشدة بمكان بحيث تُدخل هذا الجديد في دمها وتتمثله. إن للطباع التي تتدنى أهمية كبيرة في كل مكان لَزِمَ أن يحدث فيه تقدم. إن أي تقدم جماعي لابد أن يسبقه ضعف جزئي. الطباع القوية تحافظ على النوع والطباع الضعيفة تساهم في تطويره. يحدث للفرد شيء مماثل لهذا، إذ يندر أن يكون هناك تدن أو بتر، بل حتى عيب، وبشكل عام، قصور جسدي أو معنوي دون أن ترافقه فائدة ما في موضع آخر. في عرق مُحَارب ومُهتاج قد يكون للرجل المُسْقام، مثلا، فرص أكثر ليعيش على الهامش ويكتسب فيه كثيرا من الهدوء ومن الحكمة، ستكون للأعور عين تظل قوية،ستكون للأعمى رؤية أعمق للحياة الباطنية وسمع مرهف على أية حال. في هذه الحالات،

لايبدو لي أن الصراع من أجل البقاء هو وجهة النظر الوحيدة التي انطلاقا منها يمكن تفسير تقدم أو تنامي قوة فرد أوعرق ما. على العكس، لابد من مساهمة العنصرين التاليين : أولاً، تنامي القوة الثابتة بواسطة روابط تحافظ على جماعية الإعتقاد والإحساس في عقول الأفراد،وثانيا، إمكانيةٌ بلوغ أهداف أسمى، إمكانية يوفرها ظهور طباع متدنية وبالتالي ظهور ضعف وجروح جزئية في القوة الثابتة. إن الطبع الأضعف بالضبط، لكونه أكثر دقة وحرية، هو الذي يجعل التقدم،كيفما كان نوعه، ممكنا. الشعب الذي يبدأ لديه التقرح والضعف في موضع ما ولكنه يبقى قويا وسليما في مجموعه قادر على تحمل عدوى الجديد والإستفادة منها من خلال امتصاصها. بالنسبة للفرد ستكون مهمة التربية كالتالي : أن تجعله في وضع آمن وقوي بحيث لن يمكن أبدا، على العموم، أن يُحَادَ به عن طريقه. وسيكون على المربي آنذاك أن يصيبه بجروح، وأن يستفيد من الجروح التي أصابه بها القدر، وبمجرد ما يولد الألم والحاجة بهذا الشكل فسيكون ممكنا أن يبث فيه عنصرا من الجدة والنبالة من خلال نُدُوبه. سيمتص طبعه ذلك العنصر كله ويجعل رائحة نبالته تفوح في الثمار التي سَيُثْقَلُ بهَا لاحقا. -فيما يخص الدولة يقول ماكيا فيل (Machiavel) أن «شكل الحكومات ذو أهمية دنيا، وإن كان أنصاف المثقفين يعتقدون خلاف ذلك. الهدف الكبير للسياسة ينبغي أن يكون هو البقاء، الذي يساوي كلما تبقى باعتباره أغلى ثمنا من الحرية. » وحده البقاء الطويل، السليم المرتكزات والضمانات، يجعل التطور الثابت لبث التهذيب أمرا ممكنا على كل حال. لاشك أن السلطة، التي هي أخطر رفيقة لكل بقاء، ستقاوم ذلك في أغلب الأحيان.

225. الفكر الحر، مفهوم نسبي.

نسمي مفكرا حرا ذاك الذي يفكر بطريقة مخالفة لما كنا ننتظره منه بسبب أصله، وسطه، حالته،ووظيفته، أو بسبب الآراء السائدة في عصره. هو الإستثناء، والمفكرون المُسْتَعْبَدُونَ هم القاعدة. إن ما يؤاخذه به هؤلاء هو كون مبادئه الحرة إما تنبع من الرغبة في المفاجأة أو تُسَوِّغَ الإتيان بفعال حرة، أي أنها من تلك المبادىء المتنافرة مع الأخلاق المستعبدة. أحيانا يقال أن المبدأ كذا أو كذا من هذه المبادىء الحرة يمكن أن يُستنبط من خَطَلٍ في العقل ومن تمجيده؛ لكن وحده الخبث يتكلم هكذا، الخبث الذي لا يصَدِّقُ هو نفسه شيئا مما يقول، لكنه يريد استعماله بقصد الإضرار : لأن المفكر الحر عادة ما تكون علامةُتفوق ذكائه وَحدَّته مكتوبةً على وجهه ومقروءة بوضوح شديد يجعل المفكرين المستعبِدَين يدرَكونهَا جَيدا. لكن الإنحرافيْن الآخريْن لفكره الحر ينبثقان عن

نية صادقة، والحقيقة هي أن كثيرا من المفكرين الأحرار يولدون من هاته الطريقة أو من تلك. لكن هذا قد يكون سببا يجعل المبادىء التي توصلوا إليها بهذه الوسائل حقيقية وأكيدة أكثر من مبادىء المفكرين المستعبَدين. إن مايهم في معرفة الحقيقة هو أن نمتلكها وليس الدافع وراء البحث عنها أو الطريقة التي أوصلتنا إليها. إن كان المفكرون الأحرار على صواب فالمفكرون المستعبدون على خطأ، لايهم إن كان الأولون قد توصلو إلى الصواب بدافع لاأخلاقي وبقي الآخرون حتى اليوم متعلقين بالخطأ بدافع أخلاقي. - الحاصل أنه ليس من طبع المفكر الحر أن تكون له آراء أصح، ماهو من طبعه بالأحرى هو أن يكون قد تحرر من التقاليد، سواء نجح في ذلك أو أخفق. لكن الحقيقة ستكون بجانبه رغم ذلك، أو على الأقل دأب البحث عن الحقيقة : هو يريد البراهين ويريد الآخرون المعتقدات.

226 . أصل الإيمان .

لايبني العقل المستعبد اختياره على هذا السبب أو ذاك، بل يختار بفعل العادة، يختار أن يكون مسيحيا مثلا، لكن ليس لأنه تفحص مختلف الديانات واختار من بينها؛ يختار أن يكون انجليزيا، لكن ليس لأنه انحاز إلى جانب انجلترا، لا، لقد وجد المسيحية وانجلترا قريبتين منه فتبناهما، مثلما يصير من وُلد في بلد الكروم شاربا للخمر. لاحقا، بعد أن يكون قد صار مسيحيا وانجليزيا، ربما قد ينجح في العثور على بعض الأسباب التي تؤيد اعتياده؛ ومهما حاولنا أن نسقط هذه الأسباب فإننا لن نغيره هو، أو وضعه على الأقل. لنُجبِرْ، على سبيل المثال، عقلا مستعبَدا على الإتيان بأسباب ضد الزواج من امرأة ثانية وسنرى جيدا إذاك إن كان تَحمُّسه المقدس للزواج بواحدة يرتكز على حجج أم فقط على الإعتياد. والإعتياد على مبادىء فكرية مجردة من الحجج هو بالضبط ما نسميه إيمانا.

227. الحق والخطأ مستنبطان استدلاليا من نتائجهما.

كل الدول وكل نظم المجتمع: الطبقات، الزواج، التربية، كلها تستمد قوتها ودوامها من إيمان العقول المستعبَدة، - إذن من غياب الحجج، أو على الأقل من رفض تحري الحجج. هذا ما لاتحب العقول المستعبدة أن تعترف به إلا فيما ندر، إنها تشعر به كشيء مخجل. والمسيحية، التي كانت بريئة في استهاماتها الفكرية، لم تشأ أن ترى شيئا من هذا المخجل، وتطَلَّبتْ من الناس الإيمان ولاشيء غير الإيمان، ورفضت بغضب طلب الحجج؛كانت تشدد على نجاحات الإيمان : كانت توحي للناس بأنهم سيشعرون بميزة الإيمان وبواسطته ستأتيهم السعادة. في الحقيقة، إن الدولة تتصرف بنفس الطريقة،وكل

أب ينشيء ابنه بنفس الطريقة : اعتبر هذا وحده حقا، يقول له، وسترى كم هو نافع. والحالة هذه فإن هذا يعني أن الفائدة الشخصية التي نحصل عليها من رأي ماتبرهن على أن هذا الرأي حق،وأن منفعة عقيدة ماتضمن يقينها وحُسن مرتكزها الفكريان. إن هذا يشبه قول المتهَم لهيأة المحكمة : إن محامي يقول كل الحقيقة، انظروا لما ستسفر عنه مرافعته : ستُعْلَنُ براءتي. بما أن العقول المستعبَدة لا تعتنق إلا المبادىء التي تعود عليها بالمنفعة فإنها تفترض أن الآراء لدى المفكر الحر ماهي إلا وسيلة يبحث بها عن منفعته وأنه لا يضفي صفة الحق إلا على مايجني منه فائدة ما. وبما أن مايبدو نافعا له نقيض ما يبدو نافعا لمواطنيه ولزملائه فإن هؤلاء يُقرُّون بأن مبادئه خطر عليهم؛ وإن لم يقولوه فإنهم يشعرون به : لايمكن أن يكون على حق بما أنه يُضرُّبنا.

228. الطبع الحاد والحَسَن.

عبودية الآراء، التي حولتها العادة إلى غريزة، هي التي تؤدي إلى مانسميه حدة الطبع. حين يتصرف المرء تحت تأثير بواعث قليلة، لكنها لاتتغير أبدا، فإن فعاله تكتسب منها طاقة كبيرة؛وإذا وافقت هذه الفعال مبادىء العقول المستعبَدة فإنها تحظى بالقبول، وبشكل عَرَضِي تُوَلِّدُ لدى منْ قام بها إحساسا براحة الضمير. إن ما يشكل مانسميه حدة الطبع هي البواعث القليلة، السلوك الحيوي وراحة الضمير. تنقص هذا الطبع الحاد معرفة إمكانات الفعل واتجاهاته المتعددة؛ وذكاؤُه تنقصُه الحرية، إنه مستعبَد، لأنه لن يُريه، في حالة معينة، سوى إمكانيتان؛ وسيكون عليه آنذاك، حتما وطبقا لطبعه كله، أن يختار واحدة منهما،وسيفعل ذلك بسهولة وبسرعة مادام لن يختار من بين خمسين إمكانية. يميل الوسط الذي يربي الفرد إلى حرمانه من الحرية إذ يقترح عليه أقل مايمكن من الإمكانيات. ويعامل المربون الفرد كما لو كان كائنا جديدا، دون شك، لكن ككائن يدون تحويله إلى نسخة. لئن بدا الإنسان في الأول كجديد لم يسبق له مثيل في الوجود فإن الأمر لايتعلق مع ذلك بتحويله إلى شيء معروف، شيء موجود من قبل. إن مانسميه الطبع الحسن لدى الطفل هو بالضبط ذلك التمظهر التدريجي لعبوديته للوجود المعطى بصفة نهائية، وبانحيازه إلى جانب العقول المستعبدة يشرع الطفل في التدليل على استيقاظ حسه القطيعي،وهذا الحس هو الأساس الذي سيسمح له بأن يكون فيما بعد صالحا لدولته ولطبقته.

229. قياس الأشياء لدى العقول المستعبَدة.

هناك أربعة أشياء تقول العقول المستعبدة أنها مُبَرَّرة. أولا : كل الأشياء التي تدوم، ثانيا : كل الأشياء التي لاتزعجنا، ثالثا : كل الأشياء التي نجني منها بعض الفائدة،

رابعا : كل الأشياء التي من أجلها قَدَّمْنَا تضحيات. هذه الأخيرة تفسر مثلا لماذا تستمر، وبحماس كبير، حرب بدأت والشعب لها كاره بمجرد ما تُقَدَّمُ التضحيات الأولى. – يجب على المفكرين الأحرار الذين يدافعون عن قضيتهم في مؤتمر العقول المستعبدة أن يبرهنوا أنه كان هناك دائما مفكرون أحرار، أن يبرهنوا إذن على أن الفكر الحر يدوم، ثم أنهم لايسعون لأن يكونوا مزعجين، وأنهم أخيرا، وإجمالا، يحملون بعض الفائدة للعقول المستعبدة ؛ لكن بما أنهم لن يستطيعوا إقناع هؤلاء بهذه النقطة الأخيرة فإنه لاجدوى من البرهنة على النقطة الأولى والثانية.

230. العقل القوي.

يُعتبر المفكر الحر ، إذا ما قورن بالذي يقف التقليد (tradition) إلى جانبه ولايحتاج إلى حجج يبرر بها فعاله، يُعتبر دائما ضعيفا، خاصة في فعاله، لأن لديه الكثير من البواعث ومن وجهات النظر التي صيرت يده مترددة وغير متمرسة. ماهي الوسائل التي ستجعله قويا نسبيا حتى يستطيع على الأقل أن يُثْبِتَ نفسه ولايضمحل سُدىً؟ كيف يُولَدُ العقل القوي؟ المسألة، في حالة منفردة، هي مسألة إبراز العبقرية. من أين تأتي الطاقة، القوة المتينة، التحمل، التي بها يسعى الفرد، ضد تيار التقليد، إلى اكتساب معرفة بالعالم تكون شخصية تماما؟

231. تَكَوُّنُ العبقرية.

قد تساعدنا البراعة التي يحاول بها السجين أن يفر، وكذلك برودة الدم والصبر الفائقان اللذان يستغل بهما أدنى فرصة، على فهم الطريقة التي بها تخلق الطبيعة عبقريا – كلمة أرجو أن تُفهم دون أية خلفية ميثولوجية أو دينية : إنها تحبسه في زنزانة وتُغيظُ رغبته في الفرار. أو، حتى نُعَبر بصورة أخرى : الذي ضل طريقه كلية داخل الغابة، لكنه يجهد في بلوغ البلدة المنبسطة بالسير في اتجاه معين بطاقة خارقة، قد يكتشف سبيلا جديدا لا يعرفه أحد؛ هكذا تَولَدُ العبقريات التي نحتفل بأصالتها. – لقد ذكرنا آنفا أن بَتْرَ عُضْوٍ، أو وجود ضُمور أو نقص بارز في عضو ما يوفر في الغالب فرصة لعضو آخر ليطور مزايا استثنائية بما أنه عليه أن يقوم بوظيفة زائدة على وظيفته. انطلاقا من هذا يمكننا أن نكتشف أصل الكثير من المواهب المتألقة. – من هذه الإشارات العامة حول تكون العبقرية سننقل التطبيق إلى هذه الحالة الخاصة، تَكَوُّنُ المفكر الحر الكامل.

232. تخمينات حول أصل الفكر الحر.

مثلما جبال الجليد تنمو حين ترشق الشمس بحار المناطق الاستوائية بنيران أقوى من السابق، يمكن كذلك لفكر حر قوي وفي أتم كماله أن يثبت أن هناك، في مكان ما، اضطراما شديدا للغاية في الإحساس.

233. صمت التاريخ.

بشكل عام، يبدو أن التاريخ يُعَلِّمُنَا عن تكوين العبقرية مايلي : أسيئوا معاملة الناس وعذبوهم (كذا يصرخ التاريخ بالأهواء، بالغيرة، بالحقد وبالحسد)، ادفعوهم إلى أقصى حد، الواحد ضد الآخر، طيلة قرون، وإذاك، ملتهبا كما لو بشرارة بعيدة منطلقة من الطاقة الهائلة التي تحررت بهذه الطريقة، ربما ينبثق نور العبقرية فجأة؛ إذاك ستَجْمَحُ القوة المعبأة، ستَجْمَحُ مثل حصان نخسه مهماز الفارس،وتقفز إلى مجال آخر. - إن الذي يتوصل إلى تكوين فكرة واضحة عن تكون العبقرية ويود أن يطبق الطريقة التي تستخدمها الطبيعة عادة، عليه أن يكون هو الآخر شريرا وقاسيا مثلها تماما. - لكن ربما لانكون قد سمعنا صوت التاريخ جيدا.

234. قيمة منتصف الطريق.

ربما كان تكوين العبقرية خاصا بمرحلة محدودة من عمر الإنسانية. إذا لايجب أن ينتظر المرء من مستقبله ما انتجته فقط بعض الظروف المعينة في لحظة مَا في الماضي، كآثار الإحساس الديني المدهشة مثلا. لقد كان لهذا الإحساس زمنه، وهناك أشياء ممتازة جدا لن تتكرر أبدا لأنه هو وحده القادر على خلقها. وهكذا لن يكون للحياة والحضارة أفق يحدده الدين. وربما لا يكون حتى نموذج القديس ممكنا إلا نتيجة لبعض الخجل في الذكاء سوف لن يتبقى منه أي أثر في المستقبل، على ما يبدو. ربما كانت ذُرى الذكاء مخصصة هي الأخرى لعصر واحد من عمر الإنسانية : لقد تمظهرت (وتستمر في التمظهر، لأننا نعيش ذلك العصر) في الوقت الذي اتجهت فيه طاقة هائلة تراكمت من الإرادة لمدة طويلة، اتجهت استثنائيا، بفعل الوراثة، اتجاها فكريا. سينتهي أمر هذه الذرى حين لاتعود هذه الطاقة الغفل خاضعة لمثل هذه التربية. ربما تكون الإنسانية، وقد بلغت منتصف الطريق، منتصف وجودها، قريبة من هدفها الخاص أكثر مما ستكونه عند نهاية الطريق. لربما يكون محكوما على بعض القوى بالإستنزاف التام، كتلك التي ينبع منها الفن، مثلا؛ وقد تزول حُظْوَةُ لذة الكذب والمبهم والرمزية والإنتشاء والإنخطاف. بل أكثر من ذلك، لو حدث أن الحياة انتظمت في دولة خالية

من العيوب فلن يعود ممكنا عثورنا على أي باعث من بواعث الشعر في الحاضر، ولن يتبقى آنذاك مَنْ يطالب بالخيال الشعري سوى المتخلفون. سيلقي هؤلاء، على كل حال، نظرة حنينية إلى الوراء، على عصر الدولة الناقصة، عصر المجتمع النصف متخلف، على هذا العصر الذي هو عصرنا.

235. العبقرية والدولة المثالية في تناقض.

يطمح الإشتراكي إلى توفير الرفاهية لأكبر عدد ممكن من الناس. ولو أن مصدر هذه الرفاهية، أعني الدولة الخالية من العيوب، وجدت فعلا، فإن هذه الرفاهية ذاتها ستدمر الأرض التي عليها ينمو الذكاء الكبير، والفردانية القوية بشكل عام : أعني كل طاقة قوية. بمجرد مايتم تأسيس هذه الدولة ستكون الإنسانية قد استُنزفت بإفراط بحيث لن تستطيع إنتاج العبقرية. ألاينبغي إذن أن نتمنى احتفاظ الحياة بطبعها العنيف، ألا تكف عن إثارة وتجديد قواها وطاقاتها الفضة؟ والحالة أن القلب المتشوق، يريد بالضبط إلغاء هذاالطبع العنيف والفظ، وأشد القلوب التي يمكننا تخيلها شوقا سيكون هو الأكثر تشوقا للمطالبة بالإلغاء،ورغم ذلك فإن تشوقه يستمد ناره واضطرامه بل ووجوده ذاته من طبع الحياة الفظ والعنيف هذا؛ القلب الأشد شوقا يريد إذن إلغاء أساسه، إفناء ذاته، أي أنه يريد شيئا غير منطقي تماما، إنه ذكي. الذكاء الكبير والقلب المتشوق لايمكنهما أن يتعايشا في ذات الشخص الواحد، والحكيم الذي يُصدر حكما على الحياة يتعالى حتى عن الطيبة ويعتبرها، هلى أكثر تقدير، شيئا لامجال لإدخاله في التقييم الشامل للحياة. الحكيم مُرْغَمٌ على معارضة هذه الرغبات الطيبة الذكية، لأن المهم بالنسبة إليه هو بقاء نموذجه، وفي الأخير إنتاج ذكاء متفوق؛ إنه لن يكون، على الأقل، مع تأسيس «الدولة الخالية من العيوب»، مادام الأفراد المنهوكون هم وحدهم من يجدون مكانهم فيها. على العكس من ذلك، فالمسيح، الذي نتصوره هنا كالقلب المتشوق، قد يَسَّرَ تبليد الناس وانحاز إلى جانب العقول الضعيفة وكَبَحَ تَكَوُّنَ الذكاء المتفوق : وكان ذلك شيئا منطقيا. يمكننا التنبؤ بأن نظيره، أي الحكيم الكامل*، سيعارض حتما وجود المسيح في المجتمع. تعتبر الدولة مُؤَسَّسَة حكيمة أقيمت لغرض حماية الأفراد من بعضهم البعض، ولو بالغنا في تهذيبها فإن الفرد في نهاية الأمر، هو الذي سيضعف، بل سَيُلْغَى من جراء ذلك، - وبذلك يتلاشى جذريا هدف الدولة الأول.

* يعني العقل الحر عند نيتشه .

236. مناطق الحضارة.

يمكننا أن نقول، بشكل مجازي، أن مراحل الحضارة تقابل مختلف المناطق المناخية، باستثناء كون هذه المراحل تتوالى عوض أن تكون متجاورة مثل المناطق الجغرافية. إن المنطقة الحضارية التي اجتزناها تترك لدينا، إجمالا، ذلك الانطباع الذي يتركه المناخ المداري،إذا ما قارناها بالمنطقة الحضارية المعتدلة التي علينا أن نمضي إليها. هناك في الطبيعة تناقضات شديدة، تعاقب فجائي لليل والنهار، سعيرٌ وَلوَانٌ مزهر، تبجيلٌ لكل الظواهر المفاجئة والغامضة والمرعبة، فجائية العواصف، في كل مكان هناك فيض مفرط في قُرُون خصْب الطبيعة. ويواجه ذلك في حضارتنا سماء صافية، لكنها غير مشرقة بتاتا، هواءٍ نَقي يكَاد لايتغير، شيء من الرطوبة، بل شيء من البرد أحيانا : هذا هو التناقض بين هاتين المنطقتين. حين نرى الأهواء الشديدة العنف وقد هزمتها وحطمتها قوة مخيفة هي قوة التمثلات الميتافزيقية فإنه يتكون لدينا نفس الإنطباع الذي تُخلفه رؤية نمور متوحشة تنعصر أمام أعيننا، في المناطق المدارية نفسها، بين حلقات أفاعي ضخمة جدا. تنقصُ مناخَنا الروحي مثلُ هذه المشاهد، خيالُنا معتدل، حتى في الحلم لانشاهد شيئا مما كانت الشعوب الماضية تراه بأم عينيها. لكن ألا يجدر بنا أن نهنيء أنفسنا على هذا التغيير، مع احتمال أن نُقر بأن زوال الحضارة المدارية يَضُر أساسا بالفنانين وبأن هؤلاء يجدوننا، نحن غير الفنانين، عاميين شيئا ما ؟ بهذا المعنى فإن للفنانين الحق كل الحق في أن يجحدوا ال «تقدم» ، لأنه في الواقع يمكننا، على الأقل، أن نشك في ما إذا كانت الألفيات الثلاثة الأخيرة شاهدة على حصول تقدم في الفنون. لن يكون لفيلسوف ميتافزيقي، مثل شوبنهاور، أي دافع كي يستنتج أن هناك تقدماً، لَوْ تأمل الألفيات الأربعة الأخيرة من زاوية الفلسفة الميتافزيقية والدين. - لكن بالنسبة لنا نحن فإن وجود منطقة حضارية معتدلة يعتبر هو وحده تقدما.

237. النهضة والإصلاح.

لقد حوت النهضة الإيطالية كل القوى الإيجابية التي تدين لها الحضارة المعاصرة بوجودها : تحرر الفكر، ازدراء السلطة، انتصار الثقافة على عجرفة الأصل، التحمس للعلم ولماضي الإنسانية العلمي، انعتاق الفرد، شعلة الصدق، النفور من الظاهر المحض والبحث عن الأثر (شعلة تفجرت في عدد كبير من طباع الفنانين متطلبة منهم الإتقان، بصفاء أخلاقي كبير، ولاشيء غير الإتقان في أعمالهم) : بل أكثر من ذلك، إن في حضارتنا المعاصرة قوى إيجابية عرفها عصر النهضة، لكنها لازالت لم تسترجع، حتى الآن نفس القوة التي كانت لها آنداك. لقد كانت النهضة هي العصر الذهبي في هذه

الألفية، رغم كل ما شابها ورغم كل عيوبها. مقابل ذلك نجد في هذه الخلفية الإصلاح الألماني، ذلك الاحتجاج الشديد من طرف ذوي العقول المتخلفة الذين لم ينالوا بغيتهم من الرؤية القروسطية للعالم، والذين كانوا يشعرون بضيق كبير، عوض الابتهاج المرغوب، من جراء رؤيتهم علامات تَفَسُّخ الحياة الدينية والتسطح الغريب الذي آلت إليه، والذين أعادوا الناس إلى الوراء بعنادهم كشماليين، وبأعمال عنف جديرة بحالة حصار أثاروا رد الإصلاح المضاد، رد المسيحية الكاثوليكية المشروع دفاعا عن النفس، وأخَّروا بقرنين أو ثلاثة ازدهار العلوم التام وهيمنتها بدون منازع،وربما جعلوا اندماج العقل القديم والمعاصر مستحيلا إلى الأبد. إن المهمة الكبيرة للنهضة لايمكن أن تنجح وقد عرقلها احتجاج العبقرية الألمانية التي بقيت في أثناء ذلك متخلفة (هي التي كانت على حق، في العصور الوسطى، حين عَبَرَتْ جبال الألب مرارا من أجل خلاصها). لقد تطلب الأمر حظ كوكبة سياسية غريبة كي يتمكن لوثر من البقاء ويتمكن هذا الاحتجاج من التَّقَوِّي: لأن الإمبراطور كان يحميه حتى يستخدم تجديدَهُ وسيلةَ ضَغْط على البابا، وكان البابا يشجعه سريا حتى يجعل من الأمراء البروتستانت داخل الإمبراطورية موازنين للإمبراطور. ولولا هذا التواطؤ الغريب لكان لوثر قد أُحْرِقَ مثل Huss *- ولكان فجر فلسفة الأنوار قد أشرق مبكرا شيئا ما وببريق أجمل من الذي يمكننا تصوره اليوم.

238. إنصاف الإله في حالة صيرورة.

حين ينبسط تاريخ الحضارة كله أمام أنظارنا في تشابك الأفكار القبيحة والنبيلة، الصحيحة والخاطئة، ويكاد منظر هذا التدفق يصيب الروح بالدوار، فإننا ندرك أي عزاء يوجد في تصور إله في حالة صيرورة : يكشف هذا عن نفسه تدريجيا في تحولات الإنسانية ومحنها،لا يصير كل شيء مجرد إوالية عمياء، مجرد تفاعل قُوىً دون غاية ولاسبب. إن تأليه الصيرورة منظور ميتافزيقي - كما لو من أعلى مناريُطَل على بحر التاريخ - وجد فيه جيل من العلماء المغرمين جدا بالتاريخ عزاءهم؛ ولا ينبغي أن نغضب لذلك مهما يكن هذا التصور خاطئا. وحده الذي ينفي التطور، مثل شوبنهاور، لايشعر بأي شيء من بؤس هذا التدفق التاريخي، وبالتالي يستطيع، لكونه لايعرف ولايحس أي شيء من هذا الإله في حالة صيرورة ومن الحاجة إلى الإقرار بوجوده، يستطيع أن يُرخي العنان بعدل لتهكمه.

* جون هس مصلح ديني تشيكي ، أتهم بالهرطقة فاعدم حرقا . (م)

239. الثمار حسب الفصول.

كل مستقبلٍ أفضلَ نتمناه للإنسانية هو حتما مستقبل أسوأ بأكثر من اعتبار. إنه لهذيان،فعلا أن نعتقد أن مرحلة جديدة ومتفوقة من مراحل الإنسانية ستجمع كل مزايا المراحل السابقة، وأنه سيكون بمقدورها، مثلا، أن تحقق أسمى أشكال الفن. ذلك أن لكل فصل مزاياه ومفاتنه الخاصة، وهي تُقصي مزايا ومفاتن الفصول الأخرى. إن ما تولد عن الدين ونشأ بجواره لن يستطيع أن يولد من جديد بعد أن يتم تدمير الدين. قد يَحمل بعض الأبناء التائهين والمتأخرين على توهم شيء ما بشأن هذا الموضوع تماما مثلما تَحْمِلُ على ذلك ذكرى فن الماضي المنقطعة : إنها حالة تشي بإحساس بالضياع وبالإحباط، لكنها لاتبرهن على وجود قوة قادرة على خلق فن جديد.

240. وقار العالم المتنامي.

كلما تسامت ثقافة إنسان ما كلما كثر عدد مجالاتها التي تُفلت من سخريته، من هُزئه. لقد كان فولتير مُمْتَناً من أعماق قلبه للسماء بخصوص ابتكار الزواج والكنيسة، وهكذا فقد سَلَّانَا كثيرا، لكنه هو وعصره، وقلبه القرن السادس عشر، قد سَخِرُوا جيدا من هذه المواضيع حتى أنهم استنزفوها. كل الفكر الذي لانزال ننفقه في هذا الميدان باطل، وهو بالخصوص زهيد الثمن لحد أنه لن يثير رغبة المشترين .الآن نستخبر عن القضايا؛ إنه عصر الجد. من لايزال اليوم يقيم وزنا، من وجهة نظر السخرية، لتأمل الاختلافات بين الحقيقة والمظهر المُدَّعي، بين ماهو الإنسان ومايريد أن يمثله ؟ يُوَلِّدُ الإحساس بهذه المتناقضات أثرا مخالفا تماما بمجرد ما نسعى لأن نَسْبِرَ عمق الأشياء. كلما حاول الإنسان فهم الحياة كليا كلما نقص هزءه، اللهم إلا إذا انتهى إلى الاستهزاء ب «عمق فهمه».

241. عبقري الحضارة.

لو أردنا أن نتخيل عبقري الحضارة فماذا ستكون طبيعته ؟ إنه يستعمل أدواته، وهي الكذب والعنف وأشد الأنانيات فظاظة، بيقين كبير بحيث أننا لن نقول عنه إلا أنه كائن شيطاني وشرير، لكن نواياه،التي تشف هنا وهناك: نبيلة وحسنة. إنه سنتور، نصفه حيوان ونصفه إنسان، وله زيادة على ذلك أجنحة ملاك في الرأس.

242. تربية معجزاتية.

لن يأخذ الإهتمام الذي أُعْطِيَ للتربية كامل قوته إلا حين نكف عن الإيمان بمتعال واحد وبعنايته؛ فقد ازدهر الطب، هو الآخر، بمجرد ماكف الإيمان بالعلاجات الخارقة.

لكن الناس لايزالون في الوقت الحالي يؤمنون بالتربية المعجزاتية، لأنهم رأوا أن الفوضى الكبيرة ،اختلاط الأهداف، وعدم ملاءمة الظروف، قد انتجت أقوى الرجال وأخصبهم : كيف سيكون هذا ممكنا بشكل طبيعي ؟ - بدء من الآن سندقق النظر في هذا، قريبا سنُخضع حتى هذه الحالات لاختبار أكثر صرامة : ولن نكتشف فيها أية معجزات. بما أن الظروف متشابهة فإن كثيراً من الأشخاص يموتون باستمرار، بينما الفرد الذي تم إنقاذه، على العكس من ذلك، قد أخذ منها فائضا من الطاقة، نظرا لكونه تحمل هذه الظروف غير المواتية بفضل قوة فطرية لاتقهر، بل مارس هذه القوة ونماها : الشيء الذي يفسر المعجزة. إن تربية لاتؤمن بالمعجزة سيكون عليها أن تتأمل ثلاث نقط. أولا : كم هو مقدار الطاقة الموروثة ؟ ثانيا : كيف يمكن إيقاظ طاقات جديدة ؟ ثالثا : كيف نؤالف الفرد مع متطلبات الحضارة العديدة والمتعددة دون أن تربكه وتهدم وحدة كيانه، - باختصار، كيف يمكن وضع الفرد في مكانه ليكون طباق* الثقافة الشخصية والحياة العامة، كيف يمكنه أن يكون اللحن السائدة واللحن المصاحب في الوقت ذاته ؟

243. مستقبل الطبيب.

ليست هناك، في الوقت الراهن، مهنة تمكن صاحبها من الإرتقاء إلى الأعلى مثل مهنة الطبيب، خاصة منذ لم يعد في إمكان أطباء الروح، مديري الضمير المزعومين، أن يمارسوا مواهبهم كَمُعَزِّمِينَ (exorcistes) بموافقة عامة. ومنذ صار المثقفون يتجنبونهم. إن الطبيب، في الوقت الحالي، يدرك، قبل أن يبلغ قمة تكوينه الفكري، أحسن الطرق العصرية ويتمكن من ممارستها بشكل جيد، كما يعرف كيف يصوغ بسرعة تلك الاستنتاجات من الأثر إلى العلة التي [أي الاستنتاجات] تشكل مجد المشخصين. عليه أن يمتلك، فضلا عن ذلك، فصاحةً تناسب كل فرد على حدة وتُطير قلبه من جوفه، رجولة تكفي رؤيتها ليذهب الجبن (هذه الدودة التي تنخر كل المرضى)، مرونةَ دبلوماسي كي يعقد روابط بين من هم في حاجة إلى فرح كي يُشفوا وبين أولئك الذين، لأسباب صحية، عليهم (ويمكنهم) أن يمنحوا الفرح، دقة الشرطة ودقةَ المحامي كي يخُمن أسرار الروح دون أن يفشيها،- باختصار، يحتاج الطبيب الجيد اليوم في فنه إلى طرق وامتيازات كل نقابات الحرفيين الأخرى : مسلحا بهذا الشكل سيمكنه أن يصير ولي نعمة المجتمع بأسره، وذلك بالإكثار من الأعمال الخيرية، من متعة العقل وخصوبته، بتدارك الأفكار والنوايا السيئة، بتدارك الدناءات (التي غالبا ما يكون مصدرها المنفر هو البطن)، بإقامة أرستقراطية الجسم والعقل (بفضل الزيجات التي

* contre - point = لحن يضاف إلى لحن آخر على سبيل المصاحبة (المترجم) .

سيُتمـها والتـي سيـمنعـها)، بجـعل حـد، بدافع الإحـسان، لكـل العـذابات الأخلاق وتبكيت الضمير المزعومة؛ هكذا سيتحول من «الطبيب المشعوذ» إلى مخُلَصٍ، دون يكون في حاجة، مع ذلك، إلى الإتيان بمعجزات، ولا إلى ارتقاء الصليب.

244. إلى تخوم الجنون.

إن مجمـوع أحاسيسـنا ومعارفنـا وتجاربنا، أي ثـقل الحضارة كلـه، قد تزايد بـشك كبير نتـج عنه تهيج الملكات الـعصبية والفكرية، وهو خـطر كبير : الطبقات المـثقفة ف البلـدان الأوروبية كلـها عُصابية، وتـكاد لاتكون هـناك واحدة من كبـريات عائلاتـها يلامـس أحد أفرادهـا الجنون عـن قرب. هنـاك الآن طرق عـدة لاستعـادة العافـية، دو شك، لكن الشيء الذي يبقى ضرورياً بالأساس هو تخفيض كثافة الإحساس، تخفيه عبء الحضارة المرهق، هذه الحـضارة التي، حتى وإن تكبدت خسائـر فادحة، لن تتر لنا مع ذلـك حرية ترجي تلـك النهضة الجديدة الـتي ستكون شيئـا عظيما. إننـا مدينو بـفيـض من الـعواطـف والإحسـاسات الـعميقـة للـمسـيحـية، لـلفـلاسفـة، للـشعـر وللموسيقيين، وإن لـم نرُدها أن تخنَقنا بتكاثرها فلا بد لنا أن نتوسل إلى روح العلم الذ يجعلنا، إجمالا، بـاردين شيئا ما، شكوكيين شيئا ما، ويجمـد بشكل خاص نهر الإي الجامح ويحولـه إلى حقائق أخيرة ونهـائية، ذلك النهر الذي جـعلت منه المسيحـية سي شديد الإندفاع.

245. الحضارة تُذَابُ كالجرس.

لقد اتخذت الحضارة شكلها، مثل جـرس، في قالـب مصنوع من مادة هي بالأحر فظة وعامية : نفاق وعنف وتوسع غيـر محدود يقوم به كل الأفراد وكل الشعوب، ك لحسابه الخاص، هذا هو القالب. هل حان أوان إفـراغ هذا القالب ؟ هل تجمد السكب هل تمـاسكت الغـرائز الصالحـة المفيدة وعـادات الروح النبـيلة وانتـشرت في كل مـك بحيـث لن تعود هـناك حاجة لـلجوء إلى الميـتافزيقـا وإلى أخطاء الـذين، لن تعـود هن حاجـة لأية من هذه الـقساوات وأعـمال العنـف التي تشـكل الرابـط القوي بين إنـس وإنسـان، بين شـعب وشـعب ؟- لانـنتظـرن قط، كـي نجيـب علـى هذا الـسؤال مساعدةَ وإشارةَ إلـه ما : على بصيرتنا أن تقـرر هنا. على الإنسان نفسـه أن يمسك بي القياد العام للإنسانية، على «علمه بكـل شيء» أن يتيقظ كي يسهر منذ الآن على مص الحضارة.

246 . عمالقة الحضارة.

حين ننظر إلى هذه الأحواض المُثَلَّمَة التي اتخذتها المَجْلَدَات فراشا لها فإننا قليلا ما نعتقد في إمكانية أن يأتي وقت ينبسط فيه في نفس المكان وادٍ غابي وفلاحي تتخلله الجداول. نفس الشيء ينطبق على تاريخ الإنسانية، القوى الأكثر همجية هي التي تفتح الطريق، وتكون هدامة في البداية، لكن نشاطها يكون، مع ذلك، ضروريا كي تتمكن نعومة الحضارة من تشييد منزلها مكانهَا لاحقاً. هذه الطاقات المرعبة - هذا نفسه الذي نسميه الشر - هي مهندسو الإنسانية المعماريون وروادها السيكلوبيون*.

247. الإنسانية تدور في حلقة.

ربما ليست الإنسانية سوى مرحلة من مراحل تطور جنس حيواني معين له مدة نمو محدودة : الإنسان الذي تطور من قرد سيعود قردا، ولن يكون هناك أي أحد ليهتم بهذه النهاية الغريبة للكوميديا. مثلما أدى انحطاط الحضارة الرومانية وسببه الرئيسي الذي هو توسع المسيحية إلى تبشيع شامل للإنسان في الإمبراطورية الرومانية، فمن المحتمل جدا كذلك أن تكون عاقبة الإنحطاط المحتمل للحضارة الأرضية في شموليتها هي تبشيع فظيع جدا للإنسان، لينحط في النهاية إلى حيوان ثم إلى قرد. - وبما أننا نستطيع التفكير في هذا الاحتمال فقد نستطيع تدارك انتهاء المستقبل إلى مثل هذا الأمر.

248. عزاءُ تقدمٍ ميئوس منه.

يعطي عصرنا انطباعا بكونه حالة مؤقتة، فالحضارات القديمة والتصورات القديمة عن العالم لاتزال باقية جزئياً، أما التصورات فلم تُرسخها العادة بعد، وبالتالي تَنْقُصُهَا الوحدة والتماسك. يبدو أن كل شيء يعود سديما، أن القديم يتيه، أن الجديد لايساوي شيئا ويضعف باستمرار. نفس الشيء ينطبق على جندي يتعلم المشية العسكرية، يكون في وقت ما مترددا وعديم المهارة أكثر من أي وقت مضى لأن عضلاته تتحرك تارة حسب النظام القديم وتارة حسب النظام الجديد، ولاتكون الغلبة النهائية لأي منهما. إننا نتأرجح، لكن لا ينبغي أن يجعلنا ذلك نقع في حيرة قد تدفعنا إلى التخلي عن المكتسب الجديد. علاوة على ذلك، يستحيل علينا أن نعود إلى القديم، لقد أحرقنا سفننا إلى الأبد، ويبقى علينا أن نكون شجعانا، مهما يكن ما سينجم عن ذلك.

---

* Cyclope : عملاق أسطوري له عين واحدة وسط الجبين .

- فلنسر، لنتحرك من مكاننا، هذا كل ما يلزم ! قد يأتي نوم تشبه فيه مشيتنا تقدما ما، رغم كل شيء، وإلا، فسيكون بإمكاننا دائما أن نكرر كلمة فردريك الكبير، لكننا سنكررها آنذاك على سبيل المواساة : آه ياعزيزي شولتزر، إنك لاتعرف هذا العرق الملعون الذي ننتمي إليه.

249. المعاناة من ماضي الحضارة.

يعاني الذي يكون فكرة واضحة عن مشكلة الحضارة، منذ لحظة تكوين تلك الفكرة، من نفس الإحساس الذي يعاني منه من ورث ثروة تم تجميعها بطرق غير شرعية، أو أميرًا اعتلى الحكم بفضل أعمال العنف التي قام بها أسلافه. إنه يفكر بحزن في أصله، ويكون في أغلب الأحيان خَجِلاً وسريع الإنفعال. إن كمية الطاقة وإرادة الحياة والفرح التي يخصصها لثروته غالبا ما يوازنها ملل كبير : إنه لا يستطيع نسيان أصله. إنه ينظر إلى المستقبل بكآبة، فهو يعرف مسبقا أن ذريته ستعاني، مثله، من الماضي.

250 .العادات.

كلما انحسر تأثير البلاط والأرستقراطية المنغلقة على نفسها تتلاشى العادات الحسنة، ويمكن أن نلاحظ هذا التلاشي بدقة من عِقد إلى عِقد حين نعرف كيف نلاحظ فعال العامة التي تصير رعاعية بشكل جلي يومًا عن يوم. لم يعد أحد يعرف كيف يحُيي ويجامل بظرف، وينتج عن ذلك هذا الشيء المثير للسخرية، ففي الوقت الذي يكون فيه إبداء الاحترام المستحق (لرجل دولة كبير مثلا، أو لفنان كبير) شيئا واجبا، فإن الناس يستعيرون لذلك لغة العاطفة المشبوبة، لغة الولاء التام والدائم - بسبب الحرج، بسبب نقص الظرف واللطافة. حتى اللقاءات العمومية والرسمية تبدو مُتَصَنَّعة أكثر فأكثر، ومهما بدت ودية وصادقة فهي ليست كذلك. - فهل نكون قد بلغنا نقطة لاتستطيع عندها العادات التوقف عند المنحدر القاتل ؟ يبدو لي بالأحرى أنها ترسم تجويف منحنى وأننا نقترب من وضعها الأكثر انخفاضا. بمجرد ما يرسخ المجتمع آراءه ومبادئه لتتمكن من القيام بوظيفة تكوينية (بينما العادات التي يتعلمها الناس اليوم، وهي نتاج أوضاع قديمة، يتعلمونها وينقلونها وقوتهُا تتناقص كل يوم) ستكون هناك عادات في العلاقات، ستكون في معاشرة الناس حركات وعبارات ستبدو، في بساطتها، ضرورية وطبيعية مثل تلك الآراء والمبادىء. إن ما سينتج عنه كل ذلك هو التقسيم الأفضل للوقت والعمل، هو التمرين الرياضي المعدل كي يقترن بأحسن ساعات الفراغ، هو التأمل المتزايد والصارم منذ ذلك الحين، هذا كله الذي سيمنح للجسم ذاته

رهافة ورشاقة. – صحيح أنه يمكننا هنا أن نفكر، ببعض السخرية، في علمائنا : هم الذين يريدون أن يكونوا رواد هذه الثقافة الجديدة، هل يتميزون إذن بعادات أفضل ؟ قلما تكون تلك حالهم، مثلما يبدو لي، وإن كان ذهنهم ولاشك يقظا كفاية كي تريد ذلك طبيعتهم : ليست لهم بعد أية حرية في اتخاذ المواقف، لكونهم نصف رجال دين علمانيين ونصف مؤدبي كريمي النسب، مؤدبي طبقة النبلاء التي يخضعون لها، وهم، زيادة على ذلك، ضامرون ومحنطون بفعل إدعاء العلوم بنهجهم طرقا بليدة عفى عليها الزمن. إنهم لم يكفوا، فيما يخص جسدهم بكل تأكيد، وغالبا فيما يخص ثلاثة أرباع عقلهم، عن مغازلة ثقافة هرمة، بل شائخة، وبما هم كذلك فإنهم هم أنفسهم شائخون، أما العقل الجديد الذي يتحرك، من حين لآخر، في هذه الهياكل المسنة فلا يصلح في الوقت الراهن إلا لجعلهم حائرين وجبناء أكثر. إنهم مسكونون بأشباح الماضي كما بأشباح المستقبل : ما المدهش، منذ الآن، إن لم يظهروا بمظهر لائق، إن لم تكن هيأتهم لطيفة ؟

251. مستقبل العلم.

يمنح العلم الكثير من الرضى لمن يخصص له عمله وأبحاثه، لكنه يمنح القليل منه فقط لمن يحفظ نتائجه. وبما أن كل حقائق العلم الكبيرة تصير شيئا فشيئا تافهة وعامية فإن حتى هذا القليل من الرضى يختفي : لهذا لم نعد، منذ وقت طويل، نعثر على أدنى متعة في حفظ جدول الضرب، الرائع رغم ذلك. إذا كان العلم يجرد ما يواسي الناس، من ميتافريقا ودين وفن، من الكثير من المتعة، وإذا صار هو نفسه يمنحهم متعة أقل فأقل، فإنه سينضب، وهو أكبر منابع المتعة الذي يدين له الناس تقريبا بكل إنسانيتهم. لذلك سيكون على الحضارة المتفوقة أن تزود الإنسان بمخ مزدوج، بما يشبه مخين، واحد للإحساس بالعلم، والآخر للإحساس بما ليس علما : متقابلين، دون تطاول، قابلين للإنفصال وكَتُومَيْن؛ هذا ما تتطلبه العافية. يكون مصدر الطاقة في منطقة، وفي الأخرى يكون المُنَظِّم : يجب أن يتم التسخين بالأوهام، بالأفكار البليدة، بالإنفعالات، ثم يتم استخدام العلم البعيد النظر لتدارك النتائج الضارة والخطيرة التي قد تنجم عن تسخين مفرط. إذا لم نستوف شرط الحضارة المتفوقة هذا فإننا نستطيع أن نتنبأ بكل تأكيد بالمجرى الذي سيتخذه التطور الإنساني : سيختفي ذوق الحقيقة كلما قلت المتعة التي تمنحها؛ وسيستعيد الوهم والخطأ والأسطورة خطوة خطوة، نظرا لارتباطها بالمتعة، تلك الأرض التي كانت ملكا لهم فيما مضى؛ وستكون النتائج المباشرة لذلك هي خراب العلوم والانزلاق إلى الهمجية؛ سيكون على الإنسانية أن

تَشْرع من جديد في نسج نسيجها بعد أن تكون، مثل Pénélope ، قد نقضته ليلا. لكن من يضمن لنا أنها ستجد القوة دائما للقيام بذلك؟

252. لذة المعرفة.

كيف يحدث أن تكون المعرفة، التي هي مادة الباحث والفيلسوف، مقرونة باللذة؟ أولا، وبشكل خاص، لأننا نعي فيها قوتنا، إذن لنفس السبب الذي يجعل التمارين الرياضية تمنح متعة حتى في غياب المتفرجين. ثانيا، لأننا، أثناء البحث، نتجاوز في نفس الوقت تصورات قديمة ونتجاوز الذين يمثلونها، لأننا ننتصر عليهم، أو على الأقل نظن ذلك. ثالثا، لأن المعرفة الجديدة، مهما تكن بسيطة، تمنحنا إحساسا بأن مكانتنا أعلى من كل الآخرين، بأننا وجدنا من يمتلك الحقيقة بشأن هذا الموضوع. أسباب اللذة الثلاثة هذه هي الأهم، لكن هناك، حسب طبيعة الذات العارفة، أسبابا ثانوية كثيرة. – لقد سردتهُا في لائحة مهمة، في مكان لن يبحث عنها فيه، من خلال دراستي بخصوص شوبنهاور : القائمة التي أوردتها يمكن أن ترضي كل خادم محنك للمعرفة، حتى وإن تمنى محو ظل السخرية الذي يبدو منثورا على هذه الصفحات. إذ صحيح أنه «لابد أن تنصهر كمية من الغرائز ومن الغرائز الإنسانية الصغيرة جدا» كي تعطي ميلاد العالم، صحيح أن العالم من معدن نبيل جدا، ولاشك، لكنه خالص قطعا، وأنه «مكون من شبكة معقدة من الدوافع اللاَّتقوم ومن البواعث المتعددة» يمكن أن نقول نفس الشيء عن تكون وطبيعة كل من الفنان والفيلسوف والعبقري الأخلاقي – وعن كل الأسماء الكبيرة الممجَّدة في هذه الدراسة، أيا تكن تلك الأسماء. كل الأشياء الإنسانية تستحق أن نتأملها، من جهة التكون، بسخرية : لذلك فالسخرية في العالم غير ضرورية.

253 . الوفاء، دليل الرُّسوخ.

إنه لمن الأدلة القاطعة على جودة نظرية ما أن يكون صاحبها قد ظل وفيا لها أربعين سنة دون أن تخامره أدنى ريبة بخصوصها. لكنني أزْعُمُ أنه ليس هناك فيلسوف واحد لم ُتفلت منه، في الأخير، نظرة ازدراء – أو على الأقل نظرة ريبة – تجاه الفلسفة التي أتى بها أيام شبابه. – لكنه ربما لم يقل شيئا عن ذلك التغير بدافع من الكبرياء أو – وهذا شيء محتمل لدى ذوي الطباع النبيلة – بدافع رِفْقه بمُريديه.

254. امتداد المهم.

كلما تسامت ثقافة الإنسان كلما صار كل شيء مهما بالنسبة إليه، يعرف كيف بسرعة يجد الجانب المثقِّف في الشيء ويميز النقطة التي قد يسد عندها هذا الشيء فراغا في فكره أو يؤكد إحدى أفكاره. هكذا يزداد اختفاء الملل كل يوم، لكن في نفس الوقت يزداد اختفاء حساسية الروح المفرطة. ينتهي المرء بأن يصير وسط أمثاله مثل عالم الطبيعيات (naturaliste) وسط النباتات وبأن يعتبر نفسه ظاهرة يجب ملاحظتها، وهو ما يثير بقوة غريزة المعرفة لديه.

255 .خرافة التزامن.

يعتقد الناس أن الأشياء المتزامنة مرتبطة. يموت أحد الأقارب في مكان بعيد، وفي الوقت نفسه نراه في الحلم، ترون ذلك جيدا ! لكن عددا لايحصى من الأقارب يموتون دون أن نحلم بهم. إن مثل ذلك مثل الغرقى الذين ينذُرون على أنفسهم : لكننا لانرى في المعبد لاحقا نذور الذين غرقوا. – يموت شخص ما، ينعب البوم، وتتوقف الساعة : وتريدون ألا تكون هناك علاقة بين هذا كله ؟ مثل هذه الحميمية مع الطبيعة، التي يُقِرُّ بها هذا الحدس، تخدع الناس. يوجد هذا النوع من الخرافة، في شكل أكثر تهذيبا، لدى بعض مؤرخي الحضارة وبعض رساميها المصابين إجمالا بنوع من رُهاب الماء (hydrophobie) تجاه كل المصادفات العبثية التي تزخر بها، رغم ذلك، حياة الأفراد والشعوب.

256 .حيث يتدرب الناس بالعلم على السلطة وليس على المعرفة.

إن قيمة الممارسة الصارمة لعلم دقيق، لبعض الوق، لاتكمن بالضبط في نتائجه : لأن هذه الأخيرة لاتشكل سوى قطرة متناهية في الصغر من بحرِ ما هو جدير بأن يُعْرَف. لكننا نفيد منها فائضا من الطاقة، من المنطق الاستنتاجي، من الصلابة في المجهود المستمر. لقد تعلمنا أن نبلغ الهدف بوسائل تناسب هذا الهدف. بهذا المعنى يعتبر شيئا ثمينا أن يكون المرء قد اشتغل بالعلم ولو مرة واحدة في حياته، نظراً لِكُلِّ ما سيقوم به لاحقاً.

257. فتنة العلم الفتوية.

لقد احتفظ البحث عن الحقيقة، في الوقت الراهن، بسحر المعارضة القوية، في كل النقط، للخطأ الذي صار مُنْهَكاً ومملا، لكن هذا السحر يسير نحو التلاشي. صحيح أن

العصر الذي نحياه الآن لايزال عصر شباب العلم، وعادتنا هي اتباع الحقيقة كما نتبع فتاة حسناء، لكن حين يأتي اليوم الذي تصير فيه امرأة ناضجة وذات نظرة شرسة، فما الذي سيحدث ؟ إن الحقائق الأساسية، في كل العلوم تقريبا، لم يُعْثَرْ عليها إلا حديثا جدا، أو مازال البحث عنها جاريا، هذه لحظة فتانة أكثر من تلك التي لن يتبقى فيها للباحث، وقد تم اكتشاف الأساسي كله، سوى لقاطة تافهة من الخريف (وهذا إحساس قد يصير مألوفا لدينا في بعض المواضيع التاريخية).

258. تمثال الإنسانية.

يتبع عبقري الحضارة طريقة Cellini وهو يسبك تمثال Persée : أوشكت المادة المذابة ألا تكفي، لكن كان لزاما أن تكفي، لذلك قذف فيها بالصحون والأطباق وكل ماكان يقع في يده. وعبقرينا كذلك يقذف في السبك بالأخطاء، بالرذائل، بالآمال، بالأوهام، وبأشياء أخرى من معدن بخساً كان ثمنُه أم غالياً، لأنه يتحتم قطعا أن يخرج تمثال الإنسانية كاملا من القالب، لذلك ما أهمية المادة الرديئة التي تكون استعملت هنا أو هناك ؟.

259 . حضارة رجولية.

كانت الحضارة الإغريقية في عصرها الكلاسيكي حضارة رجال. أما فيما يتعلق بالنساء فبريكليس يستنزف هذا الموضوع بهذه الكلمات في خطاب مأتمي : أكبر مزايا النساء هي أن الرجال يتحدثون عنهن بأقل مايمكن في ما بينهم. - كانت العلاقات الإيروسية بين الرجال والمراهقين، عند درجة تتجاوز فهمنا، هي الشرط الوحيد والضروري في كل هذه التربية الرجولية (تقريبا مثلما الحب والزواج عندها هما اللذان كانت النساء مدينات لهما، لوقت طويل، بتربيتهن السامية قليلا)؛ كل ما كان هناك من مثالية القوة في الطبع الإغريقي تم نقله إلى هذه العلاقات، وقد كان ما حظي به شباب القرنين السادس والخامس من العناية والحنان والاحترام المطلق من طرف أفاضلهم شيئا لانظير له، - مصداقا لحكمة هولدرلين الرائعة : «حين يُحب المرء فإنه يعطي أفضل ما لديه.» فكلما أقيم وزن كبير لهذه العلاقات كلما انخفضت مخالطة الرجال للنساء : فما كان يؤخذ بعين الاعتبار بينهما هو التناسل والشهوة، لم تكن مخالطتهما ثقافية ولم يكن فيها حب حقيقي. إذا تفكرنا كذلك أن النساء كن مقصيات من الألعاب والعُروض، فسندرك أن الغذاء الروحي الوحيد النبيل شيئا ما الذي تبقى لهن هي العبادات الدينية. - إن صح مع ذلك كونهن كنَّ يلعبن أدوار أنتيجونة (Antigone)

وإلكترا فَلأَنَّ الإغـريق كانوا يطيـقون ذلك في الفن وإن لـم يكونوا يريدونـه في الحياة : كذلك نحن اليوم، لانطيق أدنى شيء محزن في الحياة، لكننا نحب عرضه في الفن. – لم يكن للنساء من واجب آخر غير إنجاب أجساد جميلة وقوية يستمر من خلالها الطبع الأبوي سالما قـدر الإمكان، وبـذلك يُقَاوَمُ الـتهيـج العصـبي الـذي كان ينـتصـر داخل حضـارة تمثل ذلك الـرقي. ذلك ما أمـن للحضـارة الإغريقـية شبابـا أطول نسبـيا، لأن عبقرية اليونان كانت دائما تجد في الأمهات الإغريقيات طريق الطبيعة.

260. الحكم المسبق في صالح الرفعة.

يبـالغ الـناس، بشـكل جـلي، فـي تقديـر كل مـاهو رفيـع وسام. ومـصدر ذلـك هو تأكدهـم الواعي أو اللاشعـوري من العثـور على بعض المنفعة في استعمال فـرد مَا قوته كلها في ميدان واحـد وتحوله إلى مايشبه عضوا واحدا وهائلا. أكـيد أن التطور المتوازن لقواه سيحقق للإنسان سعادة ومنفعة أكثر؛ لأن كل موهبة كبيرة تمتص دم ونسغ القوى الأخرى، والإنتـاج المبالغ فـيه قد يقـود صاحب الموهـبة الكبـيرة إلى الجنـون تقريبـا. في الفنون كذلك تسترعي الطباع العنيفة الإنتباه كثيرا، ومع ذلك فإن من يفتتن بها لابد أن يكـون ذا ثقافة مـحدودة جدا. فالـناس يخضـعون، بحكـم العادة، لكـل ما يطمـح إلى القوة.

261. طغاة العقل.

المواضع الوحيدة التي تـتألق فيها حياة الإغريق هي التي ينـيرها شعاع الأسطورة، أما المواضع الأخرى فهـي معتمة. والحالة هذه فأن الـفلاسفة الإغريق يحرمون أنـفسهـم من هذه الأسطورة : ألـيس ذلك كما لو أنهم أرادوا المُرُورَ مـن الشمس إلى الظل، لـيدخلوا في العتمة ؟ لـكن النباتات لا تفر من الشـمس. لقد كان هؤلاء الفلاسفة، فـي الحقيقة، يبحـثون عن شمس ساطعة أكثـر، فالأسطورة لم تـكن في نظرهـم صافية جـدا، لامعة جدا. كـانوا يـجدون ذلك الـنور في مـعرفـتهم، فـي ما كـان كل واحد مـنهم يـسميـه «حقيـقت»ه. وقد كانت المعـرفة، في ذلك العصـر، تشع ببريـق أقوى من بريقهـا اليوم، كانت لاتزال تأمل، في تلك اللحظة، أن تبلغ،بـقفزة واحدة، عمق الكينونة نفسها ومن ثـمة تحل لغز العـالـم. لقـد كان لـهؤلاء الـفلاسفـة إيمان راسـخ بـأنفـسهـم كمـا ب «حقيـقيت»هم، وكانـوا يهزمون به جـيرانهم والسـابقين عليـهم، كان كل واحد مـنهم محْرَباً وعنيـفا، كان طاغية. من المحـتمل ألا تكون السعـادة التي يمنحها الإيمـان بامتلاك الحقيقـة قد بلغت هذا القدر الـهائل أبدا من قبل في الـعالم، وكذلك القسوة والـغطرسة والجانب الجبـروتي والقبيح فـي ذلك الإيمان. لقد كانـوا طغاة، وهو نفس مـا كان كل

إغريقي يود أن يكونه، والذي يكونه كل واحد بمجرد ما يقدر أن يكونه. ربما كان الإستثناء الوحيد هو Solon* ، إنه يروي في قصائده كيف احتقر الطغيان الشخصي. لكنه قد صار طاغية بسبب حبه لأثره ولتشريعه، وأن تكون مشرعا فذاك نوع مُصَعَّد (sunlimée) من الطغيان. بارمنيدس وضع قوانين هو الآخر، و كذلك فيتاغورس وأمبيدوكل، أنا كسيماندر شيَّدَ مدينة. أفلاطون كان هو الرغبة المجسَّدة في أن يكون أكبر مُشرع و مؤسس للدولة الفلسفية، ويبدو أن معاناته من فشله في تحقيق كيانه هذا كانت فظيعة، ففي أواخر حياته امتلأت روحه بالحقد الأشد سوادا. كلما فقدت الفلسفة اليونانية من قوتها كلما عانت بشدة من هذا الحقد ومن هذه الفظاظة. حين نزلت الطوائف المختلفة إلى الشوارع تدافع عن حقائقها امتلأت أرواح مدعي الحقيقة كلهم حسدا وسما، كان سم الطغيان يعيث في أجسامهم. كان كل هؤلاء الطغاة الصغار سيلتهمون بعضهم نيئين، لم تكن قدتبقّت فيهم أدنى شرارة حب، ولا الشيء الكبير من متعة علمهم. - إجمالا، فإن الحكمة القائلة بأن الطغاة يموتون في الغالب بالإغتيال، وبأن خَلَفهم حياة قصيرة جدا، تنطبق كذلك على طغاة العقل. تاريخهم قصير، مليء بأعمال العنف، ويتوقف تأثيرهم بشكل مفاجيء. يمكننا القول أنه يبدو أن كبار الهلينيين قد أتوا متأخرين جدا، وكذلك أسخيلوس وبيندار وديموستين وثوسيديد، بمجيء الجيل التالي لهم يكون أمرهم قد قضيَ إلى الأبد. هذا هو الشيء العنيف والمحزن في تاريخ الإغريق. صحيح أننا اليوم نهيم بإنجيل السلحفاة. فأن تفكر كمؤرخ، في وقتنا الراهن، يكاد يعني أن تعتقد أن التاريخ قد تشكل عبر كل العصور حسب هذا المبدأ : «القيام بأقل عمل ممكن في أطول مدة ممكنة». آه، كم يسرع التاريخ الإغريقي ! لم يعش أحد قط بمثل هذا الإسراف وهذا الإفراط. إني لا أتمكن من إقناع نفسي بأن تاريخ الإغريق قد اتخذ هذا المجرى الطبيعي الذي نمجده به. نظرا للكثرة المفرطة لمواهبهم المختلفة فإنهم لم يتبعوا خطوة خطوة ذلك التقدم المستمر الذي هو تقدم السلحفاة في سباقها مع أخيل (Achille) : هذا نفسه الذي يسميه الناس تطورا طبيعيا. لدى الأغريق يكون التقدم بسرعة، ولكن الأفول يتم هو كذلك بسرعة. إن حركة الآلهة كلها مُسَرَّعَةٌ إلى درجة تكفي معها حصاة واحدةُ ترمى في دواليبها كي تنفجر الآلهة. وقد كان سقراط واحدة من هذه الحصيات، ففي ليلة واحدة تم تدمير تطور العلوم الفلسفية المنتظم بشكل رائع حتى ذلك الوقت، لكن السريع دون شك. ليس سؤالا عديم الفائدة أن نتساءل إن لم يكن أفلاطون قد عثر، بعد أن أفلت من

---

* مشرع أثينا الشهير ، وهو واحد من حكماء اليونان السبعة (م).

الافتتان بسقراط، على نموذج أسمى من الإنسانية الفلسفية، نموذج فقدناه الآن إلى الأبد. إن العين تبصر، وهي تسبر العصور التي سبقته، ما يشبه معملا ينحت فيه تمثال هذا النموذج. رغم ذلك فإن القرنين السادس والخامس يبدوان واعدين بأكثر وبأفضل مما قد أعطياه، لكنهما لم يتجاوزا الوعد والتباشير. قلما تكون هناك خسارة أفدح من فقدان النموذج، فقدان إمكانية حياة فلسفية جديدة وسامية، حياة ظلت مجهولة حتى ذلك الحين. إن أغلبية النماذج القديمة لايعرفها التقليد (tradition) جيدا، يبدو لي وصف كل الفلاسفة، من طاليس إلى ديمقريط، صعبا للغاية، لكن النجاح في إعادة خلق هذه الوجوه يعني استعراض أشكال النموذج الأكثر صفاء وقوة. هذه الكفاءة نادرة، والحق يقال، بل إنها كانت تنقص إغريق المرحلة المتأخرة الذين اشتغلوا بمعرفة الفلسفة القديمة. يبدو أرسطو، بالخصوص: وكأنه لايملك عيونا يرى بها حين يجد نفسه أمام هذه الشخصيات. وبذلك يبدو هؤلاء الفلاسفة الرائعون وكأنهم عاشوا دون جدوى، أو أن قدرهم كله لم يكن سوى تهييء الفيالق المتجادلة والثرثارة، فيالق المدارس السقراطية. قلت إن هنا ثغرة وتوقفا في التطور، لاشك أن مصابا عظيما قد حدث، والتمثال الوحيد الذي كان سيجعلنا نعرف معنى وهدف تمارين النحت العظيمة هذه ربما يكون قد تحطم أو لم يتم إنجازه : إن ماوقع فعلا قد بقي إلى الأبد سرّ المعامل – إن ما حدث لدى الإغريق – هو أن كل مفكر عظيم تحول إلى طاغية بفعل اعتقاده أنه قد ملك الحقيقة المطلقة، حتى أن تاريخ العقل قد اكتسى لديهم طابع العنف والتهور المحفوف بالمخاطر اللذان يشهد عليهما تاريخهم السياسي – إن هذا لم يكن كافيا لاستنزاف هذا النوع من الأحداث : لقد حدث الكثير مما يشبهها حتى العصور القريبة جدا إلى عصرنا، وإن كان ذلك يزداد ندرة كلما تقدمنا زمنيا، ويكاد الوقت الحاضر يخلو من وعي الفلاسفة الإغريق النقي والساذج. ذلك لأن الأطروحة النقيضة والشكوكية تتكلمان اليوم بصوت عالٍ جدا، وبوضوح كبير. إن مرحلة طغاة العقل قد ولت. لاشك أنه سيكون هناك بالضرورة سيادة في مناطق الثقافة العالية، – لكن السيادة توجد منذ الآن بأيدي أوليغارشي العقل*. إنهم يشكلون، رغم انقساماتهم الجغرافية والسياسية، مجتمعا متضامنا يتعارف أعضاؤه ويتعرفون على بعضهم، مهما تكن الآراء المؤيدة أو المضادة التي يتداولها الرأي العام، ومهما تكن أحكام الصحفيين وكتاب الروايات المسلسلة الذين يؤثرون في الطبقات الشعبية. إن التفوق الثقافي، الذي كان فيما مضى مصدر العزلة والعداوة قد صار الآن يخلق بالأحرى رابطا : كيف

* أوليغارشي (oligarque) = عضو في أومؤيد لحكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق منافع الذاتية . (المورد) .

سيمكن للأفـراد أن يثبتوا أنفسهـم ويتـبعوا طريقهـم الخاص خلال أمواج الحـياة، سابحين ضد التيـارات، إن لـم يروا أمثالهـم يـعيشون هنا وهـناك في ظروف مشابهـة ولـم يأخذوا بأيديـهم في صراعـهم ضد الطـبع الدهمانـي لنصف الـذكاء ونصف الـثقافة كـما ضد المحاولات المحتـملة لتوطيـد الطغيان بمساعدة عمل الـطبقات الشعـبية ؟ الأوليغـارشيون ضروريون لبـعضهـم البعض، فيـما بينهم يجدون فـرحتهم الكبرى ويدركـون العلامات التـي تميزهـم - لكن يـبقى كـل واحد منهـم حُراً مع ذلك، يـحارب وينـتصر لـطبقـته، مفضلا الهلاك على الخضوع.

262. هوميروس.

ويظل أهـم حدث في الثقـافة الإغريقية هـو إشعاع هوميـروس البكِّير على مـجموع العالم الهليني. كل الحرية الفكرية والإنسانية التي بلغها الإغريق ترجع إلى هذا الحدث. لكنه كان، في الوقت نـفسه، نكبة الثقافة الإغريقية، لأنه، ونظـرا لاستئثاره بكل شيء، قد نزع عنـها عمقها وقـضى على الجدية الكـبيرة للغرائز المـيالة نحو الاستـقلال. كانت أعماق الروح الهلينية، من حين لآخر، تجهر باحتجاجها ضد هوميروس، لكنه كان دائما ينتصـر. كل القوى الروحيـة الكبيرة تمارس، إلـى جانب تأثيرهـا التحريري، تأثـيرا آخر، تأثيرا مضطهدا؛ لكن هناك فرق، بكل تأكيد، بحسب الذي يضطهد الناس، هوميروس أو الإنجيل، أو العلم

263. مواهب طبيعة.

في خضـم إنسانيتنـا المتطورة بشـكل سام جدا تمنـح الطبيعة كـل واحد منا إمكـانية الحصول على مواهب متعددة. لكل واحد موهبة فطرية، لكنه نادرٌ من تُنعم عليه الطبيعة والتربية بهذه الدرجة من الصلابة، من التحمـل، ومن الطاقة التي ستمكنه من أن يصبح موهوبا فعلا، إذن أن يصير ماهو،أي أن يحيل موهبته آثارا وأعمالا.

264. النبهاء بين المغالاة في التقدير والانتقاص منه.

بعـض الأشخاص الأجـانب عن الـعلم، لـكن الموهـوبين، يُقدرون كـل مايدل عـلى العقل، ولايهم أن يكون صحيحا أو مجانبا للصواب، إنهم يريدون، قبل كل شيء، من الذي يـعاشرهم، أيـا كان، أن يتعـهدهم بلـطف من خلال عـقلهم، أن يُرشـدهم، أن يُحمسهم، أن يَجذبهم إلى الوقار كـما إلى المزاح، وأن يكون لهم، على كل حال، رُقْيَةً شديدة المفعول ضد الملل. ذوو الطباع العلمية يعرفون، على العكس من ذلك، أن موهبة التوقُّد أفكارا يـجب أن تمسك بمزمامها روحُ الـعـلم أكثر ما يمكن، إن الثمـرة التي ترغب

هذه الروح أن تُسقطها من شجرة المعرفة ليست هي مايلمع ويجذب بظاهره بل الحقيقة المجردة من الظاهر في الغالب. يمكن ألا تُفرقَ روح العلم، مثلها مثل أرسطو، بين «الملل» وبين «الروحي»، شيطانها يقودها عبر الصحراء كما عبر النباتات المدارية لكي تجد، في كل مكان، متعتها في الواقعي وحده، في الصَّلب، في الحقيقي. - ينتج عن ذلك، لدى العلماء المحدودي الأفق، نوعٌ من الازدراء، ريبةٌ بخصوص النابه بشكل عام، وغالبا ما تكون هناك، بالمقابل، عقول نابهة تبدي نفورا من العلم : مثلما هو شأن سائر الفنانين، على سبيل المثال.

265. العقل في التعليم.

ليس للمدرسة مهمة أكبر من تعليم الدقة في الفكر، الحذر في الحكم، المنطقية في التفكير : كما عليها أن تغض النظر عن كل ما لا يصلح لهذه العمليات، كالدين مثلا. بل يمكنها أن تعتبر أن اللبُّس والاعتياد والحاجة الإنسانيين سيعودون فيما بعد، رغم كل شيء، لإرخاء قوس الفكر الشديد التوتر. ومادامت تمارس تأثيرا فإن واجبها هو إبراز الشيء الأساسي والمميِّز في الإنسان : «العقل والعلم، ميزتا الإنسان الساميتان» - حسب حكم غوته على كل حال. - يجد عالم الطبيعة، فون باير، تفوق كل الأوروبيين، بالنسبة إلى الأسيويين، في قدرتهم المكتسبة على تبرير ما يعتقدونه، الشيء الذي يعجز عنه الآخرون تماما. لقد ولجتْ أوروبا مدرسةَ الفكر المنطقي والنقدي، وآسيا لازالت لاتعرف كيف تميز بين الحقيقة والشعر، ولا أن تتنبه بوضوح إلى ما إذا كانت يقينياتها تنبع من الملاحظات الشخصية ومن الفكر المنطقي أم من التخيلات المحضة. - إن العقل في التعليم هو الذي جعل من أوروبا ماهي عليه الآن : كانت إبان العصر الوسيط تسلك طريقا يقودها لأن تعود منطقة من آسيا، ملحقة لها، - أي لأن تفقد الروح العلمية التي هي مدينة بها للإغريق.

266. الغض من شأن نتائج التعليم الثانوي.

إننا نادرا ما نبحث عن قيمة الثانوية في الأشياء التي نتعلمها فيها والتي تغنينا بها إلى الأبد، بل نبحث عنها، على العكس من ذلك، في الأشياء التي يتم تدريسها فيها والتي لايتمثلها التلميذ إلا على مضض ليتخلص منها بأسرع مايمكنه. - كل المثقفين سيوافقون على أن قراءة الكلاسكيين هي، مثلما تمارس في كل مكان، روتين فظيع : أمام شبان ليسوا ناضجين بأي اعتبار من الاعتبارات كي يسمعوها يقوم بهذه القراءة أساتذة تكفي كل كلمة من كلماتهم، بل يكفي وجههم نفسه، ليُغْرِقَ مُؤَلِّفاً جيدا

وسط الغبار. وهنا بالضبط تكمن القيمة التي نجهلها عادة، ألا وهي كون هؤلاء الأساتذة يتحدثون لسان الثقافة العالية المجرد، وهو لسان ثقيل وعسير الهضم، ولكنه رياضة عالية للمخ، ذلك أنه تظهر باستمرار في هذا اللسان مفاهيم ومصطلحات تقنية ومناهج وتلميحات لايكاد هؤلاء الشبان يسمعونها أبدا في أحاديث عائلاتهم أو في الشارع. حين لا يفعل التلاميذ شيئا سوى الاستماع فإن ذكاءهم يتكيف مسبقا وبشكل تلقائي، من جراء ذلك، مع شكل علمي من التفكير. لايمكن أن يخرج التلميذ من هذه المادة ابنا خالصا للطبيعة، بعيدا كل البعد عن التجريد.

267. تعلم عدة لغات.

تعلم عدة لغات يشحن الذاكرة بالكلمات عوض الوقائع والأفكار، والحالة أن الذاكرة وعاء لا يمكنه أن يتلقى، بالنسبة لفرد معين، سوى كمية محدودة من المواد. هناك في هذا التعلم جانبا مضرا هو كونه يحمل المرء على الاعتقاد بأنه ذو مهارات وبأن هذا التعلم يجعله فاتنا في تعامله مع الناس؛ ثم كذلك، وبشكل غير مباشر، كونه يتعارض مع اكتساب معارف متينة ومع التصميم الراسخ على نيل احترام الناس بنزاهة، وأخيرا، إنه يقطع جذر ذلك الإحساس اللغوي الرقيق الذي نحس به تجاه لغتنا الأم : إنه يصاب من ذلك بضرر ودمار لاعلاج لهما. الشعبان اللذان أنجبا أكبر الكتاب الأنيقي الأسلوب، أي الأغريق والفرنسيون، لم يكونا يتعلمان اللغات الأجنبية. - لكن بما أن التعامل مع الناس يأخذ حتما صبغة عالمية أكثر فأكثر، وأن تاجراً لسندنيا جيدا، مثلا، قد أصبح ملزما بالتعبير عن مراده بثمان لغات، شفهيا كما كتابة، فيجب أن نُقر بأن دراسة عدة لغات هو شرٌّ لابد منه، لكنه شر سينتهي، عند بلوغه ذروته، بإرغام الإنسانية على إيجاد علاج له. وفي مستقبل بعيد، وغير محدد، ستكون هناك لغة جديدة بالنسبة لكل الناس، لغة تجارية أولا، ثم لغة معممة للتعامل الفكري، بالتأكيد مثلما ستوجد يوما ما ملاحة جوية. وإلا فلماذا تكون اللسانيات قد درست قواعد اللغة، لمدة قرن من الزمان، وَقَيَّمَتْ ما تحويه كل لغة من حتمية، من قيم، ومن تفوقات !

268. عن التاريخ الحربي لكل فرد.

في حياة الإنسان الواحدة التي تمر عبر عدة مراحل من الثقافة نجدُ مجموعاً ذاك الصراع الذي يدور بين جيلين، جيل الأب وجيل الإبن. وثاقة القرابة تزيد من حدة هذا الصراع، لأن كل طرف يقذف فيه، دون تحفظ، بالحياة الداخلية للآخر التي يعرفها جيدا، وهكذا يكون هذا الصراع أشد ضراوة داخل الفرد المنفصل، في هذه الحالة تتغاضى كل مرحلة جديدة عن المراحل السابقة بظلم قاس ينكر منها الغايات والوسائل.

269. السبق بفسحة زمنية.

يحدث أن نجد شخصا ترفعه أفكاره فوق زمانه، لكنها ترفعه فقط بما فيه الكفاية ليحدس الأفكار العامية للسنوات العشر الآتية .إنه يملك الرأي العام قبل أن يكون رأيا عاما، أي : إنه يعانق، فسحة زمنية قبل الآخرين، رأيا جديرا بأن يصير مبتذلا. ورغم ذلك فأن مَجْدَهُ عادة ما يكون أكثر بهاء من مجد العظماء والمتفوقين فعلا.

270. فن القراءة.

كل ميل محدَّد جدا فهو ميل قصير النظر. يقترب في اتجاهه من الخط المستقيم ويكون، مثله ، مانعا (exclusif) ، أي أنه لايسير في اتجاهات أخرى مثلما تفعل الأطراف والطباء الضعيفة في اهتزازاتها التموجية. إن كان الفلاسفة مانعين فيجب أن نتحمل منهم ذلك. إن تصحيح النصوص والتحدث إليها، وكذلك تفسيرها،اللذين دأبت عليهما هيأة ما، طيلة قرون، قد أديا في النهاية إلى العثور اليوم على الطرق الجيدة في تصحيح ومحادثة وتفسير النصوص. لقد عجز العصر الوسيط كلية عن تفسير النصوص تفسيرا فيلولوجيا بحصر المعنى، أي عجز عن الرغبة المجردة والبسيطة في فهم ما يقوله الكاتب. لقد كان اكتشاف هذه الطرق شيئا جديرا بالإهتمام، لذا وجب أن لا نغض من شأنه ! لم تكتسب كل العلوم استمرارية وثباتا إلا حين بلغ فن القراءة الجيدة، أي فقه اللغة، ذروته.

271. فن التفكير.

إن أكبر تقدم حققه الناس هو كونهم تعلموا أن يفكروا بدقة. ليس هذا شيئا طبيعيا جدا مثلما يفترضه شوبنهاور حين يقول «كل الناس قادرون على التفكير، قليل من الناس من يستطيع أن يُصدر حكما»، ولكن التفكير شيء تم اكتسابه بشكل متأخر ولازال لم يثبت سلطته. في العصور القديمة، كان التفكير الخطأ يشكل القاعدة : وميثولوجيات كل الشعوب، سحرها وخرافتها، عبادتها الدينية، قانونها، كل هذا مَعين لاينضب من الحجج المؤيدة لهذا الإفتراض.

272. مراحل الثقافة الفردية.

إن قوة وضعف الإنتاجية الفكرية لايجب أن يتوقفا كثيرا على المواهب الطبيعية الموروثة ولا على كمية الطاقة التي يتم تلقيها عند الولادة. فأغلب الشباب المثقفين، حين يبلغون الثلاثين من العمر، يعودون أدراجهم انطلاقا من هذا المُنّقَلَب* المبكر في حياتهم

---

*solstice انقلاب الشمس الشتائي أو الصيفي . (المنهل) .

ويفقدون منذ ذلك الحين ذوق اتجاهات ثقافية جديدة. تحتاج الثقافة التي لا تتوقف عن النمو، من أجل خلاصها، إلى جيل لن يتقدم رغم ذلك إلا قليلا : إذ لكي يسترد ابن ثقافة أبيه سيكون عليه أن ينفق تقريبا كل الطاقة الموروثة التي كان أبوه يمتلكها في تلك اللحظة التي انجبه فيها؛ إن الفائض القليل من الطاقة هو الذي يُمَكنه من الذهاب أبعد من أبيه(لأننا حين نمر من نفس الطريق للمرة الثانية فإننا نتقدم بسرعة أكبر. والإبن، لكي يتعلم ماكان أبوه يعرفه تماما، لا يستهلك نفس القدر من الطاقة الذي استهلكه أبوه). إن رجالا أغنياء بالطاقة، كغوته مثلا، يقطعون هم لوحدهم من الطريق مقدار ما قد تقطعه أربعة أجيال متعاقبة، ومع ذلك يتقدمون بسرعة بحيث لن يلتحق بهم الآخرون إلا في القرن الموالي، وربما لن يلحقوا بهم أبدا، نظرا لكون هذه التوقفات المتكررة قد أضعفت وحدة الثقافة واستمرارية تطورها. - أما فيما يتعلق بالمراحل العادية للثقافة الفكرية المكتسبة عبر تاريخ الإنسانية فإن الناس يجتازون الواحدة منها تلو الأخرى بشكل أسرع. إنهم، حاليا، يبدأون أول اتصالهم بالثقافة من خلال العواطف الدينية التي تعرفها مرحلة الطفولة، وفي غضون عشر سنوات يكونون قد أوصلوا هذه الأحاسيس إلى أقصى درجات حرارتها، ليمروا بعد ذلك إلى أشكال ملطفة (وحدة الوجود) وهم يقتربون من العلم، يتركون الإله والخلود وأشياء أخرى من نفس الصنف بعيدا جدا وراءهم، لكن ليستسلموا لسحر فلسفة ميتافيزيقية. وتنتهي هذه هي الأخرى بأن تبدو لهم غير جديرة بالتصديق، ويبدو الفن، بالمقابل، أنه يمنحهم أكثر بحيث أنه، لبعض الوقت، قلما يبقي أو يحيي من الميتافزيقا إلا ما يمكن أن يتحول إلى فن، وإلا فحالة روحيةً تم تجميلها. لكن العقل العلمي يزداد إلحاحا ويقود الإنسان المُكَوَّنَ إلى العلوم الطبيعية، إلى التاريخ، وخصوصا إلى طرق للمعرفة صارمة جدا، بينما يجد الفن نفسه وقد حظي باهتمام يصير ضعيفا وباهتا أكثر فأكثر. في الوقت الحاضر، عادة ماتعرف السنوات الثلاثين الأولى من حياة الفرد كل هذا. إنها خلاصة المهمة التي ربما خصصت لها الإنسانية ثلاثين ألف سنة من العمل المضني.

273. العودة إلى الخلف لأجل انطلاق أفضل.

لاشك أن الذي لاتزال الأحاسيس الدينية، في أيامنا هذه، تشكل منطلقا لتصوره، ويتابع حياته في ظل الميتافزيقا والفن لبعض الوقت، لا شك أنه قد تأخر مسافة طويلة وأنه سيبدأ سباقه مع الناس العصريين الآخرين في ظروف غير مؤاتية : يظهر أنه يتقهقر ويضيع الوقت. لكن بما أنه تأخر في هذه الممالك حيث تتحرر الحماسة والطاقة، حيث لايفتأ سيل بركاني يتفجر بغزارة من معين لا ينضب، فإنه سيتقدم بسرعة بمجرد ما

ينفصل عنها في الوقت المناسب. قدمه مجنحة، صدره قد تعلم كيف يتنفس بهدوء، تنفسا أطول وأكثر تحملا. – لقد عاد إلى الخلف حتى يكون أمامه فضاء كاف قبل أن يقفز : بل يمكن أن يكون له بذلك، في العودة إلى الخلف، شيء مرعب، شيء مهدد.

274. جزء من أنانا كأثر فني.

إنه لدليل ثقافة منفوقة أن نتمكن من الوعي ببعض مراحل التطور التي يمر بها الأشخاص القليلو الذكاء دون أن يفكروا فيها تقريبا ثم يمحونها من سبورة روحهم، وأن نثبتها ونرسم لها صورة صادقة : لأن هذا هو أسمى أنواع الرسم الذي لا يفهمه إلا القليلون جدا. ولكي نقوم بذلك لابد أن نتكلف عزل هذه المراحل. الدراسات التاريخية تؤهلنا لهذا النوع من الرسم، فهي تدعونا باستمرار، بخصوص جزء من التاريخ، من حياة شعب أو فرد، إلى تصور أفق أفكار محدد بشكل جيد، إلى تصور قوة معينة من الأحاسيس، إلى تصور هيمنة هذه الأحاسيس وتراجع تلك الأفكار. أن نستطيع إعادة تشكيل مثل أنظمة الأفكار والأحاسيس هذه انطلاقا من معطيات معينة، مثلما نعيد بناء مشهد معبد ما من خلال بعض الأعمدة وبعض شقوق الجدران التي بقيت واقفة بالصدفة، هذا هو قوام الحس التاريخي. إن نتيجته الأولى هي أن يجعلنا نفهم أمثالنا مثل الكثير من الأنظمة المحددة، كممثلين لثقافات متعددة، أي مثل الكثير من الضروريات، ولكنها ضروريات متغيرة؛ وأن يسهل علينا، بالمقابل، وسائل عزل بعض أجزاء تطورنا الخاص كي نوفر لها مكانا منفصلا.

275. الكلبيون والأبيقوريون.

يتنبه الكلبي* لدى المتحضر المتفوق، إلى العلاقة الموجودة بين معاناته المتعددة والمكثفة وبين مجموع حاجياته. إنه يفهم إذن أن مثل هذه الكمية من الآراء حول الجميل والمناسب والائق والممتع ستفجر ينابيع غزيرة من المتعة ومن الإشمئزاز. إنه يختار، طبقا لهذه الأراء، أن يتراجع، متخليا عن الكثير من هذه الآراء، ومتملصا من بعض متطلبات الحضارة : إنه يربح في ذلك التراجع إحساسا بالحرية وبقوة مزيدة، وشيئا فشيئا، كلما جعلت العادة نوع الحياة التي يحياها مطاقةً لديه، كلما تكونت لديه أحاسيس بالاشمئزاز أندروأضعف من أحاسيس المتحضرين، وكلما اقترب من الحيوان الأليف. فضلا عن ذلك، إنه يشعر في كل الأشياء بلذاعة التناقض، ثم... يمكنه كذلك

* واحد من مجموعة فلاسفة يونانين آمنوا بأن الفضيلة هي الخير الأوحد وبأن جوهرها هو ضبط النفس (مترجم)

أن يرغي ويزبد فرحا، وبفضل ذلك يسمو من جديد فوق عالم الأحاسيس الحيوانية. للأبيقوري* نفس وجهة نظر الكلبي، ليس بينهما عادة إلّا فرق واحد في المزاج. ثم إن الأبيقوري يستخدم ثقافته الواسعة كي يصير مستقلا عن الآراء السائدة، إنه يتسامى عليها، بينما الكلبي يقتصر على نفيها. الأبيقوري يتجول كما لو في ممرات من الظُّلَيِّل اللطيف، محمية من هبوب الريح، بينما فوق رأسه تَجْأرُ قمم الأشجار التي تكشف له قوةَ الريح التي تهز العالم في الخارج، الكلبي، على العكس من ذلك، يمشي خارجاً، شبه عار، هنا وهناك وسط الزوابع، ويتصلب فيها إلى حد فقدان الإحساس.

276. عالم الحضارة الأصغر والأكبر.

يقوم الإنسان بأفضل اكتشافاته للحضارة في ذاته هو حين يجد فيها قوتين غير متجانستين. لنفترض أن شخصا يحيا بشكل مكثف من أجل حب الفنون التشكيلية والموسيقى لدرجة أن روح العلم استخفه، وأنه تنبه إلى استحالة إزالة هذا التناقض بالقضاء على إحدى هاتين القوتين وتطوير الأخرى تطويرا كاملا، حرا، فإنه لن يتبقى له إلا أن يجعل من نفسه أثرا (monument) ثقافيا شاسعا حتى تسكنه هاتان القوتان ولو في طرفين متقابلين، في الوقت الذي تسكن فيه بينهما قوى أخرى مُوَفِّقَة ومُصالحة، متوفرة على قوة مُرَجِّحَة تستخدمها، عند الضرورة، لتهدىء الصراع حين ينفجر. والحال أن أمر الثقافة الفردية والشخصية هذا سيشبه إلى حد كبير صرح حضارة عصور بأكملها وسيعطي، عن طريق القياس، سلسلة متوالية من التعاليم بهذا الشأن. لأن مهمة معمار الحضارة الكبير كانت، حيثما نشأ هذا المعمار، هي إجبار القوى المتصارعة على التصالح، وذلك بجمع القوى الأخرى القليلة القابلية لعدم التصالح بحيث تتمكن من التفوق، لكن دون أن تُضْطَهَدَ القوى الأولى أو تُقَيَّدَ.

277. السعادة والثقافة.

إن منظر مشاهد طفولتنا يؤثر فينا : البيت الصغير في الحديقة، الكنيسة وقبورها، البركة والغابة، - لانرى هذه الأشياء مرة أخرى إلا والروح حزينة. أننا نشفق على أنفسنا، لأننا عانينا كثيرا منذ طفولتنا. وهي ذي الأشياء قد ظلت كلها هادئة وخالدة، نحن فقط من تغير كثيرا، نحن جد متأثرين، بل إننا نلتقي بعض الأشخاص الذين لم يَضْرَسْهُمُ الزمن مثلما لم يضرس البلوط : فلاحين، صيادين، سكان الغابات... كلهم

* منغمس في الملذات الحسية ، ومنسوب إلى الفيلسوف اليوناني ، أبيقور ، الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى ، والفضيلة هي مصدرها (المترجم)

لم يتغيروا. – التأثر والرأفة بالنفس اللذان يتم الإحساس بهما في حضرة ثقافة دنيا هما علامة ثقافة رفيعة. من ثمة يبرز أن هذه الثقافة لم تزد في السعادة. إن الذي ينتظر من الحياة محصولا من السعادة ومن الرفاهية سيكون عليه، هو بالضبط، أن يسلك سبيلا غير سبيل الثقافة الرفيعة.

278. مماثلة الرقص.

حاليا، يجب أن يعتبر امتلاك القوة والمرونة اللتين تمكنان المرء من أن يكون صادقا وصارما في المعرفة، ومن أن يكون قادرا، في أوقات أخرى، على التقدم تقدما شبه كبير بالشعر والدين والميتافزيقا، وأن يشعر بقوة ذلك وبجماله، يجب أن نعتبر ذلك علامة رئيسية على ثقافة كبيرة. إن مثل هذا الوضع الواقع بين مُتَطَلَّبَيْنِ مختلفين لهو وضع صعب،لأن العلم يميل لأن يهيمن كلية على طريقة، وإن لم تتم الاستجابة لهذا الميل فإن خطرا آخر سينجم عنه ألا وهو التردد والمراوحة بين دوافع مختلفة. غير أننا، كي نفتح بعض الآفاق على حل هذه الصعوبة، ولو من خلال مقارنة، سَنُذَكِّرُ بأن الرقص لا يُختزل في جيئة وذهاب غامضين ومترنحين بين دوافع مختلفة. والثقافة الرفيعة تشبه الرقص الجسور : لابد فيها، مثلما قلت، من كثير من القوة والخفة.

279. تلطيف الحياة.

إحدى وسائل جعل الحياة أكثر بساطة هي أُمْثَلَةُ كل أحداثها. ومن المناسب أن نطلب من الرسم إعطاءنا فكرة واضحة عن الأمثَلة. يتطلب الرسام من المشاهد ألا ينظر إلى لوحته من مسافة قريبة جدا، ألا تكون نظرته شديدة النفاذ، يجبره على التراجع قليلا إلى الوراء كي يتأمل اللوحة عن بعد. والرسام مجبر على أن يفترض مسافة محددة بين المشاهد واللوحة، بل عليه أن يقُر بتوفر المُشاهد على درجة إبصار محُدَّدَة هي الأخرى، ولا يسمح له بأي تردد بشأن هذه المواد. فكل من أراد أن يُؤَمْثِلَ حياته سيكون عليه ألا يحاول النظر إلى تفاصيلها، سيكون عليه دائما أن يُرْغِمَ نظره على الرجوع إلى الوراء مسافة معينة. وهذا ما كان غوته، مثلا، يتقنه جيدا.

280. حيث ما يرهق يخفف، والعكس.

كثير من الأشياء التي تزيد من ثقل عبء الحياة، في بعض مستويات الإنسانية، تخفف منه في مستوى أعلى، لأن أفراد هذا المستوى قد تعلموا أن يتحملوا أشد الأعباء إرهاقا. يحدث العكس كذلك : وهكذا فإن الدين، مثلا، له وجهان، بحسبما نرفع نظرنا إليه كي نتخفف من ثقلنا وضيقنا، أو ننظر إليه من أعلى كما إلى الأغلال التي تم تقييدنا بها لنمنع من الإرتقاء عاليا في السماء.

281. الثقافة الرفيعة غير مفهومة حتما.

إن الذي جعل لآلته وترين فقط، مثل العلماء الذين ليس لهم، علاوة على غريزة المعرفة، سوى غريزة دينية مُكتسَبة، لا يفهم الناس الذين يعرفون العزف على أوتار أخرى. من سمات جوهر هذه الثقافة الرفيعة المتعددة الأوتار أن يُساء فهمُها دائما من طرف الثقافة الدنيا، مثلما يحدث، مثلا، في كل مرة يعتبر فيها الفن شكلا مُقَنَّعا من أشكال التدين. بعض الناس، الذين ليس لهم إلا الدين، يذهبون إلى حد اعتبار العلم نفسه بحثا عن عاطفة دينية، تماما مثلما الصم البكم يجهلون ماهية الموسيقى بعيدا عن كونها حركة ظاهرة.

282. عويل.

ربما تكون مزايا عصرنا هي التي تسبب العودة إلى الوراء و، عند الإقتصاء، الحط من قيمة الحياة التأملية. لكن يجب أن نعترف لأنفسنا بأن عصرنا فقير من حيث الأخلاقيين الكبار، حتى أن باسكال،Epictéte ، سينيك، بلوتارخ، قلما يُقرأون، والعمل والحماس (اللذان كانا فيما مضى جزء من حاشية الإلهة الكبيرة التي هي الصحة) يبدوان أحيانا وكأنهما يعيثان كمرض. بما أن وقت التفكير وهدوء الفكر غائبان هما كذلك فإن الآراء التي تحيد عن القاعدة لم تعد تُقَيَّم : يكتفي الناس بمقتها. تَسَارُعُ الحياة الهائل يُعَوِّدُ العقل والعين على رؤية وعلى حكم جزئيين أو خاطئين، فيبدو كل الناس مثل أولئك المسافرين الذين يتعرفونَ على البلدان وعلى الناس دون أن يغادروا سكة الحديد. إن موقفا مستقلا ودقيقا في البحث عن الحق يُعتبر نوعا من الجنون، والمفكر الحر يرى نفسه مُحقَّرا، خاصة من طرف علماء أَحْزَنَهُمْ ألا يجدوا في فنه في تأمل الأشياء دقتهم الأساسية وتَشَاغُلَهُمْ كالنحل، ويودون لو ينفونه إلى زاوية منعزلة من زوايا العلم : بينما مهمته هو مختلفة تماما وسامية جدا ،وهي أن يقود، من مكانه على الهامش، العلماء والبحاثة بقضهم وقضيضهم ليريهم سبل الثقافة وأهدافها. – إن العويل الذي استمعنا إليه سينتهي أوانه ذات يوم، وسيصمت من تلقاء نفسه آنذاك، حين تكون عبقرية التأمل قد عادت وهي في كامل قوتها.

283. عيب الرجال النشيطين الكبير.

إن ما ينقص الرجال النشيطين عادة هو النشاط الراقي، أعني النشاط الفردي. إنهم يتصرفون بوصفهم موظفين، تجار ، علماء، أي بصفتهم ممثلين لصنف وليس كأفراد لهم فردانية محددة المعالم جيدا، إنهم، بهذا الاعتبار، كسالى. – إنها لتعاسة الرجال النشيطين أن نشاطهم يكاد دائما يكون غير معقول شيئا ما. لن نستطيع، مثلا، أن نسأل

الموظف البنكي الذي يدخر المال عن الهدف من نشاطه المحموم : فنشاطه ليس وراءه أي سبب. الرجال النشيطون يتدحرجون مثلما تتدحرج الصخرة، طبقا لعبثية الإوالة. - كل الناس ينقسمون إلى عبيد وأحرار، يصح هذا في أيامنا هذه مثلما صح في كل العصور، لأن الذي لايملك الثلثين من يومه فهو عبد،وليكن ما يشاء : رجل دولة، بائعا، موظفا، أو عالما.

284. لصالح العاطلين.

من علامات انخفاض قيمة الحياة التأملية كون العلماء ينافسون الرجال النشيطين في نوع من المتعة النشيطة حتى إنهم ليبدون وكأنهم يعتبرون هذه الطريقة في التمتع أرفع من تلك التي تناسبهم على نحو ملائم والتي تَمُتُّ بصلة أكثر، في الحقيقة، إلى المتعة. يخجل العلماء من البطالة (Otium). ومع ذلك فإن الفراغ والاستهتار شيء نبيل. - إن صح أن البطالة أم الرذائل فإنها على الأقل تجد نفسها، بكونها كذلك، أقرب ماتكون إلى الفضائل. العاطل دائما ينتصر، باعتباره إنسانا، على المتشاغل. - لكن بذكر الفراغ والبطالة لاتحسبوا أنكم أنتم المقصودون، بعد كل حساب، أيها الكسالى ؟...

285. القلق العصري.

كلما اتجهنا نحو الغرب نجد أن القلق العصري لايفتأ يزداد إلى درجة أن سكان أوربا يظهرون في عيون الأمريكيين مُحبين للراحةوالمتعة، والحال أنهم يكدون جديا كنحل وزنابير متشابكين أثناء الطيران. يتزايد هذا القلق بشكل كبير حتى أن الثقافة الرفيعة لم يعد لها وقت تنضج فيه ثمارها، وكأن الفصول صارت تتعاقب بسرعة مفرطة. في حالة فقدان السكينة فإن حضارتنا ستفضي بنا إلى همجية جديدة. ماحظي الرجال النشيطون، أي القلقون، في أي عصر من العصور باحترام أكبر من الذي يحظون به في هذا العصر. إن إحدى التضحيات الضرورية التي علينا أن نباشر إدخالها على طبع الإنسانية ستكون هي تقوية العنصر التأملي فيها إلى حد كبير. إن كل فرد يملك هدوء وَحَزْمَ القلب والعقل له الحق في أن يعتقد بأنه يملك، ليس فقط مزاجاطيبا، بل مزيةً ذات نفع عام، وبأنه يؤدي مهمة نبيلة بمحافظته على هذه المزية.

286. موضع بلادة الرجل النشيط.

أعتقد أنه يجب أن يكون لكل إنسان رأيه الشخصي في كل شيء قابل لأن نبدي الرأي فيه، لأن الإنسان هو نفسه شيء متميزو فريد يَشْغَلُ، بالنسبة لكل الأشياء الأخرى، وضعا جديدا وأصيلا. لكن البلادة المتجردة في روح الرجل النشيط تمنعه من

أن ينهل الماء من منبعه. - ينطبق على حرية الرأي ماينطبق على الصحة : فرديتان كلاهما، ولن نستطيع أن نضع لأي منهما قواعد عامة. فما يُعتبر ضروريا لصحة فرد مايكون بالنسبة لآخر سببا للمرض، والكثير من السبل ومن الوسائل المؤدية إلى حرية العقل قد لاتشكل، بالنسبة لطباع ذات مستوى عال من التطور، إلا سبلا ووسائل تؤدي لفقدان الحرية.

287. ناقد الحياة.

لمدة طويلة يميز تناوب الحب والكراهية الحالات الباطنية لدى الإنسان الذي يريد أن يبلغ الحرية في حكمه على الحياة. إنه لاينسى شيئا، وينسب كل شيء، بما في ذلك الخير والشر، إلى الأشياء. وفي النهاية، بعد أن تكون تجاربه قد كتبت سبورة روحه كاملة، يتوقف عن كراهية الوجود، دون أن يحبه كذلك، ليظل في الأعلى، ملقيا تارة نظرة فرح وتارة نظرة حزن، وشاعراً، مثل الطبيعة، تارة بالصيف وتارة بالخريف.

288. نتيجة مزدوجة.

إن الذي يريد جديا أن يتحرر سيفقد في تحرره،في نفس الوقت ودون أي إكراه، ميوله المعُيبة والمعَيبة، وستصير سَوْرات غضبه وغيظه نادرة أكثر فأكثر. ذلك أن إرادته لن ترغب بإلحاح سوى في المعرفة وفي وسيلة بلوغها، أي في تلك الحالة الدائمة التي سيكون فيها أهلا للمعرفة.

289. ميزة المرض.

قد يحدث للمريض المستلقي في فراشه أن يكتشف أنه يكون، بقية الوقت، مريضا بعمله، بأشغاله أو برفاقه، وأن مرضه ذاك قد أفقده كل شعور واضح بالذات : إنه يستنتج هذه الحكمة من ذات الفراغ الذي أرغمه عليه مَرَضُهُ.

290. انطباع ريفي.

حين لا تكون هناك معالم جلية وهادئة في أفق حياة الإنسان، مثلما للجبال والغابات، فإن إرادته تصير في أعماق ذاتها قلقة، شاردة الذهن ومتلهفة مثل روح الإنسان الحضري : لاهو بالسعيد ولاهو يمنح السعادة.

291. حذر العقول الحرة.

لن يلبث أصحاب العقل الحر، الذين لا يحيون إلا للمعرفة، أن يبلغوا الهدف الظاهر من وجودهم، أن يبلغوا وضعهم النهائي إزاء المجتمع وإزاء الدولة، سيعلنون أنهم

راضون، مثلا، بعمل بسيط أو بملك كاف لضمان حياتهم، لأنهم سيتدبرون أمرهم ليعيشوا بطريقة تجعل تغيرا كبيراً في المالية العامة، بل حتى اضطرابا في النظام السياسي لايسبب، في نفس الوقت، خرابهم. إنهم يخصصون لهذه الأمور أقل قدر ممكن من طاقتهم، وذلك حتى يغوصوا في مادة المعرفة بكامل قواهم وبنفسهم الطويل. هكذا سيمكنهم أن يأملوا الهبوط كثيرا إلى الأسفل وربما أيضا أن يبصرو حتى العمق. – إن مثل هذا العقل سيروق له ألايأخذ من حادثة ما إلا هُدبا واحدا، إنه لا يحب الأشياء التي ثنياها ضخمة وطويلة : لأنه لا يريد أن تعرقله طياتها. – إنه يعرف أيام الأسبوع، يعرف غياب الحرية، يعرف التبعية والعبودية. لكنه يحتاج، من حين لآخر، إلى يوم أحد يستريح فيه، وإلا فلن يطيق الحياة. – من المرجح أن حتى حبه للناس سيكون حَذِراً وذا نَفس قصير شيئا ما، لأنه ينوي ألا يدخل في علاقة مع عالم الأهواء والعمى إلا بقدر ما يتطلبه سبيل المعرفة. إنه لايسعه إلا أن يلجأ إلى عبقرية العدالة ليرافع قليلا لصالح مريده ومحميه إن اتهمه البعض بالفقر من حيث الحب. – هناك في طريقته في الحياة بطولة مرهفة تأبى، مثل أختها الفظة، أن تبجل الجموع، وبصمت تَعْبُر العالم كما بصمت تغادره. مهما تكن المتاهات التي يمر منها، مهما تكن الصخور التي بينها عانى مجراه من الإنحصار أحيانا، فإنه بمجرد ما يعود إلى السطح يتابع جريانه الصافي، اللطيف، والذي لايكاد يشوبه ضجيج، ويدع أشعة الشمس تناسب حتى أعماقه.

292. إلى الأمام.

لنسر إذن إلى الإمام في طريق الحكمة، بخطوة حازمة، وبكامل الثقة في النفس ! أياً تكن، استغلَّ منبع التجربة الذي تشكله أنت ذاتك ! أَلْقِ عنك عدم الرضى الذي يأتيك من كينونتك، اغفر لنفسك أناك، لأن فيك، في كل الحالات، سلما من مائة درجة يمكنك أن ترتقيه إلى المعرفة. القرن الذي تغتم فيه بشعورك أنك مرفوض يعلنك سعيداً بأن يكون لك هذا الحظ، إنه يؤنبك بقوله إنه منحك نصيبا من التجارب التي قد يستغني عنها دون شك رجال عصور أخرى .لاتحتقر تدينك فيما مضى، اكتشف معنى أن تكون قد وجدت رسميا، في ما مضيا، منفذا إلى الفن. ألست تملك، من هذه التجارب بالضبط، القدرة على إعادة تشكيل مراحل هائلة من عمر الإنسانية التي سبقتك، بفهمك لها فهما أفضل ؟ أليس بالضبط على هذه التربة التي تغيظك كثيرا بعض الأحيان، على أرض الفكر المدنَّس هذه، قد نمت أجمل ثمار حضارتنا القديمة ؟ يجب أن تكون قد أحببت الدين والفن مثلما أحببتَ أُمٌّ وأرضعتْ، – ليست هناك حكمة غير هذه. لكن عليك أن ترى أبعد منهما، عليك أن تُفلت منهما عبر الأعلى،

فأن تظل خاضعا لسحرهما الفتان يعني عدم فهمك لهما. لاشك أن التاريخ هوالآخر مألوف لديك، وكذلك اللعب الحذر بكفتي المنزان : «من ناحية... من ناحية أخرى». عُدْ أدراجك، تَقَف الآثار التي وصمت بها الإنسانية رحلتها الكبيرة والشاقة عبر بيداء الماضي : هكذا، وبشكل أكيد، ستعلم الإتجاه الذي لن تستطيع الإنسانية، في المستقبل، أن ترجع من خلاله أو سترُغم على عدم العودة م خلاله. وفي الوقت الذي ستنزع فيه بكل قواك إلى أن تتبين عن طريق الإستباق كيف تنعقد عقدة المستقبل فإن حياتك ستكتسب من ذلك قيمةَ أداة المعرفة ووسيلتها. إنك تملك سلطة أن تجعل كل لحظات حياتك : من محاولات، أخَطاء، زَلات، أوهام، أهواء، حبك وأملك، أن تجعلها تنسجم تماما مع الهدف الذي رسمْته لحياتك. هذا الهدف هو أن تصير أنت نفسك سلسلة ضرورية تضم حلقات الحضارة، وأن تخلُص من هذه الحتمية إلى حتمية تقدم الحضارة العالمية. حين يكون بصرك حادا جدا كي يغوص في أعماق بئر كينونتك ومعرفتك الغامض، فمن المحتمل أن تبدو لك على صفحة مائه اللامع المعجزات البعيدة للحضارات الآتية. أتظن أن حياة ترمي إلى هدف كهذا ستكون شاقة جدا وعارية تماما من كل لذة ؟ إنك إذن لازلت لم تعلم أنه ليس هناك عسل أشهى من عسل المعرفة، وأنه سيشرق اليوم الذي تكون فيه السحب التي تجر الكدر ثديا ترضع منه حليب تسليتك. ستتقدم في السن، وستدرك آنذاك حقا أنك أصغيت إلى صوت الطبيعة، تلك الطبيعة التي تحكم العالم كله باللذة : نفس الحياة التي تنتهي بالشيخوخة تنتهي كذلك بالحكمة، بالصفاء اللطيف لهذه الشمس التي هي فرحة العقل الدائمة. السن والحكمة، ستلقاهما معا على ذروة واحدة من ذرى الحياة، كذلك شاءت الطبيعة. آنذاك سيكون الأوان قد حان كي يقترب ضباب الموت، لكن ليس ليغيظك. قفزة واحدة إلى النور ستكون آخر حركاتك، هتاف حماسي بالمعرفة سيكون آخر أنفاسك.

الكتاب السادس

الإنســـان في المجتمع

293. كتمان عطوف

غالبا ما نـحتاج، في معاشرتنـا للناس، إلى كتمان إرعـائي نتظاهر من خلالـه بأننا لم نكتشف دواعي تصرفهم.

294. صور.

إننـا عادة ما نصـادف صورا من النـاس المتفوقـين، وكما اللـوحات فإن هذه الـصور تعجب أغلب الناس أكثر من الأصل.

295. الخطيب.

قد نلـقي خطبا وثيـقة الصلة بالمـوضوع وجيدة جدا إلى حـد يصبح معه كـل الناس محتـجين وكأنها عكـس ذلك : كذلك يكون حـال كل الناس حين لايكـون الخطاب موجها إليهم.

296. نقص الحميمية.

نقص الحميمية بين الأصدقاء عيب لايمكن ذمه دون جعله مستعصيا على العلاج.

297. عن فن العطاء.

إن شعور المرء بأنه مرغـم على رفض عطاء ما، لمجرد أنه لم يُمْنَحْهُ بالطـريقة الملائمة، يجعله يغتاظ من الذي أعطى.

298. أخطر المتحزبين.

هناك في كل حزب إنـسان يدفع الآخرين إلى الإرتداد بسبب نـشره مبادئ الحزب بيقين مفرط.

299، المريض وناصحوه.

إن الذي يسدي النصائح للمريض يشعر بالتفوق عليه، سواء قُبلت نصائحه أو رفضت. لهذا يكره المرضى الأباة والحساسون ناصحيهم أكثر مما يكرهون مرضهم.

300. نوعا المساواة.

يمكن أن تتمظهر الحاجة إلى المساواة في محاولة المرء خفض كل الأخرين إلى مستواه (بالحط من قيمتهم، بتجاهلهم، بنصب الشراك لهم)، أو في محاولة الإرتفاع إليهم (بإنصافهم، بمساعدتهم، بالإستمتاع بنجاحاتهم).

301. ضد الحرج.

إن أفضل وسيلة لمساعدة الواقعين في حرج شديد وطمأنتهم هي الثناء عليهم بعزم.

302. إيثار بعض الفضائل.

قبل أن نضفي قيمة على إحدى فضائلنا علينا أن نلاحظ أن خصمنا لاتتوفر فيه تلك الفضيلة إطلاقا.

303 . لماذا المعارضة.

غالبا ما نعارض رأيا ما بينما نحن لانشعر بالنفور إلا من الطريقة التي بها تم التعبير عنه.

304. الثقة والألفة.

الذي يبذل جهده ليقتحم ألفة شخص آخر لا يكون عادة واثقا من كسب ثقته. فالواثق من كسب الثقة لايولي الألفة قيمة كبيرة.

305. توازن الصداقة.

يحدث، في علاقتنا مع شخص آخر، أن يعود للصداقة توازنها الصحيح بمجرد ما نضع حبات من الخطأ في كفتنا.

306. أخطر الأطباء.

أخطر الأطباء هم أولئك الكوميديون بالفطرة الذين يقلدون الأطباء بالفطرة ببراعة جعلها الخداع فائقة.

307. حين تكون المتناقضات في محلها.

لانحتاج أحيانا، كي نجعل الأذكياء يدعمون أطروحة ما، إلا إلى تقديمها في شد تناقض هائل.

308. وسيلة إقناع الشجعان.

وسيلة جعل الشجعان يدعمون عملا ماهي أن نصوره لهم أخطر مما هو فعلا.

309. اللطافة.

اللطافة التي يبديها لنا الذين لانحبهم نعتبرها جريمة.

310. الانتظار.

الوسيلة الناجعة لإغضاب الناس وبث أفكار خبيثة في رؤوسهم هي جعل ينتظرون طويلا. وهو شيء يؤدي إلى اللاأخلاقية.

311. ضد المألوفين جدا.

يعتقد الذين يمنحوننا ثقتهم تامة وكاملة أنه يحق لهم بذلك نيل ثقتنا. ب التفكير، فالهدايا التي نمنحها لاتخولنا أي حق.

312. تعويض.

إذا أسأنا إلى شخص آخر فإنه يكفينا، في الغالب، أن نتيح له الفرصة ليمزح - حسابنا حتى نرضيه شخصيا، بل لنجعله في أحسن حال تجاهنا.

313. غرور اللسان.

سواء أخفى الإنسان عيوبه ورذائله أو اعتراف بها صراحة فإن غروره هو ال يرغب أن يجد امتيازه في ذلك في كل الحالات : يكفي أن نلاحظ الدقة التي يميز أمام من يُخفي هذه الخاصيات وأمام من يتظاهر بالصراحة والصدق.

314. الاعتبارات .

قد يكون عدم الرغبة في جرح أي شخص أو الإساءة إليه علامة إنصاف وقد يكـ علامة خجل.

315. لاغنى عنه في الجدل.

لاينبغي لمن لايعرف ضبط أعصابه أن يقتحم نار المناقشة.

316. المعاشرة والعجرفة

ينسى المرء العجرفة حين يعلم أنه وسط أهل الاستحقاق، الوحدة هي التي تؤصل فيه الصلف. الشبان متعجرفون لأنهم يعاشرون أقرانهم الذين يحبون إعطاء أهمية كبيرة لأنفسهم، وكأنهم ليسوا بشيء.

317. علة الهجوم.

لانهاجم شخصا ما لمجرد إيذائه أو الإنتصار عليه، بل ربما لكي نختبر قوته فقط.

318. المجاملة.

يلجأ الأشخاص الذين يريدون، بالمجاملة، أن ينوموا الحذر الذي نلتزمه في علاقتنا معهم، إلى وسيلة خطرة، إلى نوع من المنوم الذي إن لم يجلب النوم فإنه يتركنا أكثر تيقظا.

319. المترسل الجيد.

الذي لايؤلف كتبا ولايفكر جيدا أو يحيا في مجتمع لايكفيه عادة ما يكون كاتب رسائل جيد.

320. أقبح ما يكون.

يمكننا أن نشك في أن يكون من سافر كثيرا قد وجد في العالم أماكن أقبح مما وجد على وجه الإنسان.

321. الشفوقون.

نادرا ما يعرف الشفوقون، المستعدون دائما لتقديم المساعدة في الضراء، كيف يشاركون الآخرين فرحتهم : لاتترك لهم سعادة الآخرين شيئا يفعلونه، يكونون زائدين عن الحاجة فيها، يشعرون أنهم محرومون من تفوقهم، وبسهولة يبدون غيظهم منها.

322. عائلة المنتحر.

يحفظ والدا المنتحر له الضغينة لكونه لم يبق على حياته مراعاة لسمعتهما.

323. توقع نكران الجميل.

الذي يمنح عطاء كبيرا لن يُقَابَلَ بالشكران، لأن قبول عطائه يشكل بالنسبة للمستفيد عبءً ثقيلا.

324. وسط جمع بليد.

لا أحد يمتن للرجل الذكي على رقته بمجرد ما يضع نفسه في مستوى جماعة ليس من اللباقة أن يبدو المرء فيها ذكيا.

325، في حضرة الشهود.

بسرور مضاعف نرتمي في الماء لننقذ شخصا وقع فيه إن كان ذلك في حضرة أناس لايجرؤون على نجدته.

326. صمت.

إن أشد الطرق إزعاجا في رد إحدى الجماعات على جدال ما هي التزام صمت مغيظ : المهاجم سيعتبر ذلك الصمت علامة ازدراء.

327. سر الصديق.

نادرون جدا هم أولئك الذين، وقد حاروا في العثور على موضوع للمحادثة، سوف لن يتاجروا بأخطر أسرار أصدقائهم.

328. الإنسانية.

تقتضي الإنسانية من المشاهير، في علاقتهم بالمغمورين، أن يخطئوا بشكل لطيف.

329. بفعل الحيرة

بعض الناس الذين لايشعرون بالثقة في أنفسهم داخل المجتمع يستغلون أدنى فرصة ليُظهروا أمام الملأ تفوقهم على شخص من محيطهم، مثلا من خلال مضايقته أمام أنظار رفاقه.

330. الاعتراف بالجميل.

تتضايق الروح الرقيقة حين تعرف أن شخصا ما مدين لها، أما الروح الفظة فتتضايق حين تعرف أنها مدينة لشخص ما.

331. علامة الاختلاف.

إن أقوى علامة على اختلاف وجهات النظر لدى شخصين تبدو في كونهما يُدْخِلَان بعض السخرية في الحديث الذي يتبادلانه دون أن يشعر أي منهما بأدنى سخَرية في الحديث.

332. التباهي مقرونا بالاستحقاق.

التباهي المقرون بالاستحقاق يهين أكثر من التباهي دون استحقاق : لأن الإستحقاق في حد ذاته إهانة.

333. خطر الصوت.

يحدث خلال المحادثة أن تربكنا نبرة صوتنا وتؤدي بنا إلى التعبير بكلام لايطابق رأينا على الإطلاق.

334. أثناء الحديث.

سواء خطأنا محدثنا أو صَوَّبْنَاهُ فذلك محض عادة : لهذا تبريره مثلما لذاك.

335. خشية القريب.

نخاف أن تنشأ لدى القريب حالة عداء لنا لأننا نخشى أن يفتح له ذلك منفذا إلى أسرارنا الخفية.

336. اللوم المميّز.

بعض الذين يحظون بتقدير كبير لهم طريقة في اللوم يريدونها متميزة. نيتهم هي أن يُظهروا لنا العناية الكبيرة التي يُولُونَهَا لنا. وسنسيء فهمهم بالغ الإساءة إن أخذنا لومهم حرفيا واتقيناه، إننا بذلك نغضبهم وننفرهم.

337. غيظ عطف الأخرين.

إننا نغالي بخصوص درجة الحقد والخوف اللذان نعتقد أننا نوحي بهما : ذلك أننا نعرف جيدا، ولاريب، درجة مقتنا لشخص ما، لحركة ما، لجماعة ما، بينما هم لا نعرفوننا، وبالتالي لا يبغضوننا إلا بشكل سطحي. غالبا مانلقى عطفا لاتفسير له، لكن إذا فهمناه يجرحنا لأنه يظهر أنهم لا يأخذوننا مأخذ الجد كفاية، لايقدروننا كفاية.

338. تقاطع الغرور.

بعد انتقائهما يحتفظ الشخصان اللذان يتساوى غرورهما بانطباع سيء عن بعضهما البعض، لأن كل واحد منهما يكون جد منشغل بالانطباع الذي يريد تركه لدى الآخر إلى درجة أن الآخر لايترك لديه أي انطباع، وهكذا ينتهيان كلاهما إلى التنبه إلى أن جهدهما قد ذهب سدى ويتهم واحدهما الآخر بذلك.

339. سلوك رديء،علامة جيدة.

يجد العقل المتفوق لذته كلما أبدى تجاهه شبان طموحون قلة ذوق وعجرفة، بل وعداوة. إنها تصرفات رديئة لخيول جامحة لم تحمل فرساناً بعد، ولن تتوانى، مع ذلك، في الافتخار بحمله هو.

340. حين يأتي الخطأ في أوانه.

حسنا نفعل بقبولنا الإتهامات الموجهة إلينا دون أن ندحضها حتى وإن كانت تُضرُّ بنا، وذلك في حالة كون من اتهمنا سيرى خطأ أكبر في معارضتنا له وخاصة في دحضنا لاتهامه من المؤكد أن المرء، بهذه الطريقة، سيكون دائما على حق وهو على خطأ وسيتحول في النهاية، وضميره في راحة تامة، إلى مستبد لايطاق وعقل من أشد المُعَذِّبِين. وما يصح بخصوص الفن قد يصح بخصوص طبقات المجتمع بأكملها.

341. المبجلون قليلا.

يحاول المعجبون بأنفسهم كثيرا، والذين نالوا من الناس تقديرا أقل مما كانوا يتوقعون، يحاولون لمدة طويلة أن يخدعوا الناس ويخدعوا أنفسهم بهذا الشأن، ويتحولون إلى علماء نفس دقيقين ليتوصلوا إلى إثبات أن الآخر قد بجلهم بما فيه الكفاية : وإن فشلوا في ذلك، إن تمزق خمار الوهم، فإنهم يحقدون حقدا شديدا.

342. صدى الدول البائدة في اللغة.

من الشائع أن نتعرف اليوم، في طريقة إلقاء الرجال كلماتهم داخل المجتمع، على صدى تلك الأزمنة التي كانوا يحسنون فيها حمل السلاح أكثر من أي شيء آخر : تارة يستعملون الجزم مثل رماة يصوبون بنادقهم، وتارة نخال أننا نسمع احتكاك السيوف وقعقعتها، ولدى البعض ينزل الإثبات بقرقعة الدبوس الصلد. – النساء، على العكس، يتكلمن على طريقة الكائنات التي بقيت آلاف السنين جالسة أمام النول، أو تخيط، أو تلعب كالطفل مع الأطفال.

343. السارد.

الذي يسرد قصة ما يظهر بسهولة إن كان يحكي لأن الحادث يهمه أم لأنه يريد أن يثير الإهتمام بسرده. في هذه الحالة الأخيرة سيبالغ، سيستعمل صيغ التفضيل وما شابهها. إنه سيحكي، في الغالب، بشكل رديء، لأنه لن يفكر كثيرا في الموضوع بل في نفسه.

344. القراءة بصوت مرتفع.

الذي يقرأ قصائد درامية بصوت مرتفع يكتشف طبعه، يجد صوته في بعض النبرات وبعض المشاهد طبيعيا أكثر منه في غيرها، في المُحْزِن أو في الهزلي مثلا، والحالة أنه في الحياة اليومية لم يكن ينقصه سوى فرصة إظهار الإنفعال أو الهزل.

345. مشهد هزلي في الحياة اليومية.

هذا شخص يطور فكرة رائعة حول موضوع ما كي يعرضه أمام جماعة. تسمعه وتراه يحاول بشكل يبدو هزليا، وقد نشر كل أشرعته، أن يبلغ تلك النقطة التي سيحمل إليها أصدقاءه كلهم ليُبدي ملاحظته عندها. لايفتأ يدفع بالحديث إلى هذه الغاية، فاقداً الاتجاه تارة ليعثر عليه تارة أخرى، وأخيرا تواتيه اللحظة : يكاد ينقطع نفسه... إذاك يختطف أحد الآخرين ملاحظته من فمه. فما العمل ؟ أيعارض فكرته ؟

346. وقح من غير قصد.

إن بدا شخص غَيْرَ مهذب تجاه شخص آخر، دون أن يقصد ذلك، كأن لا يلقي عليه التحية مثلا، لأنه لم يتعرف عليه، فإنه يحزن لذلك كثيرا وإن كان لا يستطيع أن يلوم مشاعره. يعاني من الإنطباع السيء الذي خلفه لدى الآخر، أو يخشى تبعات الشقاق، أو يغتم لكونه جرحه. هكذا إذن يمكن أن يُثَار الغرور أو الخشية أو الشفقة، أو هذه كلها.

347. رائعة الخيانة.

أن تُعَبِّر لمتآمر عن شكك في كونه سيفضحك، وذلك في الوقت الذي ترتكب فيه أنت نفسك خيانة ما، فتلك هي رائعة المكر التي هي شغل الآخر بنفسه ودفعه إلى التصرف بصراحة لامجال للشك فيها طيلة مدة معينة، وذلك حتى يتمكن الخائن الحقيقي من التصرف بحرية.

348. تهين وتهان.

إن إهانتك شخصا ما وطلب الصفح منه بعد ذلك تكون سائغة أكثر من إهانة الغير لك وصفحك عنه. الذي في الحالة الأولى يُظهر علامة قوة ثم علامة طيبة. والآخر يُرْغَمُ، في الحقيقة، على الصفح إن أراد ألايعتبر لا إنسانا، وبذلك تكون المتعة التي قد يجنيها من إذلال الغير تافهة بسبب هذا الإرغام.

349. أثناء المناقشة.

حين نناقض رأي الغير في الوقت الذي نعرض فيه رأينا الخاص فإن النظر المركز باستمرار على الرأي الآخر يربك في غالب الوقت المظهر الطبيعي لرأينا : فيبدو حازما، قاطعا، وربما مبالغا فيه.

350. حيلة.

من أراد أن يحصل على شيء صعب من شخص آخر عليه ألا يطرح الأمر كما لو كان مشكلة بل أن يعرض مخططه بكل بساطة كما لو كان هو الإمكانية الوحيدة، وحين يرى بوادر المعارضة أو المناقضة تلوح في عين الخصم عليه أن يحسن التوقف عن المناقشة بسرعة ولايدع له الوقت.

351. ندمٌ بعد مغادرة عالم الناس.

لماذا نشعر بالندم حين نغادر جماعة تافهة ؟ لأننا تناولنا فيها أشياء مهمة بلا تَرَوٍّ، لأننا لم نتكلم بحسن نية حين تعلق الأمر بالأشخاص، أو لأننا التزمنا الصمت حين لزم الأمر التحدث، لأننا لم نقفز وننصرف حين واتت الفرصة، باختصار، لإننا تصرفنا في عالم الناس كما لو كنا من عالم الناس.

352. يُحكم علينا بخلاف الصواب.

الذي يرقب دائما طريقة حكم الناس عليه لايجني من ذلك إلا الهم. لأن الذين هم أقرب إلينا («الذين يعرفوننا جيدا») يحكمون علينا بخلاف الحق. حتى بعض الأصدقاء يدعون مرارتهم تظهر من خلال كلمة حاسدة. وهل سيكونون أصدقاء لنا لو أنهم عرفونا جيدا ؟ - أحكام اللامبالين تؤذي كثيرا لأنها تبدو محايدة وشبه موضوعية. لكن لو اكتشفنا أن شخصا معاديا لنا يعرفنا جيدا بخصوص شيء احتفظنا به سر ، أن بعضنا يعرف البعض، فسيكون ذلك تناقضا كبيرا.

353. استبداد الصورة.

الفنانون ورجال الدولة الذين سرعان ما يُكَوِّنُونَ صورة كاملة عن شخص أوحدث ما انطلاقا من خطوط معزولة هم ظالمون أشد الظلم لكونهم يتطلبون أن يكون الشخص أو الحدث مثلما صوروهما تماما، وذلك بعد فوات الأوان. إنهم يتطلبون من الواحد أن يكون موهوبا وداهية وجائرا مثلما تتصوره مخيلتهم.

354. القريب مشبها بأحسن صديق.

الإغريق الذين عرفوا جيدا معنى الصديق – هم وحدهم من بين الشعوب من فتح نقاشا فلسفيا عميقا ومتشعبا حول الصداقة، بحيث أنهم كانوا هم أول من رأى، وآخر من رأى إلى حد الأن ، في الصديق مشكلة جديرة بأن تحل – ، هؤلاء الإغريق أنفسهم قد نعتوا القرابة بكلمة هي صيغة التفضيل لكلمة «صديق». هذا ما لا أفهمه.

355. أمانة غير مقدرة.

حين يقول شخص ما، أثناء الحديث، («قلت يوما»، «اعتدت القول»)، فإن كلماته تعطي الإنطباع بالتباهي بينما هي تنبع في الغالب من نبع عكس ذلك، من أمانة لاتريد على كل حال أن تزين وتبهرج اللحظة الحاضرة بأفكار تنتمي إلى لحظة ماضية.

356. الطفيلي.

هناك من يعتبر تفضيل المرء للعيش في تبعية، على حساب الآخرين، لئلا يُرْغَمَ على العمل، وإضماره حقدا خفيا لمن هو تابع لهم، هناك من يعتبر ذلك مؤشرا على انعدام الأحاسيس السامية لديه. نجد مثل هذه العقلية لدى النساء أكثر منه لدى الرجال، ويمكن الصفح عنها أكثر (لأسباب تاريخية).

357. على مذبح المصالحة.

هناك ظروف لايمكن فيها الحصول على شيء من شخص ما إلا إذا ألحقنا به ضررا واتخذناه عدوا : يعذبه كثيرا إحساسه بأن له عدوا بحيث ينتهز، عن طيب خاطر، أول فرصة يميل فيها العدو إلى معاملته معاملة لطيفة ليمر إلى الصلح مضحيا، على مذبح المصالحة، بالشيء الذي كان يتعلق به كثيرا من قبل حتى أنه لم يكن ليعطيه مقابل أي ثمن كان.

358. المطالبة بالشفقة علامة التباهي.

هنـاك أشخاص، حين يـغضبـون ويهينـون الآخرين، يـطالبـون أُوَّلاً ألا نحفظ لـهم ضغينة، وثانيا أن نشـفق عليهم، لأنهم عرضة لنوبات حادة جدا. هكـذا يتطور التباهي لدى الإنسـان.

359. الطُّعْم.

- «لكل إنسان قيمته»- هذا ليس صحيحا. لكن قد يكون لكل واحد طعمه الذي عليه أن يبتـلعه. وهكـذا يكفي، كـي نجعل أشـخاصا كثـيرين يدعـمون قضيـة ما، أن نطلـيها بطـلاء حب البشـر، طلاء النبل والإحـسان والتضـحية - وأية قـضية لايمكـننا طـلاؤها بـذلك الـطلاء ! - إنـها سُكَّرة وحـلوى روح الـقـضيـة، وللـقضـايا الأخـرى سكاكرها وحلواها.

360. الموقف من التقريظ.

حين يمدح الأصدقاء رجلا موهـوبا فإنه يبدو مسرورا بذلك، مجامـلة لهم وإشفاقا، لكنـه في الحقيقة لايـبالي بذلك. يواجـه عُمْقُهُ ذلك بالخمول، وهـذا لن يجعله يـخطو أدنى خطـوة لينتزع نـفسه من الشـمس أو من الظـل حيث يجثـم، لكنه سيـسيء إلى الذين يريدون إرضاء الغير بتقاريظهم إن لم يُبْدِ أي فرح بذلك.

361. تجربة سقراط.

لقد صـار أستاذ في مادة ما لـدرجة أنه بقي بـفعل هذا، وفي أغلـب المواد الأخرى، مبتدء شديد الجهل، لكن الناس يتصورون عكس ذلك، تماما مثلما كان سقراط يعرف ذلك عن تجربة. هذه هي السلبية التي تجعل معاشرة الأساتذة مقززة.

362. وسيلة التبليد.

بسبب مقاومتهم للبلاهة ينتهي العـادلون واللطفاء بأن يصيروا عنيفين. ربما يكونون على الدرب الصحـيح فيما يخص دفاعهم عـن أنفسهـم، لأن ما يناسب الجبـهة البليدة حتما هي الـقبضة الملوحة. لكـن بما أن طبعهم عادل ولطـيف، مثلما رأينا، فـإن وسيلة الدفاع عن النفس هذه تؤلمهم أكثر مما تؤلم الغير.

363. فضول.

لولا الفـضول لما حدثـت أشياء كثـيرة تكون فـي صالح القـريب. إن الفضـول هو الذي يـنسل، تحت اسـم الواجب أو الـشفقة، داخـل منزل الـشقي أو المحتـاج. - وربما يكون في حب الأمهات كثير من الفضول.

364. حساب خاطيء في المجتمع.

فلان يريد أن يصير مهما بأحكامه، وآخر بذوقه واشمئزازه، وثالث بعلاقته، ورابع بوحدته... وكلهم ينخدعون ببرارة. لأن الذي يجري أمامه المشهد هو الذي يتصور، والحالة هذه، أنه هو وحده من يجب الاهتمام به.

365. المبارزة.

يمكننا القول لصالح كل المبارزات وقضايا الشرف أنه يحق للمرء أن يدع موته أو موت مبارزه يحسم الأمر، وذلك إن كانت قابليته للتأثر كبيرة جدا بحيث يرفض أن يعيش بمجرد علمه أن فلانا أو فلانا يقول أو يعتقد بشأنه كذا أو كذا. إن كوننا سريعي الإنفعال يجعلنا، ولاشك، ورثة للماضي ولعظمته كما لمبالغاته التي لم توجد عظمة بدونها أبدا. أما الآن فإن وجود قانون الشرف الذي يقبل الدم عوض الموت، بحيث أن مبارزة قانونية تكفي للتخفيف عن الروح، فيه خير كثير، وإلا فإن الكثير من الأرواح ستكون في خطر. الحاصل أن مثل هذه المؤسسة تدرب الناس على مراقبة ما يتلفظون به وتجعل معاشرتهم ممكنة.

366. التميز والإمتنان.

يشعر الأشخاص الكريمو النسب، عن طيب خاطر،أنهم ملزمون بالإعتراف بالجميل، ولن يحاولوا بلهفة تفادي الفرصة التي تتاح لهم ليكونوا ممتنين، وباعتدال سيبدون الإمتنان بعد ذلك. الأشخاص الوضيعون، بالمقابل، يتصلبون ضد كل ما قد جعلهم ممتنين، أو يبدون إثر ذلك علامات امتنان مبالغ فيها وملاطفة جدا. يظهر هذا السلوك كذلك لدى الأشخاص الذين هم من أصل وضيع أو متواضع : ذلك أن أدنى خدمة تقدم لهم تبدو لهم فضلا كبيرا.

367. أوقات الفصاحة.

فلان يحتاج، لكي يتحدث جيداً، إلى شخص يفوقه بشكل أكيد وصريح، فلان آخر لايجد الحرية التامة ليتكلم ولا الفصاحة ذات الصيغ الجيدة إلا في حضور شخص أدنى منه : الباعث هو نفسه في كلتا الحالتين، لا يتحدث كل واحد منهما جيدا إلا إذا تحدث دون مضايقة، الواحد لأنه لايشعر، أمام عقل متفوق، بحافز المزاحمة والمنافسة، والآخر لأنه لايشعر بذلك أمام من هو دونه. - الآن هناك نوع آخر من الناس يحتاج، لكي يجيد الحديث، إلى المنافسة، وذلك بنية الإنتصار. فمن منهما أكثر طموحاً إذن : ذلك الذي يُجيد الحديث حين يتم تحفيز طموحه، أم ذلك الذي، لنفس السبب، يتحدث برداءة أو لايتحدث إطلاقا ؟

368. موهبة الصداقة.

من بين كل الذين لهم موهبة خاصة في ميدان الصداقة يتفلت طرازان. الواحد لايفتأ يعلو ويجد في كل مرحلة من مراحل تطوره الصديق المناسب له تماما. وسلسلة الأصدقاء التي يُكَوِّنُهَا بهذه الطريقة نادرا ما تكون متماسكة، وأحيانا تختلف حلقاتها وتتناقض : الشيء الذي يتفق مع كون المراحل اللاحقة من تطوره تمحو أو تمزق المراحل السابقة. يمكن تسمية مثل هذا الإنسان، من باب المزاح، سُلَّما. - الطراز الآخر يمثله ذلك الذي يجذب طباعا ومواهب مختلفة؛ الشيء الذي يُكَوِّنُ حوله دائرة كاملة من الأصدقاء، وفي نفس الوهلة يربط هؤلاء علاقات الصداقة بينهم، رغم كل تبايناتهم. سنسمي مثل هذا الإنسان دائرة : لأن الأمر يستلزم أن يكون هذا التطابق في الحالات وفي الطباع الشديدة الاختلاف موجودا فيه من قبل بشكل من الأشكال. - ومع ذلك فإن موهبة الحصول على أصدقاء جيدين تتفوق كثيرا، لدى كثير من الناس، على موهبتهم في أن يكونوا أصدقاء جيدين.

369، طريقة الحديث.

بعد انتهاء حديث ما نجد أنفسنا نفكر في أفضل حالات محدثنا إن كانت الفرصة قد واتتنا وأبدينا أمامه كل بريق ذهننا ورقتنا. ويستفيد من هذا الأشخاص الفطنون الذين يريدون جعل شخص ما يراعيهم، إذ يقترحون عليه، خلال الحديث، أحسن الفرص كي يقول نكتة أو يتألق بطريقة ما. يمكننا أن نتخيل حديثا شيقا بين شخصين ذكيين يريد كل واحد منهما أن يظفر بعطف الآخر، ولأجل ذلك يتبادلان، أثناء الحديث، فرص التألق دون أن يستغلها أحد منهما : بحيث أن الحديث كله يأخذ بذلك مجرى لاروح فيه ولارقة، وبهذا يترك الواحد للآخر وحده فرصة الظهور بمظهر الشخص اللطيف والمسلي.

370. صمام المزاج.

يفضل الإنسان الذي يفشل في شيء ما أن يرجع سبب ذلك الفشل إلى الإرادة السيئة لشخص آخر عوض أن يرجع للحظ. إن تخيل شخص، عوض شيء، وراء فشل المرء يخفف من حقده الشديد، لأنه يمكن الانتقام من الأشخاص، بينما يلزم تحمل إهانات القدر. لهذا اعتاد الذين يحيطون بالأمير، حين يفشل، أن يعينوا له شخصا واحدا على أنه سبب إخفاقه، فتتم التضحية به لفائدة كل جلساء الأمير، وإلا فإن الإمير سيصب غضبه عليهم لعجزه عن الإنتقام من القدر نفسه.

371. أين نتخذ لون محيطنا.

لماذا تكون الرغبة والنفور معديان بحيث قلما نستطيع العيش بجوار شخص له أحاسيس قوية دون أن نجد أنفسنا، مثل برميل، ممتلئين بموافقاته ومعارضاته ؟ أولا، لأن غرورنا يصعب عليه الإمتناع التام عن الحكم، لايطيقه أحيانا، إن له نفس ألوان ضعف الذكاء والإحساس، أو الجبن، أو نقص الرجولة : وهكذا يتم جرنا إلى الإنحياز إلى طرف، حتى وإن كان يقف ضد اتجاهات محيطنا، إن كان ذلك الإنحياز ذا قيمة كبيرة بالنسبة لكبريائنا. لكننا عادة – وهذه هي النقطة الثانية – لانعي تماما التحول من اللامبالاة إلى الرغبة أو إلى النفور، بل على العكس، نتعود تدريجيا على طرق إحساس محيطنا، وبما أن الوفاق والموافقة الودية ساران جدا فإننا لانتوانى في اتخاذ كل العلامات والألوان المميزة لهذا المحيط.

372. السخرية.

لاتكون السخرية، في محلها،سوى شبه طريقة تربوية يطبقها أستاذ في علاقته مع تلاميذه كيفما كانوا : غايته هو إخجالهم وإذلالهم، لكن ذلك النوع من الخجل ومن الذل المخلص الذي يوجد الحلول الجيدة ويفرض إظهار الإحترام والإمتنان لذلك الذي عالجنا بهذا الشكل كطبيب. يعرف الساخر كيف يتظاهر بالجهل بحيث ينخدع بذلك التلاميذ الذين يحدثونه ويتجرأون، بحسن نية، على الإعتقاد في تفوق معرفتهم فيجعلونه يتمكن منهم بكل الوسائل، لايلتزمون الحذر إطلاقا ويظهرون كما هم حتى تأتي اللحظة المختارة التي تنعكس عليهم فيها أشعة المصباح الخفيف النور الذي كانو يلوحون به تحت أنف أستاذهم. حين تغيب مثل هذه العلاقة التي بين الأستاذ وتلاميذه تكون السخرية وقاحة وفظاظة روح. كل الكتاب الساخرين يعتمدون على هذا النوع البليد من الناس الذين يريدون أن يلتذوا بالإحساس بالتفوق على كل الأخرين بما فيهم المؤلف الذي يعتبرونه كالناطق باسم تباهيهم. – عادة السخرية، مثل عادة التهكم، تفسد الطبع فضلا عن ذلك، تضفي عليه بالتدريج خاصية من الفرح الماكر : ينتهي صاحبها بأن يشبه الكلب الشرس الذي تعلم أن يضحك لأنه لم يقنع بالعض.

373. التباهي.

ليس هناك شيء ينبغي لنا الإحتراس منه أكثر من نمو هذا العشب الطفيلي الذي يسمى التباهي والذي يفسد علينا أفضل محاصيلنا، لأن التباهي يوجد في المودة، في علامات الإحترام، في الألفة العطوفة، في المداعبة، في النصيحة الودية، في الاعتراف بالخطأ، في الشفقة على الغير، وكل هذه الأشياء الجميلة تثير الإشمئزاز حين يخالطها

هذا العشب. المتباهي، أي ذلك الذي يريد لنفسه أهمية أكبر مما لها أو مما يعترف به الناس لها، يجري حسابا خاطئا دائما. يصادف نجاحا سريعا دون شك لكون الناس الذين يتباهى أمامهم يمنحونه ذاك القدر من الإحترام الذي يطالب به تماما، بدافع الجبن أو بدافع اللامبالاة، لكنهم ينتقمون منه بذكاء إذ يطرحون معادل القيمة التي يطالب بها بإفراط من القيمة التي منحوها له حتى ذلك الحين. ليس هناك شيء يؤدي عنه الناس غاليا أكثر من الإذلال. قد يجعل المتباهي قيمته الحقيقية والرفيعة مشبوهة وحقيرة في أعين الآخرين بحيث لن يتورعوا عن الدوس عليه حتى وأحذيتهم وسخة. – على المرء ألا يقف موقف الفَخُور إلا حيثما يكون متأكدا بشكل قاطع من أنه لن يساء فهمه ولن يُنْظَرَ إليه على أنه متباه؛ أمام أصدقائه أو زوجته مثلا. لأنه ليست هناك حماقة، في معاشرة الناس، أكبر من اكتساب سمعة التباهي. والأدهى من ذلك هو ألا يكون المرء قد تعلم كيف يكذب بلباقة.

374. الحوار.

الحوار هو الحديث الكامل، لأن كل ما يقوله الواحد يلقى تفرده الخاص، رنته، الحركة المصاحبة له، بالإسناد الدقيق إلى المجاور الآخر، أي أننا نجد معادل ما يحدث في المراسلة حيث يعبر شخص واحد عن روحه بعشر طرق مختلفة بحسب الأشخاص الذين يكتب إليهم. في الحوار يكون انكسار الفكرة فريدا : والمُحَاوِرُ هو الذي يُحْدِثُهُ لكونه هو المرآة التي نريدها أن تعكس أفكارنا أجمل ما يمكن. لكن كيف الحال مع محاورين أو ثلاثة أو أكثر ؟ حتما سيفقد الحديث إذاك دفة الذكاء الفردي، فالإحالات المختلفة تتقاطع ويمحو بعضها البعض، وطريقة التعبير التي ترضي الواحد لاتناسب إحساس الآخر. كما أن المرء يجد نفسه، في رفقة الآخرين، مرغما على الإرتداد إلى نفسه، على تقديم الوقائع مثلما هي، ومرغما كذلك على حرمان الأشياء من ذلك الجو الإنساني الفكِه الذي يجعل من المحاورة واحدة من أكبر مُتَعِ الدنيا. يكفينا أن نسمع النبرة التي يتحدث بها الناس عادة في رفقة أناس آخرين مجتمعين، يبدو أن ما يرددونه في خُطبهم لا يتغير : «هذا هوأنا، هذا ما أقوله أنا، أما أنتم فاعتقدوا ماشئتم ! » هذا هو السبب الذي يجعل النساء النبيهات يتركن آنطباعا غريبا وشاقا ومستهجنا لدى الذي تعرف إليهن في عالم الناس، ذلك أن واجب التحدث إلى أشخاص كثيرين، أمام أناس كثيرين، يجردهن من كل إغرائهن الفكري ولايدع يظهر، وسط فيض من الضوء، سوى أنانيتهن المقصودة وتخطيطهن ونيتهن الفوز أمام الملأ : وخلال الحوار تعود هذه السيدات نساء ويسترجعن رشاقة ذهنهن كلها.

375. المجد البَعْدي.

الأمل في أن يعرف الناس لنا قيمتنا في المستقبل البعيد لايكون له معنى إلا إذا اعترفنا بأن جوهر الإنسانية ثابت وأن شعور الناس بالعظمة ينبغي ألا يتغير عبر العصور. والحالة أن هذا خطأ، فالإنسانية تتطور في كل ما يجده إحساسها وحكمها جميلا وجيدا. إنه لوهم أن يعتقد المرء أنه متقدم بفرسخ بينما الإنسانية كلها تتبع طريقة هو. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لعالم لا يقدره الناس حق قدره أن يعتقد دون شك أن آخرين سيكتشفون ما اكتشفه هو مرة ثانية وأنه ربما يأتي مؤرخ يوما ما، متأخرا جدا، ليعترف له باستحقاقه لكونه عرف، هو كذلك، هذا الشيء وذاك، لكن دون أن يستطيع نشر اكتشافه. تفسر الأجيال اللاحقة دائما عدم حصول المرء على الإعتراف بعظمته بنقص في القوة. - باختصار، يجب ألا يلجأ المرء بسهولة إلى العزلة المتكبرة. هناك فضلا عن ذلك حالات استثنائية، وما يحول دون الاعتراف بخاصياتنا في أغلب الأحيان هي عيوبنا، نقائصنا، وحماقاتنا.

376. عن الأصدقاء.

تأمل جديا في ذاتك لترى كم هي الأحاسيس مختلفة، كم هي الآراء مشتركة، حتى بين أقرب الأقارب إليك؛ كم من الآراء المتشابهة تجد لها، في رؤوس أصدقائك، توجها أو قوة مخالفين لما لها في رأسك؛ كم تتاح من فرص مختلفة للإختلاف، للتفرق في هروب عدواني. بعد ذلك ستقول : كم هي ثابتة تلك الأرض التي ترتكز عليها علاقاتنا وصداقاتنا، كم هي قريبة تلك الزخات الباردة أو الشوادن، كم هو وحيد كل إنسان ! إن الذي يتنبه إلى كل هذا، ثم إلى أن كل الآراء، أن نوعها وقوتها هما، لدى أشباهه، ضروريان وغير مسؤولين مثل أفعالهم، الذي يتوصل إلى معرفة كيف يميز هذه الضرورة الداخلية للآراء في تشابك المزاج الذي لايمكن تبسيطه، في تشابك الإنشغالات، تشابك الموهبة والوسط، - هذا الشخص ربما سيتخلص من المرارة والحُموزة اللتين جعلتا الحكيم الشهير يصيح : «أصدقاء، ليس هناك أصدقاء ! » هذا بالأحرى ما سيعترف به لنفسه : أجل، هناك أصدقاء، وما جلبهم لك هو الخطأ والوهم بشأن شخصك، وكان لزاما عليهم تعلم الصمت ليظلوا أصدقاءك، لأن مايرسخ مثل هذه العلاقات الإنسانية تقريبا دائما هو أن هناك عددا معينا من الأشياء لانقولها، بل لانعالجها أبدا، لكن هذه الأحجار تتدحرج وتتبعها الصداقة فتنكسر. هل هناك أناس بمقدورهم ألا ينجرحوا جرحا قاتلا لو أنهم اكتشفوا ما يعرفه عنهم أصدقاؤهم الحميمون ؟ بتعلمنا معرفة ذاتنا واعتبار كياننا فلكا غير ثابت من الآراء والأمزجة، ومن

ثمة نزدريه شيئا ما، نعيد التوازن لعلاقتنا مع الآخرين. صحيح أنه لدينا أسباب وجيهة لنستخف بأنفسنا. - وهكذا، ليتحمل بعضنا البعض بما أننا نتحمل أنفسنا، وربما يأتي يوم الفرحة الذي يقول فيه كل واحد منا : «أصدقاء، ليس هناك أصدقاء ! » صاح الحكيم المحتضر؛ «أعداء، ليس هناك أعداء ! » يصيح هذا الأحمق الحي الذي هو أنا.

الكتاب السابع

المــرأة والطــفــل

377. المرأة الكاملة.

المرأة الكاملة نموذج إنساني متفوق على الرجل الكامل : وشديد الندرة كذلك. تاريخ الحيوانات الطبيعي يوفر وسيلة لجعل هذا الافتراض قريبا من الحق.

378. الصداقة والزواج.

لأفضل صديق ستكون أفضل زوجة، لأن الزواج الموفق يرتكز على أهلية الصداقة.

379. استمرار الآباء.

التفاوتات الموجودة بين طبع الآراء وأفكارهم، والتي لم تتم إزالتها، تتأبد في كيان الطفل وتشكل تاريخ معاناته الداخلية.

380. الإرث الأمومي.

كل إنسان يحمل في ذاته صورة المرأة التي تأتيه من أمه : وهي التي تحتم عليه احترام النساء بشكل عام، أو ازدرائهن، أو اللامبالاة بهن.

381. تصحيح الطبيعة.

أليس للناس أب صالح حتى يتخذوا أبا.

382. الآباء والأبناء.

على الآباء فعل الكثير ليكفروا عن إنجابهم الأبناء.

383. خطأ النساء المتميزات.

تعتقد النساء المتميزات أن الشيء لايوجد، بكل بساطة، حين لا يمكن الحديث عنه وسط جماعة.

384. داء ذكوري.

أنجع دواء لهذا الداء الذكوري الذي هو احتقار الذات هو أن يكون المرء محبوبا من طرف امرأة ذكية.

385. نوع من الغيرة.

تغار النساء بسهولة من أصدقاء أبنائهن حين يحققون نجاحات باهرة. إن ما تحبه المرأة عادة في ابنها هو ذاتها أكثر من ابنها.

386. مخالفة معقولة للصواب.

حين يبلغ الإنسان النضج في حياته وذكائه يغمره شعور بأن أباه قد أخطأ إذ أنجبه.

387. طيبة أمومية.

تحتاج بعض الأمهات إلى أطفال سعداء ومُبَجَّلين، وأخريات إلى أطفال تعساء : وإلا فلن تظهر طيبتهن كأمهات.

388. هناك تنهدات وتنهدات.

سبب تنهد بعض الرجال هو اختطاف زوجاتهم منهم، وسبب تنهد أغلبهم هو عدم رغبة أي كان في اختطافهن.

389. الزواج عن حب.

الزيجات التي تتم عن حب (التي نزعم أنها عن حب) يكون أبوها الخطأ وأمها الضرورة (الحاجة).

390. صداقة أنثوية.

قد تربط بعض النساء صداقة مع رجل، لكن ينبغي بكل تأكيد، لكي تستمر تلك الصداقة، أن يكون بينهما نزر يسير من التنافر الجسدي.

391. الملل.

كثير من الأشخاص، خاصة من النساء، لايعرفون الملل، لأنهم لم يتعلموا أبدا كيف يعملون بانتظام.

392. واحد من عناصر الحب.

في كل حب أنثوي يظهر كذلك شيء من الحب الأمومي.

393. المأساة ووحدة المكان.

لو أن الأزواج لايعيشون مجتمعين لكثرت الزيجات الناجحة.

394. نتائج الزواج العادية.

كل معاشرة لاترفع فهي تخفض، والعكس صحيح، لذلك ينخفض الرجال عادة حين يتزوجون، بينما ترتفع النساء قليلا. الرجال ذوو الروحية العالية يحتاجون كثيرا إلى الزواج حد النفور منه كما من دواء ممقوت.

395. تعليم القيادة.

ينبغي أن تُعَلِّمَ التربيةُ أبناءَ العائلات المتوسطة كيف يَكُونُونَ قادة مثلما تعلم الخضوع للأطفال الآخرين

396. الرغبة في الحب.

كثيرا ما يجهد المخطوبون أنفسهم، بدافع من اللياقة المتبادلة، ليحبوا بعضهم حتى يتفادوا اللوم على البرودة وعلى الحساب المنفعي. وكذلك الشأن بالنسبة لمن يعتنق الكاثوليكية بدافع المصلحة، إنه يجتهد في أن يجعل من نفسه تقيا، وبذلك يصير الرياء الديني لديه سهلا جدا.

397. لا توقف في الحب.

الموسيقي الذي يحب الحركة البطيئة سيعزف دائما نفس القطعة ببطء. هكذا لايعرف التوقف أيّ حب.

398. الحياء.

يزداد حياء النساء بازدياد جمالهن، بصفة عامة.

399. زواج موفق.

الزواج الذي يستمر هو ذلك الذي يروم من خلاله كل واحد من الزوجين بلوغ هدف شخصي من خلال الآخر، مثلا حين تريد الزوجة أن تكون لها سمعة بفضل زوجها، ويريد الزوج أن يكون محبوبا بفضل زوجته.

400. طبيعة الضفدع المتلون.

بسبب الحب تتخذ النساء، بصفة نهائية، الشكل الذي به تحيا في خيال الرجال الذين يحبونهن.

401. الحب والتملك.

الشكل الذي تحب به النساء رجلا ذا قيمة، في أغلب الأحيان، هو أن يكون لهن وحدهن. ولولا أن غرورهن يمنعهن لخبأنه : يريد غرورهن أن يطلع الآخرون على قيمته هم كذلك.

402. علامة الزواج الموفق.

الدليل على نجاح زواج ما هو كونه يتحمل «استثناء».

403. وسيلة استدراج أي كان إلى أي شيء كان.

بفعل الهموم، القلق، الأشغال والأفكار المضنية يمكن أن نتعب ونضعف أياً كان إلى حد أنه عوض أن يعارض شيئا يبدو معقدا فإنه يتحمله. الدبلوماسيون والنساء يعرفون هذا.

404. الكرامة والشرف.

البنات اللائي لا يردن أن يكن مدينات بمستقبل مضمون لجمال شبابهن، واللواتي تلهمهن أمهاتهن الذكيات الحيلة، يبحثن بالضبط عما تبحث عنه المومسات، إلا أنهن أكثر نباهة وأقل شرفا من هذه الأخيرات.

405. أقنعة.

هناك نساء لانكتشف لديهن حقيقة داخلية بعد البحث الشامل، وماهن إلا أقنعة. جدير بالشفقة هو الرجل الذي يرتبط بهذه الكائنات الشبه شبحية، الخداعة لامحالة، لكن القادرة، بالضبط، على إثارة رغبة الرجل بقوة : ينطلق باحثا عن روحهن... ويظل كذلك إلى الأبد.

406. الزواج، هذا الحديث الطويل.

ينبغي، حين يعقد الزواج، أن يطرح المرء هذا السؤال على نفسه : هل تعتقد أنه بإمكانك التحدث بلطف مع هذه امرأة حتى سن الشيخوخة ؟ كل الأشياء الأخرى في الزواج عابرة، أما الحديث فيكاد يشغل كل الوقت.

407. أحلام العذارى.

الشابات القليلات الخبرة ينمين الفكرة المخادعة بأنه في إمكانهن إسعاد الرجل، لكنهن يكتشفن بعد ذلك أن التسليم بأن الشابة كفيلة بإسعاد الرجل هو احتقار مبالغ فيه للرجل. - غرور النساء يتطلب أن يكون الرجل أكثر من زوج سعيد.

408. اختفاء فاوست ومارغريت.

حسب الملاحظة الدقيقة لأحد المنقبين فإن مثقفي ألمانيا الحالية يشبهون مزيجا من مفستوفلس وفاغنر، لكنهم لايشبهون فاوست إطلاقا، فاوست هذا الذي كان أجدادهم، إبان شبابهم على الأقل، يشعرون به يعتمل داخلهم. هناك إذن - كي نستمر في هذه الفكرة - سببان كي لاتلائمهم مارغريت. وبما أنها لم تعد مطلوبة فيبدو أنها تختفي.

409 الشابات في الثانوية

لاتُخْضعُوا الشابات كذلك للتكوين الذي توفره ثانوياتنا ! هذا التكوين الذي غالبا ما يجعل من المراهقين، الذين كلهم ذكاء وحماسة، المتعطشين للمعرفة، نُسَخًا من أساتذتهم.

410. دون منافسات.

تسارع النساء، لدى رؤيتهن رجلا، إلى تبين إن كان على علاقة بأخرى، يردن أن يكن محبوبات دون منافسات، ويؤاخذنه على الأهداف التي يرنو إليها طموحه، على مهامه السياسية، على علمه وعلى فنه، إن كان له ولع بهذه الأشياء، إلا إذا جعلته هذه الأشياء يتألق، - لأنهن إذا افترضن قيام علاقة غرامية معه آنداك فإنهن ينتظرن منها زيادة في تألقهن، وفي هذه الحالة يجعلنه يعشقهن.

411. الذكاء الأنثوي.

يتمظهر ذكاء النساء في التمكن التام، في حضور البديهة، في استغلال كل الامتيازات. إنها خاصية أساسية ينقلنها إلى أبنائهن، ويضيف إليها الأب الخلفية القاتمة للإرادة. يكاد تأثير الأب يحدد الإيقاع والإنسجام اللذان تسير عليهما الحياة الجديدة، لكن المرأة تكون هي من يضفي عليها النغم. - لنقل لأجل العقول الفطنة : تمتلك النساء الإدراك، ويمتلك الرجال الحساسية والشغف. وهذا لا يناقض كون الرجال يذهبون بذكائهم بعيدا جدا : دوافعهم أعمق وأقوى، وهي التي تذهب بعيدا بذكائهم الذي هو في ذاته شيء غير فعال. غالبا ما تندهش النساء خفية من الإجلال الكبير الذي

يكنه الرجال لحساسيتهن. لهذا فإن الرجال، أثناء اختيار شريكة الحياة، يبحثون قبل كل شيء عن كائن روحي وعميق، بينما تبحث النساء عن كائن متألق، حاضر البديهة وفطن. نرى جليا أن الرجل يبحث، في الحقيقة، عن الرجل المثالي، والمرأة عن المرأة المثالية، أي كل واحد يبحث ليس عمن يكمله بل عن كمال مزاياه الخاصة.

412. تأكيد حكم هزيود.

إنه لدليل على ذكاء النساء كونهن عرفن في كل مكان تقريبا كيف يحظين بالرعاية، مثل الزنابير في الخلية. لنتأمل ما يعنيه هذا في الأصل، ولماذا لايكون الرجال هم من ينالون رعاية النساء. بالتأكيد لأن غرور وطموح الذكور أكبر من ذكاء الإناث، لأن النساء عرفن، بخضوعهن، كيف يضمن الإمتياز المتفوق، بل حتى السيطرة. لقد استعملت النساء كل شيء في البدء بذكاء، حتى الإعتناء بالأطفال، ذريعة للتملص من العمل ما أمكنهن ذلك. حتى في وقتنا الحاضر، إن كان لهن نشاط فعلي، كخادمات مثلا، فإنهن يتقن التباهي به بشكل مذهل حتى أن الرجال يعتادون تقديره بعشرات أضعاف قيمته.

413. حسير النظر يقع في شراك الحب.

أحيانا تكفي نظارات أقوى لمداوة المحب. ومن كان له خيال قوي ليتصور وجها وقامة شاخا بعد مضي عشرين عاما، ربما سيعبر الحياة دون خسارة كبيرة.

414. النساء والضغينة.

حين يستولي عليهن الحقد فإن النساء يَكُنَّ أخطر من الرجال، أولاً لأنه لايمنعهن أي اعتبار للإنصاف حين تُثَارُ مشاعر عداوتهن، وأنهن، دون أن يتضايقن من أي شيء كان، يدعن حقدهن يبلغ أقصى عواقبه، ثم لأنهن مدربات على العثور على نقط ضعف (لكل رجل ولكل جماعة نقط ضعف) وغرز خنجرهن فيها : وخنجرهن الحاد الذي هو ذكاؤهن يؤدي لهن خدمات جلى في هذا الصدد (في حين أن رؤية الجراح توحي للرجال ببعض الاعتدال، بل بتصرفات نبيلة وميالة للتسامح).

415. الحب .

هيام النساء بالحب هو، في الأصل، ابتكار أوجدته حدة ذهنهن، بحيث أن كل أمْثِلاَت الحب تصلح لهن كوسيلة لزيادة قوتهن والظهور دائما مرغوبات أكثر لدى الرجال. لكن هذا الاعتياد القديم على هذا التقدير المبالغ فيه للحب جعلهن يقعنفي

شَرَكهن وينسين هذا الأصل. إنهن الآن مغفلا أكثر من الرجال، وهن بهذا يعانين أكثر من زوال الوهم الذي يحدث في حياة كل امرأة بشكل يكاد يكون حتميا - إن افترضنا أن لها ما يكفي من الخيال ومن الذكاء لتعرف الوهم وزوال الوهم.

416. حول تحرر النساء.

هل يمكن أن تكون النساء عادلات: بصفة عامة، في الوقت الذي اعتدن فيه كثيرا أن يحببن، على أن يكن مجرد إحساس مع أوضد ؟ من هنا يأتي كونهن نادرا ما يدعمن قضية بقدر ما يدعمن أشخاصا : وإن دعمن قضية ما فإنهن يجعلن من أنفسهن مناضلات من أجلها ويعرضن للشبهة إشعاعها الخالص والبرىء. إن عهدنا إليهن بالسياسة وبعض مجالات العلوم (كالتاريخ مثلا) فإنه ينتج عن ذلك خطر لاأهمية له. أي شيء سيكون ،في الحقيقة، أندرمن امرأة تعرف حقا ماهو العلم ؟ ستنمي سيدات الطبقة الراقية في قلوبهن ازدراء خفيا لها، كما لو كن متفوقات عليها بشيء ما. قد يتغير كل هذا، وفي انتظار حدوث ذلك التغير يظل الأمر على حاله.

417. الإلهام في حكم النساء.

لقد كلل بعض الرجال في حبهم تلك القرارات الفجائية التي اعتادت النساء اتخاذها مع أوضد، ذلك البريق بريق التعاطف أو النفور الذي ينير فجأة علاقاتهن الشخصية، باختصار، كللوا أدلة جور النساء بهالة المجد كما لو أن كل النساء قد أُلْهِمْنَ الحكمة دون منْصَب دلفي* ولا إكليل من الغار : وبعد ذلك بزمن طويل يتم تفسير أحكامهن والتعليق عليها كالكثير من الوحي العَرَّافي. إن اعتبرنا، مع ذلك، أن هناك شيئا يمكن إبرازه لفائدة كل شخص، كل قضية، وشيئا كذلك نعارضهم به، أنه ليس هناك شيء له وجهان فقط، بل ثلاثة أو أربعة أوجه، فإننا قلما سنجد هذه القرارات الفجائية معرضة للخطأ الشامل. بل يمكننا أن نقول : هكذا هي طبيعة الأشياء بحيث أن النساء دائما على صواب.

418. أن تجعل نفسك محبوبا.

بما أنه عادة ما يكون، من بين كل شخصين متحابين، واحد يحب والآخر محبوب، فقد انتهى الناس إلى الإعتقاد أنه يوجد في كل علاقة غرامية قدر ثابت من الحب : كلما أخذ منه أحد الطرفين كلما قل مايتبقى منه للآخر. يحدث، استثناء، أن يقنع

* منسوب إلى دلفي اليونانية التي كان فيها مَوْحى أبولون (المترجم)

الغرور كل واحد منهما بأنه هو الذي ينبغي أن يكون محبوبا بحيث يحاولان كلاهما أن يكونا محبوبين : وينتج عن ذلك، وخاصة لدى المتزوجين، عدد من المشاهد ينافس فيها الهزلي العبثي.

419. التناقضات في عقول النساء.

بما أن عقل النساء منفتح على الأشخاص أكثر منه على الأشياء ذاتها فإن فكرهن يوائم بين اتجاهات هي، منطقيا، متناقضة. عادتهن هي أن يتحمسن، بالتناوب، لممثلي هذه الإتجاهات ويتبين أنظمتهم بلا تمييز، ويعملن مع ذلك على ترك فراغ يتكون في كل مكان يمكن لشخص جديد أن يتفوق فيه. وقد لاتكون الفلسفة، في رأس امرأة مسنة، سوى فراغات من هذا النوع.

420. من الذي يعاني أكثر.

بعد شجار أو خلاف شخصي بين رجل وامرأة يعاني أحدهما خصوصا لكونه أساء إلى الآخر، بينما الثاني يعاني خصوصا من كونه لم يسيء إلى الآخر كفاية، ولهذا السبب يجهد نفسه، بعد فوات الأوان، في تعذيب روحه بدموع حرى، بنحيب وبمظهر شاحب.

421. فرصة لنبل النساء.

بوضع المرء نفسه نهائيا، عن طريق الفكر، فوق متطلبات الأخلاقية يمكنه أن يتساءل دون شك إن لم تكن الطبيعة والعقل يلزمان الرجل بعقد عدة زيجات متتالية، وذلك بأن يتزرج أول الأمر، في سن الثانية والعشرين، امرأة ناضجة تفوقه عقليا وأخلاقيا وقادرة على أن تقوده ليجتاز مخاطر العشرينيات (الطموح، الضغينة، احتقار الذات، وكل أشكال الأهواء). فيما بعد سيتحول حب هذه المرأة كله إلى عطف أمومي، ولن تتحمل فقط، بل ستطلب منه مراعاة لمصلحتو، أن يتزوج، عند بلوغه الثلاثين، من شابة يتولى هو تربيتها.- الزواج، بين سن العشرني والثلاثين، مؤسسة ضرورية، ويصير مؤسسة نافعة فقط بين الثلاثين والأربعين، في ما تبقى من العمر يكون ضارا، لأنه يشجع النكوص الذهني للرجل.

422. مأساة الطفولة.

ليس نادرا، بكل تأكيد، أن يكون بعض ذوي الطموحات النبيلة والعظيمة قد خاضوا أشد صراعاتهم قساوة خلال طفولتهم : فربما يكون قد لزمهم، كي يفرضوا طريقة رؤيتهم للأشياء، أن يواجهوا دناءة تفكير أب غارق في الزيف والكذب، أو أن

يعيشوا، كاللورد بايرون، في خلاف دائم مع أم صبيانية وغضوب جدا. إن مر المرء من هذه المرحلة فلن يتعزى أبدا ،طيلة حياته، بمعرفة من كان أكبر وأخطر أعدائه.

423. عمى الأباء.

إن الأخطاء الجوهرية التي تكون في الحكم الصادر في حق شخص ما يكون أبواه هم من يرتكبها : إنها حقيقة، لكن كيف نفسرها ؟ هل للأباء تجربة جد مختلفة عن تجربة ابنهم فيعجزون عن توحيد هما ؟ نلاحظ أن المسافرين الذين يزورون شعوبا أحنبية لايدركون السمات العامة المميزة لها بشكل صحيح إلا في بداية إقامتهم، وكلما شرعوا في معرفة شعب ما كلما نسوا أن يميزوا خصوصياته النموذجية. بمجرد ما تعتاد عيونهم الرؤية عن قرب يكفون عن رؤية البعيد. أيكون عدم الرجوع إلى الوراء كفاية هو سبب حمل الأباء حكما خاطئا عن أبنائهم ؟ - هناك تفسير مغاير تماما، وهو كالتالي : تجعل العادة الناس يكفون عن التفكير في ما يحيط بهم ويكتفون بقبوله. هذا النقص في التفكير الذي يعزى إلى العادة ربما يكون هو سبب كون الأباء، حين يجبرون على الحكم على أبنائهم، يحكمون عليهم بشكل خاطىء.

424. نظرة على مستقبل الزواج.

هذه النساء ذوات العقول النبيلة والمتحررة اللواتي يجعلن مهمتهن تربية وتنشئة الجنس اللطيف لهن وجهة نظر لاينبغي إهمالها : الزواج الذي يتم تصوره في أعلى مراتبه كصداقة روحية بين كائنين من جنس مختلف، أي معقودا، مثلما نتمنى أن يكون في المستقبل، لغاية إنجاب جيل جديد وتربيته. يُخشى أن يكون مثل هذا الزواج، الذي لن يلجأ إلى الشبقية إلا كوسيلة نادرة واتفاقية (Occasionnel)، لأنه إن لزم الزوجة، حفاظا على صحة الزوج، أن تلبي كذلك حاجاته الجنسية، فإن ذلك سيكون وجهة نظر مناقضة للغايات المذكورة آنفا، وحاسمة حين اختيار الزوجة : سيترك تحقيق الرغبة في النسل للصدفة، وستكون التربية السعيدة مستبعدة جدا. الزوجة الصالحة المطلوب منها أن تكون صديقة، مساعدة، منُجبَةَ، أما، ربة أسرة، مديرة، بل ربما أن تتفرغ لعملها وتقوم بمهامها في استقلال عن الزوج، لن يمكنها أن تكون سُرِّية (Concubine) : سيكون ذلك، بصفة عامة، مطلبا ثقيلا عليها. قد يحدث في المستقبل عكس ما كان في أثينا زمن بيريكليس : كان الرجال، الذين قلما كانوا يعتبرون زوجاتهم أكثر من سُريات، يتوجهون إلى بغايا ميلات بمجرد ما يرغبون في ذلك السحر في حرية القلب والذهن المميزة للمعاشرة الرضية التي وحدهما اللطافة والرشاقة الذهنية للنساء

تستطيعان توفيرها. كل المؤسسات الإنسانية، مثل الزواج، لاتسمح إلا بدرجة صغيرة من الأمثَلَةِ العملية، التي إن غابت شعر الناس بضرورة العلاجات الفظة.

425. مرحلة Sturm und Drang خاصة بالنساء *

سيصير ممكنا في الدول الأوربية الثلاثة أو الأربعة المتحضرة، بفضل قرون من التربية، تحويل النساء إلى كل ما نريده، حتى إلى رجال، ليس جنسيا بالطبع، لكن بأي معنى آخر. بخضوعهن لمثل هذا التدخل فإنهن سيكتسبن يوما ما كل القوى وكل الفضائل الذكورية، المرفوقة حتما بالنقائص والرذائل المقابلة لها : يمكننا، كما قلت، بلوغ هذا. لكن كيف سنتحمل المرحلة الانتقالية التي ستلي ذلك والتي ربما تدوم هي الأخرى قرونا عديدة ستظل فيها الحماقات والجور، وهي الهدايا التي قدمتها لنا النساء عبر العصور، متفوقة على كل الخبرة التي سيضفنها إليها ؟ سيكون ذلك هو العصر الذي سيشكل فيه الغضب الإنفعال الذكوري، الغضب من رؤية كل الفنون وكل العلوم تغمرها وتسيخها في الوحل انفعالية غريبة، رؤية الفلسفة يغتالها هذر الثرثارين المجنن، رؤية السياسة أكثر هذيانا وانحيازا من أي وقت مضى، رؤية المجتمع في انحلال تام، كل هذا لأن حارسات التقاليد البالية سيكن قد انتهين إلى رؤية أنفسهن مثيرات للسخرية وسيملن إلى وضع أنفسهن خارج هذه التقاليد بكل الاعتبارات. إن كانت النساء في الحقيقة، تتمتعن بسلطتهن الكبيرة ضمن نطاق التقاليد، فأي شيء سوف لن يلجأن إليه لاستعادة سلطة لها نفس الأهمية بمجرد ما يتخلين عن هذه التقاليد ؟

426. العقل الحر والزواج.

هل سيعيش ذوو العقول الحرة مع النساء ؟ على العموم، أعتقد أنهم سيفضلون ، مثل الطيور النبوئية في الزمن القديم، أن يحلقوا وحدهم، هم الذين يفكرون ويعلنون حقيقة الحاضر.

427. سعادة الزواج.

يحيطنا كل اعتياد بشبكة من خيوط عنكبوتية تشتد صلابتها أكثر فأكثر وسرعان ماننتبه إلى أن هذه الخيوط قد صارت بحيرات وأننا نحتل منها الوسط، كالعنكبوت التي وقعت فيها وليس لها سوى دمها تلتهمه. لأجل هذا يكره العقل الحر كل القواعد وكل العادات، كل الأشياء الدائمة والنهائية، لهذا يعود دائما، وبألم، إلى تمزيق النسيج

* حرية أدبية ألمانية أو اخر ق 18 تميزت بالثورة على القيم الكلاسكية (المترجم)

الذي يحتويه : وإن لزمه، نبيجة لذلك، تحمل الكثير من الجراح البليغة والبسيطة، – لأنه يجب أن ينتزع هذه الخيوط من جسده ومن روحه. عليه أن يتعلم أن يحب ما كان يكرهه حتى ذلك الحين، والعكس. فضلا عن ذلك، لاينبغي أن يستحيل عليه زرع أسنان التنين في الحقل ذاته حيث كان يسكب قرن خصب طيبته فيما قبل. يمكننا، من ثمة، أن نستنتج ما إذا كان قد خُلق لسعادة الزواج.

428. قريبا جدا.

تشبه حياتنا قريبا جدا من أحد الأشخاص أخذنا لرسم بين أصابعنا مرات متتالية : يأتي يوم لانجد فيه بين أيدينا سوى قصاصة ورق ملطخة. الروح الإنسانية هي كذلك تنتهي، من شدة الملامسة الدائمة، بأن تصبح بالية، أو تبدو كذلك على الأقل، ولانعثر أبدا، بعد ذلك، على رسمها وجمالها الأصليين. – إننا نخسر دائما في علاقتنا الأليفة جدا مع النساء ومع الأصدقاء، وأحيانا نخسر فيها جُمانة حياتنا.

429. المهد الذهبي.

سيظل حياً ذاك العقل الحر الذي يقرر في النهاية أن يزعزع تلك العناية وذلك السهر الأموميان اللذان تحيطه بهما النساء بشكل استبدادي. أي سوء سيصيبه به تيار هواء قوي كن يحرسنه منه بقلق، أي أهمية ستكون لضرر حقيقي، لخسارة، لحادث، لمرض، لدين ،لضلال زائد أو ناقص في حياته، مقارنة مع عبودية المهد الذهبي، عبودية المذبة المصنوعة من ريش الطاووس، وعبودية الإحساس القوي بأنه ملزم بالاعتراف بالجميل لكونهن غنجنه ودللنه مثل رضيع ؟ لهذا قد يتحول بسهولة ذلك الحليب الذي تفرغه نساء محيطه في هذا العقل الأمومي إلى مِرَّة.

430. ضحية عن طيب خاطر.

كي تجعل النساء الفضليات حياة أزواجهن سهلة، إن كانوا عظماء مشهورين، فإن أفضل وسيلة يملكنها هي اتخاذهن شكل إناء العداوة التامة، وعند الإقتضاء، إناء المزاج الذي يبديه الآخرون. إن معاصري العظماء عادة ما يغفرون لهم أخطاء وحماقات كثيرة، بل وظلما بشعا، شريطة أن يجدوا شخصا ضحية يذلونه ويضحون به لِيُخَفِّفُوا من غيظهم. لايندر أن تكتشف المرأة في نفسها الطموح إلى أن تهب نفسها لَتكوَن تلك الضحية، والحقيقة هي أن الرجل يمكنه إذاك أن يبدي سروره بذلك، شريطة أن يكون، وهذا أمر مفهوم، أنانيا كفاية كي يقبل بوجود هذا النوع من واقية الصواعق، من الممطرة المتطوعة،بالقرب منه.

431. خصمان لطيفان.

يعمل ميل النساء الطبيعي إلى الهدوء، إلى التناسق، إلى الإنسجام السعيد في الكون كما في العلاقات الاجتماعية، هذا النوع من الزيت الذي ينشره تأثيرهن على بحر الحياة كي يهدئه، يعمل ضد الميل الحميمي للعقل المتحرر إلى بطولية أكثر. دون أن يتنبهن لذلك تفعل النساء ما يفعله الذي يزيل الأحجار من طريق العداني (minéralogiste) كيلا تصطدم بها قدمه، - والحال أنه قد سار في الطريق وغايته الوحيدة هي الإصطدام بها.

432. حيث يتنافر سجعان.

تريد النساء أن تخدمن ويجدن في ذلك سعادتهن : والعقل الحر لايريد أن يخدمه أحد ويجد في ذلك سعادته.

433. زانثيبي

وجد سقراط المرأة المناسبة له، - لكنه لم يكن ليبحث عنها لو أنه عرفها جيدا : حتى بطولية هذا العقل المتحرر لم تكن لتذهب إلى ذلك الحد. الحقيقة أن زانثيبي كانت دائما تدفعه قُدُماً في ميله الأصلي بجعل بيته غير صالح للسكنى ومنزله غير مضياف : هي التي علمته أن يعيش في الأزقة وفي كل الأماكن التي يرتادها الناس للثرثرة و الاستهتار، جاعلة منه أكبر مجادل في أزقة أثينا، ولم يملك في النهاية إلا أن يقارن نفسه بالنعرة التي قد يضعها إله على رقبة تلك الفرس الأثينية الأصيلة كي يمنعها من الراحة.

434. عمياوات عن البعيد.

مثلما الأمهات لايبصرن ولايشعرن حقا إلا بآلام أطفالهن التي تدركها الحواس والبصر، كذلك نساء الرجال ذوي الطموحات السياسية لايستطعن أن يجهدن في رؤية أزواجهن يعانون أويتألمون أو يتم احتقارهم، - وقد لايكون هذا فقط علامة اختيار ملائم في مسار حياتهم، بل الضامن الحقيقي بأنهم حتما سيبلغون أهدافهم الطموحة ذات يوم. النساء دائما يتآمرن خفية ضد سمو روح أزواجهن، يسعين لحرمانهم من مستقبلهم لفائدة حاضر رغد ورفيه.

435. القوة والحرية.

مهما تكن درجة تقدير الزوجات لأزواجهن عالية فإنهن يقدرن السلطات والأفكار المعترف بها من طرف المجتمع أكثر : لقد اعتدن منذ آلاف السنين، وهن منحنيات أمام

كل السادة والأيدي مضمومة على الصدور، أن يحذين حذو السلطة الرسمية ويشجبن أية ثورة ضدها. كما أنهن يتعلقن، حتى دون أن يقصدن ذلك، بل كما لو غريزيا، بعجلات الفكر الحر كنعل كابح لاندفاعه نحو الإستقلال، وفي بعض الأحيان يدفعن أزواجهن إلى أوج نفاذ الصبر خاصة حين يقتنع هؤلاء أن الحب، في الحقيقة، هو دافع نسائهم هنا. استهجان الوسائل التي تستعملها النساء وتقدير الأسباب التي توحي بها تقديراً شهماً، - تلك هي تصرفات الرجال، وهي في الغالب يأس الرجال.

436 . ويُشَرِّعُونَ، فضلا عن ذلك.

شيء مضحك أن نرى جماعة من المعدمين تصدر مرسوما بإلغاء رسوم التركة، ومضحك كذلك أن نرى أناسا ليس لهم أطفال يعملون على منح بلدما تشريعا معياريا : ذلك أنه ليست في سفينتهم صوابير كافية كي ينطلقوا بأمان في بحر المستقبل.نفس السخف يظهر لدى الذي حدد لنفسه مهمة المعرفة الشاملة وتقويم الوجود في كليته، لكنه آرتبك باعتبارات شخصية لأن له عائلة عليه أن يطعمها، أن يحميها، لأن له زرجة وأولادا عليه أن يراعي جانبهم، وأمام منظاره ينشر هذا النسيج الكثيف الذي تخترقه بالكاد بعض الأشعة من عالم النجوم البعيد. هكذا أصل أنا كذلك، على أساس أسمى التأملات الفلسفية، إلى الإفتراض أن كل المتزوجين مشبوهون.

437. في الختام.

هناك أنواع من سم الشوكران، ويكاد القدر يجد دائما فرصة ليسقي المفكر الحر كأساً من هذا السم، - لكي «يعاقب»ه ، كما قد يقول كل الناس بعد ذلك. ماذا تفعل النساء اللائي يكن حوله إذاك ؟ يصرخن ويَنْتَحِبْنَ، وربما يعكرن راحة المفكر وقت أفول شمسه : وهو ما فعلنه في سجن أثينا. وانتهى سقراط إلى القول : «ياكريتون، مر أحدا يخرج هذه النساء !» .

الكتاب الثامن

نظـــرة علـــى الدولـــة

438. طلب الكلمة

تشترك كل الأحزاب السياسية حاليا في الطبع الدهماوي وفي العزم على التأثير في الجماهير : إنهـا كلها مرغمة، بسبب الـعزم المذكورة، على تحويل مبادئـها إلى حماقات كبيرة بـحجم لوحة جدارية لـكي تتمكن بذلك مـن رسمها على الجدران. لـيس هناك شيء يمكن تغييره فـي هذا، بل ليس ضروريا رفع الخنصر لمعارضتـه، لأن ما ينطبق على هذا المجال هي كلمة فولتير : حين تتعاطى الدهـماء التفكير يضيع كل شيء. مادمنا هنا فلابد أن نخضـع لهذه الأوضاع الجديدة، مثلما نـخضع للأوضاع التي يخلـفها الزلزال حين يغير موضع الحدود ويقلب حدود ومظـاهر التربة ويـغير قيمـة الملكية. فـضلا عن ذلك، بما أن الأمـر لم يعد يـتعلق، فـي كل سياسـة، سوى بجعـل الحياة مطـاقة بالنـسبة لأكبـر عدد ممكـن من النـاس، فإن لأغلب الـناس الخيـار، في الواقـع، في أن يقـرروا ما يقصـدونه بحيـاة مطاقة. وإن اعـتقدوا أن لديـهم من الذكـاء مايكفـي ليجدوا كـذلك أحسـن الوسائل لـبلوغ هـذا الهدف، فمـاذا سيجدي الـشك فيـه ؟ يريدون أن يكـونوا صانعـي سعادتهم وتعـاستهم، وإن صَيَّرَ هذا الميـل الذي لديهم لتـدبر أمرهم بأنفـسهم، وتلك الكـبرياء التي أصلـها خمسة أوستـة أفكار تأويها رؤوسـهم وتعبر عنـها، إن صيرا حياتهم رضيـة لدرجة تجعلهم يتحملـون منها، بمرح، عواقب ضيق أفقهـم المحتومة، فلن يكون هـناك شيء كبـير ينبغـي معارضتـه، شريطة ألا يذهـب ضيق الأفق هـذا إلى حد المطالـبة بتحويل كـل الأشياء، بهذا المعنى، إلى السـياسة، المطالبـة بأن يحيا كـل الناس ويتصـرفوا حسب هذا المعيار. أولا، يجب فـي الواقع أن يسمـح للبعض، أكـثر من أي وقت مضى، بالإمتناع عـن السياسة والبقاء على الهامش شيئا مـا : إلى هذا تدفعهم هم كذلـك الرغبـة في تدبـر أمرهم بـأنفسـهم، ويمـكن أن يخـالط ذلك شـيء طفيـف من الكبرياء، كبرياء التزام الصمت حين يكون عـدد من يتكلم كبيرا جدا، أو بكل بساطة،

حين يطفح الكيل. ثم، يجب أن نتغاضى عن عدم أخذ هؤلاء سعادة العدد الكبير من الناس مأخذ الجد، سواء قصدنا بالعدد الكبير شعوبا بأكملها أو طبقات من السكان فقط، وأن نتغاضى عن البرطمة الساخرة الأثيمة التي يسمحون بها لأنفسهم عند الإقتضاء، لأن لجديتهم موضعا آخر، وسعادتهم تحدد بطريقة أخرى، هدفهم لايقاس بشبر هذه الأيدي الثقيلة التي ليس لها ما تمسك به سوى أصابعها الخمسة فقط. أخيرا (من المؤكد أن هذا سيُمنح لهم بصعوبة بالغة، لكن يجب أن يمنح لهم)، تأتي، من حين لآخر، لحظة يخرجون فيها من عزلتهم الصموتة ويجربون مرة أخرى قوة صوتهم : وإذاك يتنادون، مثل أناس تاهوا وسط غابة، ليتعارفو ويشجع بعضهم البعض، الشيء الذي لايمر، طبعا، دون أن يشيع أكثر من شيء مخالف للإحتشام بالنسبة للآذان التي لم يوجه لها هذا الشيء. - ولايلبث بعد ذلك، أن يعود للغابة صمتها، صمت مطبق يسمع خلاله، أوضح من أي وقت مضى، صفير وطنين ورفرفة الحشرات اللاتحصى التي تعيش في الغابة، داخل الغابة أو فوقها أوتحتها.

439. الثقافة والطبقة المغلقة.

لايمكن أن تظهر ثقافة متفوقة إلا حيث توجد طبقتان من المجتمع محصنتان ضد بعضهما : طبقة العمال وطبقة العاطلين القادرين على أوقات الفراغ الحقة، أو بعبارة أبلغ : طبقة تمارس الأشغال الشاقة، وطبقة تمارس العمل الحر. اقتسام الحرية ليس وجهة نظر أساسية حين يتعلق الأمر بإبداع ثقافة متفوقة. والواقع أن لطبقة العاطلين قدرة كبيرة على المعاناة، إنها تعاني أكثر، كما أن فرحتها بوجودها أقل ومهمتها أشق. لو أنه حدث الآن تبادل بين الطبقتين بحيث أن العائلات والأفراد الأكثر بلادة والأكثر غموضا داخل الطبقة العليا يتم إبعادهم إلى الطبقة الدنيا، وبالمقابل يجد الأشخاص الأكثر حرية في هذه منفذا إلى تلك : فسيتم تحقيق دولة لانرى وراءها سوى مَدٍّ كمد البحر من الطموحات الغامضة - هكذا يتحدث إلينا صوت الماضي الخافت، لكن أنى يجدُ آذاناً تسمعه ؟

440. عِرْقٌ نبيل.

إن ما يجعل النساء والرجال الذين من عرق نبيل يتميزون على الآخرين، ويمنحهم حقا ثابتا في التمتع بتقدير كبير جدا، هما فن القيادة وفن الطاعة الأنوفة : فَنَّان ما انفكت الوراثة تُصفيهما. - في أيامنا هذه، حيثما تكون القيادة جزء من العمل اليومي (كما في عالم التجارة والصناعة)، فإنه يتكون شيء مماثل لمثل هذه العائلات «النبيلة

العرق» لكن ينقصه ذلك التماسك في الطاعة الذي هو لدى الآخرين إرث من الحياة الفيودالية والذي لم يعد ينبت في مناخ حضارتنا.

441. الخضـــوع.

إن الخضوع، الذي أقيم له وزن كبير في دولة العسكر والموظفين، سوف يفقد مصداقيته سريعا مثلما فقدها نهج اليسوعيين من قبل. وحين لايعود هناك خضوع فسوف تتولد عن ذلك نتائج مدهشة لن يمكن الحصول عليها مستقبلا، وذلك سيفقر العالم. والحال أنه لابد لهذا الخضوع أن يختفي، لأن مرتكزه سيختفي : إنه الإيمان بالسلطة المطلقة، بالحقيقة القطعية. حتى في الدول ذات الأنظمة العسكرية لايكفي الإكراه البدني لخلق هذا الخضوع، يجب أن يكون فيها افتتان وراثي بالشرف الأميري وكأنه شيء فَوْبَشَرِي. - في دولة اجتماعية أكثر حرية لايتم الخضوع إلاوفق شروط معينة، بموجب عقد متبادل، أي مع الحفاظ كلية على المصلحة الشخصية.

442 .الجيوش الوطنية.

إن أكبر سلبيات الجيوش الوطنية، الجيوش المُمجَّدة كثيرا في أيامنا هذه، هي تبديد رجال الثقافة المتفوقة، وهم الذين لا يكون وجودهم إلا محاباة لنا من طرف كل الظروف، لذلك وجب علينا أن نحيطهم بعناية مقتصدة وغيورة كبيرة جدا، بما أنه يلزم هذه المُدَدَ الكبيرة من الزمن لخلق هذه الظروفَ الجسورةَ التي تُكون هذه العقول ذات البنية الرقيقة ! ومثلما كان الإغريق يريقون الدم الإغريقي سيولا فإن الأوربيين كذلك يفعلون اليوم بالدم الأوربي، معلوم أن رجال الثقافة الراقية هم الذين تتم دائما التضحية بهم بنسبة كبيرة، هم الذين سيضمنون نسلا وافرا وممتازا، لأنهم هم الذين يكونون في المقدمة، حين المعركة، بصفتهم قوادا، وهم الذين يتعرضون للخطر أكثر، فضلا عن ذلك، لأن طموحهم سام جدا. - في هذا العصر الذي تفرض فيه نفسَها مهامٌّ مخالفة تماما، وسامية جدا، غير الوطن و الشرف، فإن هذه الوطنية على الطريقة الرومانية تعتبر إما سوء نية وإما نكوصا.

443. الأمل شكل من الإدعاء.

سيذوب نظامنا الإجتماعي ببطء مثلما ذابت كل النظم السابقة بمجرد ما بدأت شموس آراء جديدة ترسل أشعتها النارية الجديدة على الناس. لايمكن أن نتمنى هذا التقصُّف إلا بأن نَأْمُلَهُ : وغير مسموح منطقيا بأن نأمله إلا إذا اعتقدنا أننا، نحن ذاتنا وأندادنا، نملك في الرأس وفي القلب قوة أكبر من التي لدى ممثلي النظام القائم. وغالبا مايكون هذا الأمل ادعاء وإفراطا في تقدير الذات.

444. الحـــرب.

يمكن أن نقول ضد الحرب : إنهـا تبلد المنتصرين وتُصَيِّرُ المنهزم شريرا. ويمكننا أن نقول لصالحها : إنها تُشِيعُ الهمجية بأثريها المذكورين آنفا، وبذلك تقرب الناس من الطبيعة، إنها سبات أو تشتية (Hivernage) الحضارة، يخرج منهـا الإنسان قويا أكثر إن في الخير أو في الشر.

445. في خدمة الأمير.

إن أفضل ما يمكن أن يفعله رجل دولته، كي يتصرف دون أن يوقفه أحد، هو أن ينجز صنيعه ليس لحسابه هو، بل لحساب أمير ما. إن بريق هذه النزاهة التامة سيبهر عين الملاحظ إلى حد أنها ستعمى عن تلك الخداع (perfidies) والفظاظات التي في صنيع كل رجل دولة.

446. مسألة قوة لامسألة حق.

بالنسبة للذين يفكرون في المنفعة العليا التي في كل الأشياء فإن الإشتراكية، إذا افترضنا أنها فعلا ثورة الناس المضَطَهدين، المسحوقين طيلة آلاف السنين، ضد مضطهديهم، لاتطرح أية مشكلة تتعلق بالحق (مع هذا السؤال المثير للسخرية والجبان : «إلى أي حد يجب أن يخضع الناس لمطالبها ؟ »)، بل تطرح فقط قضية القوة(«إلى أي حد يمكن للناس أن يستغلوا تلك المطالب ؟ »). إجمالا، إن هذا يشبه قوة طبيعية، كالبخار الذي إما يخدُم الإنسان، مرغما، بصفته رب الآلة، وإما يحول الإنسان والآلة معا إلى شظايا في حالة حدوث اختلال في الآلة، أي بسبب أخطاء إنسانية في الحساب أثناء تركيبها. وكي يتم حل مسألة القوة هذه لابد من معرفة قوة الإشتراكية، في أي شكل معدل يمكننا استعمالها كرافع قوي في اللعبة الحالية للقوى السياسية؛ ولابد، عند اللزوم، من فعل كل شيء لتقويته. على الإنسانية أن تفكر، في حضرة كل قوة كبيرة (وحين تكون تلك القوة هي الأخطر) في أن تجعل منها أداة لتنفيذ مشاريعها. لن تحصل الإشتراكية على الحقوق إلا إذا بدت الحرب معلنة بين القوتين الكبيرتين، بين ممثلي النظام القديم وممثلي النظام الجديد، لكن يجب آنذاك أن يخلق الحسابُ الحكيمُ لفرض البقاء والتصالح الرغبةَ في التفاوض لدى الطرفين. لاحقوق دون معاهدة. وحتى الآن ليس هناك، في هذا الميدان الذي ذكرناه، لاحرب ولامعاهدة، إذن لاحقوق كذلك ولا إلزام.

447. استغلال أدنى عدم استقامة.

تكمن قوة الصحافة في كون كل فرد من الأفراد الذين في خدمتها لايشعر إلا بالنزر اليسير من الروابط والواجبات. إنه يقول رأيه في الغالب، لكن في النهاية يحدث له كذلك ألا يقوله، خدمة لوطنه، أو لسياسة بلده، أو لمصالحه الخاصة. لايشق على الفرد أن يتحمل جرائم سوء النية هذه، أو بكل بساطة، ربما، جرائم صمت غير لئيم، لكن عواقب ذلك لاتحصى، إذ يحدث أن يرتكب هذه الجرائم، في الوقت نفسه، أناس كثيرون. كل واحد منهم يقول لنفسه : «بثمن هذه الخدمات الصغيرة جدا أعيش حياة أفضل وأتمكن من أن أقتصد، أن أمتنع عن هذه الاعتبارات البسيطة معناه أن أصير غير مطاق.» بما أن كتابة أو عدم كتابة سطر زائد أو ناقص، روبما دون توقيع، فضلا عن ذلك، بما أنهما يبدوان سيان أخلاقيا فإن كل من له المال والنفوذ يمكنه أن يجعل من أي رأي كان رأيا عاما. ومنذ ذلك الحين يكون الذي يدرك أن الأشياء الصغيرة هي نقطة ضعف أغلب الناس ويريد أن يسخرهم لخدمة غاياته الخاصة، يكون إنسانا خطيرا دائما.

448. نبرة صك الإتهام المغالية.

إذا ما تم وصف أزمة (كعيوب الإدارة مثلا، أو الرشوة والمحاباة داخل الهيئات العلمية والسياسية) بكلمات مبالغ فيها كثيرا فإن الوصف يفقد حظه في أن يؤثر في العقول البصيرة، لكنه يؤثر كثيرا في العقول الأخرى (التي لن يحركها عرض دقيق ومتزن). لكن بما أن هذه العقول غير البصيرة هي التي تشكل الأغلبية الساحقة، وبما أن إرادتها قوية ورغبتها في الفعل مندفعة، فإن هذه المبالغة ينتج عنها في نهاية المطاف تحريات، عقوبات، وعود، وإعادة الهيكلة. – بهذا المعنى يعتبر رسم لوحة تجسد الأزمات بشكل مبالغ فيه شيئا مفيدا.

449 الذين يبدون ذوي سلطة ونفوذ في السياسة.

مثلما الشعبُ يفترض ضمنا أن الذي يمهر في التنبؤ بما سيحدث قبل وقوعه بيوم واحد يمكنه الفصل في الأمور كما يحلو له، فإن أناسا مثقفين وعلماء كذلك يسرفون في الخرافة كي ينسبوا إلى رجال الدولة العظماء كل التغيرات وكل الظروف ذات الأهمية، التي طرأت إبان حكمهم، على أساس أنها من عملهم هم، والحالة أنه جلي جدا أنهم قد علموا بها قبل الآخرين وبنوا حساباتهم على ذلك العلم : وينظر إليهم الناس بذلك على أنهم ذوو سلطة ونفوذ – وهذا الاعتقاد لايشكل أدنى أدوات قوتهم.

450. التصور القديم والجديد للحكومة.

إن التمييز بين الحكومة وبين الشعب كما لو كان الأمر يتعلق بمنطقتي قوة تتفاوضان قبل أن تتفقا، الواحدة قوية وسامية، والأخرى ضعيفة ومتدنية، هو شيء يصدر عن حس سياسي موروث عن الماضي، وهو الآن، في أغلب الدول، يوافق الواقع التاريخي لميزان القوى تماما. مثلا، حين يصف بسمارك (Bismark) الشكل الدستوري بأنه صك تراض بين الحكومة وبين الشعب فإنه يتحدث طبقا لمبدإ له حجته عبر التاريخ (ويستنتج منه، بالطبع، ذرة الغباوة التي بدونها لن يمكن لأي شيء إنساني أن يوجد). بالمقابل، يريدون الآن أن يعلمونا – طبقا لمبدإ خرج مثلما هو من المخ ويفترض أنه سيصنع التاريخ هو وحده – أن الحكومة مجرد عضو من الشعب وليست جهازا «عاليا» حكيما ووقورا مقارنة مع شعب «متدن» اعتاد التواضع. ولنتحمل، رغم كل شيء، عواقب تعريف فكرة الحكومة هذا قبل إقراره، وهو الآن ضد تاريخي (antihistorique) وتعسفي، وإن كان منطقيا : لأن العلاقة بين الشعب والحكومة هي أقوى أنواع العلاقة، هي الشكل نفسه الذي تحتذيه علاقات التلميذ والإستاذ، السيد والخدم، الأب والأسرة، القائد والجندي، المعلم الحرفي والمتمهن. حاليا، وتحت تأثير شكل الحكومة الدستوري، تتغير كل هذه العلاقات شيئا ما : تصبح صكوكَ تراض. وكم سيكون عليها أن تستحيل* وتتشوه، أن تغير اسمها وطبيعتها، حين يتمكن هذا التصور الآخر الجديد كلية من العقول في كل مكان ! صحيح أن ذلك شيء قد يتطلب قرنا من الزمن. ولاشيء يمكن أن نرجوه بصدد هذا أكثر من الحذر والتطور البطيء.

451. العدالة طُعْمٌ للأحزاب.

قد يحدث بالتأكيد أن يتعهد بعض الممثلين النبلاء للطبقة الحاكمة (والذين ليسوا متبصرين جدا) بما يلي : «سنعامل الناس على قدم المساواة، سنعترف لهم بحقوق متساوية»، وبهذا المعنى يمكن أن يكون هناك توجه اشتراكي مرتكز على العدالة، لكن فقط، كما أسلفنا، في أوساط الطبقة الحاكمة التي تمارس العدالة، في هذه الحالة، في الوقت الذي تقدم فيه تضحيات وتبين عن نكران الذات. على العكس من ذلك، فإن المطالبة بمساواة الحقوق، مثلما يفعل الاشتراكيون والطبقة الخاضعة، لم تعد على الإطلاق تشكل تعبيرا عن العدالة، بل عن الجشع. – حين نري السبع، عن قرب، أطراف لحم دام ثم نسحبها، حتى أنه في النهاية يشرع في الزئير، فهل تعتقدون أن ذلك الزئير مطالبة بالعدالة ؟

* تغيير في الكيف مع بقاء الصورة النوعية (المنهل)

452. الملكية والعدالة.

حين يبرهن الاشتراكيون على أن تقسيم الملكية، في المجتمع الإنساني الحالي، هو نتيجة أعمال جائرة وأعمال عنف لاحصر لها، ويرفضون جملةً كل التزام بخصوص هذا التقسيم ذي المرتكز الجائر، فإنهم لايدركون سوى جزئية واحدة. فماضي الحضارة القديمة كله مبني على العنف والإستعباد والخديعة والخطأ، لكننا نحن ورثة كل حالات وترسبات هذا الماضي كله لايمكننا أن ننفصل عنه بمرسوم، بل لايمكننا السماح لأنفسنا بأن نقتطع منه جزء واحدا، إن مبدأ الجور متمكن من نفوس غير المالكين كذلك، إنهم ليسوا أفضل من المالكين وليس لهم أي امتياز أخلاقي، فقد كان أسلافهم مالكين بدورهم في زمن ما. إن ما ينقصنا ليس تقسيمات جديدة وعنيفة، بل تغيرات تدريجية في العقل، ينبغي أن تنمو العدالة ويضعف مبدأ العنف لدى كل الناس.

453. نُوتيُ الانفالات.

يثير رجل الدولة انفعالات شعبية كي يستفيد من الإنفعال المضاد الذي ينتج عنها. لنأخذ مثالا : يعرف رجل الدولة الألماني جيدا أن الكنيسة الكاثوليكية لن تكون لها أبدا نفس المشاريع التي تكون لروسيا، بحيث أنها ستفضل حتى التحالف مع الأتراك على التحالف مع روسيا، إنه يعرف، من جهة أخرى، أن خطر تحالف روسيا وفرنسا يشكل تهديدا لألمانيا. إن استطاع إذن أن يتوصل إلى جعل فرنسا مقرا للكنيسة الكاثوليكية ومعقلا لها فإنه سيكون قد أبعد الخطر لمدة طويلة. من مصلحته بالتالي أن يبدو شديد الحقد على الكاثوليك وأن يلجأ إلى أعمال عدوانية من كافة الأشكال كي يحول البابويين إلى قوة سياسية منفعلة تكون معادية للسياسة الألمانية وسيكون عليها بالطبع أن تمزج بين قضيتها وبين قضية فرنسا، عدوة ألمانيا : سيكون من أهداف هذا الرجل كذلك جعل فرنسا كاثوليكية ، فرنسا التي كان ميرابو يرى خلاصها في إخراج الكاثوليكية منها. –هكذا تريد دولةٌ تعتيم ملايين العقول في دولة أخرى لتستفيذ من ذلك. إنها نفس حالة العقل الذي، في الدولةالمجاورة، يدعم الشكل الجمهوري في الحكم – الفوضى المُنَظَّمَة، كما يقول ميريمي – لمجرد كونه يعتقد أن هذا الشكل يستطيع مفاقمة الضعف والإنقسام والعجز لدى الشعب.

454. الثوريون الخطرون.

سنميز لدى الذين يحلمون بالثورة داخل المجتمع، أولئك الذين يريدون الحصول على شيء لأنفسهم وأولئك الذين يريدون الحصول على شيء لأبنائهم وأحفادهم.

هؤلاء الأخيرون هـم الخطيرون، لأن لهم إيمانَ الـنزاهةِ وراحةَ ضميرها. الآخرون يمكن أن يُعطاهم شيء مؤقت : وتكون الجماعة الحاكمة دائمـا غنية وفطنة بما فيه الكفاية كي تقوم بهذا . يبدأ الخطر بمجرد ما تصير الأهـداف لاشخصية، فالثوريون الـذين تحركهم أهداف لاشخـصية مهيـأون لاعتبار كل المـدافعين عن النظـام القائم متـنفعين، وبالـتالي يشعرون أنهم أسمى منهم.

455. القيمة السياسية للأبوة.

الذي لـيس لـه أبنـاء ليس له الحـق مطـلقـا في أن يـتداول مـع الآخريـن بخـصوص حاجيات دولة قائمـة. يجب أن يكون قد جازف فيها مع الآخرين بـأغلى مايملك، هذا وحده هو ما يـخلق رباطا متيـنا مع الدولة. علـى المرء أن ينشغل بسـعادة ذريته، إذن أن تكـون له ذرية قـبل كل شـيء، كي يكـون له اهتمـام عادل وطبـيعي بـكل المؤسـسات وبتحولها. إن تطور الأخلاق الراقية يتوقف عـلى أن يكون للمرء أبناء، هذا هو ما يقْلب الحالات الأنانية لدى الأب، أو بالضبط : هو ما يوجه أنـانيته نحو الدوام ويجعله يجري جديا وراء أهداف تتجاوز وجوده الفردي.

456. فخور بأسلافه.

يمكن للمـرء، بل يحق له، أن يفخر بسلالـة متصلة من الأجداد الصـالحـين تمتد حتى الأب، - لكن ليس له أن يفخر بالسلالة ذاتـها، لأن لكل شخص سلالته. الإنحدار من أجداد صالحين هو ما يشكل نبل الولادة الأصـيل، ويكفي وجود انقطاع واحد في هذه السلسلة، أي وجود جد واحد خبيث، كـي يزول نبل الولادة هذا. إن كل من يتحدث عن نبالته يجب أن نسأله : أليس فـي أجدادك شخص عنيف، وجشع أو فاسق أو فظ ؟ إن استطاع أن يجيب بالنفي صادقا وجب علينا السعي لاكتساب صداقته.

457. العبيد والعمال.

إننا نولي إرضاء غرورنا أهمـية أكبر من التي نوليها لباقي رفاهيـتنا (للأمن، للأماكن وللذات بكـل أشكالها)، إننـا نرى ذلك جيدا، إلى حـد السخافة، في كـون كل الناس يتمنون (دون أي سبب سياسي) إلغاء العبوديـة، ويرعبهم استعباد الناس أيما رعب، ومع ذلك فإن كل الناس سيقـولون لأنفسهم أن العبيد يحيون، بكـل الاعتبارات، حياة أكثر أمناً وسعادة من حياة العـامل العصري، أن عمل العبد يعتبر شيئـا قليلا إذ ما قورن بعمل «العامل». يحتج الناس باسم «الكرامة الإنسانية» : والحالة أنه هنا يكمن، بالتلميح، ذلك

الغـرور العزيز الـذي يجعـل الناس يـكتشفـون أن أقسى مـصير قـد يؤولون إليـه هو ألا يعامَلـوا على قدم المساواة وأن يُنْتَقَصَ من قيـمتهم أمام المـلأ. - يفكر الـكلبي بـشكل مخالـف بشأن هذا الموضـوع، لأنه يزدري الشرف : - ولـذلك كان ديوجين، لـبعض الوقت، عبدا ومربيا منزليا.

458. قواد الناس وأدواتهم.

إننا نرى السـياسين الكبار، وبشكل عـام، كل الرجال المجبرين علـى استخدام عدد من الناس لتنفيذ مخططاتهم، نراهم تارة ينهجون طريقة ما و تارة أخرى طريقة مغـايرة : إنهـم إما يختـارون بـدقة كبـيرة وبعـناية أولـئك الأشخـاص الذيـن يناسـبون تخطيـطاتهم، وآنداك يتـركون لهم حرية كبـيرة نسبيا، وهـم يعلمون أن طبـيعة هؤلاء المختارين سـتدفعهم بالـضبط إلى المكان الـذي يريدونهم أن يكـونوا فيه؛ وإما يسـيئون الاختيار، يأخذون الـناس الذين تطالهم أيديهـم، لكنهم يشكلون من ذلـك الطين شيئا يتطابق مع غاياتهـم. ويكون أفراد هذه الفصيلة الأخيررة أكثر عنفـا، ويتطلبون كذلك أدوات أكثر خضـوعا. وعادة ما تكون مـعرفتهم بالـناس أقل، وإزدراؤهم لهم أكـبر مما هما عليه لدى أفراد الفصيلة الأولى، لكن الآلة التـي يصنعونها غالبا ماتعمل أفضل من الآلة التي تنتجها معامل الآخرين.

459. ضرورة قانون استبدادي.

يختصم رجال القانون في ما إذا كان القانون المنظَّم أكثر بطريقة منهجية أم القانون الذي يسـهل فهمه هو الـذي سينتهي بـأن يسود شعبا مـا. القانون الأول، الذي يعـتبر القانون الروماني نموذجه الذي لا نظير له، يبدو غير مفهوم لدى الجاهل بأصول القانون والذي لا يـرى فيه، بالـتالي، تعبيرا عـن حسه القـانوني. لـقد كان القـانون الشعـبي، كالقانون الجرماني مثـلا، غير متقَن، خرافيا، لامنطقيا، وعبثيـا في جزء منه، لكنه كان يستجيـب لبعض التـقاليد والعواطـف المعينة ذات الطـابع الوطني والوراثـي. - غير أن القـانون لايمكن أن يـكون سوى أمـر وإكراه هناك حـيث لم يـعد تقلـيداً (tradition)، مثلما الأمر عندنـا، إنه لم يعد لدينا أي حس قانوني تقليدي، ويـجب علينا كذلك أن نكتـفي بقوانين اسـتبدادية، فالـضرورة تتطلـب حتما أن يكـون هناك قانون. والـقانون المقبول أكثر، في كـل الحالات، هو القانون المنطقي أكثر، لكونـه هو المحايد أكثر : مع احتمال أن يوافق عـلى كون أصغر المعايير المطـبقة على الصلة بين الجريمـة والعقاب يتم تحديدها بشكل تعسفي في كل واحدة من هاتين الحالتين.

460. عظيم الجماهير.

من السهل إعطاء وصفة تكوين ما بسميه الجماهير رجلا عظيما. أوْ جدْ لها، في الحل والترحال، شيئا يرضيها، أو اجعلها تعتقد أن هذا أوذاك سيرضيها كثيرا، ثم امنحه إياها. لكن، مهما يكن التعويض : ودون أن تدخر عناء، ابذل قصارى جهدك في الحين كي تحصل على ما يرضيها، أو فلتتظاهر بذلك. يجب أن يكون لدى الجماهير انطباع بأن هناك إرادة قوية، بل إرادة لاتقهر، تباشر العمل، ينبغي، على الأقل، أن تبدو مباشرة للعمل. الكل يعجب بالإرادة القوية، لأنه لاأحد يمتلكها، ولأن كل واحد يقول لنفسه أنه لو امتلكها فلن تكون هناك حدود بالنسبة له، بالنسبة لأنانيته. وإن بدا آنداك أن قوة الإرادة هذه تحقق شيئا مرضيا جدا للجماهير عوض أن تحقق أمنيات جشعها هي فإن الناس سيعجبون بها مرة أخرى وسيهنئون أنفسهم. حتى وإن كانت لهذا الرجل المتطوع كل خاصيات الجماهير فإن شعبيته ستتنامى كلما قل خجل الجماهير أمامه.فليكن شرسا، حسودا، مستغلا، دساسا، مجاملا، متذللا، منتفخا كبرياء، وكل ذلك حسب الظروف.

461. الأمير والإله.

يقيم الناس مع أمرائهم نفس العلاقات التي يقيمونها مع إلههم، وذلك مادام صحيحا، لاعتبارات عدة، أن الأمير هو ممثل الإله، أو على الأقل كاهنه الكبير. إن هذا الإحساس المقلق، إحساس الإجلال الذي هو في الوقت نفسه إحساس بالخشية والحشمة، قد ضعف كثيرا في الماضي وفي أيامنا هذه، لكنه يشتعل من جديد في بعض الأحيان ليرتبط، بشكل عام، بالشخصيات القوية. وما تقديس العبقرية إلا بقية من إجلال الآلهة والأمراء هذا. حيثما جَدَّ الناس في رفع بعض الرجال، وهم مجرد أشخاص بسطاء، إلى وضع فوإنساني، فإنه يظهر ثمة كذلك الميل إلى تصور بعض طبقات المجتمع بأكملها أكثر فظاظة ودناءة مما هي عليه في الواقع.

462. مدينتي الفاضلة.

سيكون علينا، داخل نظام اجتماعي أفضل، أن نخُص بأقصى العقوبات ذلك الذي سيعاني منها بشكل أقل، أي الشخص الأكثر لامبالاة، وأن نسند إليه الأعمال الشاقة المضنية في الحياة، ثم نرتقي تدريجيا حتى نبلُغ الإنسان الأكثر إحساسا بأنبل أصناف المعاناة وأكثرها تساميا، ذلك الإنسان الذي لن تمنعه من الاستمرار في الحياة حياةٌ قد خففت آلامها إلى أقصى حد.

463. وهم في نظرية الثورة.

هنـاك حالمون بـخصوص الـسياسـية والمجتـمع يدفـعون، بكـل فصاحـتهم الملتهبة حمـاسا، إلـى ثورة شامـلة عـلى النـظام الـقائم،اعـتقـادا منهـم بأنـه مباشـرة بعـد ذلك سيـنتصب، كـأنما من تـلقاء نفـسه، أكبـر معبـد للإنسانـية الجمـيلة. في هـذه الأحلام الخطيرة يستمر صدى خرافة روس و الذي يؤمـن بطيبة الجبلة الإنـسانية (la nature humaine) ، طيـبة خارقـة وأصيلـة، ولكنـها تبـدو الآن شبه مُوَرَّاة، ويـعزو خطـأ هذه المواراة إلى مؤسسات الحضارة، أي إلى المجتمع والدولة والتربية. إننا نعلم، مع الأسف، على إثر تجارب تاريخـية، أن كل ثورة من هذا النوع تحيي أشد الطاقـات توحشا، باعثة من العصور القديمة الرعب والقسوة المطمورين منذ أمد طويل؛نعلم أن الثورة يمكن إذن أن تكون مصدر طاقة بـالنسبة لإنسانية منهكة، لـكنها لن تكون أبدا، بالنسبـة للطبيعة الإنسانـية، معماريـا ينسقهـا وفنانا يـنجزها. إن الذي أثـار روح الثورة الطمـوحة هذه، والتي أنادي ضـدها بما يلي : «اسحقـوا الدنيء»، ليس هو فـولتير، بطبعـه المتزن، الذي يميل إلى التنظيم والتطهير وإعادة البناء، بل هو روسو، هي حماقاته وأكاذيبه المتحمسة، وهو الذي طرد لمدة طويلة روح الأنوار وروح التطـور التدريجي : وقد جاء دورنا لنرى - كل من جهته - إن كان استرجاع تلك الروح ممكنا.

464. الإتزان.

إن الحزم الصـارم في الفكـر وفي البحث، أي الـفكر الحر، حين يـصير خاصـية من خاصيات الـطبع، يضمن سلـوكا متزنا : لأنه يُضعـف الجشع، يجذب إليه قـدرا كبيرا من الطاقة المتاحة، لصالح الطمـوحات الفكرية، ويكشـف في كل التغيرات الفـجائية عن منفعتها القليلة، بل عن عدم منفعتها وعن خطرها.

465. انبعاث الروح.

حين يمرض شـعب ما سياسـيا فإنه غـالبا ما يسـتعيد حيـنذاك حياتـه بشكل تلـقائي ويسـترجع روحـه التي فقـدها شيـئا فشـيئا فـي البحـث عن القوة والاحـتفاظ بـها، إن الحضارة مدينة بأسمى قيمها لمراحل ضعفها السياسي.

466. الأفكار الجديدة تسكن البيت القديم.

إن سقوط الأفكار لا يتبعه مباشرة سقوط المؤسسات، لكن الأفكار الجديدة تسكن لمدة طويـلة بيت سابـقتها الـذي صار خَرِباً ومزعجـا، بل إنها تحافـظ عليه لأنـها لاتجد مكانا آخر يؤويها.

467. التعليم.

في الدول العظمى سيكون التعليم دائما رديئا، على أكثر تقدير، بسبب كون الناس، في المطابخ الشهيرة، لايطهون على مهل أبدا، وهم يحولون الأشياء إلى الأفضل، سوى طعام رديء.

468. فساد بريء.

كل المؤسسات التي لاتهب عليها ريح النقد الشعبي القوية ينمو فيها بسرعة فساد بريء (في الهيئات العلمية مثلا، أو في مجالس الأعيان).

469. العالم الذي صار سياسيا.

حين يصير العلماء سياسيين فإنه عادة ما يُسند إليهم الدور الهزلي، دور أن يكونوا راحةَ ضميرِ سياسةٍ ما، سواء أحبوا ذلك أم كرهوه.

470. الذئب في إهاب الحمل.

في بعض الأحوال يحدث لكل سياسي تقريبا أن يكون في حاجة ماسة إلى إنسان نزيه لدرجة أنه يقتحم الحظيرة مثل ذئب جائع : إلا أنه لايقتحمها ليفترس الكبش المخطوف، بل ليختبئ في إهابه الأصْوَف.

471. عصور سعيدة.

إن عصرا من السعادة شيء مستحيل بالإطلاق لأن الناس يكتفون بتمنيه دون أن يريدوه فعلا، ولأن كل فرد، حين تصادفه أيام سعيدة، يتعلم أن يستدعي إليه القلق والبؤس. قَدَرُ الناس مرتب ليلائم اللحظات السعيدة – ففي كل حياة هناك لحظات سعيدة – وليس ليلائم عصورا كاملة من السعادة. إنها عصور باقية في خيال الناس، مع ذلك، متخذة شكل «ماوراء الجبال»، كإرث من العهود السالفة، إذ لاشك أن الناس قد استعاروا، بشكل ممعن في القدم، تصورهم للعصور السعيدة من تلك الحالة التي يخلد فيها الإنسان، بعد بذله مجهودات عنيفة في الصيد والحرب، إلى الراحة، يمد أعضاءه ويسمع حفيف أجنحة النوم حوله. يتصور الإنسان، من خلال قياس فاسد، أنه يمكنه الآن، طبقا لهذه العادة القديمة، وبعد قرون كاملة من الضيق ومن التقلبات، أن يضع يده على حالة السعادة هذه، وهي حالة مكثفة ومطولة بالمقارنة مع تلك القرون.

472. الدين والحكومة.

طالما عرفت الدولة، أو الحكومة بالضبط، أنها تحت وصاية جمهور أصغر(mineure)، وطالما وزنت مسألة معرفة إن كان عليها أن تحتفظ بالدين لنفسها أو أن تلغيه، فإنه يكون من المحتمل جدا أن تقرر الإبقاء على الدين. لأن الدين يضمن طمأنينة النفس في مرحلة الإحباط، مرحلة الحرمان والرعب والريبة، أي في المرحلة ذاتها التي تشعر فيها الحكومة بأنها عاجزة عن فعل أي شيء، بشكل مباشر، كي تخفف الآلام المعنوية للفرد. فضلا عن ذلك فإن الدين يضمن، حتى في حالة الكوارث العامة التي لايمكن تفاديها ولاعلاجها رأسا (كالمجاعات والأزمات المالية والحروب)، يضمن موقفا هادئا، ترقبيا، وواثقا، من طرف الجمهور. حيثما تكون أخطاء الحكومة، المحتومة أو العرضية، أوالآثار الخطيرة لمصالح سلالية،*واضحة لعين الإنسان المتبصر وتهيئه للتمرد، فإن الآخرين الأقل تنورا سيعتقدون أنهم يرون وراء ذلك يدا إلهية وسيخضعون دون تبرم لأوامر الفوق (وهو مفهوم عادة ما تختلط فيه طرق الحكم الإلهية و الإنسانية) : هكذا سيكون قد تم الحفاظ على الأمن المدني في الداخل، وكذلك على استمرار التطور. الدين يحمي ويرسخ القوة الكامنة في وحدة مشاعر الشعب، في الآراء المتطابقة والأهداف المتماثلة بالنسبة لكل الناس، باستثناء الحالات النادرة التي لايتوصل فيها رجال الدين إلى اتفاق على الثمن مع السلطة العمومية ويدخلون معها في صراع. وعادة ما تعرف الدولة كيف تصالح الكهنة لأنها تحتاج إلى فنهم الشديد الخصوصية والسري في مجال تربية النفوس، ولأنها تعرف كيف تقدر الخُدام الذين يتصرفون ظاهرا وظاهريا باسم مصالح مغايرة تماما لمصالحها هي. لايمكن لأية قوة، حتى في أيامنا هذه، أن تصير «شرعية» دون مؤازرة الكهنة لها : وهو ما أدركه نابليون جيدا. – هكذا يقترن الحكم المطلق الوصي بالحفاظ اليقظ على الدين.. الآن وقد ثبت هذا فإنه يمكننا الإقرار بأن الشخصيات والطبقات الحاكمة مرتبطة بواقع المنفعة التي يضمنها الدين لها، وهكذا تشعر بتساميها عليه إلى حد معين بما أنها تستخدمه كما تستخدم وسيلة ما: الشيء الذي يفسر كون هذا أصل الفكر الحر. لكن ما عسانا نقول الآن وقد بدأ تصور فكرة الحكومة هذا المغاير تماما، والذي يدرس في الدول الديمقراطية، يفرض نفسه ؟ هل نقول إننا لانرى فيه سوى أداة لإرادة الشعب، أنه ليس شيئا رفيعا منسوبا إلى شيء حقير، بل هو، بكل بساطة، وظيفة السيد الوحيد، أي الشعب ؟ هنا لايسع الحكومة إلا أن تتخذ من الدين نفس الموقف الذي

* متعلق بالسلالة الحاكمة = (dynastique)

يتخذه الشعب منه، ولابد لأي نشر للمعارف أن يطال أثره حتى ممثلي الدين، وسوف لن يعود ممكنا استعمال واستغلال الدوافع والمواساة الدينية لأغراض سياسية (اللهم إلا إذا مارس بعض قادة الأحزاب، مؤقتا، تأثيرا يبدو مشابها لتأثير الإستبداد المستنير). لكن إن لم يكن للدولة ذاتها إذنٌ لاستغلال الدين، أو إن نما الشعب آراء شديدة التباين بخصوص الدين حتى أنها لاتسمح للحكومة، حين تتخذ إجراءات بشأن الدين، باتباع طريقة متجانسة ومتسقة، فإن ما سينتج عن ذلك حتما هو اعتبار الدين شأنا خاصا وترك مسؤولية ممارسته أو عدمها لضمير وعادة كل واحد على حدة. وستكون نتيجة ذلك، قبل كل شيء، هي ظهور الحس الديني حصينا، ذلك أن الميول السرية والمكبوحة، التي كانت الدولة تخنقها عن قصد أو عن غير قصد، ستتفجر آنذاك وقد تم دفعها إلى أقصى الجموح، وسننتبه لاحقا إلى إن الدين قد اختفى وراء كثرة الطوائف، وأننا قد زرعنا أضراس التنين بشكل مسرف منذ جعلنا من الدين شأنا خاصا. وفي نهاية الأمر لن يترك مشهد النزاعات وتعرية ضعف الإعترافات الدينية (confessions)، أثناء العداوة، لن يتركا لكل واحد من الأفاضل ومن النابغين أي مخرج آخر سوى أن يجعل من اللادين شغله الشاغل : تلك هي العقلية التي ستفرض نفسها آنداك حتى على عقل رجال الحكومة وتضفي صبغة مضادة للدين على الإجراءات التي سيتخذونها، وإن فعلوا ذلك على مضض. بمجرد ماتبلغ الأمور هذا الحد ستنقلب تصرفات الناس الذين لانزال العواطف الدينية تحركهم، والذين كانوا من قبل يفتتنون في الدولة بشيء مقدس جزئيا أو كليا، ستنقلب إلى تصرفات معادية للدولة بشكل صريح. سيرصد هؤلاء الناس إجراءات الحكومة، سيحاولون أن يشلوا الحكومة، أن يتصدوا لها، أن يقلقوها قدر ما يستطيعون، وبذلك سيرمون بالخصم، أي بالطرف اللاديني، المدفوع بنار معارضتهم ذاتها، في أتون حماس أشبه بالتعصب للدولة، الشيء الذي سيقرن به أثر خميرة سرية، لأن النفوس ستشعر بالفراغ منذ لحظة القطيعة بين هذه الأوساط وبين الدين، وستسعى، بوفائها للدولة، إلى إيجاد بديل مؤقت، نوع من سدادة فجوات. بعد هذه الصراعات الإنتقالية، والتي قد تدوم طويلا، ستكون أخيرا قد حلت مشكلة معرفة ما إن كانت لاتزال لدى الأطراف الدينية قوة كافية لإحياء الحالة القديمة للأشياء والعودة بالأمور إلى الوراء : في هذه الحالة حتما سيأخذ الاستبداد المستنير بزمام الدولة (وربما يكون أقل استنارة وأكثر خجلا من ذي قبل)، - أو ستنتهي الأطراف اللادينية، إن كانت لها الغلبة، إلى جعل ذلك مستحيلا، وذلك بتعريض بقاء خصومها للخطر من خلال المدرسة والتربية، كما قد نتصور. لكن هذا التحمس للدولة سيفتر آنداك حتى لديهم : سيبدو جليا أكثر فأكثر أن الرجة التي ستصيب هذا التَّدلُّه الديني،

الذي تعتبر الدولة بالنسبة له سرا ومؤسسة فوطبيعية، ستصيب كذلك كل ما كان يتم إضفاؤه عليه من إجلال وتقوى. ومنذ ذلك الحين لن يرى الأفراد من الدولة إلا الجانب الذي قد ينفعهم أو يَضرُ بهم، وَسَيُهَاجِمُونهَا بكافة الوسائل من أجل أن يتغلبوا عليها. لكن هذا التنافس سرعان ماسيحتد، وسيتغير الناس والأحزاب بسرعة كبيرة، سينحدرون بالتناوب إلى السفح، وهم لو يكادوا يبلغوا القمة، في فوضى عارمة. وستفتقر كل الإجراءات التي ستفرضها دولة ما إلى ضمان الدوام، سيتراجع الناس أمام مشاريع تتطلب عشرات، بل مآت السنين من النمو الهادىء كي تؤتي ثمارها في إبانها. سوف لن يشعر أي واحد تجاه القانون بأي واجب غير الإنحناء أمام القوة التي شرعته : لكن في الحال سيشرع الناس في العمل على تقويضها بواسطة قوة جديدة، بأغلبيه جديدة يتعين تشكيلها. في الأخير - ويمكن أن تثبت ذلك بيقين - إن الإرتياب في كل مايمت بصلة إلى الحكومة، وكشف الجانب العديم الجدوى والمنهك في هذه الصراعات الحادة، لايمكنهما إلا أن يدفعا الناس إلى قرار جديد كل الجدة : حذف مفهوم الدولة وإلغاء المعارضة «الخاصة والعامة». وبالتدريج ستبتلع الشركات الخاصة أمور الدولة : حتى أقسى ما سيتبقى من عمل الحكومة القديم (مثل تلك الوظيفة التي غرضها حماية الخواص من الخواص) سيؤول أمره في نهاية المطاف إلى المقاولين الخواص. إن ازدراء الدولة وانحطاطها و موتها ، إن تحرير الخاص (لا أقوى على قول : تحرير الفرد)، هي نتائج التصور الديمقراطي للدولة، هنا تكمن رسالته. وبمجرد ما ينجز مهمته (التي تحمل في طياتها كثيرا من الصواب والخطأ، مثلها مثل كل الأمور الإنسانية)، بمجرد ما يتغلب على انتكاسات المرض القديم كلها، فإن صحيفة جديدة ستتلاحق أحداثها في كتاب حكايات الإنسانية، وسيقرأ فيها كل أنواع القصص الغريبة، ربما مع بعض المقاطع الجيدة كذلك. لنوجز ماسبق : إن مصلحة الحكومة في دورها كوصية ومصلحة الدين تسيران يدا في يد بحيث أنه بمجرد ما يبدأ الدين في الإنحدار تتزعزع أسس الدولة. إن الإيمان بنظام إلهي في الشؤون السياسية، بسر في وجود الدولة، لهو تفكير ذو أصل ديني : إذا زال الدين فستفقد الدولة، بزواله، حتما حجاب إيزيس* القديم الذي يغطيها، ستكف عن إلهام الإجلال. إن سيادة الشعب، منظورا إليها عن كثب، ستصلح كذلك لإزالة آخر بقايا السحر والخرافة في ميدان العواطف هذا. ستكون الديمقراطية الحديثة هي الشكل التاريخي الذي يمثل انحطاط الدولة. مع ذلك فإن المنظور الناتج عن هذا الإنحطاط ليس كارثيا بكل الإعتبارات :

* إيزيس : إلهة الأمومة والخصب المصرية .

فمن بين كل خاصيات الناس تعتبر فطرتهم وأنانيتهم هما الأفضل تطورا، وحين تكف الدولة عن الاستجابة لمتطلبات هاتين القوتين فلن تكون الفوضى أبدا هي ما سيحل محلها، بل ابتكارٌ أشدُّ فعاليةً من الدولة هو الذي سيتمكن من الانتصار عليها. عديدة هي قوى التنظيم التي شهدتها الإنسانية تنضني من قبل، مثل قوة رابطة العرق التي كانت طيلة ألفيات أقوى بكثير من رابطة العائلة، والتي كانت كذلك تملك حتى السلطة والتنظيم قبل أن تتشكل العائلة بأمد طويل. إننا نرى فكرة الحق والسلطة العائليين الكبيرة تشحب وتضعف أكثر كل يوم، وهي التي هيمنت على العالم الروماني في كامل امتداده. هكذا سيرى جيل مستقبلي الدولة هي الأخرى تفقد كل أهمية، - فكرة قلما يستطيع الكثير من المعاصرين التفكير فيها دون أن تلفهم الخشية والرعب. أكيد أن العمل على نشر هذه الفكرة وتحقيقها هو شيء أخر: يجب أن ننمي رأيا مغرورا جدا بخصوص صوابه وأن لانفهم التاريخ إلا جزئيا لكي نمسك بالمحراث منذ الآن، - والحال أنه لا أحد يستطيع أن يُرينا البذور التي سيكون علينا زرعها بعد ذلك في الأرض المحروثة. لنثق إذن «في فطرة الناس وفي أنانيتهم» قصد ترك الدولة تبقى بعد وقتا طويلا والتصدي للمحاولات التخريبية التي يقوم بها بعض أنصاف العارفين المتحمسين والمستعجلين جدا.

473. الإشتراكية من وجهة نظر وسائلها في العمل.

الإشتراكية هي الأخ الأصغر والغريب الأطوار للإستبداد المحتضر، وهي تريد أن ترثه. طموحاتها إذن رجعية بأدق ما في الكلمة من معنى. ذلك أنها ترغب أن تبلغ قوة الدولة تلك الدرجة من الكمال التي لم يبلغها قط غير الاستبداد، بل إنها تزايد على الماضي رامية إلى تدمير الفرد بلا قيد أو شرط: هذا الفرد الذي يبدو لها ترفا أوجدته الطبيعة دون أن تبرره بحيث تعتقد هي أنها مدعوة إلى إصلاحه كي تجعل منه أداة نافعة ضمن الجماعة. وبسبب هذه القرابة تظهر دائما بجانب كل عرض مفرط للقوة، مثلما كان النموذج الإشتراكي القديم، أفلاطون، يظهر في ساحة طاغية صقلية. إنها تتمنى أن تؤول الدولة للاستبداد القيصري (وتساعده عند الإقتضاء) لأنها تريد،مثلما أسلفت، أن تكون وارثته. لكن حتى هذا الإرث لن يفي بغايتها،لأن ما يلزمها هو خضوع كل المواطنين خضوع العبيد للدولة المطلقة، خضوعهم بشكل لم يسبق له نظير. وبما إنه لايمكنها حتى الاعتماد على الورع الديني القديم الذي كانت تستفيد منه الدولة، والذي يجب عليها، على العكس، أن تعمل باستمرار، طوعا أو كرها، على إزالته - بما أنها تعمل فعلا على إزالة كل الدول القائمة - ، فإنه لايمكنها أن تأمل في تحقيق وجودها هنا

أو هناك إلا لمدة قصيرة، ملتجئة إلى الإرهاب العنيف. لذلك تستعد خفية لممارسة الرعب، لذلك تدق كلمة «عدالة» مثل إسفين في رؤوس الجماهير النصف مثقفة حتى تحرمها كلية من حسها السليم (هذا الحس السليم الذي عانى كثيرا من كونها نصف مثقفة) وتمنحها راحة الضمير بخصوص المهمة الخبيثة التي سيكون عليها القيام بها. - قد تصلح الإشتراكية لتعليم الناس، بشكل عنيف وواضح، خطر تراكمات قوة الدولة، ولتثير لديهم حذرا من الدولة نفسها. إذا امتزج صوتها بصرخة الحرب : «ليكن نفوذ الدولة أكبر ما يمكن»، فإن هذه الصرخة ستصير بفعل ذلك صخابة أكثر من أي وقت مضى، ولكن سرعان ما ستتفجر، وبقوة موازية، صرخة مضادة : «ليكن نفوذ الدولة أضعف مايمكن».

474. تطور العقل تخشاه الدولة

لقد كانت دولة المدينة (Polis) عند الإغريق، ككل قوة سياسية مُنَظِّمَة، مانعة لنمو الثقافة وشديدة الإرتياب فيه، وقلما كانت لغريزة العنف الأساسيةً لديها على الثقافة آثار غير تلك التي تشلها وتكبحها. إنها لم تكن تريد أن تقبل في الثقافة لا بالتاريخ ولا بالصيرورة. إن التربية المقررة في الدستور قد وضعت لتستمر مع كل الأجيال وتجعلها جميعا ذات مستوى واحد. حتى أفلاطون، الذي جاء فيما بعد، لم يرد لدولته المثالية أي شيءآخر. إذن لقد تطورت الثقافة رغما عن دولة المدينة، وإن كانت تمنحها، رغم أنفها، مساعدة غير مباشرة، ذلك أن طموح الفرد كان يجد نفسه فيها محفزا إلى أقصى درجة، بحيث أنه بمجرد ما كان يدلف إلى سبيل إكمال الثقافة الذهنية فإنه كان يجتهد هناك أيضا إلى آخر حد. لاينبغي أن نحتج ثمة ضد تقريض بريكليس : إن تخيل رابط ضروري مزعوم بين دولة المدينة وبين الثقافة الهلينية ليس سوى حُلْمٍ طَمُوحٍ كبير. وقبل أن يغشا الليل (الطاعون والقطيعة مع التراث) أثينا يظهر ثوسيديد كل بريقها، مرة أخرى، كشفق مُجَمَّلٍ غايته أن ينسينا اليوم الرديء الذي سبقه.

475. الإنسان الأوربي وتدمير الأمم.

التجار ة و الصناعة، تبادل الرسائل والكتب، جعل الثقافة المتفوقة مشتركة بين الناس، التغيير السريع للمكان والموقع، حياة التنقل التي يعيشها الذين لايملكون أرضا، - هذه الظروف كلها تستتبع ضعفا قاتلا في الأمم ينتهي بتدميرها، على الأقل بتدمير الأمم الأوربية : بحيث أنها حتما ستلد، إثر عمليات تهجين مستمرة، جنسا خلاسيا، جنس الإنسان الأوربي. إن انغلاق الأمم على نفسها، المتولد عن الأحقاد القومية، يعمل، إن

بتبصر أم بعدمه، ضد هذا الهدف، لكن هذا التهجين يتبع نموه البطيء، مع ذلك، رغم التيارات المعارضة له في هذه الآونة. إن لهذه النزعة القومية المصطنعة، فضلاً عن ذلك، خطورة مثل الخطورة التي كانت للكاثوليكية المصطنعة،لأنها في جوهرها حالة حصار واستعجال قاسية، تعلنها أقلية وتعاني منها الأغلبية، وهي في حاجة إلى الحيلة والكذب والعنف لتحتفظ بمصداقيتها. ليست مصلحة الغالبية (مصلحة الشعوب)، مثلما يحب الناس أن يقولوا، هي ما يدفع إلى هذه النزعة القومية، بل ما يدفع إليها، قبل كل شيء، هي مصلحة بعض السلالات الأميرية، ثم مصلحة بعض طبقات التجار وبعض طبقات المجتمع. بمجرد ما يعترف المرء بهذا فإنه لايتبقى عليه سوى أن يعلن نفسه مواطنا أوربيا صالحا ويعمل بتصرفاته على اندماج الأمم : عمل يمكن أن يساعد عليه الألمان بخاصيتهم القديمة المجربة التي هي كونهم لسان حال الشعوب ووسطاؤها. ولنقل دون إلحاح : إن مشكلة اليهود لاتوجد إجمالا إلا في حدود الدول القومية لأنه هناك يجب على طاقتهم وذكائهم المتفوقين، ذلك الرأسمال من العقل ومن الإرادة الذي تراكم لمدة طويلة، جيلا بعد جيل، في مدرسة الشقاء، أن يبلغا درجة من السيطرة تثير الغيرة والبغض، بحيث أنه ينتشر لدى كل الأمم الحالية تقريبا - وهذا بقدر ما تتبنى هي بدورها موقفا أكثر قومية - ينتشر ذلك الأدب المقيت الذي ينوي أن يسوق اليهود إلى المذبحة كأكباش فداء مسؤولة عن كل ما قد يسوء في الأمور العامة والداخلية. ابتداء من اللحظة التي لايعود فيها الأمر يتعلق بالحفاظ على الأمم،ولكن بتوليد جنس أوربي هجين وأقوى ما يمكن، فإن اليهودي يصير عنصرا قابلا للإستعمال ومرغوبا مثل أي أثر من الآثار الوطنية الأخرى. لكل أمة ولكل إنسان ملامح منفرة،بل شريرة، وإنه لمن الظلم أن نتطلب من اليهودي أن يكون استثناء. بل يمكن أن تكون هذه الملامح لديه شريرة ومنفرة بوجه خاص، وقد يكون المُبَوْرِص (boursicotier) اليهودي الشاب، إجمالا، أشد من يثير الإشمئزاز من بين النوع الإنساني كله. ومع ذلك أود أن أعرف، عند تفسير عام، إلى أي حد يجب علينا أن ندفع بالتسامح مع شعب كان له، من بين كل الشعوب، التاريخ الأكثر شقاء، ونحن كلنا مسؤولون عن ذلك، هذا الشعب الذي ندين له بأنبل إنسان (المسيح)، بأطهر حكيم (سبينوزا)، بأجل كتاب وبالقانون الأخلاقي الأكثر تأثيرا في العالم كله. وفضلا عن ذلك فقد كان اليهود، خلال أحلك أوقات العصر الوسيط، في الوقت الذي بسطت فيه الغيوم الأسيوية كثافتها الرصاصية على أوربا، كانوا هم من استمر، بما فيهم من مفكرين أحرار وعلماء وأطباء، رغم العنف الفظيع الذي مورس عليهم، في رفع راية الأنوار واستقلال العقل، كانوا هم من دافع عن أوربا ضد آسيا. إننا ندين لمجهوداتهم بالنصر الذي حققه، في نهاية المطاف،

التفسير الطبيعي للعالم، التفسير المطابق للعقل والمتحرر من الأساطير على كل حال : بفضل اليهود لم تحدث قطيعة في حلقة الثقافة التي تربطنا الآن بمعارف أنوار القدَم الإغريقي الروماني .إن كانت المسيحية قد بذلت قصارى جهدها لكي تُشَرْقِنَ الغرب فإن اليهودية قد ساهمت بشكل أساسي في تغريبه مجددا ودون توقف : وهو مايعني، نوعا ما، جعل مهمة أوربا وتاريخها استمراراً لمهمة وتاريخ اليونان.

476. التفوق الظاهر للعصر الوسيط.

يظهر لنا العصر الوسيط الكنيسة كمؤسسة تسعى وراء هدف عالمي يشمل الإنسانية كلها، وراء هدف يهم، بالإضافة إلى ذلك، مصالح الكنيسة التي تزعم أنها مصالح سامية، وفي مقابل ذلك تخلف الأهداف التي يظهر التاريخ أنها أهداف الدول والأمم انطباعا بوجود ضيق شديد، مظهرها حقير، وضيع، مادي، ولها امتداد محدود. إلا أنه لاينبغي لهذا الإنطباع الذي يترك أثرا مختلفا في خيالنا أن يحدد حكمنا، لأن هذه المؤسسة العالمية كانت تستجيب لحاجيات مصطنعة، بارتكازها على أوهام كانت مرغمة على إيجادها هناك حيث لم يكن لها وجود (الحاجة إلى الخلاص). أما المؤسسات الجديدة فتعالج حالات الضيق الحقيقي، وسيأتي الوقت الذي تُولَدُ فيه مؤسسات صالحة لخدمة حاجات كل الناس الحقيقية والمشتركة، وتلقي إلى عالم الظل والنسيان بقدوتهم الوهمية، أي بالكنيسة الكاثوليكية.

477. الحرب التي لاغنى عنها.

إن انتظار الكثير من الإنسانية بدء من اللحظة التي تكون فيها قد نسيت كيف تحارب (بل إن تعليق الأمل كله على هذه اللحظة) لهو حلم فارغ، حلم من أحلام النفوس الطوباوية الجميلة. إننا لا نعرف في اللحظة الراهنة أية وسيلة أخرى يمكنها أن تنقل إلى الشعوب المنهكة بشكل تدريجي نشاط المعسكر هذا، هذا الحقد الشديد واللاشخصي، رباطة جأش القاتل المرتاح الضمير هذه، هذه الحماسة التي توحد جماعة ما عند تدمير العدو، هذه اللامبالاة الرائعة بالخسارات الكبيرة، بحياة المرء كما بحياة أصدقائه، هذه الزعزعة الخفية، زلزال الروح هذا، أن تنقلها إليها بمثل القوة والتأكيد اللذان بهما تنقلها كل حرب كبرى : إن السيول والأنهار المندفعة آنذاك، رغم الأحجار ومختلف القاذورات التي يدحرجها سيلها، ورغم المروج والزروع الناعمة التي تدمرها بمرورها، هي التي ستدير فيما بعد، وبقوة جديدة، دواليب أوراش العقل بواسطة الظروف. لن تستطيع الحضارة بتاتا أن تستغني عن الأهواء، عن الرذائل، وعن الأعمال الوحشية. – ففي اليوم الذي بدأ فيه الرومان، الذين كانت لهم امبراطورية، يَمَلُّون شيئا

ما من حروبهم، حاولوا أن يستمدوا قوة جديدة من صيد الشُّقْر*، من مبارزات المصارعين (gladiateurs)، ومن اضطهاد المسيحيين. وأنجليز اليوم، الذين يبدون، إجمالا، وقد تخلوا عن الحرب هم كذلك، يلجأون إلى وسيلة أخرى لإعادة الحياة إلى تلك الطاقات المحتضرة : يلجأون إلى الأسفار الخطرة من أجل الإكتشاف، إلى الأسفار البحرية، إلى الإرتقاءات، التي يقولون أنها تتم لأغراض علمية، والتي يقومون بها في الواقع لكي يعودوا إلى بلدهم بفائض من القوة المستمدة من مغامرات وأخطار من كل نوع. سنتوصل كذلك إلى اكتشاف عدد من بدائل الحرب هذه، وربما بفضلها سنتنبه بصورة أفضل إلى أن إنسانية متحضرة بشكل متفوق وبالتالي تصير منهكة حتما، مثلما هي إنسانية أوربيي الوقت الحاضر، هي في حاجة ليس فقط إلى حروب، بل إلى أعظم الحروب وأشدها هولا (هي في حاجة إذن إلى ارتكاسات آنية إلى الهمجية) إن هي أرادت ألا تلفي نفسها مُحَبَطَةً بواسطة وسائل تمدن حضارتها وبوجودها نفسيهما.

478. نشاط الجنوب ونشاط الشمال.

للنشاط منبعين مختلفين. فما يجعل حرفيي الجنوب نشيطين ليست هي الرغبة في الكسب، بل هي حاجات الآخرين المتجددة. بما أن هناك دائما من يأتي لِيُبَيْطِرَ فرسا أويصلح عربة فإن الحداد يعجل بالعمل. ولو لم يحضر إليه أحد نذهب يتسكع في الساحة. قلما يكون لحاجة الحرفي للغذاء إلحاحية إذا كان في بلد خصب، لأن ذلك لن يتطلب منه سوى قسط ضئيل من العمل، إنه لايتطلب عجلة على أي حال، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يتسول وهو راض عن حاله مع ذلك. - أما نشاط العامل الانجليزي، على العكس، فيصدر عن رغبة في الكسب : إنه يغالي كثيرا في تقدير نفسه وطموحاته، ويسعى من وراء الإمتلاك إلى القوة، وفي القوة يبحث عن أكبر قدر من الحرية ومن التميز الفردي.

479. الغنى أصل النبالة.

الغنىَ يُوَلِّدُ بالضرورة أرستقراطية العرق، لأنه يسمح باختيار أجمل النساء واستئجار أفضل المربين، إنه يضفي النظافة على أصحابه، كما يوفر الوقت لتمرين الجسد وبالخصوص إمكانية الإفلات من إرهاق العمل البدني. وهو بذلك يوفر كل الظروف التي تضمن، في غضون بضعة أجيال، تميز الهيأة وجمالها، بل تميز وجمال السلوك فضلا عن ذلك : تضمن حرية زائدة، غياب الصغار المثير للشفقة والمهانة أمام الأسياد

* الحيوانات المتوحشة ذات الشعر الأشقر كالضباء والأسود والأيائل . (المنهل)

والتوفير قرشا قرشا. هذه المزايا السلبية هي بالضبط أغلى هدية تقدمها الثروة لإنسان شاب، والذي هو فقير فعلا عادة ما يقوده نبل أحاسيسه إلى الهلاك، إنه لايتقدم ولايظفر بشيء، فجنسه غير قابل للاستمرار في الحياة. - ويجب عندها أن نعتبر أن للغنى نفس الأثار تقريبا ، سواء كان للمرء ثلاث مائة أو ثلاثون ألف تالر [نقد ألماني] ينفقها سنويا : وهذا يظهر أنه ليس هناك أي تدرج حقيقي للظروف الملائمة. إنه لشيء فظيع مع ذلك أن يملك المرء شيئا قليلا، أن يتسول في طفولته ويهان : حتى وإن كان هذا منطلقا حسنا بالنسبة لأولئك الناس الذين يبحثون عن السعادة في الغلاء الفاحش وفي خضوعهم للرجال الأقوياء وذوي النفوذ، والذين [أي الناس] يريدون أن يصيروا كرادلة وأساقفة. (هناك يتعلم الناس كيف ينحنون ليتسللوا إلى أروقة الفضل الديماسية.)

480. الغيرة والكسل موجهان بطريقة مختلفة.

يعتبر الحزبان الخصمان، الحزب الإشتراكي والحزب القومي (مهما تكن الأسماء التي تكون لهما في مختلف البلدان الأوربية) جديران ببعضهما : فالغيرة والكسل هما القوتان اللتان تحركانهما كليهما. في أحد الحزبين يريد الناس أن يشتغلوا بأيديهم أقل ما يمكن، وفي الحزب الآخر يريدون أن يشتغلوا أقل ما يمكن بعقلهم. في هذا الأخير يكره الناس الأفراد البارزين الذين لايدينون بعظمتهم إلا لأنفسهم ولا يتطوعون في سبيل العمل الجماهيري، ويغارون منهم. أما في الحزب الأول فيكره الناس ويحسدون الطبقة الأفضل في المجتمع، التي تتمتع خارجيا بموقع ممتاز، لكن مهمتها التي هي إنتاج أرفع ثروات الحضارة تجعل حياتها شاقة ومؤلمة داخليا. من المؤكد أنه إذا تم جعل عقل الطبقات العليا من المجتمع يقبل الإسهام في العمل الجماهيري فسيكون للزُّمَر الإشتراكية الحق الكامل في السعي إلى المساواة الخاجية بينها وبين الزُّمَر الأخرى، ما دامت المساواة الداخلية متحققة بينها، قلبا وعقلا. - فلتحيوا رجالا متفوقين ولا تملوا من الإسهام في أعمال الثقافة المتفوقة - وحينها سيعترف بحقوقكم كل ماهو حي، ونظام المجتمع الذي أنتم قمته سيكون منيعا ضد العين اللامة وضد كل أذية !

481. السياسة الكبرى وسلبياتها.

مثلما لايتكبد شعبٌ ما أفدح الخسائر، المرتبطة بالحرب وبالإستعداد لها، من جراء تكاليف الحرب الباهظة، من تعطل التجارة والمواصلات، وكذلك من جراء الاحتفاظ بالجيوش النظامية - مهما تكن هذه النفقات باهظة في أيامنا هذه التي تخسر فيها ثمانية

دول أوربية مبلغ مليارين أو ثلاثة سنويا – ، بل من جراء انتزاع أكفأ الرجال وأقواهم وأكثرهم نشاطا، على شكل سوقات عسكرية * غريبة، من أعمالهم ووظائفهم ليصبحوا جنودا، وإن كانت السنين تتعاوض : كذلك فإن الشعب الذي يتهيأ لينهج سياسة كبرى ويضمن لنفسه صوتا راجحا بين الدول العظمى ينجو من الأضرار الخطيرة فلا تصيبه. صحيح أنه لا يفتأ منذ تلك اللحظة يضحي بمجموعة من المواهب المتفوقة على «مذبح الوطن» أو مذبح الطموح القومي، بينما كانت فيما مضى حقول أخرى تفتح أمام هذه المواهب التي صارت السياسة تلتهمها الآن. وبجانب هذه المذابح التي تقوم بها الدولة يجري عرضٌ أفظع منها، يتم تمثيل فصوله الكثيرة جدا بلا انقطاع : كل فرد كفء، نشيط، ذكي، وكدود، من أفراد هذه الشعوب التي تحب الإنتصارات السياسية حد الشراهة، تتملكه الشراهة نفسها ولا يعود ارتباطه بعمله كليا مثلما كان فيما مضى. إن القضايا والإنشغالات ذات النفع العام التي يتم تجديدها كل يوم تلتهم ضريبة يومية يتم استخلاصها من رأسمال عقل وقلب كل مواطن. إن قدر كل هذه التضحيات، كل هذه الخسارات في الطاقة والعمل الفرديين كبير جدا بحيث أن الإزدهار السياسي لشعب ما يستتبع بشكل شبه حتمي فقرا واستنزافا في الذكاء، وتقلصا في القوة الإبداعية المتعلقة بأعمال تتطلب كثيرا من التركيز ومن الإنتباه القاصر عليها فقط. وفي الأخير يمكننا أن نتساءل : هل يستحق هذا العناءَ ذلك الإزهارُ الشامل (الذي لا يتمظهر، والحق يقال، إلا في الخوف الذي يثيره الجبار الجديد لدى الدول الأخرى وفي الشرط المنتزع من الدول الأجنبية بغية ازدهار التجارة والمبادلات القومية) إن كان لابد من التضحية، في سبيل الزهرة الفظة والمبرقشة، زهرة الأمة، بكل النباتات وبكل البراعم النبيلة، الرقيقة، الروحانية، التي كان مزدرعها خصبا جدا حتى ذلك الحين ؟

482. ولنقلها مرة أخرى.

الآراء السائدة – خمول فردي.

---

* مجموع الفتيان المدعوين في يوم واحد لخدمة العلم

الكتاب التاسع

الإنسان وحيدا مع نفسه

483 . أعـــداء الحقيــقـــة

اليقين أخطر من الكذب في عداوته للحقيقة.

484 . العالم مقلوبا.

بحدة ننتقد مفكرا حين يقدم اقتراحا يثير اشمئزازنا، وسيكون معقولا أكثر أن ننتقده بحدة حين يرضينا اقتراحه.

485. الحـــــزم.

. غالبا ما يبدو المرء حازما بسبب تمشيه حسب مزاجه أكثر منه بتمشيه حسب مبادئه.

485. الشيء الواحد الضروري.

هناك شيء واحد لابد من امتلاكه : إما عقل خفيف بطبعه، وإما عقل صيرته المعرفة والفن خفيفا.

487. شغف القضايا.

من يجعل من بعض القضايا (كالعلوم، خدمة الدولة،المصالح الثقافية، الفنون) موضوع شغفه يجرد شغفه بالأشخاص من كثير من الإلتهاب (حتى وإن كانوا ممثلي هذه القضايا، مثل رجال الدولة، أما الفلاسفة والفنانون فيمثلون إبداعاتهم).

488 . الهدوء في الحركة.

مثلما الشلال يصير بطيئا وخفيفا في انحداره، كذلك الرجل النشيط جدا يكاد يتصرف دائما بهدوء **أكثر** من الذي يوحي به اندفاع رغبته قبل الفعل.

489. لاتنزلوا عميقا جدا.

الأشخاص الذين يدركون عمق قضية ما نادرا مايظلون أوفياء لها.ذلك لأنهم أخرجوا العمق للنور : وفي ذلك من القبح شيء كثيرٌ يُرى.

490. وهم المثاليين.

كل المثاليين يتصورون أن القضايا التي يكرسون لها أنفسهم هي أفضل بشكل جوهري من كل قضايا الناس الأخرى، ويرفضون الاعتقاد بأن قضيتهم تحتاج، لكي تحقق نجاحا ضئيلا جدا، إلى نفس الزِّبْل النَّتِن الضروري لكل المشاريع الإنسانية الأخرى.

491. استبطان*.

المرء محصن ضد نفسه بشكل جيد، ضد عملياته لاستعراف نفسه، وقلما يكون بإمكانه، على العموم، أن يدرك من ذاته شيئا غير جدرانها الخارجية. أما الحصن نفسهفيظل منيعا، بل غير مرئي له، اللهم إلا إذا لعب الأصدقاء والأعداء دور الخونة وأدخلوه عبر مسالك سرية.

492. المهنة المناسبة.

نادرا ما يتحمل الناس مهنة لايؤمنون بها أو لايقتنعون أنها، في الواقع، أهم من كل المهن الأخرى. ينطبق ذلك حتى على النساء بخصوص عشاقهن.

493 . نبل الأحاسيس.

يشكل السخاء وانعدام الحذر جزء لايستهان به من نبل الأحاسيس، إنه يتشكل بالضبط مما ينظر إليه المنتفعون ومحبو النجاح، مِنْ عَلٍ، بازدراء كبير.

494. الغاية والوسيلة.

يعاند الكثيرون بخصوص السبيل التي اتبعوها، لكن من يعاند بخصوص الغاية قليل جدا.

---

* introspection : عملية تشاهد بها الذات ما يجري في الذهن من شعوريات لوصفها لا لتأويلها . (المنهل)

495 . ما يغضب في أسلوب حياة شخصي

كل مناهج الحياة الشخصية جدا تثير الناس ضد الذي يتبناها، فالنظام الاستثنائي الذي يتبعه يجعلهم يشعرون بالمهانه بماهم كائنات عامية.

496. امتياز العظمة.

يكمن امتياز العظمة في إسعاد الغير بعطاء قليل.

497. نبيل بالرغم عنه.

يتصرف المرء بنبل بالرغم عنه حين يكون قد اعتاد إعطاء الآخرين دائما دون أن يتطلب منهم شيئا.

498. شرط البطولة.

حين يريد المرء أن يصير بطلا فلابد أولا أن يتحول الحنش إلى تنين، وإلا فسينقصه العدو الذي يريده.

499. الصديق.

إن ما يجعل من الصديق صديقا هو كونه يُمْتِعُ لاكونه يُشْفِقُ.

500. استعمال المد والجزر.

يجب علينا، إن نحن رمنا المعرفة، أن نعرف كيف نستعمل، بالتناوب، ذلك التيار الداخلي الذي يجرنا إلى شيء، ثم ذلك التيار الأخر الذي يبعدنا عنه بعد وقت معين.

501. الإستمتاع بالذات.

«الاستمتاع بشيء ما »، يقول الناس. ولكننا، في الحقيقة، نستمتع بذاتنا من خلال استمتاعنا بالشيء.

502. المتواضع.

المتواضع للناس يجيد إظهار تباهيه، من خلال تواضعه، حين يتعلق الأمر بقضايا مثل (المدينة، الدولة، المجتمع، العصر، الإنسانية). ذاك هو ثأره.

503. الغيرة الحسد.

الغيرة والحسد هما العضوان المُخْجِلان في الروح الإنسانية. وقد لاتتوقف المقارنة عند هذا الحد ولاشك.

504. المنافق المتميز جدا.

ألا يتحدث المرء عن نفسه قط فذاك نفاقٌ جِدُّ متميز.

505 . مزاج.

المزاج مرض يصيب الجسم ولايختفي أبدا بعد برهة من اختفاء سببه.

506. المبشرون بالحقيقة.

ليس حين يكون قولها خطرا تجد الحقيقة أقل عدد من المبشرين بها، بل حين يكون قولها مملا.

507. أشد إزعاجا من الأعداء.

الأشخاص الذين لانتأكد من أنهم سيتخذون موقفا متعاطفا معنا في كل الأحوال، في الوقت الذي يجبرنا فيه سبب ما (كالاعتراف بالجميل مثلا) على إظهار تعاطف غير مشروط معهم، يعذبون خيالنا أشد مما يعذبه أعداؤنا.

508. وسط الطبيعة.

إن ما يجعلنا نحب كثيرا أن نكون وسط الطبيعة هو كون الطبيعة ليس لها رأي فينا.

509. لكل واحد ميدان تفوقه.

في عالمنا المتحضر يشعر كل واحد بالتفوق على كل الآخرين في شيء واحد على الأقل : على هذا يرتكز الإرعاء العام، على اعتبار أن كل فرد شخص يمكنه أن يؤدي، في الوقت المناسب، خدمة لغيره، وبالتالي لن يخجل من قبول خدمة تؤدى له.

510. تعــازي.

غالبا ما يكون المرء في حاجة إلى التعازي إثر حدوث وفاة، ولايكون ذلك بقصد التخفيف من شدة الحزن بقدر ما يكون بقصد تبرير شعوره بكون ألمه قد خف بسهولة بالغة.

511. أوفياء ليقينياتهم.

الذي لديه أشياء كثيرة يقوم بها يحتفظ، دون تغيير تقريبا، بأفكار وآرائه العامة. كذلك الذي يخدم مثلا أعلى : لا يُخضع ذلك المثل أبدا لامتحان يقوم به هو بنفسه،

ليس لديه الوقت لذلك، بل إن اعتقاده أن ذلك المثل قابل للنقاش هو شيء مناقض لمصلحته.

512. الأخلاقية والكمية.

لاترتكز الأخلاقية المتفوقة لدى فرد ما مقارنةً مع فرد آخر إلا على الكمية الكبيرة من الأهداف التي يروم تحقيقها. أما الآخر فيجذبه إلى الأسفل اهتمامه بالتوافه في دائرة ضيقة.

513. الحياة، ثمر الحياة.

مَهْمَا يَتَمَطَّ المرء بامتداد معرفته، مَهْمَا يَظهر لنفسه موضوعيا بالقدر الذي يريد: فإن الثمرة الوحيدة التي يجنيها من ذلك لاتكون في النهاية سوى سيرة حياته.

514. لزومية البرنز.

في غضون التاريخ يدرك الناس أن هذه اللزومية ليست من البرنز وليست لزومية.

515. عن تجربة.

ليست عبثية شيءٍ ما حجةً ضد وجوده، بل هي بالأحرى شرط وجوده.

516. الحقيقة.

لأحد يموت اليوم بسبب الحقائق القاتلة : إذ هناك كم هائل من الترياق.

517. رؤية أساسية.

ليس هناك انسجام مسبق بين تقدم الحقيقة وبين خير الإنسانية.

518. قدر الإنسانية .

الذي يفكر بعمق كبير يفهم أنه سيكون دائما على خطأ، فليتصرف وليصدر حكمه كما يشاء.

519. الحقيقة كساحرة*.

من الحيوانات أوجد الخطأُ الإنسانَ، فهل تكون الحقيقة في طور رد الإنسان حيوانا؟

* الساحرة المعني هي circé التي مسخت رفاق عوليس خنازير (المترجم)

520. خطر حضارتنا.

نحن في عصر حضارته مهددة بالتدمير من طرف وسائلها هي نفسها.

521. العظمة أن تفرض اتجاها.

لايوجد نهر يكون غزير المياه وكبيرا بنفسه : الروافد التي تصب فيه هي التي تجعله كبيرا. ينسحب هذا على كل عقل. مايهم بشكل خاص هو أن يعين الفرد الإتجاه الذي سيكون على الكثير من الروافد اتباعه، وليس أن يكون ذا موهبة غنية أو فقيرة في البداية.

522. ضمير قليل التطلب.

بعض الناس، الذين يتحدثون عن أهميتهم بالنسبة للإنسانية، لهم ضمير قليل التطلب بشأن الاستقامة المجردة، بشأن احترام المعاهدات، وبشأن الوعد المقطوع.

523. إرادتك أن تكون محبوبا.

ليس هناك زَهْوٌ أشد من تَطَلُّبِ المرء من الغير أن يحبه.

524. ازدراء الناس.

الدليل الواضح على ازدراء شخص ما لغيره من الناس هو عدم قبوله بوجود الغير إلا كوسيلة لخدمة غاياته هو، وإلا فلن يَقْبَلَ به بتاتا.

525. مشايعون بالتناقض.

إن شخصا نجح في إثارة الناس ضده سينجح دائما كذلك في كسب حزب إلى جانبه.

526. نسيان التجارب.

الذي يفكر كثيرا، ويفكر بموضوعية، ينسى تجارب حياته بسهولة، لكن نسيانه للأفكار التي جاءته منها يتم بسهولة أقل.

527. التشبث بالرأي.

هذا يتشبث برأيه لأنه يفتخر بكونه توصل إليه وحده، وذلك لأنه وجد صعوبة في استيعابه وهو الآن فخور لكونه فهمه : كلاهما إذن يتشبث برأيه بدافع الغرور.

528. النور الذي يُجَفّلُ.

يخشى العمل الصالح النور بنفس القلق الذي يخشاه به العمل السيء : هذا خوفا من أن يأتي الألم (أي العقاب) من الكشف، وذاك خوفا من أن يلغي الكشف اللذة (ذلك الإستمتاع المحض بالذات الذي يختفي بمجرد أن ينضاف إليه رضا الغرور).

529. طول الأيام.

حين يكثر ماسنزاوله خلال اليوم نرى اليوم يتصرم سريعا.

530. عبقرية مستبدة.

حين تستيقظ في الروح رغبة جموحة في التسلط كمستبد، ولا تكف عن إذكاء ذلك، فإنه حتى الموهبة الضعيفة (لدى السياسين والفنانين) تتحول تدريجيا إلى قوة طبيعية تكاد تستعصي على المقاومة.

531. حياة العدو.

الذي يحيا بمصارعة العدو تكمن مصلحته كلها في بقاء ذلك العدو على قيد الحياة.

532. درجة الأهمية.

يحْظى الشيء الغامض وغير المفَسرّ بأهمية أكبر من التي يحظى بها الشيء الواضح المفسر.

533. تقييم الخدمات المُسْداة.

نقدر الخدمات التي يسديها لنا شخص آخر حسب الأهمية التي يعلقها عليها وليس حسب أهميتها بالنسبة لنا.

534. التعاسة.

التميز المرتبط بالسعادة كبير جدا (وكأن الإحساس بالسعادة علامة السطحية أو الخضوع أو التفاهة) بحيث أنه لو قيل لك : «كم أنت سعيد !» فإنك ستحتج بكل تأكيد.

535. خيال الغم.

خيال الغم عفريت شرير، قرد، يختار ليقفز على ظهر الإنسان تلك اللحظة التي يكون فيها عبءه أثقل ما يكون.

536. مزية الخصوم الحمقى.

يحدث أن لايظل المرء وفيا لقضية ما إلا لكون خصومه يُصرون على بقائهم حمقى.

537. قيمة المهنة.

تترك المهنة الرأس خاليا، ثمة نعمتها الكبرى. فهي متراس يمكنك أن تحتمي به شرعا حين تهاجمك شكوك الجنس البشري وهمومه.

538. الموهبة.

تبدو موهبة أشخاص كثيرين أقل مما هي في الواقع لأنها دائما تحدد لنفسها مهام كبرى.

539. الشباب.

الشباب مستكره، إذ يستحيل، أو لا يعقل، أن يكون الشاب منتجا بأي معنى من المعاني.

540. مهام زائدة.

يصير منافقا حتما ذاك الذي يحدد لنفسه مهام كبيرة، علانية، ثم يتنبه إلى كونه أضعف من أن يقوم بها، كما أنه لايملك عادة من القوة ما يكفي ليتملص من القيام بها علانية.

541. داخل التيار.

الأنهار القوية تسحب معها كثيرا من الحصى والعُلَّيْق، والعقول القوية تسحب معها كثيرا من الرؤوس البلهاء والحائرة.

542. خطر التحرر الفكري.

إذا اهتم إنسان ما جديا بتحرره الفكري فإن أهواءه وشهواته ترجوا خفية أن تجد في ذلك منفعتها.

543. تجسُّد الذكاء.

حين نفكر كثيرا وبذكاء ترتسم سيماء الذكاء على الجسم كله وليس على الوجه فقط.

544. ضعف النظر والسمع.

الذي لايمعن النظر يرى دائما شيئا قليلا جدا، والذي لايسمع جيدا يسمع دائما شيئا زائدا.

545. التلذذ بالنفس في الغرور.

لايبحث المغرور عن التميز بقدر ما يبحث عن الشعور بالتميز، لذلك تجده لايستخف بأية وسيلة يخدع بها نفسه ويتغاش. ليس رأي الآخرين فيه هو ما يهمه بل الرأي الذي يكونه عن نفسه من خلال رأيهم.

546. المغرور استثناءً.

الذي يكفي نفسه بنفسه عادة ما يكون مغرورا استثناءً، وحين يصيبه مرض في جسمه فإنه يتأثر بالسمعة الحسنة وبالمدائح. ذلك أنه يلزمه، بقدر ما يضمحل، أن يتعوض من الخارج، من رأيٍ شخصيٍ غريب.

547. ال«مفكرون».

ليس له عقل ذاك الذي يبحث عن العقل.

548 . إعلان لرؤساء الأحزاب

إذا استطعنا أن نجعل الناس يعلنون أمام الملأ دعمهم لقضية ما فإننا سنكون، في أغلب الوقت، قد جعلناهم يدعمونها في أعماقهم كذلك. إنهم يريدون أن يظهروا منطقيين منذ ذلك الحين.

549. الإزدراء.

ازدراء الآخرين للمرء يؤثر فيه أكثر مما يؤثر فيه ازدراؤه لنفسه.

550. حبل الامتنان.

هناك أرواح ذليلة تدفع بامتنانها لمن عاملها بخير بعيدا جدا بحيث تشنق نفسها بحبل الإمتنان.

551. حيلة نبي.

لكي نَحزُرَ مسبقا طريقة تصرف الناس العاديين يجب علينا أن نفترض أنهم سيبذلون دائما أدنى مجهود ذهني ليخرجوا من وضعية مزعجة.

552. حق الإنسان الوحيد.

الذي يحيد عن التراث (tradition) يكون عرضة للإستثناء، والذي يلتزم به يصير عبداً له. والمرء،في كلتا الحالتين، يمضي إلى هلاكه.

553. فوق الحيوان.

حين يضحك الإنسان بأعلى صوته يفوق كل الحيوانات بذاءة.

554. نصف المعرفة.

الذي يتكلم لغة أجنبية دون أن يتقنها يستمتع بها أكثر من الذي يتكلمها بطلاقة. اللذة من نصيب نصف العالِم .

555. خدومية خطرة.

هناك أناس يريدون أن يجعلوا حياة الآخرين شاقة فقط لكي يمنحوهم، فيما بعد، وصفتهم للتخفيف من آلام الحياة، كالمسيحية مثلا.

556. الحماس والوعي.

يكون الحماس والوعي خصمان غير ما مرة، ذلك أن الحماس يريد أن يجني ثمار الشجرة قبل نضوجها، بينما الوعي يدعها على الشجرة طويلا إلى أن تسقط وتنسحق.

557. الشك.

نسعى إلى إثارة الشكوك حول الذين لانطيقهم.

558. غياب الفرص.

كثير من الناس من ينتظر طيلة حياته فرصة ليكون طيبا على طريقته.

559. نقص الأصدقاء.

نقص الأصدقاء مرجعه الغيرة أو التباهي. وما أكثر من يدين بأصدقائه للظرف السعيد الذي لم يجعل لغيرته سببا.

560. خطر التعددية.

غالبا ما نرتاح في جلوسنا حين تنقصنا موهبة أكثر مما نرتاح فيه حين تكون لدينا موهبة زائدة : مثل الطاولة التي يكون وقوفها على ثلاثة أرجل أفضل منه على أربعة.

561. القدوة الحسنة.

على الذي يريد أن يكون قدوة حسنة أن يضيف حبة من الجنون إلى فضيلته : ذلك ما يقلده الناس وَيَسْمُونَ به، في ذات الوقت، على النموذج، - وهو شيء يعجب الناس.

562. الصِّدار الواقي.

اغتياب الغير لنا لايستهدفنا نحن في الغالب، إنه تعبير عن غيظ وعن مزاج عكر لهما أسباب مغايرة تماما.

563. استسلام سهل.

تكون معاناة الناس من خيبة آمالهم قليلة حين يكونون قد دربوا خيالهم على تقبيح الماضي.

564. في خطر.

حين نتلافى الاصطدام بسيارة ما نكون قد عرضنا أنفسنا لخطر أن نداس، وهو خطر كبير.

565. الدور حسب الصوت.

الذي يجد نفسه مرغما على التكلم بصوت أعلى مما اعتاده (إلى شخص به صمم مثلا، أو أمام حشد كبير) يبالغ عادة في الذي عليه أن يقوله. وكم من شخص صار متآمرا، قارص اللسان، دساسا، فقط لكون صوته يميل إلى الهمس.

566. حب وحقد.

ليس الحب والحقد عمياوان، بل تعميهما النار التي يحملانها معهما في كل مكان.

567. إمتياز أن تُهَاجَمَ.

يسعى العاجزون عن تجلية مزاياهم لأنظار الناس إلى إثارة عدواة الآخرين الشديدة لهم. حينها يُعَزُّونَ أنفسهم بالاعتقاد أن هذه العداوة تحول بين استحقاقاتهم وبين تقدير الآخرين لهم بشكل منصف... وأن كثيراً من الآخرين يعتقدون نفس الشيء : وهو في صالح اعتبارهم.

568. الاعتراف.

ينسى المرء خطأ ه حين يعترف به لشخص ما، لكن هذا الأخر لا ينساه عادة.

569. الكفاية.

فراء الكفاية الذهبي يحمي من اللطمات العنيفة، ولكنه لايحمي من المعاكسات.

570. الظل في الشعلة.

لاتكون الشعلة واضحة بالنسبة لنفسها كما تكون بالنسبة للأخرين الذين تنيرهم : كذلك الرجل الحكيم.

571. الأراء الشخصية.

إن الرأي الذي نبديه، حين نسأل فجأة بصدد شيء ما، لايكون رأينا عادة، بل فقط ذلك الرأي السائد، المتعلق بطبقتنا، بوضعيتنا، بولادتنا. الأراء الشخصية نادرا ما تطفو على السطح.

572. أصل الشجاعة.

الإنسان العادي شجاع وعصي على الانجراح، إنه كالبطل، لايبالي بالخطر حين لايراه. وبالعكس : لاتكون الأماكن الجروحة سوى في ظهر البطل، إذن هناك حيث لاعيون له.

573. خطر الطبيب.

يجب أن نكون قد خُلِقْنَا لطبيبنا، وإلا فبطبيبنا نهلك.

574. معجزة الغرور.

من جازف، بما فيه الكفاية، في التنبؤ بالطقس ثلاث مرات وأصاب فإنه يؤمن، في قرارة نفسه، بمواهبه في التنبؤ. إننا نقبل بالمعجزة وباللامعقول حين يطري ذلك كبرياءنا.

575. المهنة.

المهنة هي العمود الفقري للحياة.

576. خطر التأثير الشخصي.

على الذي يشعر أن له تأثيرا أخلاقيا كبيرا على شخص آخر أن يطلق له الحبل على الغارب، بل عليه، عند الإقتضاء، أن يراه يشمئز وأن يدفعه إلى ذلك هو بنفسه : وإلا فإنه حتما سيجعل منه عدواً له.

577. القبول بالوريث.

الذي ينشىء مؤسسة كبيرة بقصد نزيه يسهر على تكوين ورثة. إنها علامة طبع مستبد ووضيع أن يرى المرء أعداء في كل الورثة الممكنين لمؤسسته ويحيا في وضع دفاعي ضدهم.

578. نصف المعرفة.

ينتصر نصف المعرفة بسهولة أكثر من التي بها تنتصر المعرفة الكاملة : إنه يتصور الأشياء أبسط مماهي، وبالتالي يكون عنها فكرة أخاذة ومقنعة أكثر.

579. عاجز عن النضال.

الذي يفكر كثيرا لاتتوفر فيه الكفاءات المطلوبة في المتحزب : سرعان ما يحمله فكره إلى فضاءات أخرى.

580. ذاكرة سيئة.

امتياز الذاكرة السيئة هو كون صاحبها يستمتع بنفس الأشياء للمرة الأولى مرات كثيرة .

581. إيذاء النفس.

غالبا ما يكون عناد الفكر قناعا يخفي قلقا عميقا في العقل الذي يسعى لأن يتناسى.

582. الشهيد.

يعاني مُريد الشهيد أكثر مما يعاني الشهيد.

583. غرور متأخر.

إن غرور كثير من الأشخاص، الذين لم يكونو فيما مضى في حاجة إلى غرور، هو الآن عادةٌ راشدةٌ ورثوها عن زمن لم يكن لهم فيه الحق في الثقة بأنفسهم وكانوا فقط يستجدون ثقة الآخرين

584. لسعة الهوى.

الموشك على الاستسلام لـلغضب أو لغرام قوي يبلغ عتبة تكون عـندها الروح ممتلئة مثل بـرميل : إلا أنه يـجب أن تنضـاف إليها قـطرة ماء هي الإسـتعداد للـهوى (أو سوء النية، كما يسمونه عادة). لاتنقص إلا هي ليطفح البرميل.

585. فكرة سوداء.

مثل الناس مـثل هذه الأكوام المتفحمة فـي الغابات. بمجرد ما ينتـهون من الإحتراق ويصيـروا متفحـمين مثلهـا، يصير الشـبان نافعـين. مادام الدخان يتـصاعد منـهم، وهم يتفحمون، فـقد يكونون مفيدين، ولكنهـم غير نافعين ومزعجون في الغالـب. تستعمل الإنسانية كل فرد، دون تحفظ، كوقود لتسخين آلتها الكبيرة : لكن ما الجدوى من هذه الآلة إن كان كل الأفراد (أي الإنسانية) يصلحون فقط لصيانتها ؟ آلة ليس لها من غاية سوى الإبقاء على نفسها، تلك هي **الكوميديا الإنسانية** ؟

586. مؤشر الحياة الصغير.

تتشـكل الحياة مـن لحظات معـزرلة نادرة، مشحـونة بالمعـنى إلى أقصـى حد، ومن فواصل لاتحصى تلامسـنا خلالها ظلال هذه اللحظات. الحب، الربيـع، اللحن الجميل، الجبل، القمر، البحر - كلها لاتحدث الـقلب بلا تحفظ إلا مرة واحدة، هذا إذا افترضنا أنهـا تعرف كيـف تتـحدث بـلا تحفظ. لأن كـثيـرا من الـناس لايـعرفـون أيا مـن هذه اللحظات، وهم أنفسهم فواصل وسكتات في سمفونية الحياة الحقيقية.

587. هجوم أو اختراق.

غالبا مانرتكب خطأ بمهاجمتنا العـنيفة لفئة ما، لحزب ما، أو لمرحلة ما، لأن الصدفة لم تـرنا منـهم إلا الجانب الـذي تم إظهاره، إلاذبـولهم أو «رذائـل فضائلـهم»، التـي هم مصابـون بها حتما، والـتي ربما نكون نحـن أنفسنا قـد ساهمنا فيـها بحظ وافر. حيـنئذ نولـيهـم ظهـرنا ونـبحـه عن فـئة مضـادة، لكـن من الأفـضل أن نـبحـث عن الجـوانب الإيجابيـة، أو أن نطور تلك التي نتـوفر عليها. صحـيح أنه يلزمنا نظـر أكثر حدة وإرادة أفضـل كي نساعـد على خلـق شيء ناقص أكـثر مما يـلزمنا لـنخترقـه كي ندرك نقـصه ونعمل على تجازه.

588. التواضع.

هناك تواضع حقيقي (وهو الاعتراف بأننا لم نخلُق أنفسنا)، وهو الذي يناسب المفكر تماما، لأنه قادر على إدراك فكرة اللامسؤولية التامة (حتى عن الخير الذي يصنعه). عدم تواضع الرجل العظيم يثير الحقد، ليس بسبب الإحساس بالقوة الذي يعبر عنه بذلك، بل لكونه لايريد أن يظهر هذه القوة إلا بجرحه للآخرين، معاملا إياهم كمستبد ليرى إلى أي مدى قد يصل صبرهم. إنه يكشف هنا عن نقص الثقة في إحساسه بقوته، الشيء الذي يجعل الناس يشكون في عظمته. بهذا المعنى فإن عدم التواضع، منظورا إليه من زاوية النباهة، غير منصوح به البتة.

589. أول أفكار اليوم.

أفضل وسيلة لبداية كل يوم جديد هي أن نتساءل عند الإستيقاظ إن لم يكن في مقدورنا أن نرضي شخصا واحدا على الأقل في ذلك اليوم. لو أتيح لهذه الفكرة أن تحل محل العادة الدينية التي هي الصلاة لوجد أمثالنا فائدة في هذا التغيير.

590. التباهي، ذلك العزاء الإخير.

حين يحاول المرء أن يرى في إخفاقه، في عدم كفايته الفكرية، وفي مرضه، مصيرا كان مهيأ له، امتحانا شخصيا أو عقابا غامضا عن أخطاء قديمة، فإنه يجعل من نفسه، في نفس الوقت، شخصا مهما، يسمو في خياله على أمثاله. المذنب المتكبر شخص لاتخلو منه أية طائفة دينية.

591. نبات السعادة.

بجانب التعاسة، وعلى أرضها البركانية في الغالب، غرس الإنسان بستان سعادته. وسواء نظر إلى الحياة بنظرة من لايطلب من الوجود إلا المعرفة، أو بنظرة من يستسلم، أو بنظرة الذي يجد لذته في تغلبه على صعوبة ما، فإنه سيجد، في كل مكان، شيئا من السعادة متفتحا بجانب التعاسة،- بل كثيرا من السعادة، لكون التربة بركانية. ولكن سيكون مثيرا للسخرية الإدعاء بأن هذه السعادة تبرر الألم أيضا.

592. طريق الأسلاف.

يبدو لشخص ما شيئا معقولا أن يطور لحسابه الخاص تلك الموهبة التي كرس لها أبوها أو جده جهدهما، عوض أن يباشر عمل شيء جديد تماما، وإلا فإنه يتخلى عن إمكانية بلوغ الكمال في أية مهنة كانت. لهذا يقول المثل :«أي طريق عليك أن تسلك ؟ طريق أسلافك.»

593. الغرور والطموح المربيان.

مادام الفرد لم يصبح أداة المصلحة العامة للإنسانية فإن الطموح سيعذبه لا محالة،لكن بمجرد أن يتحقق ذلك الهدف، إن اشتغل بضرورة كضرورة الآلة لخير الكل، فإن الغرور الذي سينمو لديه سيؤنسنه في كل شيء، سيجعله اجتماعيا أكثر، مطاقا أكثر، متسامحا أكثر، وهذا بمجرد ما ينتهي الطموح من تهذيبه (من جعله نافعا).

594. فلاسفة أغرار.

في اللحظة ذاتها التي يبتلع فيها أحدهم حكمة أحد الفلاسفة يذهب ليجوب الأزقة وهو يشعر أنه قد حدث فيه تغيير، ويعتبر نفسه، منذ تلك اللحظة، شخصا عظيما، لأنه يجد الناس، في كل مكان، يجهلون تلك الحكمة، إلى درجة أنه يجد حكما جديدا وخارقا يصدره بخصوص كل الأشياء : فقبوله لقانون ما جعله يعتقد أنه من واجبه، منذ ذلك الحين، تنصيب نفسه قاضيا.

595. الإرضاء بالإغاظة.

الذين يريدون أن يصدموا الآخرين يرغبون، حتى وإن أغاظوهم، في نفس الشيء الذي يرغب فيه أولئك الذين يريدون أن يرضوهم دون أن يصدموهم، لكن بدرجة أعلى وبشكل غير مباشر، مرورا بمرحلة تبعدهم، في الظاهر، عن هدفهم. إنهم يريدون التأثير والقوة، لذلك يظهرون تفوقهم حتى وإن أزعج الآخرين، لأن الذي يصل إلى القوة في الأخير، وهم يعرفون ذلك، يكاد يعجب الآخرين في كل ما يفعله ويقوله، وحتى حين يغيظهم فإنه يبدو أنه يرضيهم رغم كل شيء. - المفكر الحر، وكذلك المؤمن ،يريدان القوة هما كذلك كي يجدا فيها يوما ما شيئا يرضون به الآخرين، وإن تهددهما، بسبب عقيدتهما، مصير سيء، كالإضطهاد أو السجن أو التعذيب، فإنهما يستمتعان بفكرة أن الحديد والنار سيكونان وسيلة تنفذ بها عقيدتهما إلى الإنسانية، إنهما يقبلان بذلك المصير كوسيلة مؤلمة، لكنها حيوية، ليبلغا بها القوة، وإن كانت فعاليتها تأتي متأخرة.

596. ظروف إعلان الحرب وحالات مماثلة.

الأمير الذي يكمل قرار محاربة جاره، بعد أن اتخذه، باختلاق **ظروف إعلان الحرب**، يشبه الأب الذي يفرض على ابنه أما غير أمه ويعتبرها هي الأم الحقيقية منذ ذلك الحين. أليست كل الأسباب التي نعلنها أسبابا لأعمالنا من جنس هذه الأمهات غير الحقيقية ؟

597. الانفعال والحق.

لأحد يتحدث عن حقه بانفعال كبير مثل ذلك الذي في أعماقه شك بخصوص هذا الحق. إنه يريد، بمساعدة هذه الإنفعال، أن يهدىء عقله وشكوكه : إنها طريقته ليضمن راحة الضمير ويضمن معها النجاح لدى الآخرين.

598. المكر في التخلي.

سيحاول الذي يحتج ضد الزواج على الطريقة الكاثوليكية أن يكون عنه فكرة تناسب تصوره الدنيء والعامي جدا. والذي يرفض أن يحترمه معاصروه سيأخذ مفهوم الشرف بمعناه الخسيس، وبذلك سيسهل على نفسه الحرمان منه والصراع الذي سيخوضه ضده. فضلا عن ذلك، الذي يرفض الكثير من الأشياء المهمة سيتسامح بشأن الأشياء التافهة. قد يصح أن الذي يترفع عن رضا معاصريه عنه لايريد مع ذلك أن يحرم نفسه من إشباع غرور تافه.

599. سن التباهي.

تكون مرحلة التباهي، لدى النابهين، بين السادسة والعشرين والثلاثين من عمرهم، إنها بداية نضجهم مع بقية كبيرة من الحموضة. وبارتكازهم على إحساسهم الحميمي يتطلبون من الناس، الذين لايرون من هذا الإحساس شيئا أو لا يكادون، الاحترام والتذلل، وبما أنهم لايظهرون أية علامة على ذلك، فإنهم ينتقمون منهم بتلك النظرة، بذلك الموقف المتباهي، بتلك النبرة الصوتية التي تدركها أذن وعين دقيقتان في نتاج هذه السن كله، سواء تعلق الأمر بالشعر، بالفلسفة، بالرسم أو بالموسيقى. ذوو التجربة الناضجون أكثر يسخرون من ذلك، وبتأثر يذكرون تلك السن المتقدمة من الحياة التي يحقدون فيها على القدر الذي شاء لهم أن **يكونوا** عظماء و**يبدوا** تافهين. لاحقا **يبدو** المرء أعظم من ذي قبل، – ولكنه يكون قد فقد إيمانه الجميل **بكونه** عظيما : إلا إذا ظل طيلة حياته مُهَرَّجَ الغرور الذي لا يُقَوَّم .

600. سند وهمي لكنه متين.

مثلما نحتاج، كي نحاذي هوة أو نعبر مجرى عميقا عند جسر، إلى درابزين، ليس لنمسك به، لأنه سينهار بنا على الفور، بل ليوحي للعين بالأمان، – فإننا كذلك، أيها الشاب، نحتاج ألى أشخاص يؤدون لنا، لاشعوريا، خدمة الدرابزين. صحيح أنهم لن ينجدونا إذا كنا في خطر وأردنا الاعتماد الفعلي عليهم، ولكنهم يمنحوننا إحساسا مُطَمْئناً بوجود حماية قريبة (مثلما هم الأباء أو الأساتذة أو الأصدقاء عادة).

601. تعلُّم الحب.

يجب، منذ سن الشباب، أن نتعلم كيف نحب ونكون طيبين، وإن لم تتح لنا فرصة ممارسة هذه الأحاسيس فإن روحنا ستصير من جراء ذلك قاسية وغير صالحة لفهم تلك التخيلات الرقيقة التي لدى المحبين. يجب كذلك أن نتعلم البغض وننميه إن أردنا الوصول إلى أن نبغض كما ينبغي : وإلا فإن بذرته ستموت تدريجيا.

602. حُلْيَةٌ من البقايا.

الذين يمرون بعدد من التحولات الفكرية يحتفظون من حالاتهم السابقة ببعض المناظر والعادات التي تنتصب كشقة أسوار رمادية، كبقية مُطَلْسَمَة من القدم في فكرهم وسلوكهم الجديدين : الشيء الذي عادة ما يشكل جمال المشهد الطبيعي كله.

603. الحب والإحترام.

الحب يرغب، الخوف يتفادى. هذا هو سبب كوننا لايمكن أن نحظى بالحب والإحترام من لدن نفس الشخص، ليس في نفس اللحظة على أية حال. لأن الذي يبدي الإحترام يعترف بالقوة، أي يخشاها : ما يشعر به هو خشيةٌ محترمة. أما الحب فلا يعترف بأية قوة، بأي شيء يُفَرِّقُ يعارض أو يضع الأعلى والأدنى في شكل تراتبي. إنه يجهل الاحترام، بحيث أن المتلهفين للإحترام ينفرون، سواء خفية أو علانية، من أن يكونوا محبوبين.

604. حكم مسبق لصالح الفاترين.

الذين يشتغلون حماسا سرعان ما يفترون، بحيث أنه لايمكن أن نثق بهم، إجمالا، إلا قليلا. وهكذا فإن الفاترين فتورا دائما، أو الذين يعتبرون نفسهم كذلك، يستفيدون من حكم مسبق مؤيد يَعْتَقِدُهُمْ واثقين من أنفسهم وجديرين بالثقة : إن ذلك يعني الخلط بينهم وبين الذين يشتعل حماسهم ببطء ويلتهبون مدة طويلة.

605. خطر الآراء الحرة.

يخلق الإطلاع السطحي على الآراء الحرة إثارة معينة تشبه نوعا من الحكة، إذا استسلم لها المرء قليلا يشرع في حك أماكنه الحساسة بحيث ينتهي إلى أن يحدث فيها جرحاً مفتوحا ومؤلما، أي أنه تأتي اللحظة الي يشرع فيها الرأي الحر في إزعاجنا وتعذيبنا بخصوص موقفنا من الحياة، وبخصوص علاقاتنا الإنسانية.

606. الرغبة في معاناة كبيرة.

يترك فينا الأنفعال، حين ينتهي، حنينا غامضا إليه ويلقي علينا، وهو يختفي، نظرة مخادعة. لاشك أن المرء قد وجد نوعا من اللذة في أن يضرب بمقارع ذلك الإنفعال. أما الأحاسيس المعتدلة فتبدو باهتة بالمقارنة معه، ويبدو أن الناس سيفضلون دائما كدرا شديدا على لذة كدرة.

607. مزاج عكر ضد الآخرين والعالَم.

في كل مرة نَلْقَى فيها الآخرين بمزاجنا العكر، وهو شيء يتكرر كثيرا، بينما نشعر بذلك العكر موجها ضدنا نحن، إنما نحاول في الواقع أن نغطي حكمنا ونخدعه : نسعى لأن نعلل مزاجنا العكر **بعديا** بأخطاء الغير وعيوبه، وبشكل نغيب فيه نحن عن الأنظار. إن المتشددين في دينهم، الذين يحكمون على أنفسهم بلا شفقة، هم الذين تحدثوا، في ذات الوقت، بأكثر السوء الذي قيل في حق الإنسانية بشكل عام. لم يكن هناك أبدا قديس احتفظ بالخطايا لنفسه ومنح الفضائل للغير، كما لم يكن هناك أبدا، حسب تعاليم بوذا، رجل قد يخفي الجوانب الإيجابية فيه عن الناس كي لايدعهم يروا إلا الجوانب السلبية.

608. الخلط بين العلة والمعلول.

نبحث لاشعوريا عن المبادىء والمذاهب التي تناسب مزاجنا، بحيث أن هذه المبادىء والمذاهب تبدو في الأخير وكأنها قد شكلت طبعنا ومنحته اطمئنانا وحزما: بينما الذي حدث هو العكس تماما. من المفروض أن يصير فكرنا وحكمنا، بعد برهة، فيما يبدو، علة كياننا : لكن كياننا في الواقع هو علة كوننا نفكر ونحكم بهذا الشكل أوذاك. – وما الذي يقحمنا في هذه الملهاة التي تكاد تكون لاواعية ؟ الخمول، الرفاهية، وفي مقام أفضل، رغبة غرورنا في أن يجدنا الناس منطقيين على طول الخط وفريدين في كياننا وفكرنا: لأن هذا هو ما يكسبنا الإحترام وبالتالي الثقة والقوة.

609. سن الحقيقة.

يحب الشبان الشيء المهم والغريب، ولايهم إن كان حقيقيا أم مزيفا. الناضجون أكثر يحبون من الحقيقة جوانبها المهمة والغريبة. أخيرا، التامو النضج يحبون الحقيقة حتى هناك حيث لها مظهر بسيط وعار، هذا المظهر الذي يثير الضيق لدى العامة، لأنهم تنبهوا لكون الحقيقة لاتقول ما في جعبتها من رأي سام إلا بمظهر من البساطة.

610. الرجال شعراء فاشلون.

مثلما الشعراء الرديئون يبحثون في عَجُزَ البيت عن فكرة تناسب القافية، كذلك الرجال، وقد استولى عليهم القلق في النصف الثاني من حياتهم، يبحثون فيه عادة عن الأعمال والمواقف والحالات التي تطابق تلك التي مرت في حياتهم الماضية حتى تبدو كلها، ظاهريا، في تساوق، لكن حياتهم لم تعد تحت سيطرتهم، وفي كل مرة تحددها من جديد فكرةٌ قوية يعوضونها بخلافها بنيَّة على العثور على القافية.

611. الملل واللعب.

ترغمنا الحاجة على العمل لتلبيتها، وتولِّد الحاجات المستمر يعودنا على العمل. وحين نكون قد لبينا كل الحاجات يستولي علينا الملل. فما هو الملل ؟ إنها عادة العمل ذاتها التي نحس بها الآن في شكل حاجة جديدة ومتكررة، ويصير الملل قويا بقدر ما تصير عادة العمل قوية، وربما بقدر ما تكون المعاناة التي تسببها الحاجة قوية. وللإفلات من الملل يلجأ الإنسان إما إلى العمل أكثر مما تتطلبه حاجاته العادية، وإما إلى اللعب، أي العمل الذي لايهدف إلى تلبيه أية حاجة أخرى غير حاجة العمل لأجله هو. الذي ينتهي اللعب بأن يقرفه، ولاتكون له أية حاجة جديدة تدفعه للعمل، يحدث أن تتملكه الرغبة في حالة ثالثة تكون بالنسبة للعب ما يكونه التحليق بالنسبة للرقص، مايكونه الرقص بالنسبة للمشي، حالة من الغبطة الهادئة في الحركة : هكذا يرى الفنانون والفلاسفة السعادة.

612. درس مصدره الصور القلمية.

لو تأملنا سلسلة من الصور القلمية، من نهاية الطفولة حتى سن الكهولة، فسنكتشف، مندهشين بسرور، أن الرجل يشبه الطفل أكثر مما يشبه المراهق : أنه قد حدث في الفترة الفاصلة بين هاتين المرحلتين، بموازاة مع هذه الظاهرة ولاشك، استلاب مؤقت للطبع الجوهري لكن قوة الرجل الناضج المتراكمة والمُجمَّعة استعادت سيطرتها عليه. تقابل هذه الملاحظة ملاحظة أخرى : التأثيرات القوية للأهواء والأساتذة والأحداث السياسية، التي تتجاذبنا في كل اتجاه إبان شبابنا، تبدو كلها لاحقا وقد تمت العودة بها إلى إيقاع ثابت، من المؤكد أنها تستمر حية وفاعلة فينا، لكن حساسيتنا وفكرنا الجوهريان تكون لهما الغلبة مع ذلك، وإن استعملاها كمصدر للطاقة فإنها لن تصلح كمنظم لهما، مثلما هو الحال بين العشرين والثلاثين من العمر. هكذا فإن حساسية وفكر الرجل الناضج يبدوان، هما الآخران، أكثر مطابقة لحساسيته وفكره إبان طفولته، – وهذه الحقيقة الداخلية هي التي تظهر في الواقع الخارجي الذي تحدثت عنه.

613. مراحل العمر ونبرات صوتها.

النبرة التي تكون في خطب الشبان، في مدحهم، في لومهم، وفي قصائدهم، لاتعجب المتقدمين في السن، لأنها عالية وفي ذات الوقت بهيمة ومضطربة مثل الصوت الذي، تحت قبة، يولد من الفراغ كثافة في الرنة، لأن الجزء الكبير مما يفكر فيه الشباب لاينبع من وفرة طبيعتهم، بل هو فقط رَجْعُ وصدى ما يتم التفكير فيه، ما يقال، ما يمدح أو يلام في محيطهم القريب. وبما أن رجع مشاعر (التعاطف والنفور) يتم فيهم بقوة أكثر من التي بها يتم رجع أسبابها فإنه ينتج عن ذلك، حين يتركون الكلمة لمشاعرهم، هذه النبرة ذات الرجع المضطرب التي تميز غياب الأسباب أو قلتها. نبرة سن النضج محُدَّدة، مُوجَزة ومُختَصَرة، مرتفعة في اعتدال، لكنها، ككل ماهو مُبَيَّنٌ بوضوح، ذات صدى بعيد. الشيخوخة غالبا ما تضع في الصوت نوعا من الرقة، من التسامح، ومن الدماثة، إذا صح القول. وصحيح أنها، في حالات كثيرة، تجعله خشنا.

614. المتخلفون والمستبِقون.

يشعر صاحب الطبع القبيح، الذي كله حذر بالحقد كلما حقق منافسوه وأقاربه نجاحا سعيدا، ويرد على الآراء المخالفة بحدة وعنف. يبرهن صاحب هذا الطبع على انتمائه لمرحلة سابقة من الحضارة، على كونه أثارة : لأن طريقته في معاملة الناس هي تلك التي كانت تناسب تماما حالات العصر الذي كان فيه الأقوى هو من يسن القانون، إنه إنسان **متخلف**. وهناك صاحب طبع آخر، غني بالود، يكتسب أصدقاء في كل مكان، يشعر بالحب تجاه كل ما ينمو ويتحول، يعجبه أن يشاطر الآخرين كل أمجادهم ونجاحاتهم، ولايدعي كونه وحده من يعلم الحقيقة، لكنه يطفح حذرا متواضعا، – إنه إنسان يستبق وينزع بكل قواه إلى حضارة إنسانية راقية. صاحب الطبع القبيح وليد الأزمنة التي لم تكن فيها الأسس الأولية للعلاقات الإنسانية قد وضعت بعد، أما الآخر فيحيا في مستويات أعلى، أبعد مايكون عن الحيوان المتوحش الذي يهيج ويعوي بعنف، محبوسا في الكهوف، تحت أرهاص الحضارة.

615. تعزية للموسوسين.

إن وَجَدَ مفكر كبير أنه يعذب نفسه، مؤقتا، بوسواس المرض، فما عليه إلا أن يقول لنفسه، بمثابة تعزية : « هذه الطفيلية تتغذى من قوتك الشخصية الهائلة وبها تنمو، لو كانت قوتك أقل لكانت معاناتك أقل.» قد يقول رجل الدولة نفس الشيء لوتسلل الحسد والحقد، وبشكل أعم، الميل إلى **الحرب الشاملة ضد الكل**، الذي له فيه مواهب بارزة باعتباره ممثلا لأمة، لو تسللوا إلى علاقاته الشخصية وصيروا حياته صعبة.

616. غريب عن الحاضر.

هناك فائدة كبيرة في أن يجعل المرء من نفسه، بالمرة وبشكل كبير، غريبا عن زمنه، في أن يدع نفسه يُختطف من ساحله ويطفو على سطح مفاهيم العالم الماضية، من هناك سيعانق شكل الساحل كله، لأول مرة ولاشك، حين يوجه أنظاره إليه، وسيكون له، حين يقترب منه، امتياز إدراكه في كليته أفضل من الذين لم يغادروه قط.

617. استغلال العيوب الشخصية.

الرجال أمثال روسو يتقنون استخدام ضعفهم، ثغراتهم، ورذائلهم زِبْلًا لموهبتهم. فهو حين يأسف لفساد المجتمع وانحطاطه باعتبارهما عاقبة وخيمة من عواقب الحضارة إنما يرتكز في الواقع على تجربة شخصية. إن مرارة هذه التجربة هي التي تضفي تلك اللذوعية على إدانته الشاملة وتجعل السهام التي يرمي بها مسمومة. إنه يبدأ بإفراغ غيظه كفرد ويفكر في إيجاد علاج يفيد المجتمع مباشرة، ومن خلال المجتمع يفيده هو بطريقة غير مباشرة.

618. امتلاك عقل فلسفي.

لكي يواجه الناس كل حالات الحياة وأحداثها فإنهم عادة ما يجهدون أنفسهم لاكتساب حالة روحية وحيدة، ولاكتساب طرق للرؤية تكون كلها من نفس الطراز، هذا بالخصوص هو ما يسميه الناس امتلاك عقل فلسفي. قد يكون، مع ذلك، من المفيد أكثر لإغناء المعرفة ألا نتأحد (s'uniformiser) بهذا الشكل، بل أن نستمع بالأحرى إلى الصوت الخفي لمختلف حالات الحياة، لأن لها طرقها الخاصة في الرؤية. يسهم المرء بمعرفته في حياة وطبيعة كثير من الكائنات مادام لايعتبر نفسه فردا متسمرا، ثابتا، وواحدا.

619. إلى نار الإزدراء.

إنَّ تَجَرُّؤَ المرء على التعبير عن وجهات نظر تعتبر مخجلة لمن يفكر فيها لهو خطوة جديدة يخطوها نحو استقلاله، حينها يبدأ أصدقاؤه في الشعور بالخوف. لابد للشخص الموهوب أن يجتاز هو الآخر هذه النار، وبعد ذلك سيستقل بنفسه بشكل أفضل.

620. التضحية.

حين يترك للناس الاختيار يفضلون التضحية الكبيرة على الصغيرة : وذلك لأنهم يعوضون أنفسهم عن التضحية الكبيرة بإعجابهم بذاتهم، وهو شيء مستحيل مع التضحية الصغيرة.

621. حيلة الحب.

من أراد فعلا أن **يعرف** شيئا جديدا (سواء كان إنسانا أو حدثا أو كتابا) فيستحسن له أن يستقبل ذلك الجديد بكل الحب الممكن وأن يصرف نظره عن كل مايبدو منه معاديا ومنفرا ومزيفا، بل أن ينساه : مثلا كأن يدع مؤلفَ كتاب يتقدمه بمسافة كبيرة وحينذاك سيرغب حقا، وقلبه يخفق كأنه في سباق، في أن يراه يصل إلى هدفه. بهذه الطريقة سينفذ إلى قلب الجديد، إلى نقطته المُحَرِّكَة : وهذا بالضبط هو ما يسمى أن نعرف. وبمجرد ما يتم الوصول إلى ذلك يقوم الفكر بانتقاداته بعد برهة، لأن ذلك التقدير المفرط وتعليق بندول النقد لم يكونا سوى حيلة لجعل روح الشيء تكشف عن نفسها.

622. الإفراط في حُسْنِ أو سوء الظن بالعالم.

سواء أفرطنا في سوء الظن أو في حسن الظن بالأشياء فإننا نجني منهما دائما ذلك الاستمتاع بلذة مزيدة : لأن الرأي الحسن المسبق يُمَكننا عادة من أن نضع في الأشياء (في المعيش) رقة أكثر من التي فيه في الواقع. أما الرأي السيء المسبق فيسبب خيبة مستساغة : لأن المتعة التي مصدرها الأشياء نفسها تزداد بفعل متعة المفاجأة. – المزاج الذي يميل إلى السوداوية سيقوم، في كلتا الحالتين، بالتجربة المعاكسة.

623. العميقون.

الذين تكمن قوتهم في تعميق انطباعاتهم – يسمون عادة بالعميقين – يكونون هادئين وحازمين، نسبيا، في كل الحالات المفاجئة، لأن انطباعهم، في الوهلة الأولى، يكون لايزال سطحيا، ولا **يتعمق** إلا لاحقا. أما الأشياء أو الأشخاص المتوقَّعين والمنتظَرين منذ وقت طويل، حين يصلون، فيجعلون هؤلاء يضطربون غاية الاضطرابويُصَيِّرونَهُمْ شبه عاجزين عن الاحتفاظ برباطة جأشهم.

624. العلاقة مع الأنا العليا.

لكل إنسان أيام شبابه التي يعثر فيها على أناه العليا، والإنسانية الحقة تتطلب ألا يُقَدَّرَ أي شخص إلا تبعا لهذا وليس تبعا للوقت الذي يقضيه في تبعية وعبودية. يجب مثلا أن نحترم رساما ونبجله بحسب الرؤية السامية التي استطاع أن يكونها ويعبر عنها. لكن الناس لهم علاقات متعددة مع هذه الأنا العليا، وغالبا ما يكونون ممثلين هزليين لأنفسهم بقدر ما يستمرون، فيما بعد، في تقليد ماهم عليه الآن. البعض منهم، وهم مفعمون بالتواضع، يحيون في هلع من مثالهم ويودون لو يجحدونه : إنهم يخافون أناهم العليا لأن صوتها متطلب حين يحدث لها أن تتكلم. فضلا عن ذلك، إنها تملك حرية شبحية في أن تأتي أو لاتظهر، حسب هواها. كما يقال أنها عطاء من الآلهة، والحالة أن الباقي كله هو عطاء الآلهة (عطاء الصدفة) : أما هي فهي الإنسان ذاته

625. المتوحدون.

لقد تعود بعض الناس أن يختلُوا بأنفسهم بحيث أنهم، دون أن يقارنوا أنفسهم مع الآخرين، يقتفون أثر الحوار الداخلي لحياتهم بروح هادئة وسعيدة، محاورين لأنفسهم، دون أن ينسوا الضحك. وإذا جعلناهم يقارنون أنفسهم بالآخرين فإنهم يميلون، بشكل معقد دائما، إلى بخس أنفسهم قيمتها، بحيث ينبغي إرغامهم على العودة إلى الآخرين **يتعلمون** منهم فكرة إيجابية وعادلة عن شخصهم، وسوف لن يتوانوا عن انتقاص حتى تلك الفكرة التي تعلموها والحط من شأنها. – علينا أن نُسَلم لبعض الناس بتوحدهم، وأن نحتاط من أن نكون بلداء جدا لنرثي لحالهم، مثلما يحدث عادة.

626. دون لحن.

هناك رجال ميزتهم هي الاستراحة دوماً في أنفسهم، في حالة من الإنسجام بين كل مَلَكاتهم، بحيث أنهم يَنْفُرُونَ من كل نشاطٍ يَفْتَرِضُ له هدفا. إنهم يشبهون موسيقى مؤلفة من مقامات تدريجية مرتبطة بشكل طويل، دون أن يظهر فيها أدنى مخطط لحنٍ مُبَيَّنٍ بحذق. كل حركة آتية من الخارج لاتصلح إلا لإعطاء المركب توازنا جديدا في بحيرة التناغم. حين يلتقي الرجال العصريون أشخاصا لايعرفون أية **صيرورة** يستولي عليهم جزع كبير، وإن كانوا لايستطيعون القول أنهم **ليسوا** بشيء. لكن في بعض الحالات الروحية نشعر أن هذا السؤال الغريب يخطر على بالهم : ما الجدوى من اللحن في نهاية المطاف ؟ لماذا لايكفينا كون الحياة تنعكس بهدوء على بحيرة عميقة ؟ – كانت العصور الوسطى غنية بهؤلاء الأشخاص أكثر من عصرنا. أما الآن فيندر جدا أن

نجد شخصا، حتى في الصحافة، يعرف كيف يحيا في سعادة مستمرة وفي انسجام مع ذاته، قائلا مثل غوته : «الأفضل هو هذا الهدوء العميق الذي أحيا فيه وأكْبُرُ في نظر الناس، رابحا فيه ما لايستطيع أحد أن يغصبه مني لا بالحديد ولا بالنار.»

627. الحياة والمعاش.

لو تأملنا جيدا كيف يحسن مآت الناس التصرف فيما يقع لهم، في تجاربهم اليومية التافهة، حتى إنهم ليجعلون من ذلك أرضا خصبة تؤتي ثمارها ثلاث مرات في السنة، بينما الآخرون – وكم هم ! – ، وقد قذف بهم وسط الأمواج المتلاطمة أمواج المغامرات المشوقة جدا، وسط التيارات المتعددة التي تهُيج الشعوب والعصور، يظلون مع ذلك طافين على السطح دائما خفافا كالفلين : لو تأملنا ذلك لأغُرينا بتقسيم الإنسانية إلى أقلية من الناس الذين يعرفون كيف يخلقون من الشيء القليل شيئا كبيرا، وأغلبية من أولئك الذين يعرفون كيف يجعلون من الشيء الكثير شيئا قليلا جدا، نلتقي حتى هؤلاء السحرة بالمقلوب الذين، عوض أن يُخرجوا العالم من العدمُ يخرجون من العالم عدما.

628. الجد في اللعب.

في جنوة، سمعت ذات مساء وقت الغروب، أجراسا تدق طويلا في صومعة. لم تتوقف الأجراس، وفضلا عن صخب الشارع، كان صوتها يتموج، وكأنه لايشبع من نفسه، مسافرا في السماء الغروبية وفي النسيم البحري، كئيبا جدا، طفوليا جدا في الوقت ذاته، وفيه حزن لاينتهي. عندها تذكرت كلمات قالها أفلاطون فأحسست بوقعها على التو في قلبي : **لاشيء مما هو إنساني، لاشيء، جدير بالجدية التامة، ومع ذلك...**

629 . عن القناعة والعدل.

إن ما يقوله المرء أو يَعدُ به أو يقرره وهو في حالة انفعال يُعتبر واجبُ القيام به فيما بعد، ببرودة دم وبمزاج صَاف، واحدا من أثقل الأعباء التي ترهق كاهل الإنسانية. إن إرغام الناس على القبول، إلى الإبد، بعواقب الغضب، بالإنتقام الذي تشتعل ناره، بالإخلاص المتحمس، قد يثير سخطاً كبيرا على هذه الأحاسيس،خصوصاً وأنها محل تقديس وثني في كل مكان، خاصة من طرف الفنانين. إنهم هم من غالى ويغالي في **مزاد الإنفعال**، صحيح أنهم يشيدون كذلك بترضية الإنفعال المرعبة التي يقوم بها الناس نحو أنفسهم، بتفجرات الإنتقام التي يليها الموت، التقتيل، النفي الإختياري،

واستسلام القلب المكلوم. إنهم بمحافظتهم على فضول يقظ بشأن الإنفعالات كأنما يقولون : دون الإنفعالات لاتكون حياتك قد عرفت شيئا. - لأن المرء أقسم على الوفاء، ربما لوهم محض، لإله مثلا، لأنه أسلم قلبه لأمير، لحزب، لامرأة، لنظام كهنوتي، لفنان، أو لمفكر، وهو في حالة من الوهم الذي أدى له إلى الإنخطاف وأبدى له أولئك الأشخاصَ جديرين بالتبجيل وبكل التضحيات - أيكون لذلك قد ارتبط بها دون أمل في التخلص ؟ ألم نخطىء صدد أنفسنا ؟ ألم يكن وعدا افتراضيا أعطيناه على الشرط الذي يفترض، والذي بقي مَضْمَراً، أن هؤلاء الأشخاص الذين نكرس لهم أنفسنا هم فعلا تلك الكائنات التي كانوا يتخذون صورها في خيالنا ؟ هل علينا أن نظل أوفياء لأخطائنا حتى وإن اعترفنا أننا بهذا الوفاء نؤذي أنانا العليا ؟ - ليس هناك قانون أو إلزام من هذا النوع، إننا لانملك إلا أن نصير خائنين، أن نلجأ إلى الخيانة، أن نتخلى عن مُثلنا العليا بعضها تلو البعض الأخر. إننا لانمر في حياتنا من مرحلة إلى أخرى دون أن نتسبب للغير في آلام الخيانة ونعاني منها بدورنا. هل علينا، كي ننجو من هذه الآلام، أن نحتاط من فوران أحاسيسنا ؟ ألن يصير العالم عندها، بالنسبة لنا، موحشا جدا، شبحيا جدا ؟ لنتساءل بالأحرى أن كانت هذه الآلام، إن افترضنا حدوث تغيير في القناعة، **ضرورية**، وإن لم تكن متعلقة برأيوبتقييم **خاطئين**. لماذا نعجب بالذي يظل وفيا لقناعته ونزدري الذي يغيرها ؟ أخشى أن يكون الجواب : لأن كل الناس يفترضون أن وحدها دوافع الفائدة الضئيلة أو الخوف الشخصي تكون وراء ذلك التغيير. أي أن الناس يعتقدون أنه لا أحد يغير آراءه، في الحقيقة، مادامت مفيدة له، أو مادامت لا تؤذيه، على الأقل. لكن، إن كان الأمر كذلك فهو علامة سيئة بالنسبة للقيمة **الفكرية** لكل القناعات. لنتفحص قليلا كيف تتشكل القناعات، لننظر إن لم نكن نبالغ كثيرا في تقديرها : سينتج عن ذلك أن يقاس **تغيير** القناعات هوالآخربمقياس خاطىء في كل الحالات وأننا، بفعل الاعتياد، قد عانينا كثيرا من هذا التغيير.

.630

القناعة هي الاعتقاد أننا نملك الحقيقة المطلقة بخصوص نقطة ما من المعرفة. إذن فهذا الإعتقاد يفترض أن هناك حقائق مطلقة، أننا قد عثرنا كذلك على الطرق الممتازة الموصلة إليها، وفي الأخير أن كل من له قناعات يطبق هذه الطرق الممتازة. تظهر هذه الإفتراضات الثلاثة في الحين أن الإنسان ذا القناعات ليس هو إنسان الفكر العلمي، إننا نراه في سن البراءة النظرية، إنه طفل، مهما يبد راشدا. لكن ألفيات كثيرة عاشت بهذه الفرضيات الطفولية، ومنها انبثقت أقوى منابع الطاقة بالنسبة للإنسانية. هؤلاء الرجال،

الذيـن لايحصى عـددهم، الذيـن كانوا يضـحون بأنـفسهم مـن أجل قنـاعاتهم، كـانوا يعتقـدون أنهم يفعلـون ذلك من أجل الحقيقـة المطلقة. وقد كـانوا كلهم علـى خطأ في ذلك : من المحتمل ألا يكون هناك رجل واحد ضحى من أجل الحقيقة، حتى الآن، على الأقل لن يكون تـعبيره الدوغمائي قـد اكتسب شيئا من الـعلمية وإلا فشيئـا يكاد يكون لاشيء. لـكن ما كـان الناس يـريدونه فـعلا هـو أن يكونـوا على صـواب، لأنهم كـانو يعتقدون أنهم **ملزمون** بأن يكونو اعلى صواب. أن يدع المرء اعتقاده يُنْتَزَعُ منه ربما كان يعني وضع نعيمه الأخروي موضع تساؤل. في مسألة على هذا القدر الكبير من الأهمية كانت الـ «إرادة»، بشكل واضح، مُلَقِّنَ* الفكر. كانت مُسَلَّمَةَ كل مؤمن، كيفما كان انتماؤه، هي أنه **لايمكن** دحض اعتقاده، وإذا بدت الحجج المضادة قوية فتبقى لديه دائما إمكانية القدح في العـقل بشكل عام، بل ربما إمكانية رفع راية التطـرف الشديد القائلة، **أعتقد أن هذا عبث**. إن ماسبب العنف الكثير الـذي يرويه التاريخ ليس هو صراع الآراء بل صراع الإيمان في الآراء، أي القناعات. لو أن كل الذين كانوا يُنَمُّون فكرة كبيرة عن قناعتـهم ويقدمون من أجلـها كل أنواع التضحيـات ولايدخرون في خدمتهـا لاشرفهم ولاحيـاتهم، لو أنـهم خصصـوا ولو نصـف قواهم ليبحثـوا بأي حق يتـمسكون بـهذه القناعة أو تلك، ليبحثوا الوسيلة التي أوصلتهم إليها، فكم كان تاريخ الإنسانية سيبدو سليـما ! كم مزيـداً من المعارف سيـكون لدينـا ! كانت كل مشـاهد القسـوة التي ترافق اضطهاد الهراطقـة على اختلاف أشكالهم سيتم توفيرها عـلينا لسببين : أولا، لأن المحققين سيكونون هم أول من يخضع لتحقيقهم، وهكذا سيفلتون من ادعاء الدفاع عن الحقـيقة المطـلقة، ثم لأن الـهراطقة أنـفسهـم لن يولوا أدنـى أهمية لمبادىء لاتقوم عـلى أساس جـيد، مثـلما هي مـباىء كل الـطائفـيين والمتـدينين «الـقويمي المعـتقد»، بـعد أن يتفحصوها.

.631

هذه العصور التـي اعتاد الناس فيها الإعتقـاد بامتلاك الحقيقة المطلـقة هي أصل هذا **القلق** العميق الذي يصيب كل المواقف الشكوكية والنسبية بخصوص أية نقطة من نقط المعرفة. يفضل الناس في أغلب الوقت أن يخضـعوا دون تحفظ لقناعة يحميها أشخاص لهم بـعض السلـطة (آباء، أصدقاء، أسـاتذة، أمراء)، ويشعـرون، حين لايفعـلون ذلك، بنوع مـن الندم. هذا الميل مـفهوم جدا، ونتائـجه لاتسمح إطلاقـا بذلك اللوم العـنيف

* الملقن في المسرح شخص لايراه الجمهور يلقن الممثل ما نسيه من كلمات (المترجم)

الذي نوجهه لتطور العقل الإنساني. لكـن العقل العلمي ينبغي أن يُنْضِجَ لدى الإنسان، بالتدريـج، مزية **الامتناع الحذر** والاعتدال المتعقل المعروفان في مـيداني الحيـاة العملـية والنظرية، واللذان، كما تمثلهما شخصية أنطونيو عند غوته، يعتبران موضوع سخط كل المعادين للعلم والخاملين أمثال شخصية tasse.* للإنسان ذي القناعة الحق في عدم فهم إنسان الـفكر الحذر، أعنـي المنظر أنطـونيو، بالمقابـل، ليس لرجل الـعلم الحق في تـأنيب الآخر، يراقبه من عل ويعرف، فضلا عن ذلك، أنه سيتـعلق به، عند اللزرم، مثلما يتعلق Tasse بأنطونيو في الأخير.

.632

الذي لم يمر بقناعات متعددة بل تمسك بالإعتقاد الأول الذي وقع في شباكه هو في كل الحالات، وبسبب هذا الجمود بالذات، ممثل **حضارات** متخلفة، وبفعل هذا النقص في الثقافة (الـثقافة تفترض قابلية للـتربية) فهو عنيد، لا يُفْهَمُ، متمرد عـلى كل تكوين، غير متسامح، إنه إنسان الريبة الدائمة وعدم الـتبصر، يهرع إلى كل الوسائل التي تمكنه من فرض رأيه لأنـه لن يفهم أن هناك بالـضرورة آراء أخرى. ربما يكون، بهـذا الإعتبار، منبع قوة، بـل وصحيا في حضارات متحررة ومـتساهلة كثيرا، لكـن فقط إذا ما حرض الآخرين بـقوة على أن يـواجهوه: لأن مشروع الحـضارة الجديدة الـرهيف، المرغـم على الدخول معه في صراع، يستمد قوته من هذا الصراع هو بدوره.

.633

لازلنا في جوهرنا مثل رجال الإصلاح؛ كيـف سيكون الأمر بخلاف ذلك ؟ لكننا لم نعد نسمح لأنفسنا باستعمال بعض الوسائل كي نسهم في انتصار رأينا، وهذا، وهو ما يميزنا عن تـلك المرحلة، يبرهن كذلك علـى أننا ننتمي إلى حضارة أسـمى. في وقتنا الحاضـر، كل مـن يسـتعمـل، علـى طريقـة رجال عـصر الإصـلاح، تلميحـات مرتـابة وتفجرات الغضب ليصارع آراء ويسحقها يكشف حقا أنه كان سيحرق خصومه لو أنه عاش في أزمـنة أخرى، وأنه كـان سيلجـأ إلى كل أساليـب التحـقيق لو أنـه عاش عدوا للإصلاح. فـي ذلك العصر كان الـتحقيق معـقولا لأنه لم يكن يـعني شيئا سـوى حالة الحصار العـام الذي كان إعلانه ضروريا فوق كـل تراب الكنيسة والـذي كان، مثل أي حالة حصار، يبرر استعمال الوسائل القصوى، بما فيها المُسَلَّمَة (التي لانشترك فيها اليوم

* المرجع هو : Goeth , Torquato Tasso

مع أولئك الرجال) التي مفادها أن الحقيقة كانت **محفوظة** داخل الكنيسة وأنه كان لابد من حمايتها مهما كان الثمن، ومهما كانت التضحيات، من أجل خلاص الإنسانية. لكننا في وقتنا الراهن لانسمح لأي أحد،بمثل هذه السهولة، أن يمتلك الحقيقة : فطرق البحث الصارمة قد نشرت، بشكل واسع، الحذر والتيقظ حتى يُعْتَبَرَ كُلٌّ من يدافع عن آرائه بكلمات وأعمال عنيفة عدوا لحضارتنا الحالية، أو متخلفا على الأقل. الواقع أن الشغف الذي يتم به ادعاء امتلاك الحقيقة قد فقد الآن كل قيمة تقريبا في نظر ذلك الشغف الآخر، الأكثر تواضعا والأقل رنينا، الذي يرافق بحثنا عن الحقيقة، دون أن نكل من مراجعة وإعادة احتبار معارفها.

.634

البحث المنهجي عن الحقيقة هو، فضلا عن ذلك، نتيجة تلك العصور التي كانت القناعات تتصارع فيها. لو أن الفرد لم يتمسك ب «حقيقت»ه هو، أي بأن يكون دائما على صواب، لما كانت هناك أية منهجية للبحث، ولكن هكذا، داخل هذا الصراع الأزلي لادعاءات مختلف الأفراد امتلاك الحقيقة المُطلقة، تقدم الناس خطوة خطوة إلى اكتشاف المبادىء المتعذر دحضها التي بها أمكن فحص صحة هذه الإدعاءات وتهدئة صراعها. كانت البداية هي الفصل حسب النفوذ، لاحقا تم الإنتقال إلى النقد المتبادل للطرق والوسائل التي بواسطتها تم العثور على الحقيقة المزعومة. وقد تخللت ذلك مرحلة حصلت فيها النتائج من المبدأ الخصم، ربما لأنها وُجدَتْ ضارة وجديرة بجلب التعاسة وكان لا بد أن ينتج عن ذلك، خلال إصدار الحكَم على كل واحد، أن قناعة الخصم تحتوي على خطأ. أخيرا، لقد شحذ **الصراع الشخصي للمفكرين** المنهجيات جيدا بحيث أصبح في الإمكان الإكتشاف الفعلي للحقائق وإظهار أخطاء المنهجيات السابقة.

.635

إجمالا، المنهجيات العلمية هي نتيجةٌ للبحث لها من الأهمية، على الأقل، قدر ما لأية نتيجة الأخرى، لأن العقلية العلمية ترتكز على ذكاء المنهجية، ولن يمكن لنتائج العلم كلها، لو افتقدت هذه المنهجيات، أن تمنع عودة الخرافة والعبث إلى السيادة مرة أخرى. يمكن لأناس أذكياء أن يتعلموا كل ما شاؤوا من نتائج العلم، لكننا سنلاحظ، مع ذلك، في حديثهم، وخاصة في الفرضيات التي تظهر فيه، أن العقلية العلمية لاتزال تنقصهم : ليس لديهم، تجاه زيغان الفكر، ذلك الحذر الغريزي الذي تجذر في روح كل رجل علم إثر ممارسة طويلة. يكفيهم أن يجدوا فرضية بخصوص موضوع ما فإذاهم

يتعلقون بها أشد مايكون التعلق، متـخيلين أنهم بذلك قد قالوا كل شيء. أن يكون لهم رأي، في نظرهم، معناه أن يتعصبوا له ويعتنوا به، منذ ذلك الحين، عناية خاصة تكون بمثابة قناعة. إن كان هناك شيء غير مُفَسَّر فإنهم يتحمسون لأول تصور يخطر على بالهم ويشبه تفسيرا له، وباستمرار ينجم عن ذلك، خاصة في ميدان السياسة، أوخم العواقب. لهذا يجب على كل الناس اليوم أن يعرفوا حق المعرفة علما **واحدا** على الأقل، وآنذاك سيعرفون ماهي المنهجية وما يلزم فيها من تيقظ. من المناسب إسداء هذا النصح، بشكل خاص، للنساء اللائي هن الآن ضحايا زمنات لكل الفرضيات، خاصة إن بدت لديهن المهارة، السحر الذي لايقاومَ، الحياة والقوة المُمكن نقلها للآخرين. لو دققنا النظر للاحظنا أن الأغلبية الساحقة من الناس المثقفين لاتزال تطلب من المفكر قناعات ولاشيء غير القناعات، وأن أقلية صغيرة فقط هي التي تريد **يقينا**. الأوائل يريدون أن يتم تدريبهم بقوة حتى يكتسبوا من ذلك طاقة زائدة، وهذا البعض الآخر يهتم في ذلك بهدف موضوعي يغض الطرف عن الفوائد الشخصية بما فيها فائدة الطاقة الزائدة. على الصنف الأول، الواسع الهيمنة، يعتمد الناس حيثما اعتبر المفكر نفسه عبقريا، إنها شريحة لها غطرسة كائنٍ متفوق من حقه السلطة. إذا ما غذى عبقري هذا النوع نار القناعات وأثار الريبة بخصوص العقل العلمي الحذر والمتواضع فإنه يكون عدوا للحقيقة، حتى حين يعتقد أنه يحبها كثيرا.

.636

صحيح أن هناك نوعا مخالفا تماما من العبقرية، إنها عبقرية العدالة. ولن أصمم أبدا على اعتبارها أدنى من أي نوع كان من العبقرية، سواء كان فلسفيا، سياسيا أم فنيا. من طبعها أن تولي ظهرها بنفور صريح لكل ما يكدر حكمنا على الأشياء ويجعله حكما أعمى ، وهي بالتالي **عدوة القناعات**، لأنها تنوي أن تنصف كل الكائنات، حية أو جامدة، حقيقية أو خيالية – ولأجل هذا يلزم اكتساب معرفة محضة؛ كما أنها تجلي كل موضوع بأفضل ما يمكن وتستعرضه بعيون يقظة. وفي نهاية المطاف ترد حتى لعدوتها، أي لل«قناعة» العمياء أو الحسيرة النظر (كما يسميها الرجال، أما لدى النساء فاسمها هو «الإيمان»)، ترد لها ما يعود للقناعة – حبًّا في الحقيقة.

.637

الإنفعالات هي التي تولد الآراء، و**بلادة الذهن** تجمدها في شكل **قناعات**. لكن الذي يشعر بعقله **حرا** وذا حيوية لاتكل يمكنه أن يمنع هذا التجميد بتغيرات مستمرة، وإن كان، إجمالا، كرةَ ثلجٍ مفكرةً فإن ما سيكون في ذهنه ليس آراء بل فقط يقينيات

واحتمالات متزنة. أما نحن، ذوي الطبع المختلط، المتوجون تارة بنار الحماسة، والمرتعشين ببرودة الذهن تارة أخرى، فنركع أمام العدالة، الإلهة الوحيدة التي نعترف بها فوقنا. **تلك** الحماسة التي فينا عادة ما تجعلنا غير عادلين وتجعلنا، في نظر هذه الإلهة، دنسين، ولن يسمح لنا أبدا، في هذه الحالة، بأخذيدها، إذن فلن نحظى أبدا بابتسامة فضلها الرصينة. سنجل فيها إيزيس (Isis) حياتنا المحتجبة، وفي حال ندمنا سنمنحها ألمنا كتكفير وتضحية كلما ألهبتنا نار الحماس وهددت بالتهامنا. **العقل** هو الذي سينقذنا من أن نحترق ونفنى تماما، هو الذي سينتزعنا، من وقت لآخر، من على مذبح العدالة، أويلفنا في قماش من الحرير الصخري. آنداك سنتقدم، مدفوعين بالعقل، من رأي لرأي، مجتازين تنوع الأحزاب في صفة خائنين سامين لكل الأشياء القابلة، في نهاية المطاف، للخيانة – ودون أن نشعر بالذنب، مع ذلك.

638. المسافر.

إن الذي بَلَغَ تحرر العقل، ولو بقدر معين، لن يشعر على الأرض بشيء آخر غير كونه مسافرا، – في سفر لايرمي، مع ذلك، **إلى** غاية أخيرة : لأنه ليست هناك غاية أخيرة. لكنه في الأخير سينظر بعينين مفتوحتين إلى مايجري في العالم، ولا ينبغي له أن يتعلق قلبه تعلقا كبيرا بأي شيء مستقل، يجب أن يكون فيه كذلك جانب تائه تكون لذته في التغيير والإجتياز. لاشك أن هذا المسافر سيعرف ليالي سيجد خلالها، وقد هَدَّهُ التعب، باب المدينة التي كانت ستوفر له الراحة موصدا، وفضلا عن ذلك، ربما تمتد البيداء، كما في الشرق، حتى تلك الباب، ربما يسمع عواء السباع بعيدا تارة وقريبا تارة أخرى، ربما تهب ريح قوية، ربما يسرق منه قطاع الطرق دوابه التي يركبها. وقتها سيكون الليل المرعب، بالنسبة له، بيداء أخرى تهبط على البيداء، وسيشعر أن قلبه سئم كل الأسفار. فإذا شمس الصباح أشرقت، وهي من شدة الوهج كإله الغضب، وفتحت أبوابها المدينة، فربما سيرى على وجود سكانها من البيداء، من القذارة، من المكر، ومن انعدام الأمان أكثر مما آه عند الأبواب – وسيكون النهار، مع اختلاف يسير، أسوأ من الليل. قد يكون هذا هو قدر المسافر، في بعض اللحظات، لكن تأتي فيما بعد، لتعوضه عنه، في بلدان أخرى، صباحات بهيجة، أيام أخرى يرى فيها منذ خيوط النور الأولى عند الفجر جوقة رباب الشعر وسط ضباب الجبال ملامسة إياه في رقصاتها، وبعد ذلك، وهو يتجول تحت الأشجار، هادء، في اعتدال روحه – ما قبل – الظهيرة (son âme d'avant Midi) يرى وابلا من الأشياء الجميلة والصافية وهي تنزل عند قدميه من قممها ومخابئها الخضراء، هدايا من كل تلك الأرواح الحرة التي تسكن

الجبل والغابة والـتوحد، والتي هي، مثله، مسافرة وفـيلسوفه على طريقتهـا السعيدة تارة والتأمـلية تارة أخـرى. إنها تفكـر، وقد ولدت من سـر الصباح، في مـا قد يضفـي على النهـار، بين الساعة الـعاشرة والثانـية عشرة،وجها صـافيا جديدا، مـشعا بالنـور، بالجلاء الهادىء الذي يجمله : إنها تبحث عن **فلسفة ما قبل الظهيرة**.

فيما بين الأصدقاء

قصيدة الختام

1

جميل أن نصمت معا،
أجمل أن نضحك معا،
تحت خيمة سماء من حرير،
والظهر إلى رغوة الزان،
ضحكُ الأصدقاء، قهقات قلبية
وأسنان بيضاء تلوح.

إن ربحت سنصمت،
إن أسأت فلنضحك
ولنسيء أكثر فأكثر،
كلما أسأنا، كلما ضحكنا،
فهناك القبر هناك ينتظر.

هذا، ياأصدقاء ! أنحصل عليه ؟ ...
كذلك ليكن ! وإلى اللقاء !

2

لا أعذار ! لا ولا صفح !
أيها السعداء، خَلِيُّو القلب،
لهذا الكتاب اللامُبَرَّر

افتحوا قلبكم، سمعكم والمأوى !
صدقوا، أصدقائي، جنوني
لاتتبعه اللعنة !

ما أجدُ وعنه أبحث، أنا،
ما عنه تحدث كتاب قط ؟
أُمَّةَ المجانين فَي بجلوها !
وكتابَ المجنون هذا فيه تعلموا
كيف العقل يأتي... على صواب !

هذا، أصدقائي، أتحصلون عليه ؟...
كذلك ليكن ! وإلى اللقاء !

ثبت الأعلام والشذرات التي وردوا فيها

دليل عربي فرنسي

Achlocratique	دهماني
Acte - Action	فعل
Affirmation	إقرار - إثبات
Amour - propre	كبرياء
Antiquité	قدم
Antithése	نقيضة
Assimilation	تشبيه
Bienveillance	إرعاء
Bonne consience	راحة الضمير
Capacité d'existence	صفة الوجود
Causalité	سببية
Cause	علة
Cause occasionnelle	سبب موجب
Chose en soi (la)	الواقع المطلق
Circonstances deter-minantes	ظروف موجبة
Condition d'existence	شرط الوجود
Conscience	شعور - وعي
Conscience pur	وعي خالص
Disillusion	خيبة
Dividuum	كائن يتجزأ
Devenir (le)	الصيرورة
Effet	معلول
Ego (l')	الأنا
Esse (l')	الخلق
Essence (l')	الجوهرة
Essentialiser (s')	يتجوهر
Etre (L')	الكينونة
Force stimulante	قوة محرضة
Hydrophobie	رُهاب الماء
Hypochondrie	وسواس المرض
Impératif catégorique (l)	أمر قطعي
Identité	تماثل
Idealisation	أمثلة
Identification	مماثلة
Identique	مماثل
Inconditionnant	لامشترط
Individu collectif	فرد جمعي
Individuum	كائن لايتجزأ
Inné	فطري
Intelligible	معقول
Introspection	استبطان
Justice éternelle	عدل ثابت
Liberté de la volonté	حرية الإرادة
Libre arbitre	حرية الاختيار
Miraculeux	مُعجزي
Moi supérieur (le)	الأنا العليا
Motifs	بواعث
Motifs agissants	دوافع فاعلة
Nécessité	ضرورة. لزوم
Négation	إنكار - جحود
Objet en soi	موضوع في ذاته
œcuménique	مسكوني- عالمي
Onirique	حُلمي
Operari (l)	العمل (بحرية)

Par analogie بالقياس
Paralogisme قياس فاسد
Personnalité collective شخصية جمعية
Phénoménal ظاهراتي
Physique مادي - جسدي
Pneumatique روحي
Pragmatisme ذرائعية
Predicat محمول
Représentation تمثُّل
Rétributif تعويضي
Rétrograde نكوصي
Rétrospectif استعادي
Scepticisme شكوكية
Simulacre صورة زائفة
Substrat موضوع
Sujet connaissant (le) الذات العارفة
Suranimal فَوْحَيَوان
Surhumain فَو إنساني
Surnaturel فو طبيعي
Symmachie تساوق في التصور
Téléologie غائية
Thèse طريحة
Tradition تقليد - تَحْدار
Tragique مأساتي
Uniformiser (s') التأحُّد
Utilitarisme نفعية
Utopiste حالم
Vouloir vivre (le) إرادة الحياة
Vraisemblance استلاحة

فهرس

NIETZSCHE

فريديك نيتشه

إنسان مفرط في إنسانيته

كتاب العقول الحرة

I

إنك تملك سلطة أن تجعل كل لحظات حياتك : من محاولات ، أخطاء ، زلات ، أوهام ، أهواء ، حبك وأملك ، أن تجعلها تنسجم تمامًا مع الهدف الذي رسمته لحياتك . هذا الهدف هو أن تصير أنت نفسك سلسلة ضرورية تضم حلقات الحضارة ، وأن تخلُص من هذه الحتمية الى حتمية تقدم الحضارة العالمية . حين يكون بصرك حادًا جدًا كي يغوص في أعماق بئر كينونتك ومعرفتك الغامض ، فمن المحتمل أن تبدو لك على صفحة مائه اللامع المعجزات البعيدة للحضارات الآتية . أتظن أن حياة ترمي إلى هدف كهذا ستكون شاقة جدًا وعارية تمامًا من كل لذة؟ إنك إذن لا زلت لم تعلم أنه ليس هناك عسل أشهى من عسل المعرفة ، وأنه سيشرق اليوم الذي تكون فيه السحب التي تجر الكدر ثديًا ترضع منه حليب تسليتك .

محمد الناجي



لوحة الغلاف للفنان المغربي
أحمد الشرقاوي

ISBN 9981-25-076-7
ردمك

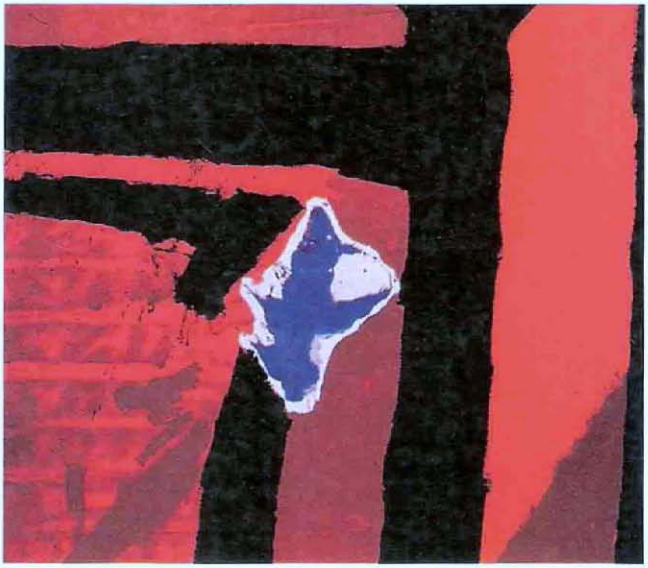
NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

انسان مفرط في انسانيته

كتاب العقول الحرة

II



ترجمة: محمد الناجي

أفريقيا الشرق

انسان مفرط

في انسانيته

كتاب العقول الحرة

HUMAIN TROP HUMAIN
Collection Folio Essais
Editions Gallimard 2001

المؤلف ــ نيتشه
ترجمة ــ محمد الناجي
عنوان الكتاب

انسان مفرط في انسانيته

ج II

رقم الإيداع القانوني 1999 / 1043
ردمك ISBN. 9981-25-139-3

أفريقيا الشرق ــ المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور ــ الدار البيضاء
الهاتف 04 95 25 022 - 13 98 25 022 ــ فاكس 80 00 44 022
البريد الإلكتروني: E-Mail: **afriqueorient@iam.net.ma**

أفريقيا الشرق ــ بيروت ــ لبنان

ص. ب. 3176 - 11

نيتشه

انسان مفرط في انسانيته

كتاب العقول الحرة

الجزء الثاني

أفريقيا الشرق

مقدمـــة

- 1 -

لا ينبغي أن نتكلم إلاّ إذا كنا لا نستطيع الصمت، وبالتحديد الكلام عما تجاوزناه، أما كل كلام عـدا ذلك فهو ثرثرة وتصنع واستخـفاف. تتحدث كتـبي عن انتصاراتي فقط، فهي لا تضـم «سواي» وكل ما كـان عدوي، تضم هويتي أنا، وبكل مباهاة أقول إنها تضم هويتي أنا فقط . لقد أصبح في جعبتي الكثير من الأشياء، ولكني كنـت دوما في حاجة إلى الوقت والشـفاء والمسافة والتراجع لكي تتولد لدي الرغبة في القيام، من ُجل المعرفة، بتعرية واستغلال وكشف و«عرض» كل ما جعلتني الحياة أجربه وأتجاوزه، سواء كـان إنجازا أو قدرا شخـصيا . تتحـدث كتبي دائما عـما خلفته «ورائي»، مـاعدا كتاب واحد منها، بل إن بعضهـا، مثل الاعتبارات اللاراهنة الثلاثة الأولى ترجع إلى ما قبل ظهور كتاب نشـرته سابقا (وهو ميلاد التراجيديا، مثلـما قد يتنبه إلى ذلك ملاحظ دقـيق وقادر علـى المقارنة). لقـد خـفف عني هجـومي العنيف، في الكتـاب الأول من الاعتبـارات اللاراهنة، على توتونية * وسهـولة وانحطاط لغة دافيـد شتراوس العـجوز، خفف عني بعض الكـآبة التي أرهقتني بها الثـقافة الألمانيـة وماديتهـا الثقافـية أيام كنـت طالبا (إني أزعـم كـوني أول من أطلق تعبـير «مادي الثـقافة» الـذي يفرط الناس الآن في استعماله). وما قلته بصدد «المرض التاريخي» قـد قلته باعتباري رجلا كان يتعلم كيف يُشفى منه ببطء ومـشقة دون أن ينوي التـخلي عن «التاريخ» بسبب مـا عاناه منه فيـما مضى. حين عبرت بعد ذلك، في الكتاب الثالث من الاعتبارات اللاراهنة، عن إجلالي لمربي الأول والوحيد، أرثر شوبنهاور العظيم، وسأعبر عن ذلك الآن أيضا بشكل أقوى، حينها كنـت في أوج شكـي وتقصفي الأخلاقي، أي مهـتما بالنقد وبتعـميق الحالة التي كان عليهـا التشاؤم حتى ذلك الحين، كـما أني أصبحـت حـينها لا أومن «بأي شيء»، كما يقول العامة، حتى بشوبنهـاور نفسه : في تلك المرحلة بالذات ظهر للوجود كتاب أخفيـته «يتناول الحقيـقة والكذب خارج مفـهومهـما الأخلاقي». حتى احتفـالي بفاغنر

---

* يقصد أن شتراوس يستعمل لغة الجرمانيين القدماء.

بمناسبة النصر الذي أحرزه في بايروث سنة 1876 (وهو أعظم نصر قد يحرزه فنان ما)، ذلك الكتاب الذي اكتسى مظهرا بارزا جدا من مظاهر «الراهنية»، قد كان في واقع الحال اعترافا بالجميل للحظة من لحظات حياتي الماضية، وكذلك لأخطر هدوء،عرفه البحر أثناء عبوري له... كان في واقع الأمر بادرة انفصال، كان وداعاً.(أيكون فاغنرقد أخطأ فهم قصدي ؟ لا أعتقد ذلك. ما دمنا نحب فإننا لا نقوم برسم تمهيدي لهذه اللوحات، في هذه المرحلة لا نكون قد بلغنا مرحلة «التأمل» ولا نترك المسافة اللازمة بيننا وبين موضوع تأملنا. «إن في التأمل تضاداً غامضا، وهو الرؤية النقيضة»، كما نجد ذلك في الصفحة 46 من ذلك الكتاب وقد صيغ بنبرة خائنة وكئيبة كانت موجهة فقط لآذان قليلة.) لم يأتني الصفاء اللازم الذي يمكنني من الحديث عن سنوات طويلة من التحول، سنوات كانت كلها وحدة وحرمانا داخليين، إلا مع كتاب إنسان مفرط في إنسانيته الذي سأقدمه ثانية بهذه المقدمة التشفعية. كتاب «خاص بالعقول الحرة» يحتوي شيئا من هدوء عالم النفس، هدوء لا يخلو مع ذلك من مرح وفضول، هدوء يسجل لنفسه ويثبت مجموعة من الأشياء المؤلمة التي تغلب عليها وتجاوزها. فلا غرابة أن يجد عالم النفس، أثناء قيامه بعمل شائك مثل هذا، بعض الدم على رؤوس أصابعه، وليس دائما على رؤوس أصابعه فقط؟...

- 2 -

لقد أصدرت «آراء وحكم مختلطة» وكذلك «المسافر وظله» في كتابين منفصلين أول الأمر، وكان كل واحد منهما تتمة وملحقا لهذا « الكتاب الخاص بالعقول الحرة» السالف الذكر، أعني «إنسان مفرط في إنسانيته» الذي يعتبر في ذات الوقت تتمة وتكرار لعلاج ثقافي، لعلاج تلقائي من الرومانسية وصفته لي فطرتي التي ظلت سالمة، ذلك أنها قد ابتكرته من قبل لتعالج به نفسها حين أصابتها الرومانسية في أشد أشكالها ضرراً. والآن وقد مرت ست سنوات على شفائي أقدم إليكم هذه الأعمال في كتاب واحد هو الجزء الثاني من «إنسان مفرط في إنسانيته» ، فلربما تستطيع وهي مجموعة أن تنقل إلى الناس تعاليمها بقوة ووضوح أكثر، تعاليم تتعلق بالصحة ستوصي ذوي العقول المتطلبة من أبناء الجيل الصاعد بالإمتثال الطوعي لها. إن الذي يتحدث إليكم هنا هو متشائم غالبا ما ينسلخ من جلده، لكنه دائما يعود ليندمج فيه، هو إذن متشائم ميال إلى التشاؤم، وهو بذلك غير رومانسي بالمرة : وأي عيب في ذلك ؟ ألا يحق لعقل قد انغمس مثل الأفْعى في فن تغيير الجلد أن يعطي درسا لمتشائمي الوقت الراهن الذي لا يزال خطر الرومانسية يترصدهم؟ وأن يبين لهم على الأقل كيف يفعلون.

- 3 -

لقد حان في تلك الآونة موعد انصرافي، وسرعان ما توفر لدي الدليل على ذلك. لقد انهار فاغنر الذي كان في أوج نجاحه، والذي هو في واقع الأمر رومانسي يائس وسائر في طريق التدهور، انهار فجأة عاجزا ومُحَطَّماً عند أقدام الصليب المسيحي... أيمكن أن لا يكون أي ألماني قد تنبه لذلك المشهد البشع، أن لا يكون قد شعر بعطف عليه في قرارة ضميره ؟ هل أكون أنا وحدي الذي عانيت بسببه؟ لقد لاح لي من خلال ذلك الحدث غير المتوقع ما يشبه بارقة ضوء آنارت لي المكان الذي غادرته – كما شعرت بذلك الرعب الاستعادي (rétrospectif) الذي يشعر به أي إنسان تعرض، وهو لا يعلم، لخطر كبير. حين انطلقت في طريقي وحيدا من جديد كنت أرتعش، بعد مضي وقت قليل أصبحت مريضا، بل أكثر من مريض، أصبحت ضَجراً، ضجرت من الخيبة الشديدة التي يبعث عليها كل ما تبقى لنا نحن الرجال المُحْدَثون من بواعث الحماس التي مصدرها تلك القوة الهائلة، والعمل الكثير، والأمل الكبير، والشباب، والحب الذين يتم تبذيرهم في كل مكان، ضجرت من اشمئزازي من الجانب الأنثوي في تلك الرومانسية ومن تحميسها الجامح، من كل تلك المثالية الكاذبة ومن خور الوعي اللذين ظفرا مرة أخرى بواحد من أغلى رجالنا؛ ضجرت في النهاية ضجرا كبيرا من الشك العنيد الذي كان يتأكلني، وربما أكون قد حُكِمَ علي أن أعيش، بعد هذه الخيبة، في حذر وازدراء ووحدة أكثر من أي وقت مضى. أَين صارت تكمن مهمتي الآن؟ ألا يبدو أنها قد تخلت عني الآن، أنه لن يكون لي، ولمدة طويلة، أي حق فيها؟ فماذا عساي أن أفعل كي أتحمل حتى النهاية هذا الحرمان، هذا الحرمان الكبير؟ بدأت بأن حرمت على نفسي، بشكل قطعي ومبدئي، كل موسيقى رومانسية، ذلك الفن المبهم، الطنان، الخانق، الذي يَحْرم العقل من صرامته وحيويته كي يرهقه بكل أشكال الحنين الغامض والشبق المبهم. لازلت وسأظل أنصح بالحذر من الموسيقى كل من لديه من المروءة ما يكفي كي يحرص على بعض الصدق في أمور العقل، فهذا النوع من الموسيقى يصيب أعصابنا بالتوتر ويصيبنا نحن بالوهن، يؤنثنا، تجذبنا «الأنوثة الأبدية» فيه... إلى الأسفل!... إن الموسيقى التي كانت موضع شكي حينها وأثارت حذري على الفور هي الموسيقى الرومانسية، ولئن كنت أنتظر من الموسيقى شيئا فعلى أمل أن يجود علينا الزمن بموسيقي جسور، بارع وفظ، من سكان أوربا الجنوبية، يتمتع بصحة جيدة، لينتقم من هذه الموسيقى انتقاما خالداً.

- 4 -

وهكذا، وقد أصبحت وحيداً يملأني الحذر الماكر من نفسي، انحزت إلى كل ما كان يؤذيني أنا فقط ويضر بي بالغ الضرر ووقفت ضد نفسي، وهو شيء أثار ضغينتي: آنذاك اهتديت إلى سبيل ذلك التشاؤم المقدام الذي هو نقيض الأكذوبة الرومانسية كلها، عرفت السبيل إلى «أنا» نفسي، إلى مهمتي.ذلك الشيء الخفي الملحاح الذي نعايشه مدة طويلة دون أن نعرف أي اسم نطلق عليه إلى أن يتبين في النهاية أنه هو مهمتنا، -ينتقم هذا الجبار الحميم ببشاعة من كل محاولة نقوم بها لنتجنبة أو لنفلت منه، ينتقم من كل تهيؤ مبكر محاولة للتواضع، ذلك التواضع الذي قد يجعلنا في مستوى واحد مع أولئك الذين لسنا منهم، ينتقم من كل نشاط مهما تكن مكانته رفيعة ومهما يكن إبعاده لنا عن هدفنا الأساسي ضعيفا، بل ينتقم من أية فضيلة قد توفر عنا قساوة مسؤوليتنا الشخصية. كلما دَاخَلَنَا الشك بشأن حقنا في أن تكون لنا مهمة خاصة، وكلما شرعنا في جعل مهمتنا سهلة في كل شيء، يكون المرض هو الجواب.إنه لشيء غريب ومرعب في نفس الوقت أن تكون التسهيلات التي نوفرها لأنفسنا هي التي نؤدي مقابلها ثمنا فظيعا ! وإن أردنا بعد ذلك استعادة صحتنا وجب علينا أن نتحمل من المصاعب ما لم نتحمله قط من قبل...

- 5 -

آنذاك شرعت في ممارسة ذلك الكلام المتوحد الذي لا يتقنه إلا الصموتون والمعانون أشذ المعاناة : في غياب الحاضرين، أو بالأحرى غير مبال بهم، كنت أتكلم كيلا أعاني من الصمت، أتكلم عن أشياء لا يهمني أي شيء منها، لكنني كنت أتصنع عثوري فيها على منفعة ما. آنذاك تعلمت فن إظهار نفسي مَرِحاً، موضوعيا، فضوليا،وبالخصوص متمتعا بصحة جيدة وفظا، - وذلك ما يبدو لي أنه هو «الذوق السليم» لدى المريض؟ رغم ذلك، فإن ما قد يشكل سحر هذه الكتب لن يخفى على العين المفترسة [من الفراسة]، وعلى الشعور المرهف بالتعاطف، ذلك لأن الرجل الذي يعاني ويتألم هنا يتكلم كما لو كان يجهل ماهية الحرمان والعذاب. هنا نجعل من الحفاظ على التوازن واجبا، بل من الحفاظ على عدم التألم، هنا تسود إرادة قاسية، أنوفة، متنبهة ودائمة اليقظة، قد جعلت مهمتها هي الدفاع عن الحياة ضد الألم والقضاء على أصل كل الاستنتاجات التي عادة ما تُوَلِّدُ الألم والخيبة والاشمئزاز والوحدة وضحول المستنقعات كالفُطر السام. قد يكون هذا اقتراحا مني لمتشائمينا باتباع الاختبار الشخصي، لأنني توصلت في ذلك الحين إلى انتزاع هذه الحكمة من نفسي : «لا يكفي أن نعاني كي

يكون لنا الحق في التشاؤم!» آنذاك حاربت في نفسي محاربة طويلة وصبورة ذلك الميل الأساسي واللاعلمي الموجود في كل رومانسية متشائمة، واستنتجت من بعض التجارب الشخصية، بعد تضحيتها، أحكاماً عامة، إن لم أقل إدانة للعالم... باختصار،آنذاك جعلت بَصري يقوم بجولة كاملة. إنه تشاؤم يكون هدفه هو استعادة الصحة كي يكون لي الحق يوما في أن أصبح متشائما مرة ثانية - هل تفهمون هذا؟ مثلما الطبيب يضع مريضه في وسط غريب عنه تماما كي يبعده عما كان يشكل وسطه «حتى ذلك الحين» من هموم وأصدقاء ورسائل وواجبات، وكذلك حماقات الذاكرة وآلامها، ليعلمه كيف يمد يديه وحواسه إلى طعام جديد، إلى شمس جديدة، إلى مستقبل جديد، كذلك أنا قد فرضت على نفسي، جاعلا من نفسي الطبيب والمريض في الآن نفسه، مناخا جديداً غير الذي ألفته، أذكر منه بالخصوص السفر إلى الخارج والرحلة إلى عالم أجهله تماما والسعي بدافع الفضول إلى معرفة كل ما أجهله.وقد نتج عن ذلك تيه طويل دفعتني إليه الرغبة في الاستخبار والتغير، نتج عنه نفوري من كل تعلق ومن كل بلادة في النفي أو الإثبات، كما نتج عنه نظام وسلوك مُوَجّهين ليسهلا على العقل السباقات الطويلة والتحليقات العالية، خاصة تلك التحليقات التي تتم إعادتها. نتج عنه في الواقع حد أدنى من الحياة، تحرر من كل الأطماع غير اللائقة، استقلالية وسط كل أشكال النكبات الخارجية، لكن مع الافتخار بقدرتي على العيش ضمن تلك النكبات؛ نتج عنه شيء من الكلبية (Cynisme) ولاشك، شيء قليل من «التدحرج»، وكذلك كثير من السعادة والمرح العجيبين،من الطمأنينة والنور، وبساطة دقيقة وتحمس خفي - الحاصل أنه قد نتج عنه في نهاية المطاف تجدد كبير في قوتي الفكرية، ازدياد رغبتي في الصحة وازدياد تمام صحتي. الحياة نفسها تكافئنا على تشبث إرادتنا الصلبة بالحياة، على مثل تلك الحرب الطويلة التي خضتها في نفسي ضد التشاؤم الذي مرده إلى الضجر من الحياة، تجازينا عن كل نظرة متأنية وعرفانية نلقيها على كل هداياها مهما تكن صغيرة أو رقيقة أو عابرة. في مقابل ذلك، نحصل في نهاية المطاف على هداياها الكبيرة، وربما على أكبر هدية يمكن أن تمنحها لنا، إنها مهمتنا التي أعيد تكليفنا بها.

- 6 -

أتكون تجربتي - وهي قصة مرض وشفاء، لأن مدار الأمر كله على الشفاء - مجرد تجربة شخصية فقط؟ أتكون فقط ذلك الجزء «الإنساني، المفرط في إنسانيته» في شخصي؟ قد أميل اليوم إلى اعتقاد العكس. إنني واثق أن كتبي التي تتناول الأسفار لم

أؤلفها لي وحدي، كما قد يبدو أحيانا... هل أستطيع الآن، بعد ست سنوات من الإقتناع المتزايد، أن أعطيها انطلاقة جديدة، أن أجازف بمحاولة أخرى؟ هل أنصح باستعمالها أولئك الذين يصيبهم «ماض» ما والذين يملكون من العقل ما يكفي لمعاناتهم حتى من عقل ماضيهم ؟ إني أنصحكم بقراءتها أنتم الذين كان حظكم من الحياة قاسيا، أيها النادرون، أنتم المهددون بشكل كبير والشجعان الذي بلغوا أعلى مراتب العقل، أنتم الذين وجب أن تكونوا ضمير الروح المعاصرة وأن تمتلكوا منها العلم بصفتكم تلك، أنتم الذين يجتمع فيكم كل ما قد يعرفه الوقت الحاضر من مرض وسم وخطر، أنتم الذين شاء قدركم أن تكونوا مرضى أكثر من سائر الأفراد لأنكم لستم «مجرد أفراد»... أنتم الذين عزاؤكم هو أن تعرفوا. آه! وأن تسلكوا سبيل صحة جديدة، صحة المستقبل، أنتم المهيأون سلفا، أنتم الظافرون، أنتم قاهروا الزمن، أنتم الأقوى والأكثر قداسة، أنتم الأوربيون الصالحون!

- 7 -

أود في الختام أن أصوغ مرة أخرى معارضتي للتشاؤم الرومانسي، أي لتشاؤم المحبطين والناقصين والمهزومين : تعتبر إرادة المأساة والتشاؤم علامة على الصرامة وقوة الذكاء (قوة الذوق والإحساس والوعي). حين تكون هذه الإرادة في قلبنا فإننا لا نعود نخشى الأشياء المرعبة والمريبة في هذا الوجود، بل إننا نسعى إليها. وراء مثل تلك الإرادة نجد الشجاعة والأنفة، والرغبة في أن يكون لنا عدو كبير. ذلك هو منذ البداية منظوري المتشائم. وهو منظور جديد على ما يبدو لي؟ ولا يزال اليوم منظورا جديدا وغريبا؟ ومازلت متعلقا به حتى الآن سواء حين يكون لصالحي أو حين يقف ضدي أحيانا... أتريدون الدليل على ذلك؟ وأي شيء تكون هذه المقدمة الطويلة قد قدمت الدليل عليه؟

سلس ماريا
الأونغادين العليا
شتنبر 1886.

الكتـاب الأول
آراء وحكم مختلطة

1. إلى الذين خيبت الفلسفة ظنهم.

إن كنتم حتى الآن قد آمنتم بالقيـمة القـصوى للحياة، والآن ترون أن أملكم قـد خاب، فهل تجعلون ذلك داعيا لأن تجعلوا ثمنها أبخس الأثمان ؟

2 . فاسد.

قد يحدث أن يفسد وضوح الأفكار صاحبه، وكم تكون مملة آنذاك معاشرة أولئك الأفراد المبـهمين، الضبـابيين، الذين كلهم مطامح واستـشعارات! كم يكون مـضحكا، لكن دون أية متعـة، ذلك الأثر الذي تخلفه رفرفتـهم السرمدية، وسعيـهم الجشع دوما، هم العاجزون عن التحليق وعن الصراع !

3 . الطامعون في الواقع.

إن الذي يتنبه في نهاية الأمـر إلى أي حد وكم من الوقت كان مغفـلا يعانق، بفعل التحدي، الواقع الأكثر بشاعة، بحيث أننا نجد، إذا اعتبرنا مجرى العالم كله، أن أفضل الطامعين كـانوا دوما من نصيب الواقع البشع، ــ لأن هؤلاء الأفـاضل كانوا هم من يتم خداعهم دائما بشكل أفضل ولمدة أطول.

4 . تقدم الفكر الحر.

إننا لن نستطيع أن نميز الفرق بين الفكر الحر بالأمس والفكر الحر اليوم إلا إذا تذكرنا تلك الجملة التي تطلب الأمر جرأة القرن الماضي كلها كي يتم فهمها وإعلانها، والتي، إذا مـا قارناها مع المسـتوى الحـالي للمـعرفـة، فإننا سنصـنفهـا في صف السـذاجـة غيـر المقصودة، ــ أعني جملة ڤولتير: « صدقني يا صديقي، حتى الخطأ له قيمته.»

5. خطيئة الفلاسفة الأصلية.

لقل انتحل الفلاسفة، على مر العصور، أطروحات علماء النفس (الأخلاقيين) وأفسدوها بأخذهم لها بشكل مطلق، وبإرادتهم البرهنة على ضرورة ما لم يكن في ذهن أولئك العلماء سوى إشارة تقريبية أو حقيقة صالحة لعقد من الزمن في هذا البلد أو ذاك، ـ وهم يتصورون أنهم بذلك يتجاوزون أولئك الأخلاقيين رفعة. وهكذا سنجد في أساس نظريات شوبنهاور الشهيرة حول أسبقية الإرادة على الذكاء، حول ثبات الطبع، حول سلبية اللذة ـ في أساس كل النظريات، كما يعنيها، والتي هي عبارة عن أخطاء ـ، سنجد مفاهيم الحس المشترك التي وضعها الأخلاقيون. إن كلمة «إرادة» هذه التي عدلها شوبنهاور ليجعل منها التسمية المشتركة لعديد من الحالات الإنسانية، والتي أدخلها في فجوة من فجوات اللغة، لصالحه بما أنه كان أخلاقيا ـ مادام الحديث عن «الإرادة»، مثلما فعله باسكال، قد صار متعلقا به منذ ذلك الحين ـ، إن تلك «الإرادة» قد تحولت في يد الذي ابتكرها، بسبب ذلك الغيظ الفلسفي الذي نجده في التعميم، لتصير شؤما على الفلسفة: لأننا نجعل منها مجازا شعريا حين نؤكد أن لكل الأشياء التي هي في الطبيعة إرادة. وفي الأخير، وبقصد جعل تلك الكلمة تخدم كل أشكال الغباوة المجازية، فقد استعملوها بشكل تعسفي بمعنى تمدية (réification) مزيفة – وكل الفلاسفة يكررون ذلك طبقا لذوق العصر وهم يعلمون بيقين كبير، على ما يبدو، أن لكل الأشياء إرادة وحيدة، بل أكثر من ذلك، أن الأشياء هي تلك الإرادة الوحيدة (وهو مايعني، حسب ما توصف به تلك الإرادة الواحدة والكونية، قدرما نعنيه لو شئنا قطعا أن نسمي الإله شيطان الحماقة).

6. ضد العقول الغريبة الأطوار.

ينفي الغريب الأطوار الحقيقة التي تخصه هو، أما الكذاب فينفي الحقيقة التي تخص الآخرين فقط.

7. كراهية النور.

إذا أفهمنا شخصا ما أنه لن يتمكن أبدا من الحديث عن الحقيقة بكل دقة، بل فقط عن الإحتمال وعن درجاته، فإننا عادة ما نكتشف، لفرط ما تبدو فرحة مستمعنا الذي نورناه بذلك، إلى أي حد يفضل الناس اللايقين الفكري لديهم ويكرهون أشد الكراهية الحقيقة بسبب دقتها.ـ هل يرجع ذلك إلى خوفهم السري من أن نسلط عليهم نور الحقيقة ذات يوم بقساوة بالغة ؟ أم إلى كونهم يريدون الظهور وكأنهم أشخاص

مهمون، وبالتالي لا ينبغي لنا أن نعرف بالضبط من يكونون ؟ أم فقط هي خشية النور الساطع الذي لم تتعود عليه روحهم الغسقية التي تنبهر بسهولة بحيث أنها لا تملك إلا أن تكرهه ؟

8. شكوكية المسيحي.

يروق للناس اليوم أن يقدموا بونتشي بيلاطي كمدافع عن المسيح، وكذلك سؤاله الشهير: ما الحقيقة ؟ لكي يجعلونا نشك بأن كل المعارف المكتسبة والممكن اكتسابها ظاهرية فقط، وليرسوا الصليب على ذلك الأساس المرعب أساس استحالة معرفة أي شيء.

9. «القانون الطبيعي» صيغة الخرافة.

حين تتحدثون بافتتان كبير عن انتظام قوانين الطبيعة؛ أو حين تقرون حتما بأن كل الأشياء الطبيعية تتبع قانونها الطبيعي بمقتضى خضوع حر وتلقائي ــ وهي حالة تعجبون فيها إذن بأخلاقية الطبيعة، أو حين يكون ما يفتنكم هي فكرة الصانع المبدع الذي صنع أدق ساعة وزينها بالكائنات الحية التي تدب فيها، ــ فإن عبارة « التقيد بالقوانين » تضفي صبغة أكثر إنسانية على لزومية الطبيعة وتجعل منها واحدا من آخر ملاذات الوهم الأسطوري.

10. الخضوع لسلطة التاريخ.

يصاب الفلاسفة الذين ينشغلون بحجب العالم وإخفائه، أعني كل الميتافزقيين المرهفي الحس أو الأفظاظ، بألم في عيونهم، في آذانهم وفي أسنانهم بمجرد ما يبدأ لديهم الشك في أن هناك شيئا من الحقيقة في الأطروحة القائلة بأن الفلسفة كلها قد صارت خاضعة لسلطة التاريخ. ومن اللائق، بسبب المعاناة التي يكابدونها، ألا نؤاخذهم عن الأحجار والقاذورات التي يرمون بها من يتحدث على هذا النحو: إلا أن ذلك قد يلوث هذه النظرية يوما وينقص من قيمتها وبذلك تفقد تأثيرها.

11. متشائم الذكاء.

إن صاحب العقل المتحرر حقا سيفكر كذلك بحرية في العقل نفسه ولن يخفي عن نفسه بعض الملامح التي تهم مصدره واتجاهه. وسينعته الآخرون بالعدو اللدود للفكر الحر وسيطلقون عليه اسم «متشائم الذكاء»، وهو اسم مهين ومرعب: لكونهم قد اعتادوا على تسمية الأشخاص ليس بحسب قوتهم وبسالتهم البارزتين، بل حسب ما يرونه فيهم غريبا جدا.

12. إملاق الميتافزيقيين.

إننا لانملك ما نجيب به كل الذين يتحدثون بتضخيم عن التطلع العلمي لميتافزيقاهم : يكفي أن نزعزع الصرة التي يخفونها وراء ظهورهم وهم قلقون، وإن نجحنا في فتحها فستبدوا فوضى نتائج ذلك الطبع العلمي واضحة للعيان : رب بسيط وطيب، خلود جميل، وربما شيء قليل من الأرواحية* (spiritisme)، وعلى كل حال فهي لفيفة متشابكة من الضيق البئيس ومن الكبرياء الفريسي.

13. المضرة العرضية في المعرفة.

إن المنفعة التي نجدها في البحث اللامشروط عن الحقيقي قد تمت البرهنة وإعادة البرنهة عليها كثيرا بحيث يجب حتما أن نرحب بجانب نادر ودقيق فيها وهو الجانب المضر الذي يعاني منه بعض الأفراد. إننا لا نستطيع أن نحول بين الكيميائي وبين ما قد يصيبه من تسمم أو حروق أثناء قيامه بتجاربه. ــ إن ما ينطبق على الكيميائي ينطبق كذلك على حضارتنا بأكملها، وينجم عن ذلك بوضوح ضرورة تزودها بمراهم للاستعمال في حالة الإصابة بحروق وبعُدة دائمة من الترياق المضاد للسم.

14. حاجة مادي الثقافة.

يظن مادي الثقافة (philistin) أنه في أمس الحاجة إلى مزقة من الأرجوان، وإلى عمامة من الميتافزيقا، ويأبى كل الإباء أن ينضو ذلك الثوب عنه : ولو أنه تخلى عن تلك البهرجة لبدا أقل إثارة للسخرية.

15. المتزمتون.

كل ما يقوله المتزمتون في صالح إنجيلهم أو معلمهم إنما يدافعون به عن أنفسهم، بالرغم من هيأة القضاة (وليس المتهمين) التي يتخذونها، لأن كل اللحظات، إلا قليلا، تذكرهم تلقائيا بأنهم استثناءات عليها أن تبرر وجودها.

16. كل جيد يمنح الرغبة في الحياة.

كل الأشياء الجميلة تحث بقوة على الحياة، وكذلك يفعل كتاب جيد كتب ضد الحياة.

17. سعادة المؤرخ.

«حين نسمع الميتافزيقيين البارعين والمغرمين بالماوراء يتكلمون نشعر أننا نحن هم الفقراء من حيث العقل، لكننا نشعر كذلك أن مملكة التغير الأبدية ملك لنا، بفصولها

الأربعة، وهم يملكون الماوراء، بضبابه وظلاله اللامحدودة، الباردة والرمادية.» ـ كذلك كان رجل يحدث نفسه وهو يتجول ذات صباح مشمس، رجل لايكف قلبه، وليس عقله فقط، عن التغير من جراء معاشرته للتاريخ، وهو سعيد، عكس الميتافزيقيين، بضمه بين جنبيه ليس فقط « روحا واحدة خالدة » بل كثيرا من الأرواح الفانية.

18. ثلاثة أنواع من المفكرين.

هناك منابع معدنية تسيل بغزارة، ولها مصفاة تصفي الماء قطرة قطرة، وتقابلها ثلاثة أنواع من المفكرين. يقدرها الجاهل حسب كمية الماء، أما العارف فيقدرها حسب محتوى الماء، أي حسب ما ليس ماء فيها.

19. لوحة الحياة.

إن مهمة رسم لوحة الحياة، مثلما عرضها الشعراء والفلاسفة في أغلب الأحيان، ليست خلوا من المعنى : لكن ما رسمه كبار المفكرين ـ الرسامين لم يكن أبدا سوى لوحات ولويحات مستمدة من حياة واحدة هي حياتهم ـ وكل شيء ماعدا ذلك مستحيل إجمالا. في خضم شيء هو في إطار الصيرورة لا يمكن لشخص في إطار الصيرورة هو الآخر أن يعكس نفسه في صورة ثابتة ودائمة، في صورة «هذا».

20. لا تريد الحقيقة آلهة بجانبها.

يبدأ الإيمان بالحقيقة بالشك في كل الحقائق التي كنا نؤمن بها حتى ذلك الحين.

21. ما نطلب كتمانه.

حين نتحدث عن الفكر الحر وعن جولة شديدة الخطورة عبر المَجْلدات وبحار الجليد فإن أولئك الذين لا يريدون أن يسلكوا تلك الطريق يشعرون بالإهانة وكأننا قد لمناهم على خجلهم وضعفهم. إن الصعاب التي نشعر أننا لسنا في مستوى مواجهتها لا نريد من الناس أن يلمحوا إليها ولو مجرد تلميح أمامنا.

22. الإساءة إلى التاريخ.

المحاكاة الساخرة الأكثر جدية التي سمعتها حتى الآن هي هذه : «في البدء كان العبث، والعبث كان هو الإله ! وكان الإله (بشكل رائع جداً) هو العبث.»

23. الزَّمِن.

المثالي عصي على الإصلاح : لو جعلناه يهوي من علياء سمائه إلى الجحيم لاستعد لأن يجعل من الجحيم مثالا. لنخيب أمله ولتروا ما سيحدث ! إنه سيعانق خيبته بحماس لا يقل عن الذي كان إلى عهد قريب يعانق به الأمل. وبما أن ميله هو من طراز ميول الطبع الإنساني الكبيرة المزمنة، فإنه قد يقود نفسه نحو مصير مأساوي ويصير لاحقا موضوع تراجيديات تهتم بالضبط بكل ما هو زمِن، محتَّم، وقاتل في مصير الطبع الإنساني.

24. التصفيقات استمرار للعرض.

عيون براقة وابتسامة عطوفة هما نوع التصفيقات التي نقوم بها إثر انتهاء ملهاة العالم أو ملهاة الوجود ـ ولكنها تعتبر ملهاة غرضها جلب المشاهدين الآخرين إلى تصفيق ودي.

25. الجرأة على الإزعاج.

الذي لا يملك الشجاعة لأن يكون مزعجا، هو وعمله، ليس بكل تأكيد مفكرا من الطراز الأول، سواء في الفنون أو في العلوم. ـ المتهكم الذي يكون، بشكل استثنائي، مفكرا، يستطيع حين يلقي نظرة على العالم وعلى التاريخ أن يضيف : « إن الرب لم تكن له تلك الشجاعة، لقد أراد أن يجعل كل الأشياء تبدو مفرطة الأهمية، وقد فعل ذلك.»

26. مستخلص من أشد تجارب الفكر حميمية.

من الصعب على المرء أن ينظر إلى الشيء مجردا، أي أن يراه شيئا بالضبط وليس شخصا، بل يمكننا أن نتساءل ما إن كان بإمكانه، بشكل عام، ان يوقف، ولو للحظة قصيرة، غريزته التي تشكل الأشخاص وتبدعهم. ألا يعامل الافكاربدورها، حين تكون أكثر تجريدا، كما لو كانت افرادا يجب ان نصارعهم، ونرتبط بهم، ونرعاهم، ونعالجهم، ونغذيهم ؟ لنرقب ولنراقب أنفسنا بأنفسنا في تلك اللحظات التي نسمع فيها أو نجد فيها اقتراحا جديدا علينا. فربما لا يعجبنا ذلك الاقتراح بسبب كونه مستفزا ومتسلطا، وبطريقة لا شعورية نتساءل إن كان بوسعنا ان نواجهه باقتراح مضاد يكون بمثابة عدو، أن نضيف إليه كلمة «ربما» أو كلمة «أحيانا»، وعلى «وجه الاحتمال» القليلة الشأن التي من شأنها أن تبعث فينا شعورا بالرضى، وذلك لكونها تكسر الاستبداد الشخصي للمطلق الذي يزعجنا. وإن جاء ذلك الاقتراح، على العكس، في

شكل ملطف، متسامح ومتواضع وشبه متناقض،فإننا سنجرب محاولة أخرى لسلطتنا: ألا يكون بإمكاننا نجدة ذلك المخلوق الضعيف، ومجاملته وتغذيته وإعطاؤه قوة وصحة، أن نضفي عليه حتى الحقيقة، بل مزية اللامشروط ؟ ألا يمكننا التصرف معه وكأننا والداه، وان يكون موقفنا منه موقف شهامة ورأفة ؟ أو حين نرى حكما هنا وحكما هناك يظلان بعيدين واحدهما عن الآخر، دون أن ينظرا الى بعضهما، ودون أن يتجه أحدهما الى الآخر : آنذاك تخامرنا فكرة معرفة ما إذا لم يكن هناك زواج ينبغي إتمامه، أو خلاصة يجب استخلاصها، ونستشعر أنه إن نتج شيء عن تلك الخلاصة فإن الذي سيشرفه ذلك ليس هما الحكمان اللذان وَحَّدهما الزواج فقط بل كذلك الذين زوجوهما. فإن لم نستطع، رغم ذلك، أن نسيطر على الفكرة التي خامرتنا لا عن طريق الاستفزاز وروح التخريب ولا عن طريق الإرعاء (إن اعتبرناها صحيحة) فإننا نستسلم ونؤدي لها التحية كما نؤديها لقائد أو لدُوق، نمنحها مقعدا شرفيا، ونتحدث عنها بمباهاة وافتخار، لأن بريقها يشع فينا. والويل لمن يريد إقبارها، إلا إذا بدت لنا هي ذاتها يوما ما مثيرة للشك : ـ آنذاك سنقوم، نحن «صانعو الملوك»(King makers) * في تاريخ الفكر، بخلعها بسرعة عن العرش وتنصيب عدوها بحرارة مكانها. لنزن هذا ولنتفكر قليلا: لن يتحدث أي منا آنذاك بكل تأكيد عن «غريزة المعرفة في ذاتها» ! ـ لماذا يفضل الإنسان الصحيح على الخطأ في صراعه الخفي مع أولئك الأشخاص الذين هم الأفكار، في زواج الأفكار ذاك، في دولة الأفكار تلك، في تربية الأفكار تلك، في ذلك الإنجاد العمومي للأفكار وتلك العناية الصحية، في ذلك كله الذي يظل خفيا أغلب الوقت ؟ للسبب نفسه الذي يجعله يكون عادلا في معاشرته للأشخاص الحقيقيين : اليوم بدافع العادة، والوراثة والتربية لأن الصحيح (وكذلك المنصف والعادل) أكثر نفعا وتشريفا من الخطأ، لأن القوة والسمعة اللتين ترتكزان على الخطأ أو على الكذب، في عالم الفكر، لا تتعاضدان جيدا. إن الشعور بأن مثل ذلك الصرح قد ينهار يوما ما يشكل إهانة لوعي المهندس، بل يخجل من هشاشة مواده، ويود، وهو يضفي على نفسه أهمية أكثر من التي يضفيها على بقية العالم، أن يكون ذلك الصرح أدوم من كل المباني التي سيشيدها. إنه في طموحه نحو الحقيقة إنما يعانق الإيمان بالخلود الشخصي، أي الفكرة الأكثر تكبرا والأكثر استفزازا على الإطلاق، نظرا لقرابتها مع الفكرة القائلة أن العالم يفنى بينما أظل أنا في صحة جيدة ! لقد صار عمله هوأناه، وهو نفسه يصير شيئا خالدا يتحدى الكون. كبرياءه المغالي هو الذي يريد أن يشتغل الآن فقط بأفضل الأحجار، وأصلبها، بالحقائق أيضا، أو بما يعتبره حقائق. لقد كان الناس على صواب حين سموا الكبرياء، على مر العصور، «رذيلة العالم»، ـ لكن

لولا قوة تلك الرذيلة لكان حال الحقيقة وحال امتيازها حالا يرثى له على وجه الأرض. إننا حين نخشى أفكارنا ومفاهيمنا وكلماتنا، وكذلك حين نحترم أنفسنا فيها، حين نزودها لا شعوريا بقوة قادرة على تعليمنا، على ازدرائنا، على مدحنا وذمنا، فإننا بذلك نتعامل معها كما مع الكثير من الأشخاص الأخلاقيين الأحرار، من القوى المستقلة، يدا ليد، ثمة يكمن جذر تلك الظاهرة الغريبة التي أسميتها « وعيا ثقافيا ». ــ هكذا إذن يكون ذلك أيضا جذرا أسود قد تفتح على هيأة ازهرار أخلاقي لعرق متفوق.

27. الظلاميــون.

الشئ الأساسي في سحر الظلامية* الأسود ليس هو سعيها لتعتيم العقول، بل سعيها لتشويه الصور التي لدينا عن العالم، لأن تُظلم الفكرة التي نكونها عن الوجود. ولا شك أنها غالبا ما تستخدم لهذا الغرض الوسيلة التي تقتضي منع العقول من التفتح على المعرفة، لكنها أحيانا تلجأ إلى عكس هذه الوسائل تماما، من خلال جعل الذكاء دقيقا جدا، إلى إثارة الإشمئزاز من ثماره. فالميتافزيقيون الخالصون، الذين يمهدون للشكية، والذين، بفطنتهم المفرطة، يثيرون الريبة بخصوص كل فطنة، هم أدوات جيدة لخدمة ظلامية دقيقة. ــ هل يمكن أن يتم استخدام كانط نفسه لهذا الغرض ؟ بل أكثر من ذلك، هل يمكن أن يكون قد أراد، حسب تفسيره الشهير، شيئا مماثلا ولو بشكل مؤقت : إطلاق عنان الإيمان مع فرض قيود على العلم ؟ وهو شيء لم ينجح في بلوغه لاهو ولا الذين اقتفوا أثره على طريق الظلامية الملطفة ،الخطيرة جدا، بل أخطر الظلاميات كلها؛ لأن السحر الأسود يبدو هنا مغلفا بالنور.

28. الفلسفة المؤدية لخراب الفن.

حين ينجح ضباب فلسفة ميتافزيقية وصوفية ما في جعل الظواهر الجمالية عصية على الرؤية فإنه ينتج عن ذلك استحالة تقدير تلك الظواهر بمقارنة بعضها مع بعض، وذلك لأن الواحدة منها تصير مستحيلة التفسير بمعزل عن الأخريات. وإذا لم يعد ممكنا مقارنتها بغرض تقييمها فإنه ينتج عن ذلك في نهاية الأمر غياب كلي للنقد، ينتج عنه غض الطرف بشكل أعمى وبالتالي نقص في المتعة التي يمنحها الفن (الذي لا يمكن تمييزه إلا بواسطة ذوق وتمييز دقيق ينبعان من تلبية فظة لحاجة ما). والحالة أنه كلما نقصت المتعة، كلما عادت الرغبة في الفن، بشكل استعادي، شهية مبتذلة، يسعى الفنان إلى خداعها بأغذية تزداد فظاظتها.

29. في الجثمانيـة*

أشد الكلمات إيلاما التي يستـطيع المفكر أن يوجهها إلى الفنانين هي :« ألا يمكنكم أن تسهروا معي ساعة؟»

30. في الحرفـة.

في مقـابل البعض الذي يجد لذة في حل ربطـة الأشياء وفك نسيـجها نجـد آخرين كـثيـرين (كل الفنانين والنسـاء مثـلا) يعـملون على إعادة ربطه وتـعقـيده باستـمـرار، جاعلين مما كـان مفهـوما شيئـا غير مـفهوم، وإن أمكن، شـيئا يستـحيل فهـمه. أيا تكن نتيـجة ذلك فـإن المادة التي تم نسجهـا وعقدهـا ستظل وسخـة شيئـا ما لأن الكثـير من الأيادي تعمل فيها وتتجاذبها.

31. في بيـداء العلـم.

تظهر للعـالم أثناء جولاته المتواضعـة والمتعبـة، والتي تكون في الغالب أسفارا قـسرية في البيداء، تظهر له بعض من تلك الشهب اللامعة التي يسمونها «أنساقا فلسفية»: إنها تظهر له حل كل الألغاز وأعـذب جرعة من إكسيـر الحياة الحقيـقي قريبين جدا، وذلك من خلال قـوة سحـرية في الوهم. يكاد وهو متـعب، والنشوة تملأ قلبـه، يبلغ بغيـته من وراء كل الآلام التي تحـمّلهـا بعنـاد من أجل العلم بحـيث أنه يمضي قـدمـا بشكل لا شعوري. وأمـا ذوو الطباع الأخـرى فـإنهم يتوقـفون كـمـا لو أن السراب الجـميل قـد أذهلهم : تلتهـمهـم البيـداء فيموتون من أجل العـلم. وآخرون، وقد عرفـوا تلك المواساة الذاتية، تستولي عليهـم ولا شك ضغينة شـديدة ويلعنون الملوحة التي يخلفـها في الفم ظهـور تلك الشـهب، والتي تولد ظمـأ شـديدا ــ دون أن يقـتـربوا مع ذلك، ولو خطوة واحدة، من أي نبع كان.

32. «الواقع الحقيقي» المزعوم.

حين يصف الشاعر مختلف أنواع المهن، كمـهنة قائد الجيش مثلا، أو نساج الحرير، أو البحار، فـإنه يتظاهر بأنه يعرف هذه الأشياء حق المعـرفة وأنه ماهر فيهـا، بل أكثر من ذلك، إنه يتصرف، حين يمر إلى تفسير أفعال الإنسـان ومصيره، كما لو أن نسيج العالم قد تم نسجه وبسطه أمـامه، وهو بهذا المعنى دجال، وهو دجال يخدع جمـعية الجهال، وذلك بالضبط هو سبب نجاحه : يمدح أولئك الناس معرفتـه الأصلية والعميقة ويدفعونه في نهاية الأمر إلى أن يتصور أنه يعرف الأشياء جـيدا مثله مثل من خبرها ومن يصنعها، بل مثل العنكبوت الكبـيرة ناسجة الكون نفسـها، ليصير في نهـاية المطاف صادقا يؤمن

بصدقه. بل إن الأشخاص المرهفي الحس يقولون له في حضوره بأنه يمتلك الحقيقة والصدق الساميين، وذلك لأنه يحدث لهم أن يملوا الواقع فيستقبلون حلم الشاعر كاستراحة، كليل مريح للرأس والقلب. ويبدو لهم ما يظهره ذلك الحلم ذا قيمة كبيرة لأنهم يجدون فيه، كما أسلفنا، راحة كبيرة : والناس دائمايعتقدون أن المظاهر الغالية تكون حقيقية وواقعية. أما الشعراء الواعون بقوتهم فيسعون عن قصد إلى أن يعيبوا ما اعتاد الناس تسميته بالواقع، إلى وسمه بالمشكوك فيه، بالخادع، بالمزيف، بأنه كله إثم ومعاناة ووهم. إنهم يستفيدون من كل الشكوك التي هي على تخوم المعرفة،من كل مبالغات الشكوكية، كي ينشروا على الأشياء حُجُبَ اللايقين، وهم يفترضون، بعد ذلك الحَجْبِ، أن الناس يرون في شعوذتهم وفي سحرهم النفسي، دون أن ينتبهوا لذلك، طريق «الحقيقة الحقة»، طريق «الواقع الحقيقي».

33.إرادة أن تكون عادلا وقاضيا.

يقوم شوبنهاور، الذي لم تعان حدة ذهنه الكبيرة بخصوص المسائل الإنسانية والمفرطة في الإنسانية ولا واقعيته الأولية من فرو الفهد المبرقش الذي يغلف فلسفته الميتافزيقية (ينبغي البدء بتجريده منه كي نكتشف تحته عبقريا أصيلا في ميدان الأخلاق)، يقوم بالتمييز التالي الذي يجعله على صواب بقدر أكبر من الذي يعترف به : «إن معرفة اللزوم الدقيق في الأعمال التي يأتيها الإنسان هي الخط الفاصل بين العقول الفلسفية وماعداها من العقول.» إلا أنه كان يناقض تلك المعرفة الأساسية التي توصل إليها عبر مراحل، كان يناقضها في ذاته بذلك الحكم المسبق الذي كان يتقاسمه مع الناس الأفاضل (وليس مع الأخلاقيين) والذي يقدمه بطريقة بسيطة جدا وساذجة كما يلي :«يجب حتما أن يرتبط آخر وأصح وعي بخصوص جوهر الأشياء كلها ارتباطا وثيقا باكتشاف المدلول الأخلاقي للسلوك الإنساني»، ـ وهو شيء ليس باللازم إطلاقا، بل تدحضه الأطروحة السالفة التي تقول بلزوم الأعمال التي يأتيها الإنسان، أي بغياب الحرية واللامسؤولية المطلقتين للإرادة. فما ستتميز به العقول الفلسفية عن الأخرى إذن هي شكوكيتها بخصوص المدلول الميتافزيقي للأخلاق : وهو ما قد يفصل بينهما بهاوية لا تكاد الهاوية التي نشتكي منها كثيرا والفاصلة بين «المثقفين» و«غير المثقفين»، مثلما هي الآن، لا تكاد تعطينا ولو فكرة عن عمقها السحيق. لا بد، بكل تأكيد، من الإقرار بلاجدوى كثير من الأبواب الخفية التي اختص بها ذوو «العقول الفلسفية» أنفسهم، مثل شوبنهاور نفسه : لا تؤدي أية منها إلى الهواء الطلق، إلى هواء حرية الاختيار. لقد كانت كل واحدة من تلك التي كانوا يتسللون

منها حتى الآن تظهر دائما خلفها حائطا برونزيا لامعا، إنه حائط القدر : إننا في سجن، ولا يسعنا إلا أن نحلم لا أن نحرر أنفسنا. إن مواقف أولئك الذين لا يزالون يقفون في وجه تلك المعرفة ويستمرون في خوض الصراع ضدها وحركاتهم البهلوانية اليائسة والغريبة تظهر أنه لا يمكن التمرد على تلك المعرفة طويلا. ـــ هذا هو، على وجه التقريب، ما قد وصلوا إليه الآن :« هكذا إذن، ليس هناك أحد مسؤول عن أفعاله؟ وكل الناس خاطئون وآثمون ؟ لكن الآثم لا بد أن يتواجد في مكان ما : إن لم يعد الآن ممكنا ولا مسموحا به اتهام الفرد ومحاكمته، ذلك الفرد الذي يعتبر موجة صغيرة في خضم تدفق الصيرورة اللازم، فليكن، وسيكون التدفق ذاته، ستكون الصيرورة هي الآثمة، وهنا تكمن حرية الإختيار، وهنا يمكننا أن نتهم، أن نُدين، أن نؤدي الثمن وأن نُكَفِّر : ليكن الإله هو الآثم والإنسان هو مخلصه، ليكن تاريخ العالم خطأ وإدانة للذات وانتحاراً، ليتحول المجرم إلى قاضي نفسه، وليتحول القاضي إلى جلاد نفسه.» هذه المسيحية بالمقلوب (وأي شيء غير هذا ؟) هي آخر طعنة توجهها العقيدة الأخلاقية المطلقة وعقيدة الغياب المطلق للحرية، ـ ولو أن تلك الطعنة لم تكن سوى تكشيرة منطقية، سوى حركة بذيئة من حركات العقل الباطن (subconscient)، لو كانت أكثر من ذلك لكان شيئا فظيعا، شيئا مثل التشنج القاتل الحاصل في قلب يائس في بحثه عن الخلاص، قلب يهمس له الجنون :«انظر، أنت الحمل الذي يحمل خطيئة الإله.» ـ الخطأ لا يكمن فقط في هذا الشعور :« أنا مسؤول »، بل كذلك في نقيضه: «لست مسؤولا، ولكن يجب أن يكون هناك شخص مسؤول، أيا كان.» ـ وهذا بالضبط ليس صحيحا : على الفيلسوف إذن أن يقول مثل المسيح :«لا تحكم أبدا !»، والفرق الأخير بين ذوي العقول الفلسفية وبين ما عداهم هو كون الأوائل يريدون أن يكونوا عادلين، بينما الآخرون يريدون أن يكونوا قضاة.

34. تضحية.

أتظنون أن ميزة العمل الأخلاقي هي التضحية ؟. اسألوا أنفسكم إن لم يكن كل عمل نقوم به بتبصر عملا ترافقه تضحية سواء كان عملا سيئا أو حسنا.

35. ضد من يسبرون عمق الأخلاقية.

يجب أن نعرف أحسن وأسوأ ما يقدر عليه المرء، من حيث الفكر ومن حيث العمل، لكي نحكم على مدى قوة طبعه الأخلاقي وعلى مدى القوة التي صار عليها. والحال أن معرفة ذلك عن تجربة شيء مستحيل.

36.-الدفاع عن النفس.

إننا لا نعرف ما إن كنا سنهب للدفاع عن أنفسنا أو لا إلا حين يدوس أحد ما على كرامتنا. أما المرأة أو الأم فستقولان : قبل أن يسيء أحد إلى حبيبي، إلى طفلي. إن غياب بعض التجارب يحدد طبعنا أكثر مما تحدده التجارب التي نقوم بها.

37. الخداع في الحب.

ننسى أشياء كثيرة من ماضينا ونطردها من ذهننا عمدا : وذلك يعني أننا نريد لصورتنا، التي يشع علينا بريقها من عمق الماضي، أن تخدعنا، أن تجامل كفاءتنا، ــ إننا نعمل باستمرار على جعل أنفسنا تعيش هذا الوهم. ــ والآن تعتقدون، أنتم الذين تتحدثون كثيرا عن «نسيان الذات في الحب» و«اندماج الأنا في شخص آخر»، وتمدحونهما، أن ذلك شيء مخالف تماما ؟ إننا نكسر المرآة، نتخيل أنفسنا وقد حللنا في شخص نحن معجبون به، نستمتع آنذاك بصورتنا تلك، نطلق عليها في ذات الوقت اسم الشخص الآخر، ــ وتزعمون أيها الغريبو الأطوار أن تلك الظاهرة ليست وهما نمارسه على الذات، أنها ليست أنانية ! ــ إنني أعتقد أن أولئك الذين يخفون جزءا منهم عن أنفسهم وأولئك الذين يخفون أنفسهم كلها عن أنفسهم سواء، وذلك لكونهما يسرقان من كنز المعرفة : إننا نستخلص من ذلك بشاعة الجريمة التي تحذرنا منها قولة : «اعرف نفسك بنفسك».

38. إلى من ينكر غروره.

إن الذي ينكر غروره عادة ما يكون فيه غرور فظ جدا بحيث أنه يغض عنه الطرف فطريا حتى لا يزدري نفسه.

39. كيف يصير البلداء في الغالب أشرارا.

يواجه قلبنا اعتراضات الخصم التي يعجز عقلنا عن استعابها بإثارة الشك حول أسبابها.

40. فن الاستثناء الأخلاقي.

مثلما نشتري من الغجر شيئا من حين لآخر ونحن نخشى أن يسرقوا منا أكثر مما نربح، كذلك لا ينبغي لنا أن نولي اهتماما لفن يبرز الحالات الاستثنائية في الأخلاق ويمجدها، تلك الحالات التي يصير فيها الخير شرا والجور عدلا.

41. استعمال وعدم استعمال السموم.

إن ما منع الناس بشكل حاسم، عبر العصور، من تحسي السم ليس كونه يقتل، بل لأن له ذوقا لا يستساغ.

42. العالم خاليا من الإحساس بالذنب.

لو أن الناس لم يرتكبوا من الأعمال إلا تلك التي لا تورث إحساسا بالذنب لاستمر عالم الناس يبدو شريرا وبئيسا، لكنه لن يبدو مرضيا ومثيرا للشفقة مثلما يبدو الآن. ـ لقد عاش في كل العصور كثير من الأشرار الذين لا ضمير لهم : والمتعة التي تمنحها راحة الضمير تنقص الكثير من الناس الطيبين الكرماء.

43. أصحاب الضمير الحي.

تريح الناس طاعتهم لضميرهم أكثر مما تريحهم طاعتهم لذكاءهم : ذلك لأن الأولى تحمل في طياتها العذر والمواساة في حالة الفشل، ـ كما أن هناك دائما عددا أكبر من ذوي الضمائر الحية مقارنة مع الأذكياء.

44. طرق متعارضة لتفادي المرارة.

هذا يجني فائدة من قدرته على تخفيف غيظه بالكلمات : إنه يهدئ نفسه بالثرثرة. وآخر يؤدي به إفصاحه بحرية إلى طفاح المرارة، ويجدر بمن يريد أن يكون ممتنا له أن يبتلع شيئا منها، إن الإكراه الذي يمارسه هؤلاء الناس على أنفسهم أمام أعدائهم أو رؤسائهم يصلح طبعهم ويمنع اللذوعية والغيظ من التسرب إليه.

45- لا تفرطو في حمله محمل الجد.

إن إنسلاخ جلدنا من فرط تمددنا في الفراش شيء مزعج، لكنه لا يصلح برهانا ضد جودة العلاج الذي من أجله وصف لنا الطبيب لزوم الفراش. فالذين عاشوا طويلا خارج أنفسهم ثم عانقوا حياة فلسفية داخلية ومنزوية يعرفون أن هناك جروحا تصيب الروح والعقل من لزومهما الفراش. ليس ذلك إذن دليلا شاملا نقدمه ضد أسلوب الحياة الذي اخترناه، لكنه هو الذي يجعل، مع ذلك، بعض الاستثناءات البسيطة والانتكاسات الظاهرة ضرورية.

46. «الشيء في ذاته» الإنساني.

الشيء الأكثر قابلية للإنجراح، والأكثر استعصاء على الانهزام، هو الغرور الإنساني : حتى الجراح تزيد قوته التي قد تبلغ في نهاية المطاف حجما هائلا.

47. هرجة (Farce) أغلب العاملين.

إنهم ينتهون، بواسطة الإفراط في العمل الشاق، إلى أن يكون لهم وقت فارغ لا يعرفون ما يصنعون به سوى عد ساعاته في انتظار مرورها.

48. التلذذ كثيرا.

لا شك أن الذي يلتذ كثيرا هو رجل طيب، لكنه قد لا يكون أذكى الناس، وإن كان يملك بالضبط ما يطمح إليه أذكى الرجال من وراء ذكائه.

49. أمام مرآة الطبيعة.

ألا نكون قد وصفنا إنسانا بدقة متناهية حين نقول بأنه يحب التجوال وسط حقول القمح الناضجة، بأنه يفضل في الغابات والأزهار ألوان الخريف الباهتة والذاوية على ما سواها لأنها توحي له بجمال أكثر من الذي توحي به الطبيعة، بأنه يشعر وهو يمشي تحت أشجار الجوز الكثيفة الأوراق كأنه بين أقرب أقاربه، بأن فرحته الكبرى حين يصعد الجبل هي العثور على تلك البحيرات الصغيرة النائية التي تبدو كأنها تنظر إليه بعيون الوحدة ذاتها، بأنه يحب الهدوء الرمادي في الضباب الغسقي الذي ينسل، عند بداية أمسيات الخريف والشتاء، إلى النوافذ ويخنق كما لو كان تحت ستار من فرو كل الأصوات التي لا حيوية فيها، بأنه يشعر وكأن الصخور الخام هي آثار شاهدة تدل على غابر الأزمنة التي تسعى إلى البوح،بأنه يبجلها منذ طفولته، وأخيرا بأن البحر غريب عنه وسيظل غريبا عنه بجلده المتحرك مثل جلد الحية وبجماله الذي يشبه جمال السباع ؟ ــ أجل، إن ذلك يصف شيئا من ذلك الإنسان بكل تأكيد، لكن مرآة الطبيعة لا تعكس ما قد يكون في هذا الإنسان نفسه، بكل إحساسه الغزلي (وليس بالرغم عنه)، من أنانية، من شح ومن غطرسة. لقد وضع هوراس، الذي كان بارعا في تلك الأشياء، أرق مشاعر الحياة البرية في روح مراب روماني وعلى لسانه بقولته الشهيرة : ما أسعد من لا تشغله الأعمال.

50. قوة بدون انتصارات.

المعرفة الأقوى (معرفة تبعية الإرادة الإنسانية) هي الأكثر فقرا، رغم قوتها، من حيث الإنتصارات : لأن لها دائما عدواً أقوى هو الغرور الإنساني.

51. المتعة والخطأ.

هذا يحسن إلى أصدقائه اضطرارا بإبداء كينونته ذاتها لهم، وآخر يحسن إليهم طوعا من خلال قيامه ببعض الأعمال. مهما تكن الطريقة الأولى في الإحسان هي

الأنبل فإن الطريقةالثـانية وحدها هي التي يتم ربطها براحة الـضمير وبالمتعة، بمتـعة تبرير المرء لسلوكه من خلال أفعاله، تلك المتعـة المبنية على الإيمان بحرية الإحسان أو الإساءة كما نشاء، أي على الخطأ.

52. من الجنون أن نسيئ للغير.

يصعب علينا تحمل الأذى الذي تسببنا فيه للغير أكثر من تحـمل الذي تسبب له فيه شخص آخر (ليس لأسبـاب أخلاقية بكل تأكيد)، فالقائـم بالفعل هو الذي يعاني دائما من فعله، مهما يكن قليل التأثر سواء بتبكيت الضـمير أو بملاحظته أنه يستعدي المجتمع ضده بفعله ذاك فيجد نفسـه معزولا من جرائه. وهكذا، على المرء أن يحترس من ظلمه الناس أكـثر من احـتراسـه من التعـرض للظلم، حـتى وإن لم يكن ذلك سوى لمصلحـة سـعادته الداخليـة، أي لكي لا يحـرم نفسـه من رفـاهيتـه، وذلك بمنأى عن كل تعـاليم الدين والأخلاق : لأنه فـي حالة تعرضنا للظلـم تواسينا راحة الضـمير، يواسـينا أمل في الإنتقـام، أمل في إشفاق العـادلين علينا ورضاهم عنا بل في إشـفاق ورضا المجـتمع كله الذي يخشى الشـرير، هناك كثـير من الناس يتـقنون المكر بأنفسـهم، وهـم على قدر من اللؤم يسمح لهم بتحويل ظلم اقـترفوه إلى ظلم اقترفه الغير، ويحتـفظون لأنفسـهم، بغية التبرؤ مما اقترفته أيديهم، بالحق الإستثنائي في الدفاع عن النفس، كي يتمكنوا بذلك من حَمْلِ عبئهم بسهولة.

53. الحسد المعلن والخفي.

عادة ما يشـرع الحسود العادي في الصيـاح بمجرد ما يحقق المحسود نجـاحا ما : لأن ذلك يخفف عنه ويهدئه. غـير أن هناك حسـدا أعمق : فالحـسود من هذا الصنف يلتزم صمت القـبور، ولكن غضـبه يزداد أكثـر فأكثر حين يرى أن الأفـواه التي تمناها أن تلزم الصمت لم تفعل، مما يعني أن الحسد الخفي ينمو وسط الصمت.

54. الغضب جاسوس.

يغترف الغضب من أعماق النفس ويكشف مكنوناتها أيضا. فإذا لم نستطع أن نرى بوضوح ما يدبره الناس ضدنا وما يظنونه بشـأننا فإنه يجب علينا أن نسعى إلى إغضاب كل محيطنا بما فيه من أصدقاء وخصوم بغية التوصل إلى معرفة ذلك.

55. الدفاع أصعب أخلاقيا من الهجوم.

إن أروع عمل بطولي يقوم به الإنسان الطيب ليس هو مهاجمة القضية مع استمراره في محبـة الشخص، بل هو الدفاع عن قضـيته هو دون أن يتسبب أو يـريد التسبب في

معـاناة مـريرة وعمـيقـة للشخص الذي يهـاجمـه، وهذا شيء شديد الصعوبة. سيف الهجوم عريض، وسيف الدفاع ينسل عادة مثل إبرة.

56. صادق مخالف للصدق.

الرجل الذي يكون صادقـا مع نفسه أمام الملأ يجني الغـرور من ذلك الصدق : لأنه يعرف جيدا لماذا هو صادق، ـ إن سبب صدقه قـد يجعل شخـصا آخر يفـضل الحيلة والمواربة.

57. جمار.

إن إغراق شخص آخر بجـمار الندم غالبا ما لا يقوم على أسس صلبة ويسـاء فهمه، لأن ذلك الآخـر يعرف هو بدوره أنه عـلى حق ويكون قد فكر مـن جانبـه في تكديس الجمار.

58. كتب خطيرة.

يقـول أحدهم :«هذا كـتاب ضـار، إني أرى ذلك من خـلال تأثيـره علي.» فلينتظر قليلا، ولربما سيعترف يوما بأن ذلك الكتاب نفسـه قد أسدى له خدمة كبيرة بأن أخرج إلى النور مرض قلبه الذي كان خـفيا. ـ فتغييـر الرأي لا يغير شيئا (أو شيـئا قليلا جدا) من طبع الشخص، لكنه يسلط الضوء على بعض الجوانب من شـخصيته التي ظلت في منطقة الظل حتى ذلك الحين، مبهمة، ومتبنية آراء مخالفة.

59. شفقة مصطنعة.

نتصنع الشفـقة حين نريد أن نبدو متـعالين عن الشعور العـدائي : لكن ذلك عادة ما يكون دون جدوى. وإننا لا نتنبه لذلك دون أن يعاودنا ذلك الشعور بقوة.

60. آثار التناقض المفتوح التوفيقية.

في اللحظة التي يخبر فيـها شخص ما الجمهور بالأسبـاب العقائدية التي تفصله عن معلم أو زعيم حزب مـشهورين، فإن كل الناس يعتقدون أنه يحقـد حتما على المعلم أو على الزعـيم. أحيـانا، مع ذلك، تكون تلك اللحظة بالضـبط هي التي يكف فـيهـا عن الحقد عـليه : إنه يتجرأ على الوقـوف جنبا إلى جنب مع المعلم أو الزعيم ومن ثمـة يجد نفسه وقد تخلص من عذابات الحسد المكبوت.

61. رؤية المرء نوره يسطع.

في حالة مظلمة بفعل البلية والمرض والإحساس بالإثم نحب أن نرى أننا نضيء على الآخرين أيضا ونحب أن يروا فينا الجانب المضيء من القمر. بهذه الحيلة نساهم في ملكة الإنارة التي لدينا.

62. فرحة مشتركة.

تتصور الحية التي تلدغنا أنها تؤذينا وتفرح لذلك، إن الحيوان، مهما يكن وضيعا، يستطيع أن يتصور الألم لدى الغير. لكن تصور فرحة الغير ومشاركته إياها يعتبر مزية كبرى لدى الحيوانات الراقية، لكن النخبة منها هي وحدها القادرة على ذلك. فهو إذن فعل إنساني نادر : وإن كان هناك بعض الفلاسفة الذين أنكروا الفرحة المشتركة.

63. حمل متأخر.

إن الذين ينتجون أعمالهم الأدبية ومآثرهم دون أن يعرفوا كيف حصل ذلك يعرضونها، كالبضائع وقت إنتاجها، ليبرهنوا بذلك، بعد فوات الآوان، على أنها نتاجهم وليست نتاج الصدفة.

64. قاس بسبب الغرور.

مثلما يكون العدل في الغالب قناعا يحجب الضعف كذلك فإن لجوء الناس العاديين الضعفاء إلى الإخفاء أحيانا يكون بدافع الغرور، ويكون الغرض من تصرفهم بظلم وقسوة أمام الملأ هو إعطاء انطباع بأنهم أقوياء.

65. إذلال.

لو وجد أحدهم في كيس من المنافع مثقال ذرة من الإذلال فإنه لن يتحمل تلك المنافع.

66. الدرجة القصوى للتبحر في العلم.

قد يكون هناك علماء متبحرون يحرقون المعابد التي أقيمت خصيصا لتعبد فيها تماثيلهم.

67. عالم اسم التصغير.

إن كون الضعف والبؤس يخاطبان القلب يخلق لدينا عادة التعبير بأسماء تصغير وبعبارات ناقصة عن كل ما يخاطب عقلنا، أي : عادة اعتباره، فيما يخص إحساسنا، شيئا ضعيفا وبئيسا.

68. نوع رديء من الشفقة.

ترافق الشفقة بذاءة خاصة : بما أنها تريد أن تغيث الآخرين فإنه لا شيء يحرجها، لا وسائل الشفاء ولا طبيعة المرض وسببه، لذلك تنقض بمرح، بعلاجاتها التي تشبه علاجات امرأة مسنة، على صحة مريضها وسمعته.

69. تطفل.

هناك أيضا تطفل بخصوص الكتب، ودخول المرء، وهو مايزال شابا، في علاقة حميمة مع أشهر الأعمال الأدبية على الإطلاق ليقلدها مع رفع الكلفة يعتبر دليلا على غياب تام للحياء لديه. ــ وهناك آخرون يتطفلون بدافع الجهل : فهم لايعرفون من يواجهونه، ــ مثلما هو الحال بالنسبة لفقهاء اللغة الشبان والشيوخ في علاقتهم مع الأعمال الأدبية الإغريقية.

70. الإرادة تخجل من الذكاء.

إننا نقوم، ببرودة كاملة، بمشاريع معقولة ضدا على أهوائنا، ولكننا نرتكب بعد ذلك أفدح الأخطاء في حق هذه المشاريع لأننا غالبا ما نخجل، لحظة تطبيق ما صممناه، من تلك البرودة المتروية التي صممناه بها. وهكذا نكون قد وقفنا ضد العقل من خلال تلك المروءة المغضبة التي يحويها كل هوى.

71. لماذا لا يعجب الشكوكيون الأخلاق.

إن الذي يمتلك فكرة مغالية وعنيدة عن أخلاقيته يستشيط غضبا ضد المتشككين في الأخلاق : لأنه يفهم ،هناك حيث يستخدم كل طاقته، بأن الناس سيندهشون وليس أنهم سيتحرون ويشُكون. ــ هناك أناس يشكل الإيمان بالأخلاق آخر البقايا في طباعهم، وهم يتصرفون بنفس الطريقة مع المتشككين، وربما بانفعال أكبر.

72. خجل.

كل الأخلاقيين خجولون، وذلك لأنهم يعلمون أن الناس يعتبرونهم جواسيس وخونة بمجرد ما يدركون ميلهم، بعد ذلك يصيرون واعين تما بأن النشاط في العمل ينقصهم، لأنهم حين يكونون منهمكين في العمل فإن دواعي تصرفهم تكاد تصرف أشباههم عن العمل.

73. خطر على الأخلاقية العامة.

الرجال الذين يجمعون بين الشهامة والصدق يتمكنون من تمجيد كل شيطنة يثيرها صدقهم ومن تمجيد حركة ميزان الحكم الأخلاقي بعض الوقت.

74. أشد الأخطاء مرارة.

يشعر المرء بإهانة ما بعدها إهانة إذ يكتشف أن الشخص الذي كان يعتقد أنه محبوب لديه لم يكن يعتبره إلا كقطعة من الأثاث، كشيء للزينة يمكن لرب البيت أن يُسَلي به غروره أمام ضيوفه.

75. الحب والثنائية.

الحب هو أن ندرك أن شخصا آخر يحيا ويشعر ويتصرف بطريقة مخالفة لطريقتنا، بل بطريقة مناقضة، وأن نفرح لذلك ؟ لكي يجمع الحب بين النقيضين في الفرح فإنه لا ينبغي له أن يلغيها وينكرهما. حتى حب الذات يعتبر شرط وجوبه هو الثنائية (أو التعددية) المتعذر اختزالها في شخص واحد.

76. تفسير من خلال الحلم.

إن ما لا نعرفه ولا نشعر به دائما في حالة اليقظة ــ إن كنا نشعر تجاه شخص ما بالذنب أم براحة الضمير ــ يخبرنا به الحلم بوضوح كامل.

77. التبذير.

إن ما يدفع الناس إلى التبذير ليس هو الفرح، بل غياب الفرح.

78. العقاب والجزاء.

ليس هناك شخص واحد يصدر اتهاما دون أن يفكر مسبقا في العقاب والانتقام، حتى وإن كان المتهم هو قدره أو هو نفسه. كل شكوى تعتبر اتهاما، وكل رضى يعتبر إطراء: ففي كلتا الحالتين نحمل المسؤولية لأحد ما.

79. ظالم مرتين.

أحيانا نجعل الحقيقة تتقدم من خلال اقترافنا ظلما مضاعفا، ويكون ذلك حين نرى ونصف، واحدا إثر الآخر، جانبي شيء لا نستطيع إدراكهما مجتمعين، بحيث أننا في كل مرة، ننكر الجانب الآخر أو ننفيه ونحن نتصور أن الجانب الذي نبصره هو الحقيقة كاملة.

80. حذر.

لايتصرف الحذر دائما من تلقاء نفسه بشكل متردد وخجول، بل أحيانا يتصرف وكأنه مغيظ أشد الغيظ : لقد انتشى لكي لا يرتعد.

81. فلسفة حديث النعمة.

إن أردت أن تكون شخصا ذا قيمة ينبغي أن يكون لديك احترام لظلك كذلك.

82. فن الإغتسال.

يجب أن تعرف كيف تخرج من ظروف وسخة وأنت أشد نقاء، وأن تعرف كذلك، حين تدعو الضرورة، كيف تغتسل بالماء الوسخ.

83. إهمال النفس.

كلما أهملت نفسك أكثر، كلما أهملك الآخرون أقل.

84. النذل البريء.

إنه لطريق طويل ذلك الذي يقود خطوة خطوة إلى مختلف أصناف الرذيلة والنذالة. وعند نهاية ذلك الطريق تكون غيوم الإحساس بالذنب الكثيفة قد تلاشت في سماء ذلك الذي يسلكه، فيتجول فيه بكل براءة، وإن كان سافلا.

85. إنجاز التصميمات.

يرافق إنجاز التصميمات وتصور المشاريع شعور كبير بالرضى، فالذي يقدر أن يكون طيلة حياته مصمما جيدا للمشاريع فقط سيكون إنسانا سعيدا، لكن سيلزمه، عند الإقتضاء، أن يستريح من ذلك النشاط، وذلك بأن ينجز واحدا من مشاريعه، وآنذاك سيكدر حياته الغم وزوال الوهم.

86. بماذا نرى المثل الأعلى.

كل إنسان قادر تضله مقدرته وتمنعه من النظر إلى الخارج بحرية. ولو لم يكن له حظه من النقص لما استطاع التوصل إلى أية حرية أخلاقية أو فكرية بسبب فضيلته. إن عيوبنا هي العيون التي بها نرى المثل الأعلى.

87. المدح الكاذب.

الصدق الذي يشوب المدح يخلف، بعد فوات الأوان، ندما أكثر من الذي يخلفه انعدام الصدق في الذم، وربما لهذا السبب وحده نكون، حين نبالغ في المدح، قد عرضنا حكمنا للشبهة أكثر مما نعرضه لها حين نبالغ في الذم حتى نبلغ به حد الظلم.

88. طريقة الموت غير مهمة.

الطريقة التي يفكر بها شخص ما في الموت كلما كان يفيض حيوية وقوة هي ولا شك شهادة بالغة على ما نسميه طبعه، أما ساعة موته وموقفه وهو على فراش الموت فيكادان يكونان غير ذي أهمية بهذا الخصوص. الإنهاك الذي يبلغه الوجود عند نهايته، خاصة حين يكون الشيوخ هم من يموتون، عدم انتظام أو عدم كفاية الدّم الذي يصل إلى المخ في تلك اللحظات الأخيرة، عنف الألم الذي يكون قويا جدا في بعض الأحيان، الشيء الجديد، الذي لم يتم الشعور به من قبل، في هذه الحالة كلها يكون، في أغلب الأحيان، هو الصدمة، وهي عودة الإنطباعات والمخاوف الخرافية، كما لو أن الموت شيء رهيب يتطلب من المرء أن يجتاز أفظع قنطرة، ـ كل هذا لا يسمح لنا بأن نستخدم الموت شاهدا على الحي. وليس صحيحا كذلك أن المحتضر يكون، بصفة عامة، أصدق من الحي. ويتم جر كل الناس تقريبا، من خلال حالة المحيط الاحتفالية، من خلال الدموع الغزيرة، من خلال الدموع المكبوتة أو المسكوبة علنا، إلى أن يمثلوا ملهاة الغرور تارة بتبصر وتارة بشكل لاواعي. لاشك أن الكثير من المساكين المحتقرين يعتبرون الوقار الذي يعاملون به عند احتضارهم أجمل متعة في حياتهم كلها، وعربونا يتلقونه كتعويض على كثير من الحرمان.

89. العادة وضحيتها.

يرقى أصل العادة إلى هاتين الفكرتين : «قيمة الجماعة أكبر من قيمة الفرد»، و«لا بد من تفضيل منفعة دائمة على منفعة زائلة» اللتين يستخلص منهما أن مصلحة الجماعة الدائمة ينبغي حتما أن تتقدم على مصلحة الفرد، خاصة على رفاهيته المؤقتة، وكذلك على منفعته الدائمة، بل على بقائه. حتى وإن عانى الفرد من مؤسسة تعمل لصالح الجماعة كلها، وإن كانت سبب ضناه، وسبب هلاكه، فإن ذلك لا يهم، إذ لا بد من الحفاظ على العادة، لا بد من التضحية. لكن مثل هذه العقلية لا تنشأ إلا لدى أولئك الذين ليسوا ضحايا، ـ لأن الضحية تروج، من خلال حالتها هي، لكون الفرد قد تكون له قيمة أكبر من قيمة الجماعة، لكون المتعة الحاضرة واللحظة النعيمية قد يقام لهما وزن أكبر من سمعة كئيبة لظروف العيش السهلة والممكن تحملها. إلا أن فلسفة

روح التضحية دائما تسمع صوتها بعد فوات الأوان، وبذلك لا يغادر الناس العادة والأخلاقية، تلك الأخلاقية التي ليست سوى تأثر بمجموع العادات التي تحت إكراهاتها يحيا الناس وتتم تربيتهم ليس بصفتهم أفرادا بل بصفتهم أعضاء كل مجموع، بصفتهم أرقاما ضمن الأغلبية. ــ هكذا يحدث باستمرار أن يزيد الفرد من قيمته بواسطة أخلاقيته.

90. الخير وراحة الضمير.

هل تعتقدون أن كل الأشياء الخيرة كانت عبر كل العصور تستوجب راحة الضمير ؟ ــ لقد ظهر العلم إلى الوجود، والعلم شيء خير بكل تأكيد، دون راحة الضمير هذه، خاليا تماما من كل ما يثير الشفقة، متقدما في صمت، مستعملا حيلا، مغطيا رأسه بخمار أو قناع، مثل مجرم ودوما على الأقل حاملا مشاعر مهرب. إن لراحة الضمير مرحلة تمهيدية هي الإحساس بالذنب ــ ولكن ليس كنقيض لها : لأن كل شيء جميل قد كان في يوم ما شيئا جديدا، يبدأ مخالفا للمألوف، مضادا للعادة، لا أخلاقيا، وينهش كالدودة قلب مبتكره السعيد.

91. الظفر يبرر النوايا.

لايجب أن نخشى اتباع سبيل فضيلة ما حتى وإن تنبهنا إلى أن ما يدفعنا إلى ذلك هو الأنانية، أي المنفعة، الرفاهية الشخصية، الخوف، صحة نريد الحفاظ عليها، السمعة أو المجد. يقولون عن هذه الدوافع أنها خسيسة وأنانية، فليكن، لكن إن حثتنا على فضيلة ما، مثلا على التخلي، على الإلتزام بالواجب، على النظام، على الاقتصاد، على الإعتدال والرزانة، فلنطعها أيا تكن الصفة التي ينعتونها بها ! إن بلغنا الهدف الذي تحثنا عليه فإن الفضيلة التي نبلغها، وبفضل الهواء النقي الذي تمكننا من استنشاقه والاحساس بالرفاهية الأخلاقية الذي تخلقه لدينا، تشرف الدوافع البعيدة لأعمالنا باستمرار، وفيما بعد سوف لن تكون الأفعال التي سنقوم بها هي نفس الأفعال التي كانت نفس الدوافع تحثنا عليها فيما مضى. ــ على التربية إذن أن تخالف الفضائل، قدر المستطاع، حسب طبع التلميذ : وقد تعمل الفضيلة من أجل نفسها أنذاك، وهي صيف الروح المشمس، وتمنحنا علاوة على ذلك نضجا ورقة.

92. مسيحي باللسان لا بالقلب.

أتكون هذه مسيحيتكم إذن! ــ تثنون على « الرب وقديسيه » لتغضبوا الناس، وحين تريدون مقابل ذلك أن تثنوا على الناس تبالغون كثيرا في قولكم بأن الرب

وقديسيه سوف يغضبون من ذلك. ــ أريدكم أن تتعلموا السلوك المسيحي على الأقل مادام أدب القلب المسيحي ينقصكم.

93. صحبة الأتقياء والزنادقة، وصحبة الطبيعة.

الرجل التقي جدا لا بد أن يكون موضع احترامنا : وكذلك يجب أن يكون زنديق صادق ومقتنع بما ذهب إليه. إذا كنا نشعر صحبة رجال من هذا الصنف الأخير كما لو كنا صحبة جبل شامخ، هناك حيث منابع الأنهار الكبيرة، فإننا نشعر ونحن صحبة الأتقياء كما لو كنا تحت أشجار في كامل نموها؛ أشجار تبسط في هدوء ظلها الوارف.

94. قتل قضائي.

إن أكبر عمليتي قتل قضائيتين عرفهما التاريخ العاني هما، كي نتحدث دون مواربة، انتحارين تم تمويههما جيدا. ففي كلتا الحالتين كان شخص ما يريد أن يموت، ولذلك ترك، في الحالة الأولى والثانية، يد الظلم الإنساني تقتله بالسيف.

95. «حب».

إن أبرع حيلة تعطي للمسيحية الإمتياز على الديانات الأخرى تتلخص في كلمة: كونها تتحدث عن الحب. وبذلك صارت ديانة غنائية (بينما نجد الديانتين الأخرتين اللتين أتت بهما العبقرية السامية للناس ملحميتين وبطوليتين). إن في كلمة حب شيئا غامضا يخاطب الذكرى والأمل بفصاحة بالغة بحيث أنه حتى الذكاء الضعيف والقلب البارد (froid) يشعران بشيء من هالة هذه الكلمة. إنه يجعل أشد النساء حذرا وأشد الرجال فظاظة يفكران في لحظات العمر الأقل أنانية نسبيا، حتى وإن كان إيروس (Eros)* لم يحلق بهما إلا قليلا. وقد وجد كل أولئك، وعددهم لا يحصى، الذين يعانون من نقص في الحب من طرف آبائهم، من طرف أبنائهم أو محبيهم، وخاصة الأشخاص ذووا الجنسانية السامية، وجدوا في المسيحية ما كان ينقصهم بالضبط.

96. المسيحية الكاملة.

هناك في المسيحية كذلك روح أبيقورية تنبع من فكرة كون الإله لا يستطيع أن يتطلب من الإنسان، وهو مخلوقه وصورته، إلا ما قد يستطيع إنجازه، وبالتالي تكون الفضيلة والكمال المسيحيين في متناول الإنسان وفي غالب الأمر يتحققان فيه. والحال أن اعتقاد الإنسان أنه يحب أعداءه، مثلا، (حتى وإن لم يكن سوى اعتقاد، سوى

تخيل، وليس حقيقة نفسية على الإطلاق، ولو لم يكن حبا)، يجعله سعيدا حتما مادام يؤمن بذلك حقا (لماذا ؟ بخصوص هذا سيكون لعالم النفس وللمسيحي رأيان مختلفان ولا شك). وهكذا قد تصير الحياة الأرضية حياة سعيدة بالفعل من جراء كون الإنسان يعتقد، أعني يتخيل أنه يلبي ليس فقط متطلب حب أعدائه، بل كل التعاليم المسيحية الأخرى، وأنه قد تمثل الكمال الإلهي واندمج فيه فعلا حسب الوصية القائلة « كونوا كاملين مثلما أبوكم السرمدي كامل ». وبذلك قد يحول الخطأ وعد المسيح إلى حقيقة.

97. عن مستقبل المسيحية.

قد نسمح لأنفسنا بالتخمين بشأن اختفاء المسيحية وبشأن المناطق التي تقدمت فيها البروتستانية باندفاع. لقد وعدت، مثلما نعلم، بأن تقدم، مقابل مصاريف أقل، نفس الخدمات التي كانت الكنيسة القديمة تقدمها، وهو ما يعني حذف الصلوات التي تقام للموتى، حذف الحج، حذف البذخ الكهنوتي وأشكال الترف المكلف. وقد انتشرت البروتستانية خاصة بين شعوب الشمال التي غرست جذورها في رمزية وحب أشكال الكنيسة القديمة بعمق أقل من الذي غرستها به شعوب الجنوب: فقد استمرت الوثنية الدينية القوية لدى هذه الشعوب في الحياة ضمن المسيحية، بينما شكلت المسيحية في الشمال نقيضا للدين المحلي وقطيعة معه واتخذت منذ البداية، لهذا السبب ذاته، شكلا مجردا أكثر من كونه ملموسا، ولكنه كذلك، ولنفس السبب، شكل أكثر تعصبا وعنادا في قمة الخطورة. إذا نجحنا في استئصال المسيحية من الفكر فسوف نرى على الفور أين ستبدأ في الاختفاء : هناك بالضبط حيث ستدافع عن نفسها باستماتة. في الأماكن الأخرى سوف تتراجع دون أن تنفصم عراها، سوف تفقد أوراقها ولكن لتنبت مكانها أوراق أخرى، ـ لأن الحواس وليس الأفكار هي التي ستنحاز إلى جانبها هناك. والحال أن الحواس كذلك هي التي تغذي الإعتقاد بأن نفقات الكنيسة الباذخة تخلصنا من الورطة أكثر مما تخلصنا منها موازنة دقيقة بين العناء والأجر : بكم نقدر وقت الفراغ (أو نصف الكسل) حين نكون قد تعودنا عليه ! تجيبنا الحواس بأنه علينا في عالم خال من المسيحية، أن نعمل كثيرا بحيث يكون ربح وقت الفراغ قليلا جدا، إنها تنحاز إلى جانب السحر، ونعني أنها تفضل ترك الإله يعمل عوضا عنها (نحن نصلي والرب يعمل!)

98. الهزل والصدق عند غير المؤمنين.

ليس هناك كتاب يضم بوفرة ما قد يكون عند الإقتضاء نعمة لكل فرد ويعبر عنها بكل بساطة (تلك السعادة الداخلية والمولعة بالعبادة، المتحمسة إلى درجة التضحية

بنفسها والموت من أجل إيمانهـا ورؤيتها للـ« حقيقة » مثل الكتاب الذي يتحدث عن المسيح : يمكن لرجل ذكي أن يتـعلم منه كل الطرق التي بواسطتها يمكن لكـتاب ما أن يصير كتابا عالميا، صديقا لكل الناس، أن يتـعلم بخاصة تلك الطريقة الرئيسية في تقديم كل شيء على أنه اكـتـشاف، وعـدم تقـديم أي شيء وكـأنه سيأتي مـسـتقـبـلا أو أنه لايقـيني. كل الكتب البـارزة تسـعى لأن تعطي مـا يشـبه الإنطبـاع بأن الأفق الثـقـافي والروحي الأرحب يوجد بين دفتيها وأن كل نجوم الحاضر والمستقبل ينبغي لها حتما أن تدور حول الشـمس التي تسبح في ذلك الأفق. ألن يكون لزاما على كل كـتاب علمي محض، ولنفس السبب الذي يشكل قوة الكتب السالفة الذكر، أن لا يحدث سوى أثر تافه ؟ أليس مـحكوما عليه بأن يحـيا حيـاة دونية وسط كائنات دنيـا كي يتم صلبه في نهاية الأمر ولا ينبعث أبدا ؟ ألن يكون كل رجال العلم الصادقين، بالقياس إلى ما يعتبره المؤمنون « علمـ » هـم وروح « قدسـ » هم، سـوى « بلهـاء »؟ هل يمكن لديانة مـا أن تتطلب التخلي أكثر مما يتطلبه العلم وأن تنزع الأناني من نفسـه بلا شفقة أكثر مما يفعله العلم ؟ ــ بهـذا الشكل، يكون علينـا الدفاع عن أنفـسنا أمـام المؤمنين، لأنه قلمـا يكون الدفاع ممكنا دون شيء من الهـزل؛ إلا أن لغتنا يجب أن تكون أكثـر صدقا فيـما بيننا : إننا نعانق هنا حرية لا ينبغي لأولئك، مراعاة لمصلحتهم، حتى أن يفهموها. أف إذن من برنس التخلي هذا ! أف من سيماء التواضع ! إن سمت حـقيقتنا أفـضل بكثير ! لو أن العلم لم يرتبط بلذة المعرفة، بنفعية الاكتشافات، ففيم كـان سيهمنا العلم ! لو لم يكن فيه شيء من الحب، من الإيمان، ومن الأمل ليقود روحنا إلى المعرفة، فأي شيء آخر في العلم كـان سيـجذبنا ؟ ولئن صح أن الأنا غـير ذات قـيمـة في العلم فإن الأنـا السعـيدة والمبـتكرة، بل أكثـر من ذلك، الأنا الصـادقة والمثـابرة لهـا قيـمة كـبيرة في جـمـهـورية العلماء. تقدير أولئك الذين يضفون التقـدير على أنفسهم، فرحة الأفراد الذين نريد لهم الخيـر أو الذين نحترمهم، وربما مـجد الشخص وخلوده المتـواضع، ذاك هو الثمن الذي قد تدعيه تلك اللاشخصنة، حـتى لا نتحدث عن المنظورات والجوائز الأدنى، وإن كان أغلب الناس قد أقـسمـوا من أجلها ولازالوا يقسـمون جمـاعة على الوفـاء لقوانين هذه الجمهورية ولقـوانين العلم بصفة عامة. لو أننا لم نظل، بأي مقـياس من المقاييس، رجالا بلا روح علمـية فأية أهمـية كـانت ستكون للعلم بالنسـبة لنا ! إجـمالا، ولنقولـها بكل وضوح، بصراحة وبدون مواربة : إن المعرفة غير مـهمة بالنسبة لعارف محض. ــ إن ما يميزنا عن النـاس الأتقياء المؤمنين ليس نوعـية إيماننا وتقـوانا بل كميـتهـما : نحن نرضى منهما بالقليل. لكنهم سـيصرخون في وجهنا بقـولهم كونوا إذن راضين ولتظهر عليكم أمـارات الرضى ! ــ وسنرد على ذلك بسـهـولة : « فعـلا، إننا لسنا من غـيـر الراضين ! ولكن أنتم، إن كـان إيمانكم يجعلـكم سعـداء فأظهـروا سعـادتكم ! ملامح وجـوهكم

تسيء لإيمانكم أكثر من حججنا ضده! لو أن بشارة إنجيلكم كانت بادية على وجوهكم لما احتجتم إلى المطالبة العنيدة بأن يؤمن الناس بسلطة هذا الكتاب : إن أعمالكم وتصرفاتكم لا تفتأ تجعل الإنجيل غير ذي جدوى، وينبغي لإنجيل جديد أن يتألف بفضلكم أنتم ! وبذلك يكون لدفاعكم عن المسيحية أصل في نقصان المسيحية لديكم، إنكم بمرافعتكم إنما تكتبون صك اتهامكم. وإن حدث مع ذلك وتمنيتم أن تتحرروا من عدم رضاكم عن المسيحية فخذوا بعين الإعتبار تجربة الألفي سنة، التي نعرضها كالتالي متخذة شكل تساؤل متواضع :« إن كانت نية المسيح هي أن ينقذ العالم فعلا، ألا يكون قد فشل في ذلك ؟»

99. الشاعرالدال على سبيل المستقبل.

ما يزال هناك بين أناس الوقت الحاضر قدر كبير من القوة الشعرية، تلك القوة التي لا ترهق نفسها في صياغة أشكال الحياة، ويلزم أن نحفظ ذلك المقدار، دون أن ينقص منه أي شيء، لهدف واحد،ليس لرسم نسخ عن الحاضر أو لإحياء الماضي وشعرنته، بل ليدلنا على سبيل المستقبل :ـ شريطة أن لا نفهم ذلك كما لو أن مهمة الشاعر هي، على غرار بعض طوباويي الاقتصاد السياسي، ان يعطينا صورا مسبقة عن ظروف عيش أكثر ملاءمة للأمة وللمجتمع، وكذلك عن وسائل تحقيقها. مثلما كان الفنانون في الماضي يعيدون خلق صور الآلهة باستمرار، كذلك سيعيد هو، بما لا حد له، خلق صور الانسان الجميلة، راصداً تلك الحالات التي ما تزال فيها الروح النبيلة والجميلة، دون أدنى خدعة أو رفض أو تهرب، ممكنة وسط عالمنا وواقعنا الحديثين واللذين لا تزال قادرة فيهما على الاندماج مع المواقف المتناغمة والمتوازنة، مستفيدة من ذلك ظهورها للعيان، قدرتها على البقاء، استخدام فضيلتها كقدوة، وبذلك تساعد، من خلال إثارتها للتقليد والرغبة، على خلق المستقبل، وستتميز أعمال هؤلاء الشعراء بظهورها، في الاشياء التالية، محصنة بشكل منيع ضد ريح الاهواء المحرقة : في الغلطة المتعذر إصلاحها، في الحركة التي تحطم عبقرية الانسان الشعرية، في الضحكات الاستهزائية وصرير الأسنان، في المأساوي والهزلي بمعناهما القديم المألوف، وسيجد الناس في تلك الاعمال، بجانب هذا الفن الجديد، تقليدا شاقا للقدامى وتحقيرا بشعا لصورة الانسان وقوة الشخصيات وأفعالها ورقتها وصفاءها ورزانتها الفطرية والتلقائية وتربة واحدة تطمئن القدم وتُبهجها وسماء منورة تنعكس على الوجوه وعلى المشاهد والعلم والفن وقد انصهرا في وحدة جديدة، إقامة العقل دون غطرسة ولا حسد، مع أخته الروح، وطرده الرعاية والجدية، وليس الرغبة في الانشقاق، من المعارضة، ـ كل ذلك سيشكل الجو العام والمحيط، مثل الخلفية الذهبية التي ستشكل عليها أدق فروق المثل العليا

المجسدة للوجه الحقيقي وللنبل الانساني المتنامي باستمرار. كثيرة هي الطرق التي تؤدي من غوته الى شعر المستقبل هذا، لكنها تتطلب روادا جيدين وتتطلب بالاخص قوة أكبر من التي نجدها لدى شعراء الوقت الحاضر، أعني رسامي الحيوان النصفي العديمي التبصر، رسامي نقصان الرزانة والنضج الذي تم الخلط بينه وبين القوة والطبيعة.

100. ربة الفن مثل بونتيزيلي*.

« أفضل أن أموت على ان اكون امرأة لا غواية فيها.» اذا شرعت ربة الفن في التفكير بهذا الشكل فتلك علامة على قرب نضوب فنها، الا ان ذلك قد يكون نهاية المأساة مثلما قد يكون نهاية الملهاة.

101. المنعطف المؤدي الى الجميل.

إن كان الجميل مطابقا (identique) للممتع (وهو ما كانت ربات الفن تغنيه فيما مضى) فان النافع هو المنعطف الضروري الذي يؤدي الى الجميل. وبوسعه رفض التأنيب القصير النظر الذي يوجهه له الرجال المستعجلون الذين لا يريدون الانتظار ويظنون أنهم سيصلون الى كل شيء جميل دون لف أو انعطاف.

102. ليكون عذرا لأكثر من خطأ.

الرغبة الملحة في الإبداع والنظر الدائم الذي يرصد الخارج يمنعان الفنان من جعل شخصه أفضل وأجمل، أي أن يخلق نفسه بنفسه : إلا أن يكون طموحه كبيرا كفاية كي يرغمه على أن يكون دائما، حتى في معاشرته للآخرين، في المستوى الذي يتطلبه جمال أعماله وأصالتها المتناميان. لا يملك، في كل الحالات، سوى قدر محدود من الحيوية، فكيف يمكن لما يبذله منها في سبيل نفسه أن يكون مفيدا لأعماله ؟ وبالعكس.

103. إرضاء النخبة.

حين نكون نحن وأحد الكتب أو إحدى التحف الفنية من طينة واحدة فإننا نعتقد في قرارة أنفسنا أنهما جيدان، ونشعر بالإهانة إن وجدهما الآخرون رديئين، لاذعين ومتشدقين.

104. من طينة واحدة.

حين تقوم بنفس العمل ككتاب أو تحفة فنية ما فإننا نعتقد في قرارة أنفسنا أنه لا بد أن العمل الجيد، ونشعر بالإهانة إن وجده الآخرون رديء، ذوي أصحاب نقدر أنه زائد أو متشدقين.

105. اللغة والمشاعر.

الدليل على كون اللغة لم تُعط لنا لنعبر بها عن مشاعرنا هو كون كل الأشخاص البسطاء يخجلون من البحث عن كلمات تعبر عن عواطفهم الجياشة : إنهم يعبرون عنها فقط بالحركات، وحتى ذلك يجعلهم يحمرون خجلا إذا بدا لهم أن الغير قد خمن دوافع تلك الحركات. لقد حُرم الشعراء، بشكل عام، من ذلك الحياء، وإن أنبلهم ليوجزون، رغم كل شيء، في لغة الأحاسيس ويكشفون فيها عن بعض الإكراه : والحال أن الشعراء الحساسين يكونون أغلب الوقت بلا حياء في الحياة العملية.

106. خطأ بخصوص الحرمان.

الذي لم يهجر فنا ما هجرا طويلا وتاما، وإنما يشعر فيه وكأنه في بيته، لا يستطيع أن يفهم جيدا كم نشعر بالحرمان حين نحيا دون ذلك الفن.

107. ثلاثة أرباع الطاقة.

إذا أراد أحد المبدعين لعمله أن يوحي بصحته فلا بد أن يستخدم فيه ثلاثة أرباع طاقته. أما إذ استخدم طاقته، على العكس من ذلك، إلى أقصى مداها، فإن عمله سيكون مزعجا ومسخطا بسبب توتره. كل الأعمال الناجحة يكون فيها شيء من عدم الإكتراث، مع هدوء الأبقار المستلقية في المرج.

108. الجوع المبعد.

بما أن الطعام اللذيذ لا يشبع الجائع أفضل من الطعام الرديء فإن الفنان العنيد شيئا ما لن يفكر في دعوة هذا الجائع إلى مأدبته.

109. الحياة دون فن كالحياة دون خمر.

مثل الأعمال الفنية كمثل الخمر : من الأفضل الإستغناء عنها والإقتصار على الماء، وتحويل هذا الماء دوما، بتلقائية، بواسطة شعلة باطنية، بواسطة الرقة الباطنية للروح، إلى خمر.

110. العبقرية السارقة.

تظهر العبقرية السارقة في الفنون، والبارعة في تضليل حتى أدق العقول، لدى الشخص الذي يعتبر منذ صباه، وبوقاحة، كل أملاك الغير التي لا يحميها القانون غنيمة له. والحال أن كنوز العصور والعظماء الذين مضوا مطروحة بشكل متناثر دون

حراسة، إنما تسورها وتحرسها فقط خشية موقرة لبعض العارفين بها النادرين : لكن العبقرية السارقة تتحدى مثل هؤلاء، بسبب عدم استحيائها، وتراكم ثروة تولد هي بدورها خشية وتوقيرا.

111. إلى شعراء المدن الكبيرة.

إننا حين نرى حقول الشعر في الوقت الحاضر نتنبه إلى أن بواليع المدن الكبرى قريبة منها : حتى شذى أزهارها يمتزج به شيء يدل على الغثيان والنتانة. ـ إنني أسالكم وأنا أتألم : هل أنتم في أمس الحاجة، معشر الشعراء، إلى دعوة المكر والقذارة ليكونا إشبينيكما في كل مرة يلزمكم فيها أن تُعَمِّدُوا انطباعا جميلا وبريئا ؟ هل من الضروري حتما أن تضعوا طربوش مهرج، وأن تضعوا قناعا شيطانيا على رأس ربتكم النبيلة ؟ لكن ما مصدر هذه الحاجة وهذه الضرورة ؟ إنها إقامتكم قريبا جدا من البواليع.

112. عن ملح الخطاب.

لم يفسر أحد حتى الآن لماذا اقتصد الكتاب اليونانيون اقتصادا كبيرا في استعمال وسائل التعبير التي كان غناها وقوتها الخارقين في متناولهم بحيث أن كل الكتب التي جاءت بعدهم بدت، مقارنة مع كتبهم، صاخبة، مبرقشة ومتحمسة. ـ يروى أنه كلما اقتربنا من القطب الشمالي صار استعمال الملح شحيحا، تماما كما في المناطق الشديدة الحرارة، بينما سكان السهول وضفاف المناطق المعتدلة الحرارة يستعملونه بوفرة. فهل يعود ذلك إلى كون حاجة اليونانيين، نظرا لسببين هما كون ذكائهم أبرد وأصفى من ذكائنا، وكون طبعهم الشغوف في جوهره، على العكس، أكثر استوائية من طبعنا، هل يعود إلى كون حاجتهم إلى الملح والتوابل لم تكن بنفس حاجتنا إليها ؟

113. أشد الكتاب تحررا.

كيف نذكر لورنس شتيرن في كتاب وضعناه خصيصا للعقول الحرة؟ وهو الذي بجله غوته معتبرا إياه أشد العقول تحررا في عصره ! فليرض هنا بأن نسميه الكاتب الأكثر تحررا عبر كل العصور، والذي يبدو كل الآخرين بالقياس إليه متصلبين، غلاظا، متعصبين وأفظاظا. إن ما ينبغي أن نمدحه فيه ليس هو اللحن الكامل والواضح، بل « اللحن اللامتناهي »، إذا شئنا أن نطلق هذا الإسم على أسلوب فني يتم فيه باستمرار تحطيم الشكل الدقيق و تشويهه وتحويله ثانية إلى أشكال غامضة، بحيث يصير معناه دالا على شيئين في ذات الوقت. شتيرن هو سيد الغموض، ـ هذا المصطلح الذي أعطي له، مثلما ينبغي، معنى أوسع من الذي نعطيه له حين نفكر في العلاقة بين

الجنسين. يمكننا أن نعتبر القارئ الذي يريد في كل لحظة أن يعرف بالتدقيق رأي شتيرن في شيء قارئا تائها إذا بدا وجهه أمام ذلك الشيء جديا أو باسما : لأن شتيرن يعرف كيف يعبر عن الجد وعن الهزل بنفس لعبة سيماء الوجه، كما أنه يعرف، بل يريد، أن يكون على صواب وعلى خطأ في ذات الوقت، وأن يزاوج بين العمق وبين التهريج. فاستطراداته هي في الوقت ذاته تتمة للتاريخ وتطوير له، وحكمه يتضمن كذلك سخرية من كل عقل حِكَمي، ونفوره من روح الجد يرتبط بميل إلى عدم تناول أي موضوع بشكل سطحي وظاهر. إنه بذلك يخلق لدى القارئ الجديد بهذا الإسم إحساسا بعدم اليقين فيما يخص معرفة إن كان يمشي أم هو واقف أم مستلق، إحساساً قريباً للغاية من إحساس من يحلق. إنه كاتب مرن للغاية وينقل إلى قارئه شيئا من تلك المرونة. بل أكثر من ذلك، إنه يعكس الأدوار كيفما اتفق، فتجده فجأة قارئا مثلما تجده كاتبا، كتابه يشبه عرضا داخل عرض، يشبه جمهورا أمام جمهور آخر داخل المسرح. يجب أن نخضع لمزاج شتيرن تبعا لإرادته (ولنتوقع إجمالا أن نجده دائما رحيما). ــ إنه لمن الغريب والمفيد أن نرى كيف رد كاتب كبير مثل ديدرو على غموض شتيرن العام هذا: رد عليه هو الآخر بغموض، هل يكون ديدرو، في كتابه Jacques le fa-taliste، قد قلد شتيرن، وأعجب به، وسخر منه، وحاكاه بسخرية ؟ ــ يستحيل التأكد من ذلك، وربما يكون ذلك هو ما أراده المؤلف. هذا الشك هو بالضبط ما يجعل الفرنسيين يظلمون عمل واحد من أوائل أرباب الكتابة لديهم (والذي ليس فيه ما يجعله يخجل أمام أي من القدماء أو المحدثين). ذلك لأن الفرنسيين تمنعهم جديتهم المفرطة من تذوق الفكاهة، وخاصة تلك الطريقة الفكاهية في تناول الفكاهة ذاتها. ــ أيكون ضروريا أن أضيف أن شتيرن يعد، من بين كل الكتاب الكبار، أسوأ نموذج، إنه الكاتب الذي لن يصلح مثلا ليحتذى به، وأن ديدرو قد أدى ثمن جرأته ؟ إن ما أراد الفرنسيون الأصلاء، وبعض الإغريق قبلهم، أن يفعلوه، وعرفوا كيف يفعلونه، في مجال النثر هو تماما ما أراده شتيرن واستطاع فعله: إنه يتسامى كأستاذ فوق كل ما يتطلبه فنانو اليراع من أنفسهم : الإنضباط،وإتمام العمل،والحزم،وثبات النوايا، والوضوح التام،والبساطة في المنهج والعمل. ــ يبدو، مع الأسف، أن شتيرن الإنسان وشتيرن الكاتب لم تكن تربطهما قرابة كبيرة: كانت روحه السنجابية تقفز من غصن إلى غصن بشغب جموح، وقد عرف كل ما يقع بين السامي والدنيء، لقد شغل كل المواقع التي بينهما وكانت له دائما تلك النظرة الغارقة والمتهكمة، تلك التكشيرات العاطفية. لقد كانت فيه، إن كانت اللغة تجرؤ على مثل هذا اللوم، طيبة لا تعرف الشفقة، وقد احتفظ من البراءة، في مُتع خيال باروكي، بل فاسد، بكل لطافتها الجفولة

تقريبا. إن ميزة الغموض في الروح والجسد، وميزة الفجور المتمكن من كل أعصاب الجسد وعضلاته، ربما لن تكونا قد توفرتا في أي رجل إلى حد أن تصبحا جزءا منه.

114. واقع منقح.

مثلما الناثر الجيد لا يستعمل من اللغة المألوفة إلا بعض الكلمات، بعيدا عن استعمال كل كلماتها، وهو ما يعطيه أسلوبا منقحا، كذلك فإن شاعر المستقبل الجيد سوف لن يجسد في شعره إلا العالم الواقعي، وسيضرب الذكر صفحا عن كل المواضيع المبتذلة التي تكاد تكون مستوحاة بصدق من الغرائبي ومن الخرافة، والتي كان شعراء الماضي يبرزون فيها قوتهم. إنه لن يجسد إلا الواقع، وليس أي واقع، شتان ما بينه وبين ذلك ! ــ بل الواقع المنقح !

115. أصناف الفن.

بجانب أصناف الفن الأصلية، صنف الهدوء الكبير وصنف الحركة الكبيرة، هناك صنف الفن القرف، المصاب بمرض الهدوء، وصنف الفن الهائج : وكلاهما يتمنيان أن نعتبر ضعفهما قوة وأن نخلط بينهما وبين أصناف الفن الأصيلة.

116. البطل يفقد صبغته.

يحب شعراء وفنانو الوقت الحاضر الواقعيون رسم لوحاتهم على خلفية ملتهبة بالأحمر، بالأخضر، بالرمادي وبالذهبي، خلفية من الشبقية الملتهبة، تلك الشبقية التي يبرع فيها أطفال هذا القرن. مهما يكن النظر إلى تلك اللوحات قليلا ، ما يتم من خلال عيون غير عيون هذا القرن فإن سلبيتها هي كون الشخصيات النبيلة التي يرسمها أولئك الفنانون تبدو شيئا ما خافقة، مرتعدة، ومُحَوَّمَة إلى حد أننا نظنها غير قادرة على القيام بأفعال بطولية، بل أقصى ما تستطيع القيام به هو أفعال شنيعة وتبجح يطمحان إلى البطولة.

117. اسلوب منمق أكثر من اللازم.

يظهرالأسلوب المنمق في الفنون بسبب ضعف مَلَكَة الإنشاء الناتج عن تبذير الوسائل والغايات التي يتم السّعي إليها. ــ إن عكس هذا تَماما هو ما نجده أحيانا في بدايات الفن.

118. ما أجمل أن يكون الرجال قليلون.

يروي لنا التاريخ والتجربة أن البشاعة في التعبير، التي تثير الخيال بشكل خفي وتذهب به ما وراء الواقعي واليومي، قديمة جدا، وانتشارها في الفن أوفر من انتشار

الجمال فيه، أوفر من عبادة الجمال، ــ وتصير فياضة بمجرد مايتعتم الحس الجمالي. إنها تبدو، بالنسبة للأغلبية الساحقة من الناس، حاجة أسمى من الحاجة إلى الجمال، وذلك لأنها تحتوي على مخدر قوي جدا.

119. أصل تذوق الأعمال الفنية.

لو فكرنا في الأصل الأول للحس الجمالي وتساءلنا عن مختلف أشكال اللذة التي تثيرها أشكال الفن الأولى، لدى الشعوب البدائية مثلا، لوجدنا أولا فرحة فهم ما أراد قوله الغير، يكون الفن هنا نوعا من اللغز يجعل الذي يَفُكُّهُ يستمتع بسرعته في الفهم وبفطنته. ــ بعد ذلك نجد أن العمل الفني الفظ يذكرنا بما كان مفرحا في تجربتنا، ونستمتع به، في حدود ذلك، مثلا في كل مرة يشير فيها الفنان إلى الصيد، إلى النصر أو إلى الزفاف. وقد يصيبنا الموضوع المجسد في اللوحة بالذهول، قد يجعلنا نضطرب، وقد يلهينا كما يحدث حين نرى الإنتقام والخطر ممجدين. في هذه المرة نجد المتعة في الإنفعال ذاته وفي الإنتصار الذي نحرزه على الملل. ــ حتى ذكرى الأشياء التي تثير اشمئزازنا، وإن كنا قد تجاوزنا تلك الأشياء، أو إن كانت تظهرنا مهمين بالنسبة للمستمع وكأننا موضوع للفن (كما حين يصف الشاعر المنشد تقلبات بَحّار مجازف)، حتى تلك الذكرى قد تمنحنا فرحة كبيرة نعزوها آنذاك إلي فعالية الفن. إن كل الخطوط، كل النقط، كل الإيقاعات، هي لذة من نوع مهذب، لأن مثل ذلك التشابه يوقظ فينا الإحساس بنظام الحياة وانتظامها اللذين ندين لهما بكل الرفاهية التي قد نرفل فيها : القاعدة والتناغم هما ما نبجله لا شعوريا حين نبجل التناظر، وهما منبع السعادة التي فرحنا بها، وتكون تلك الفرحة نوعا من الفضل. وفقط حين نبلغ نوعا من الإشباع في هاته الفرحة الأخيرة يتولد لدينا شعور دقيق جدا بأننا قد نجد متعة في قَطع التناظر والانتظام، وهكذا حين ندفع إلى البحث عن العقل في ما يبدو لامعقولا فإن ما يعود بنا إلى ما يشبه نوعا راقيا من المتعة الفنية التي تحدثنا عنها في البداية هو نوع من الفك الجمالي للغز ما. إن الذي يتابع هذا الاختبار سيعرف نوع الفرضيات التي نتخلى عنها هنا مبدئيا لنفسر الظواهر الجمالية.

120. ليس قريبا جدا.

يعتبر تتابع الأفكار الجيدة بشكل سريع جدا شيئا سلبيا، ذلك أن بعضها يحجب البعض. ــ لذلك استعمل الفنانون والكتاب الكبار التعابير العادية كثيرا.

121. عنف وضعف.

لقد اكتشف الفنانون عبر العصور أن في العنف قوة ما وأنه لا يكون عنيفا من يريد أن يكون كذلك، كما اكتشفوا أن بعض أشكال الضعف يكون لها تأثير قوي على الإحساس. وقد استنتجوا من ذلك عددا كبيرا من الطرق الملتوية التي لا يستطيع الإستغناء عنها حتى الفنانون الكبار الشرفاء.

122. الذاكرة القوية.

يفشل أكثر من واحد في أن يصير فيلسوفا لسبب واحد هو كون ذاكرته قوية جدا.

123. التجويع بدل الإشباع.

يتصور بعض كبار الفنانين أنهم قد ملكوا روحا ما وأفعموها بفنهم،والواقع أن فنهم يجعل تلك الروح، وغالبا ما يصيبهم ذلك بخيبة أمل مريرة، أكثر رحابة واستعصاء على الإشباع إلى حد أن عشرة فنانين أكبر منهم قد يندفعون في أعماقها دون أن يشبعوها.

124. الخوف حسب الفنانين.

إن الخوف، الذي قد لا نعتقد أن الوجوه التي يرتسم عليها تستطيع أن تحيا، قد يدفع الفنانين الذين لهم ذوق منحط إلى أن يجعلوا سيماء تلك الوجوه تبدو مثل سيماء معتوه : وعلى العكس من ذلك، وانطلاقا من نفس الخوف، نجد فنانين إغريقيين من العصور الأولى يرسمون على وجوه المحتضرين والمجروحين جراحا بليغة تلك الإبتسامة التي يعلمون أنها أكبر علامات الحياة، ــ دون أن يأبهوا لتلك الأشكال التي تخلقها الطبيعة في مثل تلك الحالات من الحياة التي تمتد طويلا، الحياة التي لم يعد لها وجود.

125. لا بد من إتمام الدائرة.

الذي يتتبع فلسفة ما أو شكلا من أشكال الفن حتى نهاية مدة عمله ويحيط بهما يفهم من خلال تجربة داخلية سبب انصراف المعلمين والأساتذة بالتوالي عن هذه الطريق، بشيء من الإزدراء في الغالب، ليواصلوا المسار على طريق أخرى. لا بد من رسم الدائرة، هذا شيء أكيد، ــ لكن الفرد، حين يكون هو الأكبر، يجلس بتصلب عند نقطته من محيط الدائرة، بعناد لا يعرف الشفقة، وكأنه يريد منع الدائرة من أن تكتمل يوما.

126. الفن القديم وروح العصر.

بما أن كل فن يصير أكثر فأكثر قادرا على التعبير عن الحالات النفسية المتقلبة والرقيقة والمضطربة والإنفعالية، فإن الأساتذة المتأخرين، الذين أفسدتهم هذه المناهج، يشعرون بعدم الإرتياح أمام أعمال العصر الذهبي كما لو أن القدماء كانت تنقصهم بالضبط وسائل جعل روحهم تعبر عن نفسها بوضوح، بل ربما بعض التقنيات البدائية، ويعتقدون أن من واجبهم إصلاح ذلك، ـ لأنهم يؤمنون بتساوي كل الأرواح، بل بتطابقها. لكن روح أولئك الأساتدة القدماء كانت مخالفة تماما في الواقع، ربما كانت أعظم، لكنها كانت أبرد وأكثر ازدراء لجاذبية النزق : إن الرصانة، التناظر، ازدراء النعم والإغراءات الشهوانية، الخشونة والطهارة اللاشعوريتين؟ والحرص على تجنب الإنفعال كما لو أن الفن سيموت إذا ما خالطه، هو ما كان يشكل عقلية وأخلاقية كل الأساتذة القدماء، الذين كانوا يختارون وسائلهم في التعبير ليس عن طريق الصدفة بل حتما بنفس الأخلاقية التي كانوا يدركونها بها. فهل ينبغي والحالة هذه، وقد تم لنا التعرف على ذلك، أن نرفض للمتأخرين الحق في أن يبثوا روحهم في أعمال القدماء ليبعثوا فيها الحياة ؟ لا، لأنها إن كانت قادرة على الإستمرار في الحياة فلأننا نعيرها روحنا : وحده دمنا يجعلها قادرة على التحدث إلينا. سيتحدث التفسير « التاريخي » حقا وكأنه شبح يخاطب الأشباح. إن تشريفنا للفنانين الكبار الذين مضوا بذلك التبجيل الجبان والعقيم الذي لا يغير أدنى كلمة، أو علامة، بل يدعها مثلما كانت، أقل من تشريفنا لهم بتلك المحاولات النشيطة والمتكررة لمساعدتهم على العودة إلى الحياة من جديد. ـ لنتخيل بتهوڤن وقد عاد فجأة إلى الحياة وشاهد أحد أعماله تعزف أمامه بتلك الحيوية وتلك الدقة العصبية الحديثتين اللتين تعتبران فخر أساتذة العزف عندنا، فسيكون من المحتمل بشكل أكيد أن يظل مشدوها لوقت طويل، مترددا في رفع يده ليلعن أوليبارك، وربما ينتهي إلى القول :«هذا ليس من عزفي، ليس من عزفي على الإطلاق، وإنما هو عزف يحتل موقعا وسطا، ـ عزف لا تنقصه الدقة على ما يبدو، وإن لم يكن هو العزف المطلوب بالضبط. عليكم أن تتدبروا كيف ستعزفونه ما دمتم أنتم من سيكون مرغما على سماعه على أية حال ـ والأحياء على صواب كما يقول سيلر. فكونوا على صواب إذن ودعوني أعود إلى مرقدي.»

127. ضد ثالبي الإيجاز.

إن ما يتم التعبير عنه بإيجاز ربما يكون ثمرة ومحصول كثير من الأفكار التي تم تأملها طويلا، غير أن القارئ الذي ليست له تجربة في هذا الميدان ولم يفكر فيه بتاتا

يرى في كل تعبير موجز شيئا جنينيا، كما أنه يوجه لوما إلى حذق الكاتب الذي يجرؤ على أن يقدم له وجبة من ذلك النوع من الأغدية التي لاتزال طازجة، والتي تم إخراجها من الأرض منذ وقت وجيز جدا.

128. ضد حسيري النظر.

هل تتصورون أنكم حتما أمام عمل غير مترابط الأجزاء لأن صاحبه يقدمه لكم (ولايملك إلا أن يقدمه لكم) على شكل شذرات ؟

129 . قراء الحِكم.

أسوأ قراء الحكم هم أصدقاء الكاتب، وذلك بمجرد ما يحاولون الإنطلاق من الحالة العامة إلي الحالة الخاصة التي كانت مصدرالحكمةلأنهم، بعدم تحفظهم الطفيلي، يجعلون كل العناءالذي تكلفه الكاتب يذهب أدراج الرياح، بحيث أنهم لا يجنون من ذلك، بعرضهم الأشياء بشكل أحسن أو أسوأ، سوى تلبية لفضولهم التافه، وهوما يستحقونه، عوض أن يجنوامنه حكما أو تعليما فلسفيين.

130. وقاحة القارئ

وقاحة القارئ المزدوجة في حق الكاتب هي ثناؤه علي كتابه الثاني على حساب الكتاب الأول -أوالعكس- ومطالبته الكاتب، في ذات الوقت، أن يكون ممتنا له.

131 . المثير في تاريخ الفن

إذا تتبعنا تاريخ فن ما، كتاريخ فن البيان عند الإغريق مثلا، فإننا سننتهي، ونحن ننتقل من أستاذ إلي أستاذ، متفحصين ذلك التفكيرالجلي، الدائم الحرص على الخضوع لكل القوانين و الضوابط الطوعية، قديمة كانت أم مضافة مرة ثانية، سننتهي بأن يحصل لنا توتر شديد، ندرك أنه لابد من حدوث قطيعة فكرية، وأن تركيبة طرق التعبيرالمدهشة -ونقصد في هذه الحالة أسلوب الباروك الأسيوي-، تلك التركيبة التي يقال عنها أنها غير عضوية، مموهة، ومقنعة، قد كانت يوما ما ضرورية، بل نعمة تقريبا.

132. في نظر الفنانين

إن تحمسك، أيها الرجل العظيم، للقضية التي تعرضها على الناس، يؤدي الى عجز ذكاء الكثير من الناس. إنه لشيء مهين أن تعرف هذا.لكن الذي يلتهب حماسا يتعابع شغله بأنفة وحيوية : ان لك، بهذا المعنى، عزاء في كون السعادة قد ازدادت في العالم بفضلك أنت.

133. انعدام الوعي الجمالي

المتعصبون الحقيقيون من بين أفراد عصبة فنية ما هم أولئك الذين ليست لهم موهبة إطلاقا في الفن ولا يدركون مبادىء النظرية والمهارة، والذين تحركهم الآثار الاولية لفن ما رغم ذلك. ان الوعي الجمـالي لا وجود له بالنسبة لهـم، وبالتـالي ليس هناك ما يمكنه ان يحفظهم من التعصب.

134. الحركات التي تتطلبها الموسيقى العصرية من الروح

يمكننا ان نكون فكرة واضحة عن الهدف الفني الذي تسعـى اليه الموسيقى العصرية من خـلال ما نعبـر عنه الآن بالعـبارة القـوية، ولكن غـير الـدقيـقة، عـبـارة «اللحن اللا منتهي»، وذلك بتخيلنا أننا نلج البحر، بـاننا تدريجيا نغادر الارض الآمنة الصلبة وننتهي بان نصيـر تحت رحمة ذلك العنصر المتـموج : يتعلق الامر بالسـباحة. كانت الموسـيقى القديمة حتى الآن تتطلب الرقص، في تناغمها سواء كان لطيفا أم احتفاليا أم عنيفا، وفي إيقاعهـا سريعا كان او بطيئا وكان الايقاع الذي لابـد من الحفاظ عليه، كـانت مراعاة وحدات الزمن والقوة محددة بدقة ومتوازنة، كـانا يفرضان على روح المستـمع تركيزا جليا ومـستمـرا: فقـد كانت جاذبيـة تلك الموسيقـى ترتكز على لعبة التـناقض بين تيار الهواء البـارد الآتي من الجلاء وبين ريح الحـماس الدافـئة. لقـد أراد ڤاغنر نوعـا آخر من حـركـة الروح تربطه صلة، كـمـا أسلفنا، بالسـبـاحـة والطفـو. ربما يكون ذلك جـوهر ابتكاراته. إن طريقتـه المشهورة، الناجمة عن إرادته تلك والمـستعدة لخدمـتها، إن « لحنه اللامنتـهي » يجهـد نفسـه ليقطع، بل أحـيانا ليـسخـر من، كل تناظر رياضي بين الزمن والقوة، وإن لهذا الموسيقي باعا طويلا في ابتـكار تلك التأثيرات – الصوتية – التي كان وقعها في آذان الناس فيما مضى يشبه وقع التناقـضات والتجديفات الإيقاعية. لقد كان يخـشى تحـجر الموسـيـقى وتبلرها Cristallisation كـان يخشى تحـولهـا إلى أشكال معـمـارية، لذلك كان يعـارض الإيقاع الثنائـي بالإيقاع الثـلاثي، وكان بشكل متـكرر يدخل الإيقاع الخمـاسي أو السداسي، كما كـان يكرر نفس الجملة الموسيقـية على التو ولكنه يمططها كثيـرا بحيث تتضاعف مدتها الزمنية مـرتين أو ثلاثا. وقد ينتج عن تقليد سـهل لهذا الفن خطر كـبير على الموسـيقى: فـبجـانـب النضج المفـرط في الأحسـاس الإيقاعي كانت الهمجية وانحطاط الإيقاع يكمنان متربصين. ويصير ذلك الخطر كبيرا حين ينحصـر ارتكاز تلك الموسيقى أكـثر فأكـثر على فن درامي وإيمائي طبيـعي تماما لا يأتي أي فن تشكيلي راق ليشكله ويهيمن عليـه، فن لا يعرف أي إيقاع في ذاته وعاجز عن نقل أدنى إيقاع إلى العنصر الذي يقترن به، إلى الطبيعة الانثوية للموسيقى.

135. الشاعر والواقع.

إن ربة الشعر التي لم تولع أبدا بالواقع لن تكون هي الواقع بالفعل أبدا، ولن تمنح الشاعر سوى أطفال غائري العيون وواهني العظام.

136. الوسيلة والغاية.

في الفن لا تبرر الغاية الوسيلة: والوسائل الشريفة هنا قد تجعل الغاية شريفة.

137. أسوأ القراء.

أسوأ القراء هم أولئك الذين يتبعون طريقة الجنود النهابين : يأخذون ما قد يحتاجونه، يلطخون الباقي ويشبكونه، ثم يرغون ويزبدون ضد الكل.

138. أمارة الكاتب الجيد.

للكتاب الجيدين سمتان مشتركتان : يفضلون أن يفهموا على أن يثيروا الدهشة، ولا يكتبون للقارئ الرقيق والدقيق.

139. المزج بين الأشكال.

يدل المزج بين الأشكال، في الفن، على الريبة التي كان يشعر بها المؤلفون في موضع قوتهم. لقد كانوا يبحثون عن حلفاء، عن مدافعين، عن غطاء، كالشاعر الذي يستنجد بالفيلسوف، والموسيقي بالمأساة، والمفكر بالبلاغة.

140. الصمت.

على المؤلف أن يصمت حين ينطق عمله.

141. علامة مميزة.

كل الشعراء والكتاب المولعين بأسماء التفضيل يريدون أكثر من الذي يستطيعونه.

142. كتب هادئة.

يعتمد المفكر الجيد على قراء قادرين على أن يشعروا، بعد أن يقرأوا كتبه، بالسعادة التي يثيرها التفكير الجيد، بحيث أن الكتاب الذي يبدو هادئا ورزينا قد يظهر جيدا، إذا رأته العيون المناسبة، تحت ضوء متقزح، تحت شمس سماء الفكر، ويبدو تسلية ممتازة للروح.

143. حيلة العقول البلهاء.

المفكر الأبله عادة ما يختار كحلفاء له الإطناب والتفخيم، ويعتقد أنه بالإطناب يكتسب الخفة وسرعة الكلام، وبالتفخيم يوهم الآخرين أن تلك الميزة الخاصة به هي نتيجة لاختياره، نتيجة لقصده الفني الذي هدفه الجدارة، والجدارة تقتضي بطء الحركة.

144. عن أسلوب الباروك.

الذي لا يعرف أنه، باعتباره مفكرا أو كاتبا، قد خلق، أو تم تكوينه، للإشتغال بالجدل أو بتطور الأفكار، سيضطر للجوء إلى الأساليب البلاغية والدرامية، لأن شأنه في نهاية المطاف هو أن يجعل الآخرين يفهمونه وأن يكتسب من ذلك قوة، ولا يهم أن يتم ذلك من خلال جذب النفوس عبر سبل موحدة أو من خلال مهاجمتها كيفما اتفق، إما كراع لها و إما كقاطع طريق. يصح هذا في الفنون التشكيلية كما في فنون الشعر، فالشعور بجدل معيب أو بعدم كفاية التعبير والحكي، مضافا إلى حاجة ماسة وملحة إلى الأشكال، يخلق في تلك الفنون ذلك الأسلوب الذي نسميه أسلوب الباروك*. وحدهم أنصاف العارفين والأدعياء هم من سيشعرون على الفور، عند سماعهم هذه الكلمة، بالإزدراء. يظهر أسلوب الباروك للوجود في كل مرة يتراجع فيها الفن العظيم، حين تصير متطلبات فن التعبير الكلاسيكي كبيرة جدا، إنها ظاهرة طبيعية سنتأملها ولاشك بكآبة (فهي من طلائع الليل)، ولكننا سنتأملها، في نفس الوقت، بإعجاب بتلك الموهبة الأصيلة، موهبة التعويض في التعبير وفي الحكي. ضمن هذا الصنف يدخل اختيار المواضيع والمعطيات ذات التوتر الدرامي الشديد والتي لاتحتاج إلى الفن كي تجعل القلب يرتعش، وذلك لأن الجنة والجحيم قريبان فيها جدا من الإحساس، وتدخل فيها بعد ذلك فصاحة الأهواء والإشارات القوية، فصاحة السمو القبيح، فصاحة القوى الكبيرة، وإجمالا فصاحة الكم كما هو، ــ مثلما نرى بوادر ذلك عند مايكل أنجلو، أب أو جد فناني الباروك الإيطاليين ــ : أنوار الشفق وأنوار الوجد أو الحريق المشرقة في أشكال شكلتها تلك القوة، ثم جرأة في الغاية والوسيلة تتجدد باستمرار ويركز عليها الفنان بقوة، موجها ذلك للفنانين، وإن كان الجاهل بأصول الفن يخال أنه يرى قرونَ خصبِ فنٍ طبيعي وتلقائي تنصب انصبابا أبديا وغير مقصود، كل هذه الميزات التي يتوقف عليها أسلوب الباروك لا تكون ممكنة ولا مسموحا بها في المراحل السابقة من مراحل فن ما، المراحل الكلاسيكية وما قبل الكلاسيكية : مثل تلك الملذات تظل طويلا على شجرة الفواكه المحرمة. ــ اليوم

بالضبط، حيث تدخل الموسيقى هذه المرحلة الأخيرة، يمكننا أن نلاحظ ظاهرة أسلوب الباروك في رونق خاص ونستخلص منها بالمقارنة كثيرا من المعلومات بخصوص المراحل الماضية، لأن أسلوب الباروك قد تكرر كثيرا منذ العصر اليوناني، في الشعر، في البيان، في طريقة النثر، في النحت، كما في المعمار، مثلما نعلم ــ وفي كل مرة يكون ذلك الأسلوب، حتى وإن كانت تنقصه الأصالة الراقية، أصالة كمال بريء ولاشعوري وحماسي، يكون نعمة حتى بالنسبة لكثير ممن يشكلون نخبة عصرهم، وللأكثر جدية في ذلك العصر: ــ ولهذا السبب يعتبر، كما أسلفنا، من الغرور أن نحكم عليه بازدراء دون محاكمتة مرة أخرى، مهما يعتبر نفسه محظوظا، مع ذلك، المرء الذي لا ينهك هذا الأسلوب حساسيته ذات الأسلوب الصافي والعظيم.

145. قيمة الكتب الصادقة.

الكتب الصادقة تجعل القارئ صادقا، على الأقل باجتذاب كراهيته ونفوره اللذين عادة ما يحاول حذر ماكر جاهدا إخفاءهما. إننا نستسلم أمام الكتاب مهما يكن تمالكنا لأنفسنا أمام الناس.

146. وسائل الفن في تجنيد مناصريه.

إن كل ما سيكون في متناول أغلب الجاهلين بأصول الفن، من عمل فني ما، هي بعض المقاطع الجميلة المعزولة، السياق المثير للكتاب كله، والتساوق الأخاذ والمؤثر في النهاية، وسيحسن المبدع صنعا، أثناء المرحلة الفنية التي يريد فيها اجتذاب أكبر عدد من الجاهلين بأصول الفن ليكونوا بجانب الفنانين، أي ليكونوا بذلك حزبا، وربما لأجل الحفاظ على الفن نفسه، سيحسن صنعا إن هو لم يعط أكثر مما ذكرناه آنفا، وذلك حتى لا يؤول به الأمر إلى تبديد قواه في مجالات لن ينال عليها امتنانا. إن ذهابه بعيدا في عمله الفني، وتقليده للطبيعة في إبداعه وتركه أشكاله تنمو بشكل عضوي، سيكون في هذه الحالة كمن يحرث الماء.

147. النمو على حساب التاريخ .

كل أستاذ معاصر يجذب ذوق محبي الفن ليقتفي أثر ذوقه، عن غير قصد ويسعى إلى تفضيل الأساتذة القدماء وأعمالهم وتقديرهم تقديرا جديدا : إن فعله هذا يجعلهم يشبهونه ويمتون إليه بصلة، إنه يمنح شعورا مسبقا به ويعلن قدومه، كما أنه قد صار هو أهم شيء في أشخاصهم وأعمالهم، ــ وتلك فاكهة عادة ما تخبئ في ثناياها دودة خطأ كبير.

148. كيف نجعل مرحلة ما تفهم الفن.

لنعلم الناس، بمساعدة سحر الفنان والمفكر، احترام أخطائهم وعوزهم الثقافي وعماهم وأهوائهم التي لا معنى لها (وهذا شيء ممكن)، لنكشف من الجريمة ومن الجنون عن ذلك الجانب السامي فقط، لنظهر من عادة الفرد الذي لا إرادة له والمستسلم بلا تبصر فقط ذلك الجانب المؤثر الذي يخاطب القلوب (وقد رأينا ذلك كثيرا)، وسنكون بذلك قد استخدمنا الوسيلة المناسبة، حتى في عصر خال من الحس الفني والفلسفي، لنلهم الناس حبا يهيم بالفلسفة وبالفن (يهيم حتى بشخص الفنانين والمفكرين بالخصوص)، وقد تكون هي الوسيلة الوحيدة، في ظروف غير ملائمة، للحفاظ على وجود الإبداعات الرخيصة العود والمهددة.

149 . النقد والفرحة.

سواء كان النقد سطحيا و ظالما أم متفهمًا فإنه يمنح متعة كبيرة جدا للذي يمارسه حتى أن العالم ليدين بالعرفان لكل عمل ولكل نشاط يحثان الكثير من الناس على كثير من النقد، لأن ذلك النقد يجر وراءه ذيلا متلألئا من الفرحة، من النباهة، من الإعجاب بالذات، من الفخر، من الدروس، من العزم الوطيد على القيام بما هو أحسن. ــ إن السبب الذي جعل إله الفرحة يخلق الجيد هو نفسه الذي جعله يخلق الرديء والضعيف.

150. مجاوزة الحدود.

حين يريد فنان ما أن يتجاوز دوره كفنان، كأن يريد مثلا أن يكون هو المصلح الأخلاقي الذي يوقظ همة شعبه، فإنه ينتهي بأن يولع، عقابا له، بموضوع أخلاقي شنيع، ــ وربة الضحك: تلك الربة الطيبة قد تصير شريرة بدافع الحسد. لنتذكر ملتون (Milton) وكلوبسطوك.

151. العين الزجاجية.

إن توجيه الفنان لموهبته نحو مواضيع، أو شخصيات، أو دوافع أخلاقية، أو روح العمل الفني الجميلة، لا يكون في بعض الأحيان سوى تلك العين الزجاجية التي يضعها الفنان الذي ينقصه جمال الروح : يحقق وضعها نجاحا نادرا بحيث أنها تصير في نهاية الأمر عينا حية، إلا أن بها عاهة، لكنها تحقق تلك النتيجة الشائعة التي مفادها أن الناس يعتقدون رؤية الطبيعة هناك حيث لا يوجد إلا الزجاج.

152. الكتابة من أجل الانتصار.

ينبغي دائما أن تكون الكتابة انتصارا، وبتعبير أدق، انتصار على الذات يجب نقله إلى الآخرين لينتفعوا به، إلا أن هناك مؤلفين عسيري الهضم لا يكتبون إلا حين لا يستطيعون هضم شيء ما، بل بمجرد ما يعجزون عن مضغه : إنهم يسعون عن غير قصد، من خلال غيظهم، إلى إثارة سخط القارئ لكي يمارسوا عليه بعض السلطة، ومعنى ذلك أنهم يريدون هم كذلك أن يحققوا انتصارا ولكن على الآخرين.

153. « الكتاب الجيد يحيا طويلا ».

يكون ذوق كل كتاب جيد حين يصدر فجّا، إن فيه عيب الجدة، أضف إلى ذلك أن مؤلفه الحي يسيء إليه إن كان معروفا وكانت بعض الشائعات تروج بخصوص شخصه، وذلك لأن الناس عادة ما يخلطون بين المؤلف وكتابه. لا بد أولا لما في كتابه من نباهة، من لذة طعم ومن بريق ذهبي أن يزدهر بمرور السنين، تحت رعاية تبجيل متنام، ثم تبجيل قديم، ثم تبجيل تقليدي في الأخير. لا بد أن يمر على الكتاب أمد طويل ولا بد أن تنسج فيه أكثر من عنكبوت بيتها. القراء الجيدون يُصيرون الكتاب دائما إلى الأفضل، وخصوم الجودة يوضحونه.

154. المغالاة كطريقة فنية.

لا شك أن الفنانين يدركون ما يعنيه استخدام المغالاة كطريقة لإعطاء الإنطباع بالغنى. إنها واحدة من الحيل البريئة التي على الفنانين إتقان استخدامها لإغراء النفوس، لأن الوسائل التي تخدم المظهر في عالمهم، الذي يكون فيه المظهر هو الهدف المنشود، لا تحتاج بالضرورة لآن تكون أصيلة.

155. أرغن برباريا المخفي*.

يعرف العباقرة أكثر من الموهوبين كيف يخفون أرغن برباريا بجوخهم الفضفاض، لكن ما يعرفون فعله في الواقع هو عزف وإعادة عزف ما لديهم من الأغاني القديمة المكرورة، وهي حوالي ستة أغاني.

156. الإسم على الغلاف.

لا شك أن ظهور اسم المؤلف على غلاف كتابه قد صار من التقاليد ويكاد يكون واجبا، لكنه السبب الأساسي في كون الكتب لا تكون لها فعالية كبيرة. لأن الكتب

حين تكون جيدة تكون قيمتها أكبر من قيمة الأشخاص، فهي الجوهر، ولكن بمجرد ما يضع المؤلف اسمه بجانب العنوان يُذوب القارئ جوهر الكتاب في محلول العنصر الشخصي، بل الخاص، وبذلك لا يصيب الكتاب هدفه. إن طموح الذكي هو عدم الظهور بشكل فردي.

157. النقد الأقسى.

نوجه أقسى نقد إلى رجل أو كتاب ما حين نوافق على مثله الأعلى.

158. شيء من الحب و دونه.

يوجه كل كتاب جيد إلى قارئ محدد وإلى من هم على شاكلته، لذلك لا يتقبله القراء الآخرون، الذين يشكلون الأغلبية الساحقة، قبولا حسنا : وذلك هو سبب ارتكاز شهرته على قاعدة ضيقة، وعدم اتساعها إلا ببطء. أما الكتاب الرديء فيحظى بالقبول بسبب سعيه لنيل إعجاب الكثير من القراء، ويناله بالفعل.

159. الموسيقى والمرض.

يكمن خطر الموسيقى العصرية في كونها تقدم لنا كأس الملذات والرفعة بأغراء كبير وبمظهر من النشوة الأخلاقية كبير لدرجة أن الرجل المعتدل والشهم يشرب منها دائما بضع قطرات زائدة. لكن هذا الفارق البسيط، المتكرر باستمرار، قد يتمكن في نهاية الامر من زعزعة صحة العقل وتلغيمها بشكل أكبر بكثير مما قد يفعله أي إفراط قاس، بحيث لا يتبقى للمرء سوى أن يغادر ذات يوم مغارة الحوريات و يتجه، وهو يخوض أمواج البحر ومخاطره، نحو دخان ايثاك ومداعبات زوجة بسيطة (simple) وانسانية.

160. لفائدة الخصوم.

الكتاب الذي يفيض نباهة ينقل منها شيئا الى خصومه.

161. الشباب والنقد.

إن نقد كتاب ما يعني بالنسبة للشبان فقط منع أية فكرة بناءة من ذلك الكتاب من التسرب اليهم ومقاومتها بشتى الوسائل كالحيوان الشرس. يعيش المراهق في حالة من الدفاع الشرعي عن النفس ضد كل جديد لا يمكنه قبوله في جملته، فيرتكب في كل مرة، ومتى تأتى له ذلك، جريمة غير ضرورية.

162. نتيجة الكم.

أكبر تناقضات تاريخ الشعر هي، في كل ما يصنع عظمة الشعراء الأقدمين، كون أحد المؤلفين قد يكون همجيا، أي رجلا كله عيوب ومزيف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، دون ان يحول ذلك بينه وبين ان يكون شاعرا كبيرا. تلك، في الواقع، هي حالة شكسبير الذي، اذا ما قارناه بسوفوكليس، نراه يشبه منجما يملأه كم هائل من الذهب، من الرصاص ومن الأنقاض، بينما هذا الاخير ليس ذهبا فقط بل ذهبا مسبوكا بارفع الطرق، ويكاد ينسينا قيمته كمعدن. الا ان الكم، حين يبلغ انتاجه اقصى حدوده، يفعل فعل الكيف. وذلك ما يخدم شكسبير.

163. كل بداية خطر.

للشاعر أن يختار، إما أن يرتفع بالاحساس درجة درجة ويبلغ به في نهاية المطاف درجة عالية من القوة، وإما أن يجرب الهجوم المباغت ويقرع الجرس منذ البداية بكل ما أوتي من قوة. ولكل من الطريقتين مخاطرها : ففي الحالة الاولى سيهجره مستمعه بسبب الضجر، وفي الثانية سيهجره بسبب الذعر.

164. لصالح النقد.

تلسعنا الحشرات ليس لأنها شريرة بل لأنها تريد أن تعيش، كذلك الشأن بالنسبة لنقادنا، يريدون دمنا وليس معاناتنا.

165. نجاح الحكم.

حين تبدو إحدى الحكم لناقصي الخبرة في حقيقتها البسيطة فانهم يعتقدونها قديمة ومعروفة، وفي ذات الوقت ينظرون إلى المؤلف بازدراء كما لو أنه أراد سرقة ملك مشاع، غير أن ما يستمتعون به هو أنصاف الحقائق المتبلة، ويجعلون المؤلف يفهم ذلك. ويعرف هذا الاخير كيف يقدر ذلك الرأي الذي يمكنه من أن يخمن بسهولة حيث أفلح وحيث لم يفلح.

166. إرادة الانتصار .

الفنان الذي يتجاوز قواه في كل ما يقوم به ينتهي بأن يجر الجماعة معه، وذلك بمشهد المقاومة العنيفة الذي يظهره أمامها، لأن النجاح لا يرافق النصر وحده دائما، بل يرافق إرادة الإنتصار أحيانا.

167. الكتابة للذات.

لا يكتب المؤلف العاقل لذرية غير ذريته هو، أي لشيخوخته، وذلك كي يتمكن، حتى في سن متأخرة، من أن يمتع نفسه بنفسه.

168. تقريظ الحكمة.

لا ينال الزمن من الحكمة الجيدة شيئا، كما أن الألفيات لا تقدر على استهلاكها، وإن كانت تصلح غذاء في كل وقت.وهي بذلك تعتبرمفارقة كبيرة في الأدب، ما لا يبلى وسط كل ما يتغير،إنها المادة الغذائية التي تظل دائما محبوبة مثل الملح، ومثله أيضا لا تفقد طعمها أبدا.

169. حاجة جمالية من الدرجة الثانية.

هناك لدى الشعب شيئا مما يمكن أن نسميه حاجة إلى الفن، ولكنها حاجة خفية ولا تكلف تلبيتها الشيء الكثير. في الواقع، تكفي فضالة الفن لتلبيتها، علينا أن نعترف بذلك بكل صدق. لنتساءل فقط، على سبيل المثال، في أي الألحان والأنغام تجد طبقات شعبنا النشيطة، غير المدللة كثيرا، الساذجة، متعتها في الوقت الراهن، لنعش بين الرعاة ومربي الأبقار والفلاحين والصيادين والجنود والبحارة ولنجب عن السؤال. وفي المدينة، في تلك المنازل حيث تقيم القيم البرجوازية القديمة، القيم المتوارثة، ألا يحب الناس، بل ألا يدللون أردأ ألوان الموسيقى التي يتم تأليفها اليوم ؟ الذي يتحدث عن حاجة كبيرة إلى الفن، عن شهية فنية لم يتم إشباعها لدى الشعب كما هو، إنما يخرف أو يضلل الذين يحدثهم. كونوا صادقين ! ليس هناك اليوم حاجة جمالية من الطراز الرفيع إلا لدى الأشخاص الاستثنائيين، لأن الفن، بصفة عامة، في تراجع، ولأن الطاقات والآمال الإنسانية قد انصبت لفترة من الوقت على أشياء أخرى. ـ وفضلا عن ذلك، أعني خارج الشعب، توجد هناك ولا شك حاجة أكبر إلى الفن، حاجة أضخم، لكنها من الدرجة الثانية، لدى الطبقات ما يشبه جماعة فنية يحركها أفضل إيمان. لكن دعونا ننظر إلى العناصر المكونة لها! عناصرها في الغالب هم مرهفو الحس غير الراضين، الذين لا يعرفون كيف يحققون لأنفسهم أية متعة حقيقية : السيد المثقف غير المتحرر إلى حد يستطيع معه الاستغناء عن مواساة الدين ولا يجد مع ذلك زيته المقدس معطرا جدا، النبيل المزيف الذي لا يمكنه ضعفه البالغ من الإنقطاع عن رذيلة أساسية في حياته أو عن ميل خبيث في طبعه من خلال اعتناق ديانة أخرى أو تخل بطولي عن الدين، ذو الموهبة الكبيرة الذي يمنعه الإفراط في الإفتخار بنفسه من القيام ببعض الأعمال

المتواضعة المفيدة، أو الذي يحول كسله المفرط بينه وبين القيام بأعمال شاقة، والذي يطالب بنكران الذات، الشابة التي لا تعرف كيف تخلق لنفسها دائرة كافية من الواجبات، المرأة التي أقدمت على زواج لا يكفيها، العالم والطبيب والتاجر والموظف الذين تحملوا وظيفة خاصة في سن مبكرة ولم يرخوا العنان لطبيعتهم كلها، بل مارسوا عملهم، في مقابل ذلك، والغيظ يتأكل قلوبهم، وأخيرا، كل الفنانين الناقصين، ـ هؤلاء هم الأشخاص الذين لايزالون في حاجة فعلية إلى الفن الآن ! ماذا يطلبون من الفن ؟ أن يخلصهم لبعض ساعات ولبضع لحظات، من ضيقهم ومللهم ومن إحساسهم بالخطأ، وأن يعمل إن أمكنه ذلك على تحويل نقيصة حياتهم وطبعهم إلى عظمة بإضفائه عليها معنى نقيصة القدر الكوني ـ وهم في ذلك يخالفون كثيرا الإغريق الذين كانوا يجدون في فنهم انبثاق وطفح رفاهيتهم وصحتهم، الذين كانوا يحبون أن يروا مرة أخرى كمالهم خارجهم :ـ إن الإستمتاع بأنفسهم هو ما قادهم إلى الفن، أما معاصرونا فاشمئزازهم من أنفسهم هو الذي قادهم إليه.

170. الألمان في المسرح.

كان كوتزبو (Kotzebue) الموهوب المسرحي الحقيقي لدى الألمان، وكان يشكل وحدة متلاحمة مع ألمان الطبقة الراقية والمتوسطة من المجتمع، وكان بإمكان معاصريه أن يقولوا عنه بصدق كبير : « به نحيا، وبه نعمل ونوجد.» لم يكن في ذلك أي شيء متصنع، أي تدريب، أية لذة يكون الإستمتاع بها ناقصا أو عن طريق التقليد : لقد كان ما يريد فعله وما يعرف فعله مفهوما، بل أكثر من ذلك، لقد ظل النجاح المسرحي الصادق حتى يومنا هذا، في المسارح الألمانية، وقفا على الخجولين أو المتهتكين الذين ورثوا طرق كوتزبو وتأثيراته، خاصة وأن الملهاة قليلة الإزدهار الآن، ونتيجة ذلك هي كون قسط كبير من الطبع الألماني السائد آنذاك لا يزال حيا، خاصة بعيدا عن المدن الكبيرة. لقد كانوا، مثلما كان هو، طيبي القلب، مفرطين في المتع الصغيرة، سريعي البكاء، طموحين إلى التخلص، على الأقل في المسرح، من اتزانهم الفطري الصارم بخصوص الواجبات وأن يتسموا فيه بتسامح باسم، بل ضاحك. كانوا يخلطون بين الخير والشفقة ويساوون بينهما (تلك هي السمة المميزة للحساسية الألمانية)، كانوا يطيرون فرحا لدى رؤيتهم عملا جميلا، عملا رائعا، وفي ماعدا هذا فهم خاضعون للسلطة خضوع العبيد، يحسد بعضهم بعضا، ورغم ذلك فهم، في طويتهم، يكفون أنفسهم بأنفسهم. أما الموهوب المسرحي الثاني فقد كان هو شيلر الذي اكتشف صنفا

من الجمهور لم يؤخذ بعين الاعتبار من قبل، وجده في الأجيال التي لم تبلغ أشدها بعد، في الشابات والشبان الألمان. لقد استقبل بأعماله حماسهم السامي، النبيل، المندفع، وإن كان غامضا، استقبل ميلهم إلى طنين الجمل الأخلاقية (وهي لذة تختفي عادة ابتداء من سن الثلاثين)، وقد حقق بذلك، مصداقا لطبع تلك الفئة العمرية الشغوف ولدعوتها إلى الدين، نجاحا طال بالتدريج حتى الأجيال الأكثر نضجا، ولم يكن ذلك دون طائل : فقد عاد الألمان شبابا من جديد على يد شلير. لقد كان غوته ولايزال حتى اليوم أسمى من الألمان بكل الإعتبارات : إنه لن يكون ألمانيا أبدا. أنى للشعب أن يكون يوما ما في مستوى فن غوته الذي ينفذ بالروحانية إلى الرفاهية والإرعاء ! مثلما ارتقى بتهوفن بالموسيقى وشوبنهاور بالفلسفة ليتجاوزا الألمان، كذلك تجاوزهم غوته بنظمه TasseوIphigénie. وقد اقتفت أثره كوكبة جد صغيرة من العقول الراقية ثقافيا، التي تكونت في مدرسة القدم، في مدرسة الحياة والأسفار، والتي كبرت حتى تجاوزت تخوم الطبع الألماني، ـ وذلك بالضبط ما كان غوته يريده. ـ حين أقدم الرومانسيون بعد ذلك، وبروية، على إجلال غوته، ثم حين انتقلت مهارتهم في الشم والذوق إلى مريدي هيجل، وهم المربون الفعليون لألمان هذا القرن، حين أتت صحوة الطموح القومي لتفيد مجد الشعراء الألمان، وصار المعيار الأصيل الذي بفضله كان الشعب يعرف إن كان بإمكانه الإستمتاع بشيء ما بصدق تابعا لرأي الأفراد ولذلك الطموح القومي ـ أي حين لم يعد الشعب يجد في الشيء لذة غير اللذة الإجبارية ـ آنذاك ظهر ذلك النزيف وتلك اللاأصالة في الثقافة الألمانية التي خجلت من كوتزبو الذي عرض على خشبة المسرح سوفوكليس، كالديرون، بل حتى الجزء الثاني من فاوست غوته، والذي لم يعد يعرف، بسبب لسانه القذر وبسبب تردده، لا ما يعجبه ولا ما يضجره. ـ ما أسعد أصحاب الذوق، حتى حين يكون ذوقا رديئا! ـ ليسوا سعداء فقط، بل حكماء أيضا، ولا يمكن للمرء أن يصير حكيما إلا إذا كان صاحب ذوق، وهو ما جعل الإغريق، الذين كانوا دقيقين جدا بهذا الشأن، ينعتون الحكماء بكلمة تعني صاحب ذوق ويطلقون على الحكمة، سواء كانت حكمة فنان أو حكمة فيلسوف، اسم «ذوق» .

171. الموسيقى، آخر نتاج كل حضارة.

من بين كل الفنون التي تزدهر في حقل حضارة ما، كلما توفرت شروط اجتماعية وسياسية معينة، تكون الموسيقى هي آخر نبتة تظهر، عند الخريف، حين تذوي الحضارة التي تنتمي إليها، وفي الوقت نفسه الذي تبدو فيه في الغالب العلامات الأولى المبشرة

بقدوم ربيع جديد، وأحيانا تكون الموسيقى مثل لسان عصر غابر يصرخ في قلب عالم جديد ومذهول، إنها تأتي متأخرة. لقد كان على روح العصر الوسيط المسيحي أن تنتظر فن الموسيقيين الهولنديين لتجد صداها الكامل ،ذلك المعمار الصوتي هو الصنو الثاني للفن القوطي*، لكنه صنو شرعي ومن نفس الطراز. في موسيقى هاندل وحدها تم التغني بأفضل ما في روح لوثر وأترابه، إنه التيار البطولي اليهودي الذي تولدت عنه حركة الإصلاح. أما موزار فقد كان أول من استخرج كل ذهب لويس الرابع عشر الرنان وذهب فن راسين وكلود لوران. ووجد القرن الثامن عشر نبراته النهائية في موسيقى بتهوفن وروسيني، وهو قرن الأحلام المتحمسة والمثل المحبطة والسعادة العابرة. وقد يقول أحد عشاق المقارنات الدقيقة بأن كل موسيقى محملة بمعنى أصيل تعتبر خاتمة الإبداع. ـ ليست الموسيقى لغة عالمية، لازمانية، مثلما كرر الناس ذلك تمجيدا لها، إنها على العكس، تقابل قياسا زمنيا معينا، أي درجة معينة من النشاط والإحساس، قياسا تعترف به قانونا داخليا لها ثقافة متميزة ومحددة بدقة، ثقافة محددة في الزمان والمكان. إن موسيقى بالسترينا قد تستعصي على فهم الإغريقي، وفي المقابل، ماذا سيفهم بالسترينا Palestrina من موسيقى روسيني ؟ـ وربما تصبح موسيقانا الألمانية العصرية، في ظرف وجيز، غَيْر مفهومة، رغم هيمنتها وطمعها في الهيمنة، لأنها وليدة حضارة آخذة في الإنحطاط بسرعة، ميدانها هو مرحلة الإرتكاس والإصلاح التي ازدهرت فيها، ساكبة مزيجا من العطر على أوربا، كاثوليكية الإحساس وذوق كل الفضائل الفطرية وكل الخاصيات القومية: اتجاهان من الإحساس توصلا في نهاية الأمر، وقد تم استغلال قوتهما كاملة –وتم تتبعهما إلى أقصى حدهما، إلى إسماع صوتهما من خلال موسيقى ڤاغنر. حيازة ڤاغنر للأساطير المحلية القديمة، نزوته الساعية إلى تعظيمها، حسب هواه، بآلهتها وأبطالها الغرباء بطبعهم ـــ إنهم بحق سباع فيها طيف عمق، طيف سخاء، طيف نفور من الحياة ــ، الروح الجديدة التي ينفخها في هذه الكائنات التي يمنحها، علاوة على ذلك، تعطشا مسيحيا وقروسطيا إلى الشبقية الإنتشائية وإلى التجرد من الشهوات، هذه الطريقة الفاغنيرية في الأخذ والعطاء، أخذ وعطاء المواضيع، الأرواح، الكائنات والكلمات، تعبر بوضوح كذلك عن جوهر موسيقاه، بحيث أن موسيقاه هذه، كأي موسيقى أخرى، قادرة بنفسها على تكلم لغة خالية من الغموض : إن جوهرها هذا، بما يعانيه من ارتكاس، يقود الحملة الأخيرة ضد روح فلسفة الأنوار التي نفذت ريحها التي هبت من القرن الماضي إلى هذا القرن، وكذلك ضد الأفكار العالمية التي انتجتها اليوطوبيا الثورية الفرنسية،وأيضا ضد أفكار الواقعية الأنجلوامريكية المتعلقة بإعادة صياغة الدولة والمجتمع ـ والحالة هذه، أليس جليا

أن الأفكار والأحاسيس، التي تبدو مقموعة لدى ڤاغنر وتابعيه، قد استرجعت قوتها منذ زمن بعيد، وأن هذا الاحتجاج الموسيقي المتأخر ضدها يرن صداه أغلب الوقت في أذان تفضل أصواتا أخرى ؟ بحيث أن هذا الفن الراقي والرائع قد يصير ذات يوم، وبشكل مفاجئ، غير مفهوم، قد تلفه خيوط العنكبوت ويطويه النسيان. ــ يجب، مع أخذنا لهذه الظروف بعين الاعتبار، ألا نترك التموجات العابرة التي تظهر وسط حركة المجموع تضللنا، ذلك الإرتكاس داخل الإرتكاس، الإنهيار المؤقت لذروة الموجة، وهكذا قد يساهم أيضا هذا العقد من الحروب القومية، من استشهاد البابويين المتطرفين، ومن القلق الإشتراكي، بمضاعفاته الدقيقة، في المجد المفاجئ لهذا الفن الذي كنا بصدد الحديث عنه، ــ دون أن يضمن له بذلك أنه « سيكون له مستقبل »، أو أنه سيكون له المستقبل كله. ــ من طبيعة الموسيقى أن ثمارها تفقد طعمها باكرا جدا ويكون فسادها أسرع من فساد ثمار الفنون التشكيلية، أو حتى الثمار التي تنمو على شجرة المعرفة : إن أدوم وأصلب نتاجات الحس الفني لدى الإنسان هي الأفكار.

172. لم يعد الشعراء مربين.

مهما يبد ذلك غريبا في عصرنا فقد كان هناك فيما مضى شعراء ترفعت روحهم عن الأهواء، عن تشنجاتها، عن نشوتها، وكانوا بفعل ذلك يجدون لذتهم في المواضيع الواضحة والجلية، في الطباع الوقورة، في العُقد وحلول العُقد الدقيقة. إن كان أغلب كبار الفنانين في وقتنا الحاضر قادرين على إطلاق الإرادة من عقالها وقادرين من ثمة، في بعض الحالات، على تحرير الحياة، فإن الآخرين كانوا يعرفون كيف يروضون الإرادة، كيف يحولون الحيوان، كيف يجعلون من أنفسهم مبدعي الإنسان، وإجمالا كيف يجعلون من أنفسهم نحاتين يعملون على تغيير أشكال الحياة ورفعها إلى درجة الكمال : بينما يريد المعاصرون مجدهم في الرحال التي يرمون بها، في القيود التي يفكونها، في الهدم. كان الإغريق القدماء يطلبون من الشاعر أن يكون معلم الراشدين، ولكن الشاعر الذي قد نطلب منه ذلك اليوم سيخجل كثيرا، وهو الذي لم يجعل من نفسه معلما جيدا ولم يعرف بالتالي كيف يجعل من شخصه قصيدة جميلة، عملا أدبيا جميلا. إذا صح القول فإنه، في أحسن الأحوال، يكون عبارة عن أنقاض معبد، كما الخرابة، بأزهار، بنباتات شوكية، بأعشاب مسمومة، تسكنه الثعابين والهوام والعناكب والطيور، ــ إنه موضوع تأمل حزين يتساءل لماذا ينبغي اليوم أن يكبُر أنبل الناس وأعزهم فقط كي يصيروا خرابا عما قريب، دون أن يعرفوا من الكمال لا ماضيه ولا مستقبله.

173. نظرة إلى الأمام وإلى الخلف.

إن فنا مثل الذي يزخر به هـوميروس وصوفوكليس وثيـوقريط وكالديرون وراسين وغوته، فنا فيه فائض من سلوك حيـاتي حكيم ومنسجم، هو ما يلزمنا، هوما نتعلم أن نريده حين نصير نحن أيضا حكماء ومنسجمين، وليس ما كنا نعنيه بالفن في السابق، أيام شبابنا، ذلك الإنفجار الهمجي، وإن كان جذابا، المليء بالحماس المندفع والمشوش المنبـثق من روح فوضـوية وجموحـة ؟ من المسلم به مع ذلك أننا، في بعض مـراحل حياتنا، نكون في حاجة ماسة إلى فن كله انتشاء وجيشان ونفور من الأشكال المنتظمة والرتيبة والبسيطة والمنطقيـة، وعلى الفنانين أن يلبوا تلك الحاجة كي لا تلجأ روح تلك المرحلة إلى تسليـة نفسها بـطريقة أخرى، بكل أشكال الإنحـراف. يحتاج الشـبان العنيدون والمندفعون الذين يعذبهم الملل من كل الأشيـاء، كما تحتاج النساء في غياب عمل يشغلهن، إلى فن الفوضى الفاتنة هذا. ويوما ما سيتأجج حنينهم، بعنف أكبر، إلى تلبية لا تبديل فيها، إلى سعادة لا نشوة فيها ولا فتور.

174. ضد فن الأعمال الفنية.

مهـمة الفن الأولى هي تجـميل الحيـاة، هي جعلنا مطاقين، وإن أمكـن، لطفاء مع الآخرين : إنـه يهدئنا،وهذه المهـمة نصب عـينيه، يمسك بزمـامنا، يخلق أشكالا من الكياسـة، يربط أشخاصا غـير مهذبين بقـوانين اللياقة والنظافـة واللطف ويعلمهم أن يتكلموا ويصمتوا في اللحظة المناسبة. على الفن بعد ذلك أن يخفي أو يعيد تفسير كل قبح، كل سمة صعبة الاحتمال و شنيعة ومنفرة تعاود الظهور باستمرار رغم كل الجهود وفقا لأصل الطبيعة الإنسانية. عليه بالخصوص أن يتبع نفس الطريقة بشأن أهواء الروح وآلامها وضيقها،عليه أن يدع جـانبه المعبر يكشف عن نفسه في القبح الذي لا مناص منه أو الذي لا يمكن التغلب عليه. بعد هذه المهـمـة الكبيرة للفن يعتبر الفن الذي يزعم أنه فن، أي الأعمال الفنية، مجرد ملحق(appendice) .إن الذي يستشعـر في نفسه فيضا من مزايا التجميل هذه، مزايا الحجب وإعـادة التفسير، سيسعى في نهاية المطاف إلى التخلص من هذا الشيء الفـائض عن الحاجةفي بعض الأعمـال الفنية، وفي بعض الحالات قـد يقوم بذلك شعب بأكـمله. ــ لكن عادة ما نتناول الفن الآن من جـانبه الآخر، نمسك بذيله، ونتصور أن فن الأعمال الفنـية هو الفن الحقيقي، وأنه انطلاقا منه يجب تحسين الحياة وتغييرها ــ ما أشـد خبلنا! إذا بدأنا وجبتنا بأكل العُقبة (dessert) والتلذذ بالحلاوة تلو الحـلاوة، فلا نندهشن إذافسدت مـعدتنا وكذلك شهـية الطعام الصلب والمغذي الذي يدعونا إليه الفن!

175. بقاء الفن.

كيف يحدث في الواقع أن يستمر فن الأعمال الفنية في الوجود في الوقت الراهن ؟ ذلك لأن أغلب الذين لديهم أوقات فارغة (ومثل هذا الفن لا يوجد إلا لمثل هؤلاء) يعتقدون أنهم لن يمضوا وقتهم دون موسيقى، دون التردد على المسارح والمتاحف، دون قراءة الروايات والشعر. لو افترضنا أنه يمكننا تحويلهم عن هذا الذي يمضون به وقتهم فإنهم إما سوف لن يسعوا بحماس أبدا لأن يكون لهم وقت فراغ، وستصير رؤية الأغنياء، التي تثير الغيرة، شديدة الندرة ــ وهي فائدة كبيرة لصالح استقرار المجتمع، وإما ستكون لهم أوقات فراغ ولكنهم سيتعلمون (الشيء الذي يتم تعلمه ونسيانه) التفكير في عملهم، مثلا في علاقاتهم، في السعادة التي قد يتسببون فيها، وسيجد كل الناس، ماعدا الفنانون، فائدة في كلتا الحالتين. لا شك أن هناك أكثر من قارئ دقيق ومتمكن سيقدم اعتراضا وثيق الصلة بالموضوع. وبصفة نهائية سنقول ، لأجل الآخرين، البلهاء، الميالين إلى الإيذاء. بأن المؤلف يعلق هنا بالضبط، كما يفعل في الغالب الأعم في هذا الكتاب، أهمية كبيرة على الإعتراض، وأنه يمكننا أن نقرأ فيه أشياء كثيرة ليست مكتوبة فيه.

176. وسيلة الآلهة.

يعبر الشاعر عن أسمى الأفكار الجمعية لدى شعب ما، إنه وسيلتها ونايها، ــ ولكنه يعبر عنها، بفضل بحر الشعر والطرق الأخرى، بشكل يجعل الشعب ينظر إليها وكأنها شيء جديد تماما وخارق، ويعتقد صادقا أن الشاعر وسيلة الآلهة. بالإضافة إلى ذلك، إن الشاعر نفسه ينسى، حين يغشى النسيان عمله الإبداعي، مصدر حكمته ونباهته، هل من أمه وأبيه، أم من معلمين وكتب مختلفة، أم من الشارع وخصوصا من القساوسة، إن فنه يخدعه، ويظن فعلا، في مراحل سذاجته، أن إلها ما يتحدث على لسانه وأنه يبدع في حالة من الإشراق الديني ــ: والحال أنه إنما يقول ما قد تعلمه من قبل، يقول الحكمة والحماقة الشعبيتين خلط ملط. لئن كان الشاعر إذن هو صوت الإله فلأنه هو فعلا صوت الشعب.

177. ما يريده كل فن ولايستطيعه.

إن آخر وأصعب مهام الفنان هو تجسيد ما لا يتغير، القائم بذاته، بطريقة نبيلة وبسيطة دون تنازل لإغراء الفردي. والفنانون القليلو الموهبة يتركون جانبا أسمى تصورات الكمال الأخلاقي، باعتبارها موضوعا لا علاقة له بالفن، لأن رؤية تلك الثمار

تشق كثيرا على طموحهم : إنهم يرونها تلمع على أقصى أغصان شجرة الفن، ولكنهم لا يملكون السلالم، لا يملكون الشجاعة ولا سبيل لديهم ليستطيعوا المجازفة بالصعود لتلك الأعالي. من الممكن أن يصير فيدياس* شاعرا هناك، ولكنه قلما يكون كذلك، بمراعاة قوة المحدثين، إلا إذا اعتبرنا أنه لا شيء يستحيل على الله. إن رغبتنا في وجود شاعر نظير لكلود لوران تعتبر، في الوقت الراهن، وقاحة، مهما تكن تلك الرغبة قوية. لم يستطع أي فنان حتى الآن أن يجسد الإنسان الأخير، يعني أبسط إنسان وأكمله في الوقت ذاته، وربما يكون الإغريق، من بين كل الذين وجدوا حتى الآن، هم من ذهب إلى أبعد الحدود في ذلك في أثينا المثالية.

178. الفن والإصلاح.

إن للتيارات الرجعية في التاريخ وللعصور التي يقال أنها عصور الإصلاح، والتي تروم بعث الحياة في وضع ثقافي واجتماعي سابق على الوضع الذي تعيشه، والتي يبدو فعلا أنها تنجح في بعث الأموات لفترة وجيزة، إن لها سحر ذكرى مؤثرة، سحر حنين متأجج إلى كنوز شبه مفقودة، سحر معانقة سريعة لسعادة قصيرة الأمد. بسبب هذا التعميق الغريب للحالات المعنوية فإن الفن والشعر يجدان بالضبط في هذه العصور العابرة، التي تكاد تكون مثالية، مجالا طبيعيا، مثلما النباتات المرهفة والنادرة تنمو في المنحدرات الجبلية الوعرة. ــ وهكذا فإن شيئا ما يدفع الفنان الجيد، وهو لا يدري، لينمي أفكارا إصلاحية بشأن السياسة والمجتمع، أفكارا يوفر لها، بمطلق حقه هو، زاوية صغيرة هادئة، بستانا صغيرا يجمع فيه من حوله الآثار الإنسانية لذلك العصر التاريخي حسب رغبته ولا يعزف على عوده إلا أمام أشخاص ميتين أو نصف أموات أو محتضرين، وربما ينجح في تحقيق ما ذكرناه من بعث للأموات لفترة وجيزة.

179. سعادة هذا العصر.

يمكن لعصرنا أن يعتبر نفسه محظوظا لاعتبارين اثنين. إننا، مقارنة مع الماضي، نستمتع بكل الحضارات وبكل مآثرها، ونتغذى بدم كل العصور النبيل، لا نزال قريبين من السحر الذي دفع بالدول إلى إخضاعنا، لفترة وجيزة، لسلطتها، ونحن نشعر من ذلك برعشة الخوف واللذة، بينما لم تكن حضارات الماضي تستمتع سوى بنفسها، دون أن تنظر بعيدا، كما لو كان يغطيها جرس واسع التقوس أو ضيقه : تشرف منه أشعة على تلك الحضارة، ولكن لا تستطيع اختراقه أية نظرة. أما فيما يخص المستقبل فإننا، لأول مرة، نرى أفق الإنسانية الرحب ذي المقصد المسكوني ينفتح أمامنا شاملا كل المعمور. وفي نفس الوقت نشعر أننا نمتلك قوى تسمح لنا بأن نأخذ هذه المهمة على

عاتقنا دون زهو، قد يؤول مشروعنا إلي أية نتيجة، قد نكون بالغنا في تقدير قوانا، ولن يكون هناك أحد علينا أن نقدم له تقريرا عدا أنفسنا : لقد صار في مقدور الإنسانية أن تفعل بنفسها ما تشاء. ـ صحيح أن هناك نحل إنساني غريب لا يشرب أبدا من كأس الأشياء سوى المرارة الشديدة وعكر المزاج، ـ ومن الثابت فعلا أن كل الأشياء تحوي شيئا قليلا جدا من هذا الشراب المضاد للعسل. لنترك جانبا إحساس هؤلاء الناس بسعادة هذا العصر، كما تحدثنا عنها، إن كان هذا يروقهم، وليستمروا ما أرادوا ذلك في بناء خلية كدرهم.

180. رؤية.

الرؤية التي تعاودني باستمرار، والتي أعتقد جازما أنها قد مزقت جانبا من حجاب المستقبل،هي أن تكون هناك أوقات للتعليم والتأمل خاصة بالبالغين سن النضج والناضجين أكثر، وأن يتابع كل الناس هذه الدروس يوميا، دون إجبار، وإنما حسب ما تمليه العادة. أن تكون هناك كنائس، هذه الأماكن الغنية بالذكريات والجديرة بها، ليتم فيها الإحتفال بالأعياد اليومية الكبيرة أعياد الكرامة والعقل الإنسانيين، ما تم بلوغه منهما وما هو سهل المنال؛ هي تجديد مثال الأستاذ(maitre) وازهراره وازدهاره بشكل كامل، ذلك الأستاذ الذي ينصهر فيه القس والفنان والطبيب والعالم والحكيم، مثلما ستنتهي فضائلهم الفردية حتما بالظهور بمظهر الفضيلة الجمعية في العقيدة ذاتها، في عرضها، وفي طريقتها.

181.التربية التي تشوه.

تُفسِّر العرضية الخارقة لكل أشكال التعليم التي تجعل كل إنسان راشد في وقتنا الراهن يشعر بأن مربيه الوحيد كان هو الصدفة، وكذلك تنوع مناهج وأهداف التربية، يفسران بكون القوى التي تنقل الناس إلى الحضارة القديمة منها والحديثة تريد حاليا، كما في جمعية عمومية صاخبة، أن تُسمع صوتها عوض أن تُفْهَم، وتريد من خلال صوتها وصخبها أن تظهر أنها لاتزال موجودة أو أنها قائمة الوجود. لقد أصيب الأساتذة والمربون بذهول من ذلك الضجيج الذي لا معنى له، ثم صمتوا، وفي الأخير صاروا بلداء، وهاهم يتحملون كل شيء بنفس الخضوع الذي به يمررونه الآن في كل شيء لتلاميذهم. هم أنفسهم غير مربون، فكيف سيربون غيّرهم ؟ إنهم ليسوا من نوع تلك الجذوع الخضراء الراسخة في الأرض والممشوقة: والذي يريد الإستناد عليهم لا بد له من الإلتواء والإنحناء إلى أن تصير له في النهاية هيأة ملتوية ومشوهة.

182. فلاسفة وفنانو هذا العصر.

إذا نظرنا إلى اللوحة التي تشكلها الطبقة الراقية داخل المجتمع الأوربي حاليا سنجد فيها هذا التجاور المنفر: الفجور إلى جانب الفتور، ولهيب الشهوات إلى جانب برودة القلب. يعتقد الفنان أنه سيحقق شيئا عظيما إذا هو نجح في إشعال لهيب القلب لينضاف إلى لهيب الشهوات، ويعتقد الفيلسوف أنه سيحقق نفس الشيء إذا هو نجح، من خلال نفيه للعالم، في تبريد لهيب الشهوات لديه ولدى تلك الطبقة لتنضاف برودتها إلى برودة القلب التي يشترك فيها مع عصره.

183. لاتكن جنديا للثقافة من غير ضرورة.

ها نحن أخيرا نعلم ذلك الذي نخسر الكثير بجهله أيام شبابنا : نعلم أنه علينا في المقام الاول أن نؤلف كتابا ممتازا، ثم بعد ذلك أن نبحث عن الممتاز في أي مكان وجد ومهما يكن الاسم الذي يحمله، ونعلم أنه من المناسب، في مقابل ذلك، أن نبتعد فورا عن كل ما هو قبيح وبين بين دون أن نحاربه، وان الشك في قيمة شيء ما (وهو شك يزداد بسرعة حين يكون الذوق متمرسا شيئا ما) قد يعتبر، بشكل مقبول، حجة ضده وفرصة لتجنبه تماما، حتى وان جازفنا أحيانا بالخلط بين الجيد الذي يصعب إدراكه وبين القبيح والناقص، لا ينبغي أن يتصدى لجوانب العالم القبيحة، كجندي للثقافة، الا من لا يجد عملا أفضل من ذلك يقوم به. فالذين يغذونها ويدرسونها يسعون الى حتفهم إن تظاهروا بأنهم مجندون، ومن فرط الحذر والسهر والكوابيس يحولون هدوء مهنتهم ومنازلهم إلى قلق حربي.

184. كيف نروي التاريخ الطبيعي.

يجب أن نروي التاريخ الطبيعي، تاريخ حرب وانتصار القوى الفكرية والأخلاقية في صراعها مع الخوف والوهم والبلادة والخرافة والحماقة، بطريقة تجعل أي شخص يسمعنا ينجذب بشكل لا يقاوم إلى إرادة الصحة والنضج الأخلاقيين والبدنيين، تجعله يشعر بالفرحة لكونه وارث الانسانية وضامن استمرارها، تجعله دائما يشعر بحاجة اشرف الى مباشرة العمل. ان هذا التاريخ لم يجد لحد الان الناطق الحقيقي باسمه،لان الفنانين الفصحاء والمبدعين في حقل اللغة (لأنهم المطلوبون للقيام بذلك لا غيرهم) لا يتخلون بخصوصها عن حذرهم المتأصل فيهم ولا يرغبون بالخصوص ان يجتهدوا في خدمتها - ويجب مع ذلك بان نسلم للانجليز بانهم ساروا بخطوات رائعة نحو هذا المثل في موجزاتهم العلمية الخاصة بالعلوم الطبيعية والتي وضعوها خصيصا للطبقات الدنيا من الشعب، وهي من تأليف مشاهير العلماء لديهم، علماء راسخون في العلم

وكاملو الصفات، ينتجون بشكل جيد وليس، كما هو الحال عندنا، من خلال البحث الرديء.

185. نبوغ الإنسانية.

إن كان النبوغ، حسب ملاحظة شوبنهاور، هو الذكرى الحية والمنسجمة ذكرى التجارب المعيشة، فإنه يمكننا ولا شك أن نتبين في النزوع إلى معرفة نتائج التطور التاريخي في كليته (وهو نزوع يفاقم أكثر فأكثر التعارض بين العصور الحديثة وكل العصور السابقة، والذي حطم لأول مرة تلك الفواصل القديمة بين الطبيعة والعقل، بين الإنسان والحيوان، بين الجسد والروح) أن نتبين فيه نزوع الإنسانية الشامل نحو النبوغ. وإذا تأملنا التاريخ في كليته فقد نجده إحساسا عالميا بالذات.

186. عبادة الحضارة.

نجد لدى المفكرين الكبار، علاوة على كونهم كذلك، طباعا إنسانية منفرة، كالزيغ والتشوه والمغالاة، وذلك لكي يتم باستمرار احتواء تأثيرهم القوي للغاية، داخل حدود معينة، من طرف الحذر الذي توحي به تلك المزايا. لأن نظام الشيء الذي تحتاجه الإنسانية كي تستمر ممتد جدا ويستخدم قوى متنوعة وكثيرة لدرجة أنه يجب على الإنسانية، في شموليتها، أن تؤدي غاليا ثمن كل اختيار أحادي تدفعها إليه هذه الفرديات، أن تؤديه سواء للعلم أو للدولة، للفن أو للتجارة. إن أكبر الأخطار القاتلة التي كانت دائما تتهدد الحضارة هي كون بعض الناس قد تمت عبادتهم فيها، ويمكننا بهذا المعنى أن نشعر بنفس ما يعبر عنه مبدأ الشريعة الموسوية الذي يحرم عبادة أية آلهة أخرى بجانب الله. ـ ينبغي دائما أن نلحق بعبادة العبقرية والقوة عبادة الحضارة لتكون لها تكملة وعلاجا، فهذه العبادة تعرف كيف تضفي حتى على الأشياء المادية، الخسيسة، الوضيعة، التي فيها عاهة، ونقص ومحدودية، وزيف وخداع، بل حتى على الشر، على الشيء المفزع، وقارا شاملا، وتسلم بأن كل ذلك ضروري. لأنه ينبغي ألا نفقد هذا الإضفاء الذي تدعمه كل العناصر الإنسانية، الذي تم التوصل إليه عبر أعمال وضربات حظ هائلة، والذي هو عمل الجبابرة والنمل مثلما هو عمل العباقرة : كيف سنقدم على الاستغناء عن هذه القاعدة الأساسية والجماعية العميقة المقلقة في الغالب، والتي بدونها لن يكون اللحن لحنا ؟

187. العالم القديم والفرحة.

كان أناس العالم القديم يعرفون كثيرًا كيف يستمتعون بالفرحة، أما نحن فنعرف كيف نحزن أنفسنا بشكل أقل. كانوا دائما يتدبرون أمرهم، بكل ما أوتوا من ثروة

الفطنة والتبصر، ليكتشفوا مناسبات جديدة ليشعروا أنهم بخير وليقيموا احتفالات بالأعياد، أما نحن فنعمل عقلنا في حل مشاكل تتعلق بغياب الألم وبالقضاء على مصادر الكرب. أما فيما يخص المعاناة التي كانت تعرفها حياتهم فإن القدماء كانوا يحاولون النسيان أو تحويل شعورهم في اتجاه الممتع: وقد يستعينون في ذلك بالمسكنات، بينما نحن نهاجم بشكل مباشر أسباب الألم ونفضل إجمالا أن نتخذ تدابير وقائية. ـــ وربما يكون ما نفعله هو مجرد وضع الأسس التي ستعيد عليها أجيال المستقبل تشييد معبد المعرفة.

188. ربات الفن الكاذبات.

« إننا نعرف فن قول الكثير من الكذب »، كانت ربات الفن تغني فيما مضى وهي تظهر لهزيود. ـــ إننا نكتشف أشياء جوهرية بمجرد ما نعرف كيف نرى الفنان دجالا.

189. كيف يكون هوميروس مُفارِقا.

ليست هناك فكرة متهورة، مفزعة، لا تصدق أكثر من هذه الفكرة التي نجدها لدى هوميروس مشعة بنورها مثل شمس الشتاء، على مصير الإنسان :

قضت الآلهة أن يكون مصير الناس الفناء،

لتبقى للآتين قصيدة.

وهكذا نعاني ونفنى لكي تكون هناك دائما مادة لشعر الشعراء، وآلهة هوميروس هي التي توجه الأمور تلك الوجهة، وهي منشغلة، على ما يبدو، بتسلية الأجيال الآتية أكثر بكثير من انشغالها بنا نحن الأحياء الآن. ـــ من يصدق أن مثل هذه الأفكار قد نمت في مخ رجل إغريقي!

190. تبرير الوجود بعد فوات الأوان.

ظهرت العديد من الأفكار إلى الوجود على شكل أخطاء وأوهام، ولكنها صارت حقائق لأن الناس جعلوا موضوعها حقيقيا بعد فوات الأوان.

191. ضرورة التأييد والمعارضة.

الذي لا يدرك أن كل عظيم لا ينبغي فقط أن يتم تشجيعه بل أن تتم محاربته كذلك خدمة للصالح العام، فهو بكل تأكيد إما طفل كبير أو رجل عظيم هو الآخر.

192. جور العبقري.

يكون العبقري أشد ما يكون ظلما للعباقرة الآخرين حين يكونون معاصرين له، أولاً يعتقد أنه ليس في حاجة إليهم ويعتبر وجودهم بالتالي زائدا عن الحاجة، لأن ماهيته متحققة بدونهم، ثم إن تأثيرهم يناقض آثار تياره الكهربائي : وهو ما يجعله يصفهم بأنهم مُضرون.

193. مصير النبي الأسوأ.

قضى عشرين عاما يقنع معاصريه بقيمته، ونجح في ذلك في نهاية المطاف، إلا أن خصومه قد نجحوا بدورهم في غضون ذلك : لم يعد هو مقتنعا بقيمته.

194. ثلاثة مفكرين يساوون عنكبوتا.

في كل طائفة فلسفية يتوالى فلاسفة ثلاثة بالترتيب التالي : الأول يفرز المجاجة والمني، الثاني يجعل من ذلك خيوطا وينسج نسيجا اصطناعيا، والثالث يترصد الضحايا الذين سيقعون في ذلك النسيج ـ ويسعى لأن يعيش من الفلسفة.

195. مستخلص من معاشرة الآخرين.

أثناء معاشرته لمؤلف ما يكتشف المرء أن الإمساك بأنف ذلك المؤلف سلوك خبيث، تماما كالإمساك بقرنه ـ وليس هناك مؤلف بلا قرن.

196. الإقتران الثنائي.

غالبا ما يقترن تشوش الفكر والتجسس العاطفي لدى المرء بالإرادة العنيفة في فرض ذاته بشتى الوسائل وإقامة الوزن لها وحدها، مثلما يقترن الإرعاء والسخاء الوديين والمعوانين بالحاجة الفطرية إلى وضوح الفكر ونقائه، وإلى الإعتدال والتحفظ في الإحساس.

197. ما يجمع وما يفرق.

أليس في الرأس يوجد ما يجمع بين الناس، العلم بالمصلحة وبالضرر المشتركين، وفي القلب ما يفرق بين الناس، الإختيار المتردد والأعمى في الحب وفي البغض، الإرتباط بشخص واحد على حساب الآخرين وما ينتج عنه من استخفاف بالصالح العام ؟

198. الرماة والمفكرون.

هناك رماة عجيبون، يخطئون الهدف ولكنهم لا يبرحون المكان مع ذلك مفتخرين في خفاء بكون رصاصتهم،مهما يكن الأمر، قد بلغت مدى أبعد (أبعد من الهدف،

وهذا شيء صحيح)، أو بكونهم قد أصابوا، إن لم يكن الهدف، فشيئا آخر على الأقل. وهناك مفكرون مثل هؤلاء الرماة تماما.

199. من جهتين.

نهاجم تيارا أو حركة فكرية ما حين نكون أعلى مقاما منها ولا نوافق على هدفها، أو حين يكون ذلك الهدف ساميا جدا ولا تتبينه أعيننا، أي حين تكون تلك الحركة أرقى منا. وقد تتم محاربة نفس الطرف من جهتين، من الأعلى ومن الأسفل، ومن المحتمل كثيرا أن يعقد المهاجمون، بدافع البغض المشترك، تحالفا أشنع من كل ما يبغضونه.

200. أصالة.

إن ما يميز العقل الأصيل حقا ليس أن يكون هو أول من يرى شيئا جديدا، وإنما أن يبصر بعين جديدة ذلك الشيء القديم المعروف منذ أمد طويل، الذي نظر إليه كل الناس دون أن يبصروه. إن المبتكر الأول عادة ما يكون هو ذلك الشيء الغريب التافه والأحمق، الصدفة.

201. خطأ الفلاسفة.

يظن الفيلسوف أن قيمة فلسفته كامنة في الكل، في البناء، أما الأجيال اللاحقة فتجدها في الحجر الذي به بنى والذي لايزال الناس، منذ ذلك الحين، يبنون به في أغلب الأحيان وبشكل أفضل : يجدونها إجمالا في كون البناء الأول قد يتم هدمه ولكنه يحتفظ مع ذلك بقيمته كمادة للبناء.

202. النكتة

النكتة سخرية من موت إحساس ما.

203. قبل الحل بقليل.

يحدث في العلم، كل يوم وكل ساعة، أن يتوقف أحد ما مباشرة قبل بلوغه الحل ويقتنع منذ ذلك الحين أن كل جهوده قد ذهبت سدى، ــ مثل ذلك الذي يتردد، وهو يفك ربقا، من اللحظة التي يكون فيها أقرب ما يكون من فكه: لأنه آنذاك يكون شديد الشبه بالعقدة.

204. الإنضمام إلى الحالمين.

يمكن للرجل الرزين والواثق من فطرته السليمة أن ينضم لمدة عقد من الزمن إلى الحالمين ويستسلم داخل تلك الدائرة الملتهبة لجنون خفي، وسيكون ذلك مفيدا له. وهكذا سيكون قد قطع مسافة كبيرة في سبيل الإلتحاق في النهاية بعالمية (cosmo-politisme) العقل الذي بمقدوره أن يقول دون غرور : « إني أعرف كل ما له علاقة بالعقل. »

205. هواء صحي.

الشيء الأفضل والأكثر صحية في العلم، كما في الجبل، هو ذلك الهواء الصحي الذي يهب فيه. أصحاب العقول الغضة (كالفنانين) يخشون العلم ويعيبونه بسبب هذا الهواء.

206. ما يجعل العلماء أشرف من الفنانين.

يحتاج العلم إلى رجال أشرف من الذين يحتاجهم الشعر: إنه يريدهم بسطاء، أقل طموحا وأكثر قناعة وهدوءاً، وأقل انشغالا بالمجد، وناكرين للذات في سبيل قضايا تبدو، في أعين كثير من الناس ، نادرا ما تستحق تلك التضحية التي يقدمونها من أجلها. تضاف إلى ذلك سلبية أخرى يعيها هؤلاء العلماء كل الوعي، طبيعة عملهم والتطلب المستمر لقدر أقصى من العقل الهادئ يضعفان إرادتهم، ولا تتم رعاية حماسهم بنفس القوة التي يرعى بها لدى الشعراء، وبالتالي فإنهم غالبا ما يفقدون في سن مبكرة، بخلاف الشعراء، أفضل ما في قوتهم، يفقدون ريعان شبابهم ـ وهم واعون بذلك الخطر، كما أسلفنا القول. على أية حال، إنهم يبدون أقل موهبة لأنهم أقل لمعانا، وبذلك يقدرون بأقل من قدرهم.

207. ما تعتمه التقوى.

يسبغ الناس على الرجل العظيم، خلال القرون التالية، كل مزايا عصره الكبيرة وفضائله، وهكذا يتم تعتيم أفضل ما فيه بالتقوى وبوصفه رجلا يفي بكل أشكال النذر إلى أن يغطي ذلك شخصه تماما في النهاية، بحيث أنه يصير موضوع إيمان أكثر منه موضوع بحث.

208. الرأس منكسة.

حين ننكس رأس الحقيقة فإننا لا نتنبه عادة إلى أن رأسنا لم تعد في المكان الذي ينبغي لها أن تكون فيه.

209. أصل الموضة وفائدتها.

إن الإعجاب بالذات الجلي الذي يأتي الفرد من أناقتـه يثير تقليد الآخرين له ويخلق بالتدريج أناقـة عند العدد الكبير، أي أنه يخـلق الموضة : يريد هذا العدد الكبيـر، بفضل الموضة، ذلك الإعجاب بالذات النافع الذي يأتي من الأناقـة، ويفلح في الحصول عليه. لو تأملنا دواعي الهم التي تدفع كل إنسان لأن يخفي نفسه خجلا، ولو تفكرنا أن ثلاثة أرباع طاقته وحسن نـيته قد تصيبهـا تلك الدواعي بالشلل والعقم فلن نملك إلا أن نثني كثـيرا على المـوضة لكونهـا تحرر تلك البـقيـة من الطاقة وتمنح أولئك الذين يعلـمون أن قانونهـا يربط بينهم، إلى جانب الثـقة في النفس، مجـاملة صافيـة متبـادلة. هناك قوانين عبثية توفر هي الأخرى الحرية وراحة الضمير شريطة أن يخضع لها كثير من الناس.

210. إرغام اللسان على الكلام.

تكمن قيمة كـثير من الناس وكثير من الكتب فقط في خاصـية إرغام أي كان على البوح بالسـر الذي يحفظه وبما يحتـفظ به لنفسه من أشـياء حميـمة : إنهم يريدون دفع الألسنة إلى الكلام والأفـواه المُحكمة الإغلاق إلى الإنفـتاح. ونجد أن لبـعض الأحداث وبعض الجرائم، التي يبدو الغرض من ورائهـا هو جلب اللعنة على الإنسانية، أن لها هي كذلك تلك القيمة وتلك الفائدة.

211. المفكرون الصرحاء.

أينا سيـجرؤ على القـول أنه مفكر حر لو لـم يكن ميالا لتـحية أولئـك الرجال الذين يلصق بهم هذا الإسم، كمـا لو كان سبة، بطريقـته الخاصة، آخـذا على عاتقه شيئا من عبء تلك العـداوة والسبـةالشـائعتين ؟ وسـيكون لنا الحق، بجـد (ودون هذا التحـدي المتكبـر والشـهم)، في أن ندعـو أنفسنـا « مفكرين أحـرارا »، لأننا نجـد في نداء الحـرية الحافـز الأكبر لعقلنا، وعكس العـقول المستعـبدة والمتجـذرة، نكاد نرى مثلنا الأعلى في الإرتحال الفكري، ـ لكي استعمل تعبيرا متواضعا يكاد يكون مستخفا.

212. آه، فضل ربات الفن.

إن ما يقوله هو مـيروس عن ربة الشعر ينفـذ مباشرة إلى القلب، إن فـيه من الصواب ومن الرعب الشيء الكثير :« لقد أحـبته ربة الشعر بإخلاص ووهبته الخـير والشر، لأنها أخذت منه عـينيه وألهمته أشـعارا عذبة .» ـهذا نص لا يـستنفذه التأمل: الخـير والشر، ذلك ما تمنحـه ربة الشعر، تلك طريقـتها في الحب الصادق! وسيعـرف كل على حدة، إذا ما فسر ذلك على نحو خاص، لمـاذا ينبغي لنا ، نحن المفكرون والشعراء، أن نضحي في سبيل ذلك بعيوننا.

213. ضد دراسة الموسيقى.

ان التربيـة الفنية للعين، منذ الطفـولة، برسم المناظر الطبيعـيةو الأشخـاص والمشاهد، تتضمن ميزة شحذ العين وجعلها هادئة وصبورة في ملاحظة الناس والأوضاع. إن مثل هذه الفـائدة العرضـية لا تسـتفاد من الـتربيـة الثقافـية للأذن، لذلـك ستحـسن المدارس الإبتدائية صنعا، على العموم، بإعطائها الأولوية لفن الرؤية بدل فن السماع.

214. مكتشفوالتفاهات.

ان العقـول الدقيـقة، التي هي أبعد عن الإهتـمام بالتـفاهة، غالبـا ما تكتـشف تفاهة واحدة بعد كل أشكال المنعطفات والممرات الجبلية، وتجد في تلـك التفاهة متعة كبيرة، وهو ما يذهل أولئك الذين لا يملكون قدرا كبيرا من الدقة.

215. أخلاق العلماء.

لن يكون تقدم العلوم السريـع والمنتظم ممكنا إلا إذا لم يجد الفرد نفسه مـرغما على أن يكون مفرطـا في الحذر ليراجع بدقة حسـابات وإثباتات الآخرين في ميـادين ليست مألوفة لديه، وشـرط ذلك التقدم هو أن يكون في دائرة اختصاص كل واحـد منافسون بالغي الحذر يراقـبونه عن كـثب. إن تعايش الحذر المعتدل والحذر البـالغ هو الذي يولد الصدق في جمهورية العلماء.

216. سبب العقم.

هناك عقـول [مفكرون] ذات عطاء رائع صارت عقـيمة إلى الأبد فقط لأن ضـعفا في مزاجها يجعلها شديدة التبرم من انتظار أجل وضع حملها.

217. عالم الدموع معكوسا.

ينتهي الضيق المتكرر الذي تسـببه للمرء متطلبـات الثقافة الراقية بقلب شـامل لطبعه بحيث عادة مـا يصير سلوكه عنيدا ومـتصلبا، ولا يتبقى له دمع يذرفـه إلا عند حصول ضربات الحظ النادرة التي لا يستطيع كثير من الناس الامتنـاع عن البكاء عند حصولها، وذلك بسبب المتعة التي يشعرون بها من انعدام الألـم : ــ ولا يعود هناك شيء قد يجعل قلبه ينبض مرة أخرى إلا السعادة.

218. الإغريق كمترجمين.

حين نتحدث عن الإغـريق فإننا نتحدث، دون أن نقصد ذلك، عن اليـوم والبارحة، فتـاريخهم المعـروف لدى العالم كله مـرآة لامعـة تعكس دائما شـيئا لا يـوجد في المرآة ذاتها. فالحرية التي نتمتع بها في التـحدث عنهم تسمح لنا بأن نصمت بشأن الآخرين، ـ بحيث أن هؤلاء يهمسون هم أنفسـهم في أذن القارئ المتنبه. وهكذا يسهل الإغريق على الإنسان المعاصر تبليغ كثير من الأشياء التي يصعب تبليغها والتي تدعو إلى التفكر.

219. عن طبع الإغريق المكتسب.

يحملنا وضوح الأعمال الأدبية الإغريقية و صفاؤها و بساطتها و تنسيقها وشفافيتها الطبيعيـة والمصطنعة على الإعتقاد بأن ذلك كله كان منحـة الإغريق وهبتهم، وأنهم لم يكونوا ليكتبـوا إلا بشكل جيد، مثلمـا قال ذلك لشتنبرغ ذات مـرة. لكن لم يعد هناك أي شيء متسرع ولا يمكن دعمه. فتـاريخ النثر من غورجيا حتى ديموستين يكشف عن عـمل وصراع كـبيرين للمـرور من الغـموض ونقص الذوق إلـى الوضوح، حـتى إنهم ليـذكـروننـا بما يلاقـيـه من تعب أولـئك الأبطال المكلفـون بشـق الطرق الأولى خـلال الغابات والمستنقعات. الحوار داخل المأسـاة هو مأثرة المسرحيين الأصيلة، وذلك بسبب وضـوحـه ودقـتـه الخـارقين، رغـم طبـعـه الشـعـبي الذي لم تكن ترضـيـه سـوى رمـوز وتلميحات تهتكية كانت الغنائيـة التي تؤديها الجوقة، علاوة على ذلك، تنحو بها ذلك المنحى، مـثلما هي مـفـخرة هومـيروس أن يكون قـد حـرر الإغريق من أبهـة آسيـا ومن طبعهم الخـامل وحصل غصبا على وضوح البنيـة، في الكل وفي الجزء. إنهم لم يكونوا يعتبرون التعبير عن الشيء بشكل مجرد ووضـوح شيئا سهلا، وإلا فمن أين كان سيأتي ذلك الإعجاب الكبير بهجاء سيـمونيد الذي يبدو موحد الشكل، بلا سنان ذهبية وبلا زخرفة ذهنيـة، ـ لكنه يقول ما لديه، بوضوح، بهدوء الشـمس وليس بالغرور المسرحي للبرق. نشدان النور من عمق ظلٍ شبه فطري هو شيء إغريقي محض بحيث أن البهجة تسري في الحشد الذي يستمع إلى حكمة مقتضبة، إلى قصيدة رثاء، إلى أمثال حكماء اليونان السبعة. لذلك كانت عادة إصدار القوانين نظما، التي تزعجنا اليوم كثيرا، تحظى بقـبول كـبيـر، وقد كـانت تلك هي القضـية الأبـولونية الحـقيـقـيـة التي واجهت العـقل الإغـريقي في سبـيل التغـلب على أخطار النظم، على الغـموض الذي هو، عـلاوة على ذلك، من خاصيات الشـعر. لقد فـرضت البساطة والمرونة والـرزانة فرضا، بعـد صراع مـرير، على المزاج الشـعـبي وهي ليـست مـيـراثه، ــ لقـد كان خـطر العـودة إلى الطبع الأسيوي يحوم دائما حول الإغريق، والواقع أن ذلك الطبع كان يغمرهم من حين لآخر

كنهر يفيض بالميول الصوفية، بالوحشية وبالظلمات الأصلية. نراهم يغرقون، نرى أوربا تكاد تمحي من الوجود، يكاد يغمرها السيل ــ لأن أوربا كانت صغيرة جدا آنذاك ــ لكنهم يعودون دائما إلى النور لأنهم سباحون وغواصون ماهرون، لأنهم شعب عوليس (Ulysse).

220. الشيء الوثني المحض.

إن ما يدهش الذي ينظر في عالم الإغريق أكثر هو اكتشافه أنهم كانوا، من حين لآخر، يقيمون احتفالات تشبه الأعياد بكل أهوائهم، بكل ميولهم الشريرة الطبيعية، وأنهم قد وضعوا برنامجا للإحتفالات التي كانت تقام لجوانبهم الإنسانية: هذا هو الشيء الوثني المحض في عالمهم، وهو ما لم ولن تفهمه المسيحية أبدا، وقد حاربته بضراوة واحتقرته بقسوة. لقد كانوا يعتبرون تلك الجوانب الإنسانية شيئا لا مفر منه وكانوا يفضلون، عوض أن يذلوها، أن يخولوها نوعا من الحقوق من الدرجة الثانية وذلك بإعطائها مكانا ضمن عادات المجتمع وطقوس العبادة، بل أكثر من ذلك، لقد كانوا يسمون كل ما له شيء من القوة في الإنسان شيئا سماويا، كانوا يكتبونه على جدران سمائهم. إنهم لا يجحدون الغريزة الطبيعية التي تعبر عن نفسها في المزايا القبيحة بل يضعونها في مكانها، في حدود بعض العبادات، بعض الأيام، وقد ابتكروا ما يكفي من الإحتياطات ليستطيعوا جعل هذه السيول الجارفة تأخذ مجرى يكون ضرره أقل ما يمكن. هنا يكمن أصل كل استقلالية العقل لدى الإغريق في مجال الأخلاق. وقد كانوا ينبسطون، في اعتدال، من الشر، والماجن، من سمات الوحشية المتأخرة، من ذلك الهمجي الماقبل هليني والأسيوي الذي كان لايزال يحيا في الطبع الإغريقي، ولم يكونوا يسعون إلى محوهم من الوجود. لقد كانت الد ولة تضم نسق كل هذه الوصفات، الدولة التي تأسست آخذة بعين الإعتبار ليس أفراد وعشائر معينين بل المزايا الانسانية العادية. لقد أبان الإغريق، من خلال تأسيسهم هذا للدولة، عن ذلك الإحساس المدهش بالحقائق النموذجية الذي أهلهم فيما بعد ليصيروا طبييعيين* (natu-raliste)، مؤرخين، جغرافيين وفلاسفة. لم يكن ما يقرر بشأن إنشاء الدولة والديانة الرسمية قانونا محدودا يصدره كاهن أو عشيرة بل هي الإحالة الواسعة إلى واقع كل ما هو إنساني. ــ من أين للإغريق تلك الحرية وذلك الحس الواقعي ؟ ربما يكونون قد أخذوهما عن هوميروس وعن الشعراء الذين سبقوه، لأن الشعراء، الذين لا يكون طبعهم عادة طبعا عادلا وحكيما، يكون لديهم، في المقابل، ميل إلى الأشياء الواقعية والفعالة من كل صنف ولا ينكرون الشر نفسه: يكفيهم ألا ينشر الموت في كل مكان

ولا يبث سمه في الروح ـ أي أن الشعراء الذين كانوا سابقين لمؤسسي دولة الإغريق وأساتذة لهم، يفكرون مثل هؤلاء المؤسسين.

221. إغريق الاستثناء.

في اليونان كان المفكرون الجديون الراسخون العميقو التفكير يعدون استثناء، كانت غريزة الشعب تميل بالأحرى إلى الإحساس بنوع من الالتواء في الجدية والعمق. إنه لشيء إغريقي محض ألا يبدع المرء أشكاله بنفسه، بل يستعير من الأجنبي، ثم يعيد تشكيلها ليعطيها أجمل مظهر. فالتحكم دائما في الرصانة المفروضة، التنسيق والتجميل السطحي أكثر فأكثر، ذلك هو التيار الذي ساد منذ هوميروس حتى سفسطائيي القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد الذين كانوا خارجانيين، ذوي كلام رنان وحركات ملهمة، ويخاطبون بشكل خاص أرواحا خواء ومتلهفة إلى المظاهر، إلى الجمهورية وإلى الإبهار. ــ ولنحي الآن، كما ينبغي، عظمة إغريق الاستثناء هؤلاء الذين ابتكروا العلم. فأن نروي تاريخهم يعني أن نروي التاريخ الأكثر بطولية في حياة العقل الإنساني.

222. البساطة لا تأتي زمنيا في المقام الأول ولا الأخير.

يدخل الناس في تاريخ التمثلات الدينية كثيرا من الأفكار الخاطئة عن التطور والتقدم الحاصل في أشياء لم تنبثق في الحقيقة عن بعضها البعض بالتوالي، بل تطورت بشكل متواز وبمعزل عن بعضها، فالبساطة، بشكل خاص، مشهورة كثيرا بكونها أقدم هذه الأشياء وأكثرها بدائية. وليست نادرة تلك الأشياء الإنسانية التي تتولد من خلال الطرح والقسمة، وبالضبط من خلال التضاعف والزيادة والتركيب (synthèse). يعتقد الناس مثلا أن هناك تطورا تدريجيا في تصوير الآلهة، ابتداء من جذمات الأشجار والأحجار المنحوتة بخشونة حتى التجسيم الكلي، والحقيقة، مع ذلك، هي أنه طالما تم إضفاء الألوهية على الأشجار، على أكوام من الخشب، على الأحجار والحيوانات، وطالما شعر الناس بذلك، فإن تشبيه شكلها بشكل الإنسان قد أثار لديهم نفس الكره الذي يثيره الكفر. لقد تطلب الأمر أن يكون الشعراء، بعيدا عن العبادة وعن إكراه الحياء الديني، هم أول من يعود خيال الناس الباطني على ذلك ويهيئونه له، ولكن ما أن تعود الغلبة لحالات نفسية وللحظات على قدر كبير من التدين حتى يتراجع من جديد تأثير الشعراء المحرر وتظل القداسة، وكأن شيئا لم يحدث، تشمل الفظاعات والرعب وكل ما هو لاإنساني. والحال أن كثيرا من الأشياء التي يتجرأ الخيال الباطني على تصورها قد يكون لها، إن صارت تمثلا خارجيا وملموسا، أثر صعب الإحتمال، فالعين

الباطنية أكثر جرأة وأقل حياء من العين الخارجية (وهو ما تنتج عنه الصعوبة التي نعرفها، والاستحالة، في تحويل المواضيع الملحمية إلى مواضيع مأساوية). منذ أمد طويل والخيال الديني لا يريد بتاتا أن يؤمن بتطابق الإله مع صورة ما : فغرض الصورة هنا هو أن تظهر، بطريقة غامضة ولا تفهم أبدا في كليتها، قوة المعبود على أنها نشيطة، كما لو أنها مرتبطة بمكان ما. إن واجب أقدم صورة إلهية هو أن تضم الإله وتخفيه في الوقت نفسه، وأن تدل عليه دون أن تعرضه. ليس هناك إغريقي واحد نظرت عينه الباطنية إلى أبولو أو إيروس على أنه عمود خشبي حاد أو كومة من الحجر، لقد كانت تلك فقط رموز وضعت بالضبط قصد التخويف من التجسيم. وينسحب ذلك على تلك الأخشاب المنحوتة التي يضيف إليها نحات بئيس عضوا هنا وهناك، وأحيانا بشكل يفوق العدد الطبيعي : وهكذا فقد كان لأبولو في بلدة لاكونيا أربع أيادي وأربع آذان. هناك في الشيء الناقص، التلميحي، التام أكثر مما يجب، قداسة فظيعة لا شك أنها تمنع المرء من التفكير في شيء إنساني، أو من صنف الإنسان. إن تلك الأشكال لم يتم صنعها في مرحلة جنينية من مراحل الفن، كما أن الناس لم يكونوا يعرفون، في ذلك العصر الذي كانوا فيه يعبدون تلك الصورة، أن يتكلموا بوضوح ولا أن يتصوروا الأشياء بشكل ملموس. إلا أن هناك شيئا يخشونه: التعبير المباشر. مثلما المقدس* يضم قدس الأقداس، المعبود الحقيقي جل جلاله، ويخفيه، لكن ليس تماما، وراء ظُليل غامض، ومثلما محيط المعبد يضم المقدس ويحميه، ولكن ليس تماما، من الأنظار الملحاحة، فكذلك تكون الصورة هي المعبود ومَخْبأ المعبود في نفس الوقت. ــ لكن جاء اليوم الذي أثار فيه المنتصر في المصارعة، خارج العبادة، في العالم الدنيوي للمسابقات الرياضية، أثار فيه فرحة عارمة وكبيرة لدرجة أن الأمواج التي تلاطمت من جراء ذلك قد تدفقت حتى داخل بركة الإحساس الديني، جاء اليوم الذي تم فيه نصب تمثال المنتصر في ساحة المعابد التي وجد فيها ممارس الشعائر الدينية نفسه مرغما، أحب أم كره، على تعويد عينه وروحه على رؤية الجمال والقوة الإنسانية، رؤية لا سبيل لتفاديها، بحيث أن عبادة الإله وعبادة الإنسان، المتجاورتين في المكان وفي النفوس، قد انتهتا شيئا فشيئا إلى التداخل والإنسجام. آنذاك، وآنذاك فقط، زال الخوف من الأنسنة الفعلية لصورة المعبود، وانفتح هذا الميدان الكبير أمام فن النحت الكبير : حتى الآن، وإن كان هناك تحفظ مفاده أنه حيثما تعلق الأمر بالتعبد فإن الشكل والقبح القديمين هما اللذين تتم المحافظة عليهما وتقليدهما بحذر. إلا أن الهليني الكريم والمكرس* قد صار بإمكانه أن يستسلم، في ابتهاج تام، لرغبته في تحويل الإله إلى إنسان.

223. إلى حيث ينبغي السفر.

ليست الملاحظة المباشرة لـلذات كافية ليعرف المرء نفسـه : إننا بحاجة إلى التاريخ، لأن تيار الماضي الجـارف يخترقنا، ونحن لا نكون إلا ما نشـعر به في كل لحظة من هذا التدفق. حـتى هناك حيث نريد السباحـة في سيل كينونتنا الذي يبـدو فريدا وشخصـيا للغاية نجد أن قولة هيراقليط لا تزال قـابلة للتطبيق : إننا لا نسبح في النهر مرتين. ــ هذا درس قد ثرثر به الناس كثـيرا، إلا أنه قد ظل مع ذلك أقوى وأصح مـا يكون، تماما مثل الدرس الذي يقتضي، لكي نفهم التاريخ، أن نبحث عن الآثار الحـية المتبقية من العصور التاريخية، أن نسافر مثلما كان سلفنا هيرودوت يسافر، وسط الأمم (التي ليست سوى مسـتويات من الحضـارة قديمة ومتحـجرة يمكننا أن نوطد أنفسنـا فيها)، وسط شـعوب يزعمون أنها متوحشة أو نصف متوحشة، أن نذهب هناك حيث الإنسان قد خلع ثوب أوربا أو لم يلبسه بعـد. هناك الآن فن ودافع دقيقين للسفر لا يحتـمان علينا المرور دائما من مكان إلى آخر قـاطعين آلاف الفراسخ مشـيا. لا تزال الألفيـات الثلاثة الأخيرة تحـيا على الأرجح بالقرب منا، بكل فروق وتقـزحات حضارتها : يتبقى علينا أن نكتـشفها. ولاتزال أطوارها، لدى كـثـيـر من العـائلات، بل لدى بعض الأفـراد، منضـدة في نظام جـميل وواضح، أمـا في الأمـاكن الأخـرى فنجد في الـصخـرة شـقوقـا يصـعب علينا فهمها. من المؤكد أن عينة جليلة من الإحساس الموغل في القدم قد استطاعت أن تحفظ نفسـها بيسر في مناطق مـنعزلة، في أودية جبلية غـير مشـهورة، لدى جماعـات منغلقة علي نفسـها، وعلينا أن نكتـشفـها هناك، والحال أن الـقيام بمثل تلك الإكـتشـافات في برلين مثلا أمر مستبعد، هناك حيث يولد الإنسان مسحوجا ومجلوا. والذي يصير، بعد ممارسـة طويلة لفن السفـر هذا، أرغوس* ذي المائـة عين سيـتمكن في نهـاية المطاف من مرافقة أناه في كل مكان، وسيكتشف في كل مكان، في مصر وفي اليونان، في بيزنطة وفي روما، في فرنسـا وألمانيا، إبان عصر الشـعوب التي تحيا مـرتحلة وتلك التي تقيم في الحضـر، خلال عـصر النهـضة أو الإصلاح، في بلـده أو في الخارج، بل في البـحر، في الغـابة، في الزرع وفي الجـبل، سيكتـشف مـرة أخرى مـغامـرات تجـوال تلك الأنا أثناء صيرورتها ثم وقـد تغيرت. ــ وهكذا تصير معـرفة الذات معرفة شاملة للعـهود الماضية، وقد تسـتطيع التربية التي تحـدد من نكون، داخل نسق فكري آخر نكتفي بالتلمـيح إليه هنا، على يد المفكرين الأحرار الحـصيفي النظر، أن تحدد المعـيار الشامل للإنسانيـة كلها في المستقبل.

224. البلسم والسم.

لن يفكر الناس بعمق أبدا في كون المسيحية ديانة القدم المنهوك، إنها تفترض وجود شعوب قديمة متحضرة ومنحطة أمكنهـا ولايزال في إمكانها أن تفعل فيها فعل البلسم. في عصور تكون فيها العيون « عليهـا غشاوة » والآذان « فيها وقر » وعاجزة بالتالي عن سمـاع صوت العقل أو الـفلسفة، وعن رؤية الحكمـة تمشي جسـدا حيا، سـواء حملت اسم إبيكتيت أو اسم أبيـقور، قد يتمكن الصليب و« بوق يوم القـيامة » من حث بعض من تلك الشـعـوب على إنهـاء حـيـاتهـا بشكـل لائق. لنتـفكر رومـا جـوڤـينال*، ذلك الضـفدع المسـموم الـذي له عينا ڤـينوس (Vénus)* : وسنعـرف آنذاك ما يعنيـه رسم عـلامـة الصليب أمـام « الناس »، آنذاك سنبـجل الطائفـة المسـيـحـيـة الرزينة ونمتن لهـا لانتشارها داخل الامبراطورية الإغريقية الرومانية. حين كان أغلب الناس آنذاك يولدون وروحهم مستعبدة، وفيهم فجور الشـيوخ، فإن الإلتقـاء بأشخاص كانوا أرواحـا أكثر منهم أجسـادا كان نعمـة وأية نعمـة، هم الذين كانوا يبدون وكـأنهم يحقـقون الفكرة الإغريقية عن ظلال الحادس (Hadès)*: أشباحا مذعورة، خفية، مفردة، خيرة، مفعمة بانتظار « حياة أفضل »، مما جعلها تصير لامبالية في استخفاف هادئ، وبصبر أنوف! ــ لاتزال المسـيـحية، دقـة التبـشيـر هذه التي تعلن أفول شـمس القدم الجميل، بـجرسـها المصدوع، المنهك، والذي فيه نغم رغم ذلك، لاتزال بلسـما حتى بالنسـبة لأذن الذي يكتـفي الآن بتصـفح تلك القـرون كمـؤرخ : فمـا عسى أن تكـون المسيـحيـة بالنسبـة لأولئك الناس! على العكس من ذلك تـعتبـر المسيـحيـة سمـا بالنسبـة لبعض الشـعوب المتوحشة وبالنسبة لغضاضتها الفتوية، فبث عقيدة القابلية للخطأ والهلاك الأبدي، على سبيل المثال، في روح الألمان القـدماء البطولية، الطفولية، والحيوانية، يسـممها، وكان لا بد أن ينـجم عن ذلك اهتـيـاج هائل وتحلـل مـزمـن، اضطراب في الإحـسـاس وفي الأحكام، انتشار وابتكار أغـرب التخيلات، ويتسبب هذا مع مـرور الوقت في إضعاف جذري لتلك الشعوب. ــ لكن ماذا كان سيبقى لنا، لولا ذلك الإضعاف، من الحضارة الإغريقـية! ومن ماضي الحـضارة البشـرية كله! لأن الشعـوب المتوحشـة التي لم تتصل بالمسيحـية قد استطاعت أن تمحو الحـضارات القديمة بشكل لا هوادة فيـه، مثلما برهن على ذلك بوضوح كـبير أولئك الوثنيون الذيـن غزوا بريطانيا التي كانت مـرومنة*. لقد ساعدت المسـيحية، بفـضل هيأة دفاعهـا، على جعل « العالم » القديم خـالدا. يبقى هنا سـؤال متناقـض وإمكانية حـصـول تقديـر مضـاد : هل كـانت هذه الشـعوب القـوية، كالجرمان مثلا، لولا ذلك الإضعاف بالسم الذي تحدثنا عنه، ستستطيع العثور من تلقاء نفسهـا على حضارة راقية، أصيـلة، وجديدة ؟ والتي لن تصل إلى الإنسانية منها، فـيما

بعد، ولـو فكرة بسيطة ؟ نفس الشيء ينسـحب على هذا : إننا لا ندري، ولنتكلم مـثل المسيحـيين، إن كان الرب هو المدين بالعـرفان للشـيطان، أم الشيطان هو المدين بذلك للرب، على كون الأمور قد آلت إلى ما هي عليه.

225. الإيمان ينجي ويهلك.

إن المسيحي الذي يتفكر في أفكار محرمة قد يتساءل ذات يوم : هل من الضروري فعلا أن يوجد رب بجانب حمل نضحي به عـوضا عنه، إن كان الإيمان بوجودهما معا تترتب عـنه نفس النتائج ؟ ألن يكونا كـائنين زائدين، هذا إن كان لهـما وجـود أصلا ؟ لأن كل ما تمنحه الديانة المسيحية للروح الإنسانية من نعمة، من مواساة، ومن تهذيب، وكذلك ما يعتمها ويسحقها، ينبع من ذلك الإيمان وليس مما يؤمن به الناس. ليس الأمر هنا بخلاف ذلك اللهم إلا في حالة الساحرات : من المؤكد أنه لم تكن هناك ساحرات أبدا، لكن الآثار الفظيعـة للإعتقاد في وجودهن كـانت هي نفس الآثار التي ستنتج عن وجودهن الفعلي. في كل الحالات التي ينتظر فيها المسيحي التدخل المباشر للرب، لكن دون جدوى، تبتكر المسيحية كثيرا من الأعـذار والأسباب من أجل التهدئة : إنها تعتبر ديانة حاذقة في هذا المضـمار. ـ لا جرم أن الإيمان لم يستطع حـتى الآن أن ينقل جبالا حـقيـقيـة من أماكنـها، وإن كنت لا أعلم من زعم ذلك، ولـكنه قادر كل القـدرة على وضع جبال هناك حيث لا جبال إطلاقا.

226. مأساة راتزبون الهزلية.

يمكننا أن نرى هنا وهناك، وبوضوح شـديد، تلك المسرحية الهزليـة التي يمثلها القدر إذ يربط ببعض الأيام، بمكان واحد، بأمـزجة وآراء رأس واحدة، ذلك الحبل الذي يحلو له أن يجعل القـرون التاليـة ترقص على طرفه. وهكذا نجد قـدر التاريخ الألماني المعـاصر القاتل يرتبط بالأيام التي جرت فـيها مناظرة راتزبون الشهيرة : لقـد كان المخرج السلمي من الصعوبات الكنسيـة والأخلاقية يبدو أكيدا بدون حروب دينيـة ولا إصلاح مضاد، كما كانت وحـدة الأمة الألمانية تبدو أكيدة. لقد حـلق عقل كونتاريني (Contarini) المتبحر والحليم ظافـرا في سماء الخصومات الفقهـية حينا من الدهر، هو الذي كان يمثل التدين الإيطالي في أصفى حـالاته، عاكسا بأجنحته فجـر حرية الفكر. إلا أن عقل لوثر الثخين، المحـشو بالشكوك وبالكرب الغـامض، عصى : بما أن التـبرئة من خلال المغـفرة كانت تبدو له أكبر اكتشافـاته و شعاره الشخصي، فإنه لـم يؤمن بنفس الافتراض الذي أعلنه الإيطاليـون الذين اكتـشفوه، كـما نعلم، قـبله بكثيـر ونشروه في صـمت في كل

أرجاء إيطاليا. لقد رأى لوثر في ذلك الوفاق الظاهر مكر الشيطان وحال دون السلام ما وسعه ذلك، وبذلك ساعد مخططات أعداء الإمبراطورية على التقدم شوطا طويلا. ـ والآن، ولكي نقوي أكثر انطباع الهزل الكئيب هذا دعونا نضيف أن كل الأطروحات التي كان الجدل قائما بشأنها آنذاك في راتزبون، سواء أطروحة الخطيئة الأصلية أو أطروحة الخلاص الوكيلي*، أو أطروحة التبرئة من خلال الإيمان، ليست صحيحة بأي وجه من الوجوه، بل لا علاقة لها بالحقيقة البتة، وأنها قد أصبحت كلها اليوم غير قابلة للجدال : ـ ومع ذلك فقد كانت هي السبب الذي أدى إلى إشعال فتيل الحرب من جراء آراء لا يقابلها أدنى شيء ولا أدنى حقيقة، أما فيما يتعلق بالمسائل الفقهية اللغوية المحضة، مثلا حسب التفسير الذي أعطي لوصايا العشاء السري، فإنه يسمح بالخلاف، لأن الحقيقة يمكن أن تقال هنا. لكن هناك حيث لا يوجد شيء فإن الحقيقة ذاتها لا يعود لها أي حق. ـ ولا يتبقى في النهاية إلا أن نقول أنه قد تفجرت آنذاك مصادر طاقة قوية جدا لم تكن دواليب العالم الحديث لولاها لتدور بقوة كبيرة. والقوة هي ما يهم في المقام الأول، ثم تأتي بعد ذلك الحقيقة، ولكنها لا تظل مهمة لمدة طويلة، أليس كذلك يا معاصري الأعزاء ؟

227. أخطاء غوته.

إن غوته هو الإستثناء الكبير من بين كبار الفنانين وذلك لكونه لم يعش داخل الحدود الضيقة لمقدراته الحقيقية كما لو كانت بالنسبة له ولكل الناس، هي الأساسي والمطلق، هي أقصى درجات الامتياز. لقد اعتقد اعتقادا مضاعفا أنه يملك أكثر وأفضل مما كان يملكه فعلا ـ وقد أخطأ في النصف الثاني من حياته حين ظهر مقتنعا أشد الإقتناع بأنه واحد من المفكرين في ميدان الإكتشاف والتفسير العلميين. كما أخطأ من قبل في النصف الأول من حياته : لقد كان يتطلب من نفسه شيئا أسمى من الشعر كما كان يبدو له، وقد كان مخطئا في ذلك. لقد أهلته الطبيعة لأن يكون فنانا مستقل الخطة*، ذلك هو السر الذي كان يلهبه ويضنيه من الداخل، والذي انتهى بدفعه للسفر إلى إيطاليا ليتفرغ كلية لهوس ذلك الوهم ويقدم من أجله كل التضحيات الممكنة. وقد اكتشف في النهاية، وهو المفكر الصاحي والشديد العداوة لزيغان كيانه، أن ما دفعه للإيمان بذلك النداء الباطني إنما هي رغبة ماكرة لا تستقر على حال، وأن عليه أن يتجرد من هوى إرادته الأكبر وينفصل عنه. وقد تجلى التعبير الشامل والنهائي عن ذلك الإقتناع المؤلم، الجارح والمحزن، بكون ذلك الإنفصال ضروريا، في حالة Tasse المعنوية : يزعجه، وهو « فردر (Werther) ذو القوة الخارقة »، الإحساس السبقي

بحدوث شيء ما أسوأ من الموت، مثلا حين يقول : « لقد انتهى كل شيء الآن، بعد هذا الإنفصال، كيف سيمكنني أن أعيش دون أن أصاب بالجنون !» ـ هذان الخطآن الأساسيان في حياة غوته هما اللذان أعطياه، في مواجهة موقف أدبي محض بشأن الشعر، وهو الموقف الوحيد الذي كان الناس يعرفونه آنذاك، أعطياه هيأة طليقة وشبه تعسفية في الظاهر. إذا استثنينا المرحلة التي أخرجه فيها شيلر (الذي لم يكن لديه متسع من الوقت ولم يكن يدع للمرء منه متسعا) من تحفظه النُّفور بخصوص الشعر، ومن خوفه من كل نشاط وكل حرفة أدبيين، فإن غوته يبدو لنا مثل إغريقي يذهب من حين لآخر ليزور عشيقة والشك يساوره في أن تكون تلك ربة لا يعرف اسمها الحقيقي. إننا نشعر في إبداعاته الشعرية بأنفاس الطبيعة والتشكيل قريبة جدا : لقد حددت سيماء تلك الأشكال التي كانت تسكن خياله (وربما كان يعتقد دائما أنه إنما يقتفي أثر تحولات ربة واحدة وفريدة) حددت، دون أن يريد ذلك أو يعلمه، سيماء كل آثار فنه. ولولا منعطفات الخطأ لما صار غوته ذلك الفنان الألماني الوحيد في ميدان الكتابة الذي لايزال حضوره قويا في الحاضر، ـ وذلك لأنه لم يكن يريد أن يكون لا كاتبا محترفا ولا ألمانيا محترفا.

228. مستويات المسافرين.

نلاحظ أن هناك خمس مستويات من المسافرين : فمسافرو المستوى الأول أي المستوى الأدنى، هم الذين يسافرون ويُرون وهم مسافرون، ـ إنهم يقادون في سفرهم، وكأنهم عمي، الذين يلونهم يرون العالم بأنفسهم، مسافرو المستوى الثالث يفيدون من رؤيتهم [للعالم] تجربة معاشة، مسافرو المستوى الرابع يتمثلون المعيش بشكل حي ويحملونه معهم، وأخيرا هناك بعض الأشخاص ذوي نشاط أكبر عليهم حتما، بعد أن يكونوا قد عاشوا كل ما رأوه وتمثلوه، أن يعيشوه مرة ثانية بتحويله إلى أفعال وأعمال أدبية، بمجرد ما يعودون إلى منازلهم. ـ على غرار هذه الأصناف الخمسة من المسافرين يقطع الناس خط سير حياتهم كله، الذين في مستوى أدنى يقطعونه كأشخاص سلبيين، والذين في مستوى أعلى كأشخاص فاعلين، يعبرون عن حياتهم كلها دون أن يتركوا أدنى بقية من قوتهم الباطنية دون استعمال.

229. الإرتقاء إلى أعلى.

في اللحظة التي نرتقي فيها أعلى من الذين كانوا معجبين بنا نبدو لهم وكأننا قد انحدرنا وهوينا أسفل سافلين : ذلك أنهم كانو حتى ذلك الحين، وفي كل الأحوال، يتصورون أنفسهم معنا في الأعالي (والفضل في ذلك يعود لنا).

230. الرزانة والاعتدال.

من الأفضل ألا نتحدث أبدا عن الرزانة والإعتدال، ذينك الشيئين الساميين. قليلون هم أولئك الذين يعرفون قوتهما من خلال السبل التكريسية (initiatique)* سبل التجارب والإهتداءات الباطنية : إنهم يبجلون فيهما شيئا سماويا ويخشون الكلام الرنان. أما الآخرون كلهم فقلما يصغون حين نتحدث عن هذين الشيئين، ويعتقدون أن الأمر يتعلق بالملل وبالرداءة، وربما نستثني منهم أولئك الذين التقطوا ذات يوم إشارة تدعوهم إلى ذلك الملكوت لكنهم صموا آذانهم عنها. والذكرى التي يحتفظون بها من ذلك تغضبهم وتسخطهم.

231. إنسانية الصديق والمعلم.

«اذهب أنت من جهة المشرق، وسأولي وجهي أنا وجهة المغرب »ـ يعتبر الشعور من هذا النوع علامة سامية على إنسانية العلاقة الحميمية، وإذا ما غاب هذا الشعور تحولت كل صداقة، كل علاقة بين المعلم والتلميذ إلى نفاق.

232. عميقو التفكير.

يتخذ عميقو التفكير، في معاشرتهم للآخرين، مظهر الممثلين الهزليين، وذلك لأنه عليهم أن يبدأوا آنذاك، لكي يُفهَموا، باتخاذ مظهر سطحي كاذب.

233. لمحتقري « البشرية القطيعية ».

الذي ينظر إلى الناس على أنهم قطيع ويفر منهم بأسرع ما يستطيع سوف يلحقون به بكل تأكيد وينطحوه بقرونهم.

234. خطأ قاتل في حق المغرور.

الذي يمنح شخصا آخر برفقته فرصة التألق بإظهار علمه وحساسيته وتجربته يضع نفسه في مكانة أعلى منه، وإذا لم يعترف به ذلك الشخص الآخر على أنه أرفع مكانة منه، دون تحفظ، فإنه يكون بذلك قد ارتكب جريمة قاتلة في حق غروره الذي كان يظن أنه يرضيه بذلك.

235. خيبة أمل.

من المعروف أن معاشرة شخص حفلت حياته النشيطة الطويلة بالكلام والكتابة تخلف خيبة أمل، وذلك لسببين : أولا، لأن الذي يعاشره ينتظر الكثير من لقاء يدوم

لحظة وجيزة (المعرفة، وكل ما قد تكشفه الفرص المتاحة مدى العمر)، وثانيا لأن كل شخصية معترف بها لا تتكلف عناء الطمع في تقديرات ثانوية.إن لامبالاتها تجعلنا متوترين.

236. مصدران للطيبة.

إن معاملتك لكل الناس، دون تمييز، بنفس العطف ونفس الطيبة قد يكون مصدرها إما ازدراء كبير للإنسانية أو حب مكين لها.

237. الحوار الداخلي لدى مسافر عبر الجبل.

هناك علامة على انك قد تقدمت وارتقيت عاليا : الرؤية حواليك أصبحت أكثر وضوحا وغنى من ذي قبل، صار النسيم يهب عليك عليلا، لكنه لطيف كذلك (لأنك قد نسيت حماقة الخلط بين اللطافة والحرارة)، مشيتك صارت أكثر حيوية وحزما، وشجاعتك قد نمت في نفس الوقت الذي نما فيه صحوك : ـ بسبب هذا كله قد يصير طريقك الآن أكثر وحشة وأشد خطورة من طريقك القديم ، ولكن ليس بنفس القدر الذي يعتقده أولئك الذين ينظرون إليك، أيها المسافر، من قعر الوادي المضبب وأنت تمشي على الجبل.

238. ماعدا الجار.

جلي أن رأسي ليست متوازنة على كتفي وحدهما، لأن أي شخص آخر، وهذا أمر معروف، يعرف أكثر مني ماذا علي أن أفعل أو لا أفعل، وأنا وحدي الولد المسكين الذي لا يعرف كيف يتدبر أمره. ألسنا كلنا نشبه تماثيل وضعت لها رؤوس ليست رؤوسها ؟ أليس كذلك يا جاري العزيز ؟ـ لا، فأنت تشكل استثناء.

239. حيطة.

لا ينبغي لنا أن نعاشر الذين لا يكنون احتراما للحياة الشخصية، وإلا وجب علينا أن نكبلها بلا شفقة بقيود اللياقة مسبقا.

240. إرادة الظهور بمظهر المغرور.

ألا يعبر المرء أثناء حديثه مع من لا يعرفهم، أو مع من يعرفهم قليلا، سوى عن أفكار قد انتقاها، أن يتحدث عن معارفه المشهورين، عن تجاربه وأسفاره الهامة، فتلك علامة على أنه ليس متكبرا، ولا يريد، على الأقل، أن يبدو كذلك. فالغرور هو قناع المجاملة الذي يرتديه المتكبر.

241. الصداقة المتينة.

تولد الصداقة المتينة حين نقدر الطرف الآخر كثيرا، أكثر من أنفسنا، حين نحبه كذلك، ولكن ليس أكثر من أنفسنا، و أخيرا حين نعرف، لكي نسهل التعامل فيما بيننا، كيف نضيف إلى ذلك مسحة ما، نزرا يسيرا من الحميمية، مع إمساكنا، بشيء من الحكمة، عن الدخول في حميمية واقعية وحقيقية، عن الخلط بين أنت وأنا.

242. الأصدقاء الأشباح.

حين نتغير بشكل جذري يصير أصدقاؤنا الذين لم يتغيروا أشباحا من ماضينا : يصل صوتهم إلى مسامعنا من خلال نغمة تجمدنا، وكأننا نسمع صوتنا يوم كنا شبابا أقوياء وأفظاظا.

243. عين واحدة ونظرتان.

الذين يتنقلون ببساطة بنظرتهم بحثا عن المراءاة وعن الحُماة عادة ما تكون لهم كذلك، من جراء إذلالهم وإحساسهم المتكرر بالإنتقام، نظرة وقحة.

244. البعيد الغامض.

إنها طفلة طيلة حياتها، هذا حكم يجعل لهجة ما مؤثرة، ولكنه حكم صادر عن بعد، فإذا ما عاشرناها عن قرب قلنا عنها : أنهاصبيانية طيلة حياتها.

245. الإيجابي والسلبي في سوء التفاهم.

الشدة التي تخرس الفكر الثاقب عادة ما يفسرها الذين ليس في ذهنهم حدة على أنها تَفَوُّق مضمر، ولذلك يخشونها : والحال أن إدراك شدة ما قد يُوَلِّد العطف.

246. تظاهر الحكيم بالجنون.

أحيانا تحتم الرأفة على الحكيم أن يتصنع الهوس والغضب والقناعة حتى لا يسيء إلى محاوريه بهدوء طبعه الحقيقي وصحوه.

247. إجبار النفس على الإصغاء.

بمجرد ما نلاحظ أن شخصا ما، في علاقاته معنا ومحادثاته لنا، يجبر نفسه على الإصغاء إلينا فإننا نملك الدليل الساطع والقاطع على أنه لا يحبنا بالمرة أو لم يعد يحبنا.

248. سبيل فضيلة مسيحية.

أفضل سبيل تقودنا إلى محبة الأعداء هي أخذ العبرة منهم، لأن ذلك يهيئنا للعرفان بالجميل.

249. حيلة المزعج.

يرد لنا المزعج عملة تعاقدنا الفضية عملة ذهبية، وهو يروم بذلك إرغامنا، بعد فوات الأوان، على الإستخفاف بتعاقدنا واعتباره هو استثناء.

250. سبب النفور.

غالبا ما ننفر من فنان أو كاتب ما، ليس لأننا نتنبه في نهاية الأمر إلى أنه خدعنا، بل لكونه لم ير ضرورة في اللجوء إلى وسائل أدق ليوقع بنا.

251. في الإنفصال.

إنني أتعرف على النسب والقرابة اللذين يجمعان روحا مع روح أخرى ليس في طريقة اقترابها منها بل في طريقة ابتعادها .

252. الصمت.

لا ينبغي لنا التحدث عن أصدقائنا وإلا أفقدتنا الكلمات إحساس الصداقة.

253. الوقاحة.

غالبا ما تكون الوقاحة دليلا على تواضع أرعن يُجَن جنونه في حالة مباغتته ويود إخفاء ذلك الدليل وراء الكلام البذيء.

254. خيبة أمل في الصدق.

أحيانا يكون معارفنا الحديثو الارتباط بنا هم من يعلم ما كنا نكتمه إلى حين ارتباطنا بهم، ونتصور حينها ببلاهة أن الثقة فيهم ستكون هي القيد القوي الذي سيمكننا من الاحتفاظ بهم، ولكنهم لا يعرفوننا بما فيه الكفاية ليحسوا جيدا بقربان المُسارة الذي نقدمه فيفشون أسرارنا دون أن تخطر الخيانة على بالهم، بحيث أننا قد نفقد بذلك معارفنا القدماء.

255. في غرفة انتظار الحظوة.

كل الذين ندعهم ينتظرون فترة طويلة في غرفة انتظار الحظوة يهتاجون ويصيرون عنيفين.

256. إعلان للمُحتقَرين.

إذا ما فقدنا احترامنا للناس بشكل واضح وجب علينا، حين نكون بصحبتهم، أن نمتنع عن إظهار ذلك ولا نخالف اللياقة، وإلا سنكشف للآخرين أننا لا نبدي احتراما لأنفسنا كذلك. لأن إبداء المرء للوقاحة حين يكون رفقة الآخرين تكون دليلا على احتقاره لنفسه حين يكون وحيدا.

257. بعض الجهل يجعلك نبيلا.

فيما يخص احترام موزعي الإحترام من الأفضل ألا نفهم بعض الأشياء فهما واضحا. فالجهل أيضا يمنحنا بعض الإمتياز.

258. عدو العفو.

المتعصب المتكبر لا يحب العفو، إنه يرى فيه عتابا ملموسا وصريحا موجها إليه، لأن العفو هو تسامح القلب في مشاعره ومبادرته.

259. وقت اللقاء.

حين يلتقي صديقان قديمان بعد فراق طويل فإنه غالبا ما يحدث أن يبديا اهتماما كبيرا حين يتعلق الأمر بأشياء لم تعد مهمة بالنسبة لهما، وإنهما لينتبهان لذلك أحيانا، ولكنهما لا يجرؤان على البوح به ـ بدافع من حيرة محزنة. وبذلك تجري بينهما أحاديث تشبه تلك التي يعرفها عالم الأموات.

260. اتخذ أصدقاءك من العمال.

العاطل خطر على أصدقائه، بما أنه لاشغل له يشغله فإنه يتحدث كثيرا عما يفعله أصدقاؤه وعما لا يفعلونه، وينتهي بأن يتدخل في أمورهم ويصير مزعجا : لهذا تقتضي الحكمة ألا نربط صداقة إلا مع العاملين.

261. حيث يساوي سلاح واحد سلاحين.

يكون الصراع غير متكافئ حين يدافع الواحد عن قضيته بعقله وقلبه بينما الآخر يدافع بعقله فقط. فالأول تقف الشمس والريح تقريبا ضده ويضايق أحد سلاحيه السلاح الآخر، فيفقد الجائزة ـ في نظر الحقيقة. وفي المقابل فإن انتصار الثاني بسلاحه الوحيد نادرا ما يعتبر انتصارا حسب كل المشاهدين الآخرين، وذلك يحط من قدره في نظرهم.

262. العكر والعمق.

يخلط العامة بسهولة بين ذلك الذي يصطاد في المياه العكرة والذي يغترف من الماء العميق.

263. معاملة الأعداء والأصدقاء بغرور.

كثير من الناس من يعامل أصدقاءه بغرور، وذلك حين يكون في حضرة شهود يريد أن يريهم تفوقه بوضوح، وكثير منهم من يبالغ في قيمة أعدائه ليظهر للناس بأنفة أنه جدير بأولئك الخصوم.

264. برود.

غالبا ما يتم ربط دفء القلب بعجز العقل، عجز الحكم. فالذي يشعر بحاجة إلى صحة هذين الأخيرين يجب أن يعرف ماذا عليه أن يبرد : دون أن يخشى شيئا على مستقبل قلبه! لأن القادر على بعث الدفء على أية حال سيبعث الدفء في نفسه وسيكون له صيف ولا شك.

265. مزيج الأحاسيس.

تشعر النساء والفنانون الأنانيون تجاه العلم بمزيج من الغيرة والعاطفية.

266. حين يكون الخطر هو الأكبر.

نادرا ما نصاب بكسر في الساق حين نتسلق الحياة بمشقة، ولكننا نصاب به حين نشرع في اختيار الهناء والطرق السهلة.

267. ليس باكرا جدا.

علينا ألا نشحذ أنفسنا باكرا جدا، ـ لأننا بذلك ننحف باكرا جدا.

268. حين يكون المعاند مُرضيا.

هناك حالات يفخر فيها المربي الجيد بوقوف تلميذه ضده ليظل وفيا لنفسه : إنها الحالات التي لا يحق فيها للمراهق أن يفهم الرجل الناضج، أو لن يفهمه إلا إذا ألحق الضرر بنفسه هو.

269. محاولة الصدق.

الشبان الذين يريدون أن يصيروا صادقين أكثر من ذي قبل يبحثون عن ضحيتهم في شخص يكون مشهودا له بالصدق، فيبدأونه بالهجوم محاولين الإرتفاع إلى مستواه من

خلال شتائمـهم ـ تسندهم فكرتهم المسبقة عن كون تلك المحاولة الأولى سوف لن تكون مؤذية، لأنه لن يكون من واجب ذلك الشخص أن يعاقب إنسانا صادقا على وقاحته.

270. الطفل الخالد.

إننا نتصور أن الحكاية واللعب يخصان الطفولة، ما أحسر نظرنا! كأننا نرغب أن نحيا دون حكايات ولا ألعاب مهما تكن سننا! لاشك أن فكرتنا عنهما وإحساسنا بهما مختلفان، ولكن ذلك يخدم كونهما يعنيان نفس الشيء : ـ لأن الطفل يجد هو كذلك في اللعب حاجته وفي الحكاية حقيقته. على قصر الحياة أن يحفظنا من هذا الفصل المتحذلق لمراحل العمر ـ كما لو كانت كل مرحلة تأتينا بشيء جديد ـ، وعلى الشاعر أن يمثل يوما ما رجلا عمره مائتي عام، أي ذاك الذي يحيا حقا دون حكايات ولا ألعاب.

271. كل فلسفة هي فلسفة مرحلة من مراحل العمر.

النظرية التي يكتشفها الفيلسوف في مرحلة معينة من حياته تعكس تلك المرحلة، ولن يسعه أن يمنعها من عكسها مهما يكن تساميه فوق الزمن وفوق الوقت. وهكذا تبقى فلسفة شوبنهاور انعكاسا للشباب النشيط والسوداوي، ـ إنها ليست فكرا موجها لفئة عمرية معينة. فلسفة أفلاطون كذلك تذكرنا بمنتصف الثلاثينيات من العمر التي عادة ما يلتقي فيها سيلان هادران، حارق و بارد، فينتج عن ذلك غيوم خفيفة، وأذا ما كانت الظروف وأشعة الشمس مواتية نتج عنه قوس قزح ساحر.

272. عن ذكاء النساء.

إن ما يؤكد قوة المرأة الفكرية غاية التأكيد هو كونها تضحي بنباهتها بدافع حبها للرجل ولنباهته، وكونها مع ذلك تكتسب في الحين نباهة ثانية في هذا الميدان الجديد والغريب أصلا على طبيعتها الذي يدفعها إليه ذكاء الرجل.

273. التسامي والانحدار في الجنس.

أحيانا ترتفع عاصفة الشهوات الجنسية بالرجل إلى علو تصمت في كل الشهوات، هناك حيث يحب فعلا ويستمتع بحياة أفضل بكيانه أكثر منه بإرادته. في مقابل ذلك تنحدر المرأة المحبة في الغالب، بدافع الحب الصادق، إلى الرغبة الجنسية وتنظر إلى

ذلك، وهي تمارسه، على أنه حظ من كرامتها. هذا واحد من الأشياء المقلقة التي قد تتضمنها الفكرة التي نكونها عن الزواج السعيد.

274. المرأة إنجاز و الرجل وعد.

تظهر لنا الطبيعة في المرأة الكمال الذي استطاعت بلوغه حتى الآن في شأن صورة الإنسان، وفي الرجل تظهر لنا الصعوبات التي كان عليها تجاوزها من أجل ذلك، وتظهر لنا أيضا ما تعد بأن تفعله بالإنسان. ــ تمثل المرأة الكاملة، في كل عصر، بطالة الخالق في كل يوم سابع من أيام الحضارة و استراحة الفنان أثناء عمله.

275. ازدراع Transplantation.

إذا تمكننا من الإمساك بزمام مغالاة الأهواء باستخدام عقلنا فإننا، من خلال تلك النتيجة المحزنة، قد ننقل المغالاة إلى عقلنا لنصاب بالهذيان منذ ذلك الحين في الفكر وفي إرادة المعرفة.

276. الضحك الذي يفضح.

الطريقة التي تضحك بها المرأة، واللحظة التي تضحك فيها، هما علامة ثقافتها، وصوت ذلك الضحك يكشف طبعها، بل ربما يكشف، لدى النساء العاليات الثقافة، تلك البقية الباقية من طبعهن التي يتعذر إنقاصها. لذلك قد يقول أخلاقي مثل هوراس، ولكن لسبب آخر : اضحكي أيتها الفتاة.

277. في روح الشبان.

يناوب الشبان الإخلاص والوقاحة في معاملتهم لنفس الشخص، لأنهم، في الحقيقة، لا يحترمون ولا يزدرون في الآخر سوى أنفسهم، ولأنهم يراوحون كثيرا بين ذينك الإحساسين، فيما يخص شخصهم، ماداموا لم يعثروا بعد في التجربة على معيار إرادتهم وقدرتهم.

278. من أجل عالم أفضل.

لو حرمنا الإنجاب على الساخطين، على سوداويي الطبع وعلى المتذمرين، فقد نحول العالم فجأة إلى بستان للبهجة، ــ لهذه الفرضية مكانها في فلسفة عملية خاصة بالجنس اللطيف.

279. لا تحذر إحساسك.

النصيحة النسوية التي تقتضي عدم ارتياب المرء في إحساسه قلما تعني شيئا سوى التهموا ما يعجبكم. قد يكون ذلك، بالنسبة للمعتدلين، قاعدة صالحة لكل يوم. وعلى الآخرين أن يعيشوا حسب أمر آخر : « عليك أن تأكل ليس بفمك فقط، بل بعقلك كذلك، حتى لا تقودك شراهة فمك إلى الهلاك.»

280. قسوة إيحاء الحب.

يقترن كل حب كبير بالفكرة الفظة القاضية بقتل موضوع ذلك الحب ليحميه نهائيا من التغيير الذي ينتهك الحرمات: لأن التغيير يرعب الحب أكثر مما يرعبه الإفناء.

281. الأبواب.

يرى الطفل أبوابا، كما الرجل، في كل ما يشعر به وما يتعلمه : إلا أن الرجل يرى فيها سبلا ينفذ منها، بينما لا يرى فيها الطفل دائما إلا ممرات.

282. نساء شفوقات.

تحمل شفقة النساء الثرثارة سرير المريض إلى قلب السوق.

283. استحقاق مبتسر.

الذي يكتسب استحقاقا منذ شبابه غالبا ما ينسى في نفس الوهلة احترام السن والذين يكبرونه سنا، وبذلك يخرج نفسه، مؤذيا لها، من جماعة الرجال الناضجين، الموزعين للنضج : بحيث أنه يظل غرا مزعجا ومراهقا مدة أطول من الآخرين.

284. المتشابهون قلبا وقالبا.

تتوهم النساء والفنانون أنه حين لا يعارضهم أحد فلأن معارضتهم مستحيلة. فعثور المرء على عشرة أسباب للإعتراف لهم بالتفوق، وعشرة أخرى لتوجيه نقد ضمني إليهم يبدو لهم دليلا على عدم القدرة على الانسجام، لأنهم متشابهون قلبا وقالبا.

285. المواهب الشابة.

علينا أن ننهج طريقة صارمة مع المواهب الشابة طبقا لحكمة غوته التي تريد منا أن نتفادى الإساءة إلى الخطأ كي لا نسيء إلى الحقيقة. يشبه حالهم أمراض الحمل ويتضمن رغبات شاذة علينا تلبيتها والإذعان لها ما أمكننا ذلك نظرا للثمرة التي نرجوها منها. يجب علينا، وقد عهد إلينا بحراسة هؤلاء المرضى الفريدين من نوعهم، أن نعرف فن الإذلال الطوعي للذات، وهو فن عسير.

286. نفور من الحقيقة.

جبلت النساء على طبع يجعل كل حقيقة لها علاقة بالرجل، بالحب، بالطفل، بالمجتمع، وبمعنى الحياة، تثير اشمئزازهن، كما يجعلهن هذا الطبع يسعين للإنتقام من كل من ينبههن.

287. مصدر الحب الكبير.

ما مصدر العواطف المفاجئة، الجياشة، الحميمية، التي يبديها رجل لامرأة ؟إن الشبقية وحدها لا تشكل منها سوى السبب الأدنى، ولكن حين يجد الرجل الضعف، الحاجة إلى المساعدة، والزهو مجتمعة في امرأة واحدة فإن شيئا يجري في كيانه وكأن روحه تكاد تطفح : يجد نفسه مذهولا ومهانا في ذات اللحظة، عندها ينبثق نبع الحب الكبير.

288. النظافة.

علينا أن نؤجج حس النظافة لدى الطفل حد العشق، وفيما بعد سيسمو هذا الحس، عبر تحولات دائمة التجدد، ليقارب مستوى الفضيلة ويبدو في النهاية، معوضا كل المواهب، كوفرة جلية في النقاء، في الإعتدال، في الرحمة، في الخلق، ــ حاملا في ذاته السعادة وناشرا إياها حوله.

289. عن الشيوخ المغرورين.

التعمق من خاصيات الشباب، والوضوح من خاصيات الشيخوخة. وحين يتحدث الشيوخ أحيانا أو يكتبون بأسلوب المتعمقين فإنهم يفعلونه بدافع الغرور ظانين أنهم بذلك سوف يكتسون بسحر حماس الشباب، سحر الكينونة وهي تتشكل، سحر الاستشعارات والآمال.

290. استخدام الجديد.

بمجرد ما يتعلم الرجال شيئا جديدا أو يجربونه فإنهم يستخدمونه كما يستخدمون سكة المحراث، وربما كما يستخدمون السلاح : أما النساء فسرعان ما يتخذنه حلية.

291. صواب الجنسين.

وافقوا امرأة بقولكم إنها على صواب وسترون أنها لن تتورع عن وضع قدمها بازدراء على رقبة المهزوم، ــ تريد أن تتلذذ بانتصارها إلى منتهاه، أما الرجل فيحمر

خجلا، حين يواجه رجلا آخر، من أن يكون على صواب. لأن الرجل قد اعتاد الإنتصار، أما المرأة فالإنتصار لديها استثناء.

292. التخلي عن إرادة الجمال.

لكي يتسنى لامرأة أن تكون جميلة فإنه لا ينبغي لها أن تريد الإشتهار بكونها جميلة : يعني أنه عليها، في تسع وتسعين حالة من الحالات التي قد تعجب الآخرين فيها، أن تزدري ذلك وتمتنع عنه بغية خزن محصولها نهائيا، وهو إغواء الرجل الذي تتسع رحابة روحه لذلك العطاء الكبير.

293. أمر مُبهم ولا يمكن تحمله.

لا يفهم الشاب أن يكون واحد ممن يكبرونه سنا قد عرف ذات مرة نفس ما يعرفه هو الآن من نشوة، من بدايات عاطفية، من اندفاع في الأفكار وطرق التعبير عنها. حين يفكر في كون هذه الأشياء قد وجدت مرتين يشعر بالذل، لكن ما يجعله في وضع عدائي هو سماع ما يقال له بأنه عليه، لكي يكون مثمرا، أن يفقد أزهاره ويستغني عن أريجها.

294. الحزب المتظاهر بأنه ضحية.

كل حزب عرف كيف يتظاهر بأنه ضحية يستميل إليه القلوب الطيبة ويحوز فيها مظهر الصلاح، وذلك يخدمه كثيرا.

295. الإثبات آكثر تأثيرا من البرهنة.

الإثبات أبلغ تأثيرا من البرهان، على أغلبية الناس على الأقل، لأن البرهان يثير الريبة. لذلك يسعى الخطباء الشعبيون لتدعيم براهين حزبهم بالكثير من الإثباتات.

296. أفضل الكتومين.

كل الذين يخدمهم التفوق بانتظام تكون لديهم حيلة ناجعة بحيث أنهم لا يكشفون أبدا عيوبهم وضعفهم إلا مغلفة بكثير من القوة : وهذا ما يلزمهم بأن تكون لديهم بذلك معرفة جيدة وجلية بامتياز.

297. من حين لآخر.

جلس بباب المدينة وقال لأحد المارين به بأن ذلك هو باب المدينة، فرد عليه الآخر بأن ذلك صحيح، وأنه لا يلزمنا دائما أن نكون على صواب حين يكون هدفنا أن ننال

امتنان الناس. أوه، أجابه بدوره، ليس الشكر هوما أريد، ولكنه يحلو لي، من حين لآخرأن أكون ليس على صواب فقط، بل على صواب يتعذر دحضه.

298. ليست الفضيلة ابتكارا ألمانيا.

تميز غوته وترفعه، انقياد بتهوفن الزهدي، لطافة موزار ورهافة قلبه، جولة هاندل الصلبة وحريته تحت إكراه القوانين، حياة باخ الداخلية المفعمة بالنور والثقة والتي تحتاج إلى التخلي عن التألق والتفوق، أتكون هذه مزايا ألمانية ؟ ـ حتى وإن لم تكن كذلك فإنها ترينا، على الأقل، ما قد ينزع إليه الألمان وما قد يبلغونه.

299. خداع تكفيري أم شيء آخر.

أود لو أكون على خطأ، ولكن يبدو لي، في ألمانيا الوقت الحاضر، أن الناس يؤدون واجبهم اليومي بنوع مضاعف من النفاق: ينادون بالجرمانية بسبب قلقهم من السياسة الإمبراطورية، وبالمسيحية بدافع الخوف على مصير المجتمع، ينادون بهما فقط من خلال الكلمات أو الإشارات، وخاصة من خلال فن الصمت. إنه الكلاس الغالي الثمن، في الوقت الحاضر، الذي يشترى غاليا، إن المستهدف من وراء إظهار تلك التقطيبات التوتونية والمنافقة هم المشاهدون.

300. بأي اعتبار يمكن للنصف أن يكون، حتى في الخير، أكثر من الكل.

في كل الأمور التي يتم وضعها لتبقى، والتي تتطلب دائما أن يكون في خدمتها كثير من الأشخاص، يجب اتخاذ الأقل صلاحا قاعدة، رغم كون الواضع يعرف تمام المعرفة أمورا أفضل وأصعب من ذلك، وهو يجعل غاية تخطيطه عدم حصول نقص في الأشخاص الذين يستطيعون استيفاء شروط القاعدة، ـ وهو يعرف أن الأشخاص المتوسطي المنزلة هم من يشكل القاعدة. ونادرا ما يفهم الشاب هذا، وإنه لعجيب أمر المجدد، حين يفهمه، كيف يعتقد أنه على صواب ويجد ضلال الآخرين غريبا.

301. المتحزب.

لم يعد المتحزب الحقيقي يتعلم، إنه فقط يخضع للتجارب ويصدر أحكاما، والحال أن صولون (Solon)*، الذي لم يتحزب أبدا، ولكنه سعى وراء هدفه إلى جانب الأحزاب، فوقها أو ضدها، يعتبر، وبشكل متميز، أب تلك القولة البسيطة التي تتأكد فيها صحة أثينا وحيويتها التي لا تنضب :« مازلت أتعلم رغم تقدمي في السن.»

302. ما هو ألماني حسب غوته.

إن أولئك الأشخاص الذين لا يطاقون، والذين لا نريد حتى أن نتقبل منهم ما يفعلونه من خير، هم الذين لهم حرية الرأي، ولكنهم لا يتنبهون إلى أن حرية الذوق والفكر تنقصهم. وهذا هو بالضبط ما يعتبره حكم غوته الرزين ألمانيا. ــ يُفهم من القولة والمثل اللذين يعطيهما أنه على الألماني أن يكون أكثر من مجرد كونه ألمانيا إن هو أراد أن ينفع الأمم الأخرى ويصير مطاقا لديها، كما يريانه الوجهة التي عليه أن يبذل فيها جهدا لكي يتجاوز ذاته ويخرج من حدودها.

303. اللحظة التي ينبغي التوقف فيها.

حين تشرع الجماهير في الهيجان ويتعتم العقل فسيحسن المرء صنعا، إذا لم يكن واثقا من صحة روحه، بأن يأوي إلى رواق ليراقب الوضع.

304. الثوريون والملاك.

الوسيلة الوحيدة التي لايزال في مقدوركم استعمالها ضد الإشتراكية هي عدم إثارتها، أي أن تحيوا أنتم حياة قناعة وتواضع، أن تبذلوا قصارى جهدكم لمنع إظهار الغنى وتساعدوا الدولة حين تفرض الضرائب الثقيلة على كل ما يفيض عن الحاجة وكل ما يشبه الترف. ألا تريدون هذه الوسيلة ؟ إعترفوا إذن أيها الأثرياء البرجوازيون الذين تدعون أنكم « ليبراليون » بأن عقليتكم هي التي تجدونها شنيعة ومهددة لدى الإشتراكيين، ولكنكم تقبلونها فيكم على أنها شيء لا مفر منه، كما لو كانت مخالفة تماما لعقليتهم. ولو لم تكن لديكم، كما أنتم، لا الثروة ولا هم الحفاظ عليها لجعلت منكم هذه العقلية اشتراكيين : وحدها الملكية تميزكم عنهم. إن أردتم هزم أعداء رفاهيتكم فابدأوا أولا بهزم أنفسكم. ــ ولو أن تلك الرفاهية كانت رغد عيش حقيقي! لما كانت ظاهرية للغاية، لما أثارت الحسد، لكانت ميالة إلى المشاركة، إلى الإحسان، إلى التعويضات، وإلى المساعدة. لكن الجانب غير الأصيل والإستعراضي في ملذات وجودكم التي تجدونها في الإحساس بالتضاد (ذلك أن الآخرين محرومون منها ويحسدونكم عليها) أكثر مما تجدونها في الإحساس بالرضى وبتسامي قوتكم ــ منازلكم، ملابسكم، سياراتكم، زينتكم، حاجياتكم الغذائية، وأخيرا نساؤكم اللائي من معدن خسيس، المذهبات بذهب لا رنين له، اللائي اخترتموهن لغرض العرض، واللواتي يعتبرن أنفسهن أشياء معروضة :ــ تلك هي الجراثيم التي تنشر سم ذلك المرض المتفشي وسط الشعب والذي يعدي الجماهير بسرعة متزايدة متخذا شكل جرب اشتراكي يصيب القلب، وتعتبرون أنتم أصله وموطنه. فمن سيوقف الآن زحف هذا الطاعون ؟...

305. خطة الأحزاب.

حين يتنبه حزب ما إلى أن أحد أعضائه القدامى قد تحول من عضو لا شروط له إلى عضو يضع شروطا فإنه يغتم ويسعى، من خلال كل أشكال الإثارة والمضايقات، لجره إلى الإرتداد عن الحزب بعزم، كما يتخذه الحزب عدوا، لأنه يشتبه في أن تكون نية النظر إلى عقيدته على أنها شيء نسبي القيمة، شيء له سلبيات وإيجابيات، شيء قابل للإختبار وللرفض، أن تكون تلك النية أخطر عليه من معارضة صريحة.

306. رص صفوف الأحزاب.

الذي يريد رص صفوف حزب ما من الداخل ما عليه إلا أن يمنحه فرصة تتم فيها معاملته بجور واضح : إنه بذلك سيراكم ثروة من راحة الضمير التي ربما كانت تنقصه حتى ذلك الحين.

307. الإعتناء بالماضي.

بما أن الناس لا يقدرون حقا إلا ماله جذور قديمة، ما قد تكون ببطء، فإنه على الذي يريد أن يستمر ذكره بعد موته أن يعاني ليس فقط من أجل أن تكون له ذرية، بل كذلك من أجل أن يكون له ماض. وهذا هو ما جعل الطغاة من كل صنف (وكذلك الفنانين والسياسيين المستبدين) يؤولون التاريخ تأويلا تعسفيا وهم مسرورون، وذلك حتى يبدو كتمهيد تدريجي لشخصهم.

308. كُتاب الأحزاب.

يكون لقرع الطبل الذي يفرح له الكثير من الكتاب الشباب الذين هم في خدمة حزب ما، في آذان من لا ينتمي لذلك الحزب، وقع صرير القيود، ويثير الشفقة بدل الإعجاب.

309. الوقوف ضد الذات.

لا يغفر لنا مشايعونا أبدا وقوفنا ضد أنفسنا، لأن ذلك يعني، في نظرهم، ليس فقط رفضا لحبهم بل جعل ذكائهم موضع شبهة.

310. خطر الغنى.

وحده النابه من حقه أن يكون له ملك، وإلا فالملكية خطر عام. فالمالك الذي لا يعرف كيف يستغل وقت الفراغ الذي يوفره له ملكه سيستمر في الطمع في التملك :

سيكون ذلك الطمع هو تسليته، هو خطته في محاربة الملل. وبذلك يؤدي التملك المتواضع، الذي قد يكفي حياة العقل، إلى الغنى، وتلك نتيجة خادعة من نتائج التبعية والبؤس الثقافيين. فهذا الغنى يظهر مخالفا تماما لما قد يوحي به أصله البئيس، لأنه يستطيع أن يتخذ الفن والثقافة قناعا، والقناع بالضبط يمكنه شراؤه. ومن ثمة يثير حسد الفقراء، حسد الجاهلين ــ الذين يحسدون الثقافة دائما، في الواقع، ولا يرون في القناع قناعا ــ، ويهيء اضطرابا اجتماعيا بالتدريج، لأن الفظاظة المذهبة والمغالاة المسرحية في « متعة الثقافة » المزعومة يوحيان لهم بأنه « لا شيء يهم سوى المال »، ــ والحال أن ما له أهمية هو قليل من المال وكثير من النباهة.

311. متعة القيادة والإنقياد.

تؤدي القيادة، وكذلك الإنقياد، إلى الإحساس بالمتعة، الأولى قبل أن تصير عادة، والانقياد، عكس ذلك، حين يكون قد صار عادة. لذلك يساعد الخدم القدماء والأسياد الجدد بعضهم بعضا قصد بلوغ تلك المتعة.

312. التوق للمركز المفقود.

التوق للمركز المفقود يحض الحزب على أن يخاطر مخاطرة كبيرة.

313. حيث الحاجة إلى الحمير.

لن تجعل الحشد يصيح مهللا ما لم تدخل المدينة على ظهر حمار.

314. تقاليد الحزب.

يسعى كل حزب لأن يظهر كل ما سما خارج نطاقه هو على أنه شيء تافه، وإذا فشل في ذلك فإنه يهاجمه بضراوة أكبر بحيث يصير أكثر سموا.

315. الإفراغ.

إن ما يتبقى من الذين يفرغون جهدهم كله في الأحداث يكون دائما أقل مما كان قبل. ولهذا السبب قد يصير السياسيون الكبار فارغين تماما، مع أنهم كانوا ذات يوم ممتلئين وأغنياء.

316. أعداء مرغوبون.

التيارات الإشتراكية اليوم مقبولة أكثر مما هي مهابة من طرف الحكومات السلالية (dynastique) لأنها توفر لها الحق والسيف المطلوبين لحالات الاستثناء التي قد تواجه

بها تلك الحكومات أعدائها الألداء، أي الديمقراطيين وأعداء الأمير. لقد صارت هذه الحكومات تميل اليوم إلى كل ما كانت تبغضه جهارا بالأمس، وترغب فيه بشكل خفي : إنها مجبرة على إخفاء روحها.

317. الملكية تملك.

تجعل الملكية الإنسان مستقلا وتمنحه حرية أكبر إلى حد معين فقط، فإن زاد درجة أخرى انقلبت الملكية إلى سيد، والمالك إلى عبد عليه إن يضحي من أجلها بوقته وتفكيره ويشعر منذ تلك اللحظة أنه مجبر على معاشرة أناس معينين، مسمر في مكان واحد، مندمج في الدولة، وربما يتم كل هذا على حساب حاجته الحميمة والأساسية.

318. عن حكومة العلماء.

إنه لمن السهولة بمكان أن نقترح نموذجا لانتخاب هيئة تشريعية. أولا وقبل كل شيء، يجب أن ينفصل أبناء البلد الأكثر جدارة بالثقة نظرا لنزاهتهم، والذين هم أساتذة وخبراء في ميدان من الميادين، عن الجماهير بعد نظر واعتراف متبادلين، وسيكون عليهم أن يعينوا من بينهم، إثر اختيار أكثر محدودية، العلماء المختصين البارزين في كل ميدان على حدة، وذلك أيضا من خلال اعتراف متبادل بالمزايا التي أبدوها. وحين يتم تكوين الهيئة التشريعية من هؤلاء الأشخاص فإن القرار يعود في النهاية، في كل حالة خاصة، لأصوات وآراء الخبراء المؤهلين أكثر، أما نزاهة كل الآخرين، التي هي مسألة لياقة لا غير، فقد صارت كبيرة كفاية لكي تفوض لأولئك المؤهلين وحدهم التصويت حسب ما يقتضيه الحال : بحيث أن القانون سيصدر بكل دقة عن توافق كل البارعين في ميدان القانون. ـ أما الآن فالأحزاب هي التي تصوت، ومن المؤكد أنه بعد كل تصويت تكون هناك مآت من الضمائر الخجلى ـ ضمائر الرديئي التعليم، العاجزين عن إبداءالرأي، ضمائر الببغاوات والمقلدين والقطيعيين. لا شيء يحط من مكانة قانون جديد مثل حمرة الخجل التي يسمه بها عدم النزاهة الذي لا محيد عنه في كل تصويت تقوم به الأحزاب. ولكنه من السهولة بمكان، كما أسلفت، أن نقترح شيئا من قبيل ما يلي : ليست هناك الآن في العالم أية قوة قادرة على استيعاب المنفعة، ـ اللهم إلا إذا انتهى الإيمان بفائدة العلم والعلماء الكبيرة بالظهور جليا حتى لأشد المغلقين دون العلوم فَيُفَضِّلُوه على الإيمان بالعدد السائد اليوم. وليكن أمرنا، قصد بلوغ ذلك المستقبل :« مزيدا من الاحترام للذين يعلمون! ولتسقط كل الأحزاب!»

319. عن « شعب المفكرين» (أو عن الفكر الرديء).

إن سمات الضبابية، الطفو، الاستشعار، البساطة، الحد سية (حتى نختار للأشياء الغامضة مصطلحات غامضة) التي نلصقها بطبع الألماني قد تكون دليلا، إن كانت لاتزال موجودة، على أن حضارته قد ظلت متخلفة بخطوات كثيرة وأسيرة فتنة العصور الوسطى. ـ لا شك أن لمثل ذلك التخلف بعض المزايا الإيجابية، فقد تؤهل تلك السمات الألمان ـ إذا افترضنا مرة ثانية أنهم لايزالون يتوفرون عليها ـ للقيام ببعض الأشياء، وخاصة لفهم بعض الأشياء، التي قد تكون أمم أخرى فقدت كفاءة القيام بها. وما من شك في كون الناس يفقدون الكثير حين يفقدون نقص الإدراك (وهو القاسم المشترك بين هذه السمات) : ولكن الخسارة لا تحدث هنا دون أن يصاحبها تعويض كبير، بحيث أنه لا يكون هناك أدنى دافع للإنتحاب إذا افترضنا أن الناس لا يريدون، مثل الأطفال والأشخاص الشرهين، أن يذوقوا ثمار كل الفصول في وقت واحد.

320. أشياء حسنة تخص أثينا.

تملك حكومات الدول الكبيرة وسيلتين للإبقاء على تبعية الشعب لها بالخوف والخضوع وهما : وسيلة فظة هي الجيش، وأخرى أكثر رقة هي المدرسة. بمساعدة الوسيلة الأولى تضمن إلى جانبها طموح الطبقات الراقية، وقوة الطبقات الدنيا، كما أن هاتين المزيتين خاصتين بالرجال النشيطين والأشداء ذوي المواهب المتوسطة والرديئة. وبمساعدة الوسيلة الأخرى تربح الفقر الموهوب ليدافع عن قضيتها، أعني أنصاف الفقراء الذين يشكلون الطبقات المتوسطة ذات الطموحات الثقافية. إنها تحول كل الأساتذة إلى بلاط من العقول المتجهة اضطرارا إلى « الأعلى » : إنها بمراكمتها العراقيل في سبيل المدرسة الحرة، وخاصة أمام التعليم الفردي الذي تنظر إليه نظرة سيئة للغاية، تضمن كثيرا من المناصب التي توجه إليها باستمرار عددا من الأنظار الجائعة والخاضعة أكبر على الأقل خمس مرات من عدد أولئك الذين قد يحصلون على منصب بالفعل. والحال أن تلك المناصب لا تستطيع أن توفر القوت لصاحبها إلا بتقتير، وهو ما يبقي على طموحه محموما للتقدم ويجعله يعانق آراء الحكومة بشكل حميم. لأن استغلال عدم الرضى المعتدل يكون دائما أفيد من الإرضاء الذي هو أب الشجاعة وجد الاستقلالية ووقاحة الذهن. وبفضل هذه الأستاذية (professorat) التي تمارس عليها وصاية مادية ومعنوية يتم الإرتقاء بشباب البلد كله، ما أمكن ذلك، إلى مستوى معين من الثقافة نافع للدولة وموضوع طبقا لهذا الغرض، بل بفضلها خصوصا يتم، بشكل يكاد يكون خفيا، نقل تلك العقلية التي تريد فقط وظيفة معترف بها ومختومة من

طرف الدولة أن تحمل مباشرة تميزا اجتماعيا، يتم نقل ذلك إلى الطموحين الذين لم يبلغوا سن النضج بعد في كل الطبقات. إن أثر هذا الإعتقاد على الإمتحانات والألقاب الرسمية كبير جدا بحيث أن شوكة عدم الرضى تبقى حتى في صدور الرجال الذين ظلوا مستقلين، والذين ارتقوا بواسطة التجارة أو الصناعة التقليدية، مادام وضعهم الإجتماعي لم تتم ملاحظته والإعتراف به من طرف السلطات العليا من خلال الإنعام عليهم بلقب أو بوسام، ــ حتى « يتمكنوا من إبراز أنفسهم ». أخيرا تربط الدولة تلك الوظائف والحرف بإجبارية متابعة التعليم والحصول على الشواهد من المدارس العمومية لمن كانت له نية ولوج تلك الأبواب يوما ما. الشرف الإجتماعي، الخبز لذاته، إمكانية تكوين أسرة، تلقي حماية السلطات العليا، الشعور بالتضامن بين الذين حصلوا على نفس التكوين، ــ كل هذا يشكل أحبولة آمال يجري كل شاب ليقع فيها : وأنى له أدنى قدر من الحيطة ؟ وفي النهاية، حين يكون واجب المرء أن يكون جنديا لبضع سنوات قد صار، لدى كل واحد، وفي ظرف أجيال قليلة، عادة آلية، شرطا مسبقا بموجبه يرسم نظام حياته مبكرا، فإن الدولة قد تقدم على إنجاز عمل رائع بإدماج هذا وتلك بسبب بعض المزايا، إدماج الجيش والمدرسة، الطموح والقوة، أي أن تجلب إلى الجيش، بشروط ملائمة، الإنسان المتفوق موهبة وثقافة وتشحنه بالعقلية العسكرية التي هي عقلية الخضوع المرح، بحيث أنه قد يؤدي القسم نهائيا لخدمة الجيش، مكسبا إياه بمواهبه سمعة جديدة وشديدة التألق باستمرار. ــ ولا ينقص آنذاك سوى فرصة الحروب الكبرى، ويتكلف بذلك، بفعل مهنهم، أي بكل براءة، الدبلوماسيون والجرائد والبورصات: لأن « الشعب »، بما هو شعب من الجنود، يكون ضميره دائما مرتاحا إبان الحروب، ولا تكون هناك حاجة لخلق راحة ضمير له.

321. **الصحافة.**

لو تأملنا كيف تمر الأحداث السياسية الكبيرة، حتى في وقتنا الراهن، على مسرح الأحداث بشكل خفي ومستور، كيف يتم إخفاؤها وراء الوقائع التافهة فتبدو بجانبها دنيئة، كيف لا يظهر عمق آثارها ولا تهز العالم إلا بعد حدوثها بزمن طويل، فأي معنى سيكون للصحافة، مثلما هي الآن، وهي تحث الناس على أن يصرخوا، أن يدوخوا، أن يحرضوا، وأن يخيفوا ؟ ألن تكون سوى ذلك الإنذار الخاطئ الدائم الذي يحول الآذان والحواس إلى الوجهة الخاطئة ؟

322. **بعد حدث كبير.**

الرجل أو الشعب الذي يولد يوم وقوع حدث كبير عادة ما ينتابه شعور بعد ذلك بضرورة اقتراف عمل صبياني أو فظ، يدفعه إلى ذلك الحياء والرغبة في التذكر.

323. أن تكون ألمانيا صالحا معناه أن تنسلخ من الجرمانية.

حيثما وجدت الإختلافات القومية فإنها لا تكون سوى اختلافات في مستويات الحضارة المتعددة، وليس ما كنا نراه فيها حتى الآن، وحده الجزء التافه منها يظل فيها شيئا لا يتغير (ولكن ليس بالمعنى الدقيق). لذلك فإن كل الحجج المستمدة من الطبع القومي لا تلزم إلا قليلا ذلك الذي يعمل على إحياء القناعات، أي ذلك الذي يعمل عمل الحضارة. فلو تأملنا، على سبيل المثال، كل ما كان ألمانيا من قبل فسنصحح على الفور هذا السؤال : أي شئ هو ألماني؟ بصيغة السؤال التالية: أي شئ هو الآن ألماني؟ ــ وسيجيب كل ألماني صالح على السؤال من خلال سلوكه، متفوقا على مزاياه الألمانية. حين يسير شعب ما قدما ويكبر فإنه يحطم في كل مرة ذلك المشد (corset) الذي كان اعتباره القومي يحبسه فيه، فإذا ما توقف عن الحركة، إذا ساءت أحواله انعقد مشد جديد حول روحه، وتحيط تلك القشرة نفسها بما يشبه سجنا لا تفتأ جدرانه تكبر. فإذا كان شعب ما يتمتع باستقرار كبير فذلك دليل على أنه سوف يتحجر، وأنه ينزع لأن يتحول كله إلى أثر مثلما تحولت الحضارة المصرية إلى أثر بدءاً من تاريخ معين. فليبحث ذلك الذي يريد للألمان خيرا عن وسائل التخلص المستمر مما هو ألماني. وهكذا كانت ميزة النابهين من شعبنا دوما هي اللجوء إلى المزايا غير الألمانية.

324. نظرات أجنبية.

إن مسافرا أجنبيا عبر ألمانيا قد أرضى الناس وأزعجهم ببعض أقواله، وذلك حسب المناطق التي أقام فيها. فكل السواب (Souabes) النابيهن متطرفون، مثلما كان يحلو له أن يقول. أما السواب الآخرون فمازالوا يعتقدون أن Uhland كان شاعرا وغوته لا أخلاقيا. وافضل ما في الروايات الآلمانية المشهورة الآن هو كوننا لا نحتاج قراءتها : إننا نعرفها. ــ البرليني يبدو طيب القلب أكثر من ألماني الجنوب، لأن له مزاجا ساخرا وبالتالي يفهم الدعابة : وهو ما لا ينطبق على ألماني الجنوب.ــ عقل الألمان قد خنقته جعتهم وجرائدهم : لذا ينصحهم بشرب الشاي وقراءة مقالات النقد، كشكل من الحمية طبعا. ــ فلنلق نظرة إذن، مثلما كان ينصح بذلك، مختلف شعوب أوربا القديمة: لكي نرى كيف يعرف كل شعب منها جيدا أن يجسد بوضوح خاصية من خاصيات الشيخوخة، إمتاعا لأولئك الذين وقفوا أمام هذا المسرح الكبير : ينجح الفرنسيون في تمثيل جانب الشيخوخة المعقول والمحبوب، والأنجليز جانب التجربة والتحفظ، والإيطاليون جانب البراءة والسذاجة. فهل غابت أقنعة الشيخوخة الأخرى ؟ أين الشيخ المتكبر ؟ أين الشيخ المستبد ؟ أين الشيخ الجشع ؟ ــ إن أخطر

مناطق ألمانيا هما ساكس وتورينج : إنهما تفوقان كل المناطق الأخرى من حيث الرشاقة الفكرية ومعرفة الناس، وكذلك من حيث الفكر الإباحي؛ ويتم إخفاء ذلك باحتشام كبير وراء لغة أولئك السكان الشائنة وحماسهم الخنوع حتى أننا لا نكاد ننتبه إلى أننا في حضرة رقباء ألمانيا الثقافيين وأساتذتها في الخير والشر. ــ تخضع كبرياء ألمان الشمال لوصاية ميلهم للخضوع، وكبرياء ألمان الجنوب لميلهم للرفاهية. ــ يبدو له أن رجال ألمانيا يرون في زوجاتهم عشيقات بيت عديمات المهارة ومغترات بأنفسهن : من فرط مدحهن العنيد لأنفسهن كدن يقنعن الناس، وأزواجهن خاصة، بالخاصيات المنزلية التي تتميز بها المرأة الألمانية. ــ وحين كان الحديث يدور حول سياسة ألمانيا الخارجية أو الداخلية كان يلذ له أن يحكي (وكان يسمي ذلك: فضحا) أن أكبر رجل دولة ألماني لم يكن يثق برجال الدولة الكبار. ــ كان يعتبر مستقبل ألمانيا مهدَّدا ومهدِّدا : لأن الألمان قد نسوا، حسب ما يراه، كيف يستمعون (وهو ما يتقنه الإيطاليون)، لأنهم، في مقابل ذلك، قد تعودوا على الإنفعال بسبب لعبة حظ الحروب وثورات السلالات المالكة، والتي سيعرفون إثرها الفتنة ذات يوم، وهي أقوى انفعال يمكن أن يتعرض له شعب ما. ــ الإشتراكي الألماني هو أخطرهم جميعا لأنه لا تحركه أية ضرورة محددة، بليته أنه لا يعرف ما يريد، حتى وإن حصل على الكثير فإنه سيذوب توقا للمتعة، مثل فاوست تماما، ولكن ربما مثل فاوست رعاعي. « لأن ذلك الشيطان الفاوستي الذي يعذب المثقفين الألمان، قال هذا المسافر في النهاية، قد أخرجه بسمارك من أجسادهم ، لكن الشيطان قد دخل الآن في أجساد الأفظاظ، وهو أسوأ من أي وقت مضى.»

325. آراء.

لايكون للناس أي شأن قبل ارتدائهم القناعات والآراء العامة، تبعا لفلسفة الخياطين التي تقول أن المظهر يدل على المخبر. أما فيما يخص المخالفين لهم فيجب القول: المهارة هي التي تصنع المظهر، لا تعود الآراء عامة هنا، ولا تظل أقنعة وزينة وتنكرا بل تصير شيئا آخر.

326. نوعان من الرصانة.

لكي لا نخلط بين الرصانة الناتجة عن إنهاك العقل وتلك الناتجة عن الاعتدال في الشهوات ينبغي لنا أن نتنبه إلى أن الأولى سيئة المزاج والثانية مرحة.

327. تزييف الفرحة.

الوسيلة الوحيدة للإحتفاظ بأصالة فرحتنا هو أن لا نقول عن الشيء الجميل أنه جميل في اليوم الموالي لشعورنا بجماله، ولا يوما قبل ذلك بالأخص، وإلا فإن فرحتنا يصير لها ذوق التفاهة والعفن وتصبح جزءاً من المواد الغذائية المغشوشة المخصصة لطبقات شعبية بأكملها.

328. كبش التكفير عن الفضيلة.

لو أن شخصا قام بأفضل ما يمكنه القيام به فإن الذين يريدون له الخير، ولكنهم ليسوا في مستوى ما قام به، يسارعون إلى البحث عن كبش يذبحونه متصورين أنه الكبش الذي يمحو الخطيئة ــ ولكنه الكبش الذي يمحو الفضيلة.

329. السيادة.

أن تبجل القبيح نفسه وتعلم الناس كيف يتذوقونه، حتى وإن كنت لا تلتذ به كثيرا، ثم ألا ترتاب إطلاقا في كونك لن تخجل من لذتك، فتلك علامة السيادة، في الأمور الكبيرة كما في الصغيرة.

330. الرجل المتنفذ شبح وليس حقيقة.

شيئا فشيئا يحلم النابغة أن الآخرين يتصورونه شبحا، في حدود تأثيره عليهم، وقد ينتابه قلق أخلاقي كبير بشأن ما إذا كان عليه أن يحتفظ بكونه شبحا ليؤدي خدمة جليلة لأشباهه.

331. الأخذ والعطاء.

حين ننتزع أصغر الأشياء من شخص ما (أو حين ننتزعه منه قبل الأوان) فإنه يعمى عن كوننا قد أعطيناه بذلك شيئا أكبر، بل شيئا هو الأكبر.

332. الأرض الطيبة.

حين نرفض أو نتجنب استعمال الأشياء فإننا نكشف عن نقص في خصوبتنا: فلو كنا قطعة أرضية طيبة لوجب علينا ألا نضيع شيئا دون الانتفاع به، وأن نرى في كل شيء، في كل حدث، وفي كل إنسان، سمادا وغيثا وشعاع شمس نافع.

333. الاستمتاع بعالم الناس.

لو أن شخصا ما عزم على العيش في عزلة، بنية التنسك، فسيكون بإمكانه أن يجعل من معاشرة الناس قطعة حلوى وذلك بتذوقها مرات قليلة.

334. معرفة المعاناة أمام الناس.

يجب أن نظهر ألمنا ونتأوه بصوت مسموع من حين لآخر، أن نبدو قلقين بشكل جلي، لأننا لو أظهرنا للآخرين مدى هدوئنا وسعادتنا في قرارة أنفسنا، رغم الألم ورغم الحرمان، فكم سنجعلهم حسادا وخبيثين! ـ وعلينا ألا نجعل أشباهنا أكثر خبثا، وإنهم، فوق ذلك، سيشركوننا بقوة، في حالة حصول ذلك، في طلب الخدمة، ومعاناتنا أمام الملإ هي أيضا، مهما يكن الأمر، ميزتنا الخاصة.

335. حرارة الأعالي.

تكون حرارة الأعالي، خاصة في فصل الشتاء، أشد من حرارة الوادي، عكس ما يعتقده الناس. فالمفكر يعرف كل ما يعنيه هذا المثل.

336. إرادة الخير استطاعة الجميل.

لا يكفي أن يقوم المرء بأعمال الخير، عليه أن يكون قد أراد ذلك، وأن يترك الألوهية تحل في إرادته مصداقا لقول الشاعر. لكننا لا نستطيع إرادة الجميل،بل يجب أن تكون لنا القدرة على بلوغه، بكل وداعة وعمى، دون أي فضول من النفس. فالذي يوقد مصباحه ليبحث عن الرجال الكاملين عليه أن يتنبه إلى هذه العلامة: إنهم هم الذين يتصرفون دائما حبا في الخير، وبفعلهم ذلك يصلون دائما إلى الجميل دون أن يفكروا في بلوغه. يظل كثير من النبلاء والأفاضل، بسبب العجز وانعدام الوسامة، رغم سلامة إرادتهم ورغم حسناتهم، ذوي منظر منفر ودميم، إنهم كريهون ويسيئون إلى الفضيلة بالثوب البشع الذي يلبسه إياها ذوقهم الرديء.

337. الخطر الذي يترصد الزاهدين.

على المرء أن يحذر من تأسيس حياته على أساس من الشهوات ضيِّق جدا، لأنه إذا أمسك عن الملذات التي نجدها في المراكز، في الأمجاد، في الهيآت التي نؤسسها، في الشهوات الحسية، في الرفاهية، في الفنون، فقد يأتي يوم يتنبه فيه إلى أنه بذلك التخلي قد اتخذ النفور من الحياة عوض الحكمة جارا له.

338. رأي أخير في الآراء.

إما أن تخفي آراءك وإما أن تختبئ وراءها. ومن يسر على غير هذا النهج فهو يجهل كيف يعيش الناس، أو ينتمي لفئة الجسورين المهيبين.

339. فلنفرح في قرارة أنفسنا.

يجب أن تتضمن الفرحة مزايا تكون صحية حتى بالنسبة لطبيعة الإنسان الأخلاقية وتدفعها إلى التقوى، وإلا فأنى لروحنا، بمجرد ما تستريح تحت شمس الفرحة، أن تقسم اضطرارا بأن « تكون طيبة »، بأن « تصير كاملة »، ويغشاها آنذاك شعور مسبق بالكمال مثلما تعتريها قشعريرة الغبطة ؟

340. إلى الممدوح.

ماداموا يمدحونك فاعلم جيدا أنك تتبع طريق غيرك ولما تجد طريقك بعد.

341. حب الأستاذ.

لكل من الرفيق والأستاذ طريقته الخاصة في حب الأستاذ.

342. أشياء جميلة جدا وإنسانية.

« الطبيعة أجمل منك بكثير أيها الإنسان الفاني! » ــ كثيرا ما يشعر المرء بهذا، ولكن قد بدا لي، من خلال رؤية حميمة لكل ما هو إنساني، لكماله، لقوته، لرقته، لتعقده، بدا لي أنه ينبغي أن أقول، وبكل تواضع أن :« الإنسان كذلك جميل للغاية في عين الذي يتأمله ! » ــ وليس الإنسان الأخلاقي فقط، بل كل إنسان.

343. منقولات وأراض في الشمس.

حين تقسو عليك الحياة مرة واحدة وتسلبك كل ما يمكنها سلبه من أمجاد وأفراح ومؤيدين وصحة وكل أنواع الثروة، فإنك قد تكتشف، بعد الرعب الأول، أنك أكثر غنى من ذي قبل. لأنك آنذاك فقط تعرف ما هو ملك خاص لك ولا تستطيع يد أي نهاب أن تمتد إليه، وبذلك قد تتخلص من كثير من البلبلة والإضطراب بلباقة مالك عقارات كبير.

344. مثاليون بالإضطرار.

أشق شعور على النفس بالإطلاق هو اكتشافك أن الناس دائما يحسبونك شخصا آخر أنبل من شخصك، لأنه عليك آنذاك أن تقر لنفسك : لست أدري أي شيء فيك

كاذب وخادع، كلامك، طريقة تعبيرك، عينك، أم تصرفك ــ وهذا الشيء المخادع فيك ضروري تماما مثل صدقك، ولكنه يمحو باستمرار أثر ذلك الصدق وقيمته.

345. المثالي والكذاب.

علينا ألا ندع أجمل كفاءة ــ كفاءة رفع الأشياء إلى مستوى المثال ــ تسيطر علينا، وإلا فارقتنا الحقيقة ذات يوم على هذه الكلمات :« ماذا أصنع بك أيها الكذاب الأشر؟»

346. أن يساء فهمك.

حين يساء فهمك كليا فإنه يستحيل أن تستبعد جذريا سوء تفاهم جزئي. وهذا ما ينبغي إدراكه جيدا حتى لا تنفق طاقة زائدة عن الحاجة في الدفاع عن نفسك.

347. شارب الماء يتحدث.

استمر أنت إذن في شرب خمرك التي أبهجتك طوال حياتك، ــ فماذا يهمك أن أكون شاربا للماء بكثرة ؟ أليس الخمر والماء عنصرين مسالمين ووديين يتعايشان دون لوم؟

348. أخبار بلد آكلي لحم البشر.

في الوحدة يلتهم المتوحد نفسه، وسط الحشد يلتهمه الحشد، فاختر بين الإثنين.

349. عند نقطة تجمد الإرادة.

« أخيرا ستصل الساعة التي ستلفك بتلك الغمامة المذهبة التي يتلاشى فيها الألم، والتي تستمتع فيها الروح بتعبها، وهي سعيدة بلعبها الصبور مع صبرها، أمواج بحيرة تلامس الضفة وتعيد لمستها ذات يوم صيفي هادئ، عاكسة ضياء الغروب المتلألئ، ثم تتوقف كلها - بلا نهاية أو غاية، لا تحتاج ولا تشبع - عند ذلك الهدوء الذي يلذ له التغيير، في ذلك الجزر وذلك المد مندمجة في نبضات الطبيعة.» هذا ما يشعر به كل المرضى ويقولونه، وإذا ما حلت بهم ساعة مثل هذه فإن متعتهم تكون وجيزة ثم يتلوها الملل. والحال أن الملل هو الريح الدافئة التي تذيب الإرادة المتجمدة: تستيقظ ثم تدب فيها الحركة وتشرع من جديد في بعث الرغبة تلو الرغبة. ــ والرغبة علامة برء أو تحسن.

350. المثال المجحود.

يحدث، بصفة استثنائية، ألا يرتقي المرء إلى الأعلى إلا بعد أن يكون قد تنكر لمثله الأعلى، لأن ذلك المثال كان يعطيه اندفاعا قويا جدا بحيث يضيق نفسه كل مرة في منتصف السباق ويرغمه على التوقف.

351. ميل كاشفٌ للسر.

إننا قد نعتبر شعور رجل بانجذابه إلى الفكرة القائلة بأنه ليس هناك، لبلوغ الكمال، سوى باب خلاص واحد هو الحب، علامة على كونه رجلا غيورا.

352. سعادة السُّلم.

مثلما هو إدراك بعض الأشخاص لا يجاري الفرصة في مشيتها، بحيث أنها تكون قد جاوزت الباب في الوقت الذي يكون فيه هو لايزال عند السلم، فكذلك هناك لدى أشخاص آخرين نوع من سعادة السلم التي لا تستطيع، بمشيتها الشديدة البطء، أن تجاري الزمن ذا الأرجل السريعة : وأفضل ما يتمكنون من أن ينعموا به من حدث ، من مرحلة كاملة من مراحل حياتهم، يأتيهم بعد مدة طويلة، ويأتي في الغالب شبيها بالعطر الضعيف الرائحة الذي يوقظ الحنين والقلق، ـ كما لو كان بلوغ المرامي، في لحظة ما، ممكنا بذلك العنصر. أما الآن فقد فات الأوان.

353. أبيات شعر.

القول بأن عقلا ما قد نظم أبياتا شعرية لا يعتبر حجة ضد نضجه.

354. هيأة المنتصر.

إتقان البقاء على صهوة الفرس يفتن شجاعة الخصم وقلب المتفرج، ـ فما الجدوى من الهجوم ؟ اجعل هيأتك هيأة المنتصر.

355. خطر الإعجاب.

إننا بإعجابنا المفرط بفضائل الغير قد نفقد الشعور بفضائلنا، وقد نفقدها هي نفسها في نهاية الأمر، إن لم نستمر في ممارستها، دون أن نحصل على الأخرى كتعويض لها.

356. فائدة الصحة العليلة.

الذي يكون مريضا أغلب الأحيان يجد في الصحة الجيدة ليس فقط متعة كبيرة، بسبب شفائه المتكرر، بل يكتسب شعورا مرهفا جدا بما هو سليم ومرضي في الأعمال

والأفعال التي يقوم بها هو أو غيره، إلى درجة أننا عادة ما نجد في مؤلفات الكتاب المعتلين ـ وكل الكتاب الكبار تقريبا معتلون، مع الأسف ـ لهجة صحة واثقة من نفسها ومتوازنة، وذلك لأنهم ماهرون، أفضل من الرجال الأشداء بدنيا، في فلسفة الصحة والشفاء الأخلاقيين، وكذلك في أربابها : الصبيحة، الشمس، الغابة والمنابع.

357. الخيانة شرط التمكن.

ليس لكل استاذ إلا مريد واحد، وإنه لن يظل وفيا له، ـ لأنه مرصود لأن يصير أستاذا هو بدوره.

358. لا يكون أبدا دون جدوى.

إنك لا تتسلق جبال الحقيقة أبدا دون جدوى : فإما أن ترتقي إلى أعلى هذا اليوم، وإما يكون ذلك تمرينا لقواك لتستطيع الإرتقاء غدا.

359. أمام زجاج رمادي.

أيكون ما تراه من هذه النافذة على قدر كبير من الجمال يجعلك ترفض رفضا باتا أن تنظر من أية نافذة أخرى ؟ ـ يجعلك تحاول منع الآخرين من فعل ذلك ؟

360. دليل تغيرات كبيرة.

حلمنا بأشخاص نسيناهم منذ أمد طويل أو أموات دليل على أن ذواتنا قد عرفت تغيرات كبيرة وأن الأرض التي عشنا عليها قد تغيرت كلية، لذلك يُبعث الموتى ويعود ماضينا البعيد حاضرا جديدا.

361. طب الروح.

البقاء ممددا في هدوء والتفكير القليل هو أنجع دواء يلائم كل أمراض الروح، ويصير استعماله من حين لآخر، مع شيء من الإرادة الحسنة، مستحبا أكثر.

362. عن تراتبية العقول.

إنك تضع نفسك دونه بمجرد ما تسعى لإثبات الاستثناء ويسعى هو لإثبات القاعدة.

363. القدري.

عليك أن تؤمن بالقدر، ـ قد يرغمك العلم على ذلك. وما قد ينتج عن ذلك الإيمان عندك من حب أو خضوع أو شهامة أو إقدام يدل على الأرض التي أُلقيتْ فيها تلك البذرة وليس على البذرة ذاتها التي قد تعطي أية ثمرة.

364. سبب المزاج العكر.

الذي يفضل الجميل على النافع، في الحياة، سيفضي به الأمر ولاشك، مثل الطفل الذي يفضل الحلويات على الخبز، إلى إفساد معدته والتبرم من العالم.

365. الإفراط كعلاج.

يمكننا أن نعود إلى حب مواهبنا من خلال الإفراط في تبجيل المواهب المضادة والتلذذ بها مدة طويلة. لأن العلاج بالإفراط طريقة دقيقة من طرق فن الحياة.

366. « ابحث لك عن أنا »

النشيطون الناجحون لا يتصرفون حسب المبدأ القائل اعرف نفسك بنفسك، بل كما لو كانوا ينفذون هذا الأمر الخيالي : ابحث لك عن أنا وستصير شخصا مهما. يبدو أن القدر قد ترك لهم الإختيار، بينما الخاملون ومحبو التأمل يتأملون شخصهم الذي صنعوه مرة واحدة فقط، عندما ولجوا الحياة.

367. أن تحيا ما أمكنك بلا أتباع.

إنك لا تفهم الشيء القليل الذي يعنيه أتباعك إلا حين لا تعود تابعا لهم.

368. الإحتجاب.

لا بد لنا من معرفة كيف نحتجب حتى نتخلص من سحابات الذباب تلك، أعني المعجبين المزعجين.

369.الملل.

هناك ملل يصيب العقول الدقيقة والمثقفة التي تنتهي بأن تجد أفضل ما تقدمه الأرض عديم الطعم : وبما أنها قد اعتادت أن تتناول طعاما يكون دائما مختارا، وأن تشمئز من الأطعمة غير الشهية، فإن خطر الموت جوعا يتهددها هنا، ـ لأن أفضل أنواع الطعام قليلة جدا، بل إنها تكون أحيانا منيعة وصلبة إلى حد أن أقوى الأسنان لا تستطيع أكلها.

370. خطر الإعجاب.

قد يكون الإعجاب بمزية أو بفن ما قويا للغاية بحيث يمنعنا من بذل قصارى جهدنا للحصول عليهما.

371. ما نتطلبه من الفن.

هذا يريد بواسطة الفن أن يستمتع بكينونته، وذاك يريد بفضله أن يخرج من حدودها مؤقتا، أن يبتعد عنها، ويوجد هناك، مرتبطا بهاتين الحاجتين، صنفان من الفن والفنانين.

372. الجحود.

الذي يجحدنا قد لا نكون نحن هم من يهينهم، بل مشايعونا بكل تأكيد.

373. بعد الموت.

عادة ما لا نشعر بكون غياب شخص ما أمراً لا يتصور إلا بعد وفاة ذلك الشخص بزمن طويل. وغالبالا نشعر به تجاه العظماء إلا بعد عقود من الزمن. والصادق غالبا ما يظن، إثر وفاة شخص ما، بأن ذلك ليس خسارة كبيرة بالفعل، وبأن الذي يلقي خطبة التأبين منافق. الضرورة وحدها تعلمنا ضرورة فرد ما، أما شاهدة قبره الحقيقية فإنهاتنهدة متأخرة.

374. دعها في الحادس Hadès.

علينا أن نترك الكثير من الأشياء في حادس (Hadès) الأحاسيس النصف شعورية ولا نحاول تخليصها من وجودها في شكل ظلال، وإلا صارت، إن صيرناها فكرا وكلاما، أسيادنا الشيطانيين الشديدي الشراهة إلى دمنا.

375. التسول القريب.

يحدث كذلك للعقل الوافر الثروة الفكرية أن يفقد مفتاح غرفة كنوزه، فيجد نفسه، مثله مثل أفقر العقول، مرغما على التسول من أجل البقاء.

376. المفكر على طريقة السلسلة.

الذي مارس التفكير كثيرا سرعان ما تبدو له كل فكرة جديدة يسمعها أو يقرأها متخذة شكل سلسلة.

377. الشفقة.

أحيانا يكون خنجر الغيرة مترصدا في غمد الشفقة الذهبي.

378. ما العبقرية.

غاية سامية وإرادة امتلاك الوسائل لبلوغها.

379. غرور المقاتلين.

الذي لا أمل له في الانتصار في المعركة، أو يرى أنه سينهزم فيها، يريد شيئا أكثر من إعجاب الناس بطريقته في القتال.

380. سوء تفاهم بشأن الحياة الفلسفية.

في اللحظة التي يشرع فيها شخص ما في أخذ الفلسفة مأخذ الجد يعتقد كل الناس العكس.

381. تقليد.

بالتقليد يكتسب الرديء شهرة ويفقدها الجيد، ـ خاصة في ميدان الفن.

382. درس التاريخ الأخير.

« آه، ليتني لم أعش ذلك العصر!» ـ هكذا يقول الحمقى والمهرجون. ولكننا نصيح في نهاية المطاف، بشأن كل لحظة من التاريخ نتأملها بجدية، حتى وإن كانت هي محط الأمل بامتياز في ذلك الماضي :« حسبنا ألا نعود إليها! إن روح ذلك العصر سيسحقك تحت ثقل الجويات*، لن تستطيع الإستمتاع بما فيه من طيب وجميل، ولن تستطيع هضم جوانبه السيئة.» ويمكن أن نطمئن إلى كون الأجيال اللاحقة ستحكم على عصرنا بما يلي : لقد كانت الحياة في ذلك العصر لا تطاق وغير قابلة لأن تعاش. ـ ومع ذلك يثبت كل واحد في عصره ؟ أجل، وذلك لأن روح عصره لا يثقل عليه فقط، بل يؤثر فيه كذلك. يقاوم روح العصر ذاته، كما يوجه نفسه بنفسه.

383. النبل كقناع.

بنبالة السلوك يملأ المرء أعداءه حقدا، وبالغيرة التي يبديها يصالحهم أو يكاد، لأن الغيرة تقارن وتساوي بينهم، إنها نوع من التواضع غير المقصود. ألن تكون الغيرة، بسبب الميزة المذكورة آنفا، قد استعملت أحيانا كقناع من طرف أناس لم يكونوا غيورين ؟ قد يكون، ولكن الشيء الأكيد هو أن نبل السلوك غالبا ما يستخدم لإخفاء الغيرة من طرف أناس طموحين يفضلون أن يصيبهم الأذى ويغيظوا أعداءهم على الظهور متساوين معهم داخليا.

384. لا يغتفر.

لقد منحته فرصة ليظهر سمو طبعه، ولكنه لم يستغلها. إنه لن يغفر لك ذلك أبدا.

385. نقائض.

نجد أكثر الأفكار شيخوخة بشأن الإنسان في هذه الأطروحة الشهيرة : «الآنا دائما بغيضة »، ونجد أكثرها صبيانية بشأنه في هذه الأ طروحة الأكثر شهرة من سابقتها: «أحب قريبك كما تحب نفسك.» ـ ففي إحداهما نجد أن معرفة الناس قد توقفت، وفي الأخرى نجد أنها لم تبدأ بعد.

386. عدم السماع.

«نكون من الرعاع مادمنا نعزو أخطاءنا إلى الغير، ونكون على سبيل الحكمة حين نتحمل مسؤوليتها نحن وحدنا، أما الحكيم فلا يرى أحدا على خطأ، لا هو ولا الغير.» ـ من قائل هذا ؟ ـ إبكتيت، منذ ثمانمائة وألف سنة. لقد سمعناه، لكننا نسيناه. ـ لا، إننا لم نسمعه ولم ننسه : إنه من الأشياء التي لا تنسى. ولكنه لم تكن لنا الأذن المناسبة، أذن إبكتيت. ـ وهكذا يكون قد همس بذلك في أذنه هو ؟ ـ وقال : الحكمة هي ما يهمس به المتوحد لنفسه في الساحة العمومية.

387. العيب في وجهة النظر لا في النظر.

نكون دائما قريبين من أنفسنا ببضع خطوات، ونكون بعيدين عن جارنا ببضع خطوات. وبهذا يحدث أن نبدي فيه رأينا دون تمييز، وكذلك في أنفسنا حسب بعض السمات والوقائع المعزولة، العرضية والتافهة.

388. جهل الأسلحة.

مثلما لا نكترث نحن بكون شخص آخر يعرف موضوعا ما أو يجهله تماما ـ والحال أن مجرد تفكيره في كوننا نعده جاهلا بذلك يرهقه، فإن هناك مهرجين رائعين يتبخترون دائما حاملين كنانة مليئة باللعنات والأحكام غير القابلة للإستئناف، مستعدين لقتل كل من يظهر أن هناك أمورا لا يؤخذ فيها رأيهم بعين الإعتبار.

389. في مشرب التجربة.

الذين يتركون كؤوسهم نصف ممتلئة، بدافع اعتدال فطري، لا يريدون الإقرار بأن لكل شيء نهاية وثمالة.

390. طيور مغردة.

من عادة مشايعي الرجل العظيم أن يتعاموا لكي يتقنوا إنشاد مدائحهم له.

391. دون المستوى.

نكره الشيء الجيد حين لا نكون في مستواه.

392. القاعدة، أم أم إبنة.

الوضع الذي تنتج عنه القاعدة غير الوضع الذي ينتج عن القاعدة.

393. تمثيل هزلي.

أحيانا نجني الحب والسعادة من أفعال وأعمال انسلخنا منها منذ أمد طويل كما ننسلخ من جلد، وحينها نقبل بسهولة على تمثيل ماضينا تمثيلا هزليا ونلقي جلدنا الذي انسلخنا منه على اكتافنا من جديد ـــ ليس فقط بدافع الغرور، بل كذلك بدافع الرفق بمشاهدينا.

394. خطأ كُتاب السير.

لا ينبغي الخلط بين القوة اللازمة لإدخال زورق في النهر وبين قوة النهر الذي سيحمل ذلك الزورق : ومع ذلك فإن هذا ما يحدث في كل السير تقريبا.

395.لا تشتري بثمن باهظ.

عادة ما نسيء استعمال ما نقتنيه بثمن باهظ، وذلك لأننا لم نشتره بدافع الحب، وذكراه تضنينا، ـ بحيث أنه تصير له سلبيتان.

396. الفلسفة التي يحتاجها المجتمع.

الأساس الذي يرتكز عليه النظام الاجتماعي هو كون كل فرد ينظر بهدوء إلى كينونته، إلى ما يفعله وما يطمح إليه، إلى صحته ومرضه، إلى غناه وفقره، إلى مجده وتفاهته، وهو يقول لنفسه :« لن أتغير مع أي كان ». والذي يريد دعم نظام المجتمع فلن يكون عليه إلا أن يرسخ في القلوب فلسفة الترفع والرفض الهادئ للتغير هذه.

397. علامات الروح المتميزة.

الروح المتميزة أبعد من أن تكون تلك الروح القادرة على التحليق العالي، إنما هي تلك التي ترتفع قليلا ثم تقع قليلا، ولكنها تبقى دائما على علو يكون فيه الهواء طلقا ومضيئا.

398. العظمة وتأملها.

أفضل آثار العظمة هي منحها لمن يتأملها عينا يرى بها كل الأشياء أكبر وأكثر انسجاما.

399. الاكتفاء.

يتجلى نضج العقل، حين نبلغه، في كوننا لا نعود نزور الأماكن التي توجد فيها أزهار نادرة مختبئة بين أشواك وأدغال المعرفة، ونكتفي بالحديقة، بالغابة، بالمرج وبالحقل، ناظرين مليا إلى كم هي الحياة وجيزة فيما يخص النادر والمخالف للمألوف.

400. ميزة الحرمان.

الذي يحيا باستمرار وسط حرارة القلب وغناه وفي ما يشبه جو صيف الروح لا يستطيع أن يتخيل تلك القشعريرة، تلك النشوة التي تجتاح الطباع الشتوية حين تلامسها، استثناء، أشعة الحب والريح الدافئة التي تهب ذات نهار مشمس من أيام فبراير.

401. وصفة للمتألم.

هل تجد عبء الحياة ثقيلا جدا ؟ عليك إذن أن تضخم عبء حياتك. حين ينتهي الأمر بالمتألم إلى البحث عن نهر ليثي* الذي هو ظامئ إلى مياهه، يكون عليه أن يصير بطلا ليعثر عليه بكل تأكيد.

402. القاضي.

الذي ينفذ إلى المثل الأعلى لشخص آخر يصير قاضيه الذي لا يرحم، يكاد يصيرإحساسه بالخطأ.

403. فائدة التخلي الكبير.

إن أنفع ما في التخلي الكبير هو كونه يمنحنا كبرياء الفضيلة الذي بفضله نحصل، من أنفسنا، على كثير من التخليات الصغيرة.

404. كيف نضفي على الواجب بريقا.

إليك وسيلة تحويل واجبك البرونزي إلى واجب ذهبي في أعين الناس : اجعل ما تفي به دائما أكثر قليلا مما تعد به.

405. رجاء من الإنسان.

« اغفر لنا فضائلنا »ـ هذا ما ينبغي أن نطلبه من الناس.

406. المبدعون والمستهلكون.

يتصور كل مستهلك أن هم الشجرة كله كان هو الثمرة، ولكن الشجرة لم تكن تفكر إلا في البذرة. ـ ثمة يكمن الفرق بين كل المبدعين وكل المستهلكين.

407. مجد كل العظماء.

ما جدوى العبقري إن لم ينقل إلى كل من يتأمله ويبجله حرية وسموا في الإحساس يجعلانه يستغني عن العبقري ! يكمن مجد العظماء في جعل أنفسهم غير ضروريين.

408. الهبوط إلى الحادس Hadès.

أنا أيضا قد نزلت إلى مثوى الأموات، مثل عوليس، وسأعود لزيارته مرات ومرات، وإني لم أقدم بعض الأكباش فقط، بل قدمت دمي قربانا كذلك، لكي أتمكن من محادثة بعض الأموات، وقد استجاب لي أربعة أزواج : أبيقور ومونطيني، غوته وسبينوزا، أفلاطون وروسو، باسكال وشوبنهاور. هؤلاء هم من يجب أن أقدم لهم تبريرا لما أفعله حين أتمشى لوحدي مدة طويلة، هم من أنوي أن يحكموا لي بأني على صواب أو على خطأ، هم من أريد أن أسمعهم حين يقولون لبعضهم أنت على صواب أو أنت على خطأ. مهما يكن ما أقوله، ما أجد له حلا، ما أتخيله بشأني وبشأن الآخرين، فإني أوجه أنظاري إلى هؤلاء وأرى أنظارهم موجهة إلي. ــ وليغفر لي الأحياء إن كانوا أحيانا يبدون لي وكأنهم ظلال ممتقعة اللون وهائجة، ويا للأسف ! شديدة الطمع في الحياة، بينما يبدو لي أولئك مفعمين بالحياة وكأنهم لن يتعبوا الآن، بعد أن ماتوا، من الحياة أبدا. إن ما يهم، والحالة هذه، هو الخلود المعمر : فما جدوى «الحياة الأبدية » وما جدوى الحياة إجمالا !

الكتـاب الثـاني
المسـافــر وظلــه

الظل : بما أني لم أسمع صوتك منذ أمد طويل فإني أود أن أمنحك فرصة للكلام.

المسـافر : إني أسمـع كلاما... لكـن أين ؟ ومن المتكلم ؟ أكاد أخـالني أنا المتكلم، لكن بصوت أضعف من صوتي.

الظل (بعد برهة) : ألا يسرك أن تتاح لك فرصة للكلام ؟

المسافر : عجبا، إن ظلي يتكلم. إني أسمعه ولا أستطيع تصديق ذلك.

الظل : فلنسلم بذلك. وفي غضون ساعة يكون كل شيء قد انتهى.

المسافر : هذا ما قلتـه في نفسي، في غابة قرب Pise، يوم أبصرت جملين في بداية الأمر ثم خمسة جمال بعد ذلك.

الظل : من الأحسن أن نكـون متسـامـحين مع بـعضنا البـعض لو حـدث وخـاننا صوابنا : وبـذلك لن نغضب من بعـضنا ونحن نتمـازح، ولن يضغط احدنا عـلى إبهام الآخر لو حـدث وكان كلامـه غيـر مفهـوم له. حين لا نستطيع تقـديم الجواب المناسب فسـيكفينا أن نقـول : تعتـبر مـحادثتي لشـخص ما شـرطا عادلا، ولو طال الحوار قـليلا فسيظهر خلاله أشد الناس حكمة بمظهر المعتوه مرة وبمظهر الأبله ثلاث مرات .

المسافر : إن تواضعك لا يجامل الذي تصرح له به.

الظل : هل علي أن أكون مجاملا إذن ؟

المسـافر: كنت أتصـور أن ظل الإنسـان هو غروره، ولـكن غروره لن يسـأل :« هل علي أن أكون مجاملا إذن ؟»

الظل : غرور الإنسان لا يسأل، حسب علمي، كما فعلت أنا مرتين، عما إذا كان يمكنه التكلم: إنه يتكلم دائما.

المسافر : الآن تنبهت إلى قلة لطفي معك ياظلي العزيز : ولم أجد بعد ولو كلمة واحدة أعبر بها عن مدى سعادتي بسماعك عوض مجرد رؤيتك. لا شك أنك تعلم أني أحب الظل حبي للنور. فالظل ضروري مثل النور لجمال الوجه، لوضوح الخطاب، لطيبة الطبع وقوته. إنهما ليسا خصمين : بل يمسكان بيد بعضهما بمودة، وحين يختفي النور يقتفي أثره الظلام.

الظل : وأكره هذا الذي تكرهه أنت، أعني الليل. أحب الناس لأنهم مريدو النور، وأستمتع بالبريق الذي يشع في عيونهم حين يعرفون ويكتشفون، دون أن يكلوا من المعرفة والإكتشاف. كما أنني أنا ذلك الظل الذي يكون للأشياء حين يسطع عليها شعاع شمس المعرفة.

المسافر : أعتقد أنني فهمتك، وإن كنت قد عتمت شيئا ما ما قد قلته. إنك على حق : الأصدقاء الجيدون يتبادلون من حين لآخر، باعتبار ذلك دليل ذكاء، كلاما غامضا يكون لغزا بالنسبة للآخرين. نحن صديقان جيدان، لذلك كفانا مقدمات ! إن بضع مآت من المسائل تراودني، وربما تكون إجابتك عنها قصيرة جدا. فلننظر ما سنتباحث بشأنه في عجلة وهدوء.

الظل : الظلال أشد خجلا من الناس، فلا تطلعن أحدا على محاورتنا.

المسافر : على محاورتنا ؟ لتحفظني السماء من محاورات تنشر كما هي على الورق ! لو أن أفلاطون وجد متعة أقل في نشر محاوراته لاستمتع بها القراء أكثر. الحديث الذي نلتذ به في الواقع يصير، بمجرد ما نكتبه ويقرأ، لوحة تملأها منظورات خاطئة : كل شيء فيها إما طويل جدا أو قصير جدا. ـ ولكن ربما تسمح لي بالتحدث عن الأشياء التي وصلنا بشأنها إلى اتفاق ؟

الظل : هذا يناسبني، لأن الناس سيرون فيها أفكارك أنت فقط : أما الظل، فلن يخطر على بالهم.

المسافر : قد تكون مخطئا أيها الصديق ! فقد رأى الناس في أفكاري، حتى الآن، الظل أكثر مما رأوني أنا.

الظل : رأوا الظل أكثر مما رأوا النور؟و هل هذا ممكن؟

المسافر : كن جديا يا عزيزي المزاح ! فمسألتي الأولى تتطلب الجدية.

1. عن شجرة المعرفة.

هناك تشابه وليس هناك حقيقة، هناك شبيه الحرية وليست هناك حرية، هاتان الثمرتان هما ما يحول دون الخلط بين شجرة المعرفة وشجرة الحياة.

2. عقل العالم.

يمكننا البرهنة نهائيا على أن العالم ليس جوهر عقلية أزلية (rationalité éter-nelle) بكون هذا الجزء من العالم الذي نعرفه ـ أعني عقلنا البشري ـ ليس عاقلا جدا. وإذا لم يكن حكيما ومنطقيا باستمرار وبشكل تام فإن باقي العالم لن يكون كذلك أيضا : البرهنة على الأكبر إنطلاقا من الأصغر، وعلى الكل انطلاقا من الجزء صحيحة هنا، وقوة صحتها مقنعة جدا.

3. « في البدء كان.»

تمجيد الخلق (Genèse) هو البرعم الميتافزيقي الذي يعاود الظهور حين نتأمل التاريخ ويحملنا على الإعتقاد فعلا أن في بدء كل شيء نجد أنفس الأشياء وأكثرها جوهرية.

4. قياس قيمة الحقيقة.

العناء الذي نلقاه عند تسلق الجبال لا يمكن أن يصلح قياسا لعلو تلك الجبال. لكن الأمر بخلاف ذلك في العلم! ـ يقول بعض من يعتبرون أنفسهم خبراء ـ، فالعناء الذي نتجشمه من أجل الحقيقة سيقرر بالضبط قيمة الحقيقة! مصدر هذه الأخلاقية المعتوهة هي فكرة كون « الحقائق » مجرد أجهزة رياضية علينا أن نتمرن عليها ببطولة حتى ينال منا التعب، ـ إنها أخلاقية تخص الرياضيين وأبطال العقل.

5. استعمال اللغة والواقع.

هناك ازدراء مصطنع لكل الأشياء التي ينظر إليها الناس بأشد ما يمكن من الجدية، ازدراء لكل الأشياء اللصيقة بالحياة. يقولون مثلا :« نأكل لنعيش» - إنها كذبة لعينة، مثل ذلك الذي يتحدث عن الإنجاب كما لو كان هو الهدف الحقيقي من وراء كل شهوة حسية. وعلى عكس ذلك يكاد التقدير الكبير لـ« الأشياء المهمة » لا يكون صادقا أبدا : لا شك أن القساوسة والميتافزيقيين قد عودونا في هذه الميادين على استعمال للغة يتسم بغلو فيه نفاق، إلا أنهم لم يقلبوا رأسا على عقب ذلك الإحساس الذي ينظر إلى هذه الأشياء المهمة بجدية أقل من التي ينظر بها إلى الأشياء اللصيقة بالحياة المزدراة. من العواقب المحزنة لهذا النفاق المزدوج تجنب الناس اتخاذ هذه الأشياء اللصيقة بالحياة، مثل الغذاء، السكن، الملبس، والعلاقات الاجتماعية، موضوعا لتأمل وإصلاح دائمين، غير متحيزين وشاملين، بل على العكس، وبما أن ذلك يعتبر مهينا،فهم يصرفون عنها اهتمامهم الفكري والفني، بحيث أن العادة والطيش يحققان نصرا سهلا على الطائشين ، خاصة على الشباب عديمي التجربة، في الوقت الذي تجعلنا فيه خروقاتنا المستمرة لأبسط قوانين الجسد والعقل، كلنا، شيبا وشبابا، في تبعية وعبودية مخزية ـ أعني تبعيتنا غير المجدية للأطباء والأساتذة ومديري الوعي الذين مايزالون يمارسون ضغطهم على المجتمع كله.

6. علة العجز الأرضي الكبرى.

إننا نجد دائما ، حين ننظر حولنا، أناسا قد تناولوا البيض طيلة حياتهم دون أن يتنبهوا إلى أن البيض الطويل الشكل هو الألذ، ولا يعرفون أنه يكون للعاصفة أثر جيد على الأمعاء، أن رائحة العطر تكون أقوى في الجو البارد والصحو، أن حاسة الذوق تختلف داخل فمنا من نقطة لأخرى، أن كل وجبة تحدثنا خلال تناولها كثيرا أو استمعنا كثيرا تضر بالمعدة. قد لا تشفي غليلكم هذه الأمثلة عن ضعف حس الملاحظة، ولكنكم قد تقبلون اعتبار أغلب الناس لا يرون جيدا الأشياء التي تعنيهم ونادرا ما يلاحظونها. وهل هذا شيء غير مهم ؟ هذا العيب هو الذي تترتب عنه تقريبا كل العاهات الجسدية والمعنوية لدى الناس وهي: عدم معرفتهم لما ينفعهم أو يضرهم في تنظيم حياتهم، في تقسيم الأيام، في معاشرتهم للناس وفي اختيار من يعاشرون، في العمل و وقت الفراغ، في الأمر و الطاعة، في الإحساس الذي تثيره الطبيعة والأحاسيس التي يثيرها الفن، في الغذاء والنوم، و التفكير. الجهل بالأمور اليومية التافهة وعدم امتلاك عينين تبصران جيدا هو ما يجعل من الأرض، بالنسبة لكثير من الناس، « حقلا من التعاسة ». لا نقولن أن

المذنب هنا، كما في كل شيء، هي اللامعقولية الإنسانية : على العكس من ذلك هناك ما يفوق الكفاية من العقل، ولكننا نوجهه وجهة خاطئة، تتكلف تحويلة عن هذه الأشياء التافهة الحميمة للغاية. فالقساوسة والأساتذه واستبداد المثاليين الرائع، بما فيهم الأفظاظ والرقيقون، يقنعون الطفل بأن المهم شيء أخر : هو خلاص الروح، خدمة الدولة و تقدم العلم أو الإعتبار والثروة، وهي وسائل لخدمة الإنسانية بأسرها، أما حاجات الفرد وهمومه طيلة اليوم وطلية الأربع وعشرين ساعة فهي محتقرة وغير مهمة. ـ لقد كان سقراط يقاوم بكل قواه هذا الإهمال المتعجرف للأمور الإنسانية لفائدة الإنسان، وكان يحب، مستشهدا بهوميروس، أن يذكر بالمدى الحقيقي وبجوهر كل الهموم والأفكار : هذا، كان يقول، « هو ما يحدث لي في بيتي من خير وشر ».

7. عـزاءان.

كان أبيقور، الذي منح طمأنينة النفس للقدم الآيل للنهاية، يملك تلك المعرفة الرائعة، النادرة الوجود في وقتنا الحاضر، بأن حل المشاكل العويصة والنظرية ليس ضروريا لطمأنينة القلب. وهكذا كان يكفيه أن يقول للذين يعذبهم « الخوف من الآلهة » : « إن كانت هناك آلهة فهي لا تهتم بنا »، عوض أن يدخل معهم في جدال عقيم حول معرفة ما إن كانت هناك آلهة أم لا. هذا الوضع إيجابي وقوي: ندع الآخر يسبقنا بضع خطوات لنجعله بذلك مهيأ أكثر للإستماع والموافقة. وإن استعد للبرهنة على العكس : على أن الآلهة تهتم بنا، فإن المسكين سيوقع نفسه حتما في متاهة وأدغال شائكة، دون أن يكيد له محدثه الذي عليه فقط أن يبدو إنسانيا ولبقا بما يكفي لإخفاء شفقته أمام هذا المشهد. وفي نهاية المطاف يصل هذا الآخر إلى الإشمئزاز، الذي هو الحجة الأقوى ضد كل أطروحة، من إقراره، ثم يتابع وقد فتر حماسه، مثل الملحد الخالص :« ما جدوى الآلهة، فعلا! فلتذهب إلى الجحيم! » ـ في حالات أخرى، وخاصة حين تُظلم الروح بسبب فرضية تجمع بين المادية والأخلاقية، فإنه لم يكن يدحض تلك الفرضية بل يسلم بأن الأمر قد يكون كذلك، ثم يضيف بأن هناك فرضية ثانية لتفسير نفس الظاهرة، وهي أن الأمور قد تجري بخلاف ذلك أيضا. مايزال تعدد الفرضيات، بخصوص أصل تبكيت الضمير مثلا، صالحا حتى في وقتنا الحاضر لتخليص الروح من ذلك الظل الذي ينشأ من اجترار فرضية واحدة مفهومة هي فقط ومبالغ في تقدير قيمتها أضعافا مضاعفة. فليتذكرمن يرغب في مواساة التعساء، الأشرار، المرضى بالوهم، والمحتضرين، صيغتي أبيقور التي تنطبق على كثير من القضايا. وأبسط صياغة لها قد تكون : أولا، إن افترضنا أن الأمر هكذا فإنه لا يعنينا في شيء، ثم، قد يكون الأمر هكذا، ولكن قد يكون بخلاف هذا أيضا.

8. أثناء الليل.

بمجرد ما يرخي الليل سدوله على الكون يتغير إحساسنا بالأشياء التي حولنا. فها هي الريح تدور، كما في مسارب خفية، وكأنها تبحث عن شيء ما، غاضبة من عدم العثور عليه. وها هو ضوء المصباح ببريقه المضطرب،بنظرته المنهكة، يقاوم الليل على مضض، هذا الليل المتلهف إلى ساهره تلهف العبد إلى سيده. ها هو تنفس النائم وإيقاعه المرعب الذي يبدو أن الإيقاع يُعزف عليه هماً يعود باستمرار، ـ إننا لا نسمعه، ولكن حين يرتفع صدر النائم نشعر بانقباض في قلبنا، وحين يخفت نفسه ويكاد يختفي في صمت الموت نقول لأنفسنا :« استريحي قليلا، أيتها الروح المعذبة !» ـ نتمنى الراحة الأبدية لكل الناس مادامو يعانون من هذا الإرهاق، فالليل يوحي بالموت. ـ أية فلسفة كانت ستشمل الناس بخمارها لو كان عليهم أن يحرموا من الشمس ويقاوموا الليل فقط بضوء القمر وبالقناديل ! فسنرى جيدا إذا تأملنا طبيعة الإنسان الفكرية والنفسية إلى أي حد قد عتمها كلية نصف الظلام والحرمان من الشمس الذي تتلفع به الحياة.

9. من ابتكر عقيدة حرية الإختيار.

يسيطر اللزوم على الواحد متخذا شكل أهوائه، ويخضع الثاني من خلال عادة السمع والطاعة، وبالنسبة للثالث يكون هو وعيه المنطقي، أما الرابع فيتخذ صورة نزوته، صورة رغبته النزقة في كل الإنحرافات. والحالة هذه فإن كل واحد من هذه النماذج الأربعة يبحث بالضبط عن حرية إرادته هناك حيث هو مقيد بقيود متينة : إنه كما لو كانت دودة القز تسعى لنيل حريتها من خلال نسج شرنقتها. فما سبب هذا ؟ من الواضح أن سببه هو كون كل واحد منهم يعتقد نفسه أكثر حرية حين يكون إحساسه بالحياة قويا جدا، أي، كما رأينا، تارة في الهوى و تارة في الواجب و في المعرفة وتارة أخيرة في النزوة. يظن الفرد تلقائيا أن ما يقويه ويجعله يشعر بأنه ممتلئ حيوية يكون بالضرورة عنصر حريته كذلك: إنه يربط بين التبعية وفقدان الحس، بين الاستقلالية وحس الحياة، كأزواج لازمة. ـ نرى هنا تجربة قام بها الإنسان في السياسة والمجتمع وقد نقلت خطأ إلى ميدان الميتافزيقا الأكثر تجريدا : هنا يكون الإنسان القوي إنسانا حرا كذلك، هنا تكون مشاعر الفرحة والألم القوية، وعلو الطموح، وجسارة الرغبات، وقوة الكره، وقفا على المهيمنين والمستقلين، أما الإنسان الخاضع، العبد، فيعيش حياة مضطهدة ولا حس فيها. ـ حرية الإختيار عقيدة ابتكرتها الطبقات المهيمنة.

10. عدم الإحساس بالقيود الجديدة.

مادمنا لا نشعر بالتبعية لأي شيء كان فإننا نعتبر أنفسنا مستقلين : إنها مغالطة منطقية تكشف كم هو الإنسان متكبر ومستبد. فهو يسلم هنا بأنه، في كل الأحوال، سيلاحظ تبعيته ويعرفها بمجرد ما يقع فيها، ومسلمته هي كونه يحيا عادة في استقلالية وسيشعر على الفور بتناقض في مشاعره لو حدث استثناء أن فقدها، ولكن ماذا لو كان العكس هو الصحيح، أي يعرف أنه يحيا باستمرار في تبعية متعددة الأشكال لكنه يعتبر نفسه حرا حين يكف عن الإحساس بضغط قيوده بفعل طول الاعتياد ؟ وإن كان مازال يعاني فمن قيوده الجديدة: « حرية الإختيار » لا تعني شيئا آخر غير عدم الإحساس بالقيود الجديدة.

11. حرية الإختيار وعزل الوقائع.

يعتبر إدراكنا العادي وغير الدقيق مجموعة من الظواهر وحدةً ويسميها واقعة، ويضيف خياله فضاء فارغا بين هذه الواقعة وواقعة أخرى ليفصل بينهما. ليست الأفعال التي نقوم بها والمعارف التي نكتسبها، متواليات من الوقائع والفواصل الفارغة، بل سيلا لا ينقطع. والحالة هذه فإن الإيمان بحرية الإختيار لا يقبل التوافق مع تمثل سيل متتابع في وحدة لا تقبل التقسيم أو التجزيء: إنها تفترض أن كل فعل منفصل هو فعل منعزل ولا يتجزأ، إنها ذَرية (atomisme)* في مجال الإرادة والمعرفة. إننا نفهم الوقائع مثلما نفهم الطباع، بشكل غير دقيق، فنتحدث عن الطباع المتماثلة وعن الوقائع المتماثلة : إنه شيء لا وجود له. ومع ذلك فإننا لا نمدح ولا نذم إلا بموجب هذه المسلمة الخاطئة التي تقول بأن هناك وقائع متماثلة، وأن هناك نظاما تراتبيا من أصناف الوقائع يقابله نظام تراتبي من القيم، إذن فنحن لا نعزل الوقائع واحدة واحدة فقط، بل كذلك مجموعات الوقائع التي نزعم أنها متماثلة (كالأفعال الحسنة والقبيحة، التي فيها شفقة أو حسد، إلخ.) مرتكبين في كلتا الحالتين خطأ. ــ الكلمة والتصور (con-cept) هما السبب الواضح الذي يجعلنا نؤمن بكون مجموعات الأفعال هذه منعزلة: إنهما لا يصلحان فقط لتسمية الأشياء، بل إننا نتصور أنهما يجسدان حقيقة هذه الأشياء. لازالت الأسماء والتصورات الآن أيضا تجعلنا باستمرار نتصور الأشياء أبسط مما هي، معزولة بعضها عن بعض، لا تتجزأ، كل واحدة موجودة في ذاتها ولذاتها. هناك في اللغة ميثولوجيا فلسفية خفية تظهر ويتجدد ظهورها في كل لحظة، مهما احترسنا. اللغة هي التي تبشر بالإيمان بحرية الإرادة، أي بحرية الوقائع المتماثلة والوقائع المنعزلة، وتدافع عنه باستماتة.

12. الأخطاء الأساسية.

لكي يشعر الإنسان بالانشراح أو بالإشمئزاز لا بد أن يهيمن عليه أحد الوهمين التاليين : إما وهم الإعتقاد في تماثل بعض الوقائع والأحاسيس، وحينها ستجعله مقارنة أوضاعه الحالية بأوضاع سالفة، التي سيؤكد أنها متشابهة أو مختلفة (وهو ما يحدث عند كل استذكار)، يشعر بانشراح أو باشمئزاز، وإما وهم الاعتقاد في حرية الإختيار حين يقول لنفسه :« ما كان علي أن أفعل هذا »، « ربما كانت الأمور ستجري بخلاف ما جرت عليه »، ويجد في ذلك أيضا شعورا بالانشراح أو بالإشمئزاز. لولا هذه الأخطاء التي تصنع كل انشراح أو اشمئزاز يشعر به الإنسان لما وُجدت الإنسانية قط، ـ مع هذا الإحساس الأساسي بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الحر في عالم التبعية و هو صانع المعجزات الأزلي، سواء أحسن أم أساء، هو الاستثناء الخارق، هو ما فوق الحيوان، هو الشبيه بالإله، هو معنى الخلق، الحضور الذي لا غنى عنه، هو حل اللغز الكوني، هو سيد الطبيعة و مزدريها، و الكائن الذي يسمي تاريخه الخاص تاريخ الكون ! الإ نسان المتبجح في غرور.

13. تكرار القول مرتين.

من الأفضل أن نكرر قول الشيء مرتين ونمنحه بذلك رجلا يمنى وأخرى يسرى. ولا شك أن الحقيقة تستطيع الوقوف على رجل واحدة، ولكنها على رجلين ستمشي وتشق طريقها.

14. الإنسان ممثل العالم الهزلي.

يستلزم الأمر كائنات أكثر روحانية من الناس لتتذوق الهزل الذي نجده في كون الإنسان يعتبر نفسه الغاية من وجود العالم وكون الإنسانية، وبجدية كبيرة، لا ترضى إلا إذا كانت مهمتها عالمية. إن كان الإله هو من خلق العالم فإنه قد جعل من الإنسان قردا، خلقه وسيلة سرمدية للتسلية، ولا شك أن موسيقى الأفلاك حول الأرض ستكون هي القهقهات الساخرة الصادرة عن الحيوانات المحيطة بالإنسان. هذا السرمدي الملول يدغدغ حيوانه المفضل بواسطة الألم ليتسلى في افتخار مأساوي بالمواقف والتأويلات التأويلات التي تلهمها إياه معاناة هذا الحيوان، ليتسلى بالإبتكار المميز لعقل أشد مخلوقاته غرورا... باعتباره هو مبتكر هذا المبتكر. الرب الذي تخيل الإنسان فخلقه ليتلاعب به نبيه أكثر من الإنسان، كما أنه يجد لذة أكثر في كونه نبيها. ولكن حين تقبل إنسانيتنا أن تهان طواعية فإن غرورنا هو من يحتال علينا بخبث إذ يجعلنا نريد أن

نكون شيئا خارقا ودون نظير.إنه من غير المحتمل، مع الأسف، أن يكون وضعنا فريدا في هذا العالم ! فعلماء الفلك، الذين تتاح لهم فرصة الاستمتاع بأفق أبعد من الأرض أحيانا، يخبروننا أن قطرة الحياة هذه لا أهمية لها وسط الخاصية العامة لمحيط الصيرورة والفناء الهائل، بأن كواكب كثيرة تعرف ظروفا مشابهة لظروف الارض الملائمة لنشأة الحياة، وهو ما يجعل عددها كبيرا، ولكنه يبقى ضئيلا اذا ما قورن مع عدد لا يحصى من الكواكب التي لم تعرف آفة الحياة أبدا أو شفيت منها منذ أمد طويل، بان الحياة على كل واحد من هذه الكواكب، إذا ما قورنت مع عمره، لم تمثل سوى لحظة، بارقة قصيرة جدا تتلوها فترات زمنية طويلة وطويلة جدا – ، إنها لم تكن إذن هي الهدف والغاية الاخيرة من وراء وجودها. ربما تتصور النملة داخل الغابة نفسها على انها هدف الغابة وغايتها الاخيرة بنفس القوة التي نربط بها بشبه تلقائية، في خيالنا، بين نهاية الانسانية ونهاية الارض، بل إننا نكون متواضعين إذا توقفنا عند هذا الحد ولم نتصور أن جنازة الإنسان الأخير سيصاحبها انحطاط العالم والآلهة الشامل. ان الفلكي الاقل انحيازا لن يشعر كثيرا بالارض وهي خالية من الحياة الا كقبر الإنسانية اللامع الدائرة في فلكه.

15. تواضع الانسان

كم يكفي أغلب الناس قليل من المتعة ليجدوا الحياة جميلة، كم هو الانسان متواضع !

16. ما يجعل اللا مبالاة ضرورية

من الخطإ أن ننتظر ما سيحسم به العلم يوما في شأن المسلمات الأولية والنهائية وأن نظل نفكر (ونؤمن بالخصوص) حتى ذلك اليوم بطريقة تقليدية، مثلما ينصحوننا به في الغالب. الميل الى الاحتفاظ في هذا الميدان باليقينيات فقط هو من مخلفات الغريزة الدينية،لا غير، بل هو نوع خفي وشكوكي، في ظاهره فقط، من «الحاجة الميتافزيقية»، تصاحبه بالفكرة المبطنة القائلة أنه لن يكون هناك على المدى الطويل أي أمل في اكتشاف هذه اليقينيات النهائية وان «المؤمن» قد كان، حتى الان، على حق في عدم اهتمامه بتاتا بهذا الميدان. إننا لا نحتاج بتاتا الى هذه اليقينيات في أفقنا البعيد لنعيش إنسانيتنا كاملة وبشكل صحيح، مثلما لا تحتاجها النملة لتكون نملة صالحة. يجب بالاحرى ان نتنبه الى مصدر هذه الاهمية التي عادة ما أوليناها لهذه الأشياء، ولأجل ذلك نحتاج الى تاريخ الاحاسيس الاخلاقية والدينية. لأن تأثير هذه الأحاسيس وحده هو الذي جعل هذه القضايا مهمة جدا ومرهوبة الجانب في فجر الثقافة : لقد حمل

الناس إلى تلك المناطق القديمة، التي لايزال نظر الأذكياء يبلغها ولكن دون أن ينفذ إليها، حملوا إليها مفاهيم مثل مفهومي الخطأ والعقاب (مفهوم العقاب الأبدي!)، وذلك بتهور يوازي غموض تلك المناطق. لقد حلم الناس عبر كل العصور بجسارة هناك حيث لا يمكن إثبات أي شيء يقيني وأقنعوا ابناءهم بأخذ أحلام اليقظة تلك مأخذ الجد واعتبارها حقيقة صحبة وسيلة النجاح الكريهة هذه : الإيمان أفضل من المعرفة. والحالة أن ما يتطلبه الأمر الآن تجاه هذه الغايات ليس هو المعرفة مقابل الإيمان بل اللامبالاة بالإيمان وبالمعرفة المزعومة في هذه الميادين! ـ يجب أن يشغلنا أمر آخر غيرما لقنوه لنا حتى الآن باعتباره هو الأهم، أعني الأسئلة من هذا النوع : ما هي نهاية الإنسان ؟ ما هو مصيره بعد الموت ؟ كيف سيتصالح مع الله ؟ وغرابات أخرى من هذا الشكل. ومثل أسئلة رجال الدين لا تعنينا أسئلة الفلاسفة الوثوقيين سواء كانوا مثاليين أم ماديين أم واقعيين. كلهم يحاولون، بما هم كذلك، دفعنا إلى اتخاذ قرار في تلك المجالات التي لا ضرورة فيها للإيمان ولا للمعرفة. حتى بالنسبة لخدام المعرفة المتحمسين يكون مفيدا جدا أن يحاط كل المجال القابل للإكتشاف من طرف العلم، والذي هو في متناوله، بحزام من المستنقعات ومن الضباب الغرار، بمنطقة من الأمواج التي لا يمكن اختراقها وتحديدها، التي لا تكف عن التموج. مقارنة مع مملكة الظلام داخل حدود أرض المعرفة نجد أن عالم المعرفة الصافي والأقرب إلينا لا يفتأ يزداد قيمة. ـ علينا أن نعود مرة أخرى جيرانا صالحين للأشياء الأقرب إلينا ولا ندع نظرنا يرمقها بازدراء ليتجاوزها ويستقر على عراصات الليل ووحوشه. لقد عاش الإنسان زمنا طويلا، وعاش في بؤس، في الغابات والكهوف، في الأراضي ذات المستنقعات وتحت السماء الغائمة، مثلما عاش مستويات كثيرة من الحضارة طيلة ألفيات. هناك تعلم أن يحتقر الحاضر، قرب الأشياء منه، والحياة ذاتها ـ ولانزال حتى الآن، نحن سكان مناطق الطبيعة والعقل الأكثر تنورا، بفعل الوراثة، نتلقى في دمنا شيئا من هذا السم الذي هو احتقار الأشياء القريبة جدا إلينا.

17. تفسيرات عميقة.

من يفسر فقرة ما بعمق أكثر من الذي صاغها به المؤلف سوف لن يكون قد سلط الضوء على المؤلف بل يكون قد عتمه. ذلك ما يفعل ميتافزيقيونا مع نص الطبيعة، بل يفعلون ما هو أسوأ. لأنه لكي يجعلوا لتفسيراتهم موضعا غالبا ما يبدأون بترتيب النص بهذا الشكل، أي يفسدونه. ولنعطي مثالا غريبا عن إفساد النص وتعتيم المؤلف دعونا نذكر هنا أفكار شوبنهاور بخصوص حمل النساء. يقول أن علامة وجود إرادة الحياة

في الزمن هي الجـماع، وأن علامـة كون نور المعـرفة قـد اقتـرن من جديد بإرادة الحـياة هذه، صار منفتحا على إمكانية الخـلاص، وذلك بأقصى درجات الوضوح، هي تجسيد متكرر لإرادة الحياة. الدليل على هذا التجسيد هو الحمل الذي يعلن عن نفسه بصراحة وحرية، بل بافـتخار، بينما الجـماع يتلبد كمـجرم. يؤكد شوبنهـاور أن أية امرأة، إذا ما فوجئت وهي في حالة مضاجعة، قـد تموت خجلا، ولكنها «تظهر حملها بشكل جلي وبلا خجل، بـل وبنوع من الفخر». قـبل كل شيء، ليس من السهـل الإعلان عن هذه الحالـة بشكل أكثـر جلاء مما تفـعله هي ذاتها، ولكن شـوبنهاور، بإبرازه فـقط لقصـدية العرض، يرتب نصه بـحيث يقبل «التفسـير» الجاهز. ثم، إن ما يقوله عـن عالمية الظاهرة المتعين تفـسيرها ليس صـحيحـا: إنه يتحدث عن «أية امـرأة»، ولكـن كثيـرا من النساء، والشـابات بالخصـوص، غالبا مـا يبدين فـي هذه الحالة،خـاصة أمام أقـاربهن، انزعـاجا محتشما، وإن كان صحيحا أن النساء الناضجات، خاصة نساء العامة، يجدن في تلك الحـالة فخـراً، فـإنهن يهدفـن من وراء ذلك إلى التدليـل على أن رغبـة أزواجـهن فيـهن لازالت لـم تنطفئ. وإذا مـا رآهن جـار أو جـارة أو أحـد المارة قـالوا أو فكروا :«هل من الممكن...»، ودائمـا يقـبل هذه الصـدقة غـرور النسـاء المتـجـانس مع مسـتـوى فكري منخـفض. حسب مـا يمكننا استنتـاجه من أطروحـات شوبنهـاور فإن النسـاء الرقيـقات والذكيـات، على العكس، هن اللواتي سيـستقبلن حـالة الحمل بأكبـر علامات الفـرحة أمـام الناس، مـادام سـيكون لهن وحـدهن حظ إنجـاب طفـل آية في الذكـاء قـد «تنفي الإرادة نفسـها» لديه لصـالح الكل، ويكون للبليـدات كل الحق، في المقابل، في إخـفاء حملهن بحياء أكثر من كل الأشياء الأخرى التي يخفينها. ـ لا يمكننا أن نقول أن هذه الأشـياء مـأخوذة مـن الواقع. حتى وإن افتـرضنا أن شوبنهـاور على حق، بشكل عـام، بخصوص كون النساء في فترة الحمل يظهرن الإعجاب بأنفسهن أكثر منه في الأوقات العادية، فإنه سـيكون هناك تفسير أبسط من تفسـيره. إننا نستطيع تصور قوقـأة دجاجة قبل وضعها البيضة وكـأنها تريد القول : انظروا، انظروا! إني سأضع بيضة! إني سأضع بيضة!

18. ديوجين الحديث.

قبل البحث عن الرجل علينا أن نجد المصباح. فهل يجب أن يكون مصباح الكلبي؟

19. لا أخلاقيون.

على الأخـلاقيين الآن أن يقـبلوا نعتنا إياهـم باللاأخلاقـيين، نظرا لكونهم يُشـرحون الأخلاق. والحـال أن من يريد التشريح عليـه أن يقتل في سبـيل غاية وحيـدة هي تحسن

المعرفة والحكم (jugement) والحياة، وليس لكي يباشر كل الناس التشريح. يعتقد الناس دائما، لسوء الحظ، أنه على كل أخلاقي أن يكون، من خلال سلوكه كله، نموذجا يجب على الآخرين أن يحتذوا به، إنهم يخلطون بينه وبين الداعية إلى الأخلاق. كان الأخلاقيون القدماء يعظون أكثر مما يُشرحون، وهذا هو ما جعل أخلاقيي الوقت الحاضر يقعون في هذا اللبس وهذه النتيجة غير السارة.

20. لا ينبغي الخلط بينهما.

الأخلاقيون الذين يبحثون المشاكل الصعبة في المعرفة مثل العظمة والقوة ونكران الذات، مثلا لدى أبطال بلوتارك، أو الحالة المعنوية الخالصة، المنورة والودية لدى الرجال والنساء الطيبين حقا، ويبحثون عن أصلها مظهرين التعقيد الذي في بساطتها الظاهرة ومثيرين الإنتباه إلى تشابك الدوافع، إلى الأوهام الفكرية المحبوكة بدقة، إلى الأحاسيس الفردية والجماعية الموروثة منذ زمن طويل والتي تم تكثيفها ببطء، هؤلاء الأخلاقيون يختلفون أشد الإختلاف عن الأخلاقيين الآخرين الذين يظن الناس أنهم مثلهم، أولئك الحقيرين الذين لا يؤمنون البتة بطرق التفكير والحالات المعنوية التي كنا بصدد الحديث عنها، والذين يتخيلون أن تحت بريق عظمتها وصفائها يستتر بؤسها. يقول الأخلاقيون : « هذه قضايا »، ويقول هؤلاء البؤساء : « هذا خداع وهؤلاء خداعون »، إنهم ينكرون إذن وجود ذلك الشيء الذي يثابرون على تفسيره.

21. الإنسان هو الكائن الذي يقيس الأشياء.

ربما يكون أصل أخلاقية الناس كلها هو ذلك الشعور الداخلي الخارق الذي غمر البدائيين حين اكتشفوا القياس وفنه، الميزان وفن الوزن (فكلمة إنسان تعني فعلا ذلك الذي يقيس، لقد أراد أن يتسمى حسب اكتشافه الكبير!) وبمعونة هذه المفاهيم ارتفع إلى مناطق لا يطالها أي قياس وأي وزن، ولكنها لم تكن تبدو كذلك في الأصل.

22. مبدأ التوازن.

يبدو أن سيد الجماعة القوي الذي يعدها بأن يحميها من قاطع الطريق يشبه هذا الأخير في جوهره، خلا كون الأول يضمن امتيازه بخلاف ما يضمنه به الثاني، أي من خلال الإتاوات المنتظمة التي تؤديها له الجماعة وليس من خلال النهب. (إنها نفس العلاقة الموجودة بين التاجر والقرصان اللذين يشكلان، ولمدة طويلة، شخصا واحدا: حين لا يمارس التجارة فإنه يمارس النهب والعكس. في الواقع، ليست الأخلاق التجارية كلها اليوم سوى صيغة ملطفة من أخلاق القراصنة: الشراء بأبخس ثمن ممكن أوالشراء

دون مقابل إن أمكن، ماعدا المصاريف العامة ـ والبيع بأعلى الأسعار.) فالأساسي هو كون هذا السيد القوي يعد بأن يوازن قاطع الطريق، إذ يرى الضعفاء في ذلك إمكانية الحياة . لأنه إما أن يتحدوا ويشكلوا قوة توازي قاطع الطريق أو يسلموا قيادهم لمن سيوازيه (خدمته مقابل الحماية التي يوفرها). ويفضل الناس الطريقة الأخيرة لأنها في الحقيقة تمنع شخصين خطيرين من العمل : السيد القوي يمنع قاطع الطريق، والربح المرتقب يمنع السيد القوي، ومن مصلحة هذا الأخير أن يعامل رعاياه بطريقة رحيمة أو مطاقة حتى يتمكنوا من إعالة أنفسهم وسيدهم. في الواقع، قد تجري الأمور بكثير من القسوة والوحشية ولكن الناس قد صاروا، مقارنة مع الإفناء الشامل الذي كان ممكنا في الماضي، يتنفسون الصعداء في ظل هذه الوضعية. ـ تكون الجماعة، في البداية، منظمة يتكتل فيها الضعفاء بغية موازاة قوى مهددة. وتكون المنظمة الرامية إلى التفوق مفضلة إن كانت ستوفر القوة الكافية لإبادة قوة الخصم دفعة واحدة، وذلك ما سيحاول أفرادها فعله بكل تأكيد إن كان الأمر يتعلق بمكتسح قوي ولكنه معزول.أما إذا كان قاطع الطريق هذا زعيم قبيلة أو إذا كان له أنصار كثيرون، فإن القضاء الجذري والسريع عليه يكون من غير المحتمل، وقد تدوم المقاومة البطولية. والحالة أن هذه المقاومة تجعل الجماعة في وضع هو أقل الأوضاع المرغوبة، وذلك لأنها تضيع فيه الوقت الذي عليها تخصيصه للحفاظ على حياتها بالانتظام الضروري، وترى فيه نتاج عملها كله مهددا في كل لحظة. كما تفضل الجماعة البلوغ بقوتها الدفاعية والهجومية تماما إلى مستوى قوة الجار الخطر وتفهمه أن هناك الآن في كفتها نفس الكمية من البرونز : فلم لا يكونان صديقين جديدين ؟ ـ التوازن إذن مفهوم مهم في نظرية الأخلاق والقانون القديمة، التوازن أساس العدل. إن قال العدل في عصور متوحشة :« العين بالعين، والسن بالسن» فلأنه يفترض أن التوازن متحقق ويريد الحفاظ عليه من خلال هذا الثأر بحيث أنه إذا ألحق زيد ضررا بعمر فإن هذا الأخير سوف لن ينتقم بضراوة عمياء. مقابل ذلك تعاد إقامة توازن علاقات القوى المضطربة بمقتضى شريعة الذحل (Jus Talionis)، لأن عينا أو ذراعا زائدين هما، في مثل تلك الأوضاع البدائية، جزء من القوة، وزن زائد. ـ داخل الجماعة التي يعتبر كل الأفراد أنفسهم متساوي القوة يوجد، ضد الجرائم، أي ضد خرق مبدأ التوازن، العار والعقاب، العار ثقل موازن يوضع في كفة الفرد الذي اغتصب ملكية ما وحصل بذلك على بعض الإمتيازات ولكنه، في المقابل، يعاني بفعل ذلك العار من أذية توازن الإمتيازات السابقة، بل تفوقها. كذلك الأمر بالنسبة للعقاب : إنه يضع في الميزان مقابل كل تفوق قد يمني به المجرم نفسه ثقلا موازنا أكبر بكثير، الزنزانة مقابل العنف، الغرامة وإرجاع المسروق مقابل السرقة.

وبذلك يتم تذكير المجرم أنه بفعلته تلك قد أخرج نفسه من الجماعة ومن امتيازات أخلاقها : إنها تعامله كشخص متلون وضعيف يبقي نفسه خارجها، لذلك لا يعتبر العقاب مجرد انتقام، إن فيه شيئا أكثر من ذلك، شيئا من قسوة حالة الفطرة، وتلك الحالة بالضبط هي ما يريد أن يذكر به.

23. هل لأنصار عقيدة حرية الإختيار الحق في المعاقبة؟

يسعى الذين يمتهنون المحاكمة والعقاب لأن يلاحظوا في كل حالة إن كان الجاني، على العموم مسؤولا عن فعلته، إن كان في وسعه استخدام عقله حينها، إن كان قد تصرف بسبب دوافع معينة وليس لا شعوريا أو تحت الإكراه. وإن عوقب فعلى تفضيله الأسباب غير الوجيهة على الأسباب الوجيهة التي قد عرفها. وحين لا تكون لدى الإنسان هذه المعرفة فإنه، حسب الرأي السائد، لا يكون حرا ولا مسؤولا، اللهم إلا إذا كان جهله، بالقانون مثلا، ناتجا عن إهماله المتعمد للإستعلام، ففي هذه الحالة يكون قد فضل الأسباب غير الوجيهة على الوجيهة منذ اللحظة التي رفض فيها تعلم ما كان يجب تعلمه، وعليه الآن أن يكفر عن عواقب سوء اختياره. أما إن لم يكن قد عرف الأسباب الوجيهة، بسبب البلادة أو الغباوة، فقد جرت العادة بأن لا يعاقب : إنه لم يوضع أمام اختيار، كما يقال، لقد تصرف بغباوة. إن ما يتم افتراضه الآن في حالة الجريمة التي تستحق العقاب هو تعمد الجاني نفي أفضل ما في عقله. ولكن كيف يمكن لشخص ما أن يكون لامعقولا أكثر مما يمكنه ؟ ومن أين يصدر القرار بكون الأسباب غير الوجيهة أو الوجيهة ترجح كفتي الميزان ؟ ليس من الخطأ، أي ليس من الغباوة، وليس من الإكراه الخارجي ولا من الإكراه الداخلي (ولتتفضلوا باعتبار أن كل إكراه يقال أنه « خارجي » ليس سوى إكراه داخلي ناجم عن الخوف والألم) فمن أين ؟ نتساءل ونعيد التساءل، ليس العقل إذن هو السبب مادام لا يستطيع معارضة الأسباب الوجيهة ؟ وها هم يطلبون عون « حرية الإختيار »: الإرادة المطلقة هي من ستقرر، ستأتي لحظة لن يكون فيها أي دافع وراء الفعل، وسيتم الفعل كمعجزة خارجة من العدم. إنهم يعاقبون هذا العسف المزعوم في حالة لا ينبغي أن تقبل فيها الإرادة المطلقة بتاتا : لا شك أن العقل الذي يعرف القانون والتحريم والتنبيه الرسمي قد تخلى عن الإختيار عمدا وتصرف كإكراه وقوة فوقية. سيعاقب المجرم إذن لأنه استخدم «حرية الإختيار»، أي لكونه تصرف دون أي دافع هناك حيث كان عليه أن يتصرف بدافع ما. ولكن لماذا فعل ذلك ؟ هذا هو بالضبط مالا يحق لنا أن نسأل عنه : لقد كان فعلا بلا «لماذا»، بلا دافع، بلا أصل، فعلا عاريا من الهدف و السبب. لكنه لا ينبغي، بمقتضى

الشرط الأول المتعلق بأية عقوبة،المذكور آنفا، معاقبة مثل هذا الفعل ! كما ليس لنا الحق في إقرار العقوبة الأخرى وكأنه لم يتم هنا ارتكاب أية جناية ولم يكن هناك أي إهمال، وكأن العقل لم يستخدم هنا، مادام الإهمال قد وقع في كل الحالات عن غير قصد ! وأن وحده الإهمال المتعمد للتنبيه الرسمي هو من يستحق العقاب. لا شك أن المجرم قد فضل الأسباب غير الوجيهة على الوجيهة ولكن دون سبب أو قصد، لا شك أنه لم يستخدم عقله ولكن ليس لكي لا يستخدمه. إن افتراضنا أن المجرم، في حالة الجريمة المستحقة للعقاب، قد تعمد نفي عقله، هو الإفتراض الذي يسقط إذا ما قبلنا «حرية الإختيار». ليس لكم الحق في أن تعاقبوا يا معشر أنصار عقيدة «حرية الإختيار»، مبادئكم تمنعكم! لكن هؤلاء الأنصار ليسوا في الواقع سوى ميثولوجيا تصورية غريبة، والدجاجة التي فرختهم قد حضنت بيضها بعيدا عن الواقع كله.

24. للمساعدة على محاكمة المجرم وقاضيه.

المجرم الذي يعرف مجريات الأحداث كلها لا يرى فعلته خارج النظام والمعقولية مثلما يراها القضاة والرقباء، ولكن عقوبته يتم تحديدها بالضبط بالتناسب مع درجة الدهشة التي تتملك القضاة والرقباء عند رؤية فعلته باعتبارها شيئا غير مفهوم. ــ لو أن المدافع عن مجرم ما كانت له معرفة أوسع بقضيته وبسابقاتها فإن الظروف التي يقال عنها ظروف التخفيف التي سيكشف عنها ستؤدي حتما إلى الإلغاء التام للخطأ. بتدقيق أكبر، سيخفف المدافع بالتدريج ذلك الإندهاش الذي يدين ويحدد العقوبة إلى أن يمحوه تماما مرغما بذلك كل مستمع صادق على الاعتراف في قرارة نفسه وضميره: « كان عليه أن يتصرف كما فعل، إن كنا معاقبين فلنعاقب الفقر.» أليس تحديد العقوبة حسب المعرفة المتوفرة لدينا، أو التي قد نتوصل إلى امتلاكها، بشأن جريمة ما وقوفا في وجه الإنصاف ؟

25. المقايضة والإنصاف.

لن تكون عملية المقايضة مطابقة للشرف والقانون إلا إذا طلب كل واحد من الطرفين قدر ما يبدو له ثمنا لسلعته، مع الأخذ بعين الاعتبار العناء الذي تجشمه ليحصل عليها، ندرتها، الوقت الذي استغرقه إنتاجها، إلخ، وكذلك قيمتها العاطفية. وبمجرد ما يحدد أحدهما الثمن مراعيا حاجة الآخر فإنه يكون قاطع طريق، نهابا لطيفا شيئا ما. ــ إن كانت النقود موضوع مقايضة فإننا قد نتوقع أن الريال (écu) في يد وارث غني، في يد مياوم أو تاجر أو طالب، سيكون شيئا مختلفا : سيكون لكل واحد منهم الحق، بحسب ما إذا كان قد حصل عليه دون بذل أي جهد أو بعد جهد كبير، في الحصول

مقابله على القليل أو الكثير، وسيكون ذلك عدلا، ولكن الذي يحصل في الحقيقة، كما نعلم، هو العكس. في عالم الأموال تكون مردودية ريال الغني الكسول أكبر من مردودية ريال الفقير أو العامل.

26. شروط القانون وسائل.

يدوم القانون، المرتكز على اتفاقيات بين الأنداد، مادامت قوة المتعاقدين متساوية أو يضاهي بعضها بعضا، الحذر هو الذي خلق القانون ليجعل حدا للصراع وللتبذير عديم الجدوى للقوى المتماثلة. وقد وضعت فيه عبارة حاسمة في حالة ما إذا ضعف أحد الطرفين : يكون الخضوع حينها ويعلق القانون، ولكن النتيجة تكون هي نفسها التي كانت تنجم عن القانون. لأن حكمة المهيمن هي التي تنصحه الآن بأن يحافظ على قوة المهزوم وألا يبذرها سدى، وغالبا ما تكون وضعية المهزوم أفضل من وضعيته يوم كان ندا. ــ شروط القانون هي إذن وسائل مؤقتة ينصح بها الحذر وليست غايات في حد ذاتها.

27. تفسير الفرحة الماكرة.

تصدر الفرحة الماكرة عن كون كل واحد يشعر بالإنزعاج نتيجة اعتبارات عدة يعرفها، وسواء شعر بالهم أو بالحسد أو بالألم فإن الضرر الذي يصيب الغير يعوضه عن ذلك ويطهره من حسده. ــ حتى وإن كان هو في أحسن حال فإنه سيراكم في وعيه الحظ العاثر الذي يصيب شخصا آخر، بمثابة رأس مال، يعارض به حظه العاثر هو حين يحل به، وبذلك تكون له «الفرحة الماكرة». إذن فالمشاعر المساواتية تلقي بمعيارها في ميدان الحظ والصدفة: الفرحة الماكرة هي التعبير الأكثر شيوعا عن الإنتصار وعن عودة المساواة، حتى في الطبقة العليا من الناس. لقد كان ميلاد الفرحة الماكرة يوم تعلم الإنسان أن يرى في الآخرين أنداداً له، أي منذ نشأة المجتمع.

28. التعسف في تحديد العقوبات.

لقد قضى أغلب المجرمين عقوباتهم مثلما تلد النساء أطفالهن. فعلوا نفس الشيء عشر مرات، مائة مرة، دون أن يشعروا بعواقبه الوخيمة، وفجأة يتم اكتشافهم ثم تتلوه العقوبة. وقد كان ينبغي للعادة أن تجعل خطأ الفعلة التي من أجلها يعاقب المجرم يبدو أكثر قابلية للصفح، فقد صار لديه بذلك ميل تصعب مقاومته. وعوض ذلك تتم معاقبته بقساوة حين يشكون في كون جريمته متأصلة، إنهم يعتبرون العادة سببا معارضا لأي تخفيف. إن ما يجب أن يظهر الجرم أخطر هي حياة المجرم المثالية في الماضي والتي تناقضها الجريمة بشكل صارخ ! إلا أنها عادة ما تخفف العقوبة. هكذا إذن يتم قياس

كل شيء ليس بمقياس المجرم بل بمقياس المجتمع، بالنظر إلى المضرة التي تصيبه والخطر الذي يتهدده : توضع فائدة الفرد السابقة في كفة والأذية التي سببها مرة واحدة في الكفة الأخرى، تضاف أذيته السابقة الى التي تم اكتشافها حديثا، ثم تصدر في حقه أقسى عقوبة. والحالة هذه، إذ كنا بهذا نعاقب ماضي الانسان أيضا، أو ان كنا نجازيه (وهذا يخص الحالة الاولى التي يعتبر فيها تخفيض العقوبة جزاء)، فانه علينا ان نرجع كثيرا الى الوراء ونعاقب أو نجازي سبب هذا الماضي أو ذاك، أعني الوالدين، المربين، المجتمع، الخ، وسوف نجد، في كثير من الحالات، ان القضاة يساهمون بشكل أو بآخر في الخطأ. انه لمن التعسف ان نتوقف عند المجرم حين نعاقب الماضي، وعلينا، ان لم نشأ قبول امكانية الصفح مطلقا عن أي خطأ، أن نتناول كل حالة بشكل منعزل ولا ننظر بعيدا الى الوراء، اي ان نعزل الخطأ ولا نربطه مطلقا بالماضي، - والا فاننا نخطىء في حق المنطق. وهكذا اذن، يا معشر معتنقي حرية الاختيار، استنتجوا الخلاصة الضرورية من عقيدة «حرية الارادة» واعلنوا بجسارة : «كل الأفعال لا ماضي لها».

29 . الغيرة وأختها النبيلة

هناك حيث تكون المساواة قد تعمقت وترسخت تولد الغيرة، هذا الميل الذي يعتبر لا أخلاقيا في مجمله، والذي قلما يتصور الناس وجوده في حالة الفطرة. الغيور حساس اتجاه ارتفاع الآخر فوق النموذج المشترك ويريد ارجاعه اليه - أو الارتفاع للحقاق به، وينتج عن ذلك نوعان مختلفان من السلوك سماهما هزيود ايريس الشريرة وايريس الطيبة. كما يولد في حالة المساواة التذمر من ثروة شخص لا تناسبه ثروته لانها اقل من كرامته ، ولان ثروة شخص آخر أفضل مما تتطلبه المساواة: هذه هي محبة الأشخاص النبلاء. إنهم يحزنون لغياب العدل والانصاف في الاشياء التي لا تتوقف على عسف الناس، أي انهم يطالبون بان تعترف الطبيعة والحظ بهذه المساواة التي اعترف بها الانسان : انهم يغتاظون من الا يكون للانداد مصير واحد.

30 . حسد الآلهة.

يولد «حسد الآلهة» حين يقف الشخص الذي في مرتبة أدنى ندا لمن هو أعلى منه مقاماً (مثل أجاكس)، أو حين يحابيه القدر فيضعه ندا له (مثل نيوبي (Niobé) *، الأم التي تم إرضاؤها بسخاء). يتطلب هذا الحسد، في حدود التراتبية الاجتماعية، الا يكون لاي فرد استحقاق يفوق وضعه، وأن توافق سعادته هي الاخرى هذا الوضع، وخاصة الا يتجاوز وعيه بقيمته هذه الحدود. غالبا ما يشعر القائد المنتصر، وكذلك المريد الذي أبدع عملا عظيما، بـ«حسد الآلهة».

31. الغرور نتاج الوضع اللاإجتماعي.

بما ان الناس قد جعلوا من انفسهم أندادا قصد ضمان امنهم وتأسيس الجماعة، وبما ان هذا التصور يناقض طبيعة الفرد الذي يفرض عليه بالقوة، فان نباتات جديدة من غريزة الهيمنة القديمة تعود للحياة بالتدريج كلما تم ضمان الأمن العام بشكل أفضل : فتظهر في تحديد الطبقات الاجتماعية، في الامتيازات الشرفية التي تطالب بها نقابة الحرفيين، وبشكل عام في الغرور (مثل السلوكات، الملابس، اللغة، إلخ). وبمجرد ما يتم الشعور مرة اخرى بالخطر المهدد للحياة الجماعية تعمل الأغلبية، التي لم تتمكن من فرض تفوقها أثناء حالة الهدوء الشامل، على ابراز حالة المساواة من جديد، فتختفي الامتيازات والغرور العبثيين لبعض الوقت. ولكن اذا انهارت الجماعة تماما وعمتها الفوضى فان غريزة الفطرة وعدم المساواة الوقح والوحشي ينفجران في الحين، مثلما حدث في جزيرة كورسير حسب ما رواه ثوسيديد. ليس هناك لا قانون طبيعي ولا جور طبيعي.

32. الإنصاف.

يعتبر الانصاف تطورا للعدل، ويولد بين أولئك الذين لا يرتكبون مخالفات في حق المساواة داخل الجماعة، انه يعيد لبعض الحالات التي لا يخصصها القانون باي نص احتراما دقيقا للتوازن ينظر الى الامام والى الوراء مراعيا للكل، وحكمته هي: «كما تدين تدان». الانصاف يعني بالضبط: «هذا مطابق لمساواتنا، فهي تحول خلافاتنا الصغيرة كذلك الى مظهر من المساواة وتريد منا ان نستغني عن الاشياء التي لسنامدينين بها».

33. عناصر الانتقام.

إننا ننطق كلمة انتقام بسرعة كبيرة، ويبدو أنها لا تستطيع احتواء أكثر من أصل فكرة أو إحساس واحد. وهكذا نسعى دائما للعثور على هذا الاصل، مثلما لا يزال اقتصاديونا يسعون لتخمين وحدة مماثلة في كلمة قيمة ويبحثون عن المفهوم الاول، عن أصل القيمة. مثلما الكلمات كانت أكياسا يضع الناس فيها تارة هذا الشيء، تارة ذاك، وتارة أخرى أشياء كثيرة دفعة واحدة ! كذلك الانتقام يكون تارة هكذا، تارة كذلك، وتارة أخرى يكون شيئا مركبا. سنلاحظ أولا هذا الانتقام الدفاعي الذي نقوم به بشبه تلقائية حتى من أشياء جامدة أضرت بنا (كما من آلات متحركة) : إن المبتغى من رد فعلنا هو وقف الضرر الذي تلحقه بنا الآلة وذلك بتوقيفها. ولكي يحقق الرد هذا

الهـدف يجب أن تكون قوته أحـيانا شـديدة بحيـث تحطم الآلة، وان كانـت الآلة قـوية جدا بحيـث لا يحطمـها الفرد عـلى الفور، فان هـذا الفرد سيـوجه لهـا مع ذلك أعنف ضربة يستطيعها، ـ وكأنها محاولة اخيرة. هكذا نتصرف كذلك مع الذين يضرون بنا حين احساسنا المباشر بالضرر، ويمكن، اذا أصررتم، أن نسمي ذلك انتقاما، غير أنه علينا أن نعتبر أن البـقاء الشخصي هو الذي حرك آلة العقل، وأننا في الحـقيقة لا نفكر في من ألحق الضـرر بنا، بل في أنفـسنا : نتـصرف بتلـك الطريقة دون أن نسعـى للإضـرار بمن آذانا، ولكن فقـط لكي نخرج من ذلك سالمين. ـ نـحتاج وقـتا لكي نمر من التـفكير في نفسـنا إلى التفكيـر في الخصم ونتـساءل عن الطريقـة التي قد تمكننـا من إصابتـه إصابة بالغـة. هذا مـا يقع في هذا الصنف الثاني من الإنـتقـام، شـرطه الأول هو التـفكيـر في جروحية الآخر وقدرته على المعاناة، لأن الذي ينتقم يريد أن يؤذي، في المقابل، لا يتنبه إلى الأضرار التي تـنجم عن انتقامـه لاحقـا، بحيث أنه يتـسبب بشكـل شبـه منتظم في تلك الأضرار التي تـصيبـه مرة أخرى، وغـالبا ما يراها مـسبقـا آتية على مـهل. إن كان الخـوف من الضـربة الثـانيـة هو مـا يجـعل الرد أقـوى مـا يمكن فـي الصنف الأول من الإنتـقـام، فإن مـا يحـدد قـوة الرد في الصنف الثـاني هو مـا ألحـقـه بنا الخـصم، وتكاد لامبـالاتنا بما سيـفعله لاحـقا تكون مطلقـة. ـ فمـا الذي فعله ؟ ومـاذا يفيدنا أن يـعاني الآن، بعد أن تسبب لنا في المعاناة ؟ يتعلق الأمر هنا بالترضية، بينما الإنتقام في الصنف الأول يهدف إلى البقاء الذاتي فقط. ربما يكون الخصم قد تسبب لنا في فقدان الثروة أو المكانة أو الأصدقـاء أو الأبناء، ـ ولا نسترجـعها بالإنتـقام، الترضـية تهم فقط خـسارة ثانوية إذا ما قورنت بالتي ذكرناها. ثأر الترضية لا يحمينا من الأضرار اللاحقة، كما أنه لا يعـوض الخسـارة التي تعـرضنا لها، ـ إلا في حـالة واحـدة. إذا كان شـرفنا هو الذي هاجمـه الخصم فإنه بمقـدور الإنتقام أن يعـيده. لقـد لحقه الضـرر في كل الحالات التي لحقنا فيها الضرر عمدا، ذلـك أن الخصم قد أبان بذلك أنه لا يخشانا. وبالإنتقام سنبين أننا نحن هم الذين لا نخشـاه، هذا هو مقتضى التـعويض والترضية. (تذهـب نية إظهار غيـاب الخوف التـام لدى بعض الأشخـاص إلى حد اعـتبارهم خطـر الإنتقام عليـهم ـ كـفقـدان صـحتـهم أو حيـاتهم أو أشيـاء أخـرى ـ شـرطا لازما لكل انتـقـام. وهكذا يسلكون سبيل المبارزة رغم كون المحاكم تعرض عليـهم مساعدتها لنيل ما يرضيهم ممن أهانهم، ولكنهم يعتبـرون الترضية غير كـافية إن لم تصحبها المخـاطرة بالشرف لأنها لن تكون معبرة عن غيـاب الخوف لديهم.) ـ في الصنف الأول من الإنتقام يكون الخوف هو من ينتـقم، أمـا هنا فإن الخـوف هو الذي يريد أن يثبـت ذاته من خـلال الإنتقـام. ـ يبدو البـاعث الداخلي لكلا السلوكين اللذين نطلق عليـهما كلمـة انتقـام مختلفـا أشد

الإختلاف، ومع ذلك يحدث كثيرا أن لا يتنبه منتقم بإحدى هاتين الطريقتين بوضوح إلى الذي جعله يقرر الإنتقام، ربما يكون قد فعل ذلك بدافع الخوف وضمان البقاء، ولكنه بعد برهة، وقد سنح له الوقت بالتفكير من منظور الشرف المثلوم، يقنع نفسه بأنه قد انتقم لشرفه : ــ هذا الدافع هو في الواقع، ومهما يكن الأمر، أكثر تميزا من الآخر. تبقى هناك نقطة أساسية، والحالة هذه، وهي معرفة إن كان يعتبر الضرر قد لحق بشرفه في نظر الآخرين (الناس) أم فقط في نظر من أهانه. في هذه الحالة الأخيرة سيفضل الإنتقام السري، وأمام الملأ في الحالة الأولى. وسيكون انتقامه ضاريا أو معتدلا بحسب تصوره لكيف يراه المجرم، أقويا أم ضعيفا، وإن لم يكن لديه هذا التصور مطلقا فإنه لن يفكر في الإنتقام البتة، لأنه في هذه الحالة لا يملك إحساسا بالشرف، إذن لن ينجرح. كما أنه لن يفكر في الإنتقام إن كان يحتقر المجرم والشهود لأنهم لا يستطيعون، وهم موضوع احتقار، أن يمنحوه الشرف أو أن يسلبوه منه. أخيرا، سيتخلى عن الإنتقام إذا كان يحب المجرم، وهي حالة جد استثنائية، ولا شك أنه سيفقد بذلك شيئا من شرفه في نظر هذا المجرم ويصير، في مقابل ذلك، أقل جدارة بالحب. ورفض تلقي المقابل تضحية يقبل المحب القيام بها لكيلا يجبر على إيذاء المحبوب : وهذا يعني إيذاء المرء لنفسه أكثر مما قد تؤذيه هذه المسماة تضحية. ــ في الختام أقول أن كل الناس قد ينتقمون إلا من كان بلا شرف أو مفعما بالاحتقار أو بالحب لمن آذاه وأهانه. حتى الذي يلجأ إلى المحكمة يسعى إلى الإنتقام كفرد، ويسعى علاوة على ذلك وبالتبعية، باعتباره عضوا واعيا في المجتمع وحريصا عليه، إلى انتقام المجتمع من الذي لا يحترمه. وهكذا فإن العقوبة القانونية تعيد الشرف للفرد وللمجتمع : وهو ما يعني أن العقوبة انتقام. ــ لا ريب أن فيها كذلك عنصر الإنتقام الآخر الذي وصفناه في المقام الأول، وهو كون المجتمع يستخدمها من أجل بقائه وينتقم لنفسه في حالة الدفاع عن النفس. تريد العقوبة أن تمنع حدوث أضرار أخرى، إنها تريد التخويف. بهذا يكون عنصرا الإنتقام المختلفين كثيرا متحدين فعلا في العقوبة، وقد يساهم ذلك بالخصوص في الحفاظ على غموض الأفكار الذي تحدثنا عنه، والذي بسببه لا يعرف الفرد الذي ينتقم ما يريد.

34. الفضائل التي تجلب الخسارة.

إننا نعتقد، باعتبارنا أعضاء في المجتمع، أنه لا ينبغي لنا أن نمارس بعض الفضائل التي تكسبنا، باعتبارنا أفرادا، كثيرا من الشرف وبعض المتعة، كالتسامح مع المجرمين من كل صنف والعفو عنهم، ــ وبشكل عام مع كل السلوكات التي قد تعاني منها مصلحة المجتمع بفعل فضيلتنا. لا تستطيع أية هيأة قضائية أن تسمح لنفسها صراحة بالعفو :

وحده الملك، باعتباره فردا، هو من يتمتع بهذا الإمتياز، وحين يستعمله يفرح الناس ليبينوا أنهم يودون العفو ولكن ليس بوصفهم مجتمعا. فهذا المجتمع لا يعترف إلا بالفضائل المفيدة أو التي لا تسبب له الأذى على الأقل (التي تتم ممارستها دون خسارة أو بفائدة، كالعدالة مثلا). ولا يمكن بالتالي للفضائل التي تجلب الخسارة أن تكون قد نشأت داخل المجتمع مادامت حتى في وقتنا الحاضر، داخل مجتمع في إطار التكون، حتى وإن كان صغيرا، تصطدم مع التناقض. إنها فضائل لا يستوي فيها كل الناس، لأن مبتكرها هو الفرد المتفوق، لذلك فهي فضائل المهيمن، مع هذه الفكرة المبطنة : «إنني أقوى من أن أقبل خسارة بينة، هذا دليل على قوتي» ـ فهي إذن فضائل تَمُتُّ بصلة إلى الكبرياء.

35. ذمامة المصلحة*.

لولا ذمامة المصلحة لما كانت ذمامة الأخلاق. إذا لا يكفي الذكاء الحر والدقيق عادة للإختيار بين شيئين بطريقة تجعل المصلحة الكبيرة تصاحب حتما ذلك الإختيار. في مثل هذه الحالات نختار لأنه علينا أن نختار، وبعد برهة نشعر بنوع من غثيان الإحساس.

36. التحول إلى منافق.

كل متسول يصير منافقا، مثلما أي كان يتخذ من النقص ومن الضيق حرفة (سواء كانا خاصين أو عامين). لو أراد المتسول فقط أن يعيش من التسول لما شعر بنقصه بالقدر الذي عليه أن يجعل الآخرين يشعرون به.

37. نوع من عبادة الأهواء.

إنكم تتحدثون معشر الملمحين الكئيبين والفلاسفة المرائين لتتهموا طبع الكون كله بأنه طبع الأهواء الإنسانية المرعب. كما لو أن الرعب قد وجد في كل مكان فيه الهوى! كما لو أن الأمر قد تطلب دائما وجود هذا النوع من الرعب في العالم ! إنكم أنتم الذين تركتم في أول الأمر الأهواء تكبر بإهمالكم الأشياء التافهة وبقلة ملاحظتكم لأنفسكم ولمن يتعلق الأمر بتربيتهم، تركتموها تكبر حتى صارت مخيفة جدا بحيث ترتعدون خوفا لمجرد سماع كلمة هوى ! يتوقف عليكم وعلينا أمر تجريد الأهواء من طبعها المرعب وتحويل اتجاهها بحيث لا تصير سيولا جارفة. لا يجب أن نضخم غلطاتنا ونعتبرها قدرا سرمديا، علينا بالأحرى أن نساهم بصدق، وسنفعله، في مهمة تحويل كل الأهواء الإنسانية التي تعاني إلى أفراح متقدة.

38. الندم.

الندم حماقة مثل حماقة عض الكلب للحجر.

39. أصل القوانين.

تعود القوانين إلى تقليد (tradition)، والتقليد إلى ميثاق قديم. لقد شعر الناس بالرضى لبعض الوقت من نتائج ذلك الميثاق وظلوا بقية الوقت خاملين فلم يجددوا شكله. وهكذا عاشوا وكأن الميثاق يتغير باستمرار، وكلما نشر النسيان ضبابه حول أصله صار الناس إلى الإعتقاد بأنه شيء مقدس وثابت يجب على كل جيل أن يستمر في التأسيس عليه. ومنذ ذلك الحين صار التقليد إكراها حتى بعد أن لم تعد فيه تلك الفوائد التي من أجلها تم وضع الميثاق في البداية. ــ وقد وجد فيه الضعفاء، على مر العصور، حصنهم المنيع: إنهم يميلون إلى تأبيد الميثاق الذي لا يصلح إلا مرة واحدة، وقد نالوا تلك النعمة.

40. دلالة النسيان في الإحساس الأخلاقي.

التصرفات التي كانت توحي بها مراعاة المنفعة العامة، في المجتمعات البدائية، قد قامت بها أجيال أخرى فيما بعد بسبب دوافع أخرى : بدافع الخوف من الذين يتطلبونها أو بدافع احترامهم، أو بدافع العادة لأنهم كانوا يرون الناس منذ طفولتهم يأتون تلك التصرفات، أو بدافع الإحسان، لأنها كانت تشيع الفرحة في كل مكان والإستحسان على الوجوه، أو بدافع الغرور لأن الناس يطرونها. هذه الأفعال، التي نُسي دافعها الأساسي الذي هو المنفعة، هي التي تسمى فيما بعد أخلاقا : ليس لأن الناس يأتونها بسبب تلك الدوافع الأخرى، بل لأنهم لا يأتونها بدافع المنفعة وهم يعلمون. ــ ما مصدر الحقد على المنفعة الذي يظهر هنا، أين الحد الفاصل بين السلوك الحميد والسلوكات التي دافعها المنفعة ؟ ــ من الواضح أن المجتمع، موطن كل أخلاق وكل ثناء على الفعل الأخلاقي، قد اضطر لخوض صراع طويل وضار ضد المصلحة الشخصية والأنانية الفردية لكي لا تصل في النهاية إلى اعتبار أي دافع آخر أسمى أخلاقيا من المصلحة. وهكذا يتولد الوهم بأن الأخلاق لم تصدر عن المنفعة، والحالة أن مصلحة المجتمع هي التي وجدت في الأصل صعوبة كبيرة في فرض نفسها على كل المصالح الخاصة واكتساب نفوذ أكبر.

41. ورثة الأخلاقية الأغنياء.

هناك في الأخلاق غنى متوارث، إنها ملك النفوس الوديعة، الحليمة، الشفوقة، الرحيمة، التي تلقت من أسلافها طيبة السلوك هذه، ولكنها لم تتلق العقل (الذي هو

مصـدرها). تقتضي متعة هذا الغنى أن يتم منحها وتقاسمها باستمرار، لأنها بذلك تعمل تلقائيا على تقليص الفارق بين الفقراء والأغنياء من حيث الأخلاق، وتفعل ذلك، وهو أروع وأفضل ما فيها، ليس بغرض تحقيق توازن مستقبلي بين الفقراء والأغنياء، بل لفائدة إغناء أو إفراط في الغنى يكونان عامين. يمكننا، مثلما فعلنا هنا، أن نلخص الرأي السائد بخصوص الغنى الأخلاقي المتوارث، ولكن يبدو لي أن الناس يحتفظون بهذا الرأي لأجل مجد الأخلاقية الكبير أكثر منه على شرف الحقيقة. والتجربة، على كل حال، تمنحنا مبدأ علينا أن نعتبره على الأقل تحديدا مهما لها إن لم نعتبره دحضا للأطروحة العامة المعبر عنها أعلاه. تؤكد لنا هذه التجربة أنه إن لم تكن لدى ورثة الأخلاقية الأغنياء الفطرة السليمة الدقيقة ولا ملكة الإختيار الدقيق، ولا ميل قوي لالتزام الحذر، فإنهم قد يبذرونها : باستسلامهم المطلق لميولهم الشفوقة، الرحيمة، المصالحة، والمهدئة، سيجعلون كل من حولهم أكثر إهمالا وجشعا وعاطفية. لهذا السبب من السهل أن يكون أطفال هؤلاء الموزعين للأخلاقية الرفيعة بسخاء (وهو شيء ينبغي قوله، مع الأسف، للتوضيح) واهنين، لطيفين، ودون أية كفاءة.

42. القاضي وظروف التخفيف.

«يجب على المرء أن يكون صادقا حتى مع الشيطان ويؤدي له ديونه» قال جندي هرم رويت له قصة فاوست بتفصيل ممل، «إن مكان فاوست هو الجحيم!» ـ «يا لفظاعتكم أيها الرجال!» صاحت زوجته، «إنه لم يفعل شيئا، خلا أن دواته جف مدادها! الكتابة بالدم إثم ولا شك، ولكن هذا الرجل الوسيم لن يحرق بسبب هذا الشيء القليل ؟»

43. مشكلة الواجب تجاه الحقيقة.

الواجب شعور يُكرهنا، يدفعنا إلى الفعل، ونقول عنه أنه طيب ونعتقده غير قابل للنقاش (وسوف لن نقول أي شيء عن أصل وحد هذا الشعور أو عن تبريره، وكأننا لم نتحدث عنه قط). يرى المفكر أن كل شيء ينتج عن تطور ويرى أن كل نتيجة قابلة للنقاش، فهو إذن رجل بلا واجب، ـ مادام مفكرا لا غير. وبما هو كذلك فلن يعترف أبدا بواجب العثور على الحقيقة وقولها؛ لن يخامره هذا الشعور، فهو يتساءل : ما مصدره ؟ إلى أي شيء يؤدي ؟ ويبدو له أن هذه الأسئلة نفسها يجب أن تكون موضع سؤال. ولكن ألن تكون عاقبة ذلك هي أن آلة المفكر سوف تسوء حالها منذ اللحظة التي سيشعر فيها حقا أنه متحلل من كل واجب حتى في فعل اكتساب المعرفة نفسه ؟ وهكذا يبدو أن العنصر الضروري للتسخين هو نفسه الذي يتعلق الأمر بدراسته بواسطة

الآلة. ـ وربما تكون الصيغة هي: إذا افترضنا أن هناك واجبا هو معرفة الحقيقة، فأية حقيقة ستكون تلك المتعلقة بأشكال الواجب الأخرى كلها ؟ ـ ولكن ألن يكون الشعور الافتراضي بالواجب عبثا ؟

44. درجات الأخلاق.

الأخلاق هي قبل كل شيء وسيلة للحفاظ على وحدة المجتمع ومنعه من التفكك، ثم هي بعد ذلك وسيلة للحفاظ على المجتمع في مستوى وجودة معينين. تكون دوافعها هي الخشية والأمل، وهما من الشدة والقوة والفظاظة بمكان بحيث أن الميل إلى الموقف المعاكس والمحدود والشخصي قوي جدا هو أيضا. ويجب أن تستخدم هنا وسائل التخويف الرهيبة ما دامت الوسائل الأخرى، اللطيفة، لا تريد أن تفعل، ومادمنا لن نتمكن من الحصول بغير ذلك على الحفاظ المزدوج (وإحدى أقوى الوسائل هي ابتكار عالم ماوائي فيه جحيم أزلي). هناك بعض درجات الأخلاق الأخرى، يعني وسائل أخرى تؤدي إلى نفس الغاية، هي أوامر إله ما (كالشريعة الموسوية)، وهناك درجات أخرى أسمى، هي أوامر مفهوم مطلق للواجب، بأمره «يجب عليك»، ـ وهناك درجات هيئت بغلظة أكثر من كل هذه، ولكنها رحبة، مادام الناس لا يعرفون بعد كيف يضعون القدم على الدرجات الرقيقة الضيقة. ثم هناك أخلاق الانحناء، أخلاق الذوق، وأخيرا أخلاق الذكاء الصافي، ـ التي تجاوزت كل الدوافع الوهمية للأخلاق ولكنها تنبهت بوضوح إلى أن الإنسانية لن تستطيع أن تتخذ لها أخلاقا أخرى قبل وقت طويل.

45. أخلاق الشفقة التي يشربها المتطرفون.

كل أولئك الذين ليست لهم سلطة كبيرة على أنفسهم ولا يعرفون الأخلاقية كتحكم في النفس وسيطرة عليها باستمرار، في الأمور العظيمة والتافهة، يجعلون من أنفسهم من غير تعمد مرتلين للاقتراحات الطيبةو الشفوقة، والمتسامحة التي في هذه الأخلاقية الغريزية التي تبدو وكأن لها فقط قلب وأياد مسعفة، وليست لها رأس. بل إن مصلحتهم أن يثيروا الريبة حول أخلاقية العقل ويجعلوا من الأخرى الوحيدة التي لها قيمة.

46. بواليع الروح.

لا بد أن تكون للروح كذلك بواليع محددة تفرغ فيها قاذوراتها، وهذا ما يصلح له الناس، الأوضاع، الظروف أو الوطن أو العالم، أو في الأخير، بالنسبة للمتكبرين (أقصد «المتشائمين» المحدثين)، الرب.

47. نوع من الهدوء والتأمل.

احذر أن يشبه هدوؤك وتأملك هدوء الكلب أمام وضم الجزار، يمنعه الخوف من التقدم والرغبة من التراجع، ويفتح عينين واسعتين كما لو كانتا فمين.

48. منع دون حجة.

المنع الذي لا نفهم حجته أولا نقبلها يكاد يكون أمرا، ليس فقط للرجل العنيد، بل كذلك للمتلهف للمعرفة : وسيحاولان خوض التجربة ليعرفا سبب كون المنع أمرا. الموانع الأخلاقية، كموانع الوصايا العشر، لا تناسب إلا العصور التي يكون فيها العقل مستعبدا، أما اليوم فإن منعا مثل «لا تقتل» أو «لاتزن»، إن لم يستندا على حجة، فإن ضررهما سيكون أكثر من نفعهما.

49. وصف.

من أي صنف الرجال ذلك الذي قد يقول عن نفسه :«إنني أحتقر بسهولة، ولكنني لا أحقد. في كل إنسان أكتشف شيئا يدعو للاحترام فأحترمه، أما الخاصيات التي يقال أنها محبوبة فقليلا ما تثيرني» ؟

50. الشفقة والإحتقار.

إننا نشعر بإظهار الغير الشفقة علينا كعلامة على احتقاره لنا، لأن الذي يشفق علينا يكون قد كف، منذ تلك اللحظة، عن خشيتنا. لقد نزلنا إلى ما دون مستوى التوازن الذي لم يعد يكفي غرور الإنسان، وحدهما الاستعلاء والخشية اللذان نوحي بهما يجعلان الروح تشعر بأكثر الأحاسيس المرغوبة. وإنها لمشكلة أن نعرف كيف فرض احترام الشفقة نفسه، كما أنه ينبغي تفسير سبب كون الغيرية اليوم تحظى بالثناء: لأنها في الأصل محتقرة أو مهابة باعتبارها شيئا خادعا.

51. معرفة التصاغر.

يجب أن نكون أقرب إلى الأزهار والأعشاب والفراشات من الطفل الذي لا يجاوز طولها كثيرا، أما نحن الكبار فقد جاوزناها ويجب علينا أن ننحني لنصلها. أظن أن الأعشاب تبغضنا حين نعبر عن حبنا لها. ــ على الذي يريد المساهمة في كل شيء جميل أن يعرف كيف يتصاغر في أوقات معينة.

52. محتوى الوعي.

محتوى وعينا هو كل ما تَطلَّبه منا بشكل منتظم وبلا حجة، أثناء طفولتنا، أشخاص كنا نحترمهم أو نهابهم. إذن انطلاقا من الوعي تتم استثارة الشعور بالواجب (« علي فعل هذا وترك ذاك ») الذي لا يسأل : لماذا يجب علي ؟ ــ في كل الحالات التي يقوم فيها الإنسان بشيء تصاحبه «لأن» و «لماذا» فإنه يتصرف بلا وعي، وهو ما لا يعني أنه يتصرف ضد وعيه. ــ الإيمان بالأوامر هو مصدر الوعي، فالوعي ليس إذن صوت الإله في قلب الإنسان، بل صوت بعض الناس في الإنسان.

53. الانتصار على الأهواء.

الذي ينتصر على أهوائه يحوز ملكية أخصب الأراضي، مثل المستعمر الذي استحوذ على الغابات والمستنقعات، وحينها تصير مهمته المباشرة والمستعجلة هي زرع بذرة حسنات الفكر على أرض الأهواء المهزومة. الإنتصار في حد ذاته ليس إلا وسيلة لا غاية، وإن لم ينظر إليها من هذا المنظور فإن مختلف أنواع الأعشاب الضارة والنباتات الشيطانية سرعان ما ستنمو على هذه الأرض الخصبة المهجورة، وقريبا تنتشر فيها الحماقات بشهوانية أكثر من أي وقت مضى.

54. موهبة الخدمة.

كل الرجال الذين نقول عنهم عمليون تكون لهم موهبة خدمة الآخرين : وهذا بالضبط هو ما يجعلهم عمليين بالنسبة للغير وبالنسبة لأنفسهم، لقد كان لروبنسن خادم أفضل من Vendredi، إنه كروزوي.

55. خطر اللغة على حرية الفكر.

كل كلمة هي حكم مسبق.

56. الفكر والضجر.

«المجري أبلد من أن يضجر »، هذا المثل يدعو للتفكير. وحدها الحيوانات الدقيقة والنشطة قادرة على الضجر. ــ وقد يكون ضجر الرب في اليوم السابع من الخلق فكرة جيدة بالنسبة لشاعر كبير.

57. العلاقة مع الحيوانات.

يمكننا أن نلاحظ نشأة الأخلاق من خلال علاقتنا مع الحيوانات. حين لا تكون هناك منفعة أو ضرر فإننا نشعر باللامسؤولية المطلقة، فنقتل ونجرح الحشرات مثلا أو

نتركها تعيش دون أن نفكر في ذلك إطلاقا. إننا بلداء جدا لدرجة أن رقتنا مع الأزهار والحيوانات الصغيرة تكاد تكون دائما قاتلة : وهو شيء لا يعكر أبدا تلك المتعة التي نجدها فيها. ــ اليوم عيد الحشرات، اليوم الأكثر حرارة من أيام السنة، الحشرات كثيرة وتتحرك حولنا، ودون أن نريد ذلك، وكذلك دون أن نحترس من فعله، تارة هنا وتارة هناك نسحق دويدة أو جعلا خمليا. ــ إذا كانت الحيوانات مضرة فإننا نسعى جاهدين إلى القضاء عليها بكل الطرق، وغالبا ما تكون الوسائل وحشية دون أن نريد ذلك حقا : إنها وحشية الحركة الآلية. وإذا كانت نافعة نستغلها إلى أن نتعلم من خلال تمييز دقيق أن مردودية بعض الحيوانات ستكون أجود لو عاملناها بطريقة أخرى، أي لو اعتنينا بها وربيناها، آنذاك فقط تظهر المسؤولية، نتفادى تعذيب الحيوان الداجن، وهناك من يشعر بالإهانة حين يقسو أحد على بقرته، منسجما في ذلك مع الأخلاق البدائية للجماعة التي ترى المصلحة العامة مهددة بمجرد ما ينتهكها أحد الأفراد. الذي يرى انتهاكا داخل الجماعة يخشى أن يلحقه منه ضرر غير مباشر، ونخشى على جودة اللحم أو الزراعة أو وسائل المواصلات حين نرى الحيوانات الأليفة تساء معاملتها. وفضلا عن ذلك، فالذي يكون قاسيا مع الحيوانات يثير الريبة بأنه قد يكون كذلك مع الناس الضعفاء، غير المتساوين، والعاجزين عن الإنتقام، إنه يعتبر نذلا مجردا من الأنفة النبيلة. وهكذا يتولد مخطط (amorce) أحكام وأحاسيس أخلاقية تكمله الخرافة فيما بعد بأفضل ما لديها. كثير من الحيوانات تحث الإنسان، من خلال نظراتها وأصواتها وحركاتها، على أن يتخيل نفسه داخلها، وكثير من الديانات تعلم الناس أن يروا في الحيوان، في بعض الحالات، مقر روح الناس والآلهة، لذلك تأمرهم على العموم بمراعاتها بنبل، بل بخشيتها خشية احترامية. وحتى بعد اندثار هذه الخرافة تستمر الأحاسيس التي أثارتها فاعلة، تنضج وتزهر. ــ وقد ظهرت المسيحية، كما نعلم، فقيرة ومتخلفة في هذا الشأن.

58. الممثلون الجدد.

ليس هناك بين الناس تفاهة أكبر من الموت، وتأتي بعده الولادة، إذ ليس كل الذين يموتون يولدون، ثم يأتي بعد ذلك الزواج. غير أن هذه المآسي الهزلية الصغيرة التي بليت من فرط تمثيلها يتم تمثيلها وإعادة تمثيلها، في كل عرض من عروضها التي لا تحصى، من طرف ممثلين جدد، وبهذا يكون لها دائما متفرجون مهتمون، والحالة أننا قد نظن أن متفرجي المسرح الأرضي قد علقوا أنفسهم في كل الأشجار من شدة التقزز. كبيرة هي أهمية الممثلين الجدد، وكبيرة هي تفاهة المسرحية.

59. ما هو «العنيد» ؟

ليس الطريق المستقيم هو الطريق الأقصر، بل الطريق التي تهب فيها الرياح المواتية لأشرعتنا : هذا ما تقوله نظرية الملاحة. ومن لم يتبعها فهو عنيد : وهكذا تفسد الحماقة الطبع الحازم.

60. كلمة «غرور».

من المحزن أن تكون بعض الكلمات التي لا نستطيع، نحن الأخلاقيون، الإستغناء عنها بتاتا، تحمل نوعا من الرقابة الأخلاقية منذ العصور التي اعتبرت فيها اقتراحات الإنسان العادية والطبيعية هرطقة. اليقين الأساسي بأن سفينتنا تمضي سالمة في بحار المجتمع أو أنها ستغرق بسبب كوننا نمثل أكثر منه بسبب كوننا كائنين (وهو اليقين الذي ينبغي أن يكون دفتنا في كل سلوك له علاقة بالمجتمع) موسوم الآن بالمصطلح العالمي «غرور»، vanitas*، وهو ما يعني وسم شيء مملوء وغني من حيث المضمون بعبارة تصوره كشيء فارغ وتافه، وسم شيء كبير باسم صغير، بل بملامح كاريكاتورية. لا شيء يجدي مع هذا، علينا أن نستعمل هذه الكلمات ونصم آذاننا عن إيحاءات العادة القديمة.

61. القدرية التركية.

في القدرية التركية عيب كبير جعل الإنسان مقابلا للقدر كشيئين منفصلين : تقول إن الإنسان يستطيع مقاومة القدر ومحاولة إدارته، ولكن القدر هو الذي ينتصر دائما في نهاية المطاف، لذلك من الحكمة أن يستسلم المرء أو يعيش كما يحلو له. في الحقيقة، كل إنسان هو نفسه جزء من القدر، وحين يظن أنه يقاومه بالطريقة السالفة الذكر فإن القدر يتحقق بذلك أيضا. والمقاومة، وكذلك الاستسلام للقدر، وهذه الأوهام كلها يشملها القدر. إن خوف أغلب الناس من عقيدة إرادة القنانة (serf arbitre) هو خوف من القدرية : يتصورن أن الإنسان سينتظر المستقبل باستسلام العاجز مكتوف اليدين لأنه عاجز عن تغييره، أو أنه سيسلم القياد كلية لمزاجه النزوي لأن هذا المزاج ذاته لن يستطيع أن يزيد ما قد أعلن من قبل سوءاً. حماقات الانسان، مثل حذره، هي أيضا جزء من القدر: وهذا الخوف من الإيمان بالقدر هو أيضا قدر. أنت نفسك، أيها القلق، هو ربة القدر القاسية التي تتصدر الآلهة في كل ما سيحدث، أنت الرحمة واللعنة، وعلى كل حال أنت هي القيود التي يرسف فيها الأقوى، إن مستقبل العالم الإنساني محدد فيك مسبقا، ولن يجديك الخوف من نفسك.

62. محامي الشيطان.

« وحدتها تعاستنا تصيرنا حكماء، وحدها تعاسة الغير تصيرنا طيبين »، تقول تلك الفلسفة الغريبة التي تحول أخلاقية الشفقة وعقلانية عزلة الإنسان عن مجراهما، وبذلك تكون، دون أن تدري، هي المدافع عن كل الشرور الأرضية، لأن الشفقة تحتاج للمعاناة، والعزلة لازدراء الغير.

63. الطباع الأخلاقية.

في العصور التي تعتبر فيها سمات الأوضاع الإجتماعية محددة بشكل نهائي، مثل هذه الأوضاع نفسها، سيجد الأخلاقيون أنفسهم مستدرجين إلى اعتبار الطباع الأخلاقية مطلقة وإبرازها على أنها كذلك. وهكذا يمكننا فهم موليير على أنه معاصر لمجتمع لويس الرابع عشر، أما في مجتمعنا الذي هو مجتمع التحولات والدرجات المتوسطة فسيبدو متحذلقا بارعا.

64. المزية الأكثر تميزا.

في المرحلة الأولى من عمر الإنسانية الراقية تكون المزية الأكثر تميزا هي الشجاعة، في المرحلة الثانية تكون هي العدل، في الثالثة الاعتدال، وفي الرابعة الحكمة. ففي أية مرحلة نحن ؟ وفي أية مرحلة أنت ؟

65. ما يجب أولا.

الذي لا يريد التحكم في نزقه، في غيظه الحقود والانتقامي، في شهوته الحسية، ويسعى لأن يملك ناصية أشياء أخرى يكون بليدا مثل المزارع الذي يقيم حقله بجانب سيل دون أن يحميه منه.

66. ما معنى الحقيقة ؟

شوارزرت (Melanchton) :« يبشر المرء بعقيدته الدينية بالضبط حين يكون قد فقدها وصار يبحث عنها في الأزقة، ـ وحينها يجيد التبشير بها!» ـ لوثر: « إنك تقول الحق اليوم مثل ملاك، يا أخي!» ـ شوارزرت :« ولكنها فكرة أعدائك، وهم يعنونك بها.» ـ لوثر :«إذن فهي كذبة خرجت من أست الشيطان.»

67. عادة الأضداد.

الملاحظة السوقية وغير الدقيقة ترى الأضداد في كل مكان من الطبيعة (مثل «ساخن وبارد»)، والحالة أنه لا يوجد أضداد وإنما درجات في الاختلاف فقط. وقد

أدت بنا هذه العادة السيئة الى إرادة فهم الطبيعة الداخلية والعالم الأخلاقي والروحي وتحليلهما تبعا لهذه الأضداد. إننا لا ندري مقدار الميل إلى الألم، مقدار الغطرسة والقسوة والبرودة الجافية، الذي دخل في الحساسية الانسانية، من اعتقاد الناس أنهم يرون أضدادا بدل التحولات.

68. هل يمكن أن نصفح ؟

كيف يمكننا أن نصفح عنهم ان كانوا لا يدركون ما يفعلون ! ليس هناك ما نصفح عنه البتة. وهل يدرك المرء أبدا تمام الادراك ما يفعله ؟ واذا ما ظل هذا دوما موضع شك على الاقل فانه لا يكون هناك بالتالي ما يستوجب صفح الناس عن بعضهم البعض، وسيكون العفو شيئا مستحيلا بالنسبة للعاقل. وأخيرا، لو أدرك المجرمون حقا ما فعلوه فانه لن يكون لنا حق الصفح الا اذا كان لنا حق التجريم والعقاب، ولكننا لا نملك هذا الحق.

69. حياء اعتيادي.

لماذا نشعر بالحياء حين يحسن الناس الينا أو حين يميزنا امتياز ما ونقول «إننا لا نستحق ذلك» ؟ يبدو لنا حينها أننا قد ولجنا ميدانا لا موضع لنا فيه، ميدانا يجب أن نستبعد منه، وكأننا في معبد أو في قدس الاقداس الذي يحرم على أقدامنا أن تطأه. بسبب خطأ شخص آخر ولجناه، وها قد تملكنا شيء من الخوف، شيء من الاحترام، وشيء من المفاجأة، دون آن ندري ان كان علينا ان نفر أو نستمتع بهذه اللحظة المباركة، بمزايا فضلها. هناك في كل حياء لغز يبدو اننا دنسناه او هو مهدد بالتدنيس، كل عفو يولد الحياء. ـ واذا ما اعتبر المرء أنه لم «يستحق» شيئا أبدا، واذا تبنى وجهة النظر هذه داخل مجموع التصور المسيحي للأشياء، فان الشعور بالحياء يصير مألوفا لديه، ويبدو له فعلا ان الرب يبارك ويعفو باستمرار. وبعيدا عن هذا التفسير المسيحي ستكون حالة الحياء المألوف هذه ممكنة كذلك بالنسبة لحكيم ملحد يتبنى اللامسؤولية والاعتباط الاساسيان في كل الافعال ولدى كل الافراد : اذا ما عامله الناس كما لو انه قد استحق هذا الشيء أو ذاك فانه سيتكون لديه انطباع بولوجه طبقة راقية من الاشخاص الذين لهم استحقاقات فعلا، والذين هم أحرار وقادرون على التحمل الفعلي لمسؤولية إرادتهم ونشاطهم. ومن يقول له : «لقد استحقيت ذلك» يبدو انه يطمئنه بقوله: «لست إنسانا، بل الها.»

70 . المربى الأرعن.

هذا شخص نشأت كل فضائله الحقيقية في روح المعارضة ، وذاك غيره نشأت فضائله في عدم قدرته على الرفض، اي في روح القبول لديه، وهذا ثالث استخرج كل فضائله من أنفته المتوحدة، ورابع أخرجها من غريزة الالفة القوية لديه. لنفترض الآن ان المربين والصدف الذين تجمعهم صفة الرعونة لم يغرسوا بذور هذه الفضائل في طباع هؤلاء الأشخاص الغنية والخصبة فانهم سيكونون اشخاصا بلا أخلاقية، عاجزين ومحزنين. واي من مربي هؤلاء الاربعة ومن قدرهم الماكر كان أشد رعونة ؟ إنه الأخلاقي المتطرف الذي يعتقد أن الخير لا ينتج الا عن الخير ولا ينمو الا منه.

71 . أسلوب الحذر.

أ : ولكن، لو عرف كل الناس هذا فانه سيكون ضارا بالنسبة لأغلبهم. تقول أن هذه الآراء خطر على العقول التي في خطر، ورغم ذلك تعلنها للعموم ؟

ب : أكتب بشكل لن يجعل الدهماء ولا الناس ولا الأحزاب من كل صنف ترغب في قراءتي. وبالتالي لن تصبح هذه الآراء شعبية أبدا.

– أ : ولكن كيف تكتب إذن ؟ – ب : إن كتابتي لن تفيد هؤلاء الثلاثة ولن تسرهم.

72. مرسلون الهيون.

يشعر سقراط هو أيضا انه مكلف برسالة إلهية، الا أني أرى ظلا من سخرية أثينية ومن ميل الى الدعابة ينكشف، هنا أيضا، مخففا من هذه الفكرة القدرية والدعية. انه يتحدث عن ذلك بلا عذوبة، وصوره، التي هي المكبح والفرس الاصيلة، بسيطة، وليست كهنوتية إطلاقا، والرسالة الدينية التي يشعر أنه مكلف بها، و التي هي مساءلة إلهه بشتى الطرق ليرى إن كان قد قال حقا، تمكنه من الخلوص الى موقف حر جسور يرفع المرسل الى مقام الهه. هذا الاختبار الذي يخضع له الاله هو واحد من أدق صكوك التراضي التي تم تخيلها بين الدين وحرية الفكر على الاطلاق.– أما اليوم فاننا لم نعد في حاجة الى هذا الصك .

73 . صدق فنان.

لم يقم رفائيل، الذي كان شديد التعلق بالكنيسة (لانها كانت موسرة)، ولكنه لم يكن يتعلق، مثل النخبة آنذاك، إلا قليلا بموضوعات الايمان الديني، لم يقم بأية خطوة

في اتجاه التقوى اللدنية الخاصة بكثير من أولئك الذين كان يتلقى منهم الأوامر، لقد حافظ على صدقه حتى في تلك اللوحة الخارقة التي كانت في الاصل مخصصة لتكون بيرق زياح* ، اعني صورة العذراء (la Madone sixtine). لقد أراد هنا، لمرة واحدة، ان يرسم رؤيا، ولكنها احدى الرؤى التي قد تخطر كذلك لشرفاء شباب بلا «دين» أو قد يرونها، صامتة وجميلة جدا، تحمل اول مولود لها بين ذراعيها. يبدو ان رفائيل يقول لنا : فليبجل أجدادنا، الذين اعتادوا الصلاة والتعبد، ليبجلوا في هذه الصورة، مثل ذلك الشيخ الوقور الذي على اليسار، شيئا فو انسانيا، اما نحن الشباب فننحاز الى جانب الفتاة الجميلة التي على اليمين التي تقول، من خلال نظرتها المثيرة والخالية من أي ورع، لمن يرى هذا المشهد : «أليس صحيحا أن هذه الأم وابنها يشكلان لوحة ممتعة وجذابة ؟» ويلقي هذا الوجه وهذه النظرة شعاعا من الفرحة على وجوه المشاهدين، وبهذا يستمتع بنفسه الفنان الاصيل الذي أبدع كل هذا ويضيف فرحته الى تلك التي يتلقاها المشاهدون من الفن. ـ أما فيما يخص عبارة «المسيح المخلص» المتجلية في راس طفل فان رفائيل الصادق، الذي لم يكن ينوي رسم حالة نفسية لا يؤمن بوجودها، قد خدع بطريقته الجميلة معجبيه المؤمنين، لقد رسم هذا التصور الطبيعي الذي ليس نادرا، عين رجل في رأس طفل، بل وعين رجل شجاع يهب للمساعدة وقد أبصر إنسانا في شدة. هذا الوجه يتطلب لحية، وان غيابها وقراءة عمرين مختلفين على نفس الوجه الواحد هي المفارقة الممتعة التي فسرها المؤمنون من منطلق إيمانهم بالمعجزة، تماما مثلما كان الفنان ينتظره منهم، بمهارتهم في التأويل والتحريف.

74. الصــلاة.

لا يكون لأي صلاة ـ هذه العادة القديمة التي لم تنقرض بعد تماما ـ اي معنى الا بشرطين : لابد ان يكون ممكنا حمل المعبود على تغيير نيته، ولابد للمصلي أن يعرف معرفة جيدة ماهو في حاجة اليه، ما يرغب فيه فعلا. وهذين الشرطين، التقليديين المقبولين في كل الديانات الاخرى، قد أنكرتهما المسيحية، وان حافظت على الصلاة مع ذلك، رغم ايمانها بكون عقل الرب كله حكمة وفطنة، وهو ما يجعل هذه الصلاة غير ذات معنى في الواقع، بل تجديفية، فلتبين عن حيلة الحية المدهشة لديها، لان الامر الواضح «لا تصل» قد يؤدي بالمسيحيين، بسبب الضجر، الى جحود المسيحية. في الدعاء والعمل المسيحيين يشغل الدعاء مكان اللذة، وبدونه ماذا كان سيفعل أولئك التعساء الذين يحرمون على أنفسهم العمل، أعني القديسين ! – وقد اعتبروا محاورة الله، سؤاله كل الأشياء الممتعة، سخرية المرء من حمقه المتجلي في أن له رغبات رغم أن له أبا طيبا، قد اعتبروا هذا اكتشافا ممتازا.

75 . كذبة مقدسة .

الكذبة التي نطقت بها آريا – Arria –* المحتضرة (إني لا أتألم) تلقي ظلا على كل الحقائق التي نطق بها المحتضرون. وهي الكذبة المقدسة الوحيدة التي صارت مشهورة، بما أن صيت القداسة لا يرتبط عادة إلا مع الاخطاء.

76 . الحواري الأكثر ضرورة .

لا بد أن يكون دائما من بين الإثنا عشر حواري واحد صلب كالصخر ليبنى عليه صرح الكنيسة.

77 . أيهما أسرع زوالا، الشكل أم الجوهر؟

في المسائل القانونية والأخلاقية والدينية يكون الجانب الخارجي، الملموس، أي الإستعمال، السلوك، الطقس (Cérémonie)، أدوم : كل هذا يشكل الشكل الذي تنضاف إليه دائما روح جديدة. لاتنفك العبادة يعاد تأويليها، مثل نص حرفيته حقيقية، الأفكار والأحاسيس هما عنصرها السائل، و العادات هي الجزء الصلب.

78 . مرض الايمان بالمرض.

المسيحية هي أول من قدم للعالم رسما لصورة الشيطان، وهي أول من أدخل الخطيئة في عالم الناس. وشيئا فشيئا تَزعزع حتى أعمق جذوره الايمان بالعلاجات التي كانت تقدمها ضد الخطيئة : وما يستمر الآن هو الايمان بالمرض الذي تعلمه هذه المسيحية وتنشره.

79. كلمات وكتابات القساوسة.

إن لم يكشف أسلوب الكاهن وتعبيره العام، حديثا وكتابة، عن الانسان المتدين فيه فانه لن يكون على الناس ان يأخذوا آراءه في الدين، أو المؤيدة له، مأخذ الجد. انها لن تكون مؤيدة بقوة لمضمونها ذاته اذا كان الكاهن، مثلما يشي بذلك أسلوبه، ساخرا، مدعيا، ماكرا، حاقدا، وتعرف حالته النفسية اضطرابات وتغيرات تماما مثل غير المتدينين، – وما أقل القوة التي ستبقى فيها لتقنع المستمعين والقراء ! باختصار، انه سيصلح ليزيد قلة تدين هؤلاء.

80. الخطر في الشخص

كلما ازدادت قيمة الرب بصفته ربا، كلما أخلص له الناس أقل، باعتباره شخصا. يتعلق الناس بالصور التي يشكلها فكرهم أكثر مما يتعلقون بأعز من يحبون: لذلك

يضحون بأنفسهم من أجل الدولة او الكنيسة أو الرب، ما دام ذلك من ابتكارهم، مادام فكرتهم، ولا اعتبار له كشخص. لانهم يتناقشون معه تقريبا دائما في حالة كونه شخصا، وحتى أتقاهم جميعا قد أفلتت منه هذه الكلمة المرة التي نعرفها: «إلهي، لم تخليت عني ؟»

81. العدالة غير الدينية.

من الممكن تقويض العدالة غير الدينية من خلال عقيدة لامسؤولية الناس التامة وبراءتهم، وقد كانت هناك محاولة في هذا الاتجاه بالارتكاز بالضبط على العقيدة المضادة، عقيدة مسؤولية الانسان التامة وإثمه. منشيء المسيحية هو الذي أراد إلغاء العدالة غير الدينية وإلغاء المحاكمة والعقاب، لأنه كان يفهم كل خطأ على أنه «إثم»، اي جريمة في حق الرب وليس في حق الناس، وكان، من جهة اخرى، يعتبر أيا كان آثما، في أعلى درجات الاثم وبكل الاعتبارات تقريبا. غير ان عدالته تعلن بانه لا ينبغي للمذنبين أن يحاكموا أمثالهم. لقد كان يرى كل قضاة العدالة الدنيوية مذنبين مثل أولئك الذين يحاكمونهم، وكانت براءتهم تبدو له منافقة وفريسية * وقد كان، فضلا عن ذلك، ينظر الى دافع الفعل لا الى النجاح، اما بشأن تقدير الدوافع فقد كان يرى ان هناك شخصا واحدا ثابت النظر، هو نفسه (او الرب، كما كان يقول).

82 . تصنع في الوداع.

يتصور الذي يريد الانفصال عن حزب او ديانة ما انه يتحتم عليه دحضهما. وهذه فكرة تنم عن الغطرسة. الشيء الوحيد الذي يتحتم عليه هو ان يرى بوضوح الروابط التي كانت تشده الى ذلك الحزب او الدين حتى ذلك الحين ثم آنفصمت الآن، ان يرى النوايا التي دفعته اليهما والتي تدفعه الآن في اتجاه آخر. إن انضمامنا لهذا الحزب وهذه الديانة لم يتم لأسباب معرفية محضة : ولا يجب، حين ننفصل عنهما، ان نتصنع هذا.

83 . المخَلِّص والطبيب.

من المسلم به ان منشيء المسيحية لم يكن، بوصفه عارفا بالنفس الانسانية، سالما من الثغرات والاحكام المسبقة الكبيرة، وبصفته طبيبا فانه قد وقع في الايمان الحقير والدنيوي بطب شامل. انه يشبه أحيانا في طريقته طبيب الاسنان الذي يزعم انه يشفي كل الآلام بقلعه للضرس، وهكذا يحارب الحسوية بهذه النصيحة : «اذا جرتك عينك نحو الشر فاقلعها». – الفارق الذي بينهما هو كون طبيب الاسنان يحقق هدفه في

القضاء على آلام المريض بهذه الطريقة السمحة بحيث يصير ضحكة، اما المسيحي الذي يعمل بهذه النصيحة ويظن انه قد تخلص من حسويته فانه يخدع نفسه : انها تظل حية، مثل مصاص دماء، وتظل تعذبه متقنعة بأقنعة بشعة.

84 . السجناء.

دخل السجناء ذات صباح الى الساحة التي يعملون فيها فلم يجدوا الحارس هناك. اما بعضهم فقد شرعوا في العمل، لانهم طبعوا على ذلك، واما الآخرون، وقد صاروا عاطلين، فقد القوا حولهم نظرات تحد. آنذاك تقدم واحد منهم وقال بصوت مرتفع : «اعملوا قدر ما شئتم او لا تفعلوا شيئا، فالأمر سيان. لقد انكشفت مؤامرتكم، لقد ترصدكم السجان هذه الايام الاخيرة وسوف يحاكمكم في الايام القادمة محاكمة مرعبة. انكم تعرفونه، انه قاس وحقود. الآن تنبهوا جيدا : انكم لم تعرفوني حتى الان، اني لست من أبدوا لكم، ولكن أكثر : أنا ابن السجان، وهو يقيم لي اعتبارا لا حد له. استطيع أن أنقذكم، اريد ان انقذكم، ولكن، واعلموا هذا جيدا، فقط أولئك الذين يؤمنون بأنني ابن السجان، اما الآخرون فليجنوا ثمار عدم ايمانهم». ـ « طيب، قال بعد صمت احد القدماء، ولكن ماذا سيجديك ان نؤمن بك أو لا نؤمن ؟ ان كنت ابنه فعلا وان كنت قادرا على ما تقوله التمس لنا الرحمة، سيكون ذلك احسانا منك. أما مسألة الايمان او عدمه هذه فدعها جانبا !» ـ «وانا ايضا لا أصدقه، قال سجين شاب : لقد راودته فكرة ما، هذا كل ما في الامر. أراهن اننا سنلتقي هنا في غضون ثمانية ايام مثلما نحن مجتمعون اليوم، وان السجان لا يعرف شيئا» ـ «وحتى ان كان يعرف شيئا فانه لم يعد يعرفه» قال سجين آخر حل لتوه بالساحة، «لقد مات السجان فجأة». ـ ياابن الرب، صاح الكثير منهم وقد اختلط حابلهم بنابلهم، يا ابن الرب، وماذا عن الارث ؟ أنكون الآن سجناءك أنت ؟ ـ «لقد قلت لكم عن ذلك، رد عليهم برقة، ساخلص كل من يؤمن بي، وهذا صحيح مثلما هو أبي حي.» ـ لم يضحك السجناء ولكن هزوا اكتافهم ثم انصرفوا وتركوه.

85. مُضْطهِد الرب.

القديس بولس هو الذي اكمل الفكرة التي رددها كالفن والقائلة بان عذاب جهنّم معد منذ الأزل لعدد لا يحصى من الناس وان هذا النظام الكوني قد تم ترتيبه بهذا الشكل لتتجلى فيه عظمة الرب. اذن فالجنة والجحيم والانسانية قد خلقت لترضي... غرور الرب ! اي غرور وحشي وشره هذا الذي سيحرق روح الانسان الذي كان هو الاول او الثاني في تخيل هذه الاشياء ! ـــ وقد ظل القديس بولس هو شاول* ـ مضطهد الرب.

86. سقراط.

إذا سارت الامور على احسن ما يرام فانه سيأتي الوقت الذي سيفضل فيه الناس، لكي يبلغوا الاتقان في الاخلاق والفكر، اللجوء الى مأثورات سقراط عوض الانجيل، وسيستخدمون مونطيني وهوراس دليلين (guides) يريانهم السبيل المؤدية الى فهم الحكيم والوسيط البسيط والخالد من بين كل الآخرين، سقراط. اليه تقود مختلف سبل انماط الحياة الفلسفية التي هي في الواقع أنماط حياة طباع متعددة حددها العقل والعادة، وكلها منعطفة نحو ملذات الحياة ونحو تحقيق الكينونة، ومن ثمة يمكن ان نستنتج أن السمة الأصلية لسقراط هي اشتراكه في كل الطباع. ــ انه يمتاز على منشيء المسيحية بتلك الابتسامة التي تفرق بين رصانته وبين تلك الحكمة المفعمة خبثا، تلك الابتسامة التي تترك الانسان في أفضل حال نفسية، كما يتفوق عليه، علاوة على ذلك، بالذكاء.

87. تعلم اجادة الكتابة.

لقد ولى عصر اجادة الحديث، لان عصر الحضارات الحضرية قد مضى. الحد الاقصى الذي سمح به ارسطو للحاضرة الكبيرة ــ على نذير الحرب ان يكون قادرا على اسماع الجماعة مجتمعة ــ لا يهمنا كثيرا، مثلما لا تهمنا الجماعات الحضرية، نحن الذين نريد ان نفهم من طرف الأمم الأخرى . لهذا يجب على كل انسان تحركه مشاعر أوربية طيبة ان يتعلم الان كيف يكتب جيدا ودائما أفضل : لابد من المرور بهذه المرحلة، حتى وان كان المرء قد ولد في المانيا حيث تعتبر رداءة الكتابة مزية قومية. واجادة الكتابة تعني اجادة التفكير، العثور على شيء يستحق إطلاع الناس عليه ومعرفة إبلاغه لهم، تعني قابلية كتابتنا لأن تترجم الى لغات الدول المجاورة، ان تكون في متناول الاجانب الذين يتعلمون لغتنا، العمل على ان يصير كل ملك ملكا جماعيا، ان يكون كل شيء تحت تصرف الرجال الاحرار، واخيرا تهييء الظروف، وان كان هذا لا يزال بعيدا جدا، التي سيتلقى فيها الاوربيون الصالحون، وقد اكتمل نضجهم، رسالتهم الكبرى التي هي قيادة الحضارة الأرضية كلها وحراستها. ــ والذي يمجد العكس، أي عدم الانشغال بإجادة القراءة والكتابة ــ هاتين المزيتين تنموان او تضعفان معا ــ يري في الواقع الشعوب طريقا لتتمكن من أن تكون قومية أكثر : انه يزيد مرض هذا القرن استفحالا ويجعل من نفسه عدو الاوربيين الصالحين وعدو المفكرين الأحرار.

88. قاعدة أفضل أسلوب.

قد تكون قاعدة الأسلوب أولا هي العثور على العبارة التي بفضلها ينقل الكاتب أية حالة نفسية الى القارىء أو المستمع، ثم العثور على العبارة المناسبة للحالة النفسية

المرغوبة لدى شخص ما، والتي يكون تبليغها ونقلها مرغوبين هما كذلك أشد ما تكون الرغبة : انها وضع الشخص الصاحي والصادق، المنفعل أعمق انفعال، ذو الروح المرحة، الذي تغلب على أهوائه. تلك هي قاعدة أفضل أسلوب: انه يوافق الانسان الصالح.

89 . اعتبار المظهر.

يعبر مظهر الجمل عما اذا كان المؤلف متعبا، واذا اخذنا جملة واحدة بشكل منفصل فقد نجدها رغم ذلك قوية وجميلة نظرا لكون الكاتب قد عثر عليها لذاتها من قبل في اللحظة التي أشرقت لديه الفكرة لأول مرة. ويحدث الامر هكذا مرارا لدى غوته الذي كان غالبا ما يملي حين يكون متعبا.

90 . الآن وقبل الآن.

أ : «ما يزال النثر الالماني شابا : وأبوه، كما يرى غوته، هو فيلاند.»

ب : لا يزال شابا جدا، ولكنه قد صار قبيحا جدا ! ج : «ولكن ... حسب ما أعلم، لقد كان القس فولفيلا يكتب نثرا المانيا : اذن فعمر هذا النثر حوالي خمسة قرون.» ب : انه جد قديم، وايضا جد قبيح.

91. ألمانية أصيلة.

النثر الالماني، الذي لا يتبع أي نموذج وله من الصفات ما يجعله نتاجا أصيلا للذوق الالماني، قد يعطي للمدافعين المتحمسين عن حضارة ألمانية أصيلة مستقبلية دليلا على المظهر الذي سيكون فيها مثلا، دون احتذاء أية نماذج، لثوب ألماني حق، لحياة مجتمع ألماني، لتزيين داخلي ألماني، لفطور الماني. ــ وقد ينتهي احد الذين فكروا في هذه المنظورات بان يصيح، وقد أصابه الهلع : «اننا ربما نملك هذه الحضارة الاصيلة الآن... غير اننا قلما نحب الحديث عنها !»

92. كتب ممنوعة.

لا تقرأوا ابدا اي شيء مما يكتبه هؤلاء المبدعون الحمقى المتغطرسون والمشوشون الذين يتصفون بذلك الخطل المقيت، اي المفارقة المنطقية : انهم يستعملون الاشكال المنطقية هناك حيث يرتجلون بسفاهة ويتوهمون. («إذن» لديهم تعني : «ايها القارىء البليد، ليست اذن هُنَا لَكَ، بل لي انا» ــ وهو ما يليق ان نجيب عنه كما يلي: «ايها الكاتب البليد، لماذا تكتب إذن ؟»)

93 . إظهار النباهة.

الذي يريد إظهار النبـاهة يكشف بذلك انها تنقصـه كثيرا. فـهذا الخطل الذي لدى الفرنسيين الروحانيين، الذي هو مجانسـة افضل التماعاتهم بظل من الازدراء، أصله هو نية الظهور أغنى مما هم في الواقع : انهم يريدون العطاء بلا مبالاة، وكانهم قد تعبوا من هذا السخاء الابدي المستمد من كنوزهم الوفيرة.

94. الادب الفرنسي والادب الالماني.

مأسـاة الأدباء الالمان والفرنسيين خلال المائـة سنة الاخيرة تعود الى كـون الالمان قد غادروا مـدرسة الـفرنسـيين مبكرا، وكـون الفرنسـيين بالتالي قـد دخلوا مدرسـة الالمان مبكرا.

95. نثرنـا.

ليس هناك شعب متحضـر معاصـر له نثر رديء مثل الشـعب الالماني، وحين يقول الفرنسيون الروحانيون المتقززون : ليس هناك نثر ألماني، فلا داعي لأن نغضب، لان هذا قد قيل بلطافـة اكثـر من التي نستـحق. واذا بحثنا عن أسباب ذلك فـسنصل الى هذه النتيـجة الغريـبة وهي ان الالماني لا يعرف غـير النثر المرتجـل ولا يتصور اي نثـر آخر. أنه قلما يفـهم اذا ما قال لـه ايطالي بان النثر اصعب من الشـعر نظرا لكون تجسيد الجـمال العاري أصعب، بالنسبة للنحات، من تجسيـد الجمال المكسو. البيت الشعري، الصورة، الايقاع والقافية يتطلبون مجهـودات كبيرة، ـ يفهم الالماني هذا ايضا ولكنه ليس ميالا لاضفاء قيمة كـبيرة بوجه خاص على الارتجال الشعري. ولكن كتابة صـفحة نثر مثلما تنحت تمثالا ؟ ـ يعد بالنسبة له مثل حكاية من بلاد الحكايات (pays de la fable).

96. الاسلوب الرفيع.

يولد الأسلوب الرفيع حيث يتفوق الجمال على الفظاعة.

97. محاشاة.

إننا لا ندري مكمن رقة التعبير والصـياغة، لدى المفكرين الكبار، ما دمنا لا نستطيع معرفة الكلمة التي كان سيستعـملها حتما اي كاتب رديء ليعبر عن نفس الشيء. كل الفنانين الكبـار، حين يسوقـون سيـاراتهم، يبدون مـيلا الى التـحاشي، الى الخـروج عن الطريق، ـ ولكن ليس الى قلب السيارة.

98. شيء مثل الخبز.

الخبز يضعف ذوق المواد الغذائية الأخرى ويمحوه، لذلك يدخل في كل وجبة طويلة. لا بد أن يكون في كل الأعمال الفنية شيء مثل الخبز لكي تكون لها تأثيرات متنوعة تؤدي، بتتابعها المباشر الذي لا يتوقف من حين لآخر، بسرعة إلى إثارة التعب والنفور، بحيث تصير وجبة فنية طويلة شيئا مستحيلا.

99. يوحنا بولس.

لقد كان يوحنا بولس (Jean Paul) يعرف الكثير، ولكن لم يكن لديه علم، كان بارعا في مختلف أنواع زخارف الأسلوب، ولكن لم يكن لديه فن، لم يكن يعاف أكل أي شيء تقريبا، ولكن لم يكن له ذوق، كان عاطفيا وجديا، ولكنه كان يضيف إليهما، حين يريد إظهارهما، عصيدة من الدموع منفرة، بل كان نبيها، ولكن نباهته كانت مفرطة القلة، مع الأسف، بحيث لا تشبع شهيته القوية : وهذا ما يجعله يخيب آمال القارئ بنقص نباهته. إجمالا، لقد كان نبتة ضارة فاقعة الألوان وقوية الرائحة نبتت بين عشية وضحاها على تربة القمح الطيبة، تربة شيلر وغوته، ورغم كونه رجلا طيبا ورهيف الإحساس فقد حولها إلى مصيبة ترتدي مبذلا.

100. معرفة تذوق التناقض.

لكي نتذوق عملا أدبيا من الماضي مثلما أحس به معاصروه لا بد أن يكون على لساننا الذوق الذي كان سائدا حينها والذي تجرد منه هذا العمل.

101. مؤلفون كالكحول.

كثير هم الكتاب الذين ليسوا لا عقلا ولا خمرا، بل كحولا: قد يلتهبون، وحينها يمنحون بعض الدفء.

102. الحاسة الوسيطة.

غالبا ما حمل الذوق، وهو الحاسة الوسيطة حقا، الحواس الأخرى على تبني نظرته للأشياء ونفث فيها قوانينه وعاداته. يمكننا، ونحن على مائدة الطعام، أن نحصل على معلومات تخص أدق أسرار الفنون : ما علينا إلا ملاحظة ما نتذوقه، اللحظة التي نتذوقه فيها، الذوق الذي نجده فيه، وكم من الوقت نجده فيه.

103. ليسينك.

لدى ليسينك (Lessing) مزية فرنسية أصيلة، وقد تردد بمثابرة، بوصفه كاتبا، على المدرسة الفرنسية : إنه يعرف كيف يرتب أموره ويعرضها بشكل جميل في الواجهة. لولا هذا الفن الحقيقي لظلت أفكاره، تماما مثل مواضيعها، في دائرة الظل، ودون أن يخسر العالم بذلك كثيرا. ولكن الكثيرين (وخاصة الجيل الأخير من الأطباء الألمان) قد تعلموا من أدبه، وعدد الذين استمتعوا به لا يحصى. صحيح أن هؤلاء التلاميذ لم يكونوا في حاجة، مثلما حدث ذلك كثيرا، إلى استعارة تصنعه المقزز في النبرة، وخليطه الجامع بين مجادلته الكتابية غير المتقنة وبين البساطة. الإجماع متحقق الآن بشأن ليسين «الشاعر الغنائي»، وسوف يتحقق بشأنه ككاتب مسرحي.

104. قراء غير مرغوبين.

القراء الطيبون البلداء والخرقى، الذين يقعون أرضا كلما اصطدموا بشيء ما، وفي كل مرة يتألمون، يعذبون الكاتب أشد العذاب.

105. أفكار الشعراء.

كل الأفكار الحقيقية، لدى الشعراء الحقيقيين، تمشي محتجبة، مثل نساء مصر: لا تنفذ من تحت الحجاب إلا عين الفكر الثاقب. ــ ليس لأفكار الشعراء معدل القيمة التي نعطيها إياها: إننا ندخل في تلك القيمة قيمة الحجاب وقيمة فضولنا.

106. اكتبوا ببساطة وبشكل نافع.

إننا نبرئ المؤلف من تحولات وتطورات وبرقشة الهوى الذي نجلبه معنا ونجعل كتابه يستفيد منه شريطة أن يمتعنا هو بشيء ما.

107. ڤيلاند.

لقد كتب ڤيلاند (Wieland) بالألمانية أفضل من أي كان، ووجد فيها رضاه وسخطه الجديرين به (ترجمته لرسائل شيشرون وترجمته لوسيان هما أفضل الترجمات الألمانية)؛ ولكن أفكاره لم تعد تجعلنا نفكر. كما أننا لم نعد نطيق أخلاقياته الباسمة ولاأخلاقياته الباسمة: فهما منسجمتان إلى حد كبير. الناس الذين كانوا يجدون فيها متعة كانوا أفضل منا ولا شك، ــ ولكنهم كانوا بلداء أيضا، أولئك الذين كانوا في أمس الحاجة إلى مثل هذا الكاتب. لم يكن الألمان في حاجة إلى غوته، لذلك لم يعرفوا ما يفعلون به. لننظر بهذا المفهوم إلى أفضل رجالات الدولة والفنانين لدينا : ليس منهم من كان له غوته مربيا.

108. أعياد نادرة.

حيثما وجدت مزية الإقتضاب في الأسلوب ومزية الهدوء والنضج لدى مؤلف ما توقف وأقم عيدا وسط البيداء، فإن هذا الحبور لن يعود إليك إلا بعد أمد طويل.

109. كنز النثر الألماني.

إذا استثنينا أعمال غوته، وخاصة محاوراته مع إيكرمان، وهو أفضل الكتب الألمانية، فماذا يبقى من الأدب الألماني المنثور الذي يستحق أن يقرأ وتعاد قراءته ؟ يبقى كتاب لشتنبرغ، الأمثال، وأول كتاب في السيرة الغيرية لمؤلفه يونغ ستيلين، وكتاب صيف سان مارتان لأدالبرت ستيفتر، وكتاب ناس سيلدڤيلا لغوتفريد كيلر، ــ يكفي هذا الآن.

110. أسلوب الكلام وأسلوب الكتابة.

يتطلب فن الكتابة، قبل كل شيء، طرق تعويض أشكال التعبير التي تتوفر عليها الذات المتكلمة وحدها : الحركة، النبرة، الجرس، والنظرة، كما أن أسلوب الكتابة يختلف كثيرا عن أسلوب الكلام، وهو أصعب منه بكثير : إنه يريد، بوسائل أقل، أن يسمع صوته مثله تماما. لقد كان ديموستين يلقي خطبه بطريقة تخالف التي نقرأها بها : إنه يعيد صياغتها قبل أن يدع الناس يقرأونها. كان لا بد لخطب شيشرون أن تصاغ أولا على طريقة ديموستين لنفس الغرض، أما إذا أخذناها كما هي فإننا نجد فيها من ميدان الخطابة الروماني أكثر مما قد يطيقه القارئ.

111. حذر في الاستشهادات.

يجهل الكتاب الشباب أن العبارة الجميلة والفكرة الجيدة لا يكون لهما تأثير جيد إلا وسط مثيلاتهما، وأن استشهادا ممتازا قد يلغي صفحات بأكملها، بل الكتاب كله، منبها القارئ بصوت عال :« انتبه، أنا الحجر الكريم وكل ما حولي رصاص، رصاص بخس وباهت.» لا تستطيع أية فكرة أو كلمة أن تعيش إلا وسط ما يلائمها: إنها أخلاق الأسلوب المنقح.

112. كيف نقول الأخطاء ؟

قد نجادل في أيهما أكثر ضررا، أن نسيء التعبير عن الأخطاء أم أن نحسن التعبير عنها مثل أفضل الحقائق. الشيء المؤكد هو أنها في الحالة الأولى تلحق ضررا مضاعفا بالعقل الذي يصعب إخراجها منه، وصحيح مع ذلك أنه ليس لها تأثير أكيد إلا في الحالة الثانية : تكون عدواها أقل.

113. التحديد والتكبير.

لقد حدد هوميروس مقاييس موضوعه وصغَّرها، ولكنه ترك المشاهد البعيدة الواضحة تتسع وتكبر تلقائيا ـ وذلك ما سيفعله ويعيد فعله الشعراء المأساتيون فيما بعد: سيتناول كل واحد منهم أجزاء من الموضوع أصغر من التي تناولها من سبقه، ولكنه سيحصل على ازهرار أوفر داخل تلك الوشائع التي تحد بستانه.

114. الأدب والأخلاقية ينيران بعضهما.

يمكننا أن نبين من خلال مثل الأدب الإغريقي القوى التي في ظلها يزدهر العقل الإغريقي، والطريقة التي سلك بها طرقا مختلفة، والسبب الذي أدى إلى ضعفه. كل هذا يرسم لوحة ما وقع كذلك بالنسبة للأخلاقية الإغريقية وما سيقع لكل أخلاقية، إننا نرى فيها كيف كانت في البدء إكراها، كيف أظهرت القسوة، ثم لانت تدريجيا، كيف تولدت عنها في الأخير متعة في بعض الفعال، في بعض الأشكال والأعراف، ومن هذه المتعة تولد ميل إلى التطبيق، إلى الامتلاك الخاص لها، كيف يمتلئ الميدان ويزدحم بالمتسابقين، كيف يرهقهم ذلك ثم يشرعون في البحث عن مواضيع جديدة للمنافسة والطموح، يعيدون الحياة لمواضيع أخرى كانت مهجورة، كيف يتكرر المشهد ويكل المتفرجون من المشاهدة، لأن الدائرة قد تم عبورها كاملة ـ حينها يحدث توقف، تكون نهاية : تضيع الجداول في الرمل، هذي النهاية، نهاية واحدة على الأقل.

115. المناظر الدائمة المتعة.

لهذا المنظر الطبيعي سمات دالة، إنه قابل للرسم، ولكني لا أستطيع إيجاد صيغة لذلك، إنه يبقى على العموم متفلتا. إني ألاحظ أن كل المناظر التي تخاطبني بشكل دائم تخفي تحت تنوعها ترسيمة خطية بسيطة، هندسية. ودون مثل هذا الأساس الرياضي لن يصير أي منظر موضوع لذة فنية. وربما تجوز استعارة هذه القاعدة لتطبيقها على الإنسان.

116. القراءة بصوت عال.

تتطلب القراءة بصوت مرتفع امتلاك فن القول : يتعلق الأمر باستعمال نبرات باهتة في كل مكان، وبتحديد كثافة الألوان الرمادية في تواز تام مع لون الخلفية ذات الألوان القوية والثابتة، والتي فكرتها الرئيسية دائمة الحضور في العقل، وهو ما يعني احترام إلقاء نفس الفقرة. لا بد إذن من إتقان الإلقاء.

117. الحس الدرامي.

الذي لا يملك حواس الفن الأربعة الدقيقة يسعى لأن يفهم كل شيء من خلال الحس الخامس، وهو أكثرها فظاظة: إنه الحس الدرامي.

118. هـردر.

ليس هردر أبدا مثلما جعل الناس يعتقدونه (وكان هو نفسه يتمنى أن يعتقده) : لا مفكرا كبيرا ومبدعا، ولا أرضا خصبة ذات نبت جديد، ذات مزايا غير مستعملة مثل مزايا الغابة الغفل. إلا أنه كان يمتلك حاسة الشم، كان يرى بواكير الفصل ويقطفها قبل الآخرين، وبذلك يعتقدون أنه هو الذي انبتها بنفسه. لم يكن عقله واضحا ولا غامضا، لا قديما ولا جديدا، بل في موضع وسط بينها، وكان مثل صياد دائما يترصد الأماكن التي فيها تحولات، انهيارات، اضطرابات، علامات انبجاس ونمو داخليين، كان اضطراب الربيع يعذبه، ولكنه لم يكن يريد تصديق نفسه، هو الكاهن الطموح الذي رغب كثيرا في أن يصبح باب العقول في عصره! ثمة كانت معاناته. يبدو أنه عاش طويلا وهو يطمع بممالك عديدة، بل بإمبراطورية عالمية، وقد كان هناك من يصدقونه: وغوته الشاب كان واحدا منهم. ولكنه كان يعود صفر اليدين من كل مكان ينتهي فيه الناس بمنح العرش، فقد سلب منه كانط وغوته، ثم أوائل المؤرخين وفقهاء اللغة الألمان الحقيقيون ما كان يعتقد أنه قد اختص به، ــ ولكنه لم يكن يرتدي طوعا لباس الكرامة والحماس، لقد كانا لباسا يخفي الكثير، ويخدعه ويواسيه هو نفسه. صحيح أنه كان لديه حماس وحمية، ولكن طموحه كان أكبر ! وهو الذي كان يؤجج النار ويجعلها تطقطق وتطلق دخانا ــ له أسلوب يتأجج، يطقطق ويطلق دخانا ــ ولكنه كان يرغب في لهب كبير، إلا أن اللهب لم يتصاعد أبدا! إنه لم يجلس إلى طاولة المبدعين الحقيقيين، وطموحه كان يمنعه من الجلوس بتواضع بين المستهلكين الحقيقيين. لقد كان إذن مواكلا قلقا، كان متذوق كل الأطعمة الفكرية التي بحث عنها الألمان جماعة، خلال نصف قرن، في كل العصور وتحت مختلف أشكال المناخ العالمية. إنه لم يشعر أبدا بالشبع والرضى، كما أنه كان في الغالب مريضا، لذلك كانت الغيرة أحيانا تجلس عند رأسه، وكان النفاق كذلك يعوده. وقد تبقى له من ذلك شيء مسلوخ ومرغم، وتنقصه، أكثر من أي واحد من كلاسيكيينا المزعومين، الرجولية البسيطة والقوية.

119. رائحة الكلمات.

لكل كلمة رائحتها. هناك تناغم وتنافر في الألوان، وبالتالي في الكلمات.

120. الأسلوب المنشود.

الأسلوب الجاهز إهانة لمن يحب الأسلوب المنشود.

121. قســم.

لن أقرأ أبدا لمؤلف يظهر لنا أنه أراد تأليف كتاب، ولكن فقط للمؤلفين الذين تصير أفكارهم كتابا فجأة.

122. التقاليد الفنية.

ثلاثة أرباع ما كتبه هوميروس أصله التقاليد (convention)، نفس الشيء يقال بالنسبة لكل الفنانين الإغريق الذين لم يكن هناك أي شيء يدفعهم لهذا الحب الجنوني المعاصر للأصالة. إنهم لم يكونوا يخشون التقاليد، لأنها هي التي كانت تربطهم بجمهورهم. التقاليد إذن هي طرق فنية تم إخضاعها ليفهمها المستمعون، هي اللغة المشتركة التي يتعلمها الفنان بمشقة ليتواصل بها. خصوصا إذا أراد، مثل الشاعر والموسيقي الإغريقيين، أن يتفوق في الحال بكل واحد من أعماله ــ وقد اعتاد أن يواجه خصما أو اثنين أمام الملأ ــ، والشرط الأول هو أن يفهم العمل في الحال: وهو ما لا يمكن حصوله إلا بفضل التقاليد. أما ما يبتكره الفنان ما وراء التقاليد فإنه يستخدمه بمبادرته الخاصة، متحملا كل التبعات، وتكون النتيجة، في أفضل الأحوال، هي إبداع تقاليد جديدة. عادة ما ينظر إلى الأصالة بدهشة، وأحيانا يتم الهيام بها، ولكنها نادرا ما تفهم، وتجنبك التقاليد بعناد يعني عدم الرغبة في فهم الأخرين لك. فعم يدل الحب الجنوني المعاصر للأصالة ؟

123. تكلف العلم لدى الفنانين.

كان شيلر يعتقد، مثل بعض الفنانين الألمان الآخرين، أن النباهة تمنح الحق في الإرتجال، حتى والقلم في اليد، في كل المواضيع الصعبة. وهكذا جاءت مقالاته النثرية، ــ نماذج، بكل المقاييس، من الطريقة التي لا ينبغي بها تناول القضايا العلمية في الجمالية والأخلاق، ــ وخطراً على القراء الشباب الذين لا يملكون الشجاعة، نظرا لإعجابهم بشيلر الشاعر، ليكونوا فكرة سيئة عن شيلر المفكر والكاتب. ــ الإغراء الذي يستولي بسهولة وبشكل مفهوم على الفنان ليطأ مرة واحدة ذلك الحقل الممنوع عليه ويقول رأيه في العلم ــ لأن الراسخين أحيانا يجدون مهنتهم ومحرفهم غير مطاقين ــ، هذا الإغراء

يؤدي بالفنان لأن يظهر للناس ما ليسوا في حاجة إلى رؤيته، وهو أن حجيرة تفكيره ضيقة ومشعثه ـ ولم لا؟ مادام لا يسكنها؟ ـ أن مخازن معرفته نصفها فارغ ونصفها مملوء من هنا وهناك ـ ولم لا؟ فهذا لا يعتبر غير مناسب في الواقع للطفل الذي هو الفنان ـ، خاصة وأن ألفاظه متصلبة وصدئة لتقوم بأسهل تمارين المنهجية العلمية المألوفة حتى لدى المبتدئين ـ وليس له أن يخجل حتى من هذا، حقا! وفي مقابل ذلك، يبين عن فن هائل في تقليد كل العيوب والنقائص والمعرات المتحذلقة لدى العلماء، متخيلا أن ذلك يشكل جزءاً، إن لم يكن من الشيء فمن ظاهره على الأقل، والجانب الممتع بالضبط في أعماله الجمالية هو كونه يظهر فيها، دون أن يقصد ذلك، ما هو كفء فيه : المحاكاة الساخرة للعلماء وليس للفنانين. ولا ينبغي أن يكون له من العلم موقف آخر غير هذا الموقف الساخر، نظرا لكونه فنانا لا غير.

124. **فكرة فاوست.**

تم إغواء خياطة صغيرة وحلت بها مصيبة، كان المجرم طبيبا تخرج من أربع كليات. ولكن هذا لم يحدث بشكل عادي ؟ لا، بكل تأكيد! لولا مساعدة الشيطان نفسه لما استطاع الطبيب أبدا فعل ذلك. ـ أتكون هذه هي أكبر «فكرة مأساتية» ألمانية، كما نسمع الألمان يقولونه فيما بينهم ؟ ـ لقد كانت هذه الفكرة بالنسبة لغوته فكرة فظيعة، فقلبه الحنون لم يملك إلا أن يضع الخياطة الصغيرة بجوار القديسين بعد موتها، «تلك الروح الطيبة التي قصرت في واجبها مرة واحدة فقط». بل أكثر من ذلك، لقد مكنته الهرجة (farce) التي راهن فيها على الشيطان في اللحظة الحرجة من انتزاع الطبيب الكبير نفسه من أيدي السماء، في الوقت المرغوب، ذلك «الرجل الطيب» ذو «الطموح الغامض» : ـ وهناك في السماء يلتقي الأحبة. ـ لقد قال غوته يوما أن طبعه متسامح جدا ولا يصلح للمأساتي الحق.

125. **هل هناك « كلاسيكيون ألمان » ؟**

يقول سانت بوف (Sainte-Beuve) في مكان ما أن كلمة كلاسيكي لا تنطبق بتاتا على شكل بعض الآداب : فمن سيتحدث بسهولة، مثلا، عن «الكلاسيكيين الألمان » ؟ ـ وماذا يقول عن ذلك كتبيونا، الذين هم في طريق إضافة خمسين كلاسيكي ألماني جديد إلى الخمسين المفترض أن نصدقهم أنهم كذلك ؟ يكاد الأمر يبدو أنه يكفي أن يكون الكاتب قد مات منذ ثلاثين سنة أو تكاد، أن يترك بعد موته فريسة سهلة للجمهور، لكي يسمع فجأة أبواق البعث، وقد صار كلاسيكيا! يحدث هذا في عصر ولدى شعب نجد فيهما أنه، من بين الستة الكبار الذين أسسوا أدبنا،

خمسة يشيخون أو قد شاخوا ـ دون أن يخجل من هذا لا هذا العصر ولا هذا الشعب! لأن هؤلاء الأجداد قد تراجعوا أمام قوى هذا الزمن، ـ ولنتفكر في ذلك بكل إنصاف! ـ سوف أستثني غوته، مثلما أسلفت، لأنه ينتمي إلى نوع أدبي أسمى من «الآداب القومية»: ولذلك ليس لوجوده أية علاقة مع أمته، سواء تعلق الأمر بالأصالة أو بالشيخوخة. إنه لم يعش في الماضي ولا الآن إلا بالنسبة للبعض، أما بالنسبة للأغلبية فإنه ليس سوى جوقة غرور ترسل، من حين لآخر، لازمتها الغنائية إلى ما وراء الحدود الألمانية. غوته الذي ليس فقط رجلا طيبا وعظيما، بل ثقافة، يعتبر في التاريخ الألماني فاصلا ترفيهيا لا خلق له: من يستطيع أن يدلنا في السياسة الألمانية خلال السبعين عاما الأخيرة، مثلا، عن أثر لغوته مهما يكن بسيطا! (بينما نجد أثرا لشيلر وأثرا صغيرا لليسين قد بديا فيهما نشطين على كل حال). ولكن الخمسة الآخرين! لقد شاخ كلوبسطوك، وهو ما يزال حيا، بطريقة جد مشرفة وبشكل جذري بحيث أنه لا أحد أخذ مأخذ الجد الكتاب التأملي الذي أصدره بعدما تقدم به العمر، جمهورية العلماء. هردر أصابته لعنة كون كتبه دائما تكون بكيرة أو بالية منذ صدورها. ڤيلاند، الذي عاش كثيرا وبذر الحياة، تدارك بموته، وهو مايزال فطنا، تراجع تأثيره. ليسين لايزال حيا حتى الآن ـ ولكن بين علماء شباب! وشيلر قد انتقل من أيدي الشباب إلى أيدي الأطفال، كل الأطفال الألمان! من المعروف أن الكتاب يشيخ إذا صار متداولا بين أجيال يتناقص نضجها. ـ فما الذي استبعد هؤلاء الخمسة إلى درجة أن المثقفين والمجدين لم يعودوا يقرأونهم ؟ إنه الذوق الأفضل، العلم الراسخ، التقدير الكبير للحقيقي والواقعي : وكلها مزايا كان هؤلاء الخمسة هم من أعاد زرعها في ألمانيا (ومعهم عشرة أو عشرون آخرون أقل شهرة)، الذين ينشرون الآن حول قبورهم، مثل شجرة كبيرة، ظل الاحترام، وعلاوة على ذلك، ظل النسيان. ـ والحالة أن الكلاسيكيين ليسوا زارعي المزايا الفكرية والأدبية بل هم من يكملها، وتظل أضواء سامقة وقصية تحلق فوق الشعوب حتى بعد موت هؤلاء، لأنهم أكثر خفة وحرية وصفاء منهم. سيصير مستوى أعلى من الإنسانية ممكنا حتى تصير أوربا الأمم ماضيا قاتما منسيا، وحين تحيا أوربا في ثلاثين من الكتب القديمة جدا والتي لا تنسى، كتبها الكلاسيكية.

126. **مهم، ولكنه ليس جميلا.**

هذا المنظر يخفي معناه، ولكن فيه معنى نود تخمينه : حيثما نظرت أقرأ كلمات وإيحاء كلمات، ولكني لست أدري أين تبدأ الجملة التي تحل لغز كل هذه الإيحاءات، وأصاب بالإجل* من جراء محاولتي رؤية ما إن كان علي أن أقرأها من هنا أم من هناك.

127. ضد مُوَلدي الألفاظ.

الإيمان البليد بالكلمات المبتكرة أو المهجورة في اللغة، تفضيل النادر والغريب، الميل إلى وفرة المفردات عوض الميل إلى تحديدها، كل ذلك يكون دائما علامة ذوق لايزال ناقصا أو قد صار فاسدا. إن ما يميز فناني الخطابة الإغريق هو فقر نبيل وحرية كبيرة داخل حدود هذه الثروة المتواضعة، إنهم يريدون أن يكون لهم أقل مما للشعب ــ لأن الشعب غني للغاية بالأشكال القديمة والجديدة ــ، ولكنهم يريدون امتلاك هذا القليل أفضل ما يكون الإمتلاك. سرعان ما نحصي المفردات المهجورة وشواذ اللغة لديهم، ولكننا لا نكف عن الإعجاب بهم إن توصلنا إلى إدراك تلك الطريقة البارعة والدقيقة التي يتناولون بها ما نجده في الكلمات والصيغ من اليومي ومما يبدو مستهلكا منذ أمد طويل.

128. مؤلف كئيب ورصين.

الذي يكتب ما يعانيه يكون مؤلفا كئيبا، ولكنه يكون رصينا إن قال لنا الشيء الذي عانى منه،والشيء الذي يجعله يجد الراحة الآن في الفرح.

129. صحة الذوق.

ما الذي يجعل الصحة غير معدية مثل الأمراض، عموما، وخاصة فيما يخص الذوق ؟ أم أن هناك أوبئة الصحة ؟

130. اقتراح حازم.

لا تقرأ أبدا أي كتاب تم تعميده (بالمداد) في اللحظة التي رأى فيها النور.

131. تصحيح الفكر.

تصحيح الأسلوب يعني تصحيح الفكر، لا غير! ــ ومن لم يصلحه بسرعة فإننا لن نقنعه بذلك أبدا.

132. كتب كلاسيكية.

إن أضعف جانب في أي كتاب كلاسيكي هو كونه قد كتب باللغة الأم لمؤلفه.

133. كتب رديئة.

للكتاب وحده حق المطالبة بالقلم والحبر و الطاولة،و لكن عادة ما يكون هؤلاء هم من يطالب بالكتاب، وذلك ما يجعل الكتب الآن غير ذات قيمة.

134. حضور الـ...حس.

حين يتأمل الجمهور لوحات فنية يجعل من نفسه شاعرا، وحين يتأمل قصائد شعرية يصير مجرد نظرة فاحصة. إن الحس المرغوب دائما يغيب عن الفنان في اللحظة التي يلتمسه فيها، إن ما يغيب عنه إذن هو حضور الحس وليس حضور البديهة.

135. أفكار مختارة.

لا يختار الأسلوب المنتقى في عصر مزدهر كلماته فقط، بل أفكاره كذلك، ويأخذها من الاستعمال الشائع والسائد. لا يجد الذوق الناضج الأفكار الجريئة والطرية أقل قبحا من الصور والتعابير الجديدة والمخاطرة. فيما بعد تشعر الفكرة والكلمة المختارتان بسهولة بالرداءة، لأن رائحة الشيء الشهي تتلاشى بسرعة، ولا تترك للذوق سوى التفاهة المعتادة.

136. السبب الأساس لفساد الأسلوب.

إن ما يفسد الأسلوب، في فنون اللغة وسائر الفنون الأخرى، هي إرادة إظهار شعور أكثر من الذي نشعر به فعلا تجاه شيء ما. كل فن كبير يميل بالأحرى إلى العكس : يجب، مثل رجال الأخلاقية الرفيعة، كبح جماح العاطفة وعدم تركها تستنفذ نفسها تماما. هذا الحياء الذي لا يكشف من العاطفة إلا نصفها نلاحظه بشكل جميل جدا لدى صوفوكليس مثلا، ويبدو أن ملامح الإحساس تتغير حين يظهر أكثر اعتدالا مما هو فعلا.

137. ليكون عذرا للأقلام البليدة.

إن ما نقوله بدقة نادرا ما يتم سماعه بنفس وزن الشيء الذي قيل ـ وسبب ذلك هي الآذان سيئة التربية، التي أرغمت على المرور من التكوين الذي كان يسمى حتى الآن بالموسيقى إلى مدرسةالفن العالي للأصوات، أي إلى الخطاب.

138. منظور جوي.

هذه سيول تنحدر من عدة جوانب إلى الوادي، حركتها مندفعة جدا وتجذب الأبصار بشدة بحيث أن منحدرات الجبل العارية والمشجرة التي حول الوادي تبدو، ليس كأنها تغوص، ولكن كأنما تفر إلى الأسفل. لدى رؤية هذا المشهد يخنقك ضيق، كما لو كان كل هذا يخفي شيئا معاديا اضطر كل شيء أمامه للفرار، شيء قد تحمينا منه الهاوية. هذا المنظر يستعصي على الرسم، اللهم إلا إذا حلقنا فوقه في الأجواء مثل

طائر. هنا، ولمرة واحدة، لا يكون المنظور الذي نسميه جويا نزوة فنان، بل هو الإمكانية الوحيدة.

139. مقارنات محفوفة بالمخاطر.

حين لا تكون المقارنات المحفوفة بالمخاطر دليلا على صلف الكاتب فإنها تكشف تعب خياله. ولكنها في كل الأحوال تشهد على رداءة ذوقه.

140. الرقص في الأغلال.

يمكن أن نتساءل بشأن كل فنان أو شاعر أو كاتب إغريقي : ما هو الإكراه الجديد الذي يفرضه على نفسه ويجعله إكراها جذابا لمعاصريه (إلى حد إيجاد مقلدين له) ؟ لأن ما نسميه «ابتكارا» (في بحور الشعر مثلا) هو دائما واحد من تلك القيود التي يضعها المبدع لنفسه. «الرقص في الأغلال»، جعل المهمة سهلة، ثم تغطيتها بوهم السهولة، هذه هي الموهبة التي يريدون إظهارها لنا. يمكننا أن نكشف لدى هوميروس قدرا من الصيغ الموروثة ومن قواعد السرد الملحمي التي كان عليه أن يرقص داخل تخومها، وقد ابتكر هو بنفسه تقاليد جديدة للذين يأتون بعده. هذه هي المدرسة التي تكون فيها الشعراء الإغريق. أولا، قبول الخضوع لإكراه متعدد يضعه الشعراء القدامى، ثم ابتكار إكراه جديد من عدم الرضى بالسابق، الخضوع له ثم التغلب عليه بسهولة بحيث يلاحظ الناس الإكراه والتغلب ويعجبون بهما.

141. بدانة المؤلف.

آخر ما يطرأ على المؤلف الجيد هي البدانة، والبدين لن يصير مؤلفا جيدا أبدا. خيول السباق الأصيلة تكون نحيفة، ما لم يسمح لها بأن تستريح من انتصاراتها.

142. أبطال لاهثون.

الشعراء والفنانون الذين يعانون من ربو الإحساس يجعلون أبطالهم يلهثون تقريبا دائما، ليس لهم فن التنفس السهل.

143. الأعمش.

الأعمش هو العدو اللدود لكل المؤلفين الذين يرخون العنان للكتابة. عليهم أن يدركوا ذلك الغيظ الدفين الذي يغلق به الكتاب الذي يتنبه فيه إلى أن المؤلف قد احتاج خمسين صفحة ليمنحه خمسة أفكار، إنه غيظ من جازف بما تبقى له من النظر دون الحصول على تعويض تقريبا. ـ قال أعمش : كل المؤلفين قد أرخوا للكتابة الأعنة.

ـ « الروح القدس أيضـا ؟» ـ هو أيضا. ولكنه كـان يملك الحق في ذلك، فقـد كان يكتب للعميان.

144. أسلوب الخلود.

كان ثوسيديد وطاسيت، وهما يكتبان أعـمالهما، يفكران في أنها ستكون خالدة: إننا سنخمن ذلك من أسلوبهم وحـده لو لم نعلم ذلك من مصدر آخـر. كان الواحد منهما يعتقد أنه يمنح لأفكاره الخلود بوضعهـا في الملح، والآخر باختزالها، ويبدو أنهما لم يخطئا كلاهما.

145. ضد الصور والمقارنات.

الصور والمقارنات تقنع ولا تبـرهن، لذلك يستفظعهـا العلماء، فهم لا يريدون في العلم ما يخلف يقينا ولا تصديقا، ويثيرون بالأحرى الريبة الشديدة، حتى وإن لم يكن ذلك إلا من خلال الأسلوب والجدران العاريين، لأن الريبة هي محك ذهب اليقين.

146. حذر.

الذي ينقصـه علم راسخ، في ألمانيا، سيحـسن صنعا بتجنبـه للكتابة، لأن الألماني الطيب لن يقـول حينها :« إنه جـاهل »، بل:« إن له طبعـا مرتابا». ـ هذا الإسـتنتاج المتسرع، إجمالا، يشرف الألمان.

147. هياكل عظمية ملونة.

هياكل عظمية ملونة هم أولئك المؤلفـون الذين يريدون تعويض ما ينقصهم من لحم بألوان صناعية.

148. أسمى من الأسلوب الجزل.

نتعلم الكتابة بأسلوب جزل أسرع مما نتعلم الكتـابة بسهولة وبساطة. تزول أسباب ذلك في الأخلاق.

149. سباستيان باخ.

إن لم نستمع إلى موسيقا باخ ونحن على معرفة تامة ودقيقة بالطباق* وبكل أنواع الأسلوب المتسلسل، وإن لم نستغن عن المتعة الفنية الخالصة، فإنه سيتكون لدينا انطباع لدى سماعها (لكي أعبر عنه بطريقة غوته السامية) بأننا نحضـر اللحظة نفسها التي خلق الله فيهـا العالم. أريد أن أقول أننا نشعر أن شيئا عظيما يعتمل فيها، ولكنه لم

يخرج للوجود بعد: وهو موسيقانا العصرية العظيمة. لقد تجاوز العالم بتجاوزه للكنيسة والقوميات والطباق. ولايزال في باخ كثير من المسيحية، من الجرمانية، من المدرسية*، وكلها في وضعها الخام، إنه يقف على عتبة الموسيقى الأوربية (الحديثة)، ولكنه من هناك يدير بصره نحو العصر الوسيط.

150. هاندل.

كان هاندل، المجدد الجريء في ابتكاراته الموسيقية، والصادق، القوي، المتجه، بسبب القرابة، إلى بطولية يقدر عليها شعب بأكمله، كان غالبا ما يتضايق ويصيبه الفتور أثناء مباشرته للعمل، بل ويضجر من نفسه، وآنذاك يطبق بعض الطرق المجربة في العزف، يؤلف كثيرا وبسرعة، ويكون سعيدا حين ينتهي من ذلك، ــ ولكن سعادته لا تكون مثل سعادة الإله والمبدعين الآخرين عشية إنهاء عملهم.

151. هايدن.

لقد امتلك هايدن العبقرية بالقدر الذي ترتبط فيه مع الطيبة الخلقية الصافية والبسيطة. إنه يذهب بالضبط إلى الحد الذي تفرضه الأخلاقية على الذكاء، إنه يمنحنا موسيقى « لا ماضي لها ».

152. بتهوفن وموزار.

غالبا ما تبدو موسيقى بتهوفن تأملا عميقا منفعلا عند الاستماع مرة أخرى استماعا غير متوقع لجزء كان الناس يعتقدونه مفقودا منذ مدة طويلة، وهو براءة النغم، إنها موسيقى على الموسيقى. في أغاني المتسولين أو أطفال الشوارع، في أنغام المتشردين الإيطاليين الرتيبة، في أغنية الرقص في ملجأ القرية أو أثناء ليالي الكرنفال، هنا كان بتهوفن يجد « ألحانه» : مجمعا من هنا وهناك نوطة أو مجموعة قطع راقصة. إنها بالنسبة له ذكريات مجملة من «عالم أفضل»، مثلما كان أفلاطون يتخيل أفكاره. ــ لموزار علاقة مغايرة تماما مع ألحانه، إن الإلهام لا يأتيه وهو يسمع الموسيقى، بل وهو ينظر إلى الحياة، الحياة المتوسطية النشيطة : لقد كان دائما يحلم بإيطاليا حين لا يكون فيها.

153. إلقاء مُلَحَّن.

فيما مضى كان الإلقاء الملحن جافا، أما اليوم فإننا نحيا عصر الإلقاء الملحن المبلل : لقد وقع في الماء وصارت الأمواج تذهب به حيث تشاء.

154. موسيقى « مرحة ».

حين نحرم من سماع الموسيقى مدة طويلة ثم نسمعها فإنها تسري في الدم بسرعة مفرطة، مثل خمر الجنوب، فتترك الروح فاترة وكأنها تناولت مخدرا، متسرنمة، كلها رغبة في النوم، هذا بالضبط ما تفعله الموسيقى المرحة خاصة، التي تمنح، في نفس الوقت،المرارة والألم، النفور والحنين، وترغمنا على استلذاذ وإعادة استلذاذ كل هذا وكأنه في مصفاة مسمومة، لكنها حلوة. في نفس الوقت، تبدو الغرفة الممتلئة بأمواج الفرح المرحة وكأنها تتقلص، يبدو النور يفقد صفاءه ويتعتم، ويتكون لدينا في الأخير انطباع بأن الموسيقى تصل كما لو إلى داخل زنزانة يقيم فيها رجل مسكين لا يدعه الحنين ينام.

155. فرانتز شوبرت.

رغم أن شوبرت كان فنانا أقل من الموسيقيين الكبار الآخرين فقد خلف أغنى تراث موسيقي. لقد وزعه بسخاء ونبل بحيث أن الموسيقيين سيعيشون خلال بضعة قرون على أفكاره وإلهامه. لدينا في أعماله كنز من الإبتكارات غير المستعملة، وسيجد بعض الموسيقيين الآخرين عظمتهم في استعمالها. ــ لو جاز أن نسمي بتهوفن المستمع المثالي لعازف كمان لكان لشوبرت الحق في أن يقول أنه هو ذلك العازف.

156. أحدث أسلوب في العزف.

يدين الأسلوب الموسيقي المأساوي والمأساتي الكبير بخاصيته لتقليد حركات الآثم الكبير مثلما تتخيله وتتمناه المسيحية، إنه الرجل الذي يمشي مشية احتفالية متمهلة، الذي له تأملات هائمة، وتتقاذفه آلام ضميره في كل اتجاه، الفار من شدة الرعب، الممسك بما يستطيعه من النشوة، الذي يشله اليأس، ــ مع كل ما قد يكون فيه من علامات الخطيئة الكبرى. وحده هذا الوضع الذي يفترضه المسيحي، وهو كون كل الناس خاطئين ويرتكبون الخطيئة باستمرار، قد يبرر استعمال اسلوب العزف هذا في الموسيقى كلها، باعتبار الموسيقى تعكس كل الأنشطة والسلوكات الإنسانية وعليها بما هي كذلك أن تتحدث بلا توقف لغة الآثم الكبير الإيمانية. والمستمع الذي ليس مسيحيا كفاية ليفهم هذا المنطق قد يصيح من شدة الهلع أمام مثل هذا الأسلوب: « يالله، كيف دخلت الخطيئة في الموسيقى ؟»

157. فليكس مندلسون.

موسيقى مندلسون هي موسيقى الذوق الجميل المطبقة على الأشياء الجيدة كلها: إنها تعيدنا دائما إلى ما وراءها. كيف يمكن أن يكون لها كثير من أمام الذات، من المستقبل! ــ وهل أراد هو أن يكون له ذلك ؟ لقد كانت فيه مزية نادرة بين الفنانين، وهي مزية الامتنان دون فكرة مبطنة : وهذه المزية أيضا تعيدنا دائما إلى ما وراءها.

158. أم الفنـــون.

في قرننا الذي هو قرن الشكوكية يكاد الورع الحقيقي يتطلب بطولية الطموح القوية، فإغماض العينين وثني الركبة مثل المتزمت لم يعد كافيا. أليس ممكنا أن الطموح إلى أقصى قمة التقوى قد كان يوما أم موسيقى كاثوليكية مقدسة أخيرة، كما كان أم آخر أسلوب معماري ديني ؟ (نسميه الأسلوب اليسوعي.)

159. الحرية في الأغلال حرية أميريـة.

آخر الموسيقيين المحدثين الذي رأى الجمال وعشقه، مثل ليوباردي، هو البولوني شوبان الفذ (لا أحد ممن سبقه أو تبعه يستحق هذا الوصف)، لقد كانت له نفس الأناقة الأميرية الاصطلاحية التي كان رفائيل يبديها في استخدام الألوان التقليدية البسيطة، ــ ليس فيما يخص الألوان، بل فيما يخص التقاليد اللحنية والإيقاعية. لقد كان يتلقاها باعتبارها قد ولدت في جو من اللياقة ولكنها تلعب وترقص في هذه الأغلال مثل أكثر العقول حرية ورشاقة ــ وذلك دون أن يزدريها.

160. قاربية شوبان.

تكاد كل أوضاع العيش وطرقه تكون لها لحظة سعادة، وهي التي يعرف الفنانون الجيدون الإمساك بها. حتى الوجود بجانب البحر له لحظته، هذا الوجود المضجر، الوسخ، غير الصحي، والمجاور للوغد الأكثر ضجيجا وجشعا، ــ لحظة السعادة هذه قد نجح شوبان في جعلها تغني، في قاربيته (barcarole)، بحيث أن الإستماع إليها قد يجعل الرغبة تراود حتى الآلهة لقضاء مساءات صيف طويلة متمددين في قارب.

161. روبرت شومان.

« الرجل الشاب » مثلما حلم به الرومانسيون الألمان والفرنسيون مؤلفوا الليدات*، حوالي الثلث الأول من هذا القرن، قد ترجمه شومان إلى أصوات وأغاني، وشعر طيلة الوقت، من خلال هذا الشاب الخالد، أنه في كامل قوته. صحيح أن هناك لحظات تذكرنا فيها موسيقاه بـ« العانس » الأبدية.

162. مغنو الأوبرا.

لماذا يغني هذا الشحاذ ؟ ــ من غير المحتمل أن يكون عارفا كيف ينوح. ــ إذن حسنا يفعل، ولكن مغني الأوبرا عندنا، الذين ينوحون لأنهم لا يعرفون كيف يغنون... هل حسنا يفعلون هم أيضا ؟

163. الموسيقى التمثيلية.

تكون الموسيقى التمثيلية، بالنسبة للذي لا يرى ما يحدث على الخشبة، عبثية، تماما مثل تعليق يليه نص محذوف. إنها تتطلب أن تكون لنا أذنان في نفس موضع العينين، ولكن ذلك سيكون إهانة لأوتيرب (Euterpe)، ربة الموسيقى هذه تريدنا أن ندع أذنيها وعينيها حيث توجد عند ربات الفن الأخريات.

164. النصر والعقل.

إن القوة وليس العقل هي التي تحسم ،لسوء الحظ، في الحروب الجمالية التي يثيرها الفنانون بأعمالهم وبالخطب التي يلقونها لدعمها. الآن يقبل الكل، كواقع تاريخي، بأن Gluck كان على حق في مقاومته لبوتشيني، على أية حال، لقد انتصر، لقد كانت القوة إلى جانبه.

165. عن مبدأ العزف الموسيقي.

هل يعتقد فنانو العزف المحدثين حقا أن أسمى ما يقوم به فنهم هو إعطاء كل جزء أكبر قدر ممكن من النتوء، وجعله بأي ثمن يتكلم لغة مسرحية ؟ إذا ما طبقنا هذا على موزار ألن يكون ذلك إثما بينا في حق الروح، روح المرح المشمسة، روح الخفة الناعمة، روح موزار الذي يُظهر وقاره الرقة وليس الرعب، الذي لا تسعى صوره لأن تنبعث من الجدار لتجعل المتفرجين الغارقين في الرعب يفرون ؟ أم أنكم تظنون أن موسيقى موزار شبيهة بـ« موسيقى ضيف بطرس » ؟ وليس فقط موسيقاه، بل كل الموسيقى ؟ ــ سوف تجيبون بأن تأثير هذه الموسيقى القوي يؤيد مبدأكم، ــ وستكونون على حق لولا أنه تبقى معارضتكم بمعرفة من سيشعر بهذا الأثر، ومن الذي يكون للفنان المتميز إجمالا حق إرادة التأثير فيه. ليس الحشد، أو العقول غير الناضجة، أو العاطفيين، أو المرضى، أو بالخصوص المنهكين، أبدا!

166. موسيقى العصر الحاضر.

إن هذه الموسيقى الحديثة جدا، برئتيها القويتين وأعصابها الضعيفة، تبدأ دائما بالتراجع أمام نفسها من شدة الذعر.

167. حيث تكون الموسيقى في بيتها.

لا يكون للموسيقى تأثير قوي إلا على الذين يستحيل عليهم، أو يمنع عليهم، الجدال. وعلى رأس متعهدي الموسيقى نجد الأمراء، وهم لا يريدون من الذين حولهم أن ينتقدوا إلا قليلا، بل ألا يفكروا كثيرا. ثم المجتمعات التي يجب عليها، تحت ضغط ما (أميري أو ديني) أن تتعود على الصمت، ولكنها تسعى من وراء ذلك إلى إيجاد رقى قوية المفعول ضد سأم الإحساس (وعادة ما تكون هي العشق الخالد والموسيقى الخالدة). ثالثا، شعوب بأكملها لا يوجد فيها «مجتمع» بل فقط أفراد مدفوعون إلى الوحدة، إلى الأفكار الغسقية وإلى تبجيل كل ما لا يوصف : أولئك هم الموسيقيون. ـ لهذا لم يتحمل الإغريق، الذين هم شعب ثرثار ومماحك، الموسيقى إلا باعتبارها تتبيلا للفنون التي يمكنهم التجادل والتخاصم بشأنها، أما بشأن الموسيقى فإنهم لا يكادون يستطيعون التفكير بصدق. ـ كان الفيتاغوريون، أولئك الإغريق الرائعون، موسيقيين كبارا حسب ما يروى : هم الذين ابتكروا صمت خمس سنوات، ولكن ليس الجدل.

168. العاطفية في الموسيقى.

رغم ميلنا إلى الموسيقى الجدية والغنية فقد نسحر ونفتن، في بعض الأوقات، ونكاد نذوب من النشوة بسبب الموسيقى المضادة لها، أعني تلك الغنائيات الأوبرالية الإيطالية الشديدة البساطة التي، رغم توحدها الإيقاعي وسخافتها التناغمية، تبدو أحيانا وكأنها تغنى في أذاننا مثل روح الموسيقى بالذات. اقبلوا هذا أو ارفضوه، يا فريسيي الذوق الجميل، فالأمر هكذا، وغايتي هنا هي العمل على حل هذا اللغز ومحاولة التخمين. ـ حين كنا أطفالا ذقنا الحلاوة الأولى لكثير من الأشياء، ومنذ ذلك الحين لم يعد طعم الحلاوة كما كان، حينها كانت تدعونا إلى إغواءات الحياة، الحياة الطويلة جدا متخذة شكل أول ربيع، أولى الأزهار، أولى الفراشات، أول صداقة. إنها المرحلة، ربما كان عمرنا تسع سنوات ـ التي سمعنا فيها أول موسيقى، وكانت هي الموسيقى التي فهمناها أولا، موسيقى بسيطة وطفولية، ولم تكن سوى استمرار لترنيمة المرضعة، للحن عازف الكمان. (في الواقع يجب أن نكون مهيئين ومدربين لنتلقى حتى أصغر «تجليات» الفن : ليس للفن أي تأثير «مباشر»، رغم الأساطير التي نسجها الفلاسفة بهذا الشأن.) بهذا الإفتتان الموسيقي الأول، الأكثر حدة في حياتنا، يرتبط شعورنا عند سماع تلك الغنائيات الإيطالية، سعادة الطفل وفقدان الطفولة، الإحساس بأن الذي زال بلا رجعة هو أغلى ما نملك، كل هذا يحرك آنذاك أوتار روحنا بقوة لا يقدر عليها لوحده حضور الفن، ذلك الحضور القوي والغني. ـ هذا المزيج من المتعة الجمالية

والعناء المعنوي الذي اعتدنا الآن تسميته «عاطفية»، بشيء من الإستخفاف، كما يبدو لي (وهي الحالة النفسية لفاوست عند نهاية المشهد الأول)، «عاطفية» المستمعين هذه تخدم الموسيقى الإيطالية التي يلذ لذواقي الفن المحنكين، أي «الجماليين» الأقحاح، أن يتجاهلوها. ــ الحاصل، لا تشرع أية موسيقى، تقريبا، في ممارسة فتنتها السحرية علينا إلا انطلاقا من اللحظة التي نسمعها فيها تتحدث لغة ماضينا، وبهذا يبدو للجاهل بأصول الفن أن كل موسيقى قديمة تزداد جودة، وأن تلك الحديثة جدا لها قيمة قليلة لأنها لا تثير فينا «العاطفية» التي هي، مثلما أسلفنا، العنصر الأساسي في السعادة التي مصدرها الموسيقى بالنسبة لمن لا يستطيع الإستمتاع بهذا الفن بوصفه جماليا قحا.

169. أصدقاء الموسيقى.

في الختام، نحن أصدقاء الموسيقى وسنظل كذلك، مثلما نظل أصدقاء نور القمر. لا أحد منهما يريد أن ينزع ملك الشمس، ــ يريدان فقط أن ينيرا ليالينا ما استطاعا. ولكن سيسمح لنا، أليس كذلك ؟ بأن نمزح ونضحك بشأنهما ؟ قليلا على الأقل ؟ ومن حين لآخر ؟ بخصوص الرجل الذي في القمر! والمرأة التي في الموسيقى.

170. الفن في قرن العمل.

لدينا شعور أخلاقي بأن هذا القرن قرن عمل، وذلك لا يسمح لنا أن نخصص للفن أفضل ساعاتنا وصباحاتنا حتى وإن كان هذا الفن أعظم الفنون وأولاها. إنه بالنسبة لنا شأن من شؤون وقت الفراغ والتسلية : نخصص له ما يتبقى لنا من وقت وقوة. ــ هذا هو الواقع العام الذي وضعه الفن بالنسبة للحياة، إنه يجد ضده، حين يفرض متطلباته الكبيرة على الزمن وعلى قوى الهواة، وعي العمال القادرين، فيقتصر على الخاملين الذين لا وعي لهم والذين ليسوا، بطبعهم، متفانين في سبيل الفن الكبير، وهو ما يجعلهم يشعرون بمتطلباته مثل كثير من التطاولات المغرورة. وقد تكون بالتالي تلك نهايته، بما أن الهواء والتنفس الحر ينقصانه، اللهم إلا إذا حاول هذا الفن الكبير، متقنعا، أن يظهر بمظهر عامي، أن يتأقلم مع هذا الهواء الآخر (أن يصمد فيه على الأقل) الذي هو في الحقيقة عنصر طبيعي للفن الصغير فقط، فن التسلية والاستراحة الممتعة. يحدث هذا في كل مكان الآن، حتى أنصار الفن الكبير يعدون بالراحة والتسلية، هم أيضا يخاطبون الرجل المتعب، هم أيضا يطلبون منه مساءات أيام عمله، ــ تماما مثل الفنانين الممتعين الذين يفرحون حين يحققون انتصارا على ضنى الجباه القاتم، على نظرة العيون الغائرة. فما هي حيل زملائهم الفنانين الكبار ؟ إن لديهم في علبهم منشطات قوية تجعل بتأثيرها حتى المحتضر يقفز، لديهم مخدرات، نشوة، زلزلات، نوبات بكاء،

يسحرون بها الإنسان المنهك ويلقون به في تهيج الأرق، في استلاب تسببه النشوة والرعب. هل علينا إذن أن نحتج بقوة على الفن الكبير، بسبب خطورة وسائله، وعلى الأشكال التي يحيا فيها حاليا، كالأوبرا، المأساة، والموسيقى، وأن نحقد عليه كما على آثم خؤون ؟ بالطبع لا : لا ريب أنه سيحبذ كثيرا أن يحيا في العنصر الصافي لهدوء الصباح ويخاطب النفوس البكر القوية نفوس المتفرجين والمستمعين المفعمين بالإنتظار في الصباح. فلنكن ممتنين له على اختياره الحياة بهذا الشكل عوض الإختفاء، ولنعترف لأنفسنا كذلك بأن فننا الكبير سوف لن يكون قابلا للإستعمال في العصر الذي سيعيد إلى الحياة أيام أعياد وفرح حرة وكاملة.

171. خدام العلم والآخرون.

يمكن أن نطلق كلمة « خدام » على جميع العلماء الأكفاء حقا الذين يحققون نتائج، إبان شبابهم، حين تكون فطنتهم قد تمرنت كفاية، حين تكون ذاكرتهم قد اغتنت بالمعارف، حين يكونون قد صاروا واثقين من أعينهم وأيديهم ، يدلهم أحد من يكبرهم سنا على الميدان العلمي الذي ستكون لمزاياهم فائدة فيه. لاحقا، حين يكونون قد فتحوا أعينهم على ثغرات وعيوب العلم الذي يشتغلون به يتموضعون تلقائيا هناك حيث تكون الحاجة إليهم. هؤلاء الأفراد يهبون حياتهم كلها للعلم، وهناك أفراد نادرون مثلهم نادرا ما ينجحون ويبلغون النضج، و« العلم يوجد من أجلهم » ــ أو هذا ما يبدو لهم على الأقل ــ : إنهم غالبا ما يكونون منفرين، مزهوين، مختلين، ولكنهم تقريبا دائما فاتنون إلى حد ما. إنهم ليسوا خداما ولا مستخدمين، بل يستغلون النتائج الجاهزة، التي أكدتها أعمال الآخرين، بتسامح أميري وبثناء هزيل ونادر، كما لو كان أولئك الآخرون من صنف أدنى من الناس. ومع ذلك فإن لهم نفس المزايا التي يتميز بها هؤلاء الآخرون، وأحيانا تكون متطورة لديهم بشكل ناقص. ويتميزون، فضلا عن ذلك، بجانب محدود ليس لدى الأخرين، وبسببه يستحيل أن نعطيهم وظيفة ونرى فيهم أدوات عملية، ــ إنهم لن يستطيعوا العيش إلا في بيئتهم، على أرضهم الخاصة. هذه المحدودية هي التي تعطيهم فكرة كل ما هو «ملك لهم» في علم ما، حسب قولهم، أي ما يستطيعون العودة به إلى منازلهم، إلى بيئتهم، إنهم يحلمون دائما بجمع «ملك» هم المتفرق. إن منعوا من بناء عشهم هلكوا مثل عصافير بلا مأوى، انعدام الحرية يشبه الضنى بالنسبة لهم. إن درسوا بعض مجالات العلم المنفصلة على طريقة الآخرين فإنهم إنما يدرسون تلك التي تزدهر فيها الثمار والبذور التي هم في حاجة إليها، فما يجديهم إن كان في العلم، في مجمله، مجالات لا يعتني بها أو يرعاها

أحد؟ ليس لديهم اهتمام موضوعي بأية قضية من قضايا المعرفة : إنهم شخص واحد من أقصاهم إلى أقصاهم بحيث أن كل أنوارهم ومعارفهم تذوب بدورها في شخص واحد، في تعددية حية تتعلق أجزاؤها المتفرقة ببعضها البعض، تتداخل، تغذي بعضها، ولمجموعها بيئة ورائحة خاصتين به. ويخلق هؤلاء بإضفائهم شخصية على هذه الإبتكارات الفكرية، هذا الوهم بأن العلم (أو حتى الفلسفة بأكملها) يكون قد اكتمل، قد بلغ غايته، إن حياة ابتكارهم هي التي تمارس هذه الفتنة السحرية التي كانت، في بعض العصور، قاتلة للعلم، بإغوائها لهؤلاء الخدام الفكريين الأكفاء الذين وصفناهم آنفا، بينما في بعض العصور الأخرى التي ساد فيها الجفاف والنضوب، قد كانت مثل منشط، مثل هبة باردة من مرفأ منعش. ــ عادة ما نسمي هؤلاء الناس فلاسفة.

172. تقريظ الموهبة.

عند مروري بقرية S شرع مراهق في فرقعة سوطه بكل ما أوتي من قوة، ــ لقد كان يتقن ذلك الفن غاية الإتقان، وكان يدرك ذلك. نظرت إليه نظرة تقريظية، ولكني كنت في الواقع أتألم غاية الألم. ــ إننا نتصرف بنفس الطريقة ونحن نعترف بالموهبة. نحسن إليها في الوقت الذي تسيء فيه إلينا.

173. الضحك والإبتسام.

كلما صار العقل مرحا وواثقا من نفسه كلما فقد المرء عادة القهقهة، ومقابل ذلك تولد لديه باستمرار ابتسامة روحية، وهي دليل على تعجبه من العديد من مفاتن هذا الوجود الخفية.

174. تسلية المرضى.

مثلما نقتلع شعرنا، نضرب رأسنا، نجرح خدودنا، أو نفقأ عيوننا مثل أوديب، حين يصيبنا غم أخلاقي، فإننا نطلب النجدة أحيانا حين تصيبنا آلام جسدية فظيعة أو ننفعل انفعالا قويا وقاسيا، ونحن نتذكر المفترين والنمامين، أو ننظر إلى المستقبل بسوداوية، أو نمطر الغائبين بوابل من الأذى ومن طعنات خنجر خيالية. صحيح أن شيطانا يطرد شيطانا آخر أحيانا بهذه الطريقة، ــ ولكن حينها يتبقى لنا واحد منهم. ــ سنصف إذن للمرضى هذه التسلية الأخرى التي يبدو أنها تخفف الآلام : تخيلوا الخير الذي يمكن فعله والرقة التي يمكن إظهارها للأصدقاء والأعداء.

175. قناع الرداءة.

الرداءة أسعد قناع يمكن أن يرتديه العقل الراقي، لأنها لا تجعل عامة الناس يفكرون، أي الرديئين، في القناع. ومع ذلك فهو يرتديه بسببهم، لئلا يثيرهم، بل غالبا ما يفعل ذلك بدافع الطيبة والشفقة.

176. الصابرون.

يبدو الصنوبر مصغيا، والتنوب منتظرا، وكلاهما بنفاذ صبر : ـ إنهما لا يفكران في الإنسان الصغير تحتهما، الذي يتأكله جزعه وفضوله.

177. أفضل المزاح.

أحب المزحة التي تكون بمثابة فكرة رصينة، غير وقحة إطلاقا، تشير بالأصبع وتغمز بالعين في ذات الوقت.

178. ما يكمل التبجيل.

حيثما بجلنا الماضي فإنه يكون من المناسب ألا ندع الناس الأتقياء جدا، الذين يحبون التنظيف، يدخلون. فالشفقة قلما ترتاح دون شيء من الغبار أو الأزبال أو القاذورات.

179. الخطر الكبير على العلماء.

العلماء الأكفاء الراسخون هم بالضبط المهددون برؤية الهدف من وجودهم يوضع أسفل فأسفل، وهم على وعي بذلك، وبأن يصيروا في النصف الثاني من حياتهم حزينين ومتطلبين. يبدأون بالدخول في علمهم بسرعة اندفاع كبيرة تاركين كل أمل خارجا، وبتحديدهم لأنفسهم مهام جسورة جدا تكون أهدافها قد استبقها خيالهم أحيانا، ثم تأتي لحظات مثل التي تعرفها حياة البحارة الكبار مكتشفي البلدان، ـ المعرفة والحدس والطاقة ترقى ببعضها إلى أن يبدو شط لأول وهلة في الأفق، بعيدا وغير واضح المعالم. ولكن حينها يعرف الرجل القوي كل سنة أكثر كم هو مهم أن يتم التعامل مع قضية الباحث الخاصة بعد أن يتم حصرها قدر الإمكان، وذلك حتى يتمكن من حلها بشكل كامل ويتجنب هذا التبذير غير المطاق للقوى الذي عانت منه مراحل سابقة من العلم. ـ لقد كان العلماء يقومون بنفس العمل عشر مرات ودائما تكون الكلمة الفصل للمرة الحادية عشرة. وكلما ألم العالم بهذا الحل الكامل للألغاز وتدرب عليه كلما كانت المتعة التي يجدها في ذلك كبيرة، وفي ذات الوقت تزداد قوة متطلباته

بخصوص ما نسميه هنا « بشكل كـامل ». إنه يُنَحي كل ما قد يبقى، بهذا المعنى، غير كامل، يشعر بنفور من كل ما لا يقبل سوى أنصاف الحلول، من كل ما لا يستطيع أن يمنحنا نوعا من اليقين إلا إجمالا وبشكل غامض. مخططات شبابه تنفك أمام أنظاره، بالكاد تبقى منها بعض العقد والعجيرات التي يجد هذا العالم الماهر الآن متعة في حلها ويظهر قوته في ذلك. وفي خضم هذا النشاط المفيد، وهو يعمل بلا كلل يفاجئه، الآن وقد شاخ، ويعاود مفاجأته، إحباط عميق، شكل من الألم الأخلاقي : ينظر إلى نفسه فيبدو له أنه رجل تم تغييره، تصغيره، إذلاله، تحويله إلى قزم عبقري، يتساءل عما إذا كانت الممارسة المصغرة لقوتة الهائلة تساهلا، مخرجا من الإخطار الرسمي بالقيام بما هو عظيم في الحياة وفي الإبداع الفكري. ولكنه لا يستطيع الآن العبور إلى الضفة الأخرى، لقد فات الأوان.

180. الأساتذة في قرن الكتب.

بما أن التكوين الذي ينكب عليه المرء وحده، أو ضمن جمعية أخوية، يتعمم، فإننا نستطيع تقريبا الإستغناء عن الأستاذ في صيغته المعتادة اليوم. الأصدقاء المولعون بالمعرفة، والذين يريدون جميعا تمثل معرفة ما، يجدون في هذا القرن الذي هو قرن الكتب طريقا أقصر وأشد طبيعية من « المدرسة » و « الأستاذ ».

181. الغرور هو المنفعة الكبرى.

في البدء كان الشخص القوي يعامل ليس الطبيعة فقط، بل كذلك المجتمع والأفراد الضعفاء، كمواضيع استغلال استنزافي : يستغلهم أقصى ما يمكن ثم يتابع طريقه. وبما أنه يعيش في شك كبير، متأرجحا بين الجوع وما يزيد عن حاجته، فإنه يقتل من الحيوانات أكثر مما يستطيع أكله، ينهب ويسيء معاملة الناس أكثر من اللازم. تعتبر تمظهرات قوته كلها انتقاما من وضعه الذي هو كله معاناة وكرب. إنه يريد أن يظهر أقوى مما هو، لذلك يغالي في استغلال الفرص : فائض الخوف الذي يثيره لدى الغير هو فائض قوته. إنه يتنبه باكرا إلى أن ما يرفعه أو يخفضه ليست هي كينونته بل ما يبدو للآخرين أنه هو : ثمة يكمن أصل الغرور. يسعى القوي بكل الوسائل إلى زيادة الإيمان بقوته. ـ الخاضعون الذين يرتعدون أمامه ويخدمونه يعرفون بالمقابل أن قيمتهم هي بالضبط تقديره لهم، لذلك يعملون بمقتضى ذلك التقدير وليس بمقتضى رضاهم. إننا لا نعرف الغرور إلا في أشكاله المخففة، في مظاهره المصعدة (sublimés) وبمقادير صغيرة، لأننا نعيش مرحلة من المجتمع جد متخلفة وملطفة، إنه في الأصل هو المنفعة الكبرى، أقوى وسائل البقاء. وبقدر ما يكون المرء نبيها يكون غروره كبيرا، لأن زيادة

الإيمان بسلطته أسهل من زيادة هذه السلطة نفسها، وذلك فقط بالنسبة للذكي أو، كما ينبغي القول في ظروف العيش البدائية، للداهية الكتوم.

182. علامات الأرصاد الجوية في الثقافة.

العلامات الجلية في الأرصاد الجوية للثقافة قليلة جدا بحيث يجب أن نسعد إن كانت لدينا على الأقل علامة واحدة لا تضللنا، من أجل الإستعمال المنزلي ومن أجل الحديقة. لكي نختبر شخصا ما إن كان منا أم لا (أعني إن كان من المفكرين الأحرار)، نختبر شعوره نحو المسيحية. إن كان له منها موقف آخر غير الإنتقاد أوليناه ظهرنا : إنه يلوث هواءنا ويجعل طقسنا رديئا. ـ لم تعد مهمتنا هي تعليم مثل هؤلاء ما تعنيه الشلوق*، لديهم موسى وأنبياء الزمن وفلاسفة الأنوار : إن لم يشاؤوا الإصغاء إليهم، إذن...

183. الغضب والعقاب عفى عليهما الزمن.

الغضب والعقاب هدية لازلنا نحتفظ بها من الحيوانية. ولن يبلغ الإنسان رشده إلا حين يعيد هدية الميلاد هذه إلى الحيوان. هنا تختبئ واحدة من أكبر الأفكار التي قد تخطر للإنسان، إنها فكرة التقدم الأكبر. ـ لنتقدم بضع آلاف من السنين أيها الأصدقاء! لايزال هناك الكثير الكثير من الفرحة المخبأة للناس، والتي لم تصل رائحتها بعد إلى أحياء اليوم! ولا ريب أنه من حقنا التمتع بهذه الفرحة، بل أكثر من ذلك، في التنبؤ بها وذكرها كحدث ضروري، شريطة ألا يتوقف تطور العقل الإنساني. سيأتي يوم لن يحمل فيه القلب على عاتقه الإثم المنطقي الخبيء في الغضب والعقاب اللذين يمارسان فرديا أو جماعيا : يوم يكون القلب والرأس قد تعلما أن يعيشا بقرب بعضهما بنفس قدر تباعدهما الآن. نظرة واحدة على المسيرة العامة للإنسانية توضح جيدا أنهما لم يعودا متباعدين مثلما كانا في البدء، والفرد الذي يستطيع أن يعانق ببصره حياة كاملة من العمل الباطني* سيعي، بفرحة فخورة، المسافة التي تم قطعها والتقارب الذي حصل ليتجرأ على أن يغذي بذلك آمالا كبارا.

184. قرابة « المتشائمين ».

غالبا ما تحسم لقمة واحدة من الطعام في ما إن كنا سننظر إلى المستقبل بعين غائرة أم متفائلة، يسري هذا حتى على الفكر الراقي. لقد ورث الجيل الحالي عدم الرضى والقدح في العالم عن جوعى الماضي. حتى فنانونا وشعراؤنا نتنبه أحيانا، رغم الترف الذي قد يعيشون فيه، أن لهم قرابة رديئة، أن أسلافا مضطهدين وناقصي التغذية قد

مرروا في دمهم ومخهم عناصر كثيرة تعاود الظهور في الموضوع كذا أو الفرق المقصود كذا في عملهم. حضارة الإغريق حضارة رفاهية، رفاهية قديمة، لقد عاشوا خلال عدد من القرون أفضل منا (بكل المعاني، خاصة في بساطة أكثر من حيث المأكل والمشرب)، وهو ما منحهم في نهاية المطاف تلك العقول الحازمة والدقيقة، ذلك الدم المتدفق بسرعة، مثل الخمرة الصافية، الذي أظهرته أفضل مزاياهم ليس من خلال نشوة معتمة وعنيفة بل في وضوح ساطع الجمال.

185. عن الموت المعقول.

أيهما معقول أكثر، أن نوقف الآلة حين ينتهي العمل أم أن نتركها تدور حتى تتوقف من تلقاء نفسها، أي حتى تفسد ؟ أليس هذا الحل الأخير تبذيرا لمصاريف الصيانة وسوء استعمال لقوة المستخدمين ولتيقظهم ؟ ألسنا نبذر هنا دون جدوى ما قد نحتاجه في مكان آخر ؟ ألن يؤدي الاحتفاظ بكثير من الآلات واستعمالها استعمالا عبثيا إلى انتشار ازدراء لهذه الآلات على العموم ؟ ـ أتحدث عن الموت غير الطوعي (الطبيعي) والموت الطوعي (المعقول). الموت الطبيعي هو الذي لا يتعلق بتاتا بالعقل، الموت العبثي المحض، الذي تحدد فيه قشرة الجوز، هذه القشرة التي تدعو للرثاء، المدة الزمنية التي قد تعيشها اللوزة، الذي يكون فيه السجان الفاني، الذي غالبا ما يكون مريضا وخاملا، هو الذي يحدد اللحظة التي سيموت فيها سجينه النبيل. الموت الطبيعي انتحار للطبيعة، أي إفناء الكائن العاقل من طرف الكائن غير العاقل المرتبط به. وحدها الأضواء الدينية تبدو فيها الأشياء معكوسة لأن العقل الأسمى (عقل الرب) يصدر الأمر، كما ينبغي، الذي على العقل الأدنى أن يخضع له. أما خارج الفكر الديني فإن الموت الطبيعي لا يستحق التمجيد إطلاقا. ـ يدخل التنظيم الحكيم والتخطيط الحر للموت ضمن أخلاق المستقبل التي لا يمكن تصورها اليوم حيث تبدو لا أخلاقية، والتي ينبغي أن تكون رؤية فجرها يشرق سعادة لا توصف.

186. أثر النكوص.

كل المجرمين يجعلون المجتمع بالقوة يعود إلى مستويات حضارية أكثر بدائية من التي هو فيها الآن : إنهم يدفعونه إلى النكوص. فلنتفكر في الأدوات التي يجد المجتمع نفسه مرغما على الحصول عليها والاحتفاظ بها من أجل الدفاع الشرعي عن النفس : الشرطي، السجان، الجلاد، وكذلك المدعي العام والمحامي، ولنتساءل أخيرا إن لم يكن القاضي نفسه والعقاب والدعوى، من خلال تأثيرهم على غير المجرمين، ظواهر محبطة عوض أن تكون محمسة : إننا لن نفلح أبدا في إلباس الدفاع الشرعي عن النفس

والإنتقام لباس البراءة، وفي كل مرة نضحي فيها بإنسان كوسيلة لخدمة غايات المجتمع تتضرر الإنسانية كلها من ذلك.

187. الحرب كعلاج.

يمكن أن ننصح الشعوب التي تتعرض قواها لاستنزاف يدعو للرثاء أن تتخذ الحرب كعلاج، إذا افترضنا أنها تريد فعلا أن تستمر حية، لأن هناك الآن معالجة صدامية لضنى الشعوب. وتعتبر الإرادة الأبدية للحياة دون الموت، مع ذلك، علامة على شيخوخة المشاعر، كلما عشنا حياة كاملة وبقوة كلما كان استعدادنا سريعا لأن نمنح حياتنا من أجل شعور واحد جيد. الشعب الذي يحيا ويشعر بهذا الشكل لا يحتاج إلى حروب.

188. التطعيم الجسدي والمعنوي كعلاج.

الحضارات المختلفة مناخات مختلفة، وكل مناخ منها مضر أو صحي بالنسبة لهذا الجسم أو ذاك. يعتبر التاريخ في شموليته، باعتباره معرفة بمختلف الحضارات، هو الصيدلة وليس علم المعالجة ذاته. إن ما يزال ينقصنا بالخصوص هو الطبيب الذي يستخدم هذا الأقراباذين* ليرسل كل واحد إلى المناخ الذي يلائمه ـ مؤقتا أو دائما. العيش في الحاضر، في حدود حضارة واحدة، غير كاف كعلاج عالمي، إذ سيموت به عدد كبير من أصناف الرجال المفيدين جدا الذين لا يستطيعون التنفس فيه بشكل صحي. يجب، من خلال التاريخ، أن نعطيهم الهواء ونحاول الإبقاء عليهم، حتى رجال الحضارات المتخلفة لهم قيمتهم. ـ ولمصاحبة علاج العقول هذا يجب على الإنسانية، من جهة الجسد، أن تجهد في اكتشاف انحطاطات النوع والأمراض التي تسببها كل منطقة من مناطق الأرض، وبالعكس، اكتشاف عوامل الشفاء التي تقدمها، ويجب عندها تطعيم الشعوب والعائلات والأفراد ما تطلب الأمر ذلك ليتغلبوا على العيوب الجسدية الوراثية. وفي نهاية المطاف ستصبح الأرض كلها عبارة عن مجموعة كاملة من المؤسسات الصحية.

189. شجرة الإنسانية والعقل.

إن اكتظاظ الأرض بالسكان الذي تخشونه بقصر نظركم يمنح أكثر الناس تفاؤلا مهمتهم الكبرى : يجب أن تصير الإنسانية يوما ما شجرة تغطي هذا الكوكب بظلها، بملايير الملايير من الزهور التي ستعطي، واحدة بجانب الأخرى، ثمارها، كما يجب تهييء الأرض ذاتها لتغذي هذه الشجرة. العمل على أن يزداد المشروع الحالي، الذي لايزال متواضعا، قوة ونسغا، أن يسري النسغ متدفقا في مجاري لا تحصى ليغذي الكل

والجزء، من هذه المهام ومثيلاتها سنستخلص المعيار الذي نحدد به إن كان رجل من رجال العصر الحاضر نافعا أم لا. هذه المهمة كبيرة وجريئة بشكل لا يوصف، وسنساهم جميعا في إنجازها لكيلا تفسد الشجرة قبل الوقت. لا ريب أن العقل التاريخي سينجح في أن يضع تحت أنظاره الطبيعة والنشاط الإنسانيين على مر السنين، مثلما لدينا تحت أنظارنا عالم النمل بمساكنه المبنية بشكل فني. إذا حكمنا من حيث الظاهر فإننا قد نقول أن الإنسانية ستتيح لنا الفرصة إجمالا، مثل النمل، لنتحدث عن «الغريزة». وعند التدقيق نتنبه إلى أن شعوبا وقرونا بأكملها تجهد في اكتشاف وتجريب وسائل جديدة قد تحقق بها ازدهار تجمع إنساني واسع، وفي النهاية ازدهار شجرة الإنسانية المثمرة في شموليتها، ومهما تكن الخسارة التي قد يتعرض لها الأفراد والشعوب والعصور إثر هذه التجارب فإنها تكون في كل مرة، بالنسبة لبعض الأفراد، خسارة تجعلهم حكماء، وببطء تنتشر حكمتهم لتشمل الإجراءات المتخذة من طرف شعوب وقرون بأكملها. النمل كذلك يخطئ ويخطئ في التمييز بين بعضه البعض، والإنسانية قد تنضني وتهزل قبل الأوان بسبب بلادة الوسائل، وليست هناك غريزة تقود النمل أو الإنسان بأمان. إن ما ينبغي فعله هو بالأحرى مواجهة هذه المهمة الكبيرة التي هي تهيىء الأرض لتتلقى هذه النبتة بخصوبة قصوى ومرحة، ـ إنها مهمة الرشد بالنسبة للعقل.

190. أصل امتداح الغيرة.

منذ سنوات كانت هناك خصومات بين زعيمي قبيلتين جارين، كان كل واحد منهما يتلف زرع الآخر و ينهب قطعانه و يحرق منازله، ونتائج ذلك تفوق الوصف لأن قوتهما تكاد تكون متساوية. وكان هناك سيد قبيلة ثالث يقف محايدا في تلك الخصومات بفضل الموقع المعزول لأملاكه، ولكنه كان مع ذلك يخشى اليوم الذي يتفوق فيه أحد ذينك الجارين الخصمين، لذلك انتهى بالتدخل بينهما بإحسان وإجلال، وأعطى وزنا كبيرا لاقتراح السلام الذي تقدم به وذلك بأن جعل كل واحد منهما يفهم، حين حدثه على انفراد، أنه قد يقف مع الآخر ضد الذي قد يتمرد على السلم. واجتمعا بحضوره ووضعا، وهما يترددان، يديهما في يده، تلك اليدين اللتين كانتا حتى ذلك الحين وسائل الحقد، وغالبا ما كانت سببه، ـ وذاقا طعم السلم حقا. وقد رأى كل واحد منهما، باندهاش، ازدهاره ورفاهيته يزدادان فجأة، رأى أن جاره قد صار الآن تاجرا مستعداً للبيع أو الإشتراء بدل ذلك المجرم المحتال أو الوقح علانية، وأنهما يستطيعان، في حالة حدوث ضائقة غير متوقعة، أن يخرجا منها عوض أن يستغلاها إلى أقصى حد مثلما كانا دائما يفعلان من قبل، بل أكثر من ذلك، يبدو أن

النوع البشري قد صار أجمل في تينك البلدتين، لأن العيون قد أبصرت، والجبين لم يعد مقطبا، وصار الكل واثقا من المستقبل، ــ ولا شيء يفيد جسد الناس وروحهم مثل هذه الثقة. وصار الأسياد ورجالهم يلتقون كل عام يوم التحالف، وذلك بحضور الوسيط الذي يحظى تصرفه بالإعجاب والتقدير من طرفهم نظرا لضخامة المغنم الذي يدينون به له. كانوا يصفون تصرفه بأنه نزيه، ــ لقد كانت أنظار كل واحد مركزة على المنافع الشخصية التي تم جنيها منذ تم التصالح وليس على تصرف الجار لترى فيه شيئا آخر غير كون وضعه لم يتغير مثل وضعه هو، لقد ظل كما هو، وبدا بذلك أن الرجل لم يضع مصلحته نصب عينيه. ولأول مرة يقولون أن النزاهة فضيلة، لا شك أن أشياء مماثلة قد حدثت لديهم مرات عديدة، بشكل مصغر ومنفرد، ولكنهم لم يتنبهوا لهذه الفضيلة إلا حين كتبت على الحائط بحروف كبيرة ومقروءة للجماعة كلها. المزايا الأخلاقية التي تم الإعتراف بأنها فضائل، وأطلق عليها إسم، وصارت موضع احترام، وتم النصح بتبنيها، لم تصر كذلك إلا بدءاً من اللحظة التي حددت فيها بوضوح سعادة وتعاسة مجتمعات بأكملها، ونجد في الواقع أن كثافة الإحساس وتهييج القوى الإبداعية الداخلية كبيرين لدى الكثيرين إلى درجة أنهم يقدمون لهذه الفضيلة هدايا يأخذها كل واحد من أفضل ما لديه. الرجل الجدي يضع جديته عند قدميها، الكريم كرامته، النساء رقتهن، الشبان كل ممالك الأمل والمستقبل في كيانهم، و الشاعر يمنحها الكلمات والأسماء، مثلما يفعل الفنانون، بالتدله بالموضوع الذي ابتكره خياله كما بمعبود، ــ كما يعلم الناس التدله به. وهكذا يشتغل فيها حب وشكران الكل كما يشتغلان في صنع تمثال، وفي النهاية تصير الفضيلة مجموعة من الأشياء الجميلة والمبجلة، تصير ما يشبه معبدا وشخصا مقدسا في نفس الوقت. لقد صارت ترتدي زي فضيلة متميزة، زي كائن موجود بذاته، وهو ما لم تكنه حتى الآن، وصارت تمارس حقوق وسلطة فوإنسانية مقدسة. ــ لقد كانت المدن، لدى الإغريق المتأخرين، تعج بمثل هذه المجردات الإله ــ إنسانية (معذرة عن هذا المصطلح الفريد بسبب فرادة المفهوم)، لقد اتخذ الشعب، على طريقته، « سماء أفكار » أرضها أفلاطونية، ولا أظن أن السكان قد شعروا من جراء ذلك أنهم أقل حياة من أي إله هوميروسي قديم.

191. ساعات معتمة.

نسمي « ساعات معتمة »، في النرويج، تلك الساعات التي لا تشرق فيها الشمس: ولا تفتأ الحرارة حينها تنخفض. ــ إنها أجمل صورة بالنسبة لكل المفكرين الذين اختفت، بالنسبة لهم، شمس المستقبل مؤقتا.

192. فيلسوف.

جنينة، بعض التينات، بعض جبنات صغيرة، وثلاثة أصدقاء أو أربعة، تلك كانت عند أبيقور مأدبة غنية.

193. مراحل العمر.

مراحل العمر الحقيقية هي تلك اللحظات القصيرة التي يكون فيها توقف، بين مخامرة فكرة أو شعور قويين لنا وبين زوالهما. ثمة يحصل مرة أخرى إشباع : والباقي كله جوع وعطش ــ أو اشمئزاز.

194. الحلم.

أحلامنا هي، حين يحدث استثناء أن تكون موفقة وكاملة (لأن الحلم عادة ما يكون عملا مسفسفا)، اطراد رمزي من المشاهد والصور المرادفة للغة الشعر السردية، تصف هذه الأحلام تجارب حياتنا وآمالها وأوضاعها بجرأة ودقة شعريتين كبيرتين بحيث أننا دائما نندهش من أنفسنا عند الصباح حين نتذكرها. إننا نستهلك في أحلامنا مادة فنية كبيرة ــ لذلك نفتقر إليها أثناء النهار.

195. الطبيعة و العلم.

في العلم، تماما كما في الطبيعة، تكون المناطق الرديئة والأقل خصوبة هي التي يتم حرثها أولا، ــ لأن وسائل العلم في بداياته الأولى تكفي هذه المناطق بالكاد. فحرث المناطق الأكثر خصوبة يتطلب طرقا هائلة القوة ومطورة بعناية، تتطلب نتائج تم الحصول عليها بشكل منفصل، وزمرة منظمة من العمال، وزمرة عمال تم تكوينهم تكوينا جيدا، ولا يجتمع كل هذا إلا لاحقا، ــ الجزع و الطموح يسعيان في الغالب إلى وضع اليد على هذه المناطق الأكثر خصوبة، ولكن النتائج تكون حينها صفرا. في الطبيعة تتم معاقبة المستوطنين على مثل هذه المحاولات بالمجاعة.

196. الحياة ببساطة.

لقد صار شكل الحياة البسيطة الآن شيئا صعبا: إنها تستوجب من التأمل والتفكر والإبداعية أكثر مما نجده لدى الأذكياء. وربما يقول الأكثر صدقا من بينهم :« ليس لدي الوقت للتفكير فيها مليا. شكل الحياة البسيطة يشكل بالنسبة لي هدفا ساميا، وسأنتظر أن يعثر عليها من هم أحكم مني.»

197. أسنان حادة.

الخصوبة الضعيفة والعنس، والبرود الجنسي بشكل عام، لدى المفكرين السامقين والأكثر تحضرا، تماما كما التي لدى الطبقات التي ينتمون إليها، كلها أساسية لبنية الإنسانية. العقل يعترف بأن خطر خلف عصبي كبير جدا عند نقطة قصوى من التطور الفكري وينتفع بذلك: لأن أفراد ذلك الخلف هم أسنان الإنسانية الحادة، ـ ولا يجب أن تطول لتصير أكثر رقة وحدة.

198. الإنسان لا يقفز.

مهما يتطور الإنسان ويبد أنه يقفزعبر الموانع فإننا سنكتشف، إذا ما دققنا ملاحظاتنا، الوصلات التي يفترق فيها الصرح الجديد عن القديم. ثمة تكمن مهمة كاتب السيرة الغيرية، وهو ملزم بتصور الحياة حسب المبدأ القائل أنه ليس هناك أي إنسان يقفز.

199. نظيف ولا شك.

الذي يرتدي أسمالا نظيفة يكون مكسوا بشكل مناسب، ولكنه يبقى مكسوا بأسمال، رغم ذلك.

200. الوحيد يتكلم.

الأجرة التي نحصل عليها مقابل كثير من النفور، من الغم، ومن الضجر (كل الأشياء التي تتضمنها بالضرورة وحدة لا أصدقاء فيها ولا كتب ولا واجبات أو هوايات)، هي تلك الفسح الزمنية من التوحد العميق مع الذات ومع الطبيعة. الذي يتحصن ضد الضجر إنما يتحصن ضد نفسه : إذ لن يتاح له أبدا تناول أكثر الجرعات المنشطة من نبعه الداخلي الخاص.

201. شهرة مزيفة.

إنني أكره هذا الجمال المزعوم الذي ليست له أية دلالة، في الواقع، إلا من خلال المعرفة الجغرافية، ولكنه يبقى في ذاته فقيراً بالنسبة لفكر متعطش للجمال : مثل بانوراما جبل القمة البيضاء (mont blanc) منظورا إليه من جنيف ـ إنه شيء تافه لولا النجدات الفورية التي تقدمها فرحة المعرفة، وهي فرحة عقلية*، فالجبال الأخرى كلها هناك أجمل وأبلغ في التعبير، ـ ولكنها « ليست أعلى، شتان ما بينها وبينه »، تضيف هذه المعرفة المنافية للعقل على سبيل التلطيف. العين تناقض المعرفة، والحالة هذه : وكيف يمكنها في هذه المناقضة أن تشعر بمتعة حقيقية.

202. في رحلة ترفيهية.

إنهم يتسلقون الجبل مثل حيوانات، أغبياء وعرقى، لقد نسي الآخرون أن يقولوا لهم بأن هناك مناظر جميلة على طول طريقهم.

203. قليل وقليل جدا.

لقد صار الناس يعيشون أكثر الآن، ولكنهم يفكرون قليلا جدا، إنهم يشعرون بجوع شديد وبمغص في نفس الوقت، بحيث أنهم لا يفتأون يزدادون نحافة رغم كل ما يلتهمونه. ـ بليد من يقول اليوم :« لم يصبني شيء ».

204. النهاية والهدف.

ليست كل نهاية هدفا. فنهاية اللحن ليست هدفه، ومع ذلك، إذا لم يبلغ اللحن نهايته فإنه لن يكون قد حقق هدفه. هذا غموض.

205. حياد الطبيعة.

يعجبنا حياد الطبيعة (في الجبل، في البحر، في الغابة وفي الصحراء)، ولكن لبعض الوقت فقط، ثم نتبرم من ذلك. « أليس لدى هذه الأشياء حقا ما تقوله لنا؟ ألا ترى أننا هنا ؟» وينجم عن ذلك شعور بأن ذلك جريمة ترتكب في حق جلالة الإنسان.

206. نسيان النوايا.

عادة ما يجعلنا السفر ننسى الغاية من ورائه. كل المهن تقريبا يتم اختيارها وممارستها كوسيلة لتحقيق غاية ما، ولكن يتم الإستمرار في ممارستها كغاية أخيرة. نسيان النوايا هو أكثر حماقة نرتكبها مراراً وتكرارا.

207. مسار الفكرة الشمسي.

حين تبدو فكرة ما في الأفق عادة ما تكون الروح باردة جدا. وشيئا فشيئا تزيد الفكرة من حرارتها، وتكون ملتهبة (يكون لها أكبر الأثر) في الوقت الذي تكون فيه الفكرة آيلة للأفول.

208. كيف نجعل الكل يقف ضدنا.

لو أن أحدا تجرأ في الوقت الحاضر وقال :« كل من ليس معي فهو ضدي »، لوجد في الحين كل الناس ضده. ـ هذا الشعور يشرف قرننا.

209. خجل المرء من غناه.

لا يطيق قرننا سوى صنف واحد من الأغنياء، أولئك الذين يخجلون من غناهم. فإذا ما سمعنا أحدا يقال عنه :« إنه غني جدا » فإننا نشعر في الحين بنفس ما نشعر به لدى رؤية مرض ذي تورمات منفرة، أو بدانة أو استسقاء (hydropisie)، ويجب أن نتذكر إنسانية ذلك الغني لنتمكن من معاشرته دون أن يشعر بشيء من اشمئزازنا. ولكن بمجرد ما ينتفع قليلا بغناه فإنه يهتم بشعورنا بدهشة تكاد تكون شفوقة لدى رؤيتنا هذه الدرجة العالية من الغباوة الإنسانية حتى إننا لنرغب في أن نرفع الأيدي إلى السماء ونصرخ :« أيها الرجل المسكين المشوه، الرازح تحت عبء ثقيل، الراسف في مآت الأغلال، الذي تأتيه، أو قد تأتيه، كل ساعة بشيء مزعج، الذي ينعكس في أعضائه أدنى حدث يعرفه عشرون شعبا مختلفا، كيف ستجعلنا نصدق أنك بخير في مثل هذه الحال! في كل مرة تظهر فيها للعموم في مكان ما نعلم أنك تمر بمقارع، تحت أنظار لا تكن لك سوى الضغينة، عدم التحفظ، والسخرية المضمرة. قد تكون مكاسبك أسهل من مكاسب الآخرين، ولكنها مكاسب لا طائل من ورائها، فهي تمنح القليل من المتعة، وطريقتك في الحفاظ على ما اكتسبته هي الآن على كل حال أشق من أي عمل لكسب القوت. إنك تعاني باستمرار، لأنك تخسر باستمرار. ماذا يجديك هذا الدم الاصطناعي الذي يحقنونك به دون توقف أو استراحة : ــ ولكن، لا نكونن جائرين، إنه من الصعب عليك، إن لم يكن مستحيلا، ألا تكون غنيا، إنك مجبر على الحفاظ على ما لديك، مجبر على الكسب باستمرار، هذا الميل الوراثي في طبعك هو النير الذي ترزح تحته، ــ ولكن لا تخدعنا مع ذلك، اخجل بكل صدق ووضوح من هذا النير، بما أنك في قرارة نفسك ضجر منه وساخط عليه. فهذا الخجل ليس مخزيا.»

210. الإفراط في الإدعاء.

هناك ناس مغرورون جدا لحد أنهم لا يعرفون كيف يمدحون شخصية بارزة يظهرون إعجابهم بها أمام الملأ إلا بإبرازها كمرحلة تمهيدية، كقنطرة تؤدي إليهم هم.

211. على أرض الخزي.

الذي يريد أن يجرد الناس من فكرة ما لا يكتفي عادة بدحضها وإخراج دودة اللامنطق الموجودة فيها، إنه يرمي بالثمرة كلها في الوحل بعد أن يكون قد قتل الدودة، وذلك ليحط من قيمتها في أعين الناس ويجعلهم يشمئزون منها. إنه يعتقد أنه بهذا قد وجد الوسيلة لجعل « بعث اليوم الثالث »، الشائع بشأن الأفكار التي تم دحضها،

مستحيلا. ــ ولكنه مخطئ، لأن نواة الفكرة سرعان ما تنبت فسائل جديدة على أرض الخزي، وسط القاذورات. ــ إذن لا يجب علينا إطلاقا أن نشين ونوسخ ما نريد إلغاءه بشكل نهائي، ولكن أن نضعه باحترام في الثلج، ونعيد وضعه فيه بدون كلل، معتبرين أن للأفكار حياة عنيدة. يجب هنا أن نتصرف حسب الحكمة القائلة :« الدحض لا يدحض شيئا.»

212. مصير الأخلاقية.

بما أن عبودية العقول تتقلص فإن الأخلاقية (طريقة التصرف الوراثية، التقليدية والغريزية، تبعا للأحاسيس الأخلاقية) تتقلص هي الأخرى بكل تأكيد، ولكن ليس الفضائل المتميزة مثل الإعتدال والعدل وطمأنينة الروح، ــ لأن أكبر حرية للفكر تقود إليها بشكل تلقائي أولا ثم توصي بها على أنها نافعة.

213. ضمانة المتطرف في الإرتياب.

الشيخ : تريد أن تجرب المهمة الفائقة الحد، مهمة تعليم الإنسانية العظيمة ؟ أين ضمانتك ؟ ــ بيرون (Pyrrhon) : ها هي : أريد أن أجعل الناس على حذر مني، أريد أن أعترف أمام الملأ بكل عيوب طبعي وأكشف لكل الأنظار أحكامي المتسرعة، تناقضاتي وغباوتي. لا تسمعوني، سأقول لهم، ما لم أصر مثل أكثركم تواضعا، بل أكثر تواضعا منه، ثوروا على الحقيقة ما استطعتم بسبب اشمئزازكم من الذي يبشر بها. سأغويكم وأخدعكم ما وجدتم في أدنى بريق من الشرف والكرامة. ــ الشيخ : إنك تعد بأكثر مما قد تستطيع الوفاء به. ــ بيرون : إذن سأقول للناس أيضا أني ضعيف وعاجز جدا عن الوفاء بوعودي. فكلما كانت دناءتي كبيرة كلما ارتابوا في الحقيقة إن صدرت عني. ــ الشيخ : تريد إذن أن تعلمهم الإرتياب في الحقيقة ؟ ــ بيرون : الإرتياب الذي لم يعرفه العالم أبدا من قبل. الإرتياب في كل شيء. إنها السبيل الوحيدة المؤدية إلى الحقيقة. لا ينبغي للعين اليمنى أن تثق في العين اليسرى، ولابد أن يسمى النور ظلمة لفترة ما : هذه هي السبيل التي عليكم اتباعها. لا تعتقدوا أنها ستقودكم إلى الأشجار المثمرة والحقول الجميلة. سوف تجدون فيها بذورا صغيرة قاسية، ــ تلكم هي الحقائق. سيكون عليكم خلال عشرات السنين أن تبتلعوا حفنات من الكذب، وأنتم تعلمون أنه كذب، لئلا تموتوا جوعا. وتلك البذور سيتم بذرها وطمرها، وربما سيكون هناك يوم حصاد، لا أحد يستطيع الوعد بذلك عدا المتطرف. ــ الشيخ : أيها الصديق! كلماتك هي أيضا كلمات متطرف! ــ بيرون : أنت على حق! سأرتاب في كل الكلمات. ــ الشيخ : إذن سيكون عليك أن تلزم الصمت.

ـ بيرون : سأقول للناس أنه علي أن ألزم الصمت وأن عليهم الاحتراس من صمتي. ـ الشيخ : هل تتراجع وتتخلى عن مشروعك ؟ ـ بيرون : ليس الأمر كذلك... ها قد أريتني الباب الذي علي أن أمر منه. ـ الشيخ : لست أدري... ألازلنا نتفاهم جيدا ؟ ـ بيرون : ربما لا. ـ الشيخ: حسبك أن تفهم نفسك أنت جيدا ! ـ بيرون يستدير ويضحك. ـ الشيخ: آه يا صديقي! أن تضحك ثم تصمت... أتلك هي الفلسفة كلها الآن ؟ ـ بيرون : إنها لن تكون بذلك هي الأسوأ...

214. كتب أوربية.

حين نقرأ مونطيني، لا روشفوكو، لا برويير، فونتنيل (وخاصة حوارات الموتى)، ڤوڤنارغ، وشومفور، فإننا نكون أقرب إلى القدم (antiquité) منه حين نقرأ أية مجموعة من ستة مؤلفين من الأمم الأخرى. لقد بعث هؤلاء الستة روح القرون الأخيرة من العهد القديم، ـ إنهم يشكلون جميعا حلقة مهمة في سلسلة النهضة، وهي سلسلة كبيرة لم تنقطع بعد. كتبهم تسمو على تغيرات الذوق القومي وعلى الفروق الفلسفية التي يتقزح بها عادة كل مؤلف، في الوقت الحاضر، وهو ما يجد صاحبه نفسه مرغما على فعله إن هو أراد له الشهرة : إن كتبهم تضم من الأفكار الحقيقية أكثر مما تضمه كتب الفلاسفة الألمان مجتمعين، وهي أفكار من الصنف الذي ينتج أفكارا، والذي... إني أشعر بالحرج، لذا لن أكمل تعريفي، يكفي أنهم يبدون لي مؤلفين لم يكتبوا لا للأطفال ولا للمتحمسين، لا للعذارى ولا للمسيحيين، لا للألمان ولا لـ... أجد نفسي محرجا مرة أخرى، لذا لن أكمل لائحتي. ـ وهذا هو التقريظ الدقيق الذي اقترحه : لقد كانوا جديرين بأن يكتبوا باللغة الإغريقية ويفهمهم الإغريق. حتى أفلاطون ماذا كان سيستطيع إجمالا أن يفهمه من أعمال أفضل المفكرين الألمان، غوته أو شوبنهاور مثلا، حتى لا نقول شيئا عن النفور الذي سيشعر به من أسلوبهم بما يتضمنه من غموض وتفخيم، ومن هزالة أحيانا، ـ وهي عيوب يعاني منها غوته وشوبنهاور بشكل أقل، ولكنهما مع ذلك يعانيان كثيرا (حين يتحول غوته إلى مفكر فإنه يلذ له أكثر من اللائق أن يعانق السحاب، وشوبنهاور يتحرك باستمرار، وإن كان ذلك يعذبه كثيرا، بين صور الأشياء عوض أن يتقدم بين الأشياء ذاتها). ـ على العكس من ذلك نجد لدى هؤلاء الفرنسيين وضوحا ودقة رشيقة كبيرين. حتى الإغريق ذوي السمع المرهف كانوا سيجدون أنفسهم مرغمين على تذوق هذا الفن، وهناك فيه ميزة كانوا سيعجبون بها ويتدلهون بها، إنها روحية التعبير، وهو شيء كانوا يحبونه كثيرا دون أن يكونوا بارعين فيه.

215. الموضة والعصري .

حيثما يزدهر الجهل والوسخ والخرافة، حيثما تكون المبادلات ضعيفة، الزراعة فقيرة، ورجال الدين أقوياء، تتواجد كذلك الأزياء القومية. في المقابل، تسود الموضة هناك حيث توجد أمارات عكس هذا. الموضة إذن ترافق مزايا أوربا الحالية، فهل تكون هي جانب الظل منها ؟ ـ قبل كل شيء، يظهر الزي الرجالي، الذي صار موضة ولم يعد قوميا، أن الذي يرتديه، أي الأوربي، لا يريد أن يظهر كفرد ولا كعضو في طبقة أو أمة، أنه قد اتخذ لنفسه قانونا ليخنق عن قصد أشكال الغرور هذه، ثم أنه عامل وقلما يجد الوقت ليتأنق في لباسه ويتبهرج، أنه يجد أثمن وأفخر ما في الثوب وفي طريقة ارتدائه مناقضا لعمله، وأخيرا أنه بلباسه يشير إلى مهن أكثر علمية وفكرية من تلك التي هو قريب، أو يود القرب، منها باعتباره أوربيا، بينما نجد أن قاطع الطريق، الراعي أو الجندي هم الذين يبرزون عبر الأزياءالقومية التي ماتزال قائمة الوجود، بوصفهم الحالات المرغوبة والمنظمة لعادات المجتمع. وفي إطار الموضة الرجالية العام تأتي بعد ذلك تلك التنوعات الصغيرة التي يثيرها غرور الشباب والمتأنقين والعاطلين في المدن الكبرى، أي أولئك الذين لم ينضجوا بعد كأوربيين. ـ أما النساء الأوربيات فقد فعلن ذلك بشكل أقل بكثير بحيث أن التنوعات أكبر لديهن، هن أيضا لا يردن الطراز القومي ويكرهن، كألمانيات وفرنسيات وروسيات، أن يعرفن من زيهن، ولكنهن يحببن أن يتم تمييزهن فرديا. كما أن الأمر يتعلق بألا يتركن أحدا يشك، من خلال ثيابهن، أنهن ينتمين إلى طبقة اجتماعية معتبرة (إلى طبقة « جيدة » أو « راقية »، أو إلى طبقة «الأعيان»)، ويردن كذلك الإخطار بالأحرى، من هذا الجانب، أنهن لسن، أو فقط بالكاد، من تلك الطبقة. ولكن الشابة لا تريد أن ترتدي شيئا مما ترتديه المرأة المتقدمة في السن قليلا لأنها تعتقد أنها ستفقد احترام الناس إن خطر ببالهم أنها مسنة، أما المسنة فتريد خداع الناس أطول وقت ممكن من خلال تزينها، ـ وينتج عن هذا التنافس دائما، لبعض الوقت، موضات يظهر فيها الشباب الحقيقي بشكل واضح جدا وغير قابل للتقليد. حين تنتشي روح الإبتكار لدى الفنانين الشباب، لبعض الوقت، بمثل استعراضات الشباب هذه، أو، لكي نقول كل الحقيقة، حين يطلعون مرة أخرى على الروح الإبداعية في الحضارات القديمة المهذبة مثلما يطلعون على الروح الإبداعية التي ماتزال قائمة من أمم سابقة، وبشكل عام، على البلدان التي يرتدي سكانها الملابس، وبربطهم مثلا بين الإسبان والأتراك والإغريق القدامى فيما يتعلق بلون بشرتهم، فإنهم ينتهون إلى أنهم لم يفهموا مصلحتهم أفضل ما يمكن، وأن لعبة التخبئة (cache cache) مع الجسم أسعد حظا من الصدق العاري أو شبه العاري من حيث التأثير في

الناس، وهكذا تدور عـجلة الذوق والغرور في الإتجاه المعـاكس، فالنساء المسنات قليلا يعتقدن أن عهدهن قد حان، ومن جـديد يشتعل الصراع بين الكائنات الفاتنة والبليدة. ولكن كلما كبرت النساء باطنيا وكففن فـيما بينهن، مثلما حدث حتى الآن، عن منح التفـوق لطبقـات العمر الأقل نضـجا، كلمـا قل هذا التنوع في زينتهن، وكلمـا صارت حليتهن بسـيطة، ولا ينبغي أن نحكم على هذه من خلال النمـاذج القديمة، أي حسب قـواعد اللباس لدى سكان الضـفـاف الجنوبيـة*، ولكن أخـذا بعين الاعتبـار للظروف المناخيـة في المناطق المتوسطة والشماليـة من أوربا، وإجمالا، تلك المناطق التي اختـارتها موطنا لهـا تلك العبقـرية التي تبتكر روح أوربا وأشكالهـا. ـ إجمالا، لن تكون العـلامة المـميزة للمـوضة والعـصري هي التـغيير، الذي هو عـلامة تخلف، الخـاص بالأوربيين، رجالا ونساء، الذين لم ينضـجوا بعد، بل ستكون هي رفض الغرور، سواء كـان قوميا، طبقيـا، أو فرديا. وبمقتضاه يمكننا أن نهنئ أنـفسنا، لأنه اقتصاد للقـوة وللزمن أن تتصور بعض مدن ومناطق أوربا أشـكال اللباس. وليس مطمحـا عاليا جـدا أن تدعي باريز، ما دامت هذه التنوعـات، أنها المبـتكر والمجـدد الوحيـد في هذا الميدان. وإذا مـا أراد ألماني حاقد على ادعـاء باريز هذا أن يتزيا بشكل مخـالف، مثلا كما كـان يلبس ألبرت دورر (Dürer)، فإنه عليـه أن يفكر جيـدا في كونه سيـرتدي حينها زيـا كان الألمان يرتدونه فـيمـا مضى، ولكنهم لـم يكونوا هم من ابتكره، ـ لم يكن هناك أبدا زي يميـز الألمان، وسيـمكنه، علاوة على ذلك، أن يرى كيف سيبدو في ذلك الزي، هذا إن لم يعـترض أحد الوجوه العصـرية، بكل القسمات والتجاعـيد التي نحتها عليه القـرن التاسع عشر، على التـزيي على طريقـة دورر. ـ هنا، حـيث يكاد يتـسـاوى مـفـهـومي «عـصـري» و«أوربي»، نعني بأوربا أرضا أكبر مما تضمه أوربا الجغرافـية التي تشبه جزيرة صغيرة من آسيا : فأمريكا جزء من أوربا نظرا لأنها ابنـة حضارتنا. من جهة أخرى، لا تشمل فكرة الحضارة « الأوربية » أوربا كلها، ولكن فقط تـلك الشعوب والأجزاء من الشعوب التي لها ماض مشترك في الهلينية، في اللاتينية، في اليهودية والمسيحية.

216. « الفضيلة الألمانية ».

لا مراء أن أوربا قد عرفت تيارا من النهضـة الأخلاقية منذ نهاية القرن الماضي. وفي هذا الوقت عـادت الفضـيلة فصـيحـة من جديد، لـقد تعلمت أن تعـثر على سلوكـات السمو والإنـفعال التلقائيـة، وكفت عن الخجل من نفسـها وصاغت فلسفـات وأشعارا لمجـدها. إذا بحثنا عـن أصل هذا التيـار نجد أولا روسـو، ولكن روسـو الأسطوري الذي تخيلناه من خـلال الإنطباع الذي خلفـته لدينا أعمـاله (ونكاد نقول من خلال أعـماله

التي فسرت أسطوريا) ومن خلال الإشارات التي أعطاها لنا هو نفسه (هو وجمهوره يصوغان باستمرار هذه الشخصية المثالية). نقطة الإنطلاق الأخرى هي إحياء الأسلوب الرواقي* الروماني الرفيع، هذا الإحياء الذي تابع به الفرنسيون غاية ما تكون المتابعة عمل النهضة. وبنجاح باهر مروا من إعادة ابتكار الأشكال القديمة إلى إعادة ابتكار الميزات القديمة، بحيث أنه سيكون لهم الحق إلى الأبد في الأمجاد الرفيعة نظرا لكونهم هم الشعب الذي أعطى الإنسانية الحديثة إلى حد الآن أفضل الرجال. إننا نرى كيف كان تأثير هذا النموذج المزدوج، نموذج روسو الأسطوري ونموذج الروح الرومانية التي تم إحياؤها، على الجيران الضعفاء من خلال مثل ألمانيا، فإثر انطلاقتها الحديثة وغير المعتادة نحو العظمة الصارمة عظمة الإرادة والتحكم في الذات انتهت ألمانيا إلى الإندهاش من فضيلتها الجديدة وإطلاق مفهوم « الفضيلة الألمانية »، وكأنه ليس هناك شيء أصيل ووراثي أكثر منها. العظماء الأوائل الذين أخذوا على عاتقهم هذا الحث الفرنسي على العظمة الواعية، عظمة الإرادة الأخلاقية، كانوا أمناء ولم ينسوا الشكران. ما مصدر أخلاقية (moralisme)* كانط ؟ إنه يلحن بذلك باستمرار : روسو ونهضة الرواقية الرومانية. وأخلاقية شيلر : نفس المصدر، ونفس التمجيد لهذا المصدر. وأخلاقية بتهوفن في الموسيقى : إنه الثناء الأبدي على روسو، على الفرنسيين الذين يحذون حذو القدماء، وعلى شيلر. « الشباب الألماني » كان أول من نسي الإعتراف بالجميل، لأنه في غضون ذلك أصغى للذين يدعون إلى الحقد على الفرنسيين بينما كان هو للحظة يحتل مقدمة المسرح بجدارة أكثر مما يسمح به للشبان الآخرين. بشروعه في البحث عن أجداده كان له الحق في التفكير في قرابة شيلر، فيخت، وشليرماخر، وقد كان عليه أن يبحث عن أجداده في باريز أو جنيف، أما الإعتقاد مثلما كان يفعل هو بأن الفضيلة لم يكن عمرها يتعدى ثلاثين سنة فهو رؤية قصيرة النظر. حينها اعتاد الناس التطلب أن تثير كلمة « ألماني »، بالتبعية، فكرة الفضيلة، ــ ولاتزال هذه العادة سارية حتى الآن. ــ ولنسجل بلا إلحاح أن هذا الإنبعاث الأخلاقي الذي ذكرناه لم يجلب لمعرفة الظواهر الأخلاقية، مثلما قد تكونون حزرتم، سوى أضرار وميول نكوصية. ما هي الفلسفة الأخلاقية الألمانية كلها، بدءاً من كانط، ومعها مجموعة الكتاب والمقلدين لها من أصل فرنسي، انجليزي، وإيطالي ؟ إنها مؤامرة شبه لاهوتية ضد هلفتيوس*، رفض للمنظورات الحرة التي تم اكتسابها بشكل بطيء وشاق، للإشارات التي أحسن جمعها وإعلانها والتي تبين الطريق القويم. لايزال هلفتيوس إلى اليوم هو أكثر الأخلاقيين الجيدين والرجال الطيبين الذي تم شتمه في ألمانيا.

217. كلاسيكي ورومانسي.

ينمي ذوو الميول الكلاسيكية أو الرومانسية (وهما صنفان يوجدان في نفس الوقت) رؤية مستقبلية، الأوائل باعتمادهم على قوة عصرهم، والأواخر على ضعفه.

218. تعليم الآلة.

تعلمنا الآلة من خلال طريقة عملها كيف تحشد جماعات من الرجال في عمليات تقوم فيها كل جماعة بشيء واحد فقط. إنها تعطي نموذج تنظيم الأحزاب وتسيير الحرب. ما لا تعلمه، في المقابل، هو ضبط النفس. إنها تجعل من عدد كبير من الناس آلة واحدة، ومن كل فرد أداة ذات غاية وحيدة. والتأثير العام الذي يكون لها هو تعليم الناس فائدة التجمع.

219. غير حضري.

يقطن المرء المدينة الصغيرة عن طيب خاطر، ولكنها من حين لآخر، حين تصير شفافة كثيرا بالنسبة له، تدفعه للذهاب إلى حضن الطبيعة المتوحدة التي قلما استكشفها الإنسان.وأخيرا، ولكي يشفى من تلك الطبيعة، يذهب إلى المدينة الكبيرة. بعد أن يتجرع منها بضع جرعات يستشعر ثمالة تلك الكأس، ــ وتبدأ الدورة من جديد متخذة من المدينة الصغيرة نقطة انطلاق. ــ وهكذا يحيا العصريون : وهم، في كل الأشياء، أعمق كثيرا بحيث لن يكونوا حضريين مثل رجال العهود الماضية.

220. رد فعل ضد حضارة الآلة.

لا تستخدم الآلة، التي هي نتاج الملكة الفكرية العليا، لدى الذين يستخدمونها سوى الطاقات الدنيا وليس الفكر. وبفعلها ذلك تطلق كمية هائلة من الطاقة التي لولاها لظلت كامنة، هذا صحيح، ولكنها لا تدفع المرء إلى التسامي، إلى القيام بما هو أفضل، لأن يصبح فنانا. إنها تجعله نشطا مكرراً نفس العمل بانتظام، ــ ولكن هذا يثير على التمادي رد فعل، يثير في الروح ضجرا يائسا تتعلم من خلاله أن تطمح إلى تسليات الكسل.

221. الجانب الخطير في فلسفة الأنوار.

تشكل مجموعة من الملامح شبه المعتوهة، المسرحية، الفظة بشكل بهيمي، الشهوانية، وخصوصا ذات العاطفة الدائمة الإستعداد للإنتشاء من ذاتها، تشكل الملك الثوري الخاص، وكانت قد تجسدت، قبل الثورة، في شخص روسو وعبقريته : والحالة

أن الشخص الـذي تعرفه قـد عرف، بحـماس خادع، كـيف يضع فلسفـة الأنوار على رأسه المتـعصب، وصـارت هذه الفلسفـة تشع وكأنما جـملتها هذه الهـالة، تلك الأنوار التي كانت مـجهولة لديه في الواقع والتي، بتصـرفها من تلقـاء ذاتها، كانت ستـخترق الغيـوم بهدوء مـثل شعاع سـاطع، راضيـة لمدة طويلة بإصلاح الفـرد فقط، بحـيث أنها كـانت ستـصلح عادات ومـؤسـسات الشـعوب كـذلك، وإن كـان ذلك سيـتم ببطء. ولكنها صارت منذ تلك اللحظة عنيفة ووحشية نظرا لارتباطها بظاهرة عنيفة ووحشية. وصار الخطر الذي تمثله تقريبا أكبر من عنصـر التحرير والتنوير، وهو عنصر مفيد، الذي أدخلتـه في الحركة الثـورية الواسعـة. ومن يدرك هذا سوف يدرك كـذلك اللبس الذي يجب إخراجـها منه والقـذارة التي يجب تطهيرها منه، قـصد مـتابعة عـمل الأنوار بعد ذلك، بالنسبة لها، وخنق الثورة في المهد، بعد برهة، وكأنها لم تكن.

222. الهوى في العصر الوسيط.

كان العصر الوسـيط عصر الأهواء الكبيرة. فلا القدم ولا عصـرنا لهما حجم الروح الهائل هذا، لقد بلغت أقصى مداها في ذلك العصر، القوة البدنية، حيوية الغابة البدائية غابة الشـعوب المتوحـشة والعيـون المشعة، اليـقظى، الصبوية، وكـذلك النضـج المفرط، إرهاق العمر، وحشية السبع وتـهذيب الروح حد اللطف المتكلف إبان القدم المتأخر، ــ لم يكن نادرا أن يجتمع كل هذا في شـخص رجل واحد، وحين كـان الهوى يتـملك شخـصا مـا، في هذه الظروف، يكون على سيـول الروح أن تكون أعنف من أي وقت آخر، على الدردور أن يكون أكثر غموضـا، وعلى الشلال أن يكون أعمق. ــ سنتجرأ، نحن المحدثون، على تحمل نصيبنا من الخسارة التي أصابتنا هنا.

223. النهب والإدخار.

كل تيارات الفكر تمضي قدما حين يأمل، من ورائها، الكبار أن يسرقوا، والصغار أن يدخروا. وهذا هو ما جعل الإصلاح الألماني يتقدم.

224. أرواح فرحة.

لقد كان يكفي التـلميح، ولو من بعيد، إلى الشرب، إلى النـشوة وإلى نوع منفر من الفجور لتـصير روح الألمان القدامى فـرحة، ــ أما بقية الوقت فـيكونون حزانى، ويكون لهم في الحزن نوع خاص بهم من الذكاء الكبير.

225. الفسق في أثينا.

حتى حين وجد سوق السمك في أثينا شعراءه ومفكريه استمر الفسق الإغريقي في الإحتفاظ بمظهر غزلي ومهذب أكثر من مظهر الفسق الروماني أو الألماني. لقد بدا فيه صوت جوڤينال (Juvénal) الرنان مقعرا، وأجابته ضحكة لطيفة وشبه طفولية.

226. حكمة الإغريق.

بما أن الرغبة في الإنتصار والهيمنة هي إحدى سمات الطبيعة التي لا تقاوم، وهي أقدم وأكثر بدائية من احترام المساواة والتمتع بها، فإن الدولة الإغريقية قد أقرت المصارعة الرياضية والشعرية بين الأنداد، أي تحديد حلبة يمكن فيها إشباع هذه الغريزة دون تهديد النظام السياسي. ومع انحطاط المصارعة الرياضية والشعرية غرقت الدولة الإغريقية في الاضطرابات والتفسخات الداخلية.

227. « أبيقور الخالد »*.

لقد عاش أبيقور في كل العصور، ولايزال يحيا حتى الآن، مجهولا من طرف أولئك الذين قالوا، ويقولون، عن أنفسهم أنهم أبيقوريون، وغير مشهور لدى الفلاسفة. وقد نسي هو أيضا كل شيء، حتى اسمه : وهو أثقل متاع تخلص منه.

228. أسلوب التفوق.

نجد أصل الألمانية المدرسية، التي هي لغة الطالب الألماني، لدى الطلاب الذين لا يدرسون، الذين يعرفون كيف يحققون نوعا من التفوق على زملائهم المجدين من خلال اكتشافهم لما قد يكون من تصنع في الثقافة، في الأخلاقية، في التنقيب، في القاعدة، في الإعتدال، وبجعلهم على طرف لسانهم تلك الكلمات التي أخذوها من هذه الميادين، تماما مثل النخبة والمتعلمين، ولكن مع مكر في النظرة ومداجاة مصاحبة لها. والحالة هذه، فإن رجال الدولة والنقاد الذين يعملون في الصحافة يتكلمون عن غير قصد لغة التفوق هذه ـ وهي وحدها الأصلية في ألمانيا ـ، إنها عبارة عن سلسلة لا تنقطع من الإستشهادات الساخرة، من الغمزات غير المباشرة يمنة ويسرة، غمزات قلقة وعدوانية، إنها ألمانية المزدوجتين (guillemets) والتقطيبات.

229. المدفونون.

إننا نأوي إلى السر، ليس بسبب غم شخصي، مثل عدم رضانا عن الأوضاع السياسية والإجتماعية في الوقت الحاضر، ولكن لأننا نريد، من خلال خلوتنا، أن ندخر

ونراكم طاقات ستحتاجها الحضارة حتما فيما بعد، أما الحاضر فيقوم هو نفسه بمهمته. إننا نكون رأسمالا ونسعى لحمايته، ولكننا نفعل ذلك، كما في العصور التي تعرف خطرا داهما، من خلال دفنه.

230. طغاة العقل.

في عصرنا الحاضر قد نعتبر مريضا كل من قد يكون تجسيدا صارما لسمة أخلاقية واحدة ووحيدة مثلما هي شخوص ثيوفراست وموليير، وسنتحدث بشأنه عن « فكرة جامدة ». لو أمكننا زيارة أثينا القرن الثالث لبدت لنا آهلة بالحمقى. واليوم تسود ديمقراطية الأفكار في رأس كل إنسان، ـ وسيدها عدد كبير مجتمع من الأفكار، والفكرة المنفصلة التي تريد الهيمنة نسميها الآن، كما أسلفنا، « فكرة جامدة ». هذه هي طريقتنا في قتل الطغاة، ـ في إيداعهم مستشفى المجانين.

231. أخطر الهجرات.

هناك في روسيا هجرة الذكاء : يعبر الناس الحدود ليقرأوا كتبا جيدة أو ليؤلفوها. وهم بهذا يعملون ليجعلوا من بلدهم الذي هجره العقل الفم المتقدم لآسيا التي تود فعلا ابتلاع أوربا الصغيرة.

232. المتعصبون للدولة.

حين انتهت الملكية عند الإغريق انتقل حبهم شبه المقدس للملك إلى الحاضرة. وبما أن الفكرة تتحمل الحب أكثر من الشخص، خاصة وأنها لا تقسو على محبها في الغالب مثلما يفعل المحبوبون (لأنهم كلما عرفوا أنهم محبوبون كلما صاروا قساة، في الغالب، إلى أن يصيروا في النهاية غير جديرين بالحب ويحدثوا قطيعة حقيقية) فقد كان تبجيلهم للحاضرة أكثر من أي تبجيل ناله الأمير. الإغريق هم متعصبوا الدولة في التاريخ القديم، ـ وفي التاريخ الحديث هناك شعوب أخرى.

233. ضد المهملين لعيونهم.

ألن نكتشف، ربما، كل عشر سنوات، لدى الطبقات الأنجليزية المثقفة التي تقرأ التايمز نقصا في الرؤية.؟

234. الأعمال والإيمان.

هذا أنجز أعمالا عظيمة، ورفيقه كان له إيمان كبير بهذه الأعمال. إنهما متلازمان، ولكن من البديهي أن الأول يتوقف على الثاني.

235. الإجتماعي.

« لا أهضم نفسي جيدا » قال أحدهم ليشرح اجتماعيته، « معدة المجتمع أقوى من معدتي، فهي تتحملني.»

236. المفكر الذي يغمض عينيه.

حتى وإن كنا مدربين ومتعودين على التفكير في الفعل فإننا سنكون مرغمين، حين نأتي الفعل (حين نكتب رسالة أو نأكل ونشرب)، أن نغمض عيوننا الداخلية. يجب علينا أن نعرف كذلك، ونحن نجري حوارا مع أناس عاديين، كيف نفكر وعيوننا مغلقة، ـ حتى ندرك الفكرة العادية ونفهمها. وإغلاق العينين بهذه الطريقة فعل ممكن الإدراك، ويمكن القيام به عن قصد.

237. أبشع انتقام.

إذا أردنا الإنتقام من خصمنا فإنه علينا الإنتظار حتى نتوفر على حفنة من الحقائق والتفاصيل الصائبة التي يمكننا استغلالها ضده دون انفعال، بحيث أن الإنتقام يتزامن مع ممارسة العدل. إنه أبشع أنواع الإنتقام، لأنه ليست فوقه أية سلطة يمكن اللجوء إليها. هكذا انتقم ڤولتير من بيرون (Piron) بخمسة أسطر تحكم على حياته كلها، على أعماله وعلى نواياه : الكلمات بقدر الحقائق، وبنفس الطريقة انتقم كذلك من فردريك الكبير (في رسالة وجهها له من Ferney).

238. ضريبة الكماليات.

يشتري الناس من الدكاكين التجارية الأشياء الضرورية التي هم في حاجة ملحة إليها، وعليهم أن يؤدوا ثمنها غاليا لأنهم يؤدون كذلك ثمن الأشياء الأخرى المعروضة للبيع والتي لها مشترون قليلون جدا : الكماليات، الأشياء التي تلبي النزوات. وهكذا تفرض الكماليات ضريبة أبدية على الناس البسطاء الذين يستغنون عنها.

239. لِمَ يبقى المتسولون.

لو أن كل الصدقات كانت تعطى بدافع الشفقة فقط لمات المتسولون من الجوع.

240. لِمَ يبقى المتسولون.

الجبن أكبر المتصدقين.

241. كيف يفيد المفكر من الحوار.

يمكننا أن نسمع الكثير، دون أن نكون مستمعين، إن عرفنا كيف نرى جيدا وكيف نختفي عن الأنظار من حين لأخر. ومع ذلك لا يعرف الناس كيف يفيدون من الحوار، ذلك أنهم يولون اهتماما بالغا لما يريدون قوله أو الرد به، والحالة أن المستمع الجيد غالبا ما يكتفي بالإجابة المؤقتة وبتقديم شيء ما كعربون أدب، حاملا بالمقابل في ذاكرته الدائمة اليقظة ما عرضه الآخر، وكذلك طريقة النبرة والحركة التي عبر بها عنه. ــ في الحوار الجاري يتصور كل متحاور أنه هو الذي يقود الحوار، مثل الباخرتين اللتين قد يعتقد ربان كل واحدة منهما، وقد ابحرتا سويا وتصطدمان ببعضهما عن بعد، أن الباخرة المجاورة تتبع باخرته أو أنه يقطرها.

242. فن الإعتذار.

على الذي يعتذر لنا أن يجيد الإعتذار وإلا جعلنا نبدو نحن هم المخطئون، وينتابنا من ذلك شعور مزعج.

243. معاشرة مستحيلة.

تسحب سفينة أفكارك كثيرا من الماء لتمكنك من الإبحار معها على أمواج هؤلاء الأشخاص المحبوبين، المؤدبين، الودودين. يوجد هاهنا الكثير من المضاحل والأرصفة الرملية، إنك ستكون في ضيق مستمر، لأنك مرغم على أن تنعطف وتدور، وقريبا يقع الآخرون أيضا في حرج بسبب حرجك الذي لن يستطيعوا حزر سببه.

244. أمكر من الثعلب.

الثعلب الحقيقي لا يقول فقط عن العنب الذي لا يستطيع بلوغه أنه حصرم، بل كذلك عن العنب الذي بلغه وأخذه أمام أنظار الأخرين.

245. معاشرة حميمة.

مهما تكن الروابط التي تجمع بعض الناس ضيقة فإن الجهات الأربع تستمر موجودة في أفقهم المشترك، وفي بعض الأوقات يتنبهون لذلك.

246. صمت الإشمئزاز.

مر كاتب ما، بصفته مفكرا وإنسانا، بتغير كبير وعسير، ثم اعترف بذلك أمام الملأ. ولكن مستمعيه لم يتنبهوا لشيء! وظنوه لا يزال كما كان تماما! ــ وقد أثارت هذه

التجربة الشائعة اشمئزاز الكثير من الكتاب، ذلك أنهم خمنوا أن عقلانية (intellectu-alité) الناس رفيعة، ولما أدركوا خطأهم أقسموا أن يلتزموا الصمت.

247. الجد في الأعمال.

إن أعمال كثير من الأغنياء المتميزين هي طريقتهم في الإستراحة من بطالة طويلة جدا تم قضاؤها في العادة، لذلك تراهم يباشرونها بنفس الجدية والشغف اللذين يباشر بهما الآخرون تسليتهم في أوقات فراغهم النادرة.

248. إزدواجية العين.

مثلما تجعل الموجة رعشة فجائية تسري في قدميك فإن هناك في عين الإنسان بعض الشكوك والإزدواجية الفجائية التي تجعلنا نتساءل : أهي رعشة ؟ أم ابتسامة، أم كلاهما معا ؟

249. موجب وسالب.

لا يحتاج هذا المفكر إلى من يدحضه : إنه يكتفي بنفسه للقيام بذلك.

250. انتقام الشباك الفارغة.

علينا أن نحذر كل الذين لهم نفس الشعور بالمرارة الذي لدى الصياد الذي يعود في المساء بشباك فارغة بعد أن قضى يوما شاقا في البحر.

251. عدم ممارسة الحقوق.

ممارسة القوة تكلف العناء وتتطلب الشجاعة. لذلك نجد كثيرا من الناس لا يمارسون أجود وأفضل حق لهم، لأن ذلك الحق نوع من القوة، وهم أضعف أو أجبن من أن يمارسوها. ويغطون نقائصهم بفضيلتين هما التسامح والصبر.

252. أجهزة الإنارة.

لن يعرف المجتمع أدنى شعاع شمس لو لم يسلطه عليه أولئك المتملقون، أقصد أولئك الذين نسميهم **لطفاء**.

253. الأكثر إحسانا.

يكون المرء أكثر إحسانا حين يكون قد تلقى كثيرا من التشريفات وأكل قليلا.

254. نحو النور.

لا يسارع الناس نحو النور لكي يروا أفضل وإنما لكي يلمعوا أكثر. والذي يلمعون في حضوره يعتبرونه نورا عن طيب خاطر.

255. الموسوس.

الموسوس رجل له ما يكفي من العقل ومن الشهية الفكرية ليذهب حتى عمق معاناته وإحباطه وعيوبه، ولكن الأرض التي يتغذى عليها صغيرة جدا، يستهلك ما عليها تماما بحيث يضطر في الأخير للبحث عن قشها واحدة واحدة. وينتهي به الأمر لأن يصير بذلك غيورا وبخيلا، ــ وحينها يصبح غير مطاق.

256. كيف نرد.

ينصحنا هزيود* بأن نرد للجار الذي ساعدنا، بمجرد ما نستطيع ذلك، أكثر مما ساعدنا به، وأن نجعل ردنا وافرا إن أمكن، وهو ما سيسعده فعلا، لأن سخاءه قد أثمر، ولكنه سيسعد الذي يرد كذلك، إذ سيجعله يسترد بواسطة فائض قليل، بوصفه مانحا بدوره، تلك الإهانة الصغيرة المتمثلة في كونه قبل المساعدة.

257. أدق مما ينبغي.

حين نريد معرفة إن كان الآخرون يدركون نقط ضعفنا فإننا ندقق الملاحظة أكثر مما نفعل مع نقط ضعف الغير، وينجم عن ذلك أن ملاحظتنا تكون أدق مما ينبغي.

258. نوع من الظل المضيء.

توجد بقرب الكائنات الليلية تقريبا دائما روح نورانية منتظمة ، وكأنها مرتبطة بها. وهي، تقريبا، ظلها السالب.

259. أن لا ننتقم ؟

هناك أشكال متعددة وسامية من الإنتقام بحيث أن الذي قد يكون له داع للإنتقام قد يفعل، في الواقع، ما يريد أو قد لا يفعله : وفي غضون بعض الوقت سيتفق الكل على القول بأنه قد انتقم. إذن قلما يتعلق عدم الإنتقام بالإرادة المطلقة لإنسان ما، ولا يجب عليه حتى القول أنه لا يريده، مادام ازدراء الإنتقام يتم تفسيره والإحساس به على أنه انتقام سام ودقيق جدا. ــ وهو ما ينجم عنه أنه ليس هناك شيء غير ضروري.

260. خطأ في الثناء.

يعتقد كل واحد أنه يمتدح المفكر امتداحا مقبولا حين يبين له كيف توصل هو بنفسه إلى نفس الفكرة، بل إلى نفس العبارة، ولكن المفكر نادرا ما تسعده مثل تلك المسارة، إنه يفهم منها، على العكس، شيئا من الريبة بخصوص فكرته أو عبارته، فيقرر سرا أن يراجعها عند الإقتضاء. ـ علينا، حين نريد امتداح شخص ما، أن نحترس من إبداء موافقتنا : لأنها تضعنا معه في نفس المستوى. ـ في كثير من الحالات يكون الإستماع إلى رأي ما وكأنه ليس رأينا، بل أكثر من ذلك، وكأنه يتجاوز أفقنا، يكون ذلك من اللياقة الإجتماعية، مثلا حين يفتح الشيخ المحنك علبة معارفه.

261.الرسالة.

الرسالة زيارة لم يتم الإستعداد لها، وساعي البريد وسيط المفاجآت السمجة. يجب أن تكون لنا في كل ثمانية أيام ساعة نتلقى فيها الرسائل، وعند ذاك نستحم.

262. عداء.

قال أحدهم : إنني متحامل على نفسي منذ طفولتي، لذلك أجد في كل لوم شيئا من الحقيقة، وفي كل مدح شيئا تافها من الغباوة. إنني عادة ما أحط من قدر المدح وأرفع من قدر اللوم.

263. طريق المساواة.

تجعل بضع ساعات من تسلق الجبل من النذل والقديس شخصين متساويين بشكل مقبول. التعب أقصر طريق تؤدي إلى المساواة والإخاء، أما الحرية فيمنحها لنا النوم.

264. افتــراء.

إذا ما اكتشفنا آثار اتهام سافل حقا فلا نبحثن أبدا عن أصله لدى أعدائنا الصادقين والحقيقيين، لأنهم إن لفقوا مثل هذا الإتهام فلن تبقى لهم أية مصداقية كأعداء. ولكن هؤلاء الناس الذين كنا مفيدين جدا لهم زمنا ما والذين، لسبب ما، قد يكونون واثقين في قرارة أنفسهم أنهم لن ينالوا منا شيئا، ـ قادرون على إطلاق القول المعيب، إنهم يكتسبون مصداقية أولا لأننا نسلم بأنهم لن يلفقوا اتهاما قد يعانون منه هم أنفسهم، ثم لأنهم عرفونا عن كثب. ـ وقد يعزي الذي كان ضحية فرية كبيرة نفسه كما يلي : الافتراءات هي أمراض الغير التي تظهر في جسدك أنت! إنها تبين أن المجتمع هيأة (أخلاقية) واحدة جد متماسكة بحيث يمكنك أن تعالج نفسك بعلاج يستفيد منه الآخرون.

265. مملكة الأطفال الأبدية.

سعادة الأطفال أسطورة مثلها مثل سعادة الشماليين* الذين كان الإغريق يحكون عنهم. إن كانت السعادة موجودة على الأرض، كانوا يعتقدون، فلا ريب أنها في مكان أبعد ما يكون منا، ربما في أقصى الأرض. نفس الشيء يعتقده المسنون : إن كان بإمكان المرء أن يكون سعيدا بشكل ما، فإن ذلك سيكون أبعد ما يكون من عمرنا، عند تخوم العمر وبداياته. ويعتبر أكثر من شخص رؤية الأطفال، عبر حجاب هذه الأسطورة، أكبر سعادة يمكنه المشاركة فيها، إنه ينفذ حتى فناء المملكة الخالدة حين يقول : « دعوا الأطفال يأتون إلي، لأن مملكة السماء ملك لهم. » وتفعل اسطورة مملكة الأطفال الخالدة فعلها بشكل أو بآخر حيثما وجد في عالمنا الحديث أثر من العاطفية*.

266. المتبرمون.

الرجل الذي في طور التكون هو بالضبط من لا يقر الصيرورة : إنه أكبر منها. لا يريد المراهق أن ينتظر اكتمال لوحة الكائنات والأشياء لديه بعد مدة طويلة من الدراسة والمعاناة والحرمان، وبحسن نية تام يقبل لوحة موجودة وجاهزة تُمنح له كأنما لتمنحه عن طريق الاستباق خطوط وألوان لوحته هو، يرتمي في أحضان فيلسوف أو شاعر فيلفي نفسه مرغما على السخرة وعلى جحود نفسه.إنه يتعلم من ذلك الكثير، ولكن الشاب غالبا ما ينسى ما يجدر به أن يتعلمه ويعرفه من ذلك، أي نفسه، ويظل طيلة حياته تابعا. آه، كم من الضجر يجب التغلب عليه، وكم يلزم من الجهد، قبل العثور على الملو والريشة وقماشة الرسم! ــ وحتى حينها لا يكون المرء سيد فنه في الحياة، شتان بينه وبين ذلك، ــ ولكنه يكون سيد مرسمه على الأقل.

267. ليس هناك مربون.

لا يجب للمفكر أن يتحدث إلا عن تربية نفسه بنفسه. تربية الشباب من طرف الآخرين هي إما تجربة يتم القيام بها على شخص مجهول، لا يمكن معرفته، وإما تسوية للمبادئ المخصصة لمؤالفة الشخص الجديد، أيا يكن، مع العادات والتقاليد السائدة، إذن فهي في كلتا الحالتين شيء لا يليق بالمفكر، إنها مهمة الآباء والمعلمين الذين سماهم أحد الجريئين في صدقه أعداءنا الطبيعيين. ــ ويأتي يوم نكتشف فيه نفسنا، يوم يكون قد مر وقت طويل على تكوننا، حسب رأي الناس، حينها تبدأ مهمة المفكر، أما الآن فقد حان أوان الإستنجاد به ــ ليس بوصفه مربيا، بل كرجل ربى نفسه وأورثه ذلك تجربة.

268. الشفقة على الشباب.

إننا نحزن حين نسمع أن شابا بدأ يفقد أسنانه وأن آخر بدأ يضعف بصره. ولو عرفنا ما يخفيه كيانه من شيء متعذر تغييره ومحزن فكم سيكون حزننا كبيرا إذاك! ــ لماذا نعاني في مثل هذه الحالة ؟ لأننا ننتظر من الشباب أن يكمل ما شرعنا فيه، ولأن كل ما يهدم طاقته أو يأخذ منها سيكون مضرا بعملنا الذي وقع بين يديه. إنه لعناء كبير أن نرى ضمانة خلودنا تافهة، وإن كنا نشعر أننا منفذو مهمة الإنسانية فإنه لأسف كبير أن توضع هذه المهمة بين أيد أضعف من أيدينا.

269. مراحل العمر.

تعتبر مقارنة فصول السنة مع مراحل العمر الأربعة حماقة كبيرة. فلا العشرون سنة الأولى من العمر ولا الأخيرة تقابل فصلا من الفصول إذا لم نكتف، في المقارنة، ببياض الشعر والثلج وما شابه ذلك من الألوان. العشرون سنة الأولى هي إجمالا تمهيد للحياة، لمدة الحياة كلها، إنها تشبه يوم رأس سنة طويل، والعشرون الأخيرة تعانق بنظرة واحدة، تستبطن، تربط وتوافق بين كل ما عشناه من قبل، مثلما نفعل ذلك بشكل مصغر عند انصرام كل سنة. ولكن بينهما توجد مرحلة توحي بالمقارنة مع الفصول، إنها مرحلة ما بين العشرين والخمسين (إننا نعد هنا بالعقود، وعلى كل واحد أن يحدد، حسب تجربته، هذه الإشارات التقريبية). هذه العقود الثلاثة تقابل فصولا ثلاثة : الصيف والربيع والخريف، أما الشتاء فلا تعرفه حياة الإنسان، إلا أن نشاء إطلاق شتاء الإنسان على مراحل المرض المرة، الباردة، الوحيدة، الموحشة، العقيم، التي غالبا ما تدخل، مع الأسف، في حياته. العشرينيات : سنوات ملتهبة، مرهقة، عاصفة، غزيرة، منهكة، نقدر أثناءها اليوم عند المساء، حين ينتهي، ونحن نمسح جبيننا، إنها سنوات يبدو لنا العمل فيها شاقا مضنيا ولكن ضروريا، ــ هذه السنوات بين العشرين والثلاثين هي صيف العمر. ومن الثلاثين إلى الأربعين، في المقابل، هي ربيع العمر : جوها تارة شديد الحرارة، وتارة شديد البرودة، دائما مضطربة ومنشطة، حيوية متدفقة، في كل مكان ترى فيضا من الأوراق، من الإزهرار العطر، تعرف الكثير من الصباحات والليالي الساحرة، وعملا توقظنا إليه أغاريد الطيور، عملا حقيقيا نمارسه وقلبنا مفعم بالسرور، نعتبره نوعا من الإستمتاع بقوتنا يدعمه شعور مسبق بالأمل. وأخيرا تأتي الأربعينات : سنوات غامضة، ككل ما لا يتحرك، شبيهة بهضبة عليا شاسعة وجبلية تهب فيها ريح باردة، سماؤها صافية وترقب النهار حتى قلب الليل دائما بنفس الرقة : إنه زمن جني الثمار وزمن المرح القلبي، ــ إنه خريف العمر.

270. عقل النساء في المجتمع الحالي.

نُخمن ما تظنه النساء اليوم بشأن عقل الرجال من واقع كونهن لا يفكرن، حين يتزين، في إبراز روح سحنتهن أو ملامح وجههن الروحية، إنهن يخفين ذلك ويعرفن في المقابل، من خلال تنسيق الشعر على الجبين مثلا، كيف يعطين أنفسهن مظهر شبقية حادة، شرهة ولا فكر فيها، بالضبط حين لا يكون لديهن من هذه المزايا إلا الشيء القليل. يقينهن بأن العقل لدى النساء يرعب الرجال يذهب بعيدا جدا لحد أنهن يجحدن طواعية حدة الحس المعقلن ليتكلفن عن قصد بشهرة الحس لديهن، إنهن يعتقدن ولا شك أنه بذلك سيكسبن ثقة الرجال أكثر: يبدو الأمر وكأن ظليلا نديا مغريا ينتشر حولهن.

271. عظيم وزائل.

إن ما يؤثر في المتأمل حتى يجعله يبكي هو نظرة السعادة المنتشية التي تركزها شابة جميلة على زوجها. حينها نشعر بكآبة الخريف بسبب عظمة السعادة الإنسانية وبسبب كونها عابرة.

272. روح التضحية.

هناك أكثر من امرأة تملك روح التضحية، ولن تكون أبدا سعيدة بحياتها إن رفض زوجها أن يضحي بها، لأنها لا تعرف حينها ما تفعله بذكائها، وفجأة تتحول من ضحية إلى مقدم القرابين نفسه.

273. الجزء غير الأنثوي.

« بليد كالرجل »، تقول النساء. « جبان كالمرأة »، يقول الرجال. البلادة، لدى المرأة، هي الجزء غير الأنثوي فيها.

274. مزاج الذكر والأنثى والوفاة.

إن مصدر كون مزاج الذكور أسوأ من مزاج الإناث هو كون الأطفال الذكور معرضين للوفاة أكثر من غيرهم، بكل وضوح لأنهم « يسمنون كثيرا » بسهولة : ويفاقم توحشهم وتصلبهم كل الأمراض إلى حد قاتل.

275. زمن المنشآت العملاقة.

إننا لن نوقف دمقرطة أوربا، والذي يقف في طريق ذلك يحتاج إلى الوسائل عينها التي كانت فكرة الديمقراطية أول من وضعها بين يدي كل الناس، وعليه أن يجعل هذه

الوسائل سهلة الإستعمال وفعالة، أما خصوم الديمقراطية اللدودون (أعني الثوريين) فيبدو أنهم موجودون ليدفعوا بشكل أسرع فأسرع، بسبب الخوف الذي يثيرونه، مختلف الأحزاب إلى طريق الديمقراطية. والحالة أن الخوف قد يتملكك عند رؤية الذين يعملون بتبصر وصدق من أجل هذا المستقبل : تعلو وجوههم مسحة حزن ورتابة، والغبار الرمادي يبدو وكأنه قد تطاير حتى أعماق مخهم. ومع ذلك فقد تسخر الأجيال القادمة من خوفنا ذات يوم وتتصور العمل الديمقراطي لأجيال متتابعة تقريبا كما نتصور نحن بناء حواجز حجرية أو أسوار دفاعية ـ وهو عمل ينثر بالضرورة كثيرا من الغبار على الملابس والوجوه، ولا شك أنه يصير العمال حتما بلداء شيئا ما، ولكن من ذا الذي سيتمنى بسبب ذلك لو أن هذا العمل لم ينجز! يبدو أن دمقرطة أوربا حلقة في سلسلة التدابير الوقائية الضخمة التي هي فكرة العصور الحديثة والتي نعارض بها العصر الوسيط. هذا هو عصر المنشآت العملاقة! متانة الأسس حتى يتسنى للمستقبل كله أن يشيد عليها دون خطر! استحالة أن يتم تخريب أراضي الحضارة الخصبة بين عشية وضحاها من طرف الهمجيين أو السيول الجبلية! حواجز حجرية وأسوار دفاعية ضد المتوحشين، ضد الأوبئة، ضد الاستعباد الجسدي والروحي! يتم كل هذا بالحرف وعلى وجه التقريب، ولكن شيئا فشيئا يصاحبه تسام روحي أكثر فأكثر بحيث تبدو كل التدابير المذكورة هنا استعدادا بارعا عاما وضعه فنان كبير في البستنة، فنان لا يستطيع الشروع في إنجاز مشروعه إلا بعد أن تكتمل هذه الإستعدادات! ولنقلها، نظرا للمراحل الكبيرة الفاصلة بين الوسائل وتحقق الغاية، ونظرا للعناء الكبير الذي يستولي على طاقة وذكاء قرون بأكملها ويعد ضروريا لابتكار كل واحدة من هذه الوسائل منفردة أو للحصول عليها، فإننا لا نملك الحق في الحكم بقسوة على عمال الحاضر إن أعلنوا جهارا أن الحائط والتعريشة (espalier)* هما وحدهما الغاية الأخيرة، ذلك أنه لا أحد يرى بعد البستاني والأشجار المثمرة التي من أجلها وضعت التعريشة.

276. حق الاقتراع العام.

لم يمنح الشعب لنفسه حق الاقتراع العام، بل تلقاه، حيثما هو الآن ساري المفعول ومقبول بشكل مؤقت، وله الحق، على أية حال، في أن يرده إذا لم يجد فيه ما كان يأمله. ويبدو الأمر هكذا في كل مكان حاليا، لأنه حين لا يذهب إلى صناديق الإقتراع إلا ما يناهز الثلثين، وربما أقل من أغلبية المسجلين، حين تكون هناك مناسبة لاستخدام هذا الحق، فإن ذلك يعتبر في مجمله تصويتا ضد النظام الإنتخابي برمته. ـ بل يجب

هنا أن نحكم بصرامة. فالقانون الذي يقول بأن الأغلبية هي التي ستقرر في نهاية المطاف بشأن رفاهية الكل لا يمكنه أن يقوم على نفس هذا الأساس الذي يضعه: يلزمه حتما أساس أوسع، وذلك هو الإجماع. لا يجب أن يكون الإقتراع العام فقط تعبيرا عن إرادة الأغلبية، لا بد من إرادة كل سكان البلد. كما أن معارضة أقلية ضئيلة جدا كفيلة باستبعاده باعتباره غير قابل للتنفيذ، والإمتناع عن التصويت معارضة تقوض النظام الإنتخابي كله. « حق النقض المطلق » الذي يملكه الفرد، وحتى لا نقع في الحقارة، حق النقض الذي يملكه آلاف المنتخبين، معلق على هذا النظام، وإنه لمنطق العدل : في كل مرة يتم فيها الإقتراع العام يجب على هذا النظام، حسب نوعية المشاركة، أن يبين أولا أن وجوده لايزال له مرتكز قانوني.

277. الإستدلال الخاطئ.

كم يخطئ المرء في الإستدلال في ميادين غير مألوفة لديه، حتى وإن كان معتادا، بصفته رجل علم، أن يستدل مثلما يشاء! إنه لشيء مخجل! ومن الواضح إذن أن هذا الإستدلال الخاطئ هو الذي يقرر في الحياة العامة، في أمور السياسة، في كل الأحداث الفجائية والمستعجلة التي تطرأ كل يوم تقريبا، لأنه لا أحد يجد كل جديد يطرأ بين عشية وضحاها مألوفا لديه حقا، وما العمل السياسي، حتى لدى رجال الدولة الكبار، سوى ارتجال حالفه التوفيق.

278. تباشير قرن الآلــة.

الصحافة، الآلة،السكة الحديدية، التلغراف، كلها تباشير لم يجرؤ أي أحد على استخلاص ما سينتج عنها بعد ألف سنة.

279. حَصَّار الحضارة.

حين نسمع : هنا ليس لدى الرجال وقت يخصصونه للأعمال الإنتاجية لأن التداريب العسكرية تستغرق يومهم كله، وعلى باقي السكان أن يغذوهم ويكسوهم، ولكن لباسهم جذاب، وغالبا ما يكون مبرقشا ويحمل أمارات التبذير. وهناك لا يعترف الناس إلا ببعض الخاصيات المميزة، هناك يتشابه الأفراد فيما بينهم أكثر منه في أي مكان أخر، أو تتم معاملتهم على الأقل كأنداد، يتطلبون هناك خضوعا أعمى ويخضعون : يصدرون الأوامر، ولكنهم يحترسون من الإقناع، العقاب هناك قليل، ولكنه يكون قاسيا ويبلغ أقصاه بسرعة، إنه يكون فظيعا للغاية. الخيانة هناك هي أعظم جريمة، والشجعان وحدهم هم من يجازف بانتقاد ولو مجرد التجاوزات. ليست حياة

المرء هناك بغالية، وشكل الطموح الشائع هناك هو جعل هذه الحياة في خطر، ــ من يسمع كل هذا سيقول على الفور :« إنها لوحة مجتمع متوحش وفي خطر. » وربما يضيف :« أنها صورة اسبارطة ». ولكن شخصا آخر، متأملا، قد يرى أن الموصوف هنا هو نظامنا العسكري الحديث مثلما تعرفه حضارتنا ومجتمعنا الذي له طبيعة مختلفة، والذي هو مفارقة تاريخية، صورة، كما قلنا، لمجتمع متوحش ومهدد، عمل بعدي من أعمال الماضي الذي هو بمثابة حَصَّار لعجلات الحاضر. ــ والحضارة تحتاج أشد الحاجة، من حين لآخر، إلى حصار، وذلك حين يكون الإنحدار أو، كما في حالتنا ربما، الصعود سريعا جدا.

280. مزيدا من الإحترام لأصحاب المعرفة.

أثناء المنافسة بين المنتجين والبائعين يتم جعل الجمهور حكما على المنتوجات، والحال أن هذا الجمهور ليست له أية معرفة موضوعية صرفة ويحكم من خلال ظاهر الجودة، وبالتالي سيتنامى فن العرض (وربما الذوق) تحت سيطرة المنافسة، ولكن جودة كل السلع الغذائية، في المقابل، ستتدهور، وستنتهي بالتالي، إذا لم يفقد العقل (raison) قيمته، إلى أن نجعل حدا، يوما ما، لهذه المنافسة التي سيتفوق عليها مبدأ أخر. وحده المنتج سيكون حكم السلعة، وسيتعلق الجمهور حينها بثقته في شخص الحكم واستقامته. وبناء عليه، كفى من الإنتاج المجهول منتجه! لا بد أن يكون هناك على الأقل خبير واحد ليضمنه ويمنحه اسمه كضمانة، إن كان اسم المنتج غير مذكور أو غير مشهور. يعتبر رخص سلعة ما، بالنسبة للجاهل، مظهرا آخر من المظاهر الخداعة، إذ وحدها مزايا الدوام تقرر إن كانت سلعة ما رخصة، وإلى أي حد، ولكن الحكم على هذه المزايا صعب ويستحيل على الجاهل. ــ إذن فالذي يبهر العين وله ثمن بخس هو الراجح الآن في الميزان، ــ وسيكون بالطبع منتوج الآلة. وفي مقابل ذلك تشجع الآلة من جهتها، نظرا لكونها سببا لسرعة وسهولة الإنتاج، الجودة الأكثر مبيعا: وإلا فلن يتم جني فائدة كبيرة منها وسيتم تشغيلها قليلا وتوقيفها أغلب الوقت. ولكن الجمهور هو من يقرر السلع الأفضل مبيعا، مثلما رأينا، إنها السلع التي تخدع أكثر، أي التي تبدو ذات جودة في الأول ثم تبدو رخصة الثمن كذلك. وليكن أمرنا في مجال الإنتاج : « مزيدا من الإحترام لأصحاب المعرفة! »

281. الملوك المهدَّدون.

تستطيع الديمقراطية، دون اللجوء إلى العنف، فقط بضغط شرعي مستمر، أن تفرغ الملكية والإمبراطورية إلى أن يبقى منهما صفر فقط، أو ربما، إن شئنا، دلالة الصفر

الذي، وإن لم تكن له قيمة في حد ذاته، يضاعف قيمة الرقم عشر مرات إذا ما وضعناه على اليمين. وستبقى الإمبراطورية والملكية زينة بهية على رداء الديمقراطية البسيط والعملي، ستظلان هما الجمال الزائد الذي ستسمح به لنفسها، بقية الزخرف التاريخي الجليل من العهد الغابر، بل رمز التاريخ نفسه، ونظرا لفرادتهما في هذا فإنهما ستظلان عنصرا فعالا جدا شريطة ألا يمثل نفسه، بل يوضع في المكان المناسب. ــ ولكي يمنع الملوك حدوث هذا التفريغ فإنهم يدافعون الآن عن كرامتهم باستماتة، كأمراء محاربين، لذلك يحتاجون إلى الحروب، أي إلى حالات استثناء يتوقف خلالها هذا الضغط الشرعي التدريجي الذي تمارسه القوى الديمقراطية.

282. الأستاذ، شر لا بد منه.

ينبغي أن يكون هناك أقل عدد ممكن من الأشخاص بين العقول المنتجة والعقول المتعطشة والقابلة للتأثر! لأن الوسطاء يزيفون، بشكل شبه تلقائي، الغذاء الذي ينقلونه ثم يطالبون لأنفسهم، كتعويض عن وساطتهم، بكثير من الأشياء التي ينتزعونها بذلك من العقول المنتجة والأصيلة، أي الفائدة، الإعجاب، الزمن، المال، وأشياء أخرى. إننا سننظر إلى الأستاذ إذن، مهما يكن الأمر، على أنه شر لا بد منه، على غرار التاجر، كشر يجب جعله أضأل ما يمكن. ــ إن كان السبب الرئيس لبؤس شروط المعيشة الحالية في ألمانيا، ربما، هو كون الكثير من الناس يعيشون فيها من ممارسة التجارة، ويريدون أن يكون عيشهم منها رغدا (بكونهم يسعون إلى تخفيض الأثمنة التي يؤدونها للمنتج ما أمكنهم ورفع ثمن البيع للمستهلك ما أمكنهم، وذلك للإفادة من أكبر خسارة تلحق هذا وذاك)، فإنه يمكن أن نرى بكل تأكيد أن السبب الرئيس لفقرنا الثقافي هو ذلك العدد الضخم من الأساتذة : وإنه سبب نعرفه قليلا وبشكل رديء.

283. ضريبة الإحترام.

نؤدي طواعية أغلى ثمن ممكن، وأحيانا أكثر مما تسمح به وسائلنا، لأحد الذين نعرفهم، أو نقدرهم، كالطبيب أو الفنان أو الصانع التقليدي الذي يؤدي لنا خدمة، وعلى العكس من ذلك نؤدي أقل ثمن ممكن لمن لا نعرفه، إنه صراع يقاوم فيه كل واحد ويرغم الآخر على المقاومة من أجل كل شبر من الأرض. في العمل الذي يقوم به لأجلنا من نعرفه هناك شيء لا يقدر بثمن، إنها الحيوية والإبتكار اللذين ينجزه بهما لأنه لنا، ونظن أننا لا نستطيع التعبير عن الشعور الذي يغمرنا من ذلك إلا بنوع من التضحية المقبولة. ــ إن أكبر ضريبة نؤديها هي ضريبة الإحترام. كلما اتسع مجال المنافسة واشترينا ممن نجهلهم، أو عملنا لهم، كلما نقصت هذه الضريبة، في حين أنها هي معيار مستوى التعامل الأدبي بين الناس.

284. وسيلة سلم حقيقية.

ليست هناك حاليا أية دولة تعترف بأنها تتعهد جيشها لتلبية رغبة محتملة في القيام بغزو، بل تقول أنه معد للدفاع. وتدعم قولها بالأخلاق الشهيرة التي توافق على الدفاع الشرعي عن النفس. والحالة أن هذا يعني تخصيص أنفسنا بالأخلاقية والجار باللاأخلاقية مادام علينا أن نتخيله عدوانيا ومتلهفا للغزو إن أردنا أن تفكر دولتنا حتما في ضمان الدفاع الشرعي عن النفس، وعلاوة على ذلك، فهو حين ينفي مثل دولتنا أية رغبة في العدوان ويزعم أنه لا يحتفظ بالجيش إلا لغرض الدفاع الشرعي عن النفس نصفه، من خلال تفسيره هذا لسبب احتياجه إلى جيش، بأنه منافق ومجرم ماكر غايته مهاجمة ضحية مسالمة وعديمة المهارة فجأة دون أن يلقى منها أية مقاومة. هكذا تتواجه كل الدول الآن : تسلم بسوء النية لدى الجار وبحسن النية لديها. ولكن هذه المسلمة سمة من سمات اللاإنسانية، خطرة مثل الحرب، بل أخطر منها، إنها تشكل في الواقع حثا على الحرب، سببا للنزاع، مادامت تعزو، مثلما رأينا، اللاأخلاقية إلى الجار وبذلك يبدو أنها تثير العداوة في مشاعره وأفعاله. يجب أن نتخلى تماما عن نظرية اعتبار الجيش أداة للدفاع عن النفس ونتخلى كذلك عن الرغبة في الغزو. وسيأتي يوم عظيم على شعب عظيم بحروبه وانتصاراته، بالدقة المتناهية لتنظيمه وعبقريته العسكريين، والذي تعود على تقديم أكبر التضحيات في هذه الميادين، ليصيح بتلقائية : « فلندمر سلاحنا » ــ وسيدمر قواته المسلحة تدميرا شاملا. تخلي دولة ما عن الأسلحة، بدافع سمو الإحساس، والحال أنها كانت أكثر الدول إقداما يوم كان لها جيش، ــ هذه هي وسيلة السلام الحقيقي الذي لا يمكن أن يرتكز إلا على سلام العقول، أما السلام المسلح، مثلما يسمونه، الذي ينتشر في كل الدول الآن، فهو صنيع نفس قلقة ليست لها ثقة في نفسها ولا في جارها ولا تريد، بدافع نصفه بغض ونصفه خوف، أن تضع السلاح. الهلاك أفضل من البغض والخوف، والهلاك مرتين أفضل من جعل الغير يبغضني ويخشاني، ــ هذه يجب أن تكون الحكمة السامية لكل مجتمع منظم سياسيا. نوابنا الليبراليون، كما نعلم، ليس لهم وقت لتأمل الطبيعة الإنسانية، وإلا لكانوا عرفوا أنه لا جدوى من عملهم لأجل « تخفيض تدريجي للنفقات العسكرية ». وحين يبلغ هذا البؤس منتهاه سيكون قريبا جدا جنس الرب الذي بمقدوره هو وحده تقديم يد العون. لا يمكن قطع شجرة الأمجاد الحربية إلا بضربة واحدة، من خلال ضربة برق، والبرق، كما تعلمون، يأتي من الأعلى.

285. إمكانية التوفيق بين الملكية والعدل.

إذا أحس الناس كثيرا بجور الملكية (وقد عاد عقرب الساعة الكبيرة الآن إلى هذه النقطة)، فإن هناك وسيلتين لمعالجة ذلك : أولا توزيع متساو للملكية، ثم إلغاؤها وعودة الممتلكات كلها إلى الملكية الجماعية. إن الذي يقول بهذه الوسيلة الأخيرة هم اشتراكيونا الذين يحفظون الضغينة لذلك اليهودي المعروف الذي قال قديما : لا تسرق. إنهم يرون أن الوصية السابعة يجب أن تقول بالأحرى : لا تمتلك أي شيء. وقد كانت هناك في العهود القديمة محاولات تستلهم الوسيلة الأولى، دائما بشكل مصغر، ولكنها أخفقت إخفاقا يجب أن يكون درسا لنا نحن أيضا. «حصص متساوية من الأرض»، ما أسرع ما نقول هذا، ولكن كم من المرارة تثيرها القسمة والتفريق الضروريان آنذاك، يثيرها فقدان ممتلكات استأثرت بالإجلال لمدة طويلة، كم من التقوى تتم التضحية بها! يتم اقتلاع الأخلاقية بنفس المعزقة (bêche)* التي تقتلع بها الأرفة*. ثم، كم من المرارة تكون بين المالكين الجدد، كم من الحسد والنظرات الشزراء، لأنه لم تكن هناك أبدا قسمتان متساويتان حقا، وحين تكون فإن حسد المرء لجاره لن يصدق تساويهما. وكم من الوقت ستدوم هذه المساواة المريضة، المسمومة حتى الجذور! هنا نجد قسمة قد انتقلت في غضون بضعة أجيال، بفعل الوراثة، بين خمسة أشخاص، وهناك نجد خمس حصص قد آلت إلى شخص واحد، وحين كانت هناك قوانين صارمة لانتقال الملكية تمنع حدوث ذلك فقد كانت الحصص متساوية، ولكن هنا وهناك نجد معوزين ومستائين لا يملكون شيئا خلا حسدهم لأقاربهم وجيرانهم ورغبتهم في ثورة عامة. ــ وإذا شئنا، حسب الوسيلة الثانية، أن نعيد الملكية إلى الجماعة ونجعل من الفرد فلاحا مؤقتا فقط، فإننا نخرب الأرض نفسها، لأن الإنسان لا يعرف اتخاذ الإحتياطات والتضحية من أجل ما يملكه بشكل مؤقت فقط، إنه تحت تصرفه ليستغله بوصفه قاطع طريق أو مبذرا ماجنا. حين يؤكد أفلاطون أن الأنانية ستنتفي بإلغاء الملكية يمكننا إجابته بأنه لن تتبقى من الإنسان، بعد حذف الأنانية، تلك الفضائل الرئيسية الأربعة*، كما أنه علينا القول : لن يضر أسوأ وباء بالإنسانية قدر ما سيضر بها اختفاء الغرور يوما ما. ماذا ستكون الفضائل الإنسانية دون الغرور والأنانية ؟ وهو ما لا يعني بتاتا أن هذه الفضائل مجرد أسماء وأقنعة. يقوم اللحن الأساسي للمدينة الفاضلة الأفلاطونية، الذي يستمر الإشتراكيون اليوم في ترديده، على معرفة خاطئة بالإنسان : كانت تنقص أفلاطون معرفة تاريخ الأحاسيس الأخلاقية*، ومعرفة أصل المزايا الجيدة والنافعة في النفس الإنسانية. لقد كان يؤمن، مثل القدماء كلهم، بالخير والشر كما بالأبيض والأسود، وبالتالي بوجود فرق جوهري بين الأخيار

والأشرار، بين المزايا الحسنة والسيئة. ــ ولكي تعود الملكية إلى الإيجاد بالثقة وتصير أخلاقية أكثر يجب أن نترك مفتوحة كل السبل التي تؤدي، من خلال العمل، إلى رفاهية متواضعة، وأن نمنع الإغتناء السهل والفجائي، أن ننزع من أيدي الخواص والشركات الخاصة كل فروع التجارة والمواصلات التي تسهل مراكمة ثروات كبيرة، وخاصة تجارة العملة ــ ونعتبر الذين يملكون الكثير والذين لا يملكون شيئا مضرين بالملكية الجماعية على حد سواء.

286. قيمة العمل.

لو أردنا أن نحدد قيمة العمل من خلال ما يخصص له من الوقت، الحماس، الإرادة الحسنة أو السيئة، الإكراه، الإبتكار أو الكسل، النزاهة أو النفاق، فإن ذلك التقييم لن يكون عادلا أبدا، لأن الأمر يتطلب وضع الشخص كله في الميزان، وهو شيء مستحيل. هناك ما يدعو هنا لأن نقول : لا تصدر حكما! ومع ذلك نسمع المستائين اليوم من تدهور قيمة العمل يطالبون بالعدل. وإذا أمعنا التفكير في ذلك وجدنا كل شخص غير مسؤول عما ينتجه، عن عمله : إذن فلن نستطيع أبدا أن نستخلص منه قيمة، فالعمل يكون جيدا أو رديئا مثلما يجب حتما أن يكون ضمن هذه المجموعة الضرورية أو تلك من القوى ومن الضعف، من المعارف ومن الحاجيات. لا يتوقف الأمر على العامل في تقرير ما إذا كان سيعمل، أو كيف سيعمل. المنظورات الوحيدة، سواء كانت واسعة أو ضيقة، التي وضعت أسس تقدير العمل هي منظورات المنفعة. وما نسميه العدالة حاليا هي ولا ريب تحتل المكان اللائق بها، نظرا لكونها منفعة دقيقة جدا لا تكتفي بإقامة الإعتبار فقط للحظة ولانتهاز الفرصة، ولكنها تنشغل بمدة كل الظروف وتفكر في خير العامل ورضاه المادي والمعنوي، ــ لكي يعمل هو وذريته بجد من أجل ذريتنا نحن أيضا، ولنتمكن من الإعتماد عليهم مددا أطول من حياة الإنسان. إننا ندرك الآن أن استغلال العامل كان حماقة، تبذيرا على كل حال، فتكاليف الحفاظ على السلم وإمضاء المعاهدات واكتساب الثقة ستصير باهظة لأن حماقة المستغلين كانت كبيرة ودائمة.

287. عن دراسة الهيأة الإجتماعية.

أسوأ ما يواجه الذي يريد اليوم أن يدرس الإقتصاد أو السياسة في أوربا، وخاصة في ألمانيا، هو كون الأوضاع الواقعية تمثل الإستثناء أو المراحل الإنتقالية أو النتيجة عوض أن تجسد القواعد. لهذا يجب عليه أن يتعلم أولا أن يتغاضى عن المعطيات المادية وأن يوجه نظره بعيدا إلى أمريكا الشمالية، ــ حيث لايزال بإمكان المرء أن يرى بعينيه ويبحث،

شريطة أن يريد ذلك، حركات الهيأة الإجتماعية الأولية والعادية، أما في ألمانيا فيتطلب ذلك دراسات تاريخية صعبة أو، مثلما أشرنا، منظارا.

288. بأي اعتبار تهين الآلة.

الآلة لا شخصية، إنها تجرد القطعة المصنوعة من أنفتها، من تلك الجودة وتلك العيوب الفردية التي تلازم كل عمل غير آلي، ـ إذن من ذلك الشيء الزهيد من إنسانيتها. فيما مضى كان كل شراء من الصناع التقليديين يعتبر طريقة في تمييز بعض الأشخاص وبعض أنواع السلع التي يحيطون بها أنفسهم، وهكذا يصبح الأثاث والملبس علامات احترام متبادل وقرابة شخصية، بينما يبدو أننا نعيش الآن في مجتمع من العبيد، مجتمع مجهول ولا شخصي، ـ لا ينبغي لنا أن نؤدي الثمن باهظا مقابل تخفيف العمل.

289. حَجْر المائة سنة.

تعتبر المؤسسات الديمقراطية إجراءات حجر صحي على وباء الرغبات الإستبدادية القديم، وباعتبارها كذلك فهي مفيدة ومضجرة.

290. أخطر المتحزبين.

أخطر المتحزبين هو ذلك الذي قد تدمر رِدته الحزب كله : أعني أفضل المتحزبين.

291. المصير والمعدة.

مزبدة (tartine) واحدة أكثر أو أقل في معدة فارس السباق (jockey) تقرر أحيانا مصير السباق والمراهنات، إذن مصير سعادة وتعاسة آلاف الناس. وطالما تعلق مصير الشعوب بالدبلوماسيين فستبقى معدات هؤلاء الدبلوماسيين موضوع غم وطني. إلى أي حد في النهاية...

292. انتصار الديمقراطية.

كل القوى السياسية تحاول الآن استغلال الخوف من الإشتراكية لتعزز قوتها. ولكن الديمقراطية وحدها، مع مرور الزمن، هي التي ستستفيد من ذلك : لأن كل الأحزاب مجبرة اليوم على مجاملة « الشعب » ومنحه تسهيلات وحريات من كل صنف ينتهي بأن يصبح بفضلها مطلق السلطة. أما الإشتراكية فتبعد الشعب إبعادا تاما بما أنها نظرية ترمي إلى تعديل الحصول على الملكية، ويوم تتحكم في الضرائب، بفضل أغلبيات برلماناتها، فإنها ستهاجم أقطاب الرأسمالية والتجارة والبورصة، وببطء ستخلق، في

الواقع، طبقة متوسطة قد تنسى الإشتراكية وكأنها مرض تم الشفاء منه لحسن الحظ. وستكون النتيجة العملية لهذه الدمقرطة التي تكتسح كل البلدان هي أولا تكون فيدرالية الشعوب الأوربية التي سيكون فيها لكل شعب على حدة، داخل حدوده التي تحددها قواعد جغرافية غايتها المنفعة، وضع المقاطعة (Canton) وامتيازاتها، وسوف لن يهتم الناس إلا قليلا، والحالة هذه، بذكريات الشعوب التاريخية مثلما كان حتى ذلك الحين، لأن الإحساس بالحب نحوها سيكون قد تم استئصاله جذريا تحت سيطرة المبدأ الديمقراطي المولع بالجديد وبالتجارب. وسيتم إجراء التغييرات الحدودية التي ستبدو ضرورية بحيث تخدم مصلحة المقاطعات الكبيرة وفي نفس الوقت مصلحة الفيدرالية كلها، ولكن ليس تخليدا لذكرى ماض متداع، وسيكون إيجاد صيغة إجراء هذه التغييرات من مهمة دبلوماسيي المستقبل الذين عليهم أن يكونوا عارفين بالحضارات، وفي نفس الوقت، اقتصاديين وخبراء في المواصلات، وسوف لن تكون وراءهم جيوش بل دواعي المنفعة. وآنذاك فقط سترتبط السياسة الخارجية ارتباطا وثيقا بالسياسة الداخلية، بينما اليوم تجري هذه الأخيرة دائما وراء سيدتها المتعجرفة، وتلتقط في سلتها البالية السنابل الهزيلة المتبقية من حصادها.

293. غاية الديمقراطية ووسيلتها.

تريد الديمقراطية أن تمنح الاستقلالية وتضمنها لأكبر عدد ممكن من الناس، استقلالية الرأي ونمط الحياة والشغل. ولأجل هذا يعتبر من الضروري لها أن ترفض حق التصويت السياسي للمعوزين وللأغنياء جدا، إنهما طبقتان غير شرعيتان يجب عليها أن تعمل باستمرار على إزالتهما لأنهما لا تفتآن تضعان مهمتها موضع سؤال. وعليها كذلك أن تمنع كل ما يبدو أنه يرمي إلى تنظيم الأحزاب. لأن أعداء الإستقلالية الثلاثة الكبار، بمعناها الثلاثي الذي ذكرناه، هم المعدمون والأغنياء والأحزاب. إنني أتحدث عن الديمقراطية كما عن شيء لازلنا ننتظر مجيئه. أما ديمقراطية اليوم فإنه لا يميزها عن الأشكال القديمة للحكومة إلا الجياد الجديدة التي تجرها : الطرق هي نفس طرق الماضي، والعجلات هي نفس العجلات القديمة. ـ فهل يكون الخطر أقل مع العربات الحالية عربات رفاهية الشعوب ؟

294. الإتزان والنجاح.

الإتزان، هذه الميزة التي هي فضيلة الفضائل في الواقع، هي أصلها وتاجها، لا يحالفه الحظ دائما في الحياة اليومية، والذي يكون النجاح هو ما يدفعه للسعي إلى الإتزان سيجد نفسه مخدوعا. ويعتبر النفعيون الإتزان ميزة مشبوهة ويخلطون بينها

وبين الإخفاء والمكر النفاقي، أما الذي ينقصه الإتزان بشكل واضح، على العكس ــ أعني الرجل الذي يقول كل شيء بصراحة، مع احتمال أن يخطئ مرة، فيدعمه الرأي المسبق بأنه بشوش يمكن الوثوق به، فالنفعيون إذن لا يحبون المتزن، إنهم يعتقدونه خطرا عليهم. ومن ناحية أخرى يعتبر الناس المتزن رجلا مضطربا، متحذلقا، ومشبوها، ــ أما الأقل نفعية الذين يطلبون اللذة بالضبط فيجدونه صعب الإحتمال، لأنه لا يعيش مثلهم بلا ترو، دون أن يفكر في سلوكه وواجباته، إنه يظهر وسطهم مثل تجسيد لضميرهم، وإذا رأوه شحب في عيونهم ضوء النهار الساطع، وإن استوحش النجاح والحظوة فإنه قد يعزي نفسه بقوله : « هذا هو قدر الضرائب الذي عليك أن تؤديه مقابل امتلاك أغلى ملك يقدره الرجال، ــ يستحق الإتزان كل هذا!»

295. وأنا في أركاديا.

وأنا نازل كان نظري يخترق هضاباً متموجة، بمحاذاة بحيرة لونها أخضر لبني، عبر أشجار التنوب والصنوبر القديمة القائمة، وحولي كانت أكوام حجرية من كل صنف، والأرض مبرقشة بالأزهار والعشب. كان قطيع يمضي أمامي، ينتشر ويمتد، وبعيدا، هناك تحت الضوء المسائي الكثيف، بجانب غيضة الصنوبر، كانت بعض الأبقار، فرادى أو جماعات، وكانت بعض الأخريات أقرب، في الظل، وكان هدوء المساء وكماله يخيمان على كل شيء. كانت ساعتي تشير إلى الخامسة والنصف تقريبا، دخل ثور القطيع السيل ذا الدرادير التي تعلوها رغوة بيضاء وصار يصعد ببطء مقاوما تارة ومستسلما تارة أخرى للتيار المندفع : لا ريب أنه كان يجد فيه نوع اللذة الهائجة التي تناسبه. وكان الراعيان ذوي بشرة سمراء داكنة، من أصل برغامي (berga-masque)، كان لباس الفتاة تقريبا مثل لباس الرجل. على اليسار منحدرات صخرية وحقول ثلج تعلو أحزمة غابوية شاسعة، وعلى اليمين شعفتان هائلتان يكسوهما الجليد، شامختان في السماء، سابحتان في غيم شمسي مشبع بالبخار، ــ كل شيء عظيم، مشرق، منور. كان هذا الكم الهائل من الجبال المتراكم يجعل قشعريرة مقدسة تسري في الجسم ويدفعنا إلى تدله صامت بلحظة تجليه تلك، ومن غير أن نشعر، وكأن ذلك شيء طبيعي للغاية، نتخيل أبطالا إغريقيين في عالم الضوء الصافي والخالص ذاك (عالم لا شيء فيه يذكر بالحنين، بالإنتظار، بالنظر الموجه إلى الأمام أو إلى الخلف)، إننا لا نملك إلا أن نشعر به على طريقة بوسان (Poussin) وتلاميذه : بطوليا وغزليا في نفس الوقت. ــ بهذا الشكل عاش بعض الناس كذلك، هكذا شعروا باستمرار داخل العالم، شعروا بالعالم داخلهم، وضمنهم واحد من أعظم الرجال، مبتكر أسلوب بطولي وغزلي في نفس الوقت في ميدان الفلسفة : أبيقور.

296. الحساب والقياس.

رؤية الكثير من الأشياء، وزن توافيقها، حساب موانعها، واستخلاص نتيجة سريعة من ذلك كله، استخلاص جمع أكيد، هذا ما يجعل من السياسي، أو ربان السفينة، أو التاجر، شخصا عظيما : إنها السرعة إذن في شكل من أشكال الحساب الذهني (cal-cul mental). أما ما يصنع البطل والمتعصب فهي رؤية شيء واحد والعثور فيه على الدافع الوحيد إلى الفعل، على قاعدة الفعل، أيا يكن هذا الفعل : إنها قابلية إذن لقياس كل شيء بمقياس واحد.

297. عدم السعي لرؤية الشيء في غير محله.

يجب علينا ونحن نعيش حدثا ما أن نعيشه بكل جوارحنا ونغض الطرف، أي ألا نلعب دور الملاحظ الداخل في تجربة، لأن ذلك سيعكر هضم الحدث : فنخرج منه بعسر الهضم عوض الحكمة.

298. مستخلص من ممارسة الحكيم.

لكي يصبح المرء حكيما يجب عليه أن يريد المرور ببعض التجارب، أي الإرتماء في فمها. وهو شيء شديد الخطورة بكل تأكيد، لأن ذلك الفم قد التهم أكثر من «حكيم».

299. فتور العقل.

إن لامبالاتنا وفتورنا العرضيين تجاه بعض الأشخاص، واللذين يفسران على أنهما قسوة أو نقص في أدب المعاملة، ليسا في الغالب سوى فتور يصيب العقل : في هذه الحالة لا نبالي بالآخرين ونشعر أنهم متعبون لنا مثلما لا نبالي بأنفسنا ونشعر أننا متعبون لأنفسنا.

300. « شيء واحد ضروري ».

إذا كنت ذكيا فإن الشيء الوحيد الذي عليك الإهتمام به هو أن تكون مرحا. مع الأسف، أضاف أحدهم، إذا كنت ذكيا فإن أفضل ما تستطيع فعله هو أن تكون حكيما.

301. دليل حب.

قال أحدهم :« هناك شخصين لم أسبر غورهما : وذلك هو دليل حبي لهما.»

302. كيف نحاول تصحيح حجج خاطئة.

هناك من يلقي بجزء من شخصيته في إثر حججه الرديئة وكأنما ليجعلها بذلك تأخذ مجرى أصوب وتصير حججا جيدة، تماما مثل لاعبي الأوتاد* الذين يحاولون، بعد رميهم بالقطعة الخشبية، أن يوجهوها الوجهة الصحيحة بقوة التومئات وتقلصات الوجه.

303. استقامة.

لا يكفي أن يكون المرء مثالا في ما يتعلق بالحقوق والملكية، ألا يكون، وهو طفل، قد أخذ بعض الفواكه من بساتين الآخرين، أو ألا يكون، وقد بلغ مبلغ الرجال، قد داس الحقول غير المحصودة، ــ ليدعي بأن الأشياء التافهة، كما هو معلوم، تبرهن على هذه الخاصية النمودجية أفضل من الأشياء العظيمة. إن ذلك لا يكفي، لأن هذا الشخص لا يكون حينها سوى « شخصية قانونية »، مع درجة من الأخلاقية تستطيعها كذلك « جماعة » أو جمهرة من الناس.

304. إنسان!

ماذا يمثل غرور الرجل الأشد غرورا إذا ما قورن بغرور الرجل الأكثر تواضعا حين شعوره بأنه « إنسان » وسط الطبيعة والعالم!

305. الترويض الضروري للغاية.

إذا لم نسيطر على أنفسنا سيطرة ضئيلة فإن القدرة على تحقيق سيطرة كبيرة تضعف. اليوم الذي لا نرفض فيه شيئا ضئيلا على الأقل يكون دائما يوما أسيء استغلاله ويشكل خطرا على الإنسان، ويعتبر هذا الترويض شيئا لا غنى عنه إذا نحن أردنا الإحتفاظ بلذة أن نكون أسياد أنفسنا.

306. التيه الذاتي.

فقط حين يجد المرء نفسه يكون واجبا عليه أن يعرف كيف يتيه من حين لآخر،لكي يجدها مرة أخرى، إن كان مفكرا. لأن التقيد بنفس الشخص دائما شيء مضر بالمفكر.

307. لحظة الإنصراف.

عليك أن تنصرف، ولو لبعض الوقت، عما تريد أن تعرفه وتقيسه، لأنك لن ترى مقدار ارتفاع أبراج المدينة فوق المنازل إلا بعد أن تكون قد غادرتها.

308. عند منتصف النهار.

من يجد نفسه نشطا ومضطربا ذات صباح من صباحات الحياة فإن رغبة غريبة في استراحة قد تدوم شهورا وسنوات تراوده عند منتصفها. يسود الصمت حوله، تبتعد الأصوات أكثر فأكثر، وتهبط عليه أشعة الشمس عمودية. في مظاءة الغابة يرى Pan* الكبير نائما وقد نامت معه كل الكائنات وأمارة الخلود على الوجه ـ أو على الأقل هذا ما يبدو له. إنه لا يريد شيئا، لا يشغله شيء، قلبه متوقف، بصره وحده هو الحي، ـ إنه ميت، وعيناه يقظتان. حينها يرى المرء كثيرا من الأشياء التي لم يرها أبدا، ومهما يكن البعد الذي يبلغه نظره فإنه يراها كلها جاثمة وكمدفونة في شبكة من نور. إنه يشعر بذلك أنه سعيد، ولكنه وزون (lourd)، وكونه وزونا هي سعادته. ـ وأخيرا تهب الريح بين الأشجار، لقد مضى منتصف النهار، وتجره الحياة لتستعيده، الحياة العمياء، وخلفها موكبها يتزاحم : الرغبة، الوهم، النسيان، اللذة، الإفناء، والزوال (fugacité). وهكذا يأتي المساء، عاصفا ومتشاغلا أكثر من الصباح. ـ تبدو لحظات المعرفة الطويلة شيئا ما للرجل النشيط شبه مقلقة ومرضية، ولكن غير مزعجة بتاتا.

309. الإحتراس من الرسام.

الرسام الكبير الذي يحدق، في الصورة القلمية التي انجزها لشخص ما ويكتشف فيها سيماء ذلك الشخص واللحظة الغنية التي يمكن أن يخلقها، سيعتقد تقريبا دائما، إذا ما رآه فيما بعد، أنه لا يرى منه سوى رسم ساخر (caricature).

310. مبدأ الحياة الجديدة.

المبدأ الأول : يجب تنظيم الحياة حسب ما نراه في الأفق أكيدا، قابلا للبرهنة، وليس، كما كان الأمر حتى الآن، حسب ما نراه بعيدا وغامضا. المبدأ الثاني : يجب حصر تراتبية الأشياء القريبة نوعا ما، الأكيدة شيئا ما، قبل تنظيم الحياة وتوجيهها وجهة أخيرة.

311. نزق خطير.

يبدو الموهوبون الكسالى دائما نزقين شيئا ما إذا ما وفق أحد أصدقائهم في مؤلف جيد. يستيقظ حسدهم، ويخجلون من كسلهم ـ أو بالأحرى يخشون أن يزدريهم الأخر، النشيط جدا، الآن أكثر من ذي قبل. في ظل هذه الظروف ينتقدون العمل الجديد ـ ويتحول انتقادهم إلى انتقام، مخلفا اندهاشا كبيرا لدى المؤلف.

312. تحطيم الأوهام.

الأوهام ملذات باهظة الثمن بكل تأكيد، ولكن تحطيمها أبهظ ثمنا منها، إذا اعتبر لذة هو بدوره، وإنه لكذلك ولا شك لدى الكثيرين.

313. رتابة الحكيم.

أحيانا نجد لدى الأبقار سيما دهشة توقفت في منتصف السؤال. ومقابل ذلك يمتد الإعجاب بالعدم* (le nil) في عين الذكي غاية الذكاء كرتابة سماء خالية من الغيوم.

314. إياك والمرض الطويل.

احذر أن تمرض وقتا طويلا جدا، لأن الذين يعودونك سوف يتبرمون من واجب إظهار الشفقة المعتاد، لأن دوامهم على تلك الحال مدة طويلة يسبب لهم عناء كبيرا ــ ثم إنهم سيفكرون مباشرة في الإشتباه في طبعك، وستكون خلاصتهم :« إنك تستحق أن تكون مريضا، ونحن لم نعد في حاجة إلى الإجتهاد في إظهار الشفقة.»

315. تنبيه المتحمسين.

على الذي يلذ له أن ينتشي ويود أن يصعد في خفة إلى الأعالي أن يحرص على عدم إثقال نفسه كثيرا، أي ألا يتعلم العلم مثلا، وخصوصا ألا يدع العلم يملأه. العلم يجعل المرء وزونا! ــ فاحذروا أيها المتحمسون!

316. معرفة مفاجأة نفسك.

على الذي يريد رؤية نفسه كما هو أن يعرف كيف يفاجئ نفسه بنفسه والمشعل في اليد. لأن ما ينطبق على البدني ينطبق على المعنوي : فالذي تعود أن ينظر إلى نفسه في المرآة ينسى قبحه دائما، والرسام، حين يرسمه، هو الذي يترك لديه الإنطباع بقبحه، ولكنه يتعود على صورته فينسى قبحه مرة ثانية. ــ وذلك طبقا للقانون العام القائل بأن الإنسان لا يطيق القبح الثابت، وإن فعل فللحظة فقط، إنه ينساه أو ينكره في كل الحالات. ــ على الأخلاقيين أن يعتمدوا على تلك اللحظة ليجرؤوا على تقديم حقائقهم.

317. آراء وأسماك.

يملك المرء آراءه مثلما يملك الأسماك، ــ أي إذا كان يملك بركة فيها أسماك. عليه أن يذهب لصيد السمك وأن يكون محظوظا، ــ حينها تكون له أسماكه وآراءه.

أتحدث هنا عن الآراء الحية وعن الأسماك الحية. هناك من يرضى أن تكون له مجموعة من الأحافير (fossiles)، ـ وأن تكون في رأسه « يقينيات ».

318. دلائل الحرية والتبعية.

تلبية المرء قدر المستطاع لحاجياته الضرورية بنفسه، ولو بشكل ناقص، ينحو به نحو حرية العقل والشخص. وتركه الغير يلبي له الكثير من حاجياته، ولو غير الضرورية، وعلى التمام ما أمكنه ذلك، يؤدي به إلى التبعية. السوفسطائي هيبياس (Hippias)، الذي اكتسب بنفسه، وصنع بنفسه كل ما كان يملكه باطنا وظاهرا، يوافق بذلك معنى حرية العقل والشخص السامية. ليس المهم هو أن يكون كل شيء على ما يرام ومصوغا بإتقان : فالأنفة ستصلح ما ليس مثلما ينبغي.

319. الثقة بالنفس.

في عصرنا الحاضر نحترس من كل من يثق بنفسه، أما فيما مضى فقد كان ذلك يكفي لجعل الناس يثقون به. هذه هي الوصفة لتحظوا بالثقة اليوم :« لا تحترس! إن أردت، تنير رأيك جيدا فابدأ بإحراق كوخك! »

320. غني وفقير في ذات الوقت.

أعرف شخصا اعتاد، وهو ما يزال طفلا، أن يحسن الظن بذكاء الرجال، أي بتفانيهم الحقيقي بخصوص كل ما يتعلق بأمور العقل، بإيثارهم النزيه لما يعرفون أنه حق، وهلم جرا، كما اعتاد، في المقابل، أن يكون فكرة متواضعة، بل وضيعة، عن رأسه هو (بحكمه وذاكرته وبديهته وخياله). وكان لا يقيم لنفسه وزنا حين يقارن نفسه بالآخرين. وقد أرغم كثيرا مع مرور السنين على تغيير رأيه في هذا الأمر ـ وقد يعتقد الناس أن ذلك أسعده وأرضاه كثيرا. أجل، كان الأمر كذلك شيئا ما، ولكن «امتزجت بذلك، كما قال هو ذات يوم، مرارة شديدة لم أعهدها من قبل في حياتي، لأنه منذ بدأت أنصف الناس ونفسي في أحكامي صار عقلي يبدو لي أقل نفعا، لا أعتقد كثيرا أنني لازلت أستطيع أن أبدي بعض الطيبة بفضله، لأن عقل الآخرين لا يعرف كيف يتقبلها، لقد صرت أرى دائما هاوية سحيقة تفصل الذي يمد يد العون عن الذي هو في حاجة إلى مساعدة. وهكذا يعذبني عناء توفري على عقل خاص بي وكوني مجبر على الإستمتاع به وحدي ليوفر بذلك المتعة للآخرين. ولكن العطاء يجعلني سعيدا أكثر من الإمتلاك، وماذا يكون أغنى رجل في بيداء موحشة!»

321. كيف نهاجم.

لا تكون دواعي الإيمان أو عدم الإيمان بشيء ما أقوى ما يمكن إلا لدى رجال شديدي الندرة. إننا لن نحتاج عادة، لكي نزعزع الإيمان بشيء ما، إلى حشد مدافعنا في الميدان قصد الهجوم، كثير من الناس من قد نبلغ منهم الهدف إذا انتقلنا إلى مهاجمتهم بإحداثنا ضجيجا لحد أنه تكفينا في الغالب بعض المفرقعات. أما الشديدو الغرور فيكفي أن تتظاهر بالهجوم الكاسح عليهم : إذ حين يرون جديتك يستسلمون طواعية.

322. المـوت.

قد يمزج احتمال الموت المحقق بكل حياة قطرة لذيذة وعطرة من الخفة ـــ وها قد جعلتم منه يا من لكم نفوس العطارين الغريبة، قطرة سم مقززة تحول الحياة كلها إلى إشمئزاز.

323. التوبـة.

لا تفسح المجال للتوبة أبدا، بل قل على الفور : توبتي تعني بكل بساطة إضافة حماقة ثانية إلى الأولى. ـ إن كنت قد فعلت شرا فلأفكر في فعل الخير. ـ إن عوقبت على أعمالي فلأتحمل ذلك وأنا أشعر أنني بذلك أفعل خيرا : إذ سأمنع الآخرين، وقد تملكهم الرعب، من ارتكاب نفس الحماقة. قد يشعر كل شرير تم عقابه أنه محسن إلى الإنسانية.

324. أن تصير مفكرا.

أنى للمرء أن يصير مفكرا إذا لم يكن يقضي على الأقل ثلث اليوم بعيدا عن الأهواء والناس والكتب ؟

325. أفضل علاج.

قليل من الصحة من هنا وهناك هو أفضل علاج للمريض.

326. ممنوع الإهتمام!

هناك أناس مرعبون عوض أن يحلوا مشكلة ما يعقدونها ويجعلون حلها صعبا على كل من يريد تكريس وقته لها. إنهم يدعون كل من لا يدرك الحل من الوهلة الإولى إلى عدم الإهتمام بذلك.

327. الطبيعة المنسية.

إننا ننسى أنفسنا حين نتحدث عن الطبيعة : نحن هم الطبيعة مع ذلك. ــ وبناء عليه فالطبيعة شيء مخالف تماما لما نشعر به حين نتلفظ باسمها.

328. العمق والضجر.

يلزم الشيء الذي يقع في فكر الرجال العميقين، كما في الأبار العميقة، وقت طويل كي يبلغ القعر. والمشاهدون، الذين عادة ما لا ينتظرون كثيرا، يعتبرون مثل هؤلاء الرجال خاملين وجامدين... بل مضجرين.

329. لحظة الإخلاص للنفس.

أحيانا نتيه في اتجاه فكري مناقض لملكاتنا الطبيعية، ولوقت معين نقاوم الموج والريح ببطولية، ونحن في الواقع نقاوم أنفسنا، يصيبنا التعب، نلهث، ولا يمنحنا ما نحققه أي فرح، فنعتقد أننا قد خسرنا كثيرا في نجاحاتنا. بل أسوأ من ذلك، نيأس من خصوبتنا، من مستقبلنا، ربما في أوج انتصارنا. وأخيرا، أخيرا نعود أدراجنا ــ فتهب الريح حينها مواتية لأشرعتنا وتوجهنا الوجهة الخاصة بنا. يا للسعادة! كم نشعر بنفسنا واثقين من النصر! حينها فقط نعرف من نحن وما نريد، حينها نقسم على الإخلاص لأنفسنا، ولنا الحق في ذلك، عن خبرة.

330. أنبياء الزمن.

مثلما الغيوم في السماء تكشف لنا اتجاه الرياح هناك في الأعالي فإن العقول الدقيقة والحرة تنبئنا، من خلال اتجاهاتها، ما سيكون عليه الطقس. ليست لريح الوادي ولا للآراء التي تعرفها الساحة العمومية اليوم أية دلالة بشأن ما سيأتي، وإنما فقط بشأن ما قد كان.

331. إسراع ثابت.

أولئك الذين يبدأون ببطء ويجدون صعوبة في التأقلم مع شيء ما يمتازون أحيانا فيما بعد بخاصية الإسراع الدائم، ــ بحيث لا يعرف أي أحد إلى أين قد يجرهم الموج.

332. الأشياء الجيدة الثلاثة.

الصمت والعظمة والشمس، تحتوي هذه الأشياء الثلاثة كل ما يرغب فيه المفكر ويطلبه لنفسه : آماله وواجباته، طموحاته في الميدان الفكري والأخلاقي، بل حتى في

أسلوب حياته اليومي، وحتى لما يتعلق بطبيعة مسكنة. وتقابلها أولا أفكار ترفع، ثم أفكار تهدئ، وثالثا أفكار تنير، ـ ورابعا أفكار من صنف هذه الميزات الثلاث، والتي يبلغ فيها الوجود الأرضي درجة التجلي* : إنه الملكوت الذي تسود فيه ثلاثية المرح.

333. الموت من أجل « الحقيقة ».

إننا لن نحترق من أجل آرائنا : لأننا غير واثقين جدا منها. وربما نحترق من أجل أن تكون لنا آراء ويكون لنا حق تغييرها.

334. أن تكون لك قيمتك.

إذا رغبت أن تساوي قدر كينونتك فلا بد أن يكون لك ثمنك. ولكن وحدها السلعة الرائجة لها ثمنها. وهكذا تكون هذه الرغبة إما نتيجة تواضع فطن ـ وإما نتيجة سفاهة بليدة.

335. موعظة للمهندسين المعماريين.

يجب نزع الإسقالة (échafaudages) حين يكتمل بناء المنزل.

336. صوفوكلية*.

من ذا الذي وضع في خمرة من الماء أكثر مما وضعه الإغريق! الصحو واللطافة هما الإمتياز الأرستقراطي للأثيني الذي عاش زمن بيركليس وبعده. فليقلده من شاء! في حياته وأعماله!

337. البطولة.

تقتضي البطولة أن يقوم البطل بشيء عظيم (أو ألا يقوم به، ولكن بطريقة تنم عن العظمة) دون أن يشعر أنه في منافسة مع الآخرين أو متقدم عليهم. وحيثما يذهب البطل فإنه يأخذ معه البيداء والنعيم المنيعين.

338. الطبيعة صنوتنا.

إننا نعيد اكتشاف أنفسنا ، برعشة ممتعة ،في كثير من المشاهد الطبيعية ، إنها أجمل صنوة لنا على الإطلاق . ـ كم سيكون سعيدا ذلك الذي يخامره هذا الإحساس هنا، في جو أكتوبر المشمس دائما، وسط هبات النسيم الفارهة والسعيدة طيلة اليوم، في هذا الصفاء الخالص وهذه البرودة المعتدلة، في الأناقة البسيطة لهذه الربى والبحيرات والغابات التي هي خاصية هذه الهضبة العليا الممتدة في غير خوف

عند منحدر الثلوج الأزلية المرعب، هنا حيث تزاوجت إيطاليا وفنلندا وحيث يبدو المكان وكأنه مهد كل النبرات الغنية في الطبيعة، ـ سعيد ذاك الذي يمكنه القول: «من المؤكد أن هناك مناظر طبيعية أعظم وأجمل، ولكني أجد هذا المنظر حميما ومألوفا لدي، إنه من دمي، بل وأكثر.»

339. دماثة الحكيم.

يكون الحكيم دمثا، بشكل تلقائي، في معاشرته للآخرين، مثل أمير، ويعاملهم كأنداد بكل عفوية، رغم كل الإختلافات في الموهبة، في الظروف وفي السلوك، ولكنهم بمجرد ما يتنبهون لهذا يحقدون عليه.

340. الذهب.

كل ما يلمع ليس ذهبا. إذ خاصية المعادن الأصيلة هي الإشعاع الخفي.

341. العجلة والحصار.

للعجلة والحصار أدوار مختلفة، ولكن لهما دورا مشتركا : مبادلة الآخر الأذى.

342. المفكر المنزعج.

على المفكر أن يلقي نظرة هادئة على كل ما يقطع عليه تفكيره (يعرقله، كما يقال) كما لو على موديل* جديد يجتاز عتبة الباب ليضع نفسه بين يدي الفنان. هذه المقاطعات هي الغربان التي تأتي المتوحد بغذائه.

343. النباهة الكثيرة.

النباهة الكثيرة تحفظ الشباب : ولكن عليك حينها أن تتحمل اعتبار الناس لك رجلا مسنا أكثر مما أنت فعلا. لأن الناس يقرأون في الخطوط التي ينحتها العقل كثيرا من آثار تجارب الحياة، أي أنها ناتجة عن كونك عشت كثيرا وعانيت في ذلك، عرفت المعاناة والتيه والتوبة. وهكذا نبدو لهم، حين نملك نباهة كثيرة ونظهرها، مسنين وأقبح مما نحن.

344. كيف تنتصر.

لا يجب أن نرغب في النصر إن كنا ننوي فقط أن نتوفق على خصمنا تفوقا يسيرا. على النصر المبين أن يهيء المهزوم للفرحة، يجب أن يكون فيه شيء سام جدا يوفر عليه الخجل.

345. وهم العقول المتفوقة.

هناك وهم تجد العقول المتفوقة صعوبة في التخلص منه : تعتقد أنها تثير حسد العقول الرديئة وأن الناس يرون فيها استثناء. والحقيقة أنهم يرون فيهم شيئا غير ضروري لن يشعروا، لو غاب، أنهم حرموا منه.

346. تطلب النظافة.

يعتبر بعض الناس تغيير الأراء، مثل تغيير الثياب، واحدا من متطلبات النظافة، ويعتبره أخرون، على العكس، متطلبا من متطلبات غرورهم فقط.

347. جدير ببطل كذلك.

هذا بطل لم يفعل شيئا سوى زعزعة الشجرة حين نضجت ثمارها. أترون هذا قليلا ؟ إذن ابدأوا بتدقيق النظر في الشجرة التي زعزعها.

348. بماذا نقيس الحكمة؟

يمكننا معرفة قدر ازدياد الحكمة بدقة من خلال قدر نقص الحقد.

349. قول الخطأ بطريقة كريهة.

لا يستسيغ كل الناس أن نقول الحقيقة بطريقة مستساغة. لكن لا يعتقدن أحد أن الخطأ يصير حقيقة حين نقوله بطريقة كريهة.

350. بحروف من ذهب.

لقد فرضت الكثير من القيود على الإنسان لجعله يقلع عن عادة التصرف مثل الحيوان، وبالفعل صار أكثر وداعة وذكاء وفرحا ورزانة من سائر الحيوانات. ولكنه مايزال يعاني من تقييده بهذه الأغلال مدة طويلة، بحرمانه مدة طويلة من الهواء النقي ومن حرية الحركة، والحالة أن هذه القيود، ولن أكف عن ترديد هذا، هي أخطر وأدق أخطاء الأفكار الأخلاقية والدينية والميتافزيقية. فقط حين يتم الشفاء من مرض القيود يكون الهدف الكبير الأول قد تحقق : انفصال الإنسان عن الحيوان. ـ إننا الآن في منتصف عملنا لتحرير الإنسان من قيوده، ويلزمنا في ذلك حذر كبير جدا. لا ينبغي أن تعطى حرية العقل إلا للإنسان الذي صار نبيلا، فهو وحده من يرى اقتراب تلطيف الحياة، وهو بلسم لجراحه، إنه أول من يستطيع القول أنه يحيا فقط لأجل الفرح لا غير، وفي كل الأفواه الأخرى يصير شعاره خطرا : السلم حولي والإستمتاع بكل الأشياء

الحميـمة. ــ ويذكره شعار بعـض المتوحدين هذا بكلمة قوية ومـؤثرة قيلت في الماضي، لنا نحن، ولكنهـا ظلت فوق الإنسانـية كلها شـهارا ورمزا قـادرين على إهلاك كل من يزين بهما رايتـه قبل الأوان، ــ وقد اهلكا المسيحيـة. يبدو أنه لـم يحن بعد الأوان الذي سيـسمح فيـه لكل الناس بمعرفـة مصيـر أولئك الرعاة الذين رأوا السـماء تضيء فـوقهم وسمعوا هذه الكلمة: «على الأرض السـلام وللناس البهجة.» ــ لايزال الزمن زمن أفراد متوحدين.

الظل: إن ما أعجبني أكثر من بين كل ما قلته هو الوعد الذي أعطيته : سوف تعودون جيرانا طيبين للأشياء الحميمة. سنستفيد من ذلك نحن أيضا معشر الظلال. فقد افتريتم علينا كثيرا حتى الآن، اعترفوا بذلك.

المسافر: افترينا عليكن ؟ ولم لم تدافعن عن أنفسكن إذن ؟ لقد كانت آذاننا قريبة جدا منكن.

الظل: لقد بدا لنا أن قربنا الشديد منكم لم يترك لنا داعيا لنحدثكم عن أنفسنا.

المسافر: يا للرقة! واها، إني أرى جيدا أنكن، أيتها الظلال، « رجال أفضل » منا.

الظل: ومع ذلك كنتم تصفوننا بأننا « مزعجات »، نحن اللواتي نتقن شيئا واحدا على الأقل، أن نصمت وننتظر ــ ليس هناك أي انجليزي يتقن هذا. صحيح أننا غالبا ما نرى في إثر الإنسان، ولكننا لا نكون أبدا في تبعية له. حين يفر الإنسان من النور نفر نحن من الإنسان : إلى هذا الحد تبلغ حريتنا.

المسافر : مع الأسف، إن النور يفر من الإنسان كثيرا، وبالتالي تغادرنه أنتن أيضا.

الظل: لطالما غادرتك وأنا أتألم، أنا الذي أرغب في المعرفة، لقد ظلت أشياء كثيرة في الإنسان غامضة بالنسبة لي، لأنني لا أستطيع أن أكون دائما بالقرب منه. إنني مستعد لأن أجعل من نفسي عبدا لك مقابل معرفة الإنسانية معرفة تامة وشاملة.

المسافر: وما يدريك، و ما يدريني، أنك ستتحول حينها بغتة من عبد إلى سيد؟ أو أنك ستحيا، إن بقيت عبدا محتقرا لسيده، حياة المهانة والنفور ؟ فلنرض كلانا بالحرية التي بقيت لك... لك أنت ولي أنا! لأن رؤية قن تفسد علي أكبر أفراحي، وأشعر بالإشمئزاز من أفضل أملاكي إن أجبر أحد على تقاسمه معي، ــ لا أريد عبيدا حولي. للسبب نفسه أكره الكلب، هذا الحيوان الطفيلي الخامل المبصبص بذيله، والذي لم يصر « كلبا » أكثر إلا بكونه عبدا للناس، وهم يذهبون إلى حد الثناء على وفائه لسيده واتباعه مثل...

الظل: مثل ظله، هكذا يقولون. وربما أكون قد تبعتك مدة طويلة هذا اليوم ؟ لقد كان يوما طويلا، ولكننا في آخره، صبرك فقط لحظة صغيرة. العشب مبلل، وإني أرتعش.

المسافر: أوه، هل حان وقت افتراقنا ؟ ها قد آذيتك مرة أخرى في النهاية، لقد رأيت كيف صرت أكثر قتامة.

الظل: إنما خجلت باللون الذي استطيعه. وسبب ذلك الفكرة الفجائية بأني كنت أرقد عند قدميك مثل كلب وأنك...

المسافر: فهل أستطيع فعل شيء لأرضيك ؟ هل لديك رغبة ؟

الظل: لا رغبة لدي، ربما فقط تلك الرغبة التي كانت لذلك الفيلسوف «الكلب»* أمام الإسكندر الأكبر: تنح قليلا عن شمسي، إني أشعر ببرد شديد.

المسافر: ماذا علي أن أفعل ؟

الظل: امض تحت هذا الصنوبر وانظر إلى الجبال وراءك، فالشمس قد مالت نحو المغيب.

المسافر: أينك ؟ أينك ؟

ثبت الأعلام والشذرات التي وردت فيها

سوف أشير بـ I للكتاب الأول و II للكتاب الثاني.

دليــــل عــربي فرنـــسي

Antithèse: نقيضة

Ambiguité: غموض

Bon plaisir: إرادة مطلقة – رغبة

Comique: هزلي. ملهاتي

Concept: تصور

Convention: تقليد

Cynisme: كلبية (انظر II آخر صفحة)

Dependance: تبعية

Depersonnalisation: لا شخصنة

Devenir (le): صيرورة

Dialectique: جدل

Dogmatique: وثوقي

Dramatique: مأساوي – تمثيلي

En-soi (L'-): الشي في ذاته

Entité: جوهر

Identique: مماثل – مطابق

Impassibilité: لا ألمية

Inconditionnel: لا مشروط

Intellectualité: عقلانية

Interiorisation: استبطان

Libre-arbitre: حرية الإختيار

Moralisme: أخلاقية

Necessité: ضــرورة

Obscurantisme: ظلامية (انظر I 27)

Occasionnel: عرضي

Parodie: محاكاة ساخرة

Philistinisme: مادية الثقافة (انظر المقدمة 1)

Poetisation: شعرنة

Posthume: بعدي

Pour-soi (Le-): الشيء لذاته

Reification: تمدية (جعل الشيء ماديا)

Renoncement: تخلي

Rétrograde: نكوصي

Rétrospectif: استعادي

Scepticisme: شكوكية

Semblance: مشابهة

Sentimentalité: عاطفية (انظر II 265)

Sophisme: مغالطة منطقية – سفسطة

Spiritisme: أرواحية (انظر I 12)

Stoicisme: رواقية (انظر II 216)

Suranimal: فوحيوان

Symetrie: تناظر

Thèse: أطروحة

Tragique: مأساوي

Vouloir-vivre: إرادة الحياة

Vraisemblance: استلاحة (مشابهة الحق

هوامـــش الكتاب مرتبـة على أرقـام الشـذرات

مقدمة

1- جرمانية.

12- الإعتقاد بأن أرواح الموتى تتصل بالأحياء، من خلال وسيط. (م)

26- صانع الملوك : شخص له نفوذ كبير في اختيار المرشحين للمناصب السياسية. (المورد)

27- نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة.

29- الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس، وترمز للعذاب الروحي أو العقلي. (م)

95- إله الحب عند الإغريق.

100- Penthésilée ملكة الأمازونيات (وهن نساء محاربات من بلادسكيـثيا) التي قتلها أخيل إبان حصار طروادة. (م)

144- أسلوب ساد في أوربا من أواخـر قرن 16 حتى أوائل قرن 18. وأهم ما يميـزه في المعمـار دقة الزخرفة وغرابتها والأشكال المنحرفة. أما في الأدب فيتميز بالتعقيد والصور الغريبة الغامضة. (م)

155- Orgue de Barbarie : أرغن صغير يمكن حمله. (م)

159- جزيرة يونانية، موطن عوليس (Ulysse). (م)

171- أسلوب معماري ازدهر في أوربـا من قرن 12 إلى قرن 16، ويتميز بالأقـواس الحادة الرأس، بالدعامات الخارجية للجدران، بالزخرفة التشـجيرية وبغنى في التفاصيل. وقـد رأى الرومانسيون أنه يمثل شيئا بدائيا، طبيعيا وحرا. (م)

177- Phidias أشهر نحات إغريقي. عهد إليه بيريكليس بتجميل أثينا.

220- المنادون بالمذهب الطبيعي القائل بأن العلم مؤهل لتعليل جميع الظواهر. (المترجم)

222- cella : جزء محجوب من معبد إغريقي أو روماني. (م)

consécrateur : الذي يجعل أو يعلن الشيء مقدسا. (م)

223- Argus عملاق ذو مائة عين كان مكلفا بحراسة إيو ابنة إناخوس التي حولها جوبيتر إلى عجلة، وقد حولت عيونه بعد موته إلى ذيل الطاووس. (م)

224- Juvénal : يعتبر أكبر شعراء الهجاء عند الرومان. (المورد)

Vénus : إلهة الحب والجمال عند الرومان. (المورد)

Hadès : مثوى الأموات في الميثولوجيا الإغريقية. (المورد)

انطبعت بطابع الحضارة الرومانية الفاتحة. (م)

226- الذي يقوم به واحد نيابة عن الآخرين. (المترجم)

227- يعمل في استقلال عن الآخرين، في غير خضوع لنظام ما. (م)

230- له علاقة بحفلات تكريس الأعضاء الجدد في جمعية ما وإطلاعهم على أسرارها. (م)

256- الإيمان بأن الفضيلة هي الخير الوحيد وأن جوهرها ضبط النفس. (المترجم)

301- سياسي ومشرع أثيني مشهور، عرف بنزعته الإصلاحية. وهو أحد حكماء اليونان السبعة. (م)

382- جوية : وحدة ضغط تعادل الهواء عند سطح البحر. (م)

401- Léthé : نهر في الجحيم تمحو مياهه ذاكرة الماضي، عند الإغريق. (م)

11- مذهب الذرة القائل بأن المادة مؤلفة من جواهر فردة، وأن الأجسام تتكون وتفسد باجتماع هذه الجواهر وافتراقها.

30- زوجة Amphion الذي بنى طيبة ناقلا الأحجار بالعزف على قيثارته. (م)

35- casuistique : دراسة أحوال الضمير وقضاياه.

60- لكلمة Vanitas في اللاتينية عدة معان منها : غرور، تفاهة، لا منفعة. (م)

73- procession : طواف بأشياء مقدسة داخل الكنيسة أو خارجها.

75- هي زوجة بيتوس كاسينا الذي تم إعدامه أيام الإمبراطور كلود اليوناني. (م)

81- الفريسيون : طائفة من يهود عهد المسيح عرفوا بالتمسك بالطقوس والتقوى الكاذبة.

85- Saul : اضطهد المسيحيين بشدة ولكنه اهتدى من بعد وخدم الكنيسة. (م)

149- contrepoint : لحن يضاف إلى آخر على سبيل المصاحبة.

scolastique : الفلسفة التي سادت القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، وقد بنيت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة، كما أخضعت الفلسفة للاهوت.

161- Lied : الليدة أغنية ألمانية.

182- Sirocco ريح جنوبية شرقية حارة.

183- interieur : متعلق بالشؤون النفسية والأخلاقية.

188- pharmacopée : دستور الصيدلة أو الأدوية.

201- cérébrale : تتطلب انتباها شديدا وتركيزا قويا.

215- يقصد سكان أوربا الجنوبية، خاصة جنوب فرنسا.

216- الرواقية مذهب فلسفي أنشأه زينون حوالي 300 ق.م ويقضي بتحرر الحكيم من الإنفعال أو التأثر بالفرح أو الترح وبخضوعه من غير تذمر لحكم الضرورة.

التمسك بالفضيلة بوصفه شيئا متميزا عن الدين.

Helvétius : فيلسوف فرنسي من قرن 18 قال بأن النشاط البشري قائم على المصلحة الشخصية. (م)

227- فيلسوف يوناني قال بأن المتعة هي الخير الأسمى، والفضيلة وحدها هي مصدر المتعة.

256- شاعر يوناني من قرن 8 ق.م، يعرف باب الشعر التعليمي عند اليونان. (م)

265- Hyperboréens : شعب سعيد اعتقد الإغريق أنه يقيم في منطقة شمالية تنعم بأشعة الشمس على نحو سرمدي.

Sentimentalité : الميل إلى التأثر بالعاطفة لا بالعقل. (م)

275- جدار أو دعائم تسند بها الأشجار. (المترجم)

285- أداة حديدية يقلب بها التراب. (لسان العرب)

فصل ما بين الدور والضياع. (لسان العرب)

الشجاعة والعدل والحكمة والإعتدال. (المنهل)

انظر الكتاب الثاني في المجلد الأول من إنساني مفرط في إنسانيته، الصادر عن أفريقيا الشرق، ترجمة محمد الناجي.

302- لعبة البولينج.

308- Pan : إله الحياة الغابوية والمراعي عند الإغريق، له قوائم وقرون تيس، وهو مبتكر الناي ذي السبع قصبات المسمى ناي بان. (المترجم)

313- nihil = nil في اللاتينية، ومعناها لا شيء أو عدم. (المترجم)

332- التجلي (Transfiguration) يعني تغير هيأة السيد المسيح على الجبل. يقابل نيتشه السماوي بالأرضي هنا في إطار هدمه القيم المسيحية وتأسيس قيم أخرى. (م)

336- نسبة إلى صوفوكليس، أحد أعظم المسرحيين المأساتيين الإغريق. (المترجم)

342- شخص يجلس أمام الفنان أو النحات ليستعين به على إبداع الصورة أو التمثال. (المورد).

الحوار الأخير بين الظل والمسافر

يقصد ديوجين، الفيلسوف اليوناني الذي دعا إلى التقشف وعاش في برميل. وقد عاصر الإسكندر الأكبر، وتوفيا كلاهما سنة 323 ق.م. كان كلبيا، أي مؤمنا، مثل الفلاسفة الكلبيين الآخرين، بأن الفضيلة هي الخير الأوحد وأن جوهرها هو ضبط النفس. (المترجم)

الفهـــرس

NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

إنسان مفرط في إنسانيته

كتاب العقول الحرة

II

لا تستخدم الآلة ، التي هي نتاج الملكة الفكرية العليا ، لدى الذين يستخدمونها سوى الطاقات الدنيا وليس الفكر . وبفعلها ذلك تطلق كمية هائلة من الطاقة التي لولاها لظلت كامنة ، هذا صحيح ، ولكنها لا تدفع المرء إلى التسامي ، إلى القيام بما هو أفضل ، لأن يصبح فنانا . إنها تجعله نشطًا مكررًا نفس العمل بانتظام ، ولكن هذا يثير على التمادي رد فعل ، يثير في الروح ضجرًا يائسًا تتعلم من خلاله أن تطمح إلى تسليات الكسل .

نيتشه



Robert Motherwell

لوحة دون عنوان 1967

ISBN 9981-25-193-3

ردمك 9789981251939